جامعة القديس يوسف
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
(معهد الآداب الشرقية)
بيروت

أعراب بلاد الشام
في عهد المماليك

(٦٤٨-٩٢٣ / ١٢٥٠-١٥١٧)

أطروحة دكتوراه في العلوم الإنسانية
(تاريخ)

أعدها : محمد صبحي نهار الشناق

أشرف عليها
الأب الدكتور: لويس بوزيه

(١٤٢٠-١٤٢١ / ١٩٩٩-٢٠٠٠)

المقدّمة

المقـــــــــــدمـــة

لمْ يكنِ التفكيرُ في اختيارِ موضوعِ هذه الأطروحةِ وليدَ المصادفة ، وإنّما ســبقه إعدادٌ فكريٌّ منذ كُنتُ أحضّر لدرجة الماجستير عن " الظاهر برقوق " كمؤســسٍ لدولــةِ المماليك الجراكسة. فقد لفتَ نظري مكانةُ أعرابِ الشام كفئةٍ اجتماعيةٍ حاول الممــاليك تهميشَها ، ولكنّها رفضت تسلّطَ المماليك ، ولمْ تهادنْهم كتلك الفئاتِ التي انساق قسمٌ منــها وراء سياسةِ المماليكِ للحفاظِ على امتيازاتٍ ومكاسبَ آنيةٍ ، وقسمٌ انزوى عن المواجهــة خوفاً من بطش المماليك . فقد فرضوا أنفسهم علـــى الســلطةِ المملوكيــةِ فــاضطرّت لاستيعابهم في نُظُمها الإدارية .

وما إنْ حَصلتُ على درجةِ الماجستير عام ١٩٩٣ ، حتى تجمّعت لديّ خطــوطٌ عريضةٌ عن حركة هؤلاء الأعراب ونشاطِهمُ الكثيفِ داخلَ المجتمع المملوكيّ في بـــلاد الشام طَوالَ ثلاثةِ قرونٍ تقريباً امتدّت من سنةِ (٦٤٨ - ٩٢٣ / ١٢٥٠ - ١٥١٧) ، ممّــا لفتَ نظري وجعلني أخصّص هذه الأطروحةَ بهم تحت عنوان " **أعرابُ الشام في عـــهد المماليك** " متّخذاً في المدّة الزمنيّة المذكورة إطاراً زمنياً لها ، كـــي لا تــؤدّيَ الرقعــةُ الجغرافيةُ الواسعةُ للدولة المملوكية يومذاك إلى تشعبٍ في البحث ، فقد اقتصرت على بلاد الشام كرقعةٍ جغرافيةٍ تتحركُ آليةُ البحثِ فيها وتنحصر بها ، ذلك لأنّ الأعــرابَ - كمــا سيبدو ومن خلال هذا البحثِ - قد لعبوا دوراً كبيراً في تشكيل تاريخ هذه الرقعةِ في هــذا العهد .

ولمّا كانت الدّراساتُ الحديثةُ عن أعراب الشام في عهد المماليك غيرَ كافيــةٍ* ، فقد رَغِبْتُ في إبرازِ ذلك الدورِ الذي قام به هؤلاءِ الأعرابُ في ظلّ دولــــةِ المـــاليك ، ومدى انضباطهم وتأثيرهم بالسياسة الداخليّةِ والخارجيّةِ المملوكيّة.

ومن جهةٍ أخرى ، لعلّ هذه الدراسةَ تعدُّ إسهاماً في الدراساتِ التاريخيةِ الحديثــةِ التي تهدفُ إلى إخراجِ كتابةِ التاريخ من سجلٍّ لحياةِ السلاطينِ والملوكِ إلى اهتمام بدراسة حياةِ الشعوبِ وتاريخها الاجتماعيّ والاقتصاديّ . كما أنّ إبرازَ أعـــرابِ الشـــامِ كفئــة اجتماعيةٍ يُعدّ إطلالةً على بادية الشام يمكنُ أنْ تَلْفِتَ نظرَ الحكوماتِ المعاصرة إلى زيــادة الاهتمام بالبادية وأعرابها ، ومحاولةِ توطينهم وتحضيرهم في باديتهم .

هذا كلّه يدفعنا إلى طرح تساؤلات عدّةٍ لتكون بمثابةِ أعمدةٍ ترتكـــزُ عليـــها الدراسةُ على النحو الآتي :-

---

* انظر : تقويم المراجع الحديثة ، ص : ك جـــ ، ك د .

- من هم المماليك ؟ ومن هم أعراب الشام ؟
- كيف تعاملت السلطة المملوكية مع أعراب الشام ؟
- كيف نظر أعراب الشام إلى المماليك ؟
- ما الإجراءات التي اتخذتها السلطة المملوكية بحق أعراب الشام ؟ وما موقف هؤلاء الأعراب من تلك الإجراءات ؟
- ما المهام التي أوكلها المماليك لأعراب الشام ؟ وما مدى التزام هؤلاء الأعراب بتنفيذها ؟
- ما موقف أعراب الشام من صراعات المماليك على السلطة ؟ وما موقفهم من القوى الخارجية التي هدّدت بلاد الشام ومصير الدولة المملوكية ؟
- وأخيراً ، هل البدوي هو ذلك الإنسان المتهم بالخشونة والتخريب ؟ وإذا كان البدوي مناط اتهام بهذه السلبيات ، فما أسباب هذه السلبيات؟ وهل كان للمماليك إسهام في هذه السلبيات ؟ وهل تتفق هذه السلبيات مع صفات المماليك ؟

ولمّا كانت دراستنا تتمحور حول قطبين ، هما : أعراب الشام والمماليك ، فقد حاولْنا الوقوف على طبيعة النظام المملوكيّ كنظامٍ أرستقراطيّ عسكريٍّ متمركز في القاهرة، وبيان أنّ المماليك " دخلاء " على مصر والشام ، حديثو الإسلام تبوّؤوا دفّة الرئاسة بصورة عنيفة مفاجئة ، لا يعرف أغلبهم إلاّ أطيافاً من اللغة العربية وتعاليم الإسلام .

وبالمقابل ألقيْنا الضوء على أعراب الشام ، وتوزيع قبائلهم في نواحي بادية الشام تابعين للتقسيمات الإدارية المملوكية في بلاد الشام . وهؤلاء الأعراب متأصّلون في اللغة العربية والإسلام منذ أجيال متعدّدة ، يعتزّون بأصالتهم العربية وبنسبهم العربيّ العريق ، وعقيدتهم الإسلامية التي فُطروا عليها .

ومن هُنا ، تبرز إشكالية مهمّة وهي إشكالية ثنائيّة العقليات والذهنيّات المتضاربة عند كلٍّ من أعراب الشام والمماليك . فعقليّة المماليك تتعامل مع هؤلاء الأعراب على أنّهم مجرّد فئة اجتماعية تابعة لسلطاتهم ، لا يحقّ لها أن تتجاوز حدود فئتها ، ولا بدّ من استيعابها من خلالِ نظم الإدارة المملوكية . وهكذا استحدثت السلطة المملوكية منصباً إدارياً أطلقت عليه مصطلح " **إمْرة العرب** " واعتبرته وظيفةً رسميّةً يمكّنها من خلاله استيعاب هؤلاء الأعراب وبالتّالي إرضاء جانب من طموحاتهم السياسيّة .

وبالمقابل كانت هناك عقليّة الأعراب التي قادت إلى نوع من الإحساس بأحقيّتهم في حكم أنفسهم ، وبالتّالي إخضاع المماليك الدخلاء لحكمهم • لكنّ إحساسهم هذا يكاد يتنافى مع واقعهم ، فقوّة المماليك العسكرية في وضعٍ يمكّنها من إخضاع جميع الفئات السكانيّة بما فيهم هؤلاء الأعراب ، والقيام بدور الوسيط (الحكَم) بين القبائل العربية الغارقة في خلافاتها، مما جعل السلطة المملوكيّة مؤهلة للقيام بهذا الدور •

كلُّ هذا ، جعلنا نقدّم الفصل الأول بصورةٍ تمثّل الإطار الشامل للدراسة على امتداد الفترة الزمنية ذات الصّلة • فأوْجَزْنا الوصف الجغرافي لبلاد الشام وتقسيماتها الإداريّة لما لها من تأثير بيئي وسياسي على أعراب الشام • وحتّى تكون صورة تَوَزُّع القبائل العربية في بادية الشام أكثر وضوحاً فقد رَسَمْنا خرائط توضّح جغرافية بلاد الشام وتقسيماتها الإداريّة وتوزُّع هذه القبائل فيها • وقد قادنا ذلك إلى تصميم أكثر من شجرةِ نسب للقبائل العربية وأمرائها ، واستَخْلَصْنا جَدْولاً يوضّح أسماء أمراء العرب الذين عاصروا سلاطين المماليك•

وبالرغم من التناقض الواضح في عقليتي المماليك وأعراب الشام ، فإنّ المماليك تنبّهوا إلى أهمية بادية الشام ، كما تفهّموا تلك الطبيعة البدويّة لسكّانها ، فأوكلوا إليهم مهمّة حفظ أمن البادية الشاميّة لأنّ طُرَقَ البريد والتجارة والحجاج تَعْبُرُ منها ، فجاءت نتائجها لصالح هؤلاء الأعراب والمماليك •

ولمّا كانت بادية الشام تُتاخم حدود العراق وآسيا الصّغرى ، فإنّ السّلطة المملوكيّة عَمِلَتْ على إشراك أعراب الشام في الدّفاع عن بلاد الشام وهو دفاعٌ عن سيادة الدولة المملوكيّة ، وحِفْظِ حدودها من الأعداء •

لهذا اعتَبَرت قوّات الأعراب جزءاً من قوّاتها العسكريّة الفعليّة والاحتياطيّة • وكذلك اعتبرت قوّات الأعراب مصدراً أساسياً لتأمين احتياجاتها من الخيل والإبل والأغنام • وبالمقابل أدرك الأعراب هذا الدور فأتقنوه •

إنّ هذه المواقف دفعتنا لأَنْ نسوقَ كلّ ذلك في الفصل الثاني من الدراسة لإبراز تلك الأدوار الفاعلة والمؤثّرة لأعراب الشام في الإجراءات المملوكيّة الإيجابيّة•

كانتْ تلك المهام التي أوكلها المماليك لأعراب الشام إيذاناً بإعدادهم بصورةٍ مقصودةٍ في سياسةِ الدولة الداخلية أحياناً ، وبصورةٍ غير إرادية فرضتها ضرورات مُلحّة عليهم للتدخّل في سياسة المماليك الداخلية ، وبمعنىً أدق لخدمة مصالح الأعراب•

لَقدْ ذكرنا أنّ الخلافات بين القبائل العربية كانت مبرّراً مناسباً لتدخّل السّلطة المملوكيّة في شؤون أعراب الشام واعترافهم بسلطتها • وفي الوقتِ نفسه أصبحت بلاد الشام مَسْرحاً للصراعاتِ المملوكيّة على السلطة ، وملاذاً يكاد أن يكون آمناً للأمراء

المماليك المنشقّين عن القاهرة ، وبيئة صالحة تمكّن السلاطين المخلوعين وكبار أمــــراء المماليك المنفيين من العمل فيها والإعداد لعودتهم إلى السلطة في القاهرة .

لذلك سمحت هذه الاعتبارات لأعراب الشام باتّخاذ مواقف مؤيّدة أو معارضة من حركات التمرّد المملوكية ، ومساعدة السلاطين بالعودة إلى عروشهم أحياناً . لكنّ هــذه المواقف دفعت السلطة المملوكية لاتخاذ إجراءاتٍ عنيفة ضد أعــــراب الشــام وســحب إقطاعاتهم، مما دفعهم للجوء إلى بلاد المغول في العراق وإن كان مؤقتاً إلى حين ، إذ لــم يُفرّط أمراء العرب ببلادهم وأوطانهم حينما تعرّضت للخطر المغولي .

هكذا جاء الفصل الثالث ليعالج مدى مشاركة أعراب الشام في سياسة الممـــاليك الداخلية ، والآثار التي ترتبت على العلاقة بينهم وبين دولة المماليك من خـــلال تفــاعل سلاطينها إيجاباً وسلباً مع هذه المشاركة .

واختصّ الفصل الرابع، بإلقاء الضوء على المواقف الفاعلة والمكمّلــة لمواقــف أعراب الشام السابقة ، والتي تمثّلت بموقف أعراب الشام من الأخطار الخارجيّة التــــي هدّدت كيان الدولة المملوكية وسيادتها . فقد تنبّه أعراب الشام إلى أنّ هذه الأخطـــار لا تفرّق بين مملوك وبدوي أو بين القاهرة ودمشق .

وإذا جاءت خاتمة هذه الأطروحة بصورة غير مألوفة للقارئ في حَجْمِها وشَكْلِها كما هو معتادٌ في الرسائل والأطاريح الجامعية ؛ فإن طبيعة هذه الدراسة دفعتنا لاختيـــار نماذج للعلاقات الإيجابيّة و السلبيّة بين أعراب الشام والمماليك ؛ واستعراضها من خــلال جدول زمني قابل للتحليل وإصدار الأحكام. كلّ ذلك ساعدنا في استخلاص النتائج التـــي توصّلت الدراسة إليها.

ولمّا كانت أخبار دراستنا متناثرة بشكل إشارات في مصادرها التاريخيّة الرئيسيّة (الحوليات) و(الموسوعات) ، فقد اعتمدنا (المنهج التحليلي) . فحيـــن بخلــت تلــك المصادر بأخبار الشام ، لجأنا إلى تحليل النصوص التاريخيـــة ذات الصلـــة بالمراســيم والمناشير السلطانيّة الصادرة عن ديوان الإنشاء المملوكي ، وقد أعاننا هذا التحليل فــــي التوصل إلى معلومات تتعلق بمكانة أمراء العرب وألقابهم ، حتى تلك المهام التي أوكلـــها سلاطين المماليك لأمراء أعراب الشام ، وتحديد العلاقة بين الطرفين.وبالرغم من قلّة هذه النصوص فإنها ساعدتنا في تلمّس معلومات على قدر كاف من الأهميـــة بالنســبة إلـــى أهداف هذه الدراسة.

كما أنّ دراسة تراجم الأعيان والأمراء والسلاطين التي عُني بها مؤرخو عصـــر المماليك ساعدتنا على استقراء عقليات أمراء العرب وسلاطين وأمراء المماليك وذهنيّاتهم، فكان (المنهج المقارن) أساساً لدراسة هذه التراجم ، ومرتكزاً في دراســــة روايـــات

المؤرخين سواء أكانت متماثلة أم متباينة . من هنا لم نسلّم بروايات عديدة رغم قرب أصحابها من الحدث ، والتزمنا جانبَ الحذر والتحفّظ أحياناً من هذه الروايات .

وقد اعتمدنا أسلوب (السرد التاريخي) أحياناً لضرورات اقتضتها طبيعة المعلومات والأخبار التاريخية ذات الصلة بالموضوع كما جاء في (الفصل الأول) من الدراسة . لذلك اقتضت ضرورة البحث إثبات الإطار الشامل للدراسة عن القبائل العربية في أنسابها وتحديد أمرائها ومن عاصرهم من سلاطين المماليك ، على مدار الفترة الزمنية ذات العلاقة بالدراسة ، وتوزيع القبائل العربية في بادية الشام . ولذلك سيتكرّر في الدراسة ذكر أسماء القبائل العربية وأمرائها في سياق معالجة الموقف وإلقاء الضوء عليه من جوانب مختلفة .

وأما (المنهج التقريري) فقد اعتمدناه في استخلاص وصف مناسب للمناطق الجغرافية المتصلة بموضوع الدراسة ، وسير بعض المعارك ، ووصف دروب الحجاج والتجارة والبريد . هكذا ، يتبين للقارئ أنّ هذه الأطروحة استفادت من المنهجيّات السابقة ، فأظهرت بشكلٍ يكاد يكون واضحاً في تحديد منحنيات هذه الدراسة ومُدخلاتها .

ومن هُنا ، اعتمدنا على المصادر التاريخية المعاصرة، وتلك المكمّلة للفترات الزمنية للبحث، حتى غدت متماسكة دون انقطاع . ومن أهم هذه المصادر - على سبيل المثال لا الحصر - ما يأتي :-

لقد اعتمدنا في وصف أعراب الشام وأنسابهم وأمرائهم ، وجانبٍ من أدوارهم على ابن الله فضل الله العمري في مؤلّفيهِ مسالك الأبصار ، والتعريف بالمصطلح الشريف ، وعلى مؤلفات القلقشندي : قلائد الجمان ونهاية الأرب وصبح الأعشى . وكذلك على كتاب زبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهري .

كما كان لكتب التراجم للأعيان والأمراء والسلاطين أهميّة في التعريف بهذه الشخصيّات والتعرّف إلىعقليّاتها أحياناً ، ومنها :

الدُّرر الكامنة لابن حجر ، والوافي بالوفيات للصفدي ، والمنهل الصافي لابن تغري بردي، والضوء اللامع للسخاوي ،وكذلك المؤلفات الأخرى التي تعتمد على منهج الحوليّات فزوّدتنا بتراجم المتوفّين في نهاية كلّ عام .

وكان لمؤلفي السِّير أهمية تاريخية و منهجيّة لدراستنا ، ومن هؤلاء : ابن شدّاد، وابن عبد الظاهر ، واليوسفي ، حيث مكّنتنا العودة إلى مؤلّفاتهم من الإطّلاع على مدى تأثيرهم على مؤرخي السِّيَر الذين جاءوا بعدهم ، والموازنة بين أسلوب هؤلاء وأولئك في

تناولِ السيّرة وتوظيف الخبر . وبصورة أدق ، أصبحت مؤلفاتهم مصـــدرا للمؤرخيـن الذين جاءوا من بعدهم .

وأمّا مؤرخو القرن التاسع الهجري ، فقد تناولوا أخبار تلك الفترة وشـــخصيّاتها بصورة منتظمة بدءاً بابن خلدون ، وابن الفرات ، والمقريزي ، وابن قاضي شهبة ، وابن حجر ، والعيني ، وابن تغري بردي .

ولم تَقِلَّ أهميّة مؤلفات ابن طولون الصالحي : إعلام الورى ، ومفاكهة الخلان ، وابن إياس في بدائع الزهور عن المؤلّفات السّابقة . فقد كانت مؤلفاتهما من أهم وأخطـر المصادر التي غطّت نهاية عصر المماليك . ولعلّ ابن إياس كان الشـاهد الوحيـد مـن المؤرّخين على نهاية الدولة المملوكيّة وقيام الدولة العثمانيّة بما قدّمه من وصف دقيق لهذه النهاية .

إن استعانتنا بمصادر القرنين التاسع والعاشر الهجريين وفّرت فرصـــةَ متابعـة الأحداث الناتجةعن طبيعة الموضوع " أعراب الشام " حتى نهاية العصر المملوكي. فقـد كانت الأخبار ذات الصلة بالموضوع نادرة أحيانا حيث كُنّا نضطرّ إلى الإطـــلاع علـى مؤلَّفٍ ما بكامله للحصول على معلومة نَبْني عليها فروضًا تاريخية .

ومن المواقف التي لم تُسعفنا المصادر التاريخية التي توفّرت لدينا قلة المعلومات وندرتها عن " الأحلاف القبلية " عند أعراب الشام في عهد المماليك . كما أننا لمْ نجد ذلك الوصفَ الدقيق لكتائب العرب القتالية . وكذلك فإنّ مصير العَلاقات البدويّـة المملوكيـة تكاد أخبارها أن تنقطع بعد ابن تغري بردي ، وإن أَسعفنا ابن إياس وابن طولون بها عـن نهاية عصر المماليك .

ولكنّ أشدّ تلك الصعوبات التي اعترَضَتْنا في تكويـن فكـــرة عـــن مـــدى مشـــاركة أعراب الشام في الصراع بين المماليك والعثمانيّين ، وموقف أعراب الشام من المواجهاتِ الحاسمة . ومن الجدير بالذكر أنّ أغلب المؤلفـات الحديثـة فـي مدارسـنا وجامعاتنا العربية تبنّت وجهة النظر العثمانية في الصراع المملوكي- العثماني ، وهو أمر بحاجة إلى إعادة النظر فيه من خلال دراساتٍ معمّقة يقوم بها باحثون جـادّون . ولعـلّ البحث الدؤوب والمتواصل يضع هؤلاء على مصادرِ تسعفهم في إعادة النظر هذه التـي لـم تتوفّر في دراستنا .

وأما الجوانب التي لم نتناولها هذه الدراسة ، فقد تركزت على ثوابــت مجتمـع أعراب الشام ، وهي تلك العادات والتقاليد ووصف زِيّ العربان وبيوتـــهم وخيلـهم ، إذْ يمكنُ القول بأنّ عادات وتقاليد البدويّ من كرمٍ وشجاعةٍ وزواجٍ وقضاء لم تتغيّر تمامـا ،

فهي من الثوابت التي لم تتغير في العصر المملوكي ٠ ورغم ذلك ، فإن بعض الدراسات الحديثة التي توفّرت ركّزت على هذه الثوابت ، ككِتاب " عشائر الشام " لأحمد وصفي زكريا ، الذي لم يكن نصيب أعراب الشام في عهد المماليك فيه سوى عدد قليل من الصفحات ، وتركّزت معظم الدراسة على وصف مجتمع عشائر الشام ، وقد اتصفت هذه الدراسة بالنمطيّة والعموميّة ، فالعادات والتقاليد التي لمسها المؤلف في القرن العشرين هي تلك الثوابت التي لم تتغيّر منذ ما قبل الإسلام وحتى حاضرنا ٠ وكذلك أحدث دراسة صدرت عام ١٩٩٧ ، في كتاب " تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي " لمحمود السيد" الذي تركّزت فيه الدراسة على العصبية العربية منذ ما قبل الإسلام حتى عهد المماليك ٠ لذلك كله ابتعدنا عن هذه الثوابت بالرغم من أنّنا تلمّسنا بعض آثارها في عقلية أعراب الشام ٠

وأما الدراسات الأجنبيّة ، فلم يتوفّر لدينا فيها كِتابٌ يتحدث عن أعراب الشام في عهد المماليك ، وإنّما كانت دراسات عامة عن المماليك ، واقتصاد دولة المماليك ، وحركات التمرّد المملوكيّة ، والصراعات بين المماليك والصليبيين ، والمماليك والعثمانيين .

• تقويم المصادر والمراجع :-

لمّا كان المجال الزمني لموضوع الأطروحة يمتد طوال فترة حكم المماليك - نحو قرنين ونصف من الزمن - فقد تعدّدت مصادر البحث ومراجعه ٠ لذلك اخترنا عدداً من المصادر الرئيسة والأساسية ، واعتمدنا تصنيفها تاريخياً من الأقدم إلى الأَحْدَث ، ثُمّ أَتْبعناها بالمراجع الحديثة ورتبناها ألف بائياً حسب المؤلفين ٠ كلّ ذلك لتسليط الضوء على مدى الفائدة التي جنيناها من هذه المصادر والمراجع في تشكيل البنية الأساسيّة للدراسة ٠

أولاً - المصادر العربية :-

١- ابن شدّاد ، عز الدين محمد بن علي ابراهيم (- ١٢٨٥/٦٨٤)٠- تاريخ الملك الظاهر ٠- تحقيق أحمد حطيط.- فيسبادن (المانيا) : فرانز شتايز.- ١٩٨٣/١٤٠٣ ٠- ٢٩+٣٣٢+٨٦ ص ٠

ابن شدّاد ، مؤرّخ وجغرافي حلبي ٠ عاش في ظلّ الأحداث الدامية بين المماليك والصليبيين ، وبين المماليك والمغول ٠ ولمّا هاجم المغول حلب سنة ١٢٦٠/٦٥٨ ، تركها ابن شداد مهاجرا إلى القاهرة ، فلقي هناك عنايةً خاصةً من الظاهر بيبرس ٠

وتتبّع أهمية أخباره بأنه شاهد عيان لها ، وأنّ مصادره الأخرى اقتصرت على ما سمعه ممن يثق بهم من رجال الدولة ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ (حكى لي فلانا٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ومن أثِقُ به ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠) ٠

ورغم قِصَرِ الفترة التي أرّخ لها ابن شداد (٦٧٠-١٢٧١/٦٧٦-١٢٧٧) فإنّ أخباره شكّلت مصدرا أساسيا عن أمراء أعراب الشام من خلال التراجم التي زوّدنا بها - ترجمة لزامل بن علي بن حديثة المتوفّي سنة ١٢٧١/٦٧٠ ، ومدى علاقته بالظاهر بيبرس٠ كما أكّد على جانب الوفاء السلطاني لعربان الشام وفي مقدمتهم أمير العرب عيسى بن مُهنّا الذي ظلّ يتعاون معه حتى وفاته ٠ وقد ركّز ابن شدّاد على تلك العلاقة الوثيقة بين بيبرس وعيسى بن مهنا ٠ فقد كلّفه برصد حركات المغول من الرحبة حتى مخاضات الفرات ٠ كما كلّفه بمحاصرة حُصن القصير واشترك معه في تحريره من أيدي الصليبيين سنة ١٢٧٥/٦٧٤ ٠ وقد كان أخر تعاون بينهما سنة ١٢٧٦/٦٧٥ حين كلّفه بغزو أُبلستين ، وقد ظلت أخبار ابن شداد مصدرا أساسيا لمن أرّخ للفترة نفسها ٠

٢- بيبرس المنصوري ، ركن الدين بن عبد الله الدوادار (-١٣٢٥/٧٢٥)٠-

(أ) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة٠- القاهرة : مكتبة جامعة القاهرة ، مخطوط ، رقم : ٢٤٠٢٨ ٠-ج٩ ٠

(ب) التحفة الملوكية في الدولة التركية٠- تحقيق عبد الحميد صالح حمدان٠- القاهرة : الدار المصرية - اللبنانية ، ١٩٨٧/١٤٠٧ ٠- ١٦+٢١٨+٤٧ص ٠

يُعدّ بيبرس المنصوري شخصيةً فذّةً في تاريخ المماليك الأتراك ، فهو مملوك تركي اشتراه قلاوون وربّاه مع أبنائه ، فتعمّق في اللغة العربية ، ودأب على القراءة والكتابة ٠ وقد عاش حياة حافلة بالأعمال الجليلة والوظائف الخطيرة ، فتولّى الإشراف على ديوان الإنشاء سنة ٦٩٣ / ١٢٩٤ ، كما تسلّم منصب نائب السلطنة سنة ١٣١١/٧١١ ٠

ومن هنا ، تبرز أهمية مُؤلّفيه ، زبدة الفكرة ، والتحفة الملوكية ، فقد سلّط فيهما الضوء على أحداث الفترة (٦٤٨ - ٧٠٩ / ١٢٥٠ -

١٣٠٩) في الزبدة وأضاف عليها نحو ثلاث سنوات في التحفة حتى سنة (٧٠٠ / ١٣١١) • وبذلك يكون بيبرس المنصوري قد زوّدنا بأمور هامة ، منها :

- مشاركة أعراب الشام (آل فضل) للمماليك في مواجهة الخطر المغولي ثلاث مرات، الأولى مشاركة عيسى بن مُهنّا للظاهر بيبرس في مواجهة المغول، والثانية ، مشاركته لقلاوون في معركة حمص ، والثالثة مشاركة مهنّا بن عيسى للناصر محمد بن قلاوون في شقحب • وقد بيّن دور العرب الفاعل والمؤثّر في إحراز النصر على المغول ، وذلك بفضل التعاون المملوكي - البدوي •

- موقف آل فضل من ثورة (سنقر الأشقر) الّتي لاقت التأييد من عيسى بن مهنّا، وكذلك ثورة (قرا سنقر الجوكندار) التي لاقت كلّ التأييد من مهنّا بن عيسى• ورغم هذه المواقف السلبية بالنسبة للسلطة إلاّ أن الخطر المغولي المشترك دفع أعراب الشام للتعاون مع المماليك •

- رغم أهمية المعلومات التي قدّمها لنا بيبرس المنصوري ، إلاّ أنه تحامل على الأعراب حين اتهمهم بتأييد المغول أو تحريضهم على غزو الشام لكنّ ذلك كان دون تمحيص • ولهذا ، ردّد بعض المؤرخين هذه الأخبار ، بينما رفضها آخرون كاليونيني وابن كثير •

٣- اليونيني ، قطب الدين موسى بن محمد (-٧٢٦ / ١٣٥٦)•- ذيل مرآة الزمان•- **القاهرة : دار الكتاب الإسلامي ، ١٤١٣ / ١٩٩٢ • (نسخة مصورة عن طبعة الهند) •- ٤ ج :**

ج١ : ٥٧٥ + ٣٢ ص •

ج٢ : ٤٩٠ + ١٧٥ ص ، فهارس •

ج٣ : ٤٥٣ + ٨ ص •

ج٤ ٣٣٦ + ٣٩٣ فهارس.

كان اليونيني مؤرخاً دمشقياً شامياً ثقة في رواياته التاريخية بما سمعه أو قرأه أو شاهده • وقد صرّح اليونيني بمصادره التي اعتمد عليها في تأريخ الفترة الأولى (٦٥٤ -١٢٥٦/٦٧٠-١٢٧١) ، فنقل عن (ابن الجزري) وعن(محيي الدين بن عبد الظاهر)

وما سمعهُ من قضاة الشام وفقهائها . وأما الفترة الثانيــة (٦٧١- ٦٨٦/١٢٧٢- ١٢٨٧) فقد كان قريباً من الأحداث وشاهد عيان لها.

اهتمّ اليونيني بأمر الغزو المغولي لبلاد الشام منذ ٦٥٨/١٢٦٠ ، وأظـــهر كـلّ الرضا عن انتصار (قطز) في عين جالوت ، كما أكد على دور أعراب الشام في هـــذه الموقعة . وتوقّف كثيراً عند دور الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسيّة ونَقْلِ مقرّها من بغداد إلى القاهرة . وبين دور أعراب الشام واهتمامهم بإحياء الخلافــة العباســية . ثـُمّ توقّف عند جهود بيبرس الإداريّة واهتمامه بالبريد وحفظ عرب الشام لمحطّاته ومراكزه .

وأمّا الجزء الرابع الـــذي تَضَمّــنَ الفــترة (٦٧٨-٦٨٦/١٢٧٩-١٢٨٧) فقــد خصّصها للمنصور قلاوون ، وعالج ثورة سنقر الأشقر ، وتأييد عيسى بن مـــهنّا أمـــير العرب ، وأحمد بن حجي أمير آل مرا ، لتلك الثورة . ورغم خروج الأمير عيسى بـــن مهنّا من بلاد الشام إلى برّيّة العراق ، إلاّ أنّ المقام لم يَطُل به ، إذْ عاد إلى الشام عندمـــا أحسّ بالخطر المغولي يُهدّد بلاده ، فأكرمه قلاوون ، وأشركه وابن حجي فـــي معركـــة حمص سنة ٦٨٠ /١٢٨١ ، وأكّد على أثرهما في تحقيق النصر على المغول . والجديـــر بالذكر أنه عارض (بيبرس المنصوري) الذي اتّهم عيسى بن مهّنا بمراسلة المغول مـــع الأشقر لاحتلال الشام .

هذا ولم يتيّسر لنا الاطلاع على الأجزاء الأخــــرى التــي شــملت الفــترة بعــد ٦٨٦/١٢٨٧.

٤- أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل بن علي ، صاحب حمـاه (-٧٣/١٣٣١).- <u>المختصر في تاريخ البشر</u>. - القاهرة : مكتبة المتنبي ، لا.ت.-جــزءان ، ٣ ، ٤:٢١٩+٥ ، ١٥٥+٥ ص .

وفي آخره تتمه لابن الوردي (-٧٤٩/١٣٤٨) ، ص : ١٠٤-١٥٥ .

كَتَبَ أبو الفداء تاريخه في مجلّدين ، وقسّم كلّ مجلدٍ إلى جزأين ، فجـــاء مؤلّفـــه معبراً عن عنوانه . وما يهمّنا من مؤلّفه هو المجلد الثاني بجزأيه الثالث والرابع . وقـــد أرّخ أبو الفداء فيهما لدولة المماليك الأتراك حين كان صاحب حماة ، ومشاركاً في صنـــع الأحداث.

يربُطنا أبو الفداء بأعراب الشام منذ أيّام (قطز) ٦٥٨ / ١٢٦٠ حين أقطع ســـلميّة لأمير العرب عيسى بن مهنا. ولما عمّت الفوضى في بلاد الشام بعد هزيمة المغول ومقتل

قطز ، تنبّه الظاهر بيبرس إلى مكانتهم ، فأشركهم في مواجهة التتار ، وكذلك فعل المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد .

هذا ، ويرسم أبو الفداء صورة من المدّ والجزر للعلاقة بين أعراب الشام ودولة المماليك ،ويُظْهِرُ ذلك في عهد الناصر محمد بن قلاوون،ولا يقف أبو الفدا عند حدود بلاد الشام بلْ يتتبّع أخبار البدو في بادية العراق على اعتبار أنها امتداد لبادية الشام .

وأمّا ابن الوردي ، فيدّعي أنّ أبا الفداء توقّف عن كتابة تاريخه عند سنة ٧٠٩/١٣٠٩، وأنّه أتمّ المختصر، فعُرِف باسم (تاريخ ابن الوردي) . فيقول :" هذا آخر ما وقف عليه المؤلّف رحمه الله فيما علمت ...... ومن هنا شَرَعْتُ في التذييل عليه". لكنّنا نجد إشارات تؤكّد أن أبو الفداء استمرّ في كتابة مختصره حتى سنة ٧٣٠و٧٣١هـ. ولذلك نجد ابن الوردي يسير على المنوال نفسه لأبي الفداء ، فأرّخ أحداث الفترة (٧٣٢-٧٤٩/١٣٣٢-١٣٤٨) .

٥- ابن أيبك الدواداري ، أبو بكر بن عبد الله (-٧٣٤/١٣٢٢).- كنز الدّرر وجامع الغُرر :

أ - الدرّة الزكيّة في أخبار الدولة التركية.- تحقيق أولرخ هارمان.- القاهرة:المعهد الألماني للآثار ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٧١/١٣٩١ .- الجزء الثامن : ١٤+٤٠٠+١٣٦ ص .

ب- الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر. - تحقيق روبرت رويمر.- القاهرة:المعهد الألماني للآثار ، سامي الخانجي ، ١٩٦٠/١٣٧٩ .- الجزء التاسع:٤٠٢+١٢٧ ص .

أرّخ ابن أيبك الدواداري لدولة المماليك الأتراك ، وسلّط الضوء على العَلاقة بين أعراب الشام وسلاطينها الأوائل حتى الأشرف خليل بن قلاوون من خلال (الجزء الثامن). وقد اعتمد على روايات والده القريب من هؤلاء السلاطين ، كما اعتمد على من سبقه من المؤرخين الذين عاصروا تلك الفترة (٦٤٨-٦٩٨/١٢٥٠-١٢٩٩) ، أمثال : ابن واصل ، وابن الجزري ، وابن شداد كاتب سيرة الناصر ، وابن عبد الظاهر رئيس ديوان الإنشاء . كما اعتمد على روايات أمراء المماليك وما سمعه من شيوخ وقضاة دمشق . وقد توقّف كثيراً عند معركة حمص التي خاضها والده مع أمراء آل فضل وآل مِرا ، وعدّهم من أهم أسباب النصر على المغول .

وتزداد أهميّة رواياته في (الجزء التاسع) إذ حصر مصادرها بوالده (المهمندار) الذي تابع أخبار العربان من حوران إلى وادي الزرقاء ، ووصف دورهم في موقعة شقحب. وظلّ والده مصدره الأول حتى وفاته سنة ٧١٢/ ١٣١٢ ، ثم اعتمد على نفسه وما شاهده وسمعه.

ورغم اللغة العامية التي سادت أسلوبه في الجزأين ، إلاّ أنّه قدّم لنا معلومات هامة عن هذه الفترة ، مقارنة بمعاصريه من المؤرخين بعد ٧١٢/ ١٣١٢ . ثمّ استخلص مؤرخنا الآثار الاقتصادية التي ترتبت على غزو المغول لبلاد الشام من توقّف مسيرة القوافل التجارية ، ونَهْبِ أسواق حلب ودمشق وتدميرها ، وتعطُّلِ البريد أحياناً .

٦- ابن فضل الله العمري ، شهاب الدين أحمد بن يحيى (-٧٤٩/١٣٤٩).-

أ- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار .- إصدار فؤاد سزكين.- فرانكفورت:معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، ١٤٠٨/١٩٨٨ . (مخطوط - نسخة مصورة ، المجمع الثقافي - أبو ظبي) .

ج٣ : ٢٥٢ - ٢٨٦ = ٣٤ ورقة - المملكة الثانية - مملكة الشام .

ج٤ : ١٣٢ - ١٦٦ = ٣٤ ورقة - أعراب الشام .

قدّم لنا ابن فضل الله العمري صاحب ديوان الإنشاء في الدولة المملوكية في الجزء الثالث وصفاً جغرافياً تاريخياً عن مملكة الشام وهي المملكة الثانية بعد مصر ، واعتمدنا اعتماداً كلياً على تقسيماته الإدارية ، وأشرنا إلى التغييرات أو التجديد في ولايات الشام من بَعْدِهِ في حالة حدوثها .

وأما الجزء الرابع فقد خصّصه للتعريف بقبائل عرب الشام في زمانه فحدّد أسماء القبائل ومواطنها في بادية الشام ، كما دوّن أسماء أمراء العرب وتَرْجَمَ لهم ، مما سلعدنا برسم أكثر من شجرة نسب للقبائل الشامية وأمرائها . وقد تلمّسنا من عَرْضه جانباً من العلاقة بين أعراب الشام والسلطة المملوكية منذ بداية عصر المماليك وحتى نهاية حكم شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون .

هذا وقد اعتمد ابن فضل الله العمري على الوثائق الرسمية فهو كاتب السرّ وصاحب ديوان الإنشاء . وأمّا من حيث الأنساب العربية ، فكانت مصادره ممن يثق بهم من خلال خبرتهم وعلمهم في الأنساب ، أمثال : الحمداني المهمندار نسّابة العرب ، ومحمود بن غنّام وهو من ذوي العلم بالقبائل العربية ، والواصلي الذي كان قريباً من أمراء العرب .

ب- التعريف بالمصطلح الشريف.- تحقيق ، محمد حسين شمس الدين.- بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨/١٩٨٨ .-(٩+٣٢٣+١١٣ ص) .

المراد بالمصطلح الشريف ، مصطلح الكتابة الديوانية ، والقواعد التي تُراعى في المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء . وقد اعتمد ابن فضل الله العمري في وضع كتابه هذا على خبرته الشخصيّة وتمرّسهِ العمل كَكَاتِبِ سِر .

وقد ظلّ كتاب التعريف مصدراً أساسياً لبحثنا في وصف جغرافية بلاد الشام ونياباتها، وفي منازل البريد ومراكز الحمام ، وحدّد قبائل العرب المكلّفة بحراسة مراكز البريد . كما اعتمدنا عليه في ذكر ألقاب أمراء العرب من خلال رسم المكاتبات إلى كلّ أمير منهم . هذا وقد اعتمد عليه ابن ناظر الجيش والقلقشندي في وصف حياة عرب الشام ومن اهتم بدواوين المماليك .

٧- اليوسفي ، موسى بن محمد يحيى (-٧٥٩/١٣٥٨).- نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر.- تحقيق أحمد حطيط.- بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٦/١٩٨٦ .- ٥٣٥ ص .

اعتمد اليوسفي منهج الحوليات في إطار وحدة الموضوع متمثّلةً في سيرة الملك الناصر محمد بن قلاوون . وقد تميّزت مصادره بالمشاهدة ، فهو يؤرخ لفترة عاصرها وشاهد معظم أحداثها ، كما اعتمد على الرواية الشفهيّة مما رواه أصحابه من كبار موظفي دولة الناصر . لكنّه تميّز أيضاً بكثرة التحرّي في نقل الروايات ، رُغم طغيان العامية على لغته .

وقد اعتمدنا على وصفه لتلك العلاقة بين الناصر محمد وبين الأمير مهنّا بن عيسى أمير آل فضل . فعرض محاولات الناصر محمد المستمرة لإقناع الأمير مهنّا الدخول في طاعته ، وحين فشلت تلك المحاولات طرده وأهله من بلاد الشام وعين أخاه فَضْلاً في إمرة العرب عوضاً عنه .

كما أفاد بحثنا في تحديد منازل عرب آل فضل ما بين حمص وقلعة جعبر امتداداً إلى الرحبة ، مما جعلهم يتحكّمون بالطرق التي تعبرها القوافل الشامية والعراقية ، فأدّى ذلك إلى بناء علاقات مميّزة بين هؤلاء الأعراب والسلطة المملوكية.

٨- ابن الفرات ، محمد بن عبد الرحيم (-٨٠٧/١٤٠٤).- تاريخ ابن الفرات.- تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين.- بيروت : منشورات

الجامعة الأمريكيــة ، ١٣٥٥-١٣٦١/١٩٣٦-١٩٤٢ .- ثلاثــة أجــزاء ، ٩،٨،٧ : ٧+٢٨٧+٦٢ ، ١٠+٢٣٣+٤٩ ، ٥١٢+١١٠ ص .

يقدّم لنا ابن الفرات في الجزء السابع من تاريخه وصفاً تفصيلياً للعلاقة الحسنة بين أعراب الشام - ويخصّ آل فضل - وبيّن الظاهر بيبرس الذي أسند إليهم دَرْك البلاد وحفظ الطرق ، ومراقبة الحدود وحفظها ، ومواجهة الصليبيين والمغول . ثم ينقلنا إلى صــورة أخرى للعلاقة لكنها مغايرة تماماً للأولى ، وهي تأييد آل فضل وآل مرا سنقر الأشقر ضِدّ قلاوون . لكنّ الخطر المغولي الذي يهدّد المماليك وعرب الشام يوحّد الجبهة من جديـــد في معركة حمص ٦٨٠/ ١٢٨١ .

ويهتمّ ابن الفرات بالشؤون الديوانية والرسميّة ، فيختار نصّاً يُمثّلُ تقليــد (إمــرة العرب) ، ويترجم لأحمد بن حجي أمير عرب آل مِرا ، وترجمة أخرى لعيسى بن مــهنّا أمير عرب آل فضل .

وفي الجزء الثامن ، تندر أخبار العرب عند ابن الفرات ، وتقتصر أخبارهم علــى السنوات : ٦٨١ ، و٦٩١ ، و٦٩٦هـ .

وتبرز أهمية الجزء التاسع من تاريخ ابن الفرات من مشاهداته لأحدث الســنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن الهجري في سلطنة الظاهر برقوق ، فيتابع دور أعــراب الشام في ثورة منطاش ويلبُغا الناصري ، إلى أنّ تتوقف الثورة تماماً بمقتل منطاش .
وقد ساعدتنا أخبار ابن الفرات في رسم صورة للعلاقات بين العرب والمماليك من جهة ، وبين العرب والمغول من جهة أخرى .

٩- القلقشندي ، أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الفزاري (-٨٢١/١٤١٨).-

(أ) صبح الأعشى في صناعة الإنشا .- تحقيــق محمــد حســين شــمس الدين.- بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧/١٩٨٧ - ١٤ جزء .

(ب) قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان .- تحقـــيق إبراهيــم الأبياري .- القاهرة : دار الكتب الحديثــة ، ١٣٨٣ ، ١٩٦٣ .- ١٤+٢٠٦+٥٣ ص .

(ج) نهاية الأَرَب في معرفة أنساب العرب .- بيروت : دار الكتب العلمية، لا.ت.- ٦+٤٢١+٤٣ ص .

بالرغم من أنّ القلقشندي في موسوعته **صبــح الأعشــى** نقل عن " **مســالك الأبصــار**"، للعمري ، ونسخ كتاب " **التعريــف** " للعمري أيضاً ، فإنّه أضاف معلومــات

لا نجدها عند العمري ، كالوثائق ، والمنشورات ، والمراسيم ، التـــي كتبــها ســلاطين المماليك لأمراء عرب الشام ، والتي لجأنا إلى تحليلها لقلّة المعلومات عن " إمرة العرب " وطبيعتها • وطبيعي أن يضيف القلقشندي مثل هذه المعلومات فقد عمل في ديوان الإنشاء منذ ١٣٨٩/٧٩١ •

وبالرغم من تعريفه بالقبائل العربية في موسوعته المذكورة ، فإنّه عـــاد وشـــغل نفسه بأنساب العرب مرتين ، الأولى : في قلائـــد الجُمـــان ، فساق الأنساب بما أملاه عليه علم النسب عند العرب • والثانية ، ساق الأنساب في نهايـــــة الأَرَب حســب حروف المعجم•

لذلك ، شكّلت مؤلفاته الثلاثة مصدراً هاماً للتعريف بالقبائل العربيـــة الشـامية ، وتشعب فروعها مما ساعدنا في رسم شجرة نسب لكل قبيلة ، بعد أن اســـتكملنا أعقـــاب الأنساب من التراجم أو سير الأحداث عند المؤرخين الذين جاءوا بعده • كما دفعنا للبحث في المصادر الأخرى للتعرف على قبائل عربية شاميّة لم ترد عنده•

١٠- المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (-١٤٤٢/٨٤٥) •- السلوك لمعرفة دول الملوك •- تحقيق محمـــد مصطفـى زيـــادة [ج١ ، ج٢] وسعيـــد عاشـــور [ج٣ ، ج٤]•- القاهرة : مطبعة لجنة التـــأليف والنشـــر ، دار الكتب ، ١٣٥٣-١٣٩٣/١٩٣٤-١٩٧٣.- أربعة أجزاء ، لكل جزء ثلاثـــة أقسام :

- **ج١ ، ٣ق : ٢١+٢٨٢ ، ٨+٣٩١ ، ١٩٨+٢١٧ ص •**
- **ج٢ ، ٣ق : ١٥+٣٠٢ ، ٢٣٩ ، ٨+٤١١ ص •**
- **ج٣ ، ٣ق : ١٦+٤٣٠ ، ٦+٥٠٧ ، ٢١٦+٢١٢ ص •**
- **ج٤ ، ٣ق : ٦+٥٥١ ، ٤٤٨ ، ١٨٤+١٧٩ ص •**

نقف أمام عمل تاريخي ضخم من بين مؤلفات المقريزي ، وقد احتلّ هذا المؤلَّــف مكان الصدارة بين المؤلفات التاريخية في القرن التاسع الهجري ، وشكّل مصدراً أساســياً بمادته الوفيرة (٤١٥٧ ص) عدا المقدمات والفهارس على مدار فترة امتدت منذ ســـنة (٦٥٨ /١٢٦٠) وحتـــى ســنة (١٤٣٩/٨٤٣) ، أي قبـل وفـــاة صاحبــها بعـــامين. ونستطيع القول ، إنّ المقريزي ساعدنا في رسم الخطوط العريضـــة للـــهيكل الأساســي لمشروع الأطروحة في بداية الأمر ، وفتح آفاقاً واسعة للبحث عن مصادر أخـــرى لســد الفراغ وللمقارنة بين الروايات في ما يتعلق بتلك العلاقة بين أعراب الشام والمماليك •

وقد تلمّسنا في كتاب السلوك اتجاهات عديدة تبين الأمور الآتية :

أولاً : العلاقات بين أعراب الشام والسلطة المملوكية :

ولذلك اتضحت هذه العلاقة في مسارين : الأول ، يمثل العلاقات الحسنة بين طرفي الموضوع - الأعراب والمماليك - والثاني ، يمثل صورة للعلاقات السيئة بينهما .

ثانياً : العلاقات بين أعراب الشام والمغول :

يبيّن المقريزي صورتين لموقف أعراب الشام من المغول ، الأولى : تمثّل تصدّي أعراب الشام للخطر المغولي الدّاهم على بلادهم ، على اعتبار أن الخطر لا يفرّق بين بدو ومماليك . وتمثّل الصورة الثانية ، اتخاذ أعراب الشام من دولة المغول ملاذاً آمناً من خطر المماليك ، واعتبار ذلك بمثابة ورقة تهديد مؤقت لسلاطين المماليك.

ثالثاً : التعريف بقبائل العرب ومنازلهم :

وبالرغم من أن المقريزي لم يكن نسّابةً ، فإنّه رصد تحركات قبائل الشام ، وحرص على تحديد مواطنها في بوادي الشام ، لكنه لم يصل في هذا الاتجاه المستوى الذي وصله كلٌّ من ابن فضل الله العمري ، والقلقشندي كما مرّ سابقاً .

١١- ابن قاضي شهبة ، تقي الدين أبو بكر بن أحمد الأسدي الدمشقي (-١٤٤٨/٨٥١) .- تاريخ ابن قاضي شهبة .- تحقيق عدنان درويش (المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق) .- دمشق ، قبرص : الجابي للطباعة والنشر ، ١٩٧٧-١٩٩٧ .

أربعة أجزاء : ٩٨+٦١٠+١١٠+م ٤٣ ، ٢٣٦+٥٨٣ ، ٦٤٨+١٠٢+م ٧٢ ، ٤٦٦+٣٠١ ص.

انتهج ابن قاضي شهبه في تاريخه هذا منهج زمانه وهو منهج الحوليات ، وقد اختصر من تاريخه الكبير الذي ذيّل به على مؤلفات من تقدّموه من مؤرخي الشام ، أمثال : الذهبي والبرزالي وابن كثير وابن حجي . وقد صرّح بمصادره هذه بينما أشار إلى مؤرخي مصر دون ذكر أسمائهم عدا النويري ، وأشار إلى آخرين دون ذكر بلدانهم . ولم يكتف بالنقل عمّن سبقوه ، بل كانَ يتدخّل وخاصّة عندما كان يروي عن مؤرخي مصر فيستبعد بعض رواياتهم . وفي الجزء الأخير (الرابع) نجده يعتمد كثيراً على ابن حجي ، وما سمعه من أقرانه الشيوخ والعلماء .

٥٣٠٩٦٧

بالرغم من ضخامة هذا العمل ، فإنّ مؤرخنا لم يقدّم لنا أخبار عرب الشام في الجزء الأول من تاريخه إلاّ خبرين (٧٤٢ ، ٧٤٦هـ) . وأما الجزء الثاني فأورد أخباراً مختصرة عن أعراب الشام في السنوات (٧٥٣ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٤ ،

٧٧٠هـ)٠ وأما الجزء الثالث الذي شمل أخبار الفترة (٧٨١-٨٠٠هـ) ، فإنه قدّم لنا معلوماتٍ على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية في السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن الهجري ، فبيّن دور عرب الكرك المساند للظاهر برقوق وإعادته إلى سلطنته الثانية ٠ وسلّط الضوء على دور (نُعير بن حيّار) في تأييد ثورة الناصري و منطاش ، ولم تتوقف إلاّ عندما تخلّى نُعير عن منطاش وتسليمه للسلطات المملوكية ٠

وأمّا في الجزء الرابع الذي تناول فيه أحداث الفترة (٨٠١-٨٠٨/١٣٩٨-١٤٠٦)، فعلى الرغم من قُرْبه للأحداث فإنّ أحمد بن حجي ظلّ مصدره الأول ٠ وقد انشغل بهذا الجزء بأخبار تيمور لنك واجتياحه حلب ودمشق ٠ إلاّ إن التنسيق والتعاون بين سلطات المماليك وأعراب الشام كانا معدمين، كما كان الخُلْف بين أمراء المماليك وتنافسهم على السلطة ، ذلك كلّه سهّل مهمة تيمور لنك الذي تمكّن من بلاد الشام في عهد فرج بن برقوق ٠ والجدير بالذكر أن تصدّع الجبهة العثمانية - المملوكية بعد موت برقوق ساعدت على تسهيل مهمة تيمور لنك٠

كانت مقاومة أعراب الشام لقوات تيمور لنك نادرة ولم تُحسن السلطة المملوكية تنظيمها وإثارتها ضد العدوان الخارجي ٠

كما نقل لنا الخلاف بين نُعير بن حيّار وأمراء المماليك حتى بعد رحيل تيمورلنك. واستعرض حالة التجارة وطرقها في بلاد الشام منذ ١٤٠٢/٨٠٤ ، وطرق الحج أيضاً ٠ وبالرغم من قلة المعلومات فإنّها ضرورة مهمّة لبحثنا ٠

١٢- ابن حجر ، أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود العسقلاني (-١٤٤٨/٨٥٢)٠- إنباء الغمر بأنباء العمر ٠- تحقيق حسن حبشي ٠-

القاهرة : لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ١٩١٩/١٣٨٩ ٠-

٣ج : ٣١+٥٤٠+٨ ، ٥٣٧+٤٣ ، ٥٥٥+٥٥ص ٠

يُصرّح ابن حجر بمصادره التي يعتمد عليها ، فيذكر ابن حجي كثيراً في الجزأين الأول والثاني ، بينما يكون شاهداً ومعاصر لها في الجزء الثالث ٠

وما يهمّنا من إنباء الغمر ، اعتناء صاحبه بأخبار عرب فلسطين وجنوبي الأردن وأغواره من دون أن يهمل أخبار أعراب شمال بلاد الشام ، ومن هنا شكّل هذا المؤلّف رافداً موثوقاً في الجوانب الآتية :-

أولاً : النزاع بين القبائل العربية وموقف المماليك منه :

أشار ابن حجر إلى الخلافات التي حدثت بين عرب نابلس والقدس والخليل والرملة وغزة وبيسان وصفد وأغوار الأردن ، وكذلك بين عرب آل فضل وبقية القبائل

القريبة من منازلها . ولا يكتفي بذلك بل يتدخل معلّلاً ، فيردّ ذلك إلى التنافس على مشيخة العرب أو إمرة العرب . ويرى بأن تدخل السّلطة المملوكيّة يكون في الوقت المناسب إما صُلْحاً وإما عن طريق القوة العسكرية لتضمنَ مصالحها وأمْنَ البلاد وطُرقها .

ثانياً : دور العرب بالأحداث الجارية في بلاد الشام :

ويتمثّل هذا الدور ببناء علاقات حسنة ومدّ جسور من الثقة بين العرب والسلطة المملوكية ومشاركتهم بإنهاء تمرّد بعض الأمراء المماليك ، ودرء خطر المغول ، وبالتالي إعلان طاعتهم للمماليك . وأما الدور الآخر ، فحينما يحسُّ هؤلاء الأعراب بسوء معاملة المماليك لهم ، وبقسوة إجراءاتهم ، فإنهم يتجهون إلى الخروج عن الطاعة ، إمّا بإعلان التمرّد أو اللجوء إلى التتار بصورة مؤقّتة أو الانضمام إلى الأمراء المماليك المتمرّدين.

ثالثاً : ترجم لعدد كبير من أمراء العرب . كما عرّفنا بقيمةٍ من قيم البدو وهي (الاستجارة)، ورأى تمسك البدو فيها حتى لو أدى ذلك إلى إغضاب السلاطين المماليك وبالتالي الخروج عن الطاعة .

١٣- العيني ، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين بن يوسف (-١٤٥١/٨٥٥).- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان .- تحقيق محمد محمد أمين.-القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٧-١٤١٢/١٩٨٧-١٩٩٢ .- ٤ج : ١٢+٤٢٥+١٢٥ ، ٣٨٩+١٣٢ ، ٤+٤٨٦+١٧ ، ٤٨٣+١٦٦ص .

اعتمد العيني في هذه الأجزاء على مصادر تاريخية صرّح ، بأسماء أصحابها : ابن عبد الظاهر ، بيبرس المنصوري ، النويري ، ابن كثير.....وغيرهم . لكنّ العيني لم يكنْ مجرد ناقلٍ بقدر ما كان مقيّماً لهذه الروايات ، يتدخل في الوقت المناسب، ويخرج برأيٍ مستقل بعد أن يطمئن إليه .

ففي الجزء الأول من " عقد الجمان " ، قدّم لنا معلومات وفيرة عن الفترة (٦٤٨-١٢٥٠/٦٦٤-١٢٦٠) ، حينما توقّف عند اشتراك أعراب الشام بقيادة أميرهم عيسى بن مهنّا في موقعة (عين جالوت) ، كما تناول تلك العلاقة الحميمة بين الظاهر بيبرس وعيسى بن مهنّا .

واستعرض في الجزء الثاني أحداث الفترة (٦٦٤-١٢٦٦/٦٨٩-١٢٩٠) ، فسلّط الضوء على الصراعات المملوكية - المملوكية وبيّن مدى انعكاساتها على الصراع المملوكي -المغولي . وظهر العيني مدافعاً عن أعراب الشام ، وأمراء المماليك حين

قدّموا مصلحة البلاد على مصالحهم الخاصة ، فكانت موقعة حمص سنة ١٢٨١/٦٨٠ ، خير شاهد على ذلك •

وأما الجزء الثالث فقد تناول الفترة (٦٨٩-١٢٩٠/٦٩٨-١٢٩٨) ، إذ اعتمد على مصادر عاصر أصحابها أحداث الفترة وشاركوا فيها أمثال : بيبرس المنصوري ، واليوسفي•

هكذا وجدنا العيني ينقل عن اليوسفي صاحب نزهة الناظر في دولتي المنصور والناصر ، باعتباره شاهداً على الأحداث ، وقد تبيّن ذلك من مطلع ١٢٩٣/٦٩٣. ولمّا كانت هذه الفترة في عِداد الكتب الكتب المفقودة ، فيما عدا الجزء المحقق والذي يتناول الفترة (٧٣٣-١٣٣٢/٧٣٨-١٣٣٨) ، لهذا وجدنا العيني قد حَفِظ لنا مصدراً أساسياً من الضياع • وقد ساعدنا في وصف تلك العلاقة بين الأشرف خليل بن قلاوون ، والأمير مهنّا بن عيسى التي كانت مبنيّة على أساس من الرّيبة والشكّ ، وانتهت باعتقال مهنّا بن عيسى وأولاده وإخوانه وزجّهم في سجن القلعة •

وأمّا الجزء الرابع فقد تناول الفترة (٦٩٩-١٣٠٠/٧٠٧-١٣٠٨) • ساهم في إثراء البحث وخاصّة عن موقف أعراب الشام من الصراع بين المماليك والمغول ، فقد رأينا وحدة أعراب الشام جميعاً حين تصدوا مع المماليك لخطر المغول في عامي ١٣٠٠/٦٩٩ ، ١٣٠٣/٧٠٢ ، فكان لوجودهم الأثر الأكبر في هزيمة المغول في موقعة شقحب •

وأما الأجزاء الباقية فما زالت مخطوطة ، ولم يتيسّر لنا إلاّ قراءة الجزء رقم (٢٢) من المخطوط الذي يخص عهد الناصر محمد بن قلاوون •

١٤- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (-١٤٦٩/٨٧٤) •- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة •- تحقيق إبراهيم طرخان •- القاهرة : دار الكتب ، ١٩٦٣/١٣٨٣ •- ١٠ج : ج٧ - ج١٦ : ٣٨٠ ، ٢٧٩ ، ٣٢٧ ، ٣٣٥ ، ٣٨٧ ، ٣٣١ ، ٥+١٧٨+٨٤ ، ٦+٣٧٣+١٤٦ ، ٢٧٠+٥٥٢ ، ٧+٣٩٦+١٥٨ ص •

يُعدّ كتاب " النجوم الزاهرة " مصدراً مهماً للتعريف بدولة المماليك ، فقد غطّى فترة طويلة (٦٤٨-١٢٥٠/٨٧٢-١٤٦٧) ، وتنبع أهميّة هذا المؤلّف لبحثنا في الأمور الآتية :-

• ضبط أسماء المماليك ، فابن تغري بردي من أصول مملوكية ، فقد كان أبوه مملوكاً من المماليك السلطانية للظاهر برقوق ، وشغل مناصب قيادية عند ابنه فرج.

• اعتماد صاحبه على مؤرّخين ورواة عدّهم حجة وثقة ، وكثيراً ما أحالنا إلى مؤلفاتهم، أمثال : الصفدي وابن كثير ، وابن حجي ، وبيبرس المنصوري ، والعيني والمقريزي وغيرهم كثير . كما تدخّل كثيراً في رواياتهم ، واتخذ موقفاً معارضاً حتى لأقرب من لازمهم أمثال العيني والمقريزي .

• أحالنا إلى مؤلّفه " المنهل الصافي " للإطلاع على التراجم لأعلام الأعراب أو المماليك . كما أحالنا إلى مؤلّفه " حوادث الدهور " الذي أطنب في سَرَدِ حوادثه كما توسّع في تراجمه لتعمّ الفائدة . كما وجدنا فيه تراجم لأمراء العرب الذين أسقطهم من " النجوم الزاهرة " .

• وضعَنا أمام عقليتين ، عقلية مملوكية نابعة من طبيعة تكوينهم كأرستقراطية عسكرية بوصفهم الجهاز الحربي الذي استأثر بحكم مصر والشام والدفاع عنهما ولم يتوانَ عن وصفهم بالغدر والخيانة وحياكة الدسائس . وبالمقابل ، عقلية بدويّة ، أحسّ أصحابها بأنهم أهل البلاد ، لكنّهم على جانب كبير من الفساد وقطع الطرق .

• ساعدنا في استخلاص صورة للعلاقات البدويّة - المملوكية ، صورة للعلاقات الحسنة ، والأخرى عن العلاقات السيئة بين البدو والمماليك .

• تابع أحداث الصراع المملوكي - المغولي ، وتوقف عند موقف الظاهر برقوق وقدرته على منع تيمور لنك من اجتياح بلاد الشام بفضل وحدة الجبهة الداخلية ، وبمجرد وفاة برقوق تمكّن تيمور لنك من اجتياح بلاد الشام بسبب تمزّق الجبهة الداخلية في عهد فرج بن برقوق ، فخصّص لهذا الموضوع الجزأين الثاني عشر والثالث عشر .

• أطْلعنا على أحوال العرب في بادية الشام كما عاشرهم ، فهو فارس من فرسان المماليك ، وقد قاد إحدى الفرق المملوكية التي كان معظم فرسانها من أعراب الشام في عهد سيّده برسباي ، ثم جقمق . إذا كان هذا في الجزء الخامس عشر ، فإن الجزء السادس عشر وهو الأخير من مؤلّفه الكبير ، قد جاء ليسدّ فراغاً للفترة (٨٥٥-٨٧٢/ ١٤٥١-١٤٦٧) ، بصفته معاصراً للأحداث ، قريباً منها ، ملاصقاً لحكامها ، لذلك نستطيع القول إنّ هذين الجزأين من أهم أجزاء المؤلّف الكبير الواسع . ومن هنا يمكن اعتباره مصدراً موازياً للسلوك ، ومتمماً له في جزأيه الأخيرين .

١٥- ابن إياس ، محمد بن أحمد الحنفي (-١٥٢٣/٩٣٠).- بدائع الزهور في وقائع الدهور .- تحقيق محمد مصطفى .- القاهرة : الهيئة المصرية

للكتـــاب، ١٩٦٠-١٩٨٤ ٠- ٥ج (ج١ قســمان) : ٢٧+٨٢٨+٥٢+٥٩٦ ، ٢٣+٤٧٦ ، ٢٠+٤٧١+٦ ، ٢٤+٤٩٢+٦ ، ٨+٤٩٤+٢٢ ص ٠

كتاب " بدائـــــع الزهـــــور " له أهمية خاصة في بحثنا لا سيّما الأجزاء الثلاثة الأخيرة والتي تغطي الفترة الأخيرة من حكم المماليك ٠ فإذا توقّف ابن تغري بردي عنـد ١٤٦٧/٨٧٢ ، فإنّ ابن إياس أكمل أخبار المماليك حتى سقوط دولتهم سنة ١٥١٧/٩٢٣. وتظهر أهمية هذه الأجزاء من خلال :

- اهتمام ابن إياس بأحوال عرب الشام ، وتعليل خروجهم عـــن طاعـــة الســـلاطين المماليك، ويعزّي ذلك إلى طُغيان بعض هؤلاء السلاطين ، وفي مقدّمتـــهم قـــانصوه الغوري ٠
- قارَن بين سياسة السلطان قايتباي وقانصوه الغوري ، فقد شهد عهد قايتباي فـــترة هدوء نسبي وعلاقات حسنة مع أعراب الشام ، بينما شهد عهد الغوري حركات تمـوّد وثورات لأعراب الشام واعتراض طرق الحاج الشامي والمصري ، وبالتالي يَعـوضُ إجراءات السلطان العسكرية لمواجهة ذلك ٠
- اهتم ابن إياس بأخبار أعراب الشام أثناء دخول العثمانيين إلى دمشـــق ، فوصــف مقاومة ابن الحنش لهم شرقي دمشق ٠ وكذلك دور قبائل عـــرب حـــوران بنصــب الكمائن خارج دمشق ومحاصرة العثمانيين في المدينة ٠ لكنّ سليماً الأول أرسل فرقة من جيشه لتأديب عرب حوران وحتى عجلون وإجبارهم على الطاعة ٠ ومن هنا فإن هذه الأخبار رغم قلتها فإنها كانت ذات أهمية كبيرة لبحثنا ٠

وأمّا الجزءان الأول والثاني ، فإن ابن إياس اعتمد فيهما على مـــن ســبقه مــن المؤرخين فصرّح بأكثر من ثلاثين منهم وبالرغم من ترديده لأخبـــارهم ، فإنّـــه تمـيّز بعرض أكثر من رواية للحدث الواحد وبتدخّله أحياناً لترجيح رواية على أخرى ٠

١٦- ابـــن طولـــون ، محمـــد بـــن علـــي بـــن محمـــد الصـــالحي الدمشـــقي (١٥٤٦/٩٥٣)٠-

- إعلام الورى بمن وُلي نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى ٠- تحقيق محمد أحمـــد دهمان ٠- دمشق : دار الفكر ، ١٩٨٤ ٠- ٢٨+٢٦٤+١٢٣ ص ٠

- مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمـــان ٠- تحقيق محمد مصطفى زيـــادة ٠- القـــاهرة : دار إحيـــاء الكتـــب العربيـــة ، ١٩٦٢ ٠- ٢ج : ٣٨٣ ص ، ١٢١+٢٣+٢٨٦ ص ٠

ابن طولون ، هو مؤرخ دمشق المشهور ، عاصر أواخر الدولة المملوكية وأوائل الدولة العثمانية في بلاد الشام ، فكتب ما شاهد وما سمعه من أخبار . وقد اعتمد على مؤلفات أساتذته (النعيمي ، يوسف بن عبد الهادي ، والزملكاني ..) وضمنها في مؤلفاته، فضمنها من الضياع .

وتبرز أهمية " إعلام الورى " لبحثنا ، من خلال التراجم للأمراء المماليك الذين تولوا دمشق ، فاستخلصنا جانباً من العلاقة بين أعراب الشام وخاصة عرب الغوطة وحوران ، وأمراء المماليك (نواب دمشق) في الفترة (٩٠٤-٩٢٠/١٤٩٩-١٥١٤).

وفي كتابه " مفاكهة الخلان " ، قدّم لنا معلومات في غاية الأهمية عن الفترة (٨٨٤-٩٢٣/١٤٧-١٥١٧) ، فاعتمدنا على أخباره كمصدر أساسي في الأمور الآتية:

- اهتمّ بدور أعراب الشام في حفظ الطرق التجارية المارة ببواديهم ، عندما تكون العلاقات حسنة مع المماليك ، واعتراض قوافل التجارة عندما تسوء العلاقات مع السلطة المملوكية .
- اهتمّ بوصف الحج الشامي منذ بداية استعداد أهالي دمشق وتجهيزهم المحمل وحتى وصوله إلى المدينة ومكّة وكذلك العودة . ولما حَجّ ابن طولون سنة (٩٢٠/١٥١٤) ، سجّل كلّ ما شاهده ، ووصف منازل الحاج الشامي منزلة منزلة ، كلّ هذا من خلال الورقات في مخطوط " البرق السامي في منازل الحاج الشامي " ، فجاءت بصورة رحلة مهمّة ومتممّة لمعلوماته في مفاكهة الخلّان .
- سلّط الضوء على حالة الفوضى والاضطراب التي سادت نيابة دمشق في عهد قانصوه الغوري ، ونائبه (سيباي) في دمشق ، من خلال الحملات والتجاريد العسكرية ضد عرب حوران وجنوبي الأردن .
- شاهد عن قرب الفرق العسكرية العثمانية في دمشق ، فقدم وصفاً دقيقاً لتلك التنظيمات العسكرية وتجهيزاتها المحمولة .
- استعرض العلاقة بين ناصر الدين بن الحنش والسلطة المملوكية بعد معركة مرج دابق من خلال جانبرد الغزالي وطومان باي ، فكان ابن الحنش مؤيداً للمماليك ، لكنه بدّل موقفه من العثمانيين بعد انتصار سليم الأول في الريدانية (٩٢٣/١٥١٧) ، وقد شاهده ابن طولون وهو يرتدي الخلعة العثمانية .

ومن هنا شكل ابن طولون أهمية خاصة بتأريخه عن دمشق والشام بشكل عام ، وهو بالنسبة لها كابن إياس للقاهرة ومصر .

ثانياً - المــراجـــع العربيـــة : -

١- الحياري ، مصطفى .- الإمارة الطائيّة في بلاد الشـــام .- عمّـان : وزارة الثقافة والشباب ، ١٩٩٧ .- ٢٤+١٢٢+٨٢ ص .

دراسة تاريخية علمية موثّقة وجادة . اهتمت بمعالجة جذور الإمارة الطائية منـــذ زمن الفاطميين مروراً بالأيوبيين ، ثمّ في عهد المماليك ، واقتصـــرت علـــى آل ربيعـــة الطائيين في بادية الشام .

وقد استعرض المؤلف كيفية نشوء الإمارة الطائيّة بصورة رسمية ، وعالج طبيعة العلاقة بين أمراء العرب وحكام الدول . كما بيّن دور العرب أصحاب الإمرة في شؤون القبائل العربية ، وأثرهم في أوضاع بلاد الشام الداخلية في عهد المماليك ، وموقفهم مـــن النزاع بين المماليك والمغول . ويمكن القول بأنها من أحدث الدراسات التاريخيـــة التـــي تناولت " أعراب الشام " في العهود المذكورة ، وأنها فتحت أفاقاً جديدة للبحث في حيـــاة أعراب الشام.

٢- زكريا ، أحمد وصفي .- عشائر الشام .- دمشق : دار الفكـر ، ١٩٨٣ .- ٢ج : ٣٤٤ ، ٣٥٩+١٠٣ ص .

دراسة عامة في تاريخ البدو قديماً وحديثاً . تناولت ثوابت حياتهم الاجتماعية مـــن عادات وتقاليد ، وحياتهم الاقتصادية ، وركزت على أعراب (سوريا) . وقد اسـتعرض صاحبها أسماء القبائل العربية السورية في العصر الحديث وأنسابها ، وتحديد أماكنها .

أما نصيب أعراب بلاد الشام في عهد المماليك ، فكان عبارة عن فقرات متنـــاثرة ومختصرة وبشكل عام اقتضاه السرد التاريخي الزمني . وبالرغم من ذلك ، فإنّها فتحت لنا الطريق للبحث في حياة بدو الشام بعيداً عن الثوابت . والجدير بالذكر أن صاحب هذه الدراسة ليس مؤرخاً ، وإنما قادته حياته المهنية والعلمية وتجواله في بلاد الشام للبحث في هذا الموضوع .

٣- سعيد ، فرحان أحمد .- آل ربيعه الطـــائيون .- بـــيروت : الـــدار العربيـــة للموسوعات ، ١٩٨٣ .- ٢٥٦ ص .

إن صاحب هذه الدراسة رجل قانون ، تناول تاريخ آل ربيعه في العراق والشـــام. ثم بيّن أثر هؤلاء الأعراب في أوضاع بلاد الشام الداخلية . ويبدو أن صاحبها اعتمدعلى ما كتبه " الحيارى " عن الإمارة الطائية ، وترجم لأعلام آل ربيعه في نهاية الدراسة.

٤- السيد ، محمود .- تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي .- الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٧ .- ٣١+١٩٠+٣٣ ص .

تناولت هذه الدراسة المذاهب والعقائد في بلاد الشام على مدار التاريخ الإسلامي. ثم خصّصت فصلاً آخر عن " العصبية العربية في بلاد الشام " منذ الجاهلية وحتى عصر المماليك . فكان نصيب فترة المماليك قليلاً حتى تحت العنوان المذكور .

وأما الفصل الثالث فكان في صلب عنوان الكتاب تحت عنوان " دور القبائل العربية السياسي والحربي في الشام في عصر سلاطين المماليك " لكن معالجته كانت سريعة جداً .

واختتم الكتاب بفصل رابع تحت عنوان " الدور الحضاري للقبائل العربية في بلاد الشام " وقد تناول فيه حياة العرب الحضر في المدن وليس أعراب البادية .

ويمكن القول إن هذه الدراسة عامة ، وأن الفصل الثالث يتلاءم مع عنوان الكتاب وأما الفصول الأخرى فكانت سرداً تاريخياً للثوابت في حياة الأعراب الشاميين.

ولا يفوتنا تقديم الشكر والتقدير للأستاذ الدكتور الأب " **لويس بوزيه** " عميد كلية الآداب ورئيس قسم الدراسات العليا في جامعة القديس يوسف ، المشرف على هذه الأطروحة لما قدّمه لي من إرشادات وتوجيهات ورعاية تامة طوال الإعداد والبحث من دون كلل أو ملل .

كما أنّه لابد من الإشادة بتوجيهات و ملاحظات قُرّاء الأطروحة ؛ الدكتور **أحمد حطيط** بصفته قارئاً ثانياً و الدكتور **منير إسماعيل** بصفته قارئاً ثالثاً و الدكتور **إفرام البعلبكي** بصفته قارئاً رابعاً ، فقد وفّرت ملاحظاتهم عنايةً منهجيةً جادّةً لهذه الأطروحة فإليهم خالص الشكر و الامتنان .

وأتقدم بالشكر الوفير إلى القائمين على (مكتبة الأسد) ، و(المعهد الفرنسي) بدمشق وكذلك القائمين على مكتبة الجامعة الأردنية في عمّان ، ومكتبة المجمع الثقافي في أبو ظبي ومكتبة جمعة الماجد في دبي . كما أشكر كل من ساعدني في إخراج هذه الدراسة إلى حيز الوجود .

و الله الموفق ،،،،

المدخل

دولة المماليك

أولا : نظـــــــم المماليـــــــك .

ثانيا : فئـــات المجتمـــع المملوكـــــي .

المدخـــــــــــل

لمّا كان أعراب الشام يشكّلون محور البحث ، فإنّ التعريف بـــالنُظم المملوكيّــة يُسهّل تحديد العلاقة بين هؤلاء الأعراب والمماليك. كما إنّ إلقاء الضــوء علــى فئــات المجتمع المملوكي يُساعدُ في الوقوف على أحوال عرب الشام كفئةٍ اجتماعية تابعة للسلطة المملوكية التي اتّخذت من القاهرة مركزاً للحكم. من هنا فإنّ هذا المدخل سيوجزُ نشــأة المماليك ونُظمهم ، وفئات المجتمع المملوكي.

أولاً - نشـــــأة المماليـــك ونُظمهـــــم :-

يعود ظهور المماليك* في التاريخ الإسلامي إلى عهد العباسيين ، فكان المــأمون أوّل من استقْدَم المماليك التّرك بصورةٍ مُنظّمه ، واستخدمهم في جيشه. لكنّ القُطر الــذي كانَ له نصيبٌ وافرٌ في استقدام المماليك قبل قيام دولتهم هو مصر[(١)]. فقد تمكن هــؤلاء المماليك من تسلُم زمام السلطة فيما بعد ، وشيّدوا دولتين في مصر والشام والحجاز لقرابة ثلاثة قرون ، حيث أُطلق على هــذه الفــترة العــهد المملوكــي (٦٤٨-٩٢٣/١٢٥٠-١٥١٧).

فالدولة الأولى التي أسسها المماليك ، عُرفت باسم " دولة المماليك البحريّــة " ، واعتمدت على العنصر التركي. وقد بدأ ظهور المماليك البحريّة على يد الصـــالح نجــم الدين أيّوب (٦٣٨/١٢٤٠) ، حين استكثر من شراء المماليك الترك ، ليكوّنوا غالبيـــة

---

* المماليك : مفردها مملوك ، وتعني ما يُمْلَكَ بقصد التربيّة والاستعانة به كجند وحكّام ، على عكس لفظة (العبـد) التي تعني العبوديّة. فالعبد يُولدُ من الرقيق ، ويعني إنساناً أسود اللون ، بينما المملوك ، يولد من أبوين حرّين ويُبـاع ، ويعني إنساناً أبيض اللون.

(ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : ملك).

-ويعود المماليك في أصولهم إلى جنسيّاتٍ مختلفة مجلوبة من : تركستان وبلاد القوقاز وفارس والقفجـــاق وشبــه جزيــرة القرم وآسيا الصغرى وبلاد ما وراء النهر ، فكانوا خليطاً مـــن الأتـــراك والجراكســـة.

(Lane-pool , History of Egypt p.250.)

-وهذا وصف لتربية المماليك على لسان أحد أمرائهم (حسام الدين أزدمر المجيري) : " نحن يشتروننا التجار صغاراً ، ويجلبوننا إلى مصر ، فيكون لنا إسم واحد ، ثمّ ننتسبُ لاسم التاجر الذي جلبنا ، فـإذا كبرنــا أعطــى لنــا لقــب ......"

(ابن أيبك الدوادار ، الدّر الفاخر ، ص : ٧١).

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٢٥٦/٤ .

جيشه ، فرتّبهم وسمّاهم بالبحريّة نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم العسكريّة في جزيرة الروضة التي اتّخذها مقراً لهم [١].

وقد برزت أهمية هؤلاء المماليك كفرسان محاربين حين تصدّوا للصليبيين في مصر سنة ٦٤٧/١٢٤٩ ، وهي السنة التي توفّي فيها الصالح نجم الدين أيوب ، فاضطرّت زوجه شجر الدر إلى التكتّم على موته حتى يحضر ابنه تورانشاه من حصن كيفا * ليتسلّم مقاليد الأمور . لكنّ تورانشاه أساء إلى مماليك أبيه ، فتخلّصوا منه عام ٦٤٨/١٢٥٠.[٢] وبمقتله انتهت الدولة الأيوبية لتقوم على أنقاضها دولة المماليك البحريّة (التركية) ، التي بدأت بامرأةٍ وانتهت بصبي ، وليتعاقب في حكمها أربعة وعشرون سلطاناً .[٣]

كما أسس المماليك دولة أخرى عُرفت بدولة المماليك البرجية (الجراكسة) التي اعتمدت في تأسيسها على العنصر الجركسي **. وقد استكثر السلطان قلاوون من شرائهم حتى بلغ عددهم نحو أربعة آلاف ، وأسكنهم أبراج القلعة [٤]، وسمّاهم "المماليك البرجية"[٥].

وقد قادت الظروف السياسية في دولة المماليك الأولى إلى احتدام المنافسة بين المماليك على أساس عنصري (ترك وجركس) ، حتى تمكّن الظاهر برقوق من تأسيس

---

(١) تقع جزيرة الرّوضة بين الفسطاط والجيزة ، وتُسمّى : بجزيرة الجيزة ، وجزيرة مصر ، وجزيرة الحصن . وقد بنى فيها الصالح نجم الدين أيوب قلعة من ستين برجاً .

(المقريزي ، الخطط ، ١٧٧/٢ ، ١٨٣).

* حصن كيفا : بلدة وقلعة عظيمة ، بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، وهي تشرف على نهر دجلة .

(ياقوت ، معجم البلدان ، ٢٧٧/٢).

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ٣٥٨-٣٥٩ .

(٣) المقريزي ، الخطط ، ٢٤١/٢ .

** الجراكسة : من السلالة الآريّة ، وكلمة آري تعني بالسنسكريتية أصيل ونجيب ، ومنها اشتُقت كلمة (أريستوقراط) للدلالة على النبلاء ذوي الأصالة . والاسم القومي للجراكسة هو (أديغة) . ومعناه : الإنسان الكامل . وأما موطنهم فهو شمالي القفقاس .

(انظر : يوسف عزت ، تاريخ القوقاز ، ص : ٥٨ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٨١ ، ٨٢).

(٤) القلعة : تسمى بقلعة الجبل ، وتتصل بجبل المقطّم ، وتشرف على القاهرة والنيل ، أنشأها صلاح الدين الأيوبي ٥٧٢هـ ، وتوسّع المماليك في عمارتها .

(المقريزي ، الخطط ، ٢٠١/٢ - ٢٠٤).

(٥) ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ١٠٣/١ .

دولة لأبناء جِنْسِه الجراكسة ٧٨٤/١٣٨٢ ، حيث تعاقب في حكمها ثلاثـــة وعشـــرون سلطاناً.[1]

ولما كانت دولة المماليك دولة ذات طـــابع عســـكري ، فقـــد اهتـــمّ ســـلاطينها بالتنظيمـــات الإدارية الدقيقة ، واتّبعوا ما كان سائداً في الممالك الإسلامية السابقة لـــهم ، وإنْ عدّلوا وأضافوا بعضها. كما حرصوا على تولية وظائف الدولة ومناصبها لأربـــاب السيوف أولاً ولأرباب الأقلام ثانياً. ومن هنا يمكن التعريف بنظم دولة المماليك.

فالســـلطان * المملوكـــي ، يُمثّل رأس الدولة ، ويتولّى سلطاته نيابـــة عـــن الخليفة العباسي الذي لم يتردّد في منح تفويضه إلى كلّ أمير مملوكي يرقّى إلى منصـــب السلطنة.

وبمقتضى هذا التفويض يملك السلطان جميع السلطات مـــن تنفيذيـــة وقضائيـــة وتشريعية. ولكنّ احتفاظه بمنصب السلطنة يتوقف على قوّة شـــخصيته وقـــوّة مماليكـــه ومقدار إخضاعه لغيرهم من المماليك.[2]

وقد تلقّب سلاطين المماليك بألقاب شملت كلمة (الدين) ، مثل : سيف ، وعز ، وحسام ، وركن الدين. كما تلقّبوا بألقاب أخرى ، مثل : الظاهر ، والناصر ، والمنصور ، والقاهر ، والأشرف [3]. وقد شاركوا الخليفة العباسي بألقابه ، فتلقّبوا بلقب " قسيم أمـــير المؤمنين ". وفوق كلّ هذا كان لهم تسمياتٍ دينية ، مثل : نصـــير المؤمنيـــن ، وخـــادم الحرمين....، كما كان لهم ألقاب تدل على الشجاعة والفروسية.[4]

وبالرغم من أن السلطان المملوكي يمثّل كلّ شئ في إدارة الدولة المملوكية ، فقد وجدنا عدداً من كبار الموظفين يساعدونه في تنفيذ الأمور ، وهـــم : نـــائب الســـلطنة ، والوزير ، وكاتب السرّ ، والمحتسب وغيرهم كثير.

وتعدُ **نيابـــة الســـلطنة** ، من أكبر الوظائف في دولة المماليك ، ويتولاّهـــا نائب السلطان بالحضرة السلطانية ، ويجلس في دار النيابة بقلعة الجبل ، ويُسمّى بالنـــائب

---

(١) انظر : الملاحق (قائمة أمراء أعراب الشام ، ص : ٣٠٥ – ٣١١).

* السلطان : الحجة والبرهان. واشتقاق السلطان من السَّليط ، وهو ما يُضاء به وهو الزيت. والنون في الســـلطان زائدة لأن أصل بنائه السليط.

(ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : سلط).

(٢) مراد كامل ، مقدمة تشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر ، ص : ٤٠ .

(٣) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٩٥/٢ .

(٤) ابن خلدون ، التعريف ، ٢٦٧ – ٢٦٨ .

الكافل ، وكافل الممالك الشريفة الإسلامية ، وهذا ما يُميّزه عن نوّاب السلطان بالممـــالك الشامية.[١]

ونائب السلطان يحكم في كلّ ما يحكم فيه السلطان ، ويعلّــم التقـــاليد والتواقيـــع والمناشير التي يعلّم عليها السلطان ، ويرتّــب الوظائف الجليلــة ، كالــوِزارة وكتابــة السّر والقضاء والجيش [٢]. وقد أطلق عليه المقريزي " السلطان المختصـــر " [٣]. كمـــا أطلق عليه السيوطي " السلطان الثاني ".[٤]

وقد تعرّضت نيابة السلطنة إلى هزّاتٍ ، إذ أبْطلها الناصر محمد بن قلاوون ، ثم أُعيدت بعد موته رغم إصابتها بالاضمحلال حتى أنعشها الظاهر برقوق ، ثم عادت إلـــى وضعها السابق.[٥]

وأما **نـــائب الغيبــــــة** ، فهو الذي يُترك في القلعة إذا غاب السلطان والنائب الكافل ، ومهمّته المحافظة على عرش السلطنة ، وإخماد القلاقل والفتن.[٦]

وقد احتلت **الــــــوِزارة** في عهد المماليك مكانة جليلة حينما كـــان يتولاّهــــا وزيرٌ من أربـــاب الأقلام ، لكنّها كانت تميل إلى الانكماش والانحطـــاط حين يتولاّهـــــا وزيرٌ من أرباب السيوف.[٧]

ويظهر اهتمام المماليك بالنيابة وتقديمها على الوزارة ، وإن أبطل الناصر محمـد بن قلاوون النيابة ، وألغى كذلك الوزارة ووزّع مهمات الوزير على ناظر المال ونـــاظر الخاص وكاتب السّر ، ثم أعيدت من بعده.[٨]

وتلاشت الوزارة في عهد الظاهر برقوق حين أحدث الديوان المفرد * ، وجعــل مرجعه إلى الاستادار ، فلم يبقَ للوزير سوى التحدث في أمور مطبخ السلطان ، مما دفـع

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ٢/٢١٥ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ٩٤ ، ابن شاهين الظاهري ، زبدة ، ١١٢ .

(٣) المقريزي ، م.س ، ص.ن .

(٤) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ص : ١٣٠ .

(٥) ابن الفرات ، تاريخه ، ج٩ ق٢ / ٣٩٩ – ٤٠٠ .

(٦) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص : ٩٥ .

(٧) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/٢٨ .

(٨) المقريزي ، م.س ، ٢/٢٢٣ .

* الديوان المفرد : هو الديوان المختص بما أُفرد من البلاد لصرف غلّتها على مماليك السلطان من جاميكيات (رواتب) وعليق (طعام الخيول) وكسوة. وهو من منشآت العصر الفاطمي.

(محمد دهمان ، المعجم ، ص : ٧٩).

الوزير سعد الله بن البقري بأن يقول : " الوزارة اليوم عبارة عن حوايج كاش عفش ، يشتري اللّحم والحطب وحوايج السلطان ".(١)

ويرى المقريزي ، أن الوِزارة في أيامه انقسمت بين أربعة ، هم : كاتب السر ، والاستادار * ، وناظر الخاص ، والوزير .(٢)

هذا ، وقد أفرد سلاطين المماليك الذين اهتموا بالوِزارة داراً لها عُرفت بقاعة الصاحب في قلعة الجبل ، وفيها ينعقد مجلس الوزير (المجلس العالي) . وهذا يعني بقاء الوزير على مقربة من السلطان ، وحتى يتمكّن من الإشراف على بقية الدواوين .(٣)

وممّا يلفت النظر ، أنّ معظم وزراء المماليك كانوا من أقباط مصر ، ولعلّ هذا الذي دفع السيوطي بأن يُعرّف الوزارة المملوكية بأنها " وزارة الأقباط " (٤) ويعود سبب ذلك إلى خبرة هؤلاء الأقباط بالأعمال الديوانية ، لكنّه كان يشترط على من يتولى الوزارة أن يُطبّق الإسلام ، حتى " إنهم اتخذوا من الإسلام وسيلة للوصول إلى الوزارة ".(٥)

وهناك **ديوان الإنشاء** (كتابة السّر) ، إذْ يُعدّ هذا الديوان من أهم الأعمال الديوانية في عهد المماليك ، ومقرّه قلعة الجبل ، وله قاعة خاصة باسم قاعة الإنشاء .(٦)

ويتولى ديوان الإنشاء موظفٌ كبير من أرباب القلم ، ويطلق عليه " كاتب السّر " أو كاتم السّر ، وصاحب ديوان الإنشاء(٧) . وفيه عددٌ من كُتّاب الدَّسْت ، وكتاب الدُّرْج(٨) . ويمكن حصر مهامه في أمور ثلاثة ، هي : المكاتبات السلطانية الصادرة عن

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ٢٢٣/٢ .

* الاستادار : لفظة فارسية الأصل ، وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان ، ويتولاّها مقدم ألف .
(القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٢١/٤) .

(٢) المقريزي ، م.س ، ص : ٢٢٤ .

(٣) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ١٠٦ .

(٤) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ١٢٤/٢ .

(٥) عبد المنعم ماجد ، نظم دولة المماليك ، ص : ٤٨ .

(٦) المقريزي ، م.س ، ص : ٢٢٥ .

(٧) ابن شاهين الظاهري ، الزبدة ، ٩٨ - ١٠٠ .

(٨) كُتّاب الدّست ، يجلسون مع كاتب السّر بدار العدل ويقرؤون القصص على السلطان ، ويوقعون عليها بأمر السلطان . وأما كُتّاب الدّرج ، فهم الذين يكتبون الولايات والمكاتبات ، وما يصدر عن الأبواب الشريفة .
(القلقشندي ، م.س ، ٣٠/٤ ، والمقريزي ، م.س ، ص : ٢٢٥ .)

السلطان وأخذ خط السلطان عليها ، وقراءة الكتب الواردة على السلطان ، والبريد ، والنظر في المظالم* .

وأمّا **الحسبة** ، فإنّها منصب ديني أخلاقي ، أساسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ثم تعدّت هذا المعنى الديني إلى أمور اقتصادية تمثّلت بمراقبة الأسواق ونشاطها التجاري والصناعي . ويعرف من يتولاّها بالمحتسب (مراقب الأسواق) . ويُختار عادة من كبار الفقهاء وأهل المعرفة بالأسواق وأخلاق الناس .(١)

وينوب عن المحتسب بالأسواق موظّفون يُعرفون بعرفاء الأسواق لمراقبة الأسعار والموازين . ويستعين المحتسب بوالي الشرطة لتنفيذ الأوامر وإيقاع العقوبة على المخالفين .(٢)

وأما دور المحتسب في عهد المماليك ، فإنّه لا يختلف عن مثيله في تاريخ الحسبة الإسلاميّة . وقد كان للقاهرة محتسبها ، كما كان لدمشق أيضاً محتسبها ، وكذلك لبقية النيابات والمدن الهامة .

النُظم الحربية المملوكيّة :

لما كانت الدولة المملوكية دولة عسكرية النشأة ، فقد تميزت نُظمها الحربية بالدقة والوضوح ، وأُسندت إلى رجال السيف . ويمكن تلمّس تلك النظم من خلال : الجيش والأسطول .

الجيش المملوكي :

اعتمدت الدولة المملوكية في بنية جيشها على العنصر المملوكي . وإذا كانت الدولة المملوكية قد استثنت أهل البلاد (مصر والشام والحجاز) من الخدمة العسكرية ، إلاّ أنها لم تُلغ تماماً أعراب الشام من الخدمة العسكرية ولو بشكل قوات احتياطية وخاصة عندما تتعرض البلاد لأخطار خارجية .

---

* النظر في المظالم : "... قَوْدُ المتظالمين إلى التناصف بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة ".

(الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص : ٩٧)

- أشرف السلطان المملوكي عليه بنفسه لمنع ظلم كبار رجال الدولة للرعيّة .

(المقريزي ، الخطط ، ٢/٢٢٥)

(١) الماوردي ، م .س ، ص : ٩٧ ، وابن خلدون ، المقدمة ، ص : ٢٨٠-٢٨١ .

(٢) المقريزي ، إغاثة الأمة ، ص : ١٨ ، ١٩ .

عُرف جيش المماليك بالجيش أو الجيوش المنصورة (١) ، وأشرف على شؤونه (ديوان الجيش) الذي عدّه المقريزي " بأضبط الدواوين وأكثرها نفعاً " (٢) ووظيفته تسمى (نظر الجيش) ، والقائم عليه (ناظر الجيش) يعاونه عددٌ من الكتّاب يسمّون (كُتّاب الجيش) (٣) وكلّ ذلك لضبط الأمور . كما وُجد في هذا الديوان قسمان ، أحدهما خاص بجيش مصر (ديوان الجيش المصري) ، والآخر عُرف بديوان الجيش الشامي ، ويُشرِفُ على كلّ منهما مستوفي الجيش ، ومهمة هذا الديوان تسجيل أسماء الجند وإقطاعاتهم وشؤونهم العسكرية (٤).

وقد اهتمّ سلاطين المماليك بإعداد مماليكهم وتربيتهم تربية إسلاميّة عسكرية في الطّباق * ، فيحفظون أجزاء من القرآن الكريم ، ويتعلّمون الخطّ ، وشيئاً من آداب الشريعة الإسلامية والصلاة (٥).

ويبدأ تدريبهم العسكري حينما يصل المملوك سنّ البلوغ ، إذ يُباشر بتعليمه شؤون الفروسية وفن الحرب. ويكون لكلّ نوع من السلاح معلّم خاص ، فهناك معلّم لرمي السهام ، وآخر للرمح ، وثالث لاستخدام السيف ، ورابع لركوب الخيل. وكما يصفهم المقريزي " إذا ركبوا للتدريب لا يَجْسُرُ أحدٌ جندي أو أميرٌ أن يَدْنوَ منهم ... " (٦)

---

(١) ابن شاهين الظاهري ، زبدة ، ص : ١٠٥ ، وابن إياس ، بدائع الزهور ، ٢٦١/١ .

(٢) المقريزي ، الخطط ، ٢٤٥/٢ .

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٣٠/٤ .

(٤) م . ن ، ص. ن .

* الطّباق : هي الأماكن التي بناها سلاطين المماليك لتربية مماليكهم ، وإعدادهم عسكرياً ، ولتكون سكناً لهم ، وكأنّها مدارس و أو كليات عسكرية.

وقد أقيمت بساحة الإيوان بقلعة الجبل ، وأوّل من بناها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٩هـ. وقد حدّدها ابن شاهين الظاهري بإثني عشر طبقة ، بينما حدّدها غيره بثماني عشرة طبقة. وهذا يعني أنها لم تُبْنَ دفعة واحدة.

انظر : ابن شاهين الظاهري ، م.س، ص.ن. ، والمقريزي ، م.س ، ٢/ ٢١٣ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١٠/١٢.

(٥) المقريزي ، م.س ، ٢/ ٢١٣ .

(٦) المقريزي ، م.س ، ٢١٣/٢ .

ومن هنا ارتبط لفظ الفروسيّة المملوكية بالأستاذ والمعلّم والرأس [١]. هذا وقد أشرف على تربية المماليك في الطّباق جماعة من أمراء المماليك عُرفوا بالطواشيّة * [٢].

وبعد أن يُنهي هؤلاء المماليك تربيتهم وتدريباتهم المقرّرة في الطّباق ، يُجرى لهم عَرْضٌ خاص (حفل تخرّج) ، يحصل المملوك من خلاله على إجازة تثبت انتهاء تربيته يُطلق عليها (عُتاقه) لأنّها تشير إلى عتْقه [٣].

وأما **تركيبة الجيش المملوكي** ، فهو كبقيّة الجيوش يتألّف من قادة وجُند، وقد أُطلق على قائد الجيش " أتابك العسكر ** ومن أهم الفرق العسكرية المملوكية ، المماليك السلطانية ، ومماليك الأمراء ، وأجناد الحلقة ، وهناك الأعراب والتركمان.

أ- **المماليك السلطانية** : هم أكثر الأجناد المماليك قُرباً للسلطان ، ومن أعظم الأجناد شأناً ، وأرفعهم قدراً ، وأوفرهم إقطاعاً [٤]. ويشكلون القوة الرئيسية بالجيش المملوكي ، وأعدادهم تتزايد حين ينضمّ إليهم مماليك السلطان السابق ، أو من مماليك الأمراء في حالة موتهم أو تمردهم [٥]. وبالتالي فإن المماليك السلطانية هم الحرس السلطاني الخاص. ومن أهم طوائف المماليك السلطانية :

- الخاصكيّة : وهم مشتريات السلطان (الجلبان - الأجلاب) ، ويلازمونه في خلواته.
- السيفيّة : وهم من مماليك الأمراء المعزولين.
- القرانصة (القرانيص) : وهم الذين ينتقلون من خدمة سلطان سابق إلى سلطان جديد [٦].

---

(١) الأستاذ ، هو الذي بلغ الغاية في فنون الفروسيّة ، وأصبح مرجعاً فيها ، فضلاً عن اشتغاله بالتعليم. أما المعلّم فهو الذي يشتغل بتعليم الرمح.

(انظر : الباز العريني ، المماليك ، ص : ٩٩ - ١٠٠).

* والطواشيّة : جمع طواشي ، وهم المماليك الخصيان المعيّنون لخدمة بيوت السلطان وحريمه.

(محمد دهمان ، المعجم ، ص : ١٠٩).

(٢) المقريزي ، الخطط ، ٢/ ٢١٥ .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٣١١/١١ .

** الأتابك : الوالد أو الأمير الكبير ، ، وهو أبو الأمراء . (محمد دهمان ، م.س ، ص : ١٠٩).

(٤) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١٥/٤ .

(٥) قاسم عبده ، عصر سلاطين المماليك ، ص : ١٩ ، ٢٠ .

(٦) انظر : Ayalon , D., Payment in Mamluk Military Soceity , p.42

وعن المماليك السلطانية انظر : ابن شاهين الظاهري ، زبدة ، ص: ١١٥ - ١١٦ .

ب- المماليـــك الأمــــراء : وهم قادة الجيش المملوكي ، ويُسمّوْن بالأمراء، واصطلح على تقسيمهم إلى فئات ثلاث :

- أمراء المائة مقدمي الألوف : وعددهم أربعة وعشرون أميراً ، ويعمل فـــي خدمة كلّ أمير منهم مائة مملوك ، ويكون الأمير مقدّماً على ألف جندي ، من أجناد الحلقة (١).
- أمراء الطبلخاناة : تُسمّى وظيفتهم " إمرة طبلخاناة " وسمّوا بذلـــك لأن لـــهم الحق في دقّ الطبول في المواكب الرسميّة وعلى أبواب بيوتهم. ويملك كـــلّ أمير منهم أربعين فارساً ، وقد يصل إلى ثمانين فارساً ، وعادة يخضعـــون لأمراء الألوف(٢).
- أمراء العشرينات والعشرات والخمسات : يستدلّ من هذه الأسماء علـــى أنّ لكلّ أميرٍ منهم العدد المقرون بوظيفته (٣).

ج- أجنـــاد الحلقـــة * : يتكونون من عناصر مختلفة ، ويشكّلون نخبة عســكريّة محترفة وفي أساسهم جزء من المماليك السلطانية ، لكن تركيبتهم اختلفت بانضمـــام عناصر أخرى من التتار الوافديّة (٤) ، وأرباب الحرف والصنائع على أثر ضعـــف الجيش المملوكي. واعتبر فرسان الأعراب والتركمان والأكراد جزءاً مـــن أجنـــاد

---

(١) ابن شاهين الظاهري ،زبدة، ص:١١٥-١١٦ .

(٢) انظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١٥/٤ ، والمقريزي ، الخطط ، ٢١٥/٢ .

(٣) ابن شاهين الظاهري ، م.س ، ص : ١١٥ .

* أجناد الحلقة : اختلف المؤرخون والمهتمون بتأريخ المماليك على طبيعة تكوين فرق أجناد الحلقة في الجيش المملوكي.

- يعرّفهم (محمد دهمان) بالجنود المرتزقة من غير مماليك السلطان. (المعجم ، ص : ١٢).
- يعرّفهم (كمال الصليبي) : " بالفرسان الأحرار من غير المماليك تنتقيهم الدولة المملوكية من بـــين العنـــاصر المحلية في مختلف المناطق للمساعدة في الحفاظ عليها. وكان أمراء الحلقة يتسلمون الاقطاعات من ديوان الجيـــش المملوكي مكافأة لهم عن خدماتهم العسكرية ......"

(منطلق تاريخ لبنان ، ص : ١١٩ — ١٢٠).

- " وهم فئة من الجيش المملوكي مكوّنة من محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين ".

(ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ١٠٥ ، حاشية رقم (١)).

- وأما سبب تسميتهم بأجناد الحلقة ، لأنهم كانوا يحيطون بالسلطان أو الأعداء.

(م.ن ، ص.ن)

(٤) Ayalon , D., Payment in Mamluk Military , p. 267 .

الحلقة أحياناً حينما تدعو الحاجة إليهم. " وفئة أجناد الحلقة لا تتغير بتغير السلاطين وإنما كأساس دائم للجيش المملوكي " [١].

ويقسّم أجناد الحلقة من حيث العمل إلى أربعة أقسام : البحريّة وهم جزء من حرس السلطان في القلعة ، وهؤلاء أساساً من الخاصكيّة ، ومماليك الغيبة الذين يعيّنهم السلطان في مراكز محدّدة إبان غيابه ، ومنهم من يُرسلهم السلطان في سفاراته ، والباقي فرق تخدم في بيوت الأمراء [٢].

وقد شكّل أجناد الحلقة عصب الجيش المملوكي ، لكنّ دورهم تراجع مع ازدياد نفوذ المماليك السلطانية وتدخّلهم المباشر في السياسة الداخلية أحياناً. وبلغ عددهم في زمن ابن شاهين الظاهري " أربعة وعشرين ألفاً ، لكل ألفٍ منهم مضاف إلى أحد أمراء مقدّمي الألوف ، وكل مائة من الألف لهم باش ونقيب " [٣].

وأما **الأسلحة** التي استخدمها المماليك في القتال ، فقد شملت : السيف والسهم والترس والرمح والفأس والخنجر والبلطة والمنجنيق. ومن أهم ملابسهم العسكرية الدروع والخوذة الحديدية [٤].

وأما **الأسطول** فقد أنشأ المماليك دوراً لصناعة السفن في بولاق والفسطاط والإسكندرية ، ووفّروا الأخشاب من بلاد الشام وأسيا الصغرى. ويعود سبب اهتمامهم بالأسطول لمواجهة خطر الفرنج في المتوسط ، والبرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي منذ نهاية القرن الخامس عشر والسنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادي.

ثانياً : فئات المجتمع المملوكي :-

ميّز المؤرّخون والمهتمون بدراسة المجتمع المملوكي بين فئاته الاجتماعيّة المتعدّدة. فهذا ابن خلدون يقسّم المجتمع عامة إلى فئتين هما : السلطان والرعيّة " فالسلطان من له رعيّة ، والرعيّة من لها سلطان " [٥].

(١) ابن الفرات ، تاريخه ، ١٧٩/٨ .

(٢) ابن شاهين الظاهري ، زبدة ، ص : ١١٦ .

(٣) م.ن ، ص.ن .

(٤) مجهول ، خزانة السلاح ، ص : ٢٣ – ٦٣ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : ٢٣٦ .

وأما المقريزي ، فقد قسّم المجتمع المملوكي إلى سبع فئات ، هي : " أهل الدولة، وأهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهيّة ، والباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم أهل البزّ ، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السُوقة ، وأهل الفلح وهم أهلُ الزراعات والحرث في القرى والريف ، والفقراءُ وهم جُلُّ الفقهاء وطلاّبُ العلـــم ، والكثيرُ من أجناد الحلقة ونحوهم ، وأربابُ الصنائع والأُجراء أصحـــاب المـــهن ، وذوو الحاجة والمسكنة ، وهم أهل السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم " (١).

يبدو أن المقريزي قد تجاهل فئة الأعراب (العربـــان) ولعلّـه ضمّهـم إلـى أهل الفلح. ولكنّ الأعراب هم غير أهل الفلح ، فلكلّ فئة ما يميّزها عن الأخرى.

فالفئة الأولى في المجتمع المملوكي ، هـــي **أهـــل الدولـــة** (أربـاب السيوف)، وهم الفئة الحاكمة ، وجلّهم من المماليك. وعلى رأس هـــذه الفئـــة السـلطان المملوكي وأمراؤه الذين استأثروا بالمناصب القيادية عسكرية وسياسية على حدٍّ سواء كما توزّعوا الأراضي الزراعية في مصر والشام على شكل إقطاعات عسكرية *.

وتبدو هذه الفئة مميّزة عن الفئات الأخرى ، عاشت حياتها الاجتماعية بمعزل عنها وإن العلاقات بينها وبين تلك الفئات لم تكن قائمة على أساس مـــن الحقـــوق والواجبـات المتبادلة(٢) بل على أساس مصالحها التي تجسّدت بامتيازاتها المكتسبة ، فـــهي حريصـــة على المحافظة على وجودها ، " إذ إن استمرار امتيازاتها هو أساس وجودها " (٣).

وبالرّغم من غُربة هذه الفئة الحاكمة عن المجتمع العربي في مصــــر والشـــام ، وعَيْشها عيشةً خاصة بها إلاّ أنّها اعتمدت على الفئات الأخرى في اســـتمرار وجودهـــا ، فكانت بحاجة ماسّة لهذه الفئات بالقدر الذي كانت فيه تلك الفئات بحاجة إليها في تيســـير سبل وجودها كذلك.

---

(١) المقريزي ، إغاثة الأمة ، ص : ٧٢ – ٧٣ .

* الإقطاع العسكري : نظام اتبعه السلاجقة والأيوبيون ثم المماليك ، فيُقْطع السلطان أحد أفراد أسرته وكبار رجـال دولته منطقة من بلاده يستقلّ بشؤونها وعليه تهيئة الجند ودفع عطاءاتهم ، ويرجع إلى الســـلطان مباشرة في كل أمر من أمور إقطاعه ، ويقوم هذا الأمير بإقطاع الإقطاعات لكبـــار رجالاتـــه وقادة جنده ويرجعون إليه مباشرة ويعملون على تامين الجيش وعطاءاته.

(انظر : هذه الأطروحة، ص : ٦٣ وما بعدها).

(٢) قاسم عبده ، دراسات اجتماعية في عصر المماليك ، ص : ١٦ .

(٣) إيرا لابيدوس ، مدن الشام ، ص : ٨٩ .

والجدير بالذكر ، أن هذه الفئة سيطرت على ثروات المجتمع المملوكي ونصّبت من نفسها حامية لها. وقد عاشت من وجهتي النظر الاجتماعية والاقتصادية فئة ثريّة في " بذخٍ وترف بالغيْن " (١) بالمقارنة مع حياة الفئات الخرى.

ورغم نيل المماليك قسطاً من التربية الإسلامية في الطّباق ، إلاّ إن ذلك الثراء غير المشروع والفاحش دفع الكثير منهم إلى حياة الترف ، وبالتالي مخالفة القواعد والتقاليد الإسلامية.

وأما **أربـاب القلـم** ، فهم الأعيان والوجهاء من العلماء والفقهاء والقضاة والوعّاظ والمشايخ وطلاّب العلم والكتّاب ونقباء الأشراف. وقد أُطلق عليهم مصطلح أهل العمامةِ أو المتعمّمين.

ولقد شكّلت هذه الفئة قيادة روحيّة للمجتمع المملوكي تُجسّدُ مُثُلَهُ العُليا ، وتحظى باحترام الفئات الأخرى ، وقد عاش أفرادها في بحبوحة من العيش. وقد دفع دور هذه الفئة سلاطين المماليك إلى بناء علاقات متينة مع أرباب القلم ليكونوا أداةً طيّعَةً في جهاز الدولة المملوكية. وخلاصة القول ، إنّ دور هذه الفئة قد تمثّل بدور الوسيط الاجتماعي بين السلطة المملوكية الحاكمة ، وبين بقية أفراد الرعيّة.

والفئة الثالثة هي **أهـل اليسـار** (كبار التّجار) الذين كوّنوا فئة ثريّة ذات نفوذٍ استطاعت أن تحتلّ مكانةً اجتماعية مرموقة في المجتمع المملوكي. ونظراً لثراء أفرادها ، فقد وقفوا على قدم المساواة مع أمراء المماليك أحياناً ، فسُمِحَ لهم بحضور الاحتفالات والمناسبات الرسميّة.

والجدير بالذكر ، أن أهل اليسار قدّموا خدمات جمّة للمجتمع المملوكي ، فأسهموا في تجهيز الجيش المملوكي ، وبناء المدارس والمساجد وتغطية المصاريف اللازمة لها.

ومع تلك المكانة الاجتماعية التي تمتّعوا بها ، فإنّ هذا لم يمنعهم من احتكار المواد الضرورية للمجتمع ، فشكّلوا فئة احتكاريّة ساهمت في سوء الأحوال الاقتصاديّة أحياناً. لهذا كلّه كان التعاون ضرورياً بين سلطة المماليك وهؤلاء التجار الكبار ، لا سيّما أنّهم لا يستطيعون مواصلة نشاطهم دون توفير الحماية لهم.

والفئة الرابعة هي **أهـل الفلـح** (الفلاّحون) ، وهم سكّان القرى والأرياف المصريّة والشاميّة ، وعملهم الأساسي فلاحة الأرض وزراعتها.

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٦٥/١٢ .

ولمّا شكّلت الزراعة مصدراً أساسياً من مصادر الثروة الاقتصادية المملوكية ، فإنّ المماليك قد لجأوا إلى وضع مجموعة من القوانين لاستيفاء الضرائب كاملة من الأراضي الزراعيّة ، وإلزام الفلاّحين بزراعة الأرض ، وإلاّ اُعتُبروا متهرّبين من الزراعة ، وأُلزِموا بدفع الضرائب كما لو كانوا قد زرعوها.(١)

وأمّا مكانتهم الاجتماعية ، فقد وصلت إلى مرحلة متدنيّة ، فقد تعرّضوا إلى الظلم والقهر الاجتماعي من قِبَل أمراء المماليك حتى أصبحت حياتهم مرتبطةً بالأرض على شكّل (أقنان) إن جاز التعبير. وهذا ما دفع المقريزي لوصف المُزارع المقيم بأنه " فلاحٌ قرارٌ * ، فيصير عبداً قِناً لمن أقطع تلك الناحية " (٢).

لذلك عاش أبناء هذه الفئة أذلاّء مساكين ، فتعرض أولادهم إلى الإهانة ، وهُتكت حريمهم ، فانتشرت الأوبئة والمجاعات بينهم ، وراح ضحيّتها الكثير منهم.

والفئة الخامسة هي **العامّة** الذين مارسوا الحرف والمهن المختلفة في المدن الرئيسية ، وغالبيتهم من ذوي الدخل المحدود والمتوسط ، ويعرّفهم (لابيدوس) بأنهم سكّان المدن من العمّال والأشخاص الذين يعملون في الحوانيت والحرفيين التجاريين، والبنّائين والصنّاع ، وبائعي المفرّق ، وكلّهم من دافعي الضرائب (٣).

وأمّا الفئة السادسة فهي فئة **الأعراب** (العربان) ، والتي ضمّت أبناء القبائل العربية وعاشت في بوادي مصر والشام في عهد المماليك. ولما كنّا نبحث في أعراب الشام ، فإن التعرّف على قبائل الشام وعلاقاتهم مع المماليك سيكون في الفصول القادمة.

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ٢/١٣٠ .

* القرار : المكان يثبت ويستقر فيه الفلاح .

(٢) م.ن ، ص : ١٣٢ .

(٣) إيرا لابيدوس ، مدن الشام ، ص : ١٣٧ .

الفصل الأول

الفصل لأول

مجتمع أعراب الشام في عهد المماليك

- تمهيـــد.

أولاً : جغرافيـــة بـــلاد الشـــام.

ثانياً : التقسيــم الإداري لبــلاد الشــام.

ثالثاً : مدلــول لفظــة " عـــرب ".

رابعاً : القبائــل العربيــة فــي بــلاد الشـــام.

خامساً : إمــرة العـــرب : تاريخهـــا ـ مفهومهـــا.

سادساً : المكاتبـــات السلطانيـــة لأمــــراء العـــرب.

سابعاً : ألقـــاب أمــــراء العــــرب.

ثامناً : الإقطاعــات المملوكيـــة لأعــــراب الشــــام.

تاسعاً : العلاقــات بين أعــراب الشــام وموقف الســلطة المملوكيــة منها:

أ – الأحــلاف القبليـــة.

ب– النـــزاع بين أعـــراب الشـــام.

تمهيـــــــــــد

تركّزت القبائل العربية الشامية في شمالي بلاد الشام ، وامتدت ديارها في أنحـــاء متفرقة من بادية الشام. ولما كانت هذه البلاد تشكّل بعداً حيوياً للسلطة المملوكيـــة فـــي القاهــرة ، فقد نظّمتها إدارياً وربطتها كنيابات (ممالك) في دمشق ؛ التي اكتسبت أهميّةً بالغةً بعد القاهرة.

ولمّا كان البحث يدور حول أعراب الشام في عهد المماليك ، فقد استعرضنا أهــم القبائل العربية نسباً وتوزيعاً. فلكي تضبط السلطة المملوكية أَمْنَ الشـــام واســتقرارها ، عملت على استيعاب أعرابها ودمجهم في النظام الإداري المملوكي ، فاستحدثت منصب "إمرة العرب" وتعاملت معه بدقة وحذر . وتبيّن من المكاتبات السلطانية لأمراء العـــرب مدى اهتمام المماليك بهذا المنصب والأمراء العرب الذين يتولّوه. ولـــمْ تقــف الســلطة المملوكية عند منح أمراء العرب الألقاب التشريفية ، بل أقطعتــهم الإقطاعــات كــأمراء المماليك ، وإنْ لم يصلوا إلى مرتبتهم القيادية.

وقد حاولنا رسم صورة للعلاقات بين القبائل العربية الشامية في نواحيها الإيجابيــة (الأحلاف القبلية) ؛ وفي الاتجاه الآخر ، تتبعنا جانباً من العلاقات السلبية متمثّلة بالنزاع والخلاف بينها. لكنّ السلطة المملوكية لم تغمض عينيها عن تلك العلاقات العربية_العربية بشقيها الإيجابي والسلبي.

ومن هُنا ، دفعتنا ضرورة البحث لإثبات الإطار الشامل للدراسة ، وتتبع الحقبــة الزمنية التي تغطيها الدراسة. وحتى تكون الصورة مرئية أمام القــارئ قدمنــا جــدولاً يتضمن قائمة بسلاطين المماليك ومن زامنهم من أمراء أعراب الشام ؛ كما قدمنا صــورة لشجرة نسب القبائل العربية وأهم أمرائها.

لهذا كلّه سَيُطْبع الفصل الأول بطابع سردي فيما يخــص جغرافيــة بــلاد الشــام واستعراض القبائل العربية الشامية بأنسابها وأمرائها.

أولاً_ جغرافية بلاد الشام :

إنّ دراسة جغرافية بلاد الشام ضرورية لمعرفة توزيع القبائل العربية الشاميّة في عهد المماليك ؛ ولمتابعة حركة هذه القبائل في أطراف الشام وبواديها خارج المناطق المعمورة في الريف والمدن ، ولتحديد إقطاعات القبائل التي منحتها إيّاها السلطة المملوكية .

هذا وسنتوقف قليلاً عند تسمية الشام ، وحدودها الطبيعية ، ووصف مظاهر سطحها.

• تسمية بلاد الشام :-

عُرفت بلاد الشام قديماً باسم سوريا (Syria) عند اليونانيين الذين أطلقوا اسم سوريا على المنطقة المحيطة بمدينة صور [(١)]. ثم توسّعوا باستعماله فأطلقوه على المنطقة الواقعة بين جبال طوروس في الشمال وصحراء سيناء في الجنوب ؛ والبحر المتوسط في الغرب والبادية في الشرق [(٢)]. وظلّت سوريا تشمل هذه المنطقة في العصور اليونانية والرومانية ، والعصور التالية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

وأما العربُ فقد أعطوها اسماً جديداً هو " الشام ". ولجغرافي القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، ومن اعتمد عليهم ممن جاء بعدهم آراء متباينة في تسمية الشام. فالمسعودي يرى بأن الشام سُمّي شاماً " لشامات في أرضه بيضٌ وسودٌ ، وذلك في التراب والحجر والنبات " [(٣)]. والمقدسي يقول : " سُمّيت الشام شاماً لأنها شامة الكعبة وتقع عن شمالها " [(٤)]. ويُورد ياقوت الحموي ألفاظاً للشام : الشأم ، والشّام ، والشّأم ؛ ويورد قصصاً لتفسير ذلك ؛ فتارة يرى أنّه مأخوذٌ من اليد الشّؤمى (اليُسرى) ، وتارة يرى بأنه مشتقٌ من الشؤم ، و ثالثة لكثرة قُراها وتداني بعضها من بعض فشبّهت بالشّامات [(٥)]. وقال بعضهم بأن الشام سُمّيت بهذا الاسم لأنّ قوماً من بني كنعان

---

(١) لي سترانج ، فلسطين ، ص : ٣٣ ؛

وانظر : فاروق اسماعيل ، سوريا، مجلة دراسات تاريخية ،١٩٩٤ ، العددان ٤٩و٥٠ ، ص : ١١٩ – ١٢١ .

(٢) فيليب حتي ، تاريخ سوريا ، ٦٢/١ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ٣٨٧/١ ؛ وشيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص : ٢٥٨ .

(٤) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص : ١٣٤ .

(٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٣٥٣/٤ – ٣٥٤ ، ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ٥/١ – ٦ .

تشاءموا إليه أي تياسروا إليــه، لأنّه يقع عن يسار الكعبة. وقيل ، بل سمي بســـام بــن نوح، واسمه بالسريانية شام. ولكــن آخرين نفوا أن يكون سام قد نزل فيها (١).

وللشام عند العرب معنى ، هو (الطيّب) (٢). ويُقال للشام : اللماحة ، واللماعــة بالركبان ، تلمع بهم أي تدعوهم إليها فتطيبهم (٣).

• حـــــدود بـــــلاد الشـــــام :-

يكاد يتفق الجغرافيون والمؤرخون على حدود بلاد الشام ، فابن حوقل يتفق مـــع الأصطخري ، فيحددانها من الغرب ببحر الروم (المتوسط) ، ومن الشرق ببادية الشام ، ومن الشمال ببلاد الروم ، ومن الجنوب بمصر وتيه بني إسرائيل. ويَرَيا أنّ آخر حدودها مما يلي مصر هي رفح ، ومما يلي بلاد الروم هي الثغور * (٤).

ويُطالعنا أبو الفداء بحدود بلاد الشام مبتدئا بخط الحدود الذي يسير مـــع ســـاحل بحـــر الروم غربا ، ويمتدّ هذا الساحل من طَرَسوس ** إلى رفح المدينة الحدودية بيـــن الشام ومصر. ثم تسيرُ حدودها الجنوبية من رفح مع حدود تيه بني إسرائيل إلى ما بيـــن الشوبك وأَيْلَة (العقبة) حتى تصل البلقاء. من جهة الشرق تمتد حدودها من البلقاء إلـــى مشارف صَرْخَد متجهة نحو أطراف غوطة دمشق ومنها إلى سلميّة فمشارف حلب إلـــى

---

(١) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص : ٢٢٥ ، ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ص : ١٦٩ – ١٧٠ .

(٢) ابن شاهين الظاهري ، زبدة ، ص : ١٤١ .

(٣) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ١ / ٨ .

* الثغور: جمع ثغر ، وهو اسم لكل موضع يكون في وجه العدو ، وكأنه مأخوذ من الثُغرة وهي الفجوة. وقد كـانت الثغور أيام عمر وعثمان وزاد عددها في عهد الأمويين. وفي عهد العباسيين بن الرشيد أذنـــة (أضنـــة) ، وطرسوس ثم جمع الثغور من الجزيرة وقنسرين في حيّز واحد وسمّاها (العواصـــم) ، فـــأصبحت الثغـــور والعواصم اسماً على مسمىً واحد. وسميت الثغور من ملطيّة إلى مرعش بثغور الجزيرة.

فالثغور الإسلامية ، سلسلة من الحصون بناها المسلمون على حدود الأعداء ، وهي جـــزء مـــن التنظيـــم العسكري الثابت ، الغرض منه تأمين حدود الدولة الإسلامية ، ولتبقى مراكز دفاعية محصّنـــة ومشـــحونة بالرجال بشكل دائم.

انظر : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص : ١٥٤ ؛ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٢ / ٩٣ ؛ الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، ١ / ٣٩٧ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤ / ١٣٥ – ١٣٦ .

(٤) ابن حوقل ، م.س ، ص : ١٥٣ .

ويرى ابن الشحنة ، بأن آخر حدودها مما يلي مصر هي العريش . (الدر المنتخب ، ص : ٨).

** طرسوس : ثغر من الثغور الشامية ، استحدثها المأمون بن الرشيد ، وقبره فيها .

(ابن حوقل ، م.س ، ص : ١٦٨).

بالس*. ويحيط بها من جهة الشمال حدّ يمتد من بالس مع الفرات إلى سميساط فمرعش وسيس وحتى تصل إلى طَرَسوس [١].

• مظاهـــر السطـــح (التضاريـــس) :-

تتميّز تضاريس بلاد الشام بالبساطة ، فتتكوّن من نطاقات طولية متوازية تأخذ في الامتداد من الشمال إلى الجنوب بصفةٍ عامة ؛ فيمتدّ الجزء الشمالي في سوريا ولبنـــان ، بينما يمتد الجزء الجنوبي في فلسطين والأردن. ويميّز الجغرافيون خمس مناطق طوليـــة في تضاريس بلاد الشام ، تشمل الآتي :

١) الســـــهل الســاحلـــــي :

وهو سهل خصب ، يسير بحذاء الساحل الشرقي للبحر المتوسط ممتداً من الشـمال إلي الجنوب ، ويختلف اتساعه من مكان لآخر ، حيث يتّسع في الشمال ثم يضيق فـــي مناطــق من الساحل اللبناني ، ويزداد اتساعه في فلسطين عند عسقلان ثم غزّة [٢].

٢) السلسلـــة الغربيـــة :

هي سلسلة الجبال الغربية الموازية للسهل الساحلي ، وتتكوّن مـــن مرتفعـــات؛ تُعرف الكتلة الشمالية منها باللّكام [٣] (الأمانوس) ، وهي تجاور اللاذقيّة ، ثم تعرف

---

* بالس : مدينة على الشط الغربي للفرات ، وهي أول الشام من جهة العراق .
(ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص : ١٦٥).

(١) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص : ٢٢٣ ، ٢٢٥ .
- الادريسي ، يجعل حدها طولاً من ملطية وحتى رفح. (نزهة المشتاق ، ص : ٣٧٨).
- شيخ الربوه ، يجعل حدها طولاً من ملطية وحتى العريش. (نخبة الدهر ، ص : ٢٥٨).

(٢) يسري الجوهري ، جغرافية العالم الإسلامي ، ص : ١٠٧ ، ١٣٠ .

(٣) اللّكام : يبدأ جبل اللكام من بحر القلزم ، ثم يمتد نواحي الشام ، فيُسمى هناك جبل لبنان ؛ وحين يجاور حمـــص يُسمى جبل بهراء وتنوخ ؛ وحين يجاور اللاذقية يُسمى اللكام. وينتهي عند عين زربة والهارونية ومرعش.
(الادريسي ، م.س ، ص : ٣٥٣).
- ويصفه المقدسي ، بأنه أعمر جبال الشام ، وأكثرها ثماراً. طرسوس من ورائه وأنطاكية دونه.
(أحسن التقاسيم ، ص:١٦٢).
- ويمكن القول ، بأنّه التواء فرعي من جبال طوروس التي تفصل سوريا عن تركيا باتجاه الجنوب لتتصل بكتلـــة الجبال السورية ، ويشقّ نهر العاصي مجراه في الطرف الجنوبي من اللكام.

بجبـل بهراء وتنوخ بالغرب من حمص ؛وأما الجنوبية منها فهي جبـــال لبنـان الغربية ، ثم تليها هضبة الجليل شمالي فلســـطين ، وتليـــها هضبـــة السّـــامرّة (جبـــال نابلس)[١].

٣) الســـــهول الوســـــطى (المنخفض الأوسط) :

وهي حوض ضيق وطويل ، تمتد من شمالي سوريا حتى وادي عربة ، وتشـــمل سهل العمق الذي يجري فيه نهر العاصي ، ومستنقعات الغاب ؛ ثم يليها سهل البقاع الذي يجري فيه الليطاني ، وغور الأردن الذي يجري فيه نهر الأردن الذي ينتهي في البحـــر الميت ؛ ويعدّ هذا مانعاً طبيعياً بين الهضبة الغربية و الهضبة الشـــرقية ويعـــرف هـــذا المنخفض بحفرة الانهدام [٢].

٤) سلسلـــــة المرتفعـــــات الشرقيـــــة :

تبدأ هذه السلسلة شمالاً في هضبة جنوبي حمص ، ثم تـــأخذ بـــالانحدار صـــوب الشرق ؛ وإلى الجنوب منها سلسلة جبال لبنان الصغير ، ثـــم تـــأخذ الأرض بـــالانحدار صوب الشرق إلى البادية السورية التي تتصل بسفوح الجبال أحياناً ، بينما تبعـــد عنـــها أحياناً أخرى تاركة منطقة زراعية كما هو الحال في غوطة دمشق. وهضبة حوران التي تأخذ في الارتفاع شرقاً مكوّنة منطقة جبل العرب (الـــدروز) الخصبـــة. وأمـــا فـــي الأراضي الأردنية فتعرف باسم جبال مؤاب التي تقع شرقي أخـــدود الأردن وانحدارهـــا شديدٌ تجاهه ؛ بينما تنحدر تدريجاً نحو الشرق حتى تنتهي في بادية الشام [٣].

٥) باديـــــــة الشــــــــام :

اهتم الجغرافيون المسلمون الأوائل ببادية الشام ، ففيها ديار العرب ، ومنها تمـــرّ قوافل الحجاج إلى مكة ، وتلتقي فيها قوافل التجارة القادمة من العراق والشام ومصـــر. لذلك اعتبرها عددٌ من الجغرافيين امتداداً طبيعياً لديار العرب (شبه الجزيرة العربية)[٤].

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص : ١٥٦ ؛ كمال الصليبي ، منطلق تاريخ لبنان ، ص : ٢٧ – ٢٨ .

(٢) يسري الجوهري ، جغرافية العالم الإسلامي ، ص : ١٠٨ .

وعن وصف غور الأردن ، انظر : ابن حوقل ، م.س ، ١٥٩ – ١٦٠ .

(٣) فليب حتي ، تاريخ سوريا ، ص : ٤٤ ؛ يسري الجوهري ، م.س ، ١٠٩ – ١٣٣

(٤) يذكر المقدسي :" أن قسماً من الناس عدّ بادية العرب من الشام ، وقسماً عدّها من جزيرة العرب " .

(أحسن التقاسيم ، ص : ٢٠٤).

– والمقدسي تنقّل فيها غير مرّة وتفحّصها ، فعدّها وحدة جغرافيّة مستقلّة لكنه اتفق مع الجغرافيين في حدودها.

ويكاد يتّفق هؤلاء الجغرافيون على حدود بادية الشام ؛ فتبدأ حدودها من أَيْلَة (العقبة) على بحر القُلْزم (الأحمر) ، إلى بالس على شط الفرات الغربي من سوريا ؛ ثم عبّادان (عبدان) على الخليج العربي ، وما بين عبدان وأيلة فيكاد يكوّن حداً مستقيماً ماراً من جبل طيء (شمّر) (١).

والصورة الحديثة لحدود بادية الشام لا تختلف كثيراً عن الصورة السابقة ، فتبدأ من معان جنوبي الأردن ؛ وتسير شرقي جبال الشراة وجبال مؤاب وجبال عجلون. ويسير حدّها مع السكّة الحديدية الحجازية الممتد على سيف البادية ؛ ثم ينعطف نحو حوران ، ثمّ شرقي دمشق إلى حمص فبالس على شط الفرات (٢).

وتنقسم البادية الشامية قسمين ، حسب قربها أو بُعدها عن المعمورة ، وقلّة أمطارها أو كثرتها ؛ وبقاء أعشابها أو قلّة ذلك. فالقسم الأول ، هو السهوب ، وفيها منطقتان يفصلهما وادي الفرات ، فالشاميّة عن يمينه والجزيرة عن يساره. والقسم الثاني ، هو البادية الحقة (٣).

ويعدّ إقليم الجزيرة * والفرات البوابة الشمالية لبلاد الشام. كما شكّل الظهير الجغرافي والاستراتيجي للعرب في نطاق الثغور الممتد على طول جبال طوروس. وقد تعرّض هذا الإقليم للتخريب على يد المغول. وبعد رحيلهم عادت القبائل العربية إلى الانتشار تدريجاً فيه ، وظلّت الغالبية على بداوتها وترحالها. كما هبطت أقوام من الأكراد

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص : ٢٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ١٦٣ ؛ والقزويني ، آثار البلاد ، ص : ٢٠٥ .

- وضّح أبو الفداء حدود بادية الشام :

" ما كان من حد عبّادان إلى الأنبار مواجهاً لنجد والحجاز فمن بادية العراق ، وما كان من حد الأنبار إلى بالس إلى تيماء ووادي الفرات فهو بادية الجزيرة ، وما كان من بالس إلى أيلة مواجهاً للحجاز معارضاً لأرض تبوك فهي بادية الشام " . (تقويم البلدان ، ص : ٢٨٠).

(٢) أحمد وصفي زكريا ، عشائر الشام ، ص : ١٨ .

(٣) م.ن ، ص : ١٩ – ٢٦ .

● من أهم أقسام بادية الشام في عُرف أهلها : الوديان ؛ وتمتد من حدود سوريا غرباً إلى وادي الحر شرقاً ، وترتادها القبائل في مواسم الربيع. والحمّاد ؛ وهو قفار موحشة ، تمتد من جنوبي تدمر حتى النفوذ. والحمّاد صميم البادية ولبّها ، أقساها مدخلاً ، وأبعدها منتجعاً. والحجرة ؛ تطلق على المنطقة المملوءة بالصخور. (عبد الجبار الراوي ، البادية ، ص : ٦).

* إقليم الجزيرة : يطلق عليه أحياناً بادية الجزيرة ، ويشمل المنطقة الواقعة بين نهري الفرات ودجلة والخابور ، ولا يفصلها عن البادية إلاّ الفرات. والأعراب ، يسمون المنطقة الواقعة عن يمين الفرات بالشّاميّة ، والكائنة عن يساره بالجزيرة. (م.ن، ص : ٣).

والتركمان واستقرت في شريط على امتداد هذا الإقليم [1].

ويمكن القول أنّ بادية الشام تمتد بشكل مثلث كبير ، زاوية في قاعدته فوق البصرة على الخليج العربي في العراق ، وزاوية فوق خليج العقبة على البحر الأحمر ، ويصل بينهما خطّ وهمي يقطع العراق والسعودية والأردن. وزاوية ثالثة بشكل قنطرة غربي تدمر في سوريا وقرب الفرات في الجزيرة الشامية [2].

ويتخلّل بادية الشام الحرّات ، وهي ذات حجارة سوداء كأنها أُحْرِقَتْ بالنار ، وتقع بين دمشق والمدينة. ثم تتخللها أودية عدة شرقي تدمر ، والأزرق ووادي السرحان الذي يصل سهول حوران بصحراء النفوذ وهضبة نجد الشمالية [3].

وتربةُ بادية الشام تربةٌ رمليةٌ كلسيّةٌ بيضاء أو صفراء. فإذا نالها نصيب من المطر نبتت الأعشاب. ومناخها حارٌّ صيفاً ، باردٌ شتاءً. وهي لا تصلح للحرث والزرع عِذْباً لقلة أمطارها وجفاف جوّها وملوحة تربتها [4].

وأكثر ما يهمُّنا من هذه الرؤية الجغرافية لبلاد الشام ، هو البادية التي لا تصلح للحياة المدينية أو الحضرية ؛ إذ يتجول في أرجائها أعراب بلاد الشام. كما أنّها تُشكّل مواطن انتشارهم ، وميادين صراعاتهم القبلية وتحرّكاتهم إزاء السلطة المملوكية والقوى الداخلية الخارجة عن طاعتها ، أو المعادية لها من التتار وكذلك تجاه الأتراك العثمانيين في أخر عهد المماليك.

هذا ، وسنرى أثر هذه البيئة الصحراوية على تصرفات هؤلاء الأعراب ، ومواقفهم من السلطة المملوكية. كما سيتبين أثرها في توجيه مصالح الأعراب إزاء المماليك والتتار.

ثانياً_التقسيم الإداري لبلاد الشام في عهد المماليك*:

كانت بلاد الشام في عهد المماليك مقسّمة إلى ستة أقسام إدارية رئيسية هي : دمشق - حلب - حماه - طرابلس - الكرك - صفد. وقد سُمّيت واحدتها نيابة أو مملكة. وتعد هذه التقسيمات استمراراً للتقسيمات الإدارية في عهد الأيوبيين ، وإن كان العهد

---

(١) عادل عبد السلام ، الأقاليم الجغرافية السوريّة ، ص : ٤٣ .

(٢) جبرائيل جبور ، البدو والبادية ، ص : ٤٧ .

(٣) الخياري ، الإمارة الطائية ، ص : ٢٤ .

(٤) أحمد وصفي زكريا ، عشائر الشام ، ص : ٢٩ - ٣١ .

* انظر : الملاحق ، خارطة (التقسيمات الإدارية في بلاد الشام في عهد المماليك) ، ص : ٣٢٣.

المملوكي قد امتاز بظهور نيابات جديدة اقتضتها الظروف السياسية ، كنيابة غزّة ، ونيابة القدس ، وأحياناً الرّحبة وحمص وحتى عجلون ، وملطيّة * أضيفت للنيابات الشامية أحياناً.

أولاً - نيابة دمشق :

سُمّيت نيابة الشام ، ومملكة دمشق ؛ وهي كبرى النيابات الشامية ، وأوسعها رقعة، إذ شملت أواسط سوريا والجزء الأكبر من فلسطين ، وأجزاء كبيرة من شرقي الأردن. وامتدت حدودها من العريش جنوباً إلى سلميّة شمالاً ، ومن الرحبة شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً. ويخرج منها نيابات حماة وطرابلس والكرك وصفد [١]. وقد قسّمها المماليك إلى خمسة مناطق إدارية عُرفت بالصفقات [٢] ، وهي :-

أ- منطقة دمشق :

وتشمل المناطق المحصورة من الكسوة جنوباً ، والنّبك شمالاً ؛ ومن بادية الشام شرقاً إلى الزبداني غرباً ؛ ويدخل فيها الغوطة ومرج دمشق [٣].

ولدمشق قلعة حصينة يعين نائبها من قبل السلطان مباشرة ، وهو مستقل عن نائب دمشق ؛ ويُعدّ من أخطر الموظفين على النائب ، وهو عين السلطان على نائب دمشق ، ويُراقب تحرّكاته وتصرّفاته ، ويرسل التقارير إلى السلطان مباشرة ؛ وكثيراً ما كان نائب دمشق يكشف مثل هذه الأعمال فتحصل الخصومات بينهما [٤].

ب- منطقة غزّة :

وهي عبارة عن بلاد غزّة وما جاورها سهلاً وجبلاً ؛ وامتازت بموقعها المتوسط بين بلاد الشام ومصر ممّا أكسبها أهمية خاصة كممرٍ حيوي بينهما. وتضمّ سبعة أعمال

---

* ملطية : بلدة كبيرة وحصينة ، تقع في سفوح جبال اللكام ، وكانت إحدى الحصون المنيعة في العهد العباسي. (لي سترانج ، فلسطين في العهد الإسلامي ، ص : ٤٨).

(١) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ٢٢٤ – ٢٢٦ .

(٢) يرى بعض الباحثين أن المماليك قسموا مملكة دمشق إلى أربع صفقات ، هي:الصفقة الساحلية والجبلية ، وقاعدتها غزة ؛ والصفقة القبلية وقاعدتها أذرعات (درعا) ، والصفقة الشرقية وقاعدتها حمص ، والصفقة الشمالية وقاعدتها بعلبك. (انظر : كمال الدين الصليبي ، منطلق تاريخ لبنان ، ص : ١٣٠ – ١٣١).

(٣) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص.ن .

(٤) محمد الشناق ، الظاهر برقوق ، ص : ٧٦ .

رئيسية، هي : مدينة غزّة وبرّها ، وولاية القــدس والخليـل ونــابلس واللــد وقــاقون والرملة[١].

وأمّا وضعها الإداري فلم يكن مستقراً في عهد المماليك ؛ فكانت في معظم الأحيان (تقدمة عسكر) مضافة إلى دمشق ؛ وتارة " نيابة مستقلة " مضافاً إليها الجهة الســاحلية ويكون لها حكم النيابات. وفي جميع الحالات كان الأمر والنهي فيها لنائب دمشق. وأمــا من حيث التعيين فإن مقدم العسكر أو النائب فيها إنما يولّى من الأبواب السلطانية [٢].

وغزّة كنيابة ، استحدثها الناصر محمد بن قلاوون ، وجعل لها نائبــاً مســتقلاً ، وسُمّي بملك الأمراء [٣]. وقد ظلّ سلاطين المماليك يهتمّون بتعيين نواب غزّة للحدّ مــن نفوذ نائب دمشق. هذا ، وقد اعتبرها القلقشندي من الممالك (النيابات) الثابتة في التقسيم الإداري المملوكي لبلاد الشام [٤].

ج- منطقــــة حـــــوران :

وتعرف بالجهة القبلية لوقوعها جنوبي دمشق. ويحدّها من الشرق البرية (البادية)، ومن الغرب الأغوار ، ومن الشمال حدود برّ دمشق ، ومن الجنوب جبال الغور. وتضـم هذه المنطقة عشرة أعمال ، هي : بيسان وهي مقر الولاية ، بانياس ، الشّـعْراء جنــوب شرقي بانياس وحتى الشقيف في جنوب لبنان ، والقنيطرة ، ونوى ، وأذرعات (درعا)، وهـــي مركز منطقة حوران ، وعجلون ، والبلقاء ومركزهــا حُسْـبان ، وصرخــد وبُصرى ويضاف إليها أزرع [٥].

د- منطقـــة بعلبـــــك :

تقع إلى الشمال من دمشق ، وحدّها من الجنوب حدّ ولاية برّ دمشق ، وتمتدّ شمالاً حتى مجرى العاصي ، ومن الشرق تمتد حتى منطقة حمص ، وتصل غرباً حتى صور. وتضمّ هذه المنطقة خمسة أعمال ، هي : بعلبك مركز المنطقــة ، ومدينــــة بيـــروت

---

(١) العليمي الحنبلي ، الأنس الجليل ، ٢٧٢/٢ .

وانظر : محمود علي خليل ، نيابة غزة ، ص : ٥٩ وما بعدها .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١٠٢/٤ .

(٣) العليمي الحنبلي ، م.س ، ص.ن .

(٤) القلقشندي ، م.س ، ١٠٥/١٢ .

- وأما شيخ الربوة فقد وصفها بالمملكة ...." ومن مدنها الساحلية عسقلان ويافــا وقيســارية والــداروم والعريش ؛ ومن أعمالها البرية تيه بني إسرائيل ..... ومدينة الخليل والقدس ".

(نخبة الدهر ، ص : ٢١٣).

(٥) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ٢٢٧ - ٢٢٨ ؛ القلقشندي ، م.س ، ١٠٧/٤ - ١١٢ ، ابن شاهين الظاهري ، زبدة ، ص : ٤٧ .

ونواحيهـا ، والبقاع ، والبقاع العزيزي - نسبة إلى العزيز بن صلاح الديـن الأيوبـي - وصيدا وصور [١].

هـ- منطقـــة حمـــص :

وتمتدّ من النّبك جنوباً ، إلى السلمية شمالاً ، ومن الفرات شرقاً وحتـى مجـرى العاصي غرباً. وتضمُّ ستة أعمال ، هي : مدينة حمص ، ومصياف ، وقارا ، وتدمـر ، والسلميّة والرّحبة [٢].وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون أصبحت نيابة جليلة يليها مقـدّم ألف [٣].

ثانياً : نيابـــة حلـــب :

تمتدّ جنوباً إلى قرب حمص ؛ وحين أصبحت حماة نيابة فإنّ حدودها امتدت إلـى قرب حماة ، ومن جهة الشرق تمتد إلى مجرى الفرات وبعض مناطق البادية ، وغربـاً حتى البحر المتوسط [٤].

وتضمّ نيابة حلب ما هو داخل في البلاد الشامية ، ويشمل ثمانية وعشرين عمـلاً ، أهمّها مدينة حلب عاصمة النيابة. ولحلب قلاع عديدة ، أهمّها قلعة المسـلمين - كـانت تسمى قلعة الروم - وقلعة بهسنى شمالي حلب ، وقلعة البيرة ، وقلعة الكختـا ، وقـلاع كَرْكَرْ وعينتاب والراوندان والدُّرْبَسَاك وبغراض والقُصَيْر التابعـة لإنطاكيـة وشـغلان وشيزر غربـي حماة ، والشّغر وبكّاس جنوبي إنطاكية وحارم غربي حلب [٥].

وهناك مناطق ضمت إلى حلب بعد أن استخلصت من الأرمن في عهد الممـاليك ، وتشمل أياس قرب مصب نهر جيحان ، وسيس قاعدة بـلاد الأرمـن ، ودرنـدة ، وطرسوس ، وأذنة ، والأبلستين ، والمصيصة وملطية * [٦]. وتعـرف هـذه المنـاطق بالثغور والعواصم.

---

(١) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ٢٢٩ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١١٢/٤ - ١١٥ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص : ٢٣٠ - ٢٣٢ ؛ القلقشندي ، م.س ، ١١٥/٤ - ١١٨ .

(٣) القلقشندي ، م.س ، ١٠٥/١٢ .

(٤) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص : ٢٣٣ .

(٥) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص : ٢٣٣ - ٢٣٤ . وعن القلاع ، انظر الخريطة ، ص : ٣٢٥ .

* أصبحت ملطية نيابة مستقلة في عهد السلطان الأشرف شعبان ١٣٧٦/٧٧٨ ، ثم ألحقت بحلب. (ابن شاهين الظاهري ، الزبدة ، ص : ١٣٥).

(٦) القلقشندي ، م.س ، ١٣٦/٤ - ١٤٢ .

وأضيف إلى نيابة حلب مناطق الجزيرة الفراتيّة ، ومنها : البيرة شمال شرقي الفرات ، وجَعْبَر من ديار بكر ، والرُّها أيضاً. كما أضاف القلقشندي إليها ، سَرْمين غربي حلب ، وإعزاز وتلّ باشر ومنبج ودركوش وإنطاكية ومناطق أخرى (١).

ثالثاً – مملكة حماة :

وتمتد حدودها إلى الرَّسْتَن جنوباً ، وإلى مجرى العاصي غرباً ، وحدّها الشرقي الخط الموازي لتدمر ، ومن الشمال معرة النعمان * (٢) ويتبعها ثلاثة أعمال ، هي : بارين ، وبرّ حماة ، والمعرّة (٣).

رابعاً – نيابة طرابلس :

حدّها من الجنوب جبل لبنان ممتداً على ما يليه من مرج الأسد ، حيث يمتد العاصي ، ومن الشمال اللاذقية إلى مجرى العاصي ؛ وحدّها من الشرق نهر العاصي ، ومن الغرب البحر المتوسط. ويتبعها مدينة طرابلس وطرطوس ، واللاذقية ، وبشرّي ، وجَبَلة ، وجبيل ، وقلاع الدعوة الاسماعيلية ومركزها مصياف (٤).

خامساً – نيابة صفد :

حدّها من الجنوب غور الأردن ونابلس ، ومن الشمال نهر الليطاني ، ومن الشرق منطقة الشقيف ، وبحيرة الحولة ومن الغرب البحر المتوسط (٥). وتضم صفد ، والشقيف ، وجنين ، والناصرة ، وصور ، وعكا. ولها قلعة حصينة يُعيّن نائبها من قبل السلطان مباشرة ، ولا حكم لنائب صفد عليه. وكان السلطان يسمح لنائب دمشق بتعيين نائب صفد أحياناً (٦).

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١٣٠/٤ – ١٣٢ ؛ ١٤٢ – ١٤٤ .

* ظلّت المعرة تتقلّب في تبعيتها بين نيابة حلب وبين نيابة حماة حتى ضمت إلى حماة في عهد السلطان أحمد بن محمد بن قلاوون سنة ١٣٤١/٧٤٢ . (أبو الفداء ، المختصر ، ١٣٦/٤).

(٢) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ٢٣٥ .

(٣) القلقشندي ، م.س ، ١٤٦/٤ – ١٤٧ .

(٤) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص.ن ؛ القلقشندي ، م.س ، ص : ١٤٩ – ١٥٤ .

(٥) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص : ٢٣٦ .

(٦) القلقشندي ، م.س ، ٤/ ١٥٥ .

سادساً – نيابـــــة الكـــــرك :

يحدُّها من الجنوب العقبة ، ومن الشمال بحيرة لوط (البحـر الميـت) ، ومـن الشرق بلاد البلقاء ، ومن الغرب تيه بني إسرائيل (سيناء) [١]. وتضـمّ هـذه النيابـة الكرك، ومعـان ، والعقبة ، والشوبك. وأما البلقاء ، فكـانت تتقلـب فـي تبعيتهـا بيـن نيابـة دمشـق و نيابة الكرك [٢].

وللكرك أهمية كبيرة ، فقلعتها حصينة ، كما كانت ملجـأ للسـلاطين المماليك المنفيين أو المخلوعين ، فاستخدموها قاعدة انطلاق للعودة إلى عروشهم.

• نيابـــــة القـــــدس :

استحدثت نيابة القدس في عهد السلطان شعبان سنة ١٣٧٦/٧٧٧ . لكنّ المقريزي يذكر بأن الظاهر برقوق هو الذي استحدثها عام ١٣٩٣/٧٩٦ ، أثناء توجهـه لمحاربـة تيمورلنك زعيم التتار [٣].وما أوْرده المقريزي يُعدّ إشارة صريحة إلى تولية نائب لنيابـة القدس من قبل الظاهر برقوق.

ومع استحداث نيابة القدس ، إلاّ أنّها ظلّت تابعة أو مربوطة بنيابة دمشـق وظـلّ نائبها يُعيّن من قبل نواب دمشق حتى استقر الأمر عام ١٣٩٧/٨٠٠ ؛ فأصبح نائبها يُعيّن من الأبواب السلطانية في القاهرة [٤].

• نيابـــــة الرّحبـــــة :

كانت الرّحبة نيابة من نيابات دولة المماليك ، وكـان يُكتـب بنيابتـها مرسـوم شريـف، ونائبها مقدّم ألف أو طبلخاناة ؛ ونيابتها مساوية لنيابة حمـص فـي صـدور المرسوم [٥]. ويبدو أن المماليك اهتمّوا بها لوقوعها على الحدود الشرقية لبلاد الشـام ، ولإمكانيـة مواجهتـها خطر التتار.

وأما إدارة هذه النيابات فقد كانت إدارة مركزية ، حتى إن الأمور الطفيفة كـان لا بُدّ من الرجوع بشأنها إلى نيابة دمشق التي اعتبرها المماليك أهـم النيابـات الشـامية ؛ ومدينة دمشق المدينة الأولى بعد القاهرة.

---

(١) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ٢٣٧ .

(٢) ابن طولون الصالحي ، مفاكهة الخلاّن ، ٢٨٦/١ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٣١٨ .

(٤) العليمي الحنبلي ، الأنس الجليل ، ٢٨٢/٢ .

(٥) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١٠٩/١٢ .

وإذا نظرنا إلى إدارة النيابات الشامية من الناحية العامة ، وجدنا ثلاثة أنواع من أصحاب الوظائف المسؤولين عن شؤون النيابة. فأرباب السيوف يحتلون أعلى المراتب ، ومنهم أمراء الجند وأصحاب الشرطة ، وأصحاب البريد ، وجميعُهم من الأرستقراطية العسكرية المملوكية. وأما أصحاب الوظائف الديوانية ، فوظائفهم مدنية ، وهؤلاء من المماليك وأهل البلاد أحياناً. والفئة الثالثة ، هم أصحاب الوظائف الدينية ، يشرفون على تطبيق الشريعة الإسلامية ، وينظرون في الأسواق ن ويشرفون على التدريس في المساجد والمدارس الدينية ، كما يشرفون على البيمارستانات. وهؤلاء يرجعون إلى نائب السلطنة باستثناء قاضي القضاة ، ونائب القلعة لأن السلطان المملوكي لم يثق بنوابه ثقة مطلقة.

ثالثاً-مدلـــول لفظـــة " عـــرب ":

يجدر بنا الوقوف عند مدلول لفظة : العَرَبُ والأعْرابُ والعُرْبانُ والبدو. فالعَرَبُ، جيلٌ من الناس معروف ، وهم أهل الأمصار ، جمعوا أوصافاً عدة : أحدهـا أن لسانهم كان اللغة العربية ، والثاني أنهم من أولاد العرب ؛ والثالث أن مساكنهم كانت أرض العرب ، وهي جزيرة العرب [(١)].

ولفظة العرب مشتقة من الإعْراب وهو البيان ، والنسبة إلى العرب عربي [(٢)] ، كما أن لفظة عرب من ناحية الاشتقاق ساميةٌ ، معناها البادية أو سكان البادية [(٣)].

وتطلق لفظة عرب على البدو والحضر ، فإذا رجعنا إلى القرآن الكريم ، وجدنا للَفظة مدلولاً يختلف عن مدلولها في النصوص القديمة والجاهلية ، أو في التوراة والإنجيل، والمؤلفات اليونانية واللاتينية * ؛ فهي عندهم تعني أعراباً وأهل وبو ** ، أي طائفة خاصة من العرب. أما في القرآن الكريم ، فإن لفظة عـرب تطلق على الطائفتين ، واسمٌ للسان الذي نزل به القرآن الكريم ، ولسان العرب لسان أهل الوبر

---

(١) الألوسي ، بلوغ الأرب ، ١/١١ – ١٢ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : عرب ؛ السويدي ، سبائك الذهب ، ص : ١٤ .

(٣) فيليب حتي ، تاريخ العرب ، ص : ٧٢ ؛ جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ص : ٤١ – ٤٢ .

* إن لفظة عرب تعني التبدي ، وقد عنت في النصوص الآشورية والبابلية (البدو) و(البـداوة) ؛ وبهذا المعنى استعملت عند اليونانيين واللاتين الذين أطلقوا على بلاد العرب (Arabia) و (Arabae) أي العربية بمعنى بلاد العرب.

(جواد علي ، المفصل ، ١/١٦ – ٢٦).

** مصطلح أهل الوبر ، يقابل " سكان الخيام " ، أما مصطلح أهل بادية وأعراب بادية أو سكان البوادي فإنه تعبير يقابل (Nomadas) عند اليونانيين والتي تعني البدو.

(جواد علي ، م.ن ، ١/٣١).

ولسان أهل الحضر على حد سواء ؛ " ولَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقولونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الذي يُلْحِدونَ إِلَيهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مبين " (١).وفي موضع آخر ، " لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ أَعْجَمِيٌّ وعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذين آمنوا ......" (٢).

وطبقات العرب ثلاث ، إذ يكاد يتفق الرواة وأهل الأخبار والنسّابون على تقسيم العرب من حيث القدم إلى : عرب بائدة ، وعرب عاربة ، وعرب مستعربة. واتّفقوا على تقسيم العرب من حيث النسب إلى قحطانية ومنازلهم في اليمن ، وعدنانية ومنازلهم الأولى في الحجاز (٣).

والعرب البائدة هم العرب الأُول الذين بادوا واندرست آثارهم كعاد وثمود وطسم وجديس وعمليق وأميم وعبيل وجرهم ومن عاصرهم (٤). وأما العرب العاربة ، فهم أبناء قحطان * وأسلافُه القحطانيون وهم عرب اليمن. والعرب المستعربة هم العدنانيون ، وهم من صلب إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ؛ وقيل لهم المستعربة لأنهم انضمّوا إلى العرب العاربة وأخذوا العربيّة منهم (٥).

وقد اختلف الناس في العرب : لِمَ سُمّوا عرباً ؟ كما احتار علماء العربية في تعيين أول من نطق بالعربية ؛ فيقولون : سُمّي العرب عرباً لأن أول من انطق الله سبحانه وتعالى بلغة العرب هو يعرب بن قحطان وقومه العرب العاربة ؛ فكان يعرب أول من أعرب بلسانه. ثم نراهم يقولون : إنّ أول من تكلم بالعربية وتسمى بلسان أبيه هو إسماعيل ** بن إبراهيم ، أُلهِم هذا اللسان العربي إلهاماً. كما نرى آخرين يجعل العربية لسان آدم ولسان أهل الجنة (٦) ، أي أنهم يرجعونها إلى بدء الخليقة. وهذا يعني أن بدء الخليقة قبل يعرب وإسماعيل بزمن طويل.

---

(١) النحل ، ١٦/ ١٠٣ .

(٢) فُصِّلَتْ ، ٤١/ ٤٤ .

(٣) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١١٣ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ٢/١٦ ؛ جواد علي ، المفصّل ، ٢٩٤/١ .

(٤) القلقشندي ، قلائد الجمان ، ص : ٣٦ .

* قحطان بن عابر (هود) بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح . (جواد علي ، م.س ، ٣٥٤/١).

(٥) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص.ن ؛ القلقشندي ، م.س ، ص : ١٠٧ – ١٠٩ ؛ جواد علي ، م.س ، ٣٥٤/١ – ٣٥٨ .

** إن أولاد إسماعيل نشأوا بعَرَبَة وهي تهامة فنسبوا إلى بلدهم ؛ " إنهم سموا عرباً باسم بلدهم عَرَبات ". (ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : عرب).

(٦) جواد علي ، م.س ، ١٤/١ .

يدفعنا هذا إلى القول بأنّ هؤلاء ما زالوا عاجزين عن حسم الموضوع ، أو التوفيق بين الآراء التي ينسبونها تارةً إلى يعرب ، وأخرى إلى إسماعيل ، والآراء القائلة بأنّ العربية موغلة في القدم ، وأنّها لغة آدم ولغة أهل الجنة.

وأما المستشرقون والأثريون فقد تتبعوا تاريخ كلمة (عـرب) ودلالتها من خلال المخلفات الأثرية القديمة ، والنصوص البابلية والآشورية ، والفارسية ، وما جاءت به التوراة ؛ فكانت آراؤهم واحدة في معنى كلمة عرب ، وإن المقصود بها " الأعراب " أو " البدو" [١].

والأعراب قسم من العرب ، هم أهل البادية ، وساكنوها من العرب الذين لا يقيمون في الأمصار ولا يدخلونها إلاّ لحاجة. والتعرّب ، هو الرجوع إلى البادية بعد الإقامة بالحضر واللحاق بالأعراب ، فيكون التعرّب هو الإقامة في البادية. والأعرابي هو البدوي ؛ والنسبة إلى الأعراب أعرابيّ ، وجمع الأعراب أعاريب [٢].

والبدو والبادية والبداوة خلاف الحضر ، وتبدّى أقام بالبادية وتبادى تشبّه بأهل البادية. والنسبة إلى البدوي بداوي ، وبدا القوم خرجوا إلى باديتهم. فالبداوة تعني الخروج إلى البادية ، ومسكن المضارب والخيام [٣]. وقال أهل التفسير : الأعراب صيغة جمع ، وليست بجمع للأعراب على ما يراه سيبويه [٤].

وأما ابن خلدون ، فيصفهم بقوله : " اعلم أن العرب منهم الأمة الراحلة الناجعة ، الخيام لسكناهم ، والخيل لركوبهم ، والأنعام لكسبهم ، يقومون عليها ، ويقتاتون ألبانها ، ويتخذون الدفء والأثاث من أوبارها ، وأشعارها ، ويحملون أثقالهم على ظهورها " [٥].

ويرد ذكر الأعراب بالقرآن الكريم بوضوح : " قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم " [٦].ويؤكد في موضع آخر : " وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيومِ الآخِرِ " [٧].

---

(١) انظر ، جواد علي ، المفصل ، ١/ ١٦ – ١٩ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، ، مادة : عرب .

(٣) الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، ٤/ ٣٠٤ .

(٤) الألوسي ، بلوغ الأرب ، ١/ ١٢ .

(٥) ابن خلدون ، العبر ، ٢/ ١٦ .

(٦) الحجرات ، ٤٩/ ١٤ .

(٧) التوبة ، ٩/ ٩٩ .

وأما المصادر التاريخية المملوكية فقد استخدم مؤرّخوها لفظة (العربان) * للدلالة على سكّان البادية خارج مناطق الحضر من المدن والأرياف. كما أنّ أهل الشام استخدموا اللفظة نفسها وفي العصر نفسه. وما زالت هذه اللفظة تستخدم في بلاد الشام والجزيرة العربية.

وفي بحثنا هذا ، سنستخدم ألفاظ عرب وأعراب وعُربان وبدو للدلالة على معنى واحد ، وهم سكان بادية الشام وأطرافها.

---

* عَرَبان (Araban): موقع في بلاد النهرين على شاطئ الخابور. في هذا الموقع كانت أعظم مدن الخابور ، وهي اليوم مدفونة تحت خمس تلال أحدها (عجاجة) عثر تحتها على آثار آشورية ؛ منها ثيران مجنّحة ، لها رأس بشرية. وقد كانت هذه المدينة معروفة في العهد الروماني باسم " أرابانا " ، وكان لها شأن عظيم باعتبارها المركز الرئيسي في خط الحدود الممتد شرقاً صوب مملكة البارثيين.

وعربايا (Arabaya): منطقة تقع جنوبي مدينة غزة وتشمل صحراء النقب ، وشبه جزيرة سيناء. وفي عهد الحكم الفارسي كان سكان هذه المناطق من الأعراب يتمتعون بإعفاءات من الضريبة بسبب مساعدة هولاء السكان إلى(قمبيز) في حملته على مصر عام ٧٣٣ ق.م . وقد شملت لفظة (عربايا) ، مجموعة القبائل البدوية المنتشرة ما بين الفرات وحتى الحدود المصرية.

(هنري عبود ، معجم الحضارات السامية ، عرب).

* ويصفها ابن حوقل بأنّها مدينة لطيفة كثيرة الأقطان ، ويُحمل قُطنها إلى الشام والعراق ، وعليها سور صالح منيع

(صورة الأرض ، ص : ٢٠٠).

رابعاً_القبائـل العربيّـة فـي بـلاد الشّـام *:

حين وفد المماليك إلى مصر ، أقاموا دولتهم على حساب الأيوبيين ، كان أهل بلاد الشام فئتين : فئة مستقرة في المدن والأرياف ، وأخرى متبدّية في برّ بلاد الشام وباديتها الواسعة ، والمتمثّلة بالأعراب.

وقبل الكشف عن طبيعة العلاقة بين قطبي البحث ، أعراب بلاد الشام والسلطة المملوكية ، فإنّه من المناسب التوقف للتعريف بأعراب بلاد الشام.

فمن أهم أعراب بلاد الشام مكانة وعدداً " بنو طيّء " ** الذين يعود ظهورهم السياسي إلى القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين. فقد تحدّى آل الجرّاح من بني طيّء سيادة الدولة الفاطمية ووجودها في بلاد الشام وأحياناً في مصر. كما تحالفوا مع قبيلتي كلْب وكلاب في بلاد الشام من أجل اقتسام البلاد إلى مناطق نفوذ فيما بينهم ، فلسطين لآل الجرّاح ، بينما تأخذ كلب دمشق ونواحيها ، وتسود كلاب في حلب. وقد ظلّ هذا التحالف قائماً حتى تمكّن الفاطميون من السيطرة على دمشق سنة ٤٢٠/١٠٢٩ (١).

ثمّ زادت أهميّة آل ربيعة من آل الجرّاح من طيّء في بلاد الشام في عهد طُغتُكين صاحب دمشق (٤٩٧ – ٥٢٢/ ١١٠٤ – ١١٢٨) ؛ وفي عهد عماد الدين زنكي (٥٢٢ –٥٤١/ ١١٢٧ – ١١٤٦) ؛ وابنه نور الدين زنكي (٥٤١ – ٥٦٩/ ١١٤٦ – ١١٧٤)

---

* انظر : الملاحق ؛ شجر نسب القبائل العربية في بلاد الشام ، ص : ٣١٣- ٣٢١ .

** هم بنو طيّء بن أُدد بن زيد بن يشحب بن عريب بن كهلان بن سبأ. كانت منازلهم الأولى في اليمن ، فخرجوا منه على أثر سيل العرم إلى تهامة فالحجاز ، ثم نزلوا هضبة نجد في سُمراء وفيد بجوار بني أسد فغلبوهم على أجا وسلمى، وهما جبلان يُعرفان بجبلي طيّئ — جبل شمر — وبعدها افترقوا في الفتوحات الإسلامية واستقروا في العراق والشام ومصر. وقد شكّلت هذه المنطقة مركزاً تجارياً هاماً يمر فيها طريق الحاج العراقي والشامي ، وإقامة الأسواق حيث البيع والشراء من الأعراب. وشاهد (ابن بطوطة) ذلك النشاط ؛ " وهناك لقينا أميري العرب فيّاض وحيّار إبنا الأمير مهنّا بن عيسى ومعهما الخيل والإبل ...." – ابن بطوطة ، الرحلة ، ١/ ١٩٢ .

وانظر : المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص : ٢٥٤ ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص : ٤٠ ؛ ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب ، ص : ٣٩٨ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ٢/ ٣٠٥ ؛ والقلقشندي ، القلائد ، ص : ٧٢ .

– واليوم تعرف طيء باسم " شمر " ، وطوائفها منتشرة في نجد وبر الشام والعراق .

(انظر : الدباغ ، القبائل ، ص : ٧٢ ، ٧٩).

(١) الخياري ، الإمارة الطائية ، ص : ٥١ – ٦٢ ،

وسهيل زكار ، إمارة حلب ، ص : ٩٢ – ١٠١ ،

وأمينة البيطار ، موقف أمراء العرب من الفاطميين ، ص : ٨٣ .

وتوّجت جهودهم من أجل النفوذ أخيراً في عهد الملك العادل الأيوبي (٥٩٢ – ٦١٥/ ١١٩٦ – ١٢١٨) ، حين عيّن شيخهم (حديثة) من آل فضل بن ربيعة أميراً للعرب[١].

وفي زمن ابن فضل الله العمري في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، أصبحت زعامتهم لآل فضل. هذا ، وقد اشتهر من بقايا طيّء في بلاد الشام أيام المماليك أربعة بطون ، هم : ربيعة ، زبيد ، جَرْم ، ثعلبة [٢] ؛ وبطن خامس هم بنو سنبس في مصر[٣].

فالبطن الأول آل ربيعة ؛ فهم بنو ربيعة بن حازم بن علي بن مفرج بن دغفل بن جرّاح بن شبيب بن مسعود بن سعيد ...... بن طيّء [٤]. ويخبرنا ابن فضل الله العمري ، والقلقشندي ، أن ربيعة هذا نشأ أيام الأتابك عماد الدين زنكي صاحب الموصل ، وولده العادل نور الدين صاحب الشام الذي " نبغ بين العرب فأكرمه وشاد بذكره " [٥]. وأعقب ربيعة هذا أربعة أولاد ، هم : فضل ، مرا ، ثابت، ودغفل [٦]. ومنهم تفرّعت بطون آل ربيعة.

---

(١) دوريتا كرافولسكي ، مقدمة مسالك الأبصار للعمري ، ص : ٣١ – ٣٢ .
وانظر : الحياري ، الإمارة الطائية ، ص : ٦١ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٣٧ .

(٣) القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص : ٢٣٧ .
– يذكر الدباغ " إنّ بقاياهم متفرّعون في سوريا وفلسطين ".
(القبائل ، ص : ٨٨ – ٨٩).

(٤) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ٤/ ١٣٦ . – عدّد الحمداني النسّابة قائمة طويلة تصل إلى ثلاثين جد بين ربيعة وطيّ.
وانظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١/ ٣٧٧ .
– ينسب آل ربيعة أنفسهم إلى جعفر بن يحي بن خالد بن برمك من العبّاسة أخت هارون الرشيد . ولكن العمري ، وابن خلدون والقلقشندي يرفضون هذا النسب ، فينسبونهم إلى عرب طيّء .
(مسالك الأبصار ، ٤/ ١٣٥ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٤٩٩والقلقشندي ، نهاية الأرب ، ص : ١٠١).

(٥) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص.ن ؛ القلقشندي ، م.س ، ص.ن .
وانظر : ابن خلدون ، م.س ، ص.ن ؛ الحياري ، م.س ، ص.ن ، وأحمد وصفي زكريا ، عشائر الشام ، ١/ ٨٦ .
– يبدو أن ابن ربيعة هذا قد عمر طويلاً ، فقد كان شيخ العرب في أواخر حكم طغتكين ، وأن حياته السياسية بدأت في أيام عماد الدين زنكي صاحب الموصل ، وظهرت بوضوح في عهد نور الدين زنكي. هذا إذا تذكرنا أن طغتكين حكم ٢٥ سنة ، وعماد الدين زنكي حكم (١٩) سنة ، ونور الدين زنكي نحو (٢٨) سنة.

(٦) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص.ن .

وقد اشتهر من آل ربيعة هذا ثلاثة أفخاذ ، هم : آل فضل ، وآل مرا ، وآل علي [١].

فالفخذ الأوّل هم آل فضـــل بن ربيعـــة " رأس الكلّ وأعلاهم درجة وأرفعهم مكانة " [٢] ؛ " وهم جمهرة العرب ، وأهل البأس ، وغُمام الكرم ، وسحب السّـــماح " [٣] كانت ديارهم في حوران والجولان ، فغلبهم عليها أبناء عمومتهم (آل مرا) وأخرجوهـم منها [٤]، فنزلوا حمص ونواحيها وأمتدتْ مواطنهم من حمـــص إلــى جعــبر * وإلــى الرحبة** ، وأطراف العراق ، وإلى هضبة نجد لتنتهي عند البصرة [٥].

وقد انقسم آل فضل إلى شُعب كثيرة ، منـــهم آل عيســـى ، وآل فـــرج ، وآل سميـــط ، وآل مسلّم ، وآل عامر *** ؛ لكن أشهر بيت بين هؤلاء هم " آل عيســـى " ، فهم " ملوك البرّ وأمراء الشام والعراق والحجاز ، وسادات الناس ، ولا تصلح العرب إلاّ عليهم " [٦]. ثمّ انقسم آل عيسى إلى : بيت مهنّا بن عيسى ، وبيت فضل بـــن عيســـى ، وبيت حارث بن عيسى، وأولاد محمد بن عيسى ، وأولاد حديثة بن عيسى ، وآل هبة بـن عيسى ، وهم أتباع ، وأمير الكلّ مهنّا بن عيسى. وظلّت الزعامة تنتقل فيهم واحداً بعـــد واحدٍ حتى منتصف القرن التاسع الهجري / الخامس عشـــر الميـــلادي [٧]. ووصفـــهم القلقشندي بـــ : " سادات العرب ووجوهها ، ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة ، وصيـــتٌ عظيم " [٨].

ويقول عنهم فاكس فون أوبنهايم (Oppenheim) الذي زار بلاد الشام في مطلـــع القرن العشرين : " تقع ديار آل فضل في الجولان ، والذي يطّلع على أوضاعهم الحالية ،

---

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٣٥ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، المصطلح الشريف ، ص : ٧٩ .

(٣) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ٢/ ١١٩ .

(٤) ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٤٩٨ ؛ ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٢/ ٣٢٦ .

* جَعْبر : قلعة حصينة بين بالس والرّقة وقرب صفين، وتقع على الجانب الشمالي في برّ الجزيرة.
(أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص : ٢٧٧).

** الرحبة : هي رحبة مالك بن طوق ، وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات ، وقد بناها مالك بن طوق التغلبي في خلافة المأمون . (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٣/ ٣٨ ؛ وأبو الفداء ، م.س ، ص : ٢٨١).

*** يورد القلقشندي (آل علي) عوضاً عن آل عامر . (صبح الأعشى ، ٤/ ٢١٢).

(٥) ابن فضل الله العمري ، م.س ، مخطوط ، ٤/ ١٣٨ ؛ اليوسفي ، نزهة الناظر ، ص : ٨٨ .

(٦) ابن فضل الله العمري ، م.س ، مخطوط ، ٤/ ١٣٨ .

(٧) القلقشندي ، القلائد ، ص : ٧٩ .

(٨) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ٢١١ .

يصعب عليه أن يتصور أن هؤلاء سادوا بادية الشام فيما مضى ، ولعبوا دوراً هاماً في تاريخ المماليك .... لكنّ شيوخهم ما زالوا يُعدّون من أعرق بيوت أعراب الشام[1].

وأمّا آل مِرا الذين يشكلون **الفخذ الثاني** من آل ربيعة ، فينتسبون إلى مرا بن ربيعة وهو أخو فضل بن ربيعة ، وديارهم تمتد من الجيدور * ، والجولان إلى الزرقاء والظليل إلى بُصرى ، وشرقاً إلى حرّة كَشْب قرب مكة [2] ، وكانوا يتوسعون للمرعى خارج تلك المناطق.

وتشعّب آل مِرا شعباً كثيرة ، منهم : آل أحمد بن حجي ، وآل مُنيخر ، وآل نمّي، وآل بقرة ، وآل شماء [3]. ووصلت سمعتهم وقوتهم إلى أوجها في عهد أميرهم أحمد بن حجي بن يزيد بن نُبَل بن مرا بن ربيعة (ت ٦٨٢/ ١٢٨٣) [4]. ثم ضعفت كلمتهم بعد موته.

وعلى الرغم منْ تفوقهم على آل فضل في الجولان ، " فإنّ الحظَّ لَحَظَ بني عمهم آل فضل أكثر مما لحظهم " [5]. ومع ذلك فقد ظلّت لهم قوة يُحسب حسابها ، ولم يتبعوا إمرة أحد من الأعراب ، فهم ملوك العرب في البلاد القِبْلية " [6]. كما أن المماليك حسبوا حسابهم ، فأشركوهم في مقاومة التتار بجانب آل فضل. فهم رجال حرب ، إذ يخبرنا العمري عن شيخه (أبو الثناء محمود) ، الذي رأى آل مرا في دمشق : " وقد أقبلوا زهاء أربعة آلاف فارس ، شاكين من السلاح على الخيل المسوّمة مقلّدين بالسيوف وبأيديهم الرماح، كأنهم صقور " [7].
وقد ظلّ ذكرهم يتردد حتى نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، حين خرجوا عن طاعة الظاهر برقوق ، فقتل أميرهم عنقاء بن شطي سنة ٧٩٤/ ١٣٩٢ [8].

---

(١) دوريتا كرافولسكي ، مقدمة مسالك الأبصار ، ص : ١٣ .

* الجيدور : كورة من نواحي دمشق ، فيها قرىً ، وهي في شمال حوران ، وهي والجولان كورة واحدة .
(ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٢/ ٢٢٦).

(٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٥٥ .

(٣) القلقشندي النويري ، نهاية الأرب ، ص : ١١١ - ١١٢ .

(٤) القلقشندي ، قلائد الجمان ، ص : ٨٠ ، والحياري ، الإمارة الطائية ، ص : ٦٥ ، ٨٠ . ،
(انظر شجرة نسب آل مِرا ، الملحق ، ص : ٣٢١)

(٥) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص.ن .

(٦) والحياري ، م.س ، ص : ٦٥ .

(٧) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص.ن . - ستبحث هذه الأمور بشيء من التفصيل في الفصل الثالث.

(٨) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢/ ١٣٣ .

والفخذ الثالث من آل ربيعة ، هم " **آل علـــي** " ، فهم بنو علـــي بن حُديثـة بـــن عقبة بن فضل بن ربيعة [١] – وهذا يعني أنهم من آل فضل – إذ يؤكد العمري ذلك بقولـــه: " وهم من ضِئضئ (أصل) آل فضل ، فقد انفردوا عنهم ، واعـــتزلوهم حتـــى صاروا طائفة أخرى" [٢]. وديارهم مرج دمشق وغوطتها بين إخوتهم آل فضل ، وبيـــن أعمامهم آل مِرا ؛ وتمتد مواطنهم إلى الجوف والحبابنـــة إلـــى الشـبكة وإلـــى تيمـــاء والبراذع[٣].

وأما **البطن الثانية** من طيّء فهم " **زُبَيْـــــد** " ، وهؤلاء بنو زبيد بن معن بـــن عمرو بن عُنيز بن سلامان بن عمرو بن الغوث بن فطرة بن طيّء [٤]. وبنو زبيد فِـــرَقٌ شتى، وفي بلاد الشام توزعت ديارهم في مرج دمشق وغوطتها ، وهؤلاء هم آل الحريث وآل بدّال والدّوس. والمشيخة فيهم إلى نوفل الزبيدي. وظهرت طائفة مـــن زبيـــد فـــي صرخد من حوران ، وهم : آل ميّاس ، وآل صيفي ، وآل برّه. كما اســـتقرت جماعـــة منهم بالقرب من الرّحبة بجوار آل فضل ، وهم " زبيد الأحلاف " [٥]. ولم يكن لبني زبيد إمرة ، بل كان لهم مشيخة ، وليس لأحد من العرب إمرة عليهم ، وإنما كـــانوا يتبعـــون نواب الشام حيثما سكنوا وأقاموا [٦].

والبطن الثالثة من طيّء هم " **بنو جَـــرْم** " ، وهؤلاء هم بنو ثعلبة بن عمر بن الغوث بن طيّء. وجَرْم * اسم أم ثعلبة ، إذ غلب إسمها على إسمه فاشـــتهر بـــه. وســـكـــن بنوجَرْم غزة والداروم ** مما يلي الساحل الفلسطيني وحتى منطقة الخليل .

---

(١) القلقشندي ، قلائد الجمان ، ص : ٨١ ؛ والسويدي ، سبائك الذهب ، ص : ٥٨ .

وانظر : أحمد وصفي زكريا ، عشائر الشام ، ١/ ٨٦ ؛ وفرحان أحمد سعيد ، آل ربيعة ، ص : ٥٣ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ٤/ ١٣٦ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ٢١٧ .

(انظر : شجرة نسب آل علي ، الملحق ، ص : ٣٢٠)

(٣) ابن فضل الله العمري ، م.س ، مخطوط ، ٤/ ١٣٧ .

(٤) القلقشندي ، القلائد ، ص : ٥٢ .

(٥) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ١١٣ .

– يروي القلقشندي أن منازل هؤلاء القوم بريّة سنجار من الجزيرة الفراتية. (صبح الأعشى ، ١/ ٣٧٤).

(٦) القلقشندي ، م.ن ، ٤/ ٢٢١ – ٢٢٢ .

* هي جَرْم بنت الغوث بن طيّء. (ابن حزم ، جمهرة الأنساب ، ص : ٤٠٣).

** الداروم : هي دير البلح اليوم وتقع جنوبي غزة. (محمد علي حليل ، نيابة غزة ، ص : ٧١).

– ويذكر ياقوت الحموي ، أنها كانت قلعة حصينة ، وقد خرّ بها صلاح الدين اليوبي سنة ٥٨٤ هـ .

(معجم البلدان ، ٢/ ٤٨٣)...............................=

ويذكر العمري فروعاً من جَرْم في العروب من الخليل ، فمنهم ، جَرْم قضاعة ، وبنو جَشم ، وبنو قدامة وبنو عوف. كما أن المشهور من جَرْم بنو جذيمة في عهد المماليك ، وهؤلاء هم آل عوسجة ، وآل أحمد ، وآل محمود في غزة. وظهر منهم بنو سهيل في الدّاروم ، والذين جاوروا بني فهد من زبيد [١].

وقد ظلّ لبني جَرْم نفوذ في غزة والداروم منذ عهد صلاح الدين الأيوبي وحتى نهاية عهد المماليك حين قتل شيخهم في فتنة جبل نابلس ٨٩٤/ ١٤٨٩ ، ليتولى من بعده محمد بن إبراهيم الوديانى [٢].

واليوم ، ثمّة بقايا من بني جَرْم في فلسطين ، فمنهم العبادلة في خان يونس ، وما زالت تحمل اسم (عبد الإله). وكذلك بنو جميل في الخليل ، وآل ماضي من بني هرماس ، وهم في إجْزِم من أعمال حيفا. وهناك الأحامدة في بئر السبع [٣].

والبطن الرابعة من طيّئ هم " **بنو ثَعْلَبَة** " بن سلامان بن ثُعل بن عمرو بن الغوث بن طيء. وهؤلاء هم ثعلبة الشام ، وديارهم مما يلي مصر إلى الخرّوبة * .وفلسطين [٤]. ويرد ذكر بني ثعلبة في (مشغرا) على السفوح المطلة على أسفل البقاع ، والغربية من وادي التيْم ** في لبنان ن وذلك في أخبار ٦٨٧/ ١٢٨٨، عند ابن عبد الظاهر ، وكذلك صالح بن يحيى [٥]. وأخبارهم لدينا قليلة لأنّ

= لكن الدبّاغ يصف الداروم ن بأنها الأقسام الجنوبية من مقاطعة بيت جبرين من الخليل ، ومن مدنها وقراها ما يُعرف اليوم باسم السمّوع ويطّة ، ودوما . (الدباغ ، القبائل ، ص : ٨١).

- ويؤكد أهل دير البلح أن اسمها السابق هو الداروم .

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ٤/ ١٣٣ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٤/ ١٣٤ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ٤/ ١٣٣ .

(٣) الدباغ ، م.س ، ص : ٨٤ – ٨٥ .

* الخروبة : من البلاد المندرسة ، كانت بين العريش ورفح .

(القلقشندي ، القلائد ، ص : ٨٧).

(٤) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ٤/ ١٣١ .

** وادي التيْم : يقع في البقاع الغربي عند السفح الغربي لجبل الشيخ ، وفيه اليوم حاصبيا وراشيا.

(أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص : ٣٠).

(٥) انظر: ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص : ١٢٢ ؛

صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص: ٥٤، ٧١، ٨٠.

- " أخذ بنو ثعلبة في مشغرا ورئيسهم آنذاك الأمير (فارس الدين رُميح) يثيرون الفتن في البقاع ضد الدولة المملوكية في عهد قلاوون ؛ فألقى نائب دمشق القبض على وجهائهم ، وألقى بهم في السجون وغرّمهم .

(كمال الدين الصليبي ، منطلق تاريخ لبنان ، ص : ١٢٠).

المصادر المملوكيــة لم تحفل بهم. فيخبرنا العمري ن بأنّ ثعلبة وجَرْم كانوا يـــداً مـــع الفرنج على المسلمين ؛ ولمّا فتح صلاح الدين الأيوبي فلسطين رحّل قسماً كبيراً منـــهم إلى مصر ، وتأخّر قسم في بلاد الشام (١).

وأمّا في عهد المماليك ، فقد تبدّل موقفهم من الفرنج ، وآثروا الوقـــوف بجـانب المماليك، فيقول المهمندار الحمداني : " ولكنّني لم أرهم إلاّ غُزاة مجاهدين لهم آثارٌ فـــي الفرنج " (٢). ويظهر هذا التبدّل بوضوح للسياسة الحكيمة التي انتهجها الظاهر بيــبرس ؛ فحين نزل غزة سنة ٦٦١/ ١٢٦٣ ، استدعى شيوخ ثعلبة وجَرْم ، وكلّفهم بخدمة البريد ، وإحضار الخيل اللازمة للسلطة المملوكية ، كما ألزمهم القيام بالعِداد * (٣).

لم تقتصر قبائل أعراب الشام على آل ربيعة الطائيين ، فكان هناك قبائل لها وجود فِعْلِيّ ، وتحالفات مع آل ربيعة ، وقبائل أخرى لا تتبع أحداً من أمراء العـــرب ؛ فمـن هؤلاء بنو كلاب.

وبنو كـــلاب ، ينتمون إلى تجمع قبائل عامر بـــن صعصعـــة الذيـــن بـدأوا انتشارهم في شمالي بلاد الشام بعد فتحها الإسلامي ؛ ثم عَبَرت جماعات منـــهم الفـرات واستوطنوا الجزيرة الفراتية (٤). وكانوا يتكلمون بالتركية إلى جانب العربية ، ويركبـون الأكاديش (الخيل الهجان) (٥).

يبدو أنّ بني كلاب جاءوا من نجد إلى ديار حلب ، في القرن الرابـــع الـــهجري / العاشر الميلادي ؛ وتمكنوا فيما بعد من تأسيس الإمارة المرداسية فـــي حلــب (٤١٥ – ١٠٢٥/٤٧٢ – ١٠٨٠). لكنّ دورهم لم يتوقف ؛ ففي العهد الأيوبي قدّمهم الملك الكامل الأيوبي على آل ربيعة ، ثم عملوا في خدمة الملك الأشرف موسى بـــن العـــادل أبـــي بكـــر الأيوبي (٥٧٦ – ٥٧٨ هـ) الذي أشركهم في غاراته ضد الروم (٦).

---

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٣١.

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١/ ٣٧٥ .

- ثعلبة مصر بطنان ، هما : دَرْما وزريق إبنا عوف بن ثعلبة. وثعلبة مصر والشام من طيّء.

(ابن فضل الله العمري ، م.س ، مخطوط ، ٣/ ١٣٠).

* العِداد : زكاة مفروضة للسلطان المملوكي سنوياً على قطعان ماشية القبائل العربية والتركمان .

(البستاني ، محيط محيط ،مادة : عدد)

(٣) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ٤٨١ .

(٤) Ency. 1 . P. 1080 .

(٥) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ٤/ ١٣٠ .

(٦) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ٤/ ١٦٠ – ١٦١ ....=

وفي بداية عهد المماليك ، ظلّت شوكتهم قوية ، فقدّمهم الظاهر بيبرس علـــى آل ربيعة[١]. كما وصفهم الأمير علاء الدين الطنبغا نائب الشام بأنهم : " أشدّ العرب بأساً ، وأكثرهم ناساً ، ولا يدينون لامرئٍ منهم بجمع كلمتهم ، ولو انقادوا لأمير واحدٍ لـم يبـق لأحد من العرب طاقة بهم " [٢].

وقد تنبّه الناصر محمد بن قلاوون إلى أهميّة موقع ديارهم التي تشكّل معبراً علـى الفرات بين الدولتين المملوكية والمغولية ، فاهتمّ بأمرهم ، وسهّل مهمّة تحالفـهم مـع آل ربيعة، ثم أتبعهم إلى الأمير سليمان بن مهنّا ، والذي كلّفه وإياهم بحفـظ جَعْـبَر ومـا جاورهـا [٣]. هذا ، وبقي اسمهم يتردّد حتى نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشـر الميلادي ، ثم انقطعت أخبارهم ، مما يشير إلى تشتّت شملهم.

ومن عرب حلب " **آل بشّــار** " ، وهم موالٍ ، وديارهم الجزيرة والأحَصّ * ، وامتدت مناطق انتشارهم إلى سنجار ** حتى جزيرة ابن عمر ، ومن هناك حتى بغداد. وعددهم كبير ، ولهم سطوة بين الأعراب ، لكن شأنهم في القيادة شأن بني كلاب. ولمّـا كان آل فضل يعرفون قوّتهم ، فإنّهم تعاملوا معهم بحـذرٍ وحكمـة ، وتحـالفوا معـهم أحياناً[٤].

وفي أواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، تخلّص آل بشار من سيطرة آل فضل ، فتولّوا أمرهم بأنفسهم [٥].

= إن أسباب تقديم الكامل الأيوبي لبني كلاب على آل ربيعة ، بأنه كان قد طلب من مانع بن حديثة وغنّام بـن الطاهر جمالاً يحمل عليها غلالاً إلى (خلاط) ، فاعتذر لطلبه ، وكان بعض شيوخ بني كلاب حضوراً لديـه ، فتكفّلوا له بما يحتاجه من الجمال. فحقد الكامل عليهما وونحهما ؛ لكنهما عادا إليه وحاولا التقرب منه حـين فتح دمشق وقدّما الهدايا إليه. (ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ٤/ ١٦٠)

(١) القلقشندي ، القلائد ، ص : ١١٧ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، . م.س ، مخطوط ، ٤/ ١٦١ .

(٣) م.ن ، ص.ن .

* الأحَصّ : كورة كبيرة مشهورة ذات قرى ومزارع تمتد بين جنوب وشمال حلب .

(ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ١/ ١٣٩ — ١٤٠) .

** سِنْجار : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة الفراتية ، تقع في ذيل جبل سنجار ، وفي وسطها نهر جارٍ ، وتبعد عن الموصل مسيرة ثلاثة أيام ، كما تبعد عن نصيبين المسافة نفسها.

(ياقوت الحموي ، م.ن ، ٣/ ٢٩٧ — ٢٩٩).

(٤) القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص : ٩٨ .

(٥) أحمد وصفي زكريا ، عشائر الشام ، ص : ١/ ٣٥٣ .

وهناك " **بنو خالـــــــد** " عرب حمص ، وهم بطنٌ من بطون بني مخزوم مـــن قريش العدنانية ، وهم رهط خالد بن الوليد ، ويدّعون النسب إليه. لكنّ النّسابة الحمداني ينفي ذلك بإجماع أهل النسب على انقراض عقب خالد بن الوليد. وبالوقت نفسه يدافع عن نسبهم ، "وكفاهم فخراً أن يكونوا من قريش " (١).

وفي جنوب بلاد الشام – الأردن – استوطن **بنو مهـــــدي** ، وهم بطنٌ مـــن طريف من جذام القحطانية ، وديارُهم البلقاء التابعة لنيابـــة دمشـــق. ويتفـــرّع منـــهم ، المشاطبة ، والعناترة ، والســـماعنة ، والعجارمـــة – خفـــراء الموجـــب – والمطارنـــة والمحارقة، وبني جَوْشن – خفراء الموجب أيضاً – ويجاور بنـــو مـــهدي طائفـــة مـــن حارثة(٢).

ويردُ خبر بني مهدي عند المقريزي في عهد الســـلطان شـــيخ المحمـــودي عـــام ١٤١٦/٨١٩ ، حين خلع على مانع بن سنيد بإمرة بني مهدي عوضاً عـــن محمـــد بـــن هيازع(٣).

وفي الكرك وما حولها يتواجد **بنو صخـــــر** ، وهم بطن من جذام القحطانية (٤)، وهم : الدُعيجيون ، والعِطَويون ، والصُويتيون. وتمتدّ ديارهم من الكرك وحتـــى الأزرق ووادي الظليل * (٥).

وفي الشّوبك من جنوبي بلاد الشام – الأردن حالياً – توجد ديار **بنو عقبـــــة** بن حرام بن جذام من القحطانية ، وتمتد من الشوبك إلى حِسْمي ** وإلى تبوك وتيماء(٦).

---

(١) القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص : ٢٢٦ – ٢٢٧ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٦٠ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ٢٢٠ – ٢٢.

-يذكر العمري في التعريف ، ص : ١١٣ : " كانت إمرتهم مقسومة في أربعة منهم " و لم يذكر أسماءهم.

– لكن ابن ناظر الجيش يذكر هؤلاء في التثقيف : " برّ بن محفوظ العنبسي ، وسعيد بن حسن العنبسي ، وزامـــل ابن محفوظ العنبسي ، ومحمد بـــن عبـــاس العنبســـي ".

(القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ٢٢١).

(٣) المقريزي ، السلوك ، جـــ٤ ق١ / ٣٧٣ .

(٤) القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص : ٢٨٦ .

* وادي الظليل ، يقع بين مدينتي الزرقاء والمفرق بالأردن ، وأرضه صالحة للزراعة.

(٥) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ٤/ ١٦١ .

** حِسْمي : أرض في بادية الشام ، وفيها جبل يقع غربي تبوك ، وأرضها غليظة ، وماؤها كذلك ، وكانت تنزلهـــا جُذام. (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٢/ ٢٩٨ – ٢٩٩).

(٦) القلقشندي ، القلائد ، ص : ٦٥ .

وكان أخر أمرائهم شطي بن عبيّة في عهد الناصر محمد بن قلاوون الذي أقطعه الاقطاعات وأجزل له العطاء ؛ وقد ألحقهم بآل فضل وآل مرا [(١)]. ومن عرب الشوبك بنو زهير (الزهور) ، وهم بطنٌ من جذام القحطانية [(٢)].

وهناك **آل الزعبي** ، وهم أسرة بدوية تركّز مقامها حوّل المزيريب * ، حيث مخازن الغلال من القمح والشعير ، فكانت هدفاً لنشاط هذه الأسرة ، يغيرون عليها دون أن يلحق بهم أذىً [(٣)].

وفي البقاع وحول مدينة بعلبك ظهرت أسرة بدويّة عُرفت باسم **آل الحنش** ؛ وقد لعبت دوراً بارزاً في أحداث القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي [(٤)].

هذه القبائل العربية الشامية ليست هي كلّ القبائل ، وإنما اخترناها لدورها الفاعل في مجرى الأحداث والعلاقات الواضحة مع السلطة المملوكية ؛ كما أن المصادر التاريخية المملوكية ركّزت عليها دون غيرها. وسيتبين جانباً من دور الأعراب من خلال " إمرة العرب " وموقف السلطة المملوكية منها .

خامساً_ إمرة العرب :

• تاريخ إمرة العرب :

يعود ظهور " إمرة العرب " بصورة غير رسمية إلى عهد الفاطميين ، حين وافق الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦ – ٤١١/ ٦٩٦ – ١٠٢١) على مطالب حَسّان ابن المفرج بن دغفل أمير آل الجرّاح من طيّء. فأصدر مراسيم الإمرة له وأقطعه

---

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ٤/ ١٣٥ .

(٢) القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص : ٢٥٤ .

* المزيريب : بلده تبعد مسيرة ثلاثة أيام عن دمشق في جهة الشمال . وهي من محطّات طريق الحاج الشامي. وتبعد عن درعا غرباً ستة كيلومترات.

(فارتيما ، رحلة فارتيما ، ص : ٣٥).

(٣) م.ن ، ص : ٣٥ – ٣٦ .

(٤) محمد عدنان البخيت ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان ١٣ و ١٤ ، ص : ٨٨ – ١٠٠ .

وانظر : كمال الصليبي ، منطلق تاريخ لبنان ، ص : ١٥١ – ١٥٢ .

(الرملة) عام ٤٠٣/ ١٠١١ ، وشملت الاقطاع والتقرير والإمضاء [١]. يبدو أن الظروف السياسية والداخلية هي التي أملت على الحاكم بأمر الله الاستجابة لمطالب آل الجرّاح.

لكنّ إمرة العرب بدأت تظهر بصورة رسمية في عهد الأيوبيين ، على الرغم من عدم وضوح مهامها بشكل دقيق ؛ إذ إنّ العلاقة بين أعراب الشام وبين السلطة الأيوبية بدأت تنتظم منذ عهد الملك العادل الأيوبي ٥٩٢/ ١١٩٦ ؛ وهذا ما يؤكده ابن فضل الله العمري بقوله : " ولم يُصرَّح لأحدٍ من هذا البيت – آل فضل – بإمرةِ على العرب بتقليدٍ من السلطان إلاّ من أيام العادل أبي بكر أخي صلاح الدين الأيوبي حين أمّر منهم حُديثه ، ثم ابنه الكامل الذي قسّم الإمرة نصفين نصفاً لمانع بن حديثة ، ونصفاً لغنّام أبي طاهر بن غنّام " [٢].

وهذا يعني أنّ مبدأ رئاسة آل فضل للأعراب بدأ منذ عهد الأيوبيين ، وذلك حين نزل العادل أبو بكر بن أيوب بمرج دمشق ومعه عيسى بن محمد بن ربيعة أمير آل فضل في جموع كثيرة [٣]. ثم انتقلت الإمرة بعده إلى حسام الدين مانع بن حديثة بن عقبة بن ربيعة (ت ٦٣٠/ ١٢٣٢) ؛ ووُلّيَ بعده ابنه مهنّا ؛ وكان ينافسه عليها أبو علي طاهر بن غنام الذي حصل عليها عام ٦٣٨/ ١٢٤٠ ، في عهد الملك العزيز الأيوبي صاحب حلب[٤].

وبسبب التنافس الشديد بين أمراء آل فضل انتقلت الإمرة إلى أبناء علي بن حديثة وهو (أخو مانع) [٥].

وفي عهد المماليك بدأت إمرة العرب تستقرّ بمفهومها ومهامّها ، وأصبحت أكثر وضوحاً ، وغدت منصباً رسمياً كبقية المناصب الأخرى. فكانت إمرة العرب عند قيام

---

(١) الروذراوي ، ذيل تجارب الأمم ، ٣/ ٢٣٨ .

– وعن العلاقة بين آل الجراح وبين الفاطميين ، انظر : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص : ١٩ وما بعدها .

(٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٣٩ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٤٩٩ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ٣/ ٢٥١ – ٢٥٢ ؛ وابن خلدون ، م.س ، ٦/ ١٢ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ١ ق١ / ٢٨٧ .

(٥) يروي ابن الفرات عن علي بن حديثة :

" كانت إمرة العرب لعلي بن حديثة ، وكان كثير السفك للدماء ، ويقتل مفسدي العرب بأنواع القتل المختلفة..... وقد توفي ابتداء دولة الظاهر بيبرس ، فما كان منه أن فوض إمرة العرب لابن عمه عيسى بن مهنا ابن مانع بن حديثة " (تاريخ ابن الفرات ، ٨/ ١٢).

دولة المماليك بيد علي بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة الطائي (١). ثم تولاها الأمير زامل بن علي بن حديثة في عهد عز الدين أيبك (٦٤٨ – ٦٥٥/ ١٢٥٠ – ١٢٥٧) ، واستمر في الإمرة حتى بداية حكم الظاهر بيبرس (٦٥٨ – ٦٧٦ / ١٢٦٠ – ١٢٧٧)(٢).

وتشير الأحداث إلى أنّ إمرة العرب انحصرت في فترة حكم الظاهر بيبرس في آل فضل بن ربيعة ، أي في بيت آل مهنّا بن مانع بن حديثة ، وربّما كان ذلك لِما وقع بين بيبرس وعلي بن حديثة وعيسى بن مهنّا من أثر كبير في تَوْلية عيسى بن مهنّا ، واستمرار الإمرة في هذا البيت. إذ اتفق أنّ الظاهر بيبرس قَبْل السلطنة رَمَتْه الليالي في بيوت الأعراب ، فطلب فرساً من علي بن حديثة فلم يُعطه ، وكان ذلك بحضور عيسى ابن مهنّا ، فتوسّم – هذا الأخير – فيه وضمّه إليه وبالغ في إكرامه ؛ وخيّرهُ في رباط خيله فاختار فرساً ؛ ولما تسلطن حفظها له ، فانتزع الإمرة من أبي بكر بن علي بن حديثة وأعطاها لعيسى بن مهنّا ، وبقي أبو بكر بن علي شريداً (٣).

ولمّا طلب أحد المنافسين من الأمراء العرب – أحمد بن طاهر بن غنّام – أنّ يُشارك بالإمرة ، رفض الظاهر بيبرس طلبه ، لكنّه أرضاه بإمرة بوق وعلم * (٤). ثمّ أحضر أمراء العرب ، وأصدر مرسوماً يقضي بإمرة الأمير حسام الدين عيسى بن مهنّا أميراً على جميع أعراب الشام ، وكان ذلك سنة ٦٥٩/ ١٢٦٠ ؛ مما دفع مؤرخي المماليك أن يطلقوا عليه لقب " ملك العرب " (٥).

وقد استمرّ عيسى بن مهنّا في إمرة العرب أكثر من عشرين عاماً ، ولم تخرج عنه إلاّ مرةً واحدة حين أيّد حركة (سنقر الأشقر) سنة ٦٧٩/ ١٢٨٠ (٦). لكنّه واجه

---

(١) الحياري ، الإمارة الطائية ، ص : ٦٨ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ٦/ ١٢ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ٢١٠ .

(٣) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٨٩ .

* إمرة بوق وعلم : هذا المنصب سلجوقي الأصل ، ورثه الأيوبيون ، وظل في النظام العسكري المملوكي ، ويقابل طبلخاناة.

– " والطُّلْبُ بلغة الغُزّ ، هو الأمير المقدم الذي له عَلَم معقود ، وبوق مضروب ، وعدة من الجند ما بين مائة إلى مائتيّ فارس "

(المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ٣/ ٣٢٧).

(٤) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص.ن .

(٥)المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢/ ٤٦٥ .

(٦) انظر : ص (١٥٠ – ١٥٤) من هذه الأطروحة .

منافسة شديدة من الأمير زامل بن حديثة أمير آل علي حين وفد بأصحابه على الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩/ ١٢٦٠ ، فأرضاه وأكرمه وقدّم له تسعة آلاف مكوك من الغلال [١].

وأمّا المنافسة الحادة لأمير العرب عيسى بن مهنّا فقد جاءت من الأمير أحمد بن حجي أمير آل مرا ، إذ امتد نفوذه من حوران إلى الحجاز ، ووصلت غاراته إلى نجد وبريّة العراق ؛ واجبر أمراء العرب في تلك المناطق على دفع الإتاوات أحياناً ؛ كما أخضع البادية لكلٍّ من الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون [٢]. وهذا يعني أن ابن حجي احتلّ مكانة رفيعة لديهما. وقد ظلّ على خلاف مع الأمير عيسى بن مهنّا ، ووقعت بينهما وقائع ؛ ولم ينتهِ هذا التنافس بينهما إلاّ بموت أحمد بن حجي سنة ٦٨٢/ ١٢٨٣ ، في بُصرى الشام ؛ وقد صلّي عليه صلاة الغائب بدمشق ، مما يدلّ على سموّ مكانته. ثمّ تولّى من بعده إمرة آل مرا اثنان من أبنائه ، واستمرت في بيتهم حتى نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي [٣].

يظهر أنّ إمرة آل مرا كانت مستقلة عن إمرة آل فضل ، ففي الوقت الذي كانت فيه إمرة آل مرا خاصة بهم ، كانت إمرة آل فضل تمثّل جميع الأعراب.

وعلى الرغم من مكانة أمراء العرب (عامة) عند الظاهر بيبرس ، فأنّ عيسى ابن مهنّا ظلّ يحتلّ المكانة الأولى عنده ؛ وتضاعفت مكانته عند المنصور قلاوون ، فملّكه تدمر بعقد البيع والشراء حتى تُوفّي بسلميّة عام ٦٨٣/ ١٢٨٤ [٤]. وقد وصفه عدد من المؤرّخين؛ بكرم الأخلاق ، وحسن الجوار ، وبذل الخير ، والبعد عن الأذى والشر. كما امتازت فترة إمارته بالهدوء والاستقرار إلى حد كاد ينعدم فساد الأعراب في أيامه [٥].

وبعد وفاة عيسى بن مهنّا ، تولّى إمرة العرب ابنه مهنّا ، إذ ولاّه إيّاها المنصور قلاوون ؛ فَعَلَتْ مكانته في أيام قلاوون أكثر من مكانة أبيه عيسى [٦]. لكن الإمرة

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١/ ٤٤٠ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ٣٤٤ ؛ ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ١/ ٢٦٢ – ٢٦٣ ؛ اليونيني ، م.س ، ٤/ ٣٦ ، ٣٥ ؛ وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ٥/ ٣٨٣ .

(٣) ابن كثير ، م.س ، ١٣/ ٣٤٥ ؛ العيني ، عقد الجمان ، ٢/ ٣١٤ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٧/ ٣٦٣ .

(٤) النويري ، نهاية الأرب ، ٣١/ ١٢٠ – ١٢١ .

(٥) اليونيني ، م.س ، ٤/ ١٨٣ ؛ النويري ، م.س ، ٣١/ ١٢٠ – ١٢١ ؛ ابن الفرات ، تاريخه ، ٨/ ١٣ .....وقد أورد ترجمة لأحمد بن حجي في ٧/ ٢٨٢ ؛ العيني ، م.س ، ٢/ ٣٣٦ ، وابن تغري بردي ، م.س ، ٧/ ٣٦٣ .

(٦) النويري ، م.س ، ٣١/ ١٢١ ؛ ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٤٠ ؛ ابن الفرات ، م.س ، ٨/ ٨ .

خرجت عنه مرات عدة ؛ إما بسبب سوء العلاقة بينه وبين السلاطين المماليك من ورثة قلاوون لمساعدته الأمراء المماليك الخارجين عن الطاعة في بلاد الشام ؛ أو لاتفاقه مع أخيه فضل للخروج عن الطاعة ، إذ وجدا في ذلك إمكانية الحصول على مزيد من الإقطاعات من المماليك وحتى التتار أحيانا.

وقد ساءت العلاقة بين الأمير مهنا بن عيسى و السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ – ٦٩٣ / ١٢٩٠ – ١٢٩٣) ، وذلك لما خرج الأشرف خليل لفتح قلعة الروم في الثغور – شمالي الشام – مرت عساكره بسرمين من إقطاع مهنا ، فأكلت زروعها وآذت أهلها ، فشكوا لأميرهم مهنا ، فاحتج للأشرف خليل ، فعز عليه واستنقص همته ، وأسمعه كلاما قاسيا. وأضمر الانتقام منه ، وظل يتحين الفرصة حتى حان وقتها سنة ٦٩٢/ ١٢٩٣. فلما وصل الأشرف خليل إلى دمشق ، خرج مهنا وعمل وليمة له فحضرها الأشرف خليل ؛ ولما فرغ أمسك مهنا وعددا من أولاده وإخوته ، فخرجت النساء ، " باكيات جائحات وهن مكشوفات الوجوه " [(1)]. وجهزهم إلى مصر ، وسجنهم في برج القلعة ، وضيق عليهم ؛ وأعطى الإمرة إلى محمد بن أبي بكر بن علي بن حديثة أمير آل علي [(2)]. لكن ذلك لم يستمر طويلا ، فبعد مقتل الأشرف خليل سنة ٦٩٤/ ١٢٩٣ ، أفرج عنهم السلطان زين الدين كتبغا في بداية سلطنته ، وأعاد مهنا إلى إمرة العرب [(3)].

وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون ، خرج مهنا بن عيسى عن الطاعة ، بسبب فشل وساطته بين الأمير (قراسنقر) * وبين الناصر محمد ، فانسحب إلى التتار في العراق ، وولى الناصر محمد مكانه أخيه فضل بن عيسى سنة ٧١٢/ ١٣١٢ [(4)].

ولما اشتدت الوحشة بين مهنا بن عيسى و الناصر محمد ، عزل فضل بن عيسى وعيّن محمد بن أبي بكر بن علي بن حديثة سنة ٧٢٠/ ١٣٢٠ ، أميراً على العرب. لكن

---

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٤٠ ؛ العيني ، عقد الجمان ، ٣/ ١٦٤ ، وانظر : حيدر الشهابي ، تاريخه ، ص : ٤٩٦ .

(٢) النويري ، نهاية الأرب ، ٣١/ ٢٥٠ – ٢٥١ ؛ ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص : ١٤١

(٣) ابن حبيب الحلبي ، درة السلاك ، مخطوط ، ١/ ١٠٦ ؛ ابن الفرات ، تاريخه ، ٨/ ١٨٥ ؛ العيني ، م.س ، ٣/ ١٦٤ ؛ ابن سباط ، صدق الأخبار ، ١/ ٥٠٠ .

* انظر هذه الأطروحة : الفصل الثالث ، حركة قراسنقر ، ص (١٥٦) ، و ما بعدها .

(٤) ابن حبيب الحلبي ، تذكرة النبيه ، ٢/ ٧٥ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ٧٨ ؛ ابن خطيب الناصرية ، الدر المنتخب ، مخطوط ، ٣/ ١٤٩ ؛ وانظر : العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ١/ ٤٤٠ .

السلطان الناصر عاد وعزل محمد بن أبي بكر وقلّد فضل بن عيسى إمرة العرب مرة أخرى سنة ٧٢٢/ ١٣٢١ (١).

ويمكن القول ، أنّ سبب ذلك يعود إلى أسلوب التسويف الذي سلكه مهنّا بن عيسى وهو في العراق ، ومحاولات الوساطة التي قام بها أولاد مهنّا وإخوانه لدى الناصر محمد بن قلاوون الذي كان يطمع بعودة مهنّا إلى الطاعة. واستمر مهنّا خارجاً عن الطاعة يتنقل في البادية ما بين الشام والعراق نحو عشرين عاماً حتى عاد إلى الطاعة سنة ٧٣٤/ ١٣٣٣ ؛ فتوجّه إلى القاهرة وسار معه الملك الأفضل صاحب حماة ، فأكرمه السلطان الناصر محمد ، وأنعم عليه انعامات جليلة ، وردّه إلى إمرة العرب. ثم عاد مهنّا إلى أهله مكرّماً ، وظلّت الإمرة بيده حتى تُوفّي سنة ٧٣٥/ ١٣٣٤ ، بالقرب من سلميّة(٢).

وقد وصفته معظم المصادر التاريخية بأنّه كان وقوراً متواضعاً ، لا يحفل بملبس*، ديّناً ، حليماً ، ذا مروءة وسؤدد ، وله مكانة عند السلاطين. وحزنت عليه عشيرته ، وأقام أهله مأتماً بليغاً ، ولبسوا السواد عليه (٣). وكان مهنا قد بنى بيمارستاناً بَسْرمين (٤).

وبعد وفاة مهنّا ، توالى على تولّي إمرة العرب عدد من أمراء آل مهنّا وآل فضل، وظهر التنافس بينهم. فتقلّدها الأمير موسى بن عيسى بن مانع بن حديثة (٧٣٦ – ٧٤٢/ ١٣٣٥ – ١٣٤١) ، وأنعم السلطان الناصر محمد عليه ، فردّ إقطاعه له ، وعوّضه عن داريّا ، وأفرج عن أملاكه ، كما أطلق له من دمشق مائة ألف درهم. وظلّ في الإمرة حتى تُوفّي في تدمر سنة ٧٤٢/ ١٣٤١ (٥).

---

(١) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ١١٧ – ١١٩ ؛ العزاوي ، العراق بين احتلالين ، ١/ ٤٦٣ – ٤٦٤ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ٤/ ١٤٤ ؛ ابن الوردي ، تاريخه ، ص : ٤٣٦ ؛

ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٤/ ١٧٣ ؛ وابن ايبك الدواداري ، الدر الفاخر ، ص : ٣٧٩ .

- تذكر معظم المصادر المملوكية ، أن الأمير مهنا عاد سنة ٧٣٣هـ وتوفي سنة ٧٣٤هـ .

(ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ٢/ ٧٥ ؛ ابن حجر ، الدر الكامنة ، ٤/ ٣٧٠).

* كان قيمة جميع ما يلبسه خمسين درهماً رغم أنه كان غنياً ، كما اقتصر أكله على حليب ناقته وما يصيده بنفسه .

(ابن فضل الله العمري ، م.س ، مخطوط ٢٩/ ١٠١).

(٣) أبو الفداء ، المختصر، ٤/ ١٥٨ ؛ وابن حجر ، م.س ، ص.ن ؛ والحباري ، الإمارة الطائية ، ص : ٧٣ – ٧٤

(٤) ابن الوردي ، م.س ، ص : ٤٤٠ .

(٥) ابن كثير ، م.س ، ١٤/ ١٩٣ ؛ ابن قاضي شهبه ، تاريخه ، جـ١ ٢٨٨

ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠/ ٧٦ .

ثم تولّى إمرة العرب الأمير فيّاض بن مهنّا بن عيسى بن مانع بن حديثة ، كما تقلّدها مرة ثانية بعد موت أخيه أحمد سنة ٧٤٩/ ١٣٤٨ (١). ومن بعده تولّاها سليمان بن مهنّا بن عيسى بن مانع بن حديثة سنة ٧٤٢/ ١٣٤١ ، في عهد الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد ، واستمر فيها حتى عزله الصالح إسماعيل بن الناصر محمد ٧٤٣/ ١٣٤٢ . وكان سليمان هذا طريداً مع والده مهنا ومقيماً عند التتار نحو سبعة عشرة عاماً، ثم عاد إلى الرحبة ، حيث كان والده وعمّه فضل يُرفدانه بالمال ويحذّرانه من الوقوع بيد السلطان محمد بن قلاوون ، فطال عليه الأمر ، فركب من دون علمهما ، وسار إلى القاهرة ؛ فأقبل عليه السلطان ، وأقطعه إقطاعاً ، ولم يؤاخذه على تصرُّفه السابق. وتُوفّي سليمان سنة ١٣٤٣/٧٤٤ بظاهر سلمية (٢).

ولما عُزل سليمان بن مهنا عن إمرة العرب ، أقدم السلطان إسماعيل بن الناصر محمد على توليتها للأمير عيسى بن فضل بن عيسى – هو ابن أخ مهنا – لكنه لم يستمر طويلاً ، إذ تُوفّي سنة ٧٤٤/ ١٣٤٣ (٣) ؛ فتولى الإمرة سيف بن فضل بن عيسى * ، وبقي فيها إلى أن عُزل سنة ٧٤٦/ ١٣٤٥ ، فتولّاها أحمد بن مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة ، في ظلّ السلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد (٤). ثم عزل عنها فتولّاها سيف بن فضل مرة أخرى في عهد المظفر حاجي الأول بن الناصر محمد (٧٤٧

---

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٣/ ٣١٧ .

- توجه فياض إلى القاهرة سنة ٧٤٩/ ١٣٤٨ ، وطلب تولي إمرة العرب مكان أخيه أحمد ، فأجيب طلبه. لكنه فوجئ بشكوى رجل شريف إدعى عليه بأنه قطع الطريق عليه وتعرض لماله وحريمه ؛ فرسم السلطان بانصافه، فأغلظ فياض بالقول طمعاً بصغر سن السلطان ، فقبض الأمراء عليه ، وأرسلوه إلى سجن الإسكندرية ، ثم أطلق سراحه ، فعاد ليختلف مع ابن عمه سيف بن مهنا ، ففرّ إلى العراق ، ومات هناك سنة ٧٦١/ ١٣٥٩ . (ابن قاضي شهبه ، تاريخه ، ١/ ١٦٠).

(٢) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ١٤٢ ؛ الصفدي ، أعيان العصر ، ١/ ٤٠٢ ؛ ابن حجر ، م.س ، ٢/ ٢٥٨ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠/ ١٠٣ ، وابن خطيب الناصرية ، الدر المنتخب ، مخطوط ، ١/ ٤٨٣ .

(٣) ابن الوردي ، تاريخه ، ص : ٤٧٦ ؛ الصفدي ، م.س، ٢/ ٢٢٢ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٣/٦٥٩.

* سيف بن فضل : كانت له وجاهة في دولة المماليك منذ أيام محمد بن قلاوون ، وكان من عادته تقديم ولاء الطاعة في القاهرة والعودة بما يحتاجه من إنعامات سلطانية ؛ و لم يدخل في حكم آل مهنا ، ومات مقتولاً سنة ٧٦٠/ ١٣٥٩ .

(الصفدي ، م.س ، ١/ ٤١٧ ؛ ابن خطيب الناصرية ، م.س ، مخطوط ، ١/ ٥٠٥ ؛ ابن تغري بردي ، م.س ، ١٠/ ٣٣٠).

- وله ترجمة عند ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٤/ ٢٦٣ .

- ويذكر ابن قاضي شهبه أن أبناء عمومته قتلوه سنة ٧٥٩هـ ؛ تاريخه ، جـ٢ / ١٣٧ .

(٤) ابن الوردي ، م.س ، ٢/ ٤٨٦ ، وابن خطيب الناصرية ، م.س ، مخطوط ، ١/ ١٨٢ .

– ٧٤٨ / ١٣٤٦-١٣٤٧) [١] ؛ ثم تولاها أحمد بن مهنّا للمرة الثانية ** سنة ٧٤٩/ ١٣٤٨ ؛ وبعد وفاته تولى إمرة العرب فيّاض بن مهنّا ، ثم عُزل بأخيه حيّار بن مهنّا بن عيسى بن مهنّا بن مانع بن حديثة [٢].

لكن حيّار بن مهنا لم يبق في الإمرة ، فعزل عنها سنة ٧٥١/ ١٣٥١ ، بسبب مشاركته في حركة عصيان الأمير المملوكي (بيبغا أرس) * فتولّاها أخوه فيّاض ، ثم عُزل بعد أشهر ليتولاها سيف بن فضل مما أدى إلى اتفاق حيّار وفياض ضده [٣].

ولمّا عجز السلطان حسن بن الناصر محمد عن استرضاء أمراء العرب ، أشرك سيف بن فضل وعمر بن موسى بن مهنّا في تولي إمرة العرب. وظل حيّار بن مهنّا خارجاً عن الطاعة إلى أن عاد إليها سنة ٧٥٥/ ١٣٥٤ ، فأعيد إلى الإمرة ؛ ثم خرجت عنه إلى أخيه فيّاض [٤] ؛ لكنّ فيّاض عاد وعصى ، فأعاد السلطان الإمرة لأخيه حيار ، فحصل الخير وكفّ شرور الأعراب. وبسبب التنافس الشديد ، ذهب عمر بن موسى بن مهنّا إلى القاهرة وشكا عمه حيار فولاه السلطان عوضاً عن عمه ، فغضب حيّار وآل مهنّا إذ " جمّعوا وشعّلوا" [٥].

وهذه المرة كان لا بد من تدخل السلطة بشكل حاسم ، فأرسلت قوات من القاهرة ، واصطدمت بقوات حيّار ، فما كان من عمر بن موسى ومعه رملة بن جمّاز أمير آل علي أن تدخلا ضد حيّار فألحقوا الهزيمه به ؛ فأعطى السلطان إمرة العرب شراكة (مناصفة) بين عمر بن موسى ورملة بن جمّاز أمير آل علي [٦].

ولماعاد حيّار إلى الطاعة سنة ٧٦٢/ ١٣٦١ ، أعادهُ السلطان إلى إمرة العرب ، ولم يستمر أكثر من عام حتى عاد إلى سيرته السابقة فخرج عن الطاعة سنة ٧٦٣/

---

(١) ابن الوردي ، تاريخه، ٢/ ٤٨٦ ؛ الصفدي ، أعيان العصر ، ١/ ١٢٤ – ١٢٥ ؛ وابن خطيب الناصرية ، الدر المنتخب ، ١/ ٥٠٥؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٣ / ٦٥١ .

** أحمد بن مهنّا : هو شقيق موسى وفياض وسليمان ، ولد ٦٨٤هـ ، وتوفي ٧٤٩هـ ، فبعد وفاة السلطان إسماعيل بن الناصر محمد ، استدعاه شعبان بن الناصر محمد وولاه الإمرة ، ثم عُزل إلى أن ولاه إياها السلطان حسن بن الناصر محمد سنة ٧٤٩هـ . ويذكر أنه تولاها سابقاً سنة ٧٣٥هـ . (ابن خطيب الناصرية ، م.ن ، ١/ ٥٠٥ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ١/ ٣٤٢ – ٣٤٣).

(٢) ابن حجر ، م.ن ، ٣/ ٣١٧ .

* انظر هذه الأطروحة،الفصل الثالث ، ص : (١٧٢– ١٧٥) عن حركة بيبغا أُرس .

(٣)المقريزي ، م.س ، جـ٢ ق٣ / ٨٦٩ .

(٤) ابن سباط ، صدق الأخبار ، ٢/ ٧٠٨ ، ٧١٨ .

(٥) ابن قاضي شهبه ، تاريخه ، ج٢ / ١٦١ – ١٦٢ .

(٦) م.ن ، ص.ن .

١٣٦٢ ، واستمرّ في عصيانه إلى أن اختلف مع نائب حلب (قشتمر المنصوري) ، فقتله سنـــة ٧٦٤/ ١٣٦٢ (١) ، وخرج من بلاد الشام إلى العراق ، وبقي هناك ثلاث سنوات ، ثم عاد وقدِم على السلطان فأكرمه وردّ إليه اقطاعه وإمرة العرب (٢). وقد استمر فيـــها إلى أن خرجت عنه إلى زامل بن موسى بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثـــة ، ســنة ٧٧٠/ ١٣٧٨، وظلّ فيها حتى عُزِل عنها سنة ٧٧٥/ ١٣٧٣ ٠ ثم عاد حيّار إلى الطاعة من جديد فتولّاها للمرّة الأخيرة حتى تُوفّي سنة ٧٧٦/ ١٣٧٤ ، بنواحي سلميّة عن ســتة وستين عاماً (٣).

وبعد وفاة حيّار ، عيّن السلطان شعبان بن حسين بن الناصر محمد ، أخاه قارا بن مهنا ، واستمرّ فيها إلى أن تُوفّي معتقلاً سنة ٧٨١/ ١٣٧٩ ، بسَرْمين ودفن بســلميّة (٤). فأقدم السلطان علي بن شعبان بن حسين على تولية إمرة العرب شراكة بين معيقـــل بـــن فضل بن عيسى وبين زامل بن موسى بن مهنّا بن عيسى (٥) ، ثم عُزلا لســنة توليتــهما وأُعطيت للأمير شمس الدين محمد نُعير بن حيّار بن مهنّا (٦) ، لكنْ مناصفة بينه وبيـــن ابن عمه زامل ابن موسى٠ وفي عام ٧٨٢/ ١٣٨٠ أصبحت الإمرة كاملـــة لنعُـــير بـــن حيّار(٧). ومناسبة ذلك حين حضر زامل بن موسى إلى القاهرة ، فأجلسه الأمير برقـــوق (الأتابك) أعلى منه ، لكن سرعان ما تغيّر عليه ، إذ وصل بريد الشام يخبر بتحرك زامل ونزوله مرج دمشق ، وتحرّشه بنائب دمشق (قشتمر) الذي لم يُمكّنه من الاستقرار

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١/ ٥٤ ٠

(٢)ابن قاضي شهبه ، تاريخه ، جـــ٢ / ٢٢٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ٠

(٣) م.ن ، ص : ٣٠٩ ، ٤٥٨ – ٤٥٩ ،

وابن خطيب الناصرية ، الدر المنتخب ، مخطوط ، ١/٤٥٥ ٠

(٤) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٣/ ٣٢٠ ؛ وإنباء الغمر ، ١/ ٢٠٥ ، وابن خطيب الناصرية ، م٠س ، ٣/١٥١.

– يذكر بن قاضي شهبه نسب " قارا بن مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة ابن فضل بن ربيعة ٠" (م٠س ، ٣/ ١٧)٠

– وحين يترجم ابن تغري بردي إلى سليمان بن عنقاء بن مهنا يذكر " تولى سليمان إمرة العرب سنة ٧٧٨هـــ ، وبعد موت ابن عمه موسى بن مهنا ، ومقتل سليمان سنة ٨٠٠هـــ على يد نعير في معركة قرب الرحبة ٠ (المنهل الصافي ، ٦/٤٨)٠

– يبدو لنا أن ما ذكرناه في المتن هو أقرب إلى واقع الإمرة مما ذكره ابن تغري بردي ٠

(٥) ابن خطيب الناصرية ، م٠س ، ص٠ن ٠

(٦) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ١/ ٨١ ، وإنباء الغمر ، ١/ ١١٦ – ١١٧ ٠

(٧)ابن قاضي شهبه ، م٠س ، ص : ٨ ؛ وابن حجر ، إنباء الغمر ، ٢/ ٣٤٩ ٠

في المرج في شتاء تلك السنة. فأقدم الأتابك برقوق على اعتقال (زامل) وسجنه في القلعة ، فانفرد نُعير بإمرة العرب [١].

لكن هذا الانفراد والاستقلال بالإمرة لم يستمر طويلاً لنعير ، فقد خرجت الإمرة عنه مراتٍ عديدة خلال حكم الظاهر برقوق (٧٨٤ – ٨٠١ / ١٣٨٢ – ١٣٩٨). ففي سنة ٧٨٥/ ١٣٨٣ ، عُزل عن إمرة العرب ، وعُيّن عوضاً عنه ، عثمان بن قارا بن مهنا المتوفّى سنة ٧٨٧/ ١٣٨٥ ، فأعاده برقوق إلى الإمرة من جديد [٢]. وحين عاد برقوق إلى سلطنته الثانية سنة ٧٩٢/ ١٣٨٩ ، عزله عن الإمرة بسبب تأييده منطاش *. يبدو أن نُعيراً قد ملّ القتال وتعب لكثرة هزائمه المتلاحقة أمام السلطة المملوكية ؛ فأرسل حاجبه (عبد الرحمن) إلى الظاهر برقوق طالباً الأمان ، ومعلناً الطاعة من جديد ، والاعتذار عمّا جرى منه ، وملتزماً بإحضار منطاش ؛ فرسم برقوق أماناً شريفاً وتقليداً باستمراره في إمرة العرب سنة ٧٩٣/ ١٣٩١ [٣]. لكن نُعيراً خرج عن الطاعة من جديد وظلّ خارجاً عنها حتّى سنة ٧٩٥/ ١٣٩٣ ؛ إذ حدث انقسام في صفوف عربه. ويظهر أنهم ملّوا العصيان والاقتتال، فتزعّم هذا الاتجاه عامر بن طاهر بن حيّار (ابن أخ نعير)، وثلاثة من أبناء نعير (أبا بكر ، عمر ، غنّام) ، وأقنعوا والدهم بضرورة التخلّي عن منطاش ، والتخلص منه ن وراسلوا برقوق ، فأكرم رسلهم [٤].

وبمقتل منطاش سنة ٧٩٥/ ١٣٩٣ ، أرسل برقوق الخلع إلى نُعير ، وحلّفه على الطاعة [٥]. لكن نُعيراً خرج عن الطاعة من جديد وتوجّه إلى البرّيّة مع أولاده سنة ١٣٩٥/٧٩٧ ؛ فلم يَرُق له المقام ، فعاد سريعاً إلى الطاعة ؛ وأرسل ابنه (عمر) إلى القاهرة ، فدخل على برقوق وفي عنقه " منديلٌ ونصفيّة " [٦]. فتجاوز برقوق عن تصرفات نُعير ؛ وظلّ خارجَ الإمرة حتّى أعيدت إليه بعد وفاة برقوق سنة ٨٠١/ ١٣٩٩؛ حيث رسم بذلك السلطان فرج بن برقوق [٧].

---

(١) ابن قاضي شهبه ، تاريخه ، ٣/ ١٣ ، ٣٠ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢/ ٥٣٢ ؛ ابن قاضي شهبه ، م.س ، ٣/ ١٣٥ ، وابن سباط ، صدق الأخبار ، ٧٤٠/٢ .

* انظر حركة الناصري ومنطاش ، الفصل الثالث ، ص : (١٧٤)

(٣) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق١ / ٢٣٣ ؛ وابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٤١٣ .

(٤) ابن الفرات ، م.س ، ص : ٣٣٦ .

(٥) ابن حجر ، م.س ، ص : ٤٥٢ .

(٦)ابن الفرات ، م.س ، جـ٩ ق٢ / ٤٠٥ .

(٧) ابن خطيب الناصرية ، الدر المنتخب ، مخطوط ، ٣/ ٢٣٤ – ٢٣٥ ؛ وابن حجر ، م.س ، ٢/ ٣٥٠ .

وبعد ست سنوات ، استغلّ نُعيرّ عدم استقرار الأوضاع السياسية في بلاد الشام ، إذ خرج معظم نُوّابها عن طاعة السلطان فرج بن برقوق ، فبدأ العمل لحسابه الخاص ، وأعلن عصيانه سنة ٨٠٧/ ١٤٠٥ ، فاقتتل مع الأمير جكم نائب حلب الخارج عن الطاعة سنة ٨٠٨/ ١٤٠٦ ، لكنّه وقع في قبضة جكم ، فسجنه في قلعة حلب ، وولى ابنه العجل عوضاً عنه في إمرة آل فضل* . ثم بدا لجكم رأي بمصير نعير فقتله سنة ٨٠٨/ ١٤٠٦ ، وبعث برأسه إلى القاهرة (١).

وأمام هذا الموقف ، هرب العجل ، فأقدم جكم على تعيين فضل بن علي بن نعير أميراً على عرب آل فضل ، وبقيت إمرة العرب شاغرة من دون أمير ، لأنّ العجل بن نُعير ظلّ خارجاً عن الطاعة ، حتى مقتل الناصر فرج بن برقوق سنة ٨١٥/ ١٤١٣ ؛ فردّ نوروز الحافظي إلى العجل إقطاعهُ وأمّره على العرب. لكنّه لم يستمر طويلاً ، إذ قتل سنة ١٤١٣/٨١٦ ، على يد مماليك الأمير (طوخ) نائب حلب (٢).

وبمقتل نُعير ، وولده العجل ؛ بدأت شوكة آل مهنّا تضعف ، وقلّ تأثيرهم السياسي. ولم يقتصر الأمر على آل مهنّا ، بل تعدّاهم إلى آل علي ، حيث انكسرت شوكتهم تماماً بمقتل أميرهم فضل بن عيسى بن رملة بن جماز سنة ٨١٦/ ١٤١٣ (٣).

وبعد مقتل العجل بن نعير ، تولى أخوه حسين بن نعير إمرة العرب ، لكنه سرعان ما خرج عن الطاعة ؛ فصرفه شيخ المحمودي وعين حديثة بن سيف في إمرة آل فضل. فوقع الخلاف بين حسين بن نُعير وحديثة بن سيف ، وانتهى هذا الخلاف بمقتل حسين بن نَعير سنة ٨١٨/ ١٤١٥ في سلميّة (٤). يبدو من هذه الأحداث ، أنّ شيخ المحمودي ترك أمراء آل فضل يختلفون إلى حد الاقتتال الدامي ، ويُصفّون بعضهم دون إرهاق السلطة المملوكية.

وما كاد حديثة بن سيف يتخلص من منافسه حسين بن نُعير ، حتى ظهر له منافس آخر هو غنّام بن زامل أمير آل موسى المطالب بإمرة العرب سنة ٨١٩/ ١٤١٦ . وهنا،

---

* كتب السلطان باستقرار العجل أميراً على آل فضل ، ثم أقرّه على إمرة العرب .

(المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ق١ / ٢٠ ، ٢١).

(١)م.ن ، ص : ١٨ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق٢ / ٧٤٩ – ٧٥٠ .

(٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٣/ ٢٦ – ٢٧ .

– العجل بن نعير بن حيار بن مهنا بن مانع أمير آل فضل بالشام والعراق ، ولد سنة ٧٨٠هـ ، ونشأ في حجر أبيه نعير؛ ولما بلغ العشرين من عمره خرج عن أبيه وفارقه إلى أن قتل سنة ٨١٦هـ . وكان شهماً شديد السطوة والجرأة. (السخاوي ، الضوء اللامع ، ٥/ ١٤٦).

(٣)ابن حجر ، م.س ، ٣/ ٣٠ ؛ السخاوي ، م.س ، ٣/ ١٧٤ .

(٤)المقريزي ، م.س ، ص : ٣٢٧ ؛ وابن حجر ، م.س ، ٣/ ٥٥ .

تدخّل شيخ المحمودي سنة ٨٢٠/ ١٤١٧ ، وأصلح الأمور بينهما ، وثبّت كلّ منهما في إمرته على عربه وحلّفها على الطاعة (١).

وبعد حديثة بن يوسف ، تولّى إمرة العرب عُذْراء بن علي بن نُعير بن حيّار ، وبقي فيها حتى قتل سنة ٨٣١/ ١٤٢٨ (٢) ؛ فتولى أخوه مُدلج بن علي بن نعير بن حيّار إمرة العرب بتقليد من الأشرف برسباي (٨٢٥ – ٨٤١ / ١٤٢٢ – ١٤٢٧). واستمر مُدلج أميراً للعرب وفي طاعة السلطان برسباي حتى قتل بالقرب من حلب ٨٣٣/ ١٤٣٠ ، وذلك على إثر خلاف وقع بينه وبين ابن عمه قرقماس بن حسين بن نُعير ، قاتل عذراء من قبل(٣).

وأمام هذه الخلافات الحادة بين أمراء آل فضل التي أودت بحياتهم قتلاً ؛ قَدِمَ سليمان بن عذراء بن علي بن نُعير على السلطان برسباي في القاهرة ، فأكرمه وأمّره على العرب عوضاً عن عمه (مدلج) ، وعاد بمنشوره إلى حلب. وظلّ سليمان هذا في الطاعة حتى تُوفّي عام ٨٤٠/ ١٤٣٦ (٤).

وبعد سليمان ، تولّى الغادر بن نُعير بن حيّار إمرة العرب لمدة عامين (٨٤٠ – ٨٤٢ / ١٤٣٧ – ١٤٣٩) ، لكنّه خرج عن طاعة السلطان جقمق ، فكتب باستقرار الأمير موسى بن حديثة آل مهنا * أميراً للعرب ، عوضاً عن الغادر ، وجهّز له تشريفاً بذلك (٥).

وفي عام ٨٥٤/ ١٤٥٠ ، استقر محمد بن توقان بن نعير بإمرة العرب ، بعد عزل ابن عمه العجل بن قرقماس بن حسين بن نُعير ** ، ثم عُزِلَ بعد أيام ، واستقر ابن عمه

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ٤ ق ١/ ٤٠٠ ، ٤١٥ ؛ وابن حجر ، إنباء الغمر ، ٣/ ٧٥ ، ١٣٢ .

(٢) ابن حجر ، م.ن ، ٣/ ٤٣٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥/ ١٤٧ ؛ والسخاوي ، الضوء اللامع ، ٥/ ١٤٦ .

(٣) ابن حجر ، م.س ، ٣/ ٤٣٣ ، ٤٥١ ؛ المقريزي ، م.س ، جـ٤ ق٢ / ٨٤٩ ؛ ابن تغري بردي ، م .س ، ١٥/ ١٧٨ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٢/ ١٣٥ .

(٤) ابن حجر ، م.س ، ٣/ ٤٣٣ – ٤٣٤ ؛ المقريزي ، م.س ، جـ٤ ق٢ / ٨٣٤ ؛ ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣/ ١٩٨ ؛ وابن إياس ، م.س ، ص.ن .

* لم نعثر لـه على ترجمة.

(٥) المقريزي ، م.س ، جـ٤ ق٣ / ١١١٣ ؛ ابن تغري بردي ، م.س ، ١٥/ ٣٢٣ .

** توفي ٨٦٩ هـ ، وهو من خيار آل فضل(السخاوي ، الضوء اللامع ، ٥/ ١٤٦ ؛ ابن إياس ، م.س ، ٢/ ٤٣١).

(غنّام) فيها ، وحمل الدوادار تقليده ، لكنّه عُزل قبل أن يصله التقليد !! وكُتب باستقرار محمد بن توقان بن نُعير [١].

هكذا ولّي غنّام وعُزل دون أن يعلم.وفي عام ٨٥٨/ ١٤٥٤ ، أصدر السلطان إينال العلائي مرسوماً بعزل الأمير عسّاف عن إمرة العرب ، وعيّن حديثة بن عذراء بن علي بن نُعير بإمرة عرب الشام [٢].

ومع نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي حتى نهاية عهد المماليك ، غدت ملامح الضعف والفرقة ملازمة للقبائل العربية الشاميّة ، وكأنّ ملامح ضعف الدولة المملوكية انعكست على أعراب الشام. لذلك لم نعد نسمع عن دور أمراء العرب الذي يماثل ذلك الدور المؤثر في الأحداث والذي قام به أمراء العرب السابقون في عهد السلاطين المماليك الأقوياء. لهذا بدأت تختفي التقاليد والمناشير السلطانية لأمراء عرب الشام ؛ وأصبحت تُوجّهُ لأمراء محليين للقبائل العربية الشامية في معظم الأحيان.

ففي عام ٨٧٣/ ١٤٦٨ ، تولّى الأمير سيف بن علي بن نُعير إمرة آل فضل والعرب، لكنه خرج عن الطاعة ، فولّى السلطان (قايتباي) ابن عمه الأمير (عسّاف) الذي ظلّ موالياً للسلطة المملوكية سنوات طويلة. ولمّا ازداد خطر سيف بن علي بن نَعير، حاولت السلطة التخلص منه اغتيالاً ، لكنّ محاولتها لم تنجح ، فتركت الأمر للأعراب أنفسهم ولابن عمه عسّاف بوجه خاص. فقد تمكّن عسّاف من تدبير مؤامرة غدرٍ انتهت بإرسال وفدٍ لتقديم خلعةٍ سلطانية إلى سيف بن علي بن نُعير وهو مقيم في العراق ، ودسّ رجل (فداوي) ، تمكن من طعن سيف بن علي بسكين عند تناوله الخلعة السلطانية ، فمات مغدوراً سنة ١٤٧٢/٨٨٧ [٣] ، لِتَهْنأ السلطة المملوكية بتلك النهاية.لكنّ جماعة سيف بن علي بن نُعير المغدور لم تسكت عن هذا التصرف ، فامتدّ القتل والثأرُ إلى طرفي الجماعتين ، ولم تتوقف هذه الأعمال إلاّ بقتل (عسّاف) عام ١٤٨٥/٨٩٠. وحينها أصدر السلطان قايتباي مرسوماً بتقليد " علي بن عامر بن طاهر بن حيار " أميراً لآل فضل وللعرب [٤].

---

(١) السخاوي ، التبر المسبوك ، ص : ٢٩٩ ؛ ابن تغري بردي ، حوادث الدهور ، ١/ ٢٥٩ ، ٢٦٥ ؛ وابن إياس ، بدائع الزهور ، ٢/ ٢٧٨ .

(٢) ابن تغري بردي ، م.س ، ٢/ ٤٩١ .

(٣) السخاوي ، الضوء اللامع ، ٣/ ٢٨٨ – ٢٨٩ ؛ ابن إياس ، م.س ، ٣/ ١٩٤ .

– وأما ابن طولون الصالحي ، فيكتفي بتسميته بـ " سيف البدوي " . (مفاكهة الخلان ، ١/ ١٣).

(٤) ابن إياس ، م.س ، ٣/ ٢٢١ .

ويخبرنا ابن طولون الصالحي عام ٩٠٣/ ١٤٩٨ ، بأمير للعرب " محمد بن يوسف " ويربط اسمه بصاحب مصر محمد بن قايتباي ، وصاحب الروم – العثمانيين – محمد بن بايزيد ، وصاحب مكة " محمد بن عجلان " [١].

وفي عهد قانصوه الغوري ، بَدَت الصورة أكثر وضوحاً ، فصدرت مراسيم التقليد لأمراء محليين من أعراب جنوب الشام ، وأشهرهم " محمد بن ساعد " شيخ البلاد وكبير مشايخ حوران وعجلون. وظلّ هذا الأمير يتردد على نائب الشام والسلطان الغوري حتى عام ٩١٧/ ١٥١١ [٢]. كما ظهرت مراسيم بتقليد (أبو بكر) أميراً لآل جَرْم في غـزّة منذ ٨٩١/ ١٤٨٦ ، وإلى يوسف بن الجيوسي أمير عرب نابلس من فلسطين [٣]. وصدرت المراسيم السلطانية لأميرين من آل مِرا باقتسام الإمرة ، وهما : مُهنّا بن عامر ابن مقلّد ، وجانباي ، سنة ٩٠٣/ ١٤٩٨ [٤].

ونبتعد قليلاً عن بادية الشام نحو البقاع اللبناني في بعلبك ، لنجد أسرة آل الحنش البدوية ، فتصدر المراسيم بتعيين " ناصر الدين بن الحنش " أميراً على عرب بعلبك والبقاع في عهد قانصوه الغوري. وأما آخر سلاطين المماليك طومان باي فقد خرج على القاعدة كلّها حين أصدر مرسوماً بتقليد ناصر الدين بن الحنش نائباً له في نيابة حمص[٥]. وهذا لم نعهده في النظام المملوكي بتولي غير المماليك نواباً للسلطان في الشام أو في مصر ، سوى مرة واحدة في عهد الظاهر برقوق حين عيّن علاء الدين بن الحنش نائباً له في بعلبك [٦].

• مفهوم إمرة العرب :

يتبيّن من استعراض تاريخ إمرة العرب أن مفهومها أصبح يعني الرئاسة العليا للعرب، وأنّها منصبٌ رسمي يتولّاه " أمير العرب " من الأبواب السلطانية ، ويُكتَبُ له

(١) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ١٨٢ .

(٢) م.ن ، ١/٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٨ .

(٣) م.ن ، ٢/ ٢٢٥ .

(٤) م.ن ، ١/ ١٩٦ .

(٥) م.ن ،ص.ن .

(٦) ابن صصرى ، الدرة المضيئة ، ص : ٥٧ – ٥٩ ؛ صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص : ٢١٥ ، ٢١٦ ؛ كمال الصليبي ، منطلق تاريخ لبنان ، ص : ١٥١ – ١٥٢ ؛ ومحمد عدنان البخيت أسرة آل الحنش ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق ، العددان : ١٣ و ١٤ ، ص : ٨٩ – ٩٠.

تقليدٌ شريفٌ ، ويلبس تشريفاً أطلس أسوة بنوّاب السلطان إن كان حاضراً ، أو يُجهّزُ لـــه إنْ كان غائباً (١).

وقد جعل المماليك لأمير العرب مرتبة عسكرية ضمن جهازهم الإداري ، والتـــي على أساسها تحدّدت العلاقة بينه وبين السلطان ونوّابه من الأمراء المماليك ؛ ممّــا دفـــع السلطة المملوكية إلى إحداث وظائف ذات علاقة بإمرة العرب في القاهرة ودمشق وبقيـــة مراكز النيابات الشامية ؛ كما رُتّب فيها موظفون مختصون بشــــؤون القبــائل العربيـــة وزعمائها ، فكانت (المهمندارية) * من أهم هذه الوظائف المتخصِّصة بتلقي واســـتقبال أمراء العرب وتنظيم صرف أعطياتهم وأخبازهم ، وتبليغهم بأوامر الســـلطان. فـــأصبح (المهمندار) بمثابة ضابط اتصال بين السلطة المملوكية وأمراء العرب ، ويقتضي فيــــه معرفةً دقيقةً بالقبائل العربية وأنسابها ، والعلاقات المتشابكة فيما بينها (٢).

ولمّا كان منصب أمير العرب منصباً رسمياً ، ومن المناصب العسكرية ، لــــذا ، اعتُبِر أمراء العرب من أرباب السيوف ، فعدّهم القلقشندي ، من الصنف الثاني في ولايـة أرباب السيوف ، كأمير آل فضل وآل مرا وآل علي (٣). كما شـــكّلوا الطبقـــة الرابعـــة والأخيرة من ولاة الأمور في مصر ، وهذا ينطبق على بلاد الشام (٤).

ولمّا كانت القبائل البدوية الشامية متفاوتة في حجمها وقوّتــــها ومكانتــــها ، فـــإن أمراءها أصبحوا متفاوتين من حيث المركز والأهمية ، فكلّ أمير يستمدّ قوته ومكانتـــــه مـــن وضــــع قبيلته. لهذا ، وُجد إلى جانب إمرة العرب ، مرتبــــة أقــــلّ منــــها ، هـــي (المشيخة) ، والتـــــي يتولاها الشيخ. فكان للمعرّة شيخها ، وهو " ابن العجيل ، فلمـــا غضب السلطان منه ، استدعاه وسجنه في جب برج القلعة حوالي خمسة شهور ، ثم أطلق

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ٦/ ١٨ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ٢١٣ ؛ والحياري ، الإمارة الطائية ، ص : ٨١ .

* المهمندارية : من الألقاب الفارسية الخاصة بأرباب الوظائف ؛ وهي لفظ مركّب من : (مهمن) ومعناه الضيـــف ، و(دار) ومعناه الممسك ، أو المتولي ، فيكون معناها إدارة شؤون الضيافة.

(القلقشندي ، م.س ، ١٢/ ٢٩٢).

– ويمكن أن يتولى المهمندارية إثنان ، أحدهما يكون تارة أمير طبلخاناة ، وتارة يكون أمير عشرة ، وتتم توليته عــــن طريق النائب . (القلقشندي ، م.س ، ٤/ ٢٥٥).

(٢) القلقشندي ، م.س ، ٤/ ٢٢ .

(٣) القلقشندي ، م.س ، ٩/ ٢٥٦ .

(٤) القلقشندي ، م.س ، ٥/ ٤٩٥ .

سراحه وأعاده إلى مشيخة المعرّة " [١]. كما كان للعجارمة من بني طريف شيخهم مسعود بن جرير ، واحتلّ مكانة مرموقة عند ولاة الأمور [٢].

سادساً_ المكاتبات السلطانية لأمراء العرب :

أصبح لأمراء أعراب الشام ألقابٌ محددةٌ في ديوان الإنشاء المملوكي ، يُخاطبون بها تقديراً وتعظيماً لمكانتهم وأدوارهم الفاعلة في السياسة المملوكية. ويتّضح ذلك من أسلوب الكتابة إليهم ، والألقاب التي توضع في " طُرّة " * الكتب المرسلة إليهم ، وتنوعها وعددها لتدلّ على مركز صاحبها [٣].

فلمّا كان آل فضل أصحاب العدد الأكثر ، ولهم المال الأوفر ، وهم جُلُّ القوم وعين الناس ؛ فإنّ رسم الكاتبة الصادرة عن الأبواب السلطانية لأمير آل فضل " أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي الأميري بألقاب جليلة معظّمة مفخّمة " [٤]. وأما من هو نظيره أو مدانيه وعدّته الإمرة فَرَسْمُ المكاتبة إليه " صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي " ؛ ولِمَنْ دون هؤلاء " المجلس السامي الأميري " [٥].

فقد أورد ابن ناظر الجيش خمسة أمراء من بيت مهنّا بن عيسى يعبّر عن أميرهم بأمير آل فضل ، وهم : عساف بن مهنا ، عنقاء بن مهنا ، زامل بن موسى بن مهنا ، محمد بن حيّار بن مهنا (نُعير) ؛ ورسم المكاتبة إليهم " صدرت " و " السامي ". وأما علي بن سليمان بن مهنا ، فيكاتب بـ " السّامي " بالياء [٦]. (تضاف الياء إلى الألقاب : الأميري ، الكبيري ، المجاهديّ ..... إلخ).

كما أورد ابن فضل الله العمري اسم " معيقل بن فضل " ، ورسم المكاتبة إليه "بالسّامي ". ولم يُكاتب من بني فضل غيره ، فإن أخوَيْه سيفاً وأبا بكر كانا يُكاتبان عن

---

(١) ابن تغري بردي ، حوادث الدهور ، ١/ ٢٨٦ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٣٤ .

* طُرّة : هي الهامش الذي يترك في أعلى الكتاب ، ولها قواعد إذ كان الكتاب من الأعلى إلى الأدنى. وفي المكاتبات الصادرة عن السلطان تكون الطرّة فيها ثلاثة أوصال إلى وصلين ، وعن النواب تكون وصلاً واحداً.
(القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١٢/ ٢٩٠).

(٣) انظر : الحياري ، الإمارة الطائية ، ص : ٨٢ – ٨٣ .

(٤) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ١١١ – ١١٢ ؛ القلقشندي ، م.س ، ٧/ ٢٠٣ – ٢٠٤ .

(٥) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص : ١١٢ ؛ القلقشندي ، م.س ، ٧/ ٢٠٤ .

(٦) ابن ناظر الجيش ، التثقيف ، ص : ١٢٨ – ١٢٩ ؛ القلقشندي ، م.س ، ٧/ ٢٠٥ .

الأبواب السلطانية الشريفة ثم تُوفّيا. ولم يبقَ من آل فضل غير " معيقل " وأولاده ، لكنّهم لم يكاتبوا بشيء. فإن اتفق وكتب لأحدٍ من أولاد مهنا ، مثل أولاد فياض ، وبقيـــة أولاد حيّار ؛ فالمكاتبة إليهم " السامي " بغير ياء[1]. (لا تضاف الياء إلى الألقـــاب التاليـــة : الأمير ، الكبيـــر ، المجاهد ، المؤيد ، ....إلخ).

وأمّا آل علي ، فرسم المكاتبة إلى أميرهم " صدرت هذه المكاتبة إلـــى المجلـــس السامي الأميري " [2].

وأمّا آل مرا ، فإن الإمرة فيهم كانت مقسومة نصفين بين عنقاء بن شطي بن عمر ابن توبة ، و عمّه فضل بن عمر بم توبة * ؛ ومكاتبة كل منهما " صدرت " و"السامي[3]. ودون هؤلاء بنو عقبة ، ورسم المكاتبة لهم ولأقاربهم مثل آل مرا [4].

وهناك بنو مهدي في البلقاء ، فإمرتُهم في أربعة أمراء بيد كلّ أمير منـــهم رُبْـــع الإمـــرة ؛ ورسم المكاتبة إلى كلٍ منهم ، " مجلس " الأمير " ؛ ومن كانت معـــه نصـــف الإمـــرة كانت مكاتبته " السّامي " بغير الياء [5].

وعرب غزّة (آل جَرْم) فإن إمرتهم كانت لأمير واحد ، ففي زمن ابن فضـــل الله العمري كانت بيد فضل بن حجي ؛ ورسم المكاتبة إليه " مجلس الأمير " [6]. وأمّا فـــي زمن ابن ناظر الجيش (في نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) ، فـــإنّ أميرهم برتبة مقدّم (مقدّم عرب جَرْم) وهو علي بن فضل بن حجّـــي ورســـم مكاتبتـــه

---

(١) ابن ناظر الجيش ، التثقيف ، ص : ١٢٩ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ١١٢ ؛ وابن ناظر الجيش ، م.س ، ص : ١٢٩ ؛ والقلقشندي ، صبح الأعشى ، ٧/ ٢٠٦ .

* " واما آل مِرا فبيت الإمرة فيهم آل أحمد بن حجي ، وبقيتهم آل منيخر ، وأميرهم سعد بن محمـــد ، وآل نُمّـــي وأميرهم برجس بن سُكال ، وآل بقرة وأميرهم علوان بن أبي غرّاء ، وآل شمّاء وأميرهم عمـــر بـــن واصـــل. ثم صارت الإمرة في بيتين من آل حجي ؛ فمن بيت نجّاد بن أحمد ، قناة بن نجاد ، ومن بيت سليمان بـــن أحمـــد ، شطي بن عمرو بن توبة بن سليمان .... والإمرة مقسومة بينهما نصفين ".

(ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط : ٤/ ١٥٦).

(٣) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ١١٢ – ١١٣ .

(٤) م.ن ، ص : ١١٣ .

(٥) أمراء بني مهدي الأربعة : هارون بن ثابت بن سعيد بن محفوظ العنفشي ؛ سعيد بن نجدي بن حسن العنفشـــي ؛ زامل بن عبيد بن محفوظ العنفشي ، ومحمد بن عباس بـــن راشـــد العســـري .

(ابن ناظر الجيش ، م.س ، ص : ١٣٠).

(٦) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ١٣٠ .

السامي " بغير الياء [١]. (أي أن الألقاب التالية تكون بدون ياء : الأمير ، الأجل.... إلخ).

وأمّا بقيّة عرب الشام ، وهم زبيد الأحلاف ، وزبيد حوران ، وزبيد مرج دمشق ، والمشارقة في غوطة دمشق ، وخالد حمص ، فإنّهم " إذا أطاعوا كتبت لأكابرهم الاسم ومجلس الأمير ، هذا إن انفرد أحدهم بالمكاتبة ، وإلاّ فالعادة أن يُكتب لكلّ طائفة من هؤلاء مُطلق شريف ؛ على أنه لمْ تجرِ العادة بمكاتبة أحد من هؤلاء لا على انفراد ولا على اجتماع " [٢].

ولمّا كان القلقشندي قد نظّم المكاتبات الصادرة عن الأبواب السلطانية لأهل الدولة، فإنّه خصّ الطبقة الأولى بثماني عشرة مرتبة ، ومنها ما يخص أمراء العرب : فالمرتبة التاسعة ؛ يُكتب عن نائب الشام إلى الأمراء مقدّمي الألوف بالشام ، وأمراء آل فضل بـ " أعزّ الله تعالى نصرة المقر الكريم " [٣].

وفي المرتبة الثالثة عشرة ، يكتب عن نائب الشام لأمراء العشرات ، والعشرينات، والمحتسب ، ومقدّم عرب بني عقبة ، وأكابر آل فضل ، وأمير آل موسى ، فبمكاتبتهم " أدام الله الجناب العالي " [٤].

وأمّا المرتبة الرابعة عشرة ، فيكتب عن نائب الشام إلى أمراء العشرات بدمشق ، وأمير آل مِرا ، ومقدّم عرب جَرْم ، ومقدم بني مهدي [٥].

ونظرة فاحصة إلى نصوص المكاتبات السلطانية لأمراء الأعراب في بلاد الشام ، يتبين لنا جانبٌ عن العلاقات بين السلاطين المماليك وبين أمراء الأعراب.

فقد حرصت السلطة المملوكية على تحديد العلاقة بينها وبين أمراء الأعراب بصورة دقيقة ومنّظمة ، وربطتهم بتقاليد محددة. فأشارت إلى اعتراف السلاطين المماليك بإمرة الأمير العربي على قبيلته وقبائل أخرى قد تنضوي تحت إمرته ؛ وبذلك تصبح طاعة أفراد القبيلة والقبائل الأخرى واجبة له ، وأن يفوّض هؤلاء أمرهم له ؛ " فهو يعرف مقاديرهم ، وكيف يُعامل كبيرهم وصغيرهم..... وليعرف قومه له حقّهُ ويوقّوه

---

(١) ابن ناظر الجيش ، التثقيف ، ص : ١٣١ .

(٢) م.ن، ص.ن .

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٨/ ٢٢١ .

(٤) م.ن ، ص.ن .

(٥) م.ن ، ص.ن .

– يرفض القلقشندي ما أورده ابن ناظر الجيش في التثقيف ؛ بأن لعرب غزة مقدم لا أمير ، فيرى أن الإمرة فوق التقدمة . (صبح الأعشى ، ٧/ ٢٠٨).

من التعظيم مستحقهُ.....".[1]. وهو المحافظ على وحدة أبناء القبيلة ووحدة كلمة القبائل الأخرى ؛ "......فألّف قلوب القبائل ، و جمع شملها...... " [2].

وهو القاضي بين المتخاصمين ، من أبناء القبائل ، " .... ونحنَ نأمرك بتقوى الله في صلاح كلّ فريق ، والحكم : فليكُنّ بما يوافق الشّرع ، والحقوق فخلّصها على وجه الحق من القوي إلى الضعيف ...... " [3]. كما أنه الراعي لأمر أعرابه ، " وليجتهد في أمر أعرابه الذين في البلاد ، فإنّا جعلنا عليه في أمورهم الاعتماد " [4].

وأما أبناءُ القبائل المخالفون لأوامر أمير العرب ، " فيعلموا أنّ أوامر أميرهم هي من أوامر السلطان ، فالويلُ كلّ الويل لهم ...... فمن بلغنا أنه حادَ عن الصواب ، أو تأوّلَ في نقضٍ لرفعةِ قدرهِ ، فالسيف أسبق شيءٍ إلى نَحْره ، والموت أعجلُ إليه ...[5].

وقد ميّز السلاطين المماليك في معاملة أمير العرب الداخل بالطاعة وبين أمير العرب الخارج عنها ؛ فالأوّل مقربٌ من السلطان ، ويفوز بالعطايا السلطانية ، وتُجرى الاقطاعات له ؛ " ولمّا كان المجلس الأعلى ..... هو الذي حاز من سعادة الدنيا والآخرة بحسن ما حاز ، وفاز من برّنا وشكرنا بجميل المبادرة إلى الخدمة ما فاز ، فقد لحظته عيون السعادة ، فكان في حزب الله الغالب وهو حزبنا ، وقابله وجوه الإقبال فرأى إحساننا إليه بعين لم يطرقها الجحود ، فهذا الأمير يستحق نِعَمنا الشريفة " [6]. وأمّا الثاني الخارج عن الطاعة فيلحقه غضب السلطان ويبوء بكلّ الحرمان.

كما أكّدت السلطة المملوكية على أحقيّة آل فضل بإمرة العرب ، فهم أهلها منذ القِدَم ، ونسبهم ثابتٌ بأصوله وجذوره العربية ، ومتميّزون بالشجاعة والإقدام والأمانة. وبالوقت نفسه حرصت السلطة المملوكية على تعيين أمراء للقبائل الشامية الأخرى ولم تجبرها على تبعية آل فضل ، وإنْ شجعتها على الانضواء تحت لوائها ؛ فعيّنت أميراً لكلٍّ من آل علي ، وآل مرا ، وبني مهدي ، وبني عقبة وأحياناً لزبيد [7].

---

(١) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ١٤٦ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١٢/ ١١٩ ، ١٣٤ .

(٣) م.ن، ص: ١٢٧ .

- كان أمراء العرب حجّاب مختصون بهم ، وربما كانوا يحكمون بموجب العُرف القبلي.

(أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ١١٣).

(٤) القلقشندي ، م.س ، ص.ن .

(٥) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص : ١٤٧ .

(٦) القلقشندي ، م.س ، ١٢/ ١٢٠ ، ١٢٣ .

(٧) القلقشندي ، م.س ، ١٢/ ١٣٠ - ١٣٩ .

وبهذا الإجراء ، تكون السلطة المملوكية قد فرضت إدارتها المركزية على بـــلاد الشـــام ، وركّزت على تبعية أعرابها ، لكنّها لم تعمل على إتمام وحدتهم تماماً ؛ فظهرت الإمرة المحليّة خارج بيت آل فضل ، ولم تكتف بذلك ، بل عمدت إلى تقسيم الإمرة بيـــن أميرين وأحياناً بين أربعة أمراء.

يبدو أنّ السلطة المملوكية لجأت إلى مثل هذه الإجراءات لإثبات أحقيتها في اتخـاذ القرار السياسي من دون مشاركة الأعراب ، وبالوقت نفسه أثبتت قدرتها على اسـتيعابهم فـــي جهـــازها الإداري كما خططت له ؛ وعملت على إنهاء التنـافـــس والاقتتـــال بيـــن أعـــراب الشـــام ، فهي تسعى أساساً لإقرار الأوضاع ؛ وكذلك لتســـاوي مرتبـــة الأمراء المتنافســـين ، إمّا لضعف شـــخصية الأمـــير المعيّـــن ، أو لعـــدم تَمكّنـــه مـــن الســـــيطرة على تحركات فروع قبيلته.

كلّ هذا يقود إلى تأكيد تفاوت مراتب أمراء أعراب الشام وألقابهم. ومع ذلك كُلّه ، فإنّهم لم يكونوا في منزلة أمراء المماليك ونواب البلاد الشامية ، فأمراء العرب وأعرابـــهم هم من الفئات الاجتماعية التابعة للسلطة المركزية ، بينما أمراء الممـــاليك هـــم أعمـــدة السلطة، والكلمة النّافذة لهم ، لا بلْ يمكن أنْ يُعيّنوا أمير العـــرب لكـــن دون مراســـيم سلطانيّة.

ومع كلّ هذه الإجراءات المملوكية ، فإنّه يحقّ لأمـــراء عـــرب الشـــام مكاتبـــة السلاطين المماليك ، والاتصال الشخصي والمباشر دون قيود.

كما بقيت هناك قبائل عربية في الشام ذات سطوة ولم يُعيّن الســـلاطين الممـــاليك أميراً لها ولا شيخاً ، فكان على الطائيين أن يتعاملوا معها بحـــذر ؛ وربّمـــا لـــم تدخـــل الصراع على إمرة العرب ، أو لم تستطع إفساد الصيغة الإدارية التـــي طوّرتـــها الإدارة المملوكية ، وسبب ذلك فقدانها للقيادة الطموحة أو الجامحة.

وإذا كنّا قد عثرنا في المكاتبات السلطانية على مراسيم تقليد أمراء العرب ، فإننـــا لم نجد أثراً لمراسيم عزلهم. ويمكن أن يكون مرسوم التقليد لأمير جديد هو بمثابة مرسوم العزل في حالة الخروج عن الطاعة ، أو أن الوفاة كافية لتبرير ذلك.

- **ألقـــاب أمـــراء العـــرب :**

لم تقتصر المكاتبات السلطانية لأمراء عرب الشام على ما أسلفناه ، بل تضمّنـــت عدداً من الألقاب لهؤلاء الأفراد حسب مراتبهم ومكانتهم لدى السلطة المملوكية. فلمّا كان (آل فضل) هم رأس الإمرة بين القبائل العربية ، فقد خُصّص لأمير آل فضـــل كـــأمير للعرب ثلاثةٌ وعشرون لقباً ، وهي : " المجلس العالي ، الأميريُ ، الكبيريُ ، العـــالميُ ،

المجاهديُّ ، والمؤيديُّ ، الأوحــديُّ، النصيريُّ ، العونيُّ ، الهماميُّ ، المقدميُّ ، الطهريُّ، الأصيليُّ ، الفلانيُّ، عز الإسلام والمسلمين ، شرف أمراء العربان في العالمين ، نصــرة الغُزاةِ والمجاهدين ، مقدّم العساكر ، كهف الملّة ، ذُخر الدولة ، عِماد العــرب ، ظــهير الملوك والسلاطين " (١).

كما أُعطي أمير (آل علي) واحداً وعشرين لقباً هي :

" المجلس الساميُّ ، الأميريُّ ، الأجلّــيُّ ، الكبــيريُّ ، المجــاهديُّ ، المؤيــديُّ ، العُضُديُّ ، النصيريُّ ، الأوحديُّ ، المقدميُّ ، الذخريُّ ، الظهيريُّ ، الأصيلـــيُّ ، مجد الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء في العالمين ، هُمام الدولة ، حسام الملّة ، ركن القبائل ، ذُخر العشائر ، نصرة الأمـــراء والمجــاهدين ، عَضُــدُ الملــوك والسلاطين " (٢) .

وكان لأمير (آل مرا) ثمانية عشر لقباً ، شملت :

" المجلس الساميُّ ، الأميريُّ ، الكبيريُّ ، المجــاهديُّ ، المؤيــديُّ ، العُضُــديُّ ، الذخريُّ، النصيريُّ ، الأوحديُّ ، الأصيليُّ ، العريقيُّ ، مجــد الإســلام ، بــهاء الأنام، شرف الأمراء ، زين القبائل ، فخر العشائر ، ملاذ العرب ، عَضُدُ الملـوك والسلاطين " (٣).

وأما ألقاب بقية أمراء العرب فقد شملت أحد عشر لقباً ، هي :

" المجلس الساميُّ ، الأميريُّ ، الكبيريُّ ، الذخريُّ ، المؤيديُّ ، الفلانـــيُّ ، مجــد الإسلام، بهاء الأنام ، زين القبائل ، فخر العشائر ، عماد الملوك والسلاطين " (٤).

وهناك ألقاب مماثلة تُعطى لأكابر العربان من آل فضـــل وغــيرهم بغــير يــاء. (المجلس السامي ، الأمير ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، المجاهد ، المؤيدُ .... إلخ) (٥).

يلاحظ من الألقاب الممنوحة لأمراء العرب بأنها منتقاه ، ومتماثلـــة ، لكــن ســمة "العالي" أرفع مكانة ومرتبة من " السامي " . ولقب " الأميري " أرفع من " الأمير " . أي أن اللقب الذي ألحقت به الياء أرفع من اللقب المجرد منها.

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٦/ ١٣٥ .

(٢) م.ن ، ١٢/ ١٢٦ – ١٢٧ .

(٣) م.ن ، ٦/ ١٣٧ .

(٤) م.ن ، ص.ن .

(٥) م.ن ، ص : ١٣٩ .

سابعاً_ الإقطـاع المملوكـي وأعـراب الشـام :

عندما حكم المماليك بلاد الشام ، ورثوا أنواعاً شتّى من الممارسات الإقطاعيـة ، فلم يرثوا الإقطاع الإسلامي * فحسب ، بل والعنصر الغربي (اللاتيني) من الإقطـاع. وأصبح ما يُميّز الإقطاع وراثياً كما كان زمن الأيوبيين ، فالحيازة الإقطاعية كانت تنتـهي بانتهاء صاحبها (١).

فقد كانت الإقطاعية في عهد المماليك كناية عـن إقطاعة تعـرف بالخبـز ** أو المثال *** ، تمنحها الدولة لأمراء المماليك ولأمراء العرب ، وتُعدُّ مُلْكاً مؤقتاً لـهم ، يستغلّونها حسبما يشاؤون. فتتنازل الدولة عن هذه الإقطاعات وتقسّـمها علـى أمـراء المماليك، وأمراء العرب في بلاد الشام ،تبْعاً لمراتبـهم العسـكرية أو مكانتـهم لـدى السلاطين المماليك ؛ وأن يكون دخلها كافياً لسد حاجتهم (٢).

والجدير بالذكر أنّ الإقطاعات المملوكية كانت تضمُّ الأراضي الصالحة للزراعة ، ولم تشمل الغابات والمروج والجبال والصحاري. وكانت حدود تلك الإقطاعة معيّنة فـي الشهادة التي يُعطيها السلطان للإقطاعي. وقد خصّ السلاطين المماليك أعـراب الشـام بالمراعي الخضراء تجنّباً لوقوع الخلافات. كما كانت الدولة تفرض على آخذي الإقطـاع رسماً (ضريبة) ، يدفع من دخل الإقطاعة في بدء كلّ عام (٣).

وأمّا حقّ إسناد الإقطاعة ومراقبتها ، فقد أُنيط بمجلس حكومي مختص ، عُـرف بديوان الجيش ، وأحياناً بديوان الإقطاع ومقرّه القاهرة.

وانقسم هذا الديوان إلى فرعين :

أ- ديوان الجيش المصري ، وهو مخصّصٌ إلى مصر وإقطاعاتها.

ب- ديوان الجيش الشامي ، وهو مخصّصٌ إلى بلاد الشام وإقطاعاتها.

---

* ميّز الماوردي ضربين من الإقطاع الإسلامي : إقطاع تمليك في أرض الموات والعامر ؛ وإقطـاع اسـتغلال عُشـر وخراج . (الأحكام السلطانية ، ص : ٢٣٩ ، ٢٤٤).

- N. Ziada , Urbanlife in Syria , P. 40. (١)

** الخبز : هو ما يحصل عليه الأمير أو الفارس من عطاء نقداً أو عيناً ، وينتقل المملوك عادة من (الجامكية) النقدية إلى الإقطاعة وهي الخبز . (بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ٩/ ١٠٨).

*** المثال : أمرٌ صادرٌ عن ديوان الجيش بمنح إقطاع أو بتحويله ، أو بزيادته أو بإعادته . (المقريزي ، الخطط ، ٢/ ٢١٧).

Poliak , Feudalism , P. 18. (٢)

Poliak , Feudalism , P. 18. (٣)

وكان في كل ديوان منهما موظف مختص بالإقطاعات عُرف بالمستوفي وأحياناً بـالمتولي أو الصاحب (١). كما عُيّن في كل ديوان موظفٌ أرفع من المستوفي يحمل لقـب نـاظر ديوان الجيش ، وهو مسؤول أمام السلطان مباشرة (٢).

وقد ميّز (Poliak) في ديوان الجيش كاتباً أدنى درجة من المستوفي يعمل علـى مراقبة إقطاعات بدو الشام ، والإقطاعات المعطاة معاشاً أو تقاعداً لبعضهم (٣).

وأما توزيع الإقطاع ، فكان يتم بإجراء كشف يُطلق عليه " كشف البلاد " ؛ فتُقَسّـمُ الأملاك بين السلطان والإقطاعيين. ثم تقسّـم بعد ذلـك إلـى إخـاذات – إقطاعـات – من درجات مختلفة (٤).

ويصدر عن السلطان المملوكي تجديد الإقطاع بإصدار منشورٍ * جديدٍ بهذا الأمر. كما يمكن أن يُرسم بزيادة الإقطاع أو إنقاصه أو التعويض عنه أو سحبه من صاحبه إلـى شخص آخر. وهذا يعني أنّه بإمكان السلطان أن يستعيد ما أعطى من إقطاعات ، ثم يُعيد توزيعها كما يراهُ مناسباً. فكان هناك ديوان خاصٌ عُرف باسم " ديوان المرتجع من أخباز العرب " (٥). وعادة ما كان يُميز " آل فضل ، في صيغة التقاليد أو المراسيم ** " (٦).

ولما كانت إمرة العرب تُقسّم بين أمراء عرب الشام أحياناً – كما مرّ سابقاً – فـإنّ بعض أمراء العرب ملكوا إقطاعة واحدة ، وإن كانا اثنين في الإمرة مَلَكاهـا مناصفـة ؛ وإن كانوا أكثر تصرّفوا بها شراكة ، فيأْخُذُ كلٌ حصته حسب منصبه ومكانته (٧).

---

(١) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ٨٨ – ٨٩ ؛ ابن شاهين الظاهري ، زبدة ، ص : ١٠٣ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ ق٢ / ٢٠٢ ، ٢٠٥ ؛ والخطط ، ٢/ ٢١٧ ؛ وابن إياس ، بدائع الزهور ، ٤/ ٣٥ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ١٦ – ١٧ .

(٣) Poliak , Feudalism , P. 21.

(٤) Poliak , Feudalism , P. 21.

* المنشور : لا يذكر بالمنشور المستندات الخاصة بالإقطاعة ، لأن ذلك يتعلق بديوان الجيش ، وصورة صدوره : صـدر بمقتضى المثال الشريف . (ابن ناظر الجيش ، التثقيف ، ص : ١٥١).

(٥) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ١٤٤ .

** التقاليد : هي ما يكتب للنواب الكبار بمصر والشام ، ولأمراء العرب من آل فضل .

والمراسيم : هي كالتقاليد ، غير أنها تختص بنواب القلاع وأمراء العربان من آل علي ، وآل مِرا ، وبني عقبة ، وبني مهدي ، وعرب جَرْم . (ابن ناظر الجيش ، م.س ، ١٤٢ — ١٤٤).

(٦) ابن ناظر الجيش ، م.س ، ١٥٢ — ١٥٣ .

(٧) Poliak , Feudalism , P. 20.

وحين ازدادت أراضي السلطان المملوكي الخاصة توسُّعاً في بلاد الشـــام ، منـذ ١٣١٣/٧١٣ ، وأضيف إليها سهل الشام الخصب ، وبعض القرى والمدن الواقعة علـــى طريق مصر – الشام ، والتي استعملت محطات للبريد وخيول الموزِّعين. فقد وُزِّعـــت على الأمراء المماليك وأمراء العرب قطع متفرقة بعيدة عن المكان الذي يخدم فيه الأمـير أو يقطنه. فكان للبُعْدِ الفاصل بين الإقطاعة وصاحبها أثر فعّال في طريقة استغلالها ؛ إذ أن الإقطاعيين غدوا مضطرين لحرّاس أقوياء يبسطون حمايتـهم علـى تلـك الأمـلاك الشاسعة ، مما أثر في إيجاد الحماية على الأرض. فالوكيل الشديد البأس يحمـي الأرض ويأخذ ما يُفرض على المزارعين والفلاحين من ضرائب ، ثم يُرســل المطلـوب إلـى صاحب الإقطاعة [1]. ويتبين أن السلطان لم يجعل الإقطاعية في مكانٍ واحد للأمير خشية استقلاله في إقطاعته.

وأمّا مسؤولية الإقطاعية فتقع على عاتق أمير العرب ، وعليه أن يُعطي بقية أمراء وشيوخ وأفراد القبيلة ، والقبائل المتحالفة معه ، حقوقهم من " إقطاع واقتطاع " [2].

فقد منح سلاطين المماليك امتيازات مشروطة لأمراء عرب الشام ، وذلك ، مقـابل مَهـامٍ يُكلّفون بها ، من حراسة الطرق ومعاقبة قُطّاعـها ، وتـأمين الخيـل الأصليـة للسلطان، وتأمين الفرسان كخيّالة ثانوية في جيش المماليك [3]. ومن هذه الامتيازات مـا هو آنيّ من خلعٍ وهدايا وإنعاماتٍ وأموالٍ لتأمين أعلافِ خيولهم ، ولبناءِ خيامهم ، وكسوةِ نسائهم وأولادهم. ومنها ، ما هو ثابت ، وهي الإقطاعات التي اعتمدوا عليـها كمـورد رزق ثابت بجانب خيولهم وجمالهم وأغنامهم. فكان من أشهر المنـاطق التـي أُقطعـت لأمراء العرب في بلاد الشام : سَرْمين ، ومعرّة النعمان ، وتدمر ، وسلميّة ، وإزْرع فـي حوران ، ونابلس والخليل وغزّة من فلسطين والكرك [4].

ويتبيّن من الأحداث ، أن السلطان قطز انتزع سلميّة في شمال سوريا وأقطعها إلى عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة أمير آل فضل ، لمشاركته الفاعلة في معركـــة عيـن جالوت ٦٥٨ / ١٢٦٠ [5].

كما وفّر السلطان الظاهر بيبرس الإقطاعات لعيسى بن مهنّا ، حين أصدر منشور التقليد بتوليته على عرب الشام ٦٥٩ / ١٢٦٠ ، ثم ثبّتهُ فيها بعد أربع سنوات ، وأرضـى

---

(١) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص : ٩١ – ٩٢ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ١١٠ .

(٣) Poliak , Feudalism ,PP. 9-10.

(٤) Poliak , Feudalism ,PP. 4 , 20.

(٥) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ٢١٣.

الأمراء المنافسين له بإقطاعات وعطايا [١]. ولمّا دخل بيبرس الكرك ، رتّب الإقطاعات لعربانها ، وأحضر (عبيّه) أمير عرب آل مهدي ، وألزمهم " دَرْك البلاد ، وخفّرهم حتى أرض الحجاز " [٢].

وكذلك كان بقيّة سلاطين المماليك يُقطعون الإقطاعات لأمراء عرب الشام لكسب ودّهم وإبقائهم على الطاعة ، فهذا الناصر محمد بن قلاوون يمنح " معرّة النعمان " للأمير محمد بن عيسى بن مهنا أمير آل فضل. ويؤكد (أبو الفداء) على خروج المعرة من مملكة حماة ، " وفي ذي القعدة عام ٧١٦/ ١٣١٦ ، خرجت المعرّة عنّي ، وسبب ذلك أن محمد بن عيسى طلبها ليعود إلى الطاعة " [٣]. كما أقطع الأمير (شطي) أمير بني عقبة الإقطاعات الجليلة وأجزل له العطاء [٤].

ولم يقف الأمر على منح الإقطاعات لأمراء عرب الشام ، بل كانت تحدث مصادرات للإقطاعات الممنوحة لأمير معين ، ثمّ تمنح لأمير جديد. ففي ٧٣٧/ ١٣٣٦ ، أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون نائبي الشام وحلب بمصادرة أخباز آل فضل وآل مهنّا ؛ وأخرج من إقطاعاتهم ضياع ووزّعها على أمراء الشام من مماليك وعرب. ويتّضح ذلك بمصادرة ضيعة كانت للأمير موسى بن مهنّا ، ومنحها للأمير (شطي) أمير بني عقبة [٥].

لكنّ مصادرة إقطاعاتِ أمراء العرب كان يؤدي إلى إثارة اشكالاتٍ للسلطة المملوكية حين تعيد توزيعها على أمراء جدد ؛ ثم تعيدها لأصحابها من جديد. فهذا موسى ابن مهنّا يُرسل حاجبه إلى السلطان مُحذّراً من خروج عربانه عن الطاعة ، ولجوئهم إلى قطع الطريق ؛ وأنه إذا سيّر العساكر لهم ، فإنهم سيلجؤون إلى الشرق حيث أعداء السلطة. فطلب منه أن يُردّ لكلّ واحدٍ رزقه. فسارع السلطان وطيّب خاطر موسى بن مهنّا ، وكتب إلى نائبي الشام وحلب بإعادة إقطاع كلّ واحد ، وأن يعودوا إلى ما كانوا عليه ، " إرْجِعْ لهم إقطاعاتهم ، ونحن نعوّض الأمراء ونرضيهم " [٦].

كلّ هذا سيتضح في الفصل الثاني ، وستظهر آثاره على السياسة الداخلية المملوكية.

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ٤٥٦ .

(٢) م.ن، ص: ٤٩٢.

(٣) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ٨٠ .

(٤) القلقشندي ، قلائد الجمان ، ص : ٦٥ .

(٥) اليوسفي ، نزهة الناظر ، ص : ٣٣٨ .

(٦) م.ن ، ص.ن .

ثامناً_العلاقات بين أعراب الشام وموقف السلطة المملوكية منها:

اتخذت العلاقات القائمة بين أعراب الشام مسارين : مساراً إيجابياً تمثّل بإقامة علاقات حسنة ، وبناء جسور الثقة ، وتبادل المنفعة ، واتخاذ موقف سياسي – عسكري موحد إزاء السلطة المملوكية في أوقات الهدوء والسّلم من ناحية ، وفي مواجهة الأخطار المشتركة التي تهدد وجود الأعراب والمماليك من ناحية أخرى. وكل ذلك ممثّلٌ في الأحلاف القبلية.

والمسار الثاني هو مسارٌ سلبيٌّ تمثّل في النزاعات والصراعات العصبية ، والتطاحُن بين القبائل ، مما ترك آثاراً واضحة على مكانتهم السياسية ، وفتح مجالاً لتدخل السلطة المملوكية في حياة الأعراب باعتبار المماليك السلطة الفعلية في مصر والشام.

أ- الأحلاف القبلية :-

لم تولِ المصادر المملوكية ظاهرة الأحلاف القبلية بين أعراب الشام اهتماماً واضحاً ، فكانت نادرة حتى عند مؤرخي الأنساب كابن فضل الله العمري والقلقشندي ومن أخذ عنهم.

ويتبيّن من مسار الأحداث التاريخية في عهد المماليك أنّ الأحلاف القبلية بين أعراب الشام كانت بمثابة تبعيّة مؤقتة ، تبعيّة قبيلة صغيرة أو ضعيفة لقبيلة أكبر أو أقوى منها. وغالباً ما يكون ذلك التقاربُ ناجماً عن الجوار أو الموالاة. كما أنّها لم تتمّ بصورة عهودٍ مكتوبة. وفي هذا ، يكون للعصبية القبلية دورٌ فاعلٌ في تكوين تلك الأحلاف للمحافظة على مكانة القبيلة بين القبائل الأخرى ، ولدى السلطة المملوكية من جهة أخرى.

وعند مجيء المماليك كحكّام لبلاد الشام سمحوا بتكوين تلك الأحلاف بين القبائل العربية الشامية للقيام بدورها الحربي ولإبعاد الخطر الخارجي الذي يتهدّد بلاد الشام. فكانت تلك الأحلاف والتكتّلات نابعة من الأعراب أنفسهم ، وبتشجيع من المماليك أحياناً.

ولمّا كان أعراب آل فضل يحتلون مكانةً سياسيةً مرموقة لــدى المــاليك ، فقــد انضوت بعض القبائل تحت لوائهم. فآل بشّار في أرض الجزيرة الفراتيّة وحلب تحــالفوا مع آل فضل، ودخلوا في تبعيتهم عن طريق الحلف أو الموالاة. ومردُ ذلك أنّ آل بشّــار كانوا متفرقين ، وتنقصهم القيادة الطموحة ، فدأبوا على عدم الخضوع لأمير واحدٍ منهم. وعلى الرغم من تميّزهم بالفروسية والشجاعة وشدّة البأس ، فإنهم لم يشكّلوا ثِقَــلاً بيــن القبائل ؛ فلو اتحدت كلمتهم لخشي آل فضل بأسهم. وعلى الرّغم من هذا التحالف بينهما ؛ إلاّ أنّ آل فضل ظلّوا يحسبون حسابهم. وقد ظلّ آل بشّار حُلفاء آل فضل ، حتّى ضعف آل فضل في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، فتمكن آل بشّار منــــهم ، وأبعدوهم عن ديارهم ومضاربهم في نهاية حكم المماليك وبداية الحكم العثماني في بــلاد الشام [(١)].

وهناك بنو كلاب في شمالي بلاد الشام على حدّ الثغور الشامية ، والذين وصفــهم القلقشندي بأنهم من أشد العرب بأساً وجرأة في ميادين الحروب ؛ فقد تنبّه الناصر محمــد بن قلاوون إلى أهمية قوتهم وموقعهم الجغرافي ، فشجع تحالفهم مع آل فضل ، كما أمَّــرَ عليهم أميراً من آل مهنّا هو سليمان بن مهنا ، فأصبحوا تحت خفارة آل مهنا [(٢)].

وفي حمص ، تحالف بنو خالد مع آل فضل ، رفعةً لشأنهم ، وحفظــاً لمكانتــهم ووجودهم السياسي [(٣)].

ولمْ يقتصر التحالف بين آل فضل وهؤلاء ، بل انضمت إليهم قبــائل صغــيرة ، منها: زُغب والحريث وبنو كلب ، ومن يأتيهم من أعــراب الباديــة طــالبين الانضمــام إليهم[(٤)].

وفي جنوبي بلاد الشام حول الكرك والشوبك ، ألحق الناصر محمد بــن قــلاوون بني عقبة بأمراء آل فضل تارة ، وبأمراء آل مرا تارة أخرى [(٥)]. كما تحــالف مــع آل فضل كلّ من بني صخر والدعجيين والعطويين والصويتيين [(٦)].

وبعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون ٧٤١/ ١٣٤٠ ، وفي ظلّ الفوضى السياسية ، وتولّي الحكم سلاطين ضعاف ، توالى على تولّي إمرة العرب عدد من أمراء العرب ؛ إلاّ

---

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، جـ٤ / ١٦١ ؛ والقلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ٢٣٩.

(٢) ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص.ن ؛ وابن خلدون ، العبر ، ٦/ ١٨ .

(٣) السويدي ، سبائك الذهب ، ص : ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٤) القلقشندي ، نهاية الأرب ، ص : ١١٠ .

(٥) القلقشندي ، قلائد الجمان ، ص : ٦٥ .

(٦) م.ن ، ص : ٦٨ .

أنّ (أحمد بن مهنا) تمكّن من توحيد الأعــراب فــي حلــف واحــد قبــل وفاتــــه ســـــنة ٧٤٩ / ١٣٤٨[١].

وأما أحلاف آل مرا في حوران والجولان ، فقد تحالف معهم ودخل في إمرتــــهم قبائل حارثة ، وبنو لام ، ومدلج ، وآل ظفير والمفارجة ، ومن كان يأتيهم من البرّيّة [٢].

وحول غزّة والدّاروم كانت ديار ثعلبة وجَرْم ؛ فتحالفت ثعلبة مع النعيميين من بدو الكرك أحياناً ، ومع بني عمرو وقبائل أخرى ؛ بينما ظلّ آل جَرْم دون أحلاف [٣].

وقد ظلّت المصلحة وصلة القربى بين القبائل المتبدّية و من اســـتقر منــها فـــي القـــرى أو المدن. ففي حال تعرّض القبائل المستقرة لأذىً أو لخطرٍ مفاجئ ، فإنّها تسارع إلى التقارب والتحالف مع أصولها المتبدّية وذلك رغبة في درء الخطر عنها. وكثيراً مـــا يتدخّل الأعراب ، فيَقدمون على محاصرة تلك المدن وشنّ غاراتٍ على أسواقها لتخفيـــف الضغط عن أقاربهم.

ففي سنة ٨٧٨/ ١٤٧٤ ، اندلع القتال في الخليل ، فاندفعت القبائل البدوية لنجـــدة فروعها داخل المدينة ، فتعرّضت أسواقها وحوانيتها إلى النهب والتخريب والتدمير [٤].

وحين اندلع القتال في القدس ٨٨٥/ ١٤٨٠ ، تبيّن سببه إقدام نائب القـــدس علـــى إعدام عددٍ من بني زيد. فتحرّكت أحلافهم ، وهاجمت أسواق المدينـــة المقدســـة تنـــهب وتدمّر ، كما أطلقت عدداً من السجناء [٥].

ب- النزاع بين القبائل العربية الشامية وموقف السلطة المملوكيـــة منه:

لم تكن العلاقات السائدة بين أعراب الشام كلها وُدٌ وانسجام ، بل تخللّتها خلافـــات وصلت إلى حد الاقتتال الدامي على الرئاسة القبلية (إمرة العرب) ، أو على موارد الماء والكلأ. ومردُ ذلك إلى أثر البيئة الصحراوية القاسية التي لا تمنح رغداً فـــي العيـــش أو استقراراً في المقام ، وللفراغ الذي عاشه البدوي ، وللعصبية القبلية التـــي تُغـــذّي الثـــأر والذي يستمرّ سنين طويلة ؛ ولغياب سيادة القانون في أرض البادية.

---

(١) القلقشندي،قلائد الجمان ، ص : ٧٩ .

(٢) م.ن ، ص : ٨٠ .

(٣) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، جـ٤ / ١٣٢ - ١٣٣ .

(٤) إيرا لابيدوس ، مدن الشام ، ص : ٥٥ ، ١٤٦ .

(٥) م.ن ، ص : ١٤٦ .

فلمّا كانت السلطة المملوكية المركزيّة في القاهرة تسعى لإخضاع رعاياها في بلاد الشام ، فإنّ الأعراب في مقدمة هؤلاء. فالعلاقة بين المماليك و الأعراب كان يمثلها السلطان ونوّابه من الأمراء المماليك ، وكذلك أمير العرب وفرسانه من أبناء القبيلة وأحلافها ؛ لذلك كان التعامل بين القيادات. فأمراء العرب وشيوخهم هم المستهدفون باعتبارهم همزة الوصل بين قبائلهم و السلطة المملوكية.

فحين اختلفت أمراء آل فضل على تولي إمرة العرب سنة ٦٦٣/ ١٢٦٥ ، وقعت الفتنة بينهم ؛ بين زامل بن علي بن حديثة كمطالب بتولّي الإمرة ، وبين أمير العرب عيسى بن مهنّا ؛ والتي انتهت بهروب زامل إلى العراق. وقد ظلّ خارجاً عن الطاعة حتى استدعاه السلطان الظاهر بيبرس وأصلح بينه وبين عيسى بن مهنّا. لكن زامل هذا عاد إلى الخروج عن الطاعة ، فظلّ طريداً ، لكنّه يشكّل مصدر قلق لأمير العرب عيسى ابن مهنا وللسلطان بيبرس. ولما تَعِبَ ، راسل السلطان طالباً العفو فلم يجبه ، وأرسل جماعة من الأعراب إليه ، فتمكّنت منه وأحضرته إلى القاهرة (١).

وفي حوران ، اقتتلت القبائل ، قتالاً شديداً على مصادر الماء والكلأ ؛ فتدخل الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦/ ١٢٧٧ ، وأرسل قواتٍ مملوكية بقيادة نائب دمشق ليضع حداً لذلك الاقتتال ، فنجحت في مهمتها (٢).

وفي العام نفسه ، حضر أمير العرب عيسى بن مهنا ، وأحمد بن حجي أمير آل مِرا إلى القاهرة ، وكان بينهما خلاف ، فأصلح بيبرس بينهما وحلّفهما على الطاعة(٣).

وتجدّد الخلاف بين عرب آل مهنا و أبناء عمومتهم آل مرا في عهد السلطان قلاوون. فَقَدِمَ الأمير أحمد بن حجي أمير آل مرا إلى البرّيّة طالباً الأمير (طرنطاي المنصوري) نائب الغيبة في دمشق وهو مخيّم بالقرب من دمشق ، وكان أمير العرب مهنا بن عيسى بن مهنا حاضراً في الجلسة ، فألحّ أحمد بن حجي في المطالبة بألف بعير أخذها عرب مهنا ، واحتدّ وارتفع صوته ومهنا صامتٌ لا يتكلّم ؛ فمال طرنطاي إلى مهنّا، وقال له : " ما تقوله يا ملك العرب ؟ فقال وما أقول ؟ نعطيهم ما طلبوا ، فهم أولاد عمّنا ، فإن كانت لهم أعطيناهم إياها ، وإنْ لمْ تكنْ لهم فما هو بكثيرٍ إنّ أعْطينا بني عمّنا من مالِنا. ولمّا تمادى ابن حجي بالكلام ، رفع مهنا رأسه وقال : يا أحمد ، إنّ كان

---

(١) العيني ، عقد الجمان ، ١/ ٤٠٨ – ٤٠٩ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ٣٣٥ .

(٣) العيني ، م.س ، ١/ ٤٠٩ .

كلامك عليك هيّناً فكلامي عَلَيَّ ما هو بهيّن ، وهذه الأباعر أقلّ من أن يحصل فيها خلاف ، وأنا معطيك إياها. فقال طرنطاي : هكذا والله يكون الأمير " (١).

فالسلطة المملوكية كانت تتدّخل في إصلاح الأمور بين أعراب الشام ، لكنّها كانت تحجم عن ذلك أحياناً ؛ إمّا لانشغالها بأمور داخلية أو خارجية ، وإمّا لرغبتها في إضعاف الأعراب. ففي سنة ٧٠٩/ ١٣٠٩ ، أيام الناصر محمد بن قلاوون ، هاج عرب حوران ، واقتتلوا كثيراً حتى قُتل أعداداً كثيرةٌ منهم ؛ والسلطة المملوكية تنظر وتَرْقُب الاقتتال ولمْ تتدّخل من قريب أو بعيد (٢).

وفي سنة ٧٤٥/ ١٣٤٤ ، سار فيّاض بن مهنّا بفرسانه عن ماردين ، وكبس سيف بن فضل أمير العرب ، فقتل جماعة من أصحابه ، ونهب أموالهم ، وأسر أخاه (٣). لكن أخا سيف بن فضل صادف قاصد فيّاض بن مهنا سنة ٧٤٨/ ١٣٤٧ ، ومعه ثمانون ألف درهم ثمن خيول قدّمها للسلطان حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون ، فصادر المبلغ وحاول قتله. فلما علم فيّاض بن مهنا ، أغار على جِمال سيف وآل فضل وساق منها نحو خمسة عشر ألف بعير ؛ فبعث سيف بن فضل يطلب المساعدة من نائبي دمشق وحلب ، وأنْ يبعثا عسكراً إليه ليقاتل آل مُهنّا ، فلم يُنجدانه. وكتب نائب حلب إليه بأنه لا طاقة له بآل مهنّا ، ورسم بقدوم سيف بن فضل وأمراء آل مِرا وقدوم أحمد بن مهنّا ، وحاول إصلاح الأمور بينهم ، ووعد أحمد بن مهنّا بإمرة العرب (٤).

لكنّ الأمور لم تَسرْ في الاتجاه الذي تبنّاه نائب حلب ، فسرعان ما سار أحمد بن مَهنّا وأخوه فيّاض ، وعدد من أمراء آل مهنا بفرسانهم يُريدون آل مِرا الذين نزلوا بجوار آل فضل ؛ فركب سيفٌ بفرسانه وفرسان آل مِرا وآل علي لمواجهة آل مهنا ، لكنّ الغلبة مالت عليه. فأمر أحمد بن مهنّا بنهب ديار المهزومين ، وأخذ نحو خمسمائة حِمْل دقيق ، وساق نحو خمسة آلاف بعير (٥). فاتجه سيف بن فضل نحو القاهرة ؛ ولما قابل السلطان حاجي بن شعبان بكى بين يديه ، فتنكر السلطان لآل مهنّا. وأثناء ذلك ورد كتاب من أرغون شاه نائب دمشق يُثْني فيه على آل مهنّا واستمرار طاعتهم للسلطان ؛ فأمر السلطان بإخراج سيف بن فضل من القاهرة مُرسّماً عليه (٦). فظلّ حتى سنة ٧٥١/

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٤٠ .

(٢) حيدر الشهابي ، تاريخه ، ص : ٤٨٤ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج٢ ق٣ / ٦٦٧ .

(٤) ابن الوردي ، تاريخه ، ص : ٤٩١ ، المقريزي ، م.س ، ج٢ ق٣ / ٧٢٨ - ٧٢٩ .

(٥) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ١٤٧ - ١٤٨ ؛ المقريزي ، م.س ، ج٢ ق٣ / ٧٣٤ ؛ والعزاوي ، العراق بين احتلالين ، ٢/ ٥٣ .

(٦) المقريزي ، م.س ، ج٢ ق٣ / ٧٣٤ - ٧٣٥ .

١٣٥٠ ، حيث عاد إلى نشاطه السابق بالخروج عن الطاعة ، واقتتل مع موسى بن مهنا ، لكنه هُزم ونهبت أمواله. ثمّ كرّرَ محاولاته للانتقام من أبناء عمومته أمراء آل مهنا حتى وقع في الأسر [١].

وفي مكان آخر من بلاد الشام ، في الكرك ، اشتدّت الفتنة بين عرب نُمير وبين عرب بني عقبة ، حتى أنّ أمرهم أعيا الناصر محمد بن قلاوون ، وذلك لتحصّنهم في معاقلهم المنيعة. فلجأ إلى الحيلة والخدعة لإنهاء تمردهم وإعادتِهم إلى الطاعة. فاتفق مع شطي أمير بني عقبة ، ومع نوابه في غزّة ودمشق والكرك بأن يدخلوا البرّية كأنّهم يصطادون ؛ ثم يوقعون بهم. فقبضوا على عددٍ منهم ، وقتلوا عدداً كبيراً ، وحبسوا آخرين حتى ماتوا في السجون. وعلى الرغم من كسر شوكتهم إلاّ أنهم عادوا إلى ما كانوا عليه من الشغب وقطع الطرق ، فركب إليهم (جَكْتمر) نائب الكرك ، وطلع إلى معاقلهم الجبلية فقاتلوه وكسروه. فكتب السلطان إلى أرغون شاه نائب الشام بتجهيز عسكرٍ لقتالهم ، فتمكّن من بني نمير وأخضعهم [٢].

وفي غزّة ، كثُرت الفتن ، وزاد فساد العربان والعشير ، وامتدّ إلى القدس ونابلس والخليل ، فاقتتل بنو جَرْم وبنو ثعلبة. وكان ذلك حين جمع أُدّي بن فضل عربه من بني جَرْم وهاجم سنجر بن علي أمير ثعلبة ، فاتسع نطاق الفتنة حين مالت حارثة إلى (أدي) ومال بنو كنانة إلى (سنجر) ؛ فجرت بينهم حروب عديدة ، قُتِلَت فيها أنفسٌ عديدة ، وفسدت الطّرق على المسافرين. فما كانَ من عساكر دمشق أنّ خرجتْ لوضع حد للاقتتال فلم يعبأوا بها. فعين السلطان نائباً جديداً لنيابة غزّة هو الأمير (يلْجك). فاستمال (أُدّي) وعضّده على ثعلبة ، فاشتدت الفتنة ونار الاقتتال ، وفسدت أحوال الناس. فركب (يلْجك) بعسكره ليلاً ، وهاجم ديار ثعلبة ، فقاتلوه وأسروه. ومع ذلك ، فإن (سنجر) منع عربه من قتل النائب ، وأفرج عنه حتى لا يثير السلطة المملوكية في القاهرة ، فعاد النائب مكسور الجناح إلى غزّة. فأدّى ذلك إلى سيطرة بني ثعلبة على الموقف ، فتحكّموا بالطرق بين الشام ومصر ، وسيطروا على اللّد والرّملة والخليل والقدس [٣].

لكنّ السلطة المملوكية في القاهرة ، سرعان ما عزلت النائب (يلْجك) ، وعيّنت الأمير سيف الدين دَلَنْجي نائباً لغزّة. فخرج هذا بتجريده ضخمة ، وكتب إلى (ابن صبح) في دمشق بالخروج بألف فارس ، على أن تجتمع العساكر في غزّة. فلما وصلت

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٣ / ٨١٥ .

(٢) م.ن ، ص: ٧٩٩ .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠/ ١٦٣ .

أخبار هذه التحركات العسكرية إلى بني ثعلبة ، سرعان ما رحلوا بأجمعهم إلى برّيّة الحجاز . وأما (أُدّي) فاستغلّ حالة الرحيل ، ونهب من ثعلبة الكثير . ولمّا تحققت أخبار الرحيل عادتْ التجريدة ولم تصل غزّة [1].

وأما نائب غزة (دلنجي) ، فقد سار باتجاه الرملة واللد ، وراسل العربان والعشير ، وظلّ يلاطفهم ويخادعهم حتى قَدِمَ إليه نحو مائتين من أكابرهم ، فقبض عليهم، وحملهم إلى غزّة ، ووسّطهم جميعاً ، فضعف شأنهم [2].

لكنّ السلطة المملوكية لم تترك (أُدّي) أمير عرب جَرْم يقوى بغزّة ، فأنفذت (قبلاي) الحاجب ، ومعه عدد من أمراء الطبلخاناة والعشرات إلى غزّة ، فاحتال على أدي، ثم ردّه إلى عربه ، فاطمأن وعربه لهذا الإجراء. ولما أهل رمضان في ٧٥٠/ ١٣٤٩ ، قدم (أدي) ومعه أربعة من بني عمه لتهنئة (قبلاي) بالشهر الكريم ، فقبض عليهم وقيّدهم ، وأرسل إلى (سنجر) أمير ثعلبة في برّيّة الحجاز ، " أنّي قد قبضت على عدوك ليكون لي عندك يدٌ بيضاء " [3] ؛ فسُرَّ سنجر ، وعاد إلى غزّة ، وضمن له دَرْك البلاد.

فرحل قبلاي إلى القاهرة ، ومعه أُدّي وبني عمّه الأربعة ، وفي القاهرة تعرّضوا للتعذيب ، وأُلزموا بألف جمل ومائتي ألف درهم. فبعث إلى قومه بإحضارها ؛ فلمّا أُحْضِرت ، سُمّر وأبناء عمّه ، ثم سُيّروا إلى غزّة ووُسِّطوا جميعاً [4].

وأما بنو جَرْم ، فقد ثاروا ضِدّ السلطة المملوكية ؛ فهاجم أخو أُدي غزّة ، فتصدّى له نائب غزّة (دلنجي) وقتله. وكتب يخبر القاهرة باستقرار الأوضاع في غزّة ونواحيها [5].

وقدْ أدّتْ هذه الإجراءات إلى إضعاف أعراب غزّة ، فتفرّقوا في البلاد الشاميّة ، ورحل قسم منهم إلى المنطقة الشرقية من مصر ، فتلقّفتهم عساكر المماليك ، وقبضوا على نحو ثلاثمائة رجل منهم ، ونهبت جمالهم ، واستُخْدِموا في بناء العمائر حتى هَلَكَ أكثرهم [6].

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٣ / ٨٠٥ .

(٢) م.ن، ص.ن .

(٣)م.ن ، ص: ٨٠٦ .

(٤) م.ن ، ص : ٨٠٧ .

(٥) م.ن ، ص : ٨٠٨ .

(٦) م.ن ، ص.ن .

بذلك ، تمكّنت السلطة المملوكية من إنهاء تمرّد الأعراب في غزّة ، ووضعت حداً للاقتتال بينهم ، مستخدمة القوة حيناً والغدر والحيلة أحياناً أخرى٠٠ وهذا يعني إثبات الوجود العسكري والسياسي المملوكي في جنوبي بلاد الشام٠

وقد ظلّت السلطة المملوكية متيقّظة لتحرّكات أعراب الشام ؛ ففي ٧٥١/ ١٣٥٠ ، أقدم الأمير أرغون الكاملي نائب حلب على مهاجمة أعراب النواحي ، فأوقع بهم ، وكفّ خطرهم عن حلب ، فعظُمت مهابته بينهم٠

وحين اختلف نُعير بن حيّار مع ابن عمه محمد بن قارا ، وقعت بينهما فتنة عام ١٣٨٣/٧٨٥ ، انتهت بهزيمة نُعير ، وتعرّضت أمواله للنهب ، وسيق له ثلاثون ألف جمل٠ يبدو أن تَدَخّل يَلْبُغا الناصري نائب حلب لصالح محمد بن قارا ساهم في هزيمة نُعير ، وتولي ابن قارا إمرة العرب [١].

لكنّ نُعيراً ، عاد بعد عشر سنوات ، وهاجم محمد بن قارا أمير العرب ، فأرسلت السلطة المملوكية عساكر دمشق إلى حمص لتثبيت أمير العرب الجديد ، ووضع حدٍ لنُعير[٢]. ثم استعان نائب دمشق بنواب صفد وحلب وحماة ، والتقوْا عند سلميّة ، وهاجموا ديار نُعير ونهبوها [٣].

وإذا كانت السلطة المملوكية تُلاحق أمراء العرب الخارجين عن الطاعة ، فإنّها بالوقت نفسه لم تسمح لنواب بلاد الشام بملاحقة أمراء العرب الداخلين في الطاعة حتى لا يزداد الموقف تأزّماً٠ فلما أقدم نائب حماة (أقبغا) على قتل حاجب أمير العرب محمد بن قارا ؛ أمر الظاهر برقوق بالقبض على النائب وسجنه ؛ وكأنّ غاية برقوق استمالة محمد ابن قارا ضد ابن عمه نُعير [٤].

ومرّة أخرى ، يعود نُعير أميراً للعرب سنة ٨٠٠/ ١٣٩٨ ، لكنه اختلف مع ابن عمه سليمان بن عنقاء بن مهنّا ، فاقتتلا قرب الرحبة ، فانهزم نُعير أولاً ، ثم انقلبت الأمور على سليمان ، فقُتل من اتباعه عددٌ كبير ، ونُهِبَتْ موجوداتِ عربه[٥] . وفي حوران والجولان ، ظهر النّزاع بين أمراء آل مرا على زعامة القبيلة ، فقسّمها

---

(١) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٢٧٩ ٠

(٢) ابن قاضي شهبه ، تاريخه ، ٣/ ٤٦٤ ٠

(٣) م٠ن ، ص : ٤٦٥ ٠

(٤) م٠ن ، ص : ٤٦٨ ٠

(٥) ابن حجر ، م٠س ، ٢/ ٢٢٢.

برقوق مناصفة بين (حميد) وأبي بكر ؛ لكنّهما اقتتلا ، فقُتل حميد ، فجعلها برقوق بين أبي بكر وقُنَيم (١).

وشَهِدَتْ أرض الجزيرة الفراتية خلافات بين آل مهنّا وبين حلفائهم عرب زبيد فقُتل أحدُ أمراء آل مهنّا وهو عامر بن حيّار ومعه سبعة عشرنفساً ، كما قُتل عددٌ من عرب زبيد (٢).

وفي عام ٨٠٢/ ١٤٠٠ ، ظهرت فتن كثيرة بين أعراب الشام ، وفي مناطق متفرّقة ، قُتل فيها آلاف الناس. ويدلّل هذا على انعكاس الأمور والأحداث المضطربة بين أمراء المماليك و السلطان فرج بن برقوق (٣).

وفي عهد شيخ المحمودي عام ٨١٨/ ١٤١٥ ، سأل حسين بن بشارة أن يستقلّ في مشيخة عربه في نيابة صفد مقابل ثلاثين ألف دينار ، فاستجاب السلطان وأصدر مرسوماً بذلك. لكنّ أخاه (محمداً) غضب ، فاقتتل مع أخيه حسين ، ولما هُزم ترك بلاد الشام ورحل إلى العراق (٤).

وفي العام نفسه ، ٨١٨/ ١٤١٥ ، وقعت الحرب بين عرب آل فضل ، لأن حسين ابن نُعير تولّى إمرة العرب ، ولما صُرِفَ عنها ، تولّى حديثة بن سيف إمرة العرب (٥).

ثم عادت الفتن إلى الظهور في غزّة والرّملة والقدس بين عرب جَرْم وبين عرب العايد في عام ٨١٩/ ١٤١٦ ، فلم يتدخّل نائب غزّة لوقف الاقتتال بينهم ، بدعوى أنّ القاهرة لَمْ تأمره بذلك (٦). فاتّسعت نار الفتنة ، ووصلت حتى نابلس والأغوار. وحين استمر أمير عرب جَرْم بإنقاذ غاراته على أعراب نابلس ، لقي مصرعه على يد شيخ عربان نابلس محمد بن عبد القادر (٧) .

وفي الرّحبة ظهرت من جديد خلافات بين آل فضل ؛ ففي عام ١٤١٦/٨١٩ ، فاجأ حسين بن نُعير مدينة الرحبة ، وحاصرها عشرين يوماً حتى تمكن منها، فتعرّضت إلى مصير مشؤوم ، إذ أحرقها حتى جعلها فحمة سوداء (٨).

---

(١) ابن قاضي شهبه ، تاريخه ، ٣/ ٥١٦ .

(٢) العزاوي ، العراق بين احتلالين ، ١/ ٢٢١ .

(٣) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٢/ ٩١ .

(٤) م.ن ، ٣/ ٥٥ .

(٥) م.ن ، ٣/ ٧٥ .

(٦) المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ق١ / ٣٤٦ ؛ وابن حجر ، م.س ، ٣/ ٨٩ .

(٧) المقريزي ، م.س ، جـ٤ ق١ / ٣٤٦ ؛ وابن حجر ، م.س ، ٣/ ٨٩ .

(٨) المقريزي ، م.س ، ص : ٣٦٢ .

يتبيّن أنّ السلطة المملوكية لم تَحَرِّكَ ساكناً إزاء هذه الأحداث بين الأعراب ، واكّتفت بالمراقبة ؛ فهذه المنازعات يمكن أنْ تُضْعِفَ الأعراب دون أن تكلّفها شيئاً. ولمّا زاد الخطر على طريق الشام – مصر ، وتهدّدت القوافل التجارية ، خرج نائب غزّة لردع الأعراب وإعادتهم إلى الطاعة.

ومرة أخرى ، تجددت المنازعات بين أمراء آل فضل سنة ٨٢٠/ ١٤١٧ ، وبصورة أعنف من السنة السابقة ، فشهدت منطقة الرحبة معارك طاحنة بين أبناء العمومة. فقد توجه حديثة بن سيف أمير العرب بصحبة نائبها الأمير زين الدين عمر بن شهري ، ومعهما عساكر من دمشق ، وذلك لإنهاء تمرّد عذراء بن علي بن نُعير ، الذي أغار على بيوت العربان ونَهَبَها. فلما رأى عذراء أنّ الموقف ليس بصالحه ، انسحب نحو تدمر ، فرجعت عساكر دمشق من حيث أَتَتْ ، ولَحِقَ حديثة بن سيف بعذراء نحو تدمر ، ونزل بفرسانه قريباً منها. وأما عذراء فلم يُعْطِ حديثة وقتاً للراحة والاستعداد ، ففاجأه بنحو ثلاثة آلاف فارس ، وحدثت بينهما وقعة مهولة ، لكنّها انتهت بهزيمة عذراء وفراره نحو البرّيّة (١). فباركت السلطة المملوكية انتصار حديثة بن سيف وثبّته في إمرة العرب.

وفي حمص ، اختلف حديثة بن سيف مع غنّام بن زامل شيخ عرب آل موسى ، بسبب مقتل سالم بن طويب شيخ آل أحمد حلفاء آل موسى. وصادف ذلك حضور السلطان شيخ المحمودي إلى حماة عام ٨٢٠/ ١٤١٧ ، فَقَدِمَ عليه نائب حمص وبصحبته حديثة وغنّام ، فقدّم كلّ منهما تَقْدمته إلى السلطان ، فقبلها ، ثم رافقاه إلى حلب ، وهناك سوّى الأمور بينهما ، وحلّفهما على الطاعة (٢).

ولمْ تتوقّف الخلافات بين أمراء العرب ، فعاد عذراء إلى الظهور من جديد عام ٨٣١/ ١٤٢٨ ، وأغار على قِرقماس بن حسين بن نُعير ، فكانت نهاية عذراء إذ قُتل. فما كان من قرقماس إلاّ أنْ لجأ إلى الأمير (قصروه) نائب حلب خشية من انتقام عرب عذراء (٣).

لكن المقام لم يَرُق لقرقماس بحلب ، فرحل عنها إلى جهة الفرات ، فحدثت مواجهة بينه وبين آل عامر ، انتهت بهزيمته ولجوئه إلى قلعة جعبر الحصينة (٤). ومنها أغار على ابن عمه مدلج بن علي بن نُعير عام ٨٣٣/ ١٤٣٠ ، فانهزم قرقماس ، ودخل

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ق١ / ٣٨١ ؛ وابن حجر ، إنباء الغمر ، ٣/ ٩٢ .

(٢) المقريزي ، م.س ، جـ٤ ق١ / ٤١٥ .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥/ ١٩٧ ؛ وابن خطيب الناصرية ، الدر المنتخب ، مخطوط ، ٢/ ٣٩٠ .

(٤) م.ن ، ٢/ ٣٩١ .

مدلج بيوت قرقماس ، ونَهَبَها وسَبَى أهله ؛ لكنّ قرقماس كرّ على مدلج وتمكّن من قتلـــه بظاهر حلب [١].

وبعد مقتل مدلج ، ظهر سليمان بن عذراء كمطالب بالإمرة ، فاتّجه إلى القـاهرة ، فأمّره السلطان (برسباي) على العرب عوضاً عن عمه مدلج. وعاد سليمان ومعه مثال للأمراء المجرّدين بالتوجه مع نائب حلب لإنهاء تمرد قرقماس. لكنّ قرقماس طلب الأمان من السلطان ، فورد المثال السلطاني بطرده من الشـــام. وتحرّكـت عســاكر الســلطان وفرسان سليمان بن عذراء إلى جَعْبَر. وحين رأى قرقماس تلك الجموع ، فرّ ، وقطـــع الفرات ، فتشاغل العرب والعساكر السلطانية بالنهب ، ولاحقوه حتـــى تعبـت خيولـــهم فتوقّفوا. فما كان من قرقماس إلاّ أن كرّ بفرسانه عليهم ، وألحق بهم هزيمة غير متوقعة، ونهب خيولاً لا تُحصى. ومع هذا الانتصار إلاّ أنّه آثر الانسحاب إلى العراق والالتجـــاء إلى المغول [٢].

وحدثتْ مفاجأة إلى قرقماس ، إذ تركه أخوه (الغادر) معلناً الطاعة ، وتوجّه إلى القاهرة عام ٨٣٤/ ١٤٣١ ، فأكرمه السلطان وقبل اعتذاره. ولمّا عاد إلى دياره وجدهـــا قد تعرّضت إلى النّهب من العساكر السلطانية ؛ فأعلن عصيانه ، ونَدِم على مفارقة أخيه. فجاءت الأوامر السلطانية إلى نائبي حلب وحماة بملاحقته ، فانسحب إلى العراق لاحقـــاً بأخيه قرقماس [٣].

وما كادت السلطة المملوكية تلتقط أنفاسها من عنـــاء ملاحقـــة أمـــراء العـــرب الخارجين عن الطاعة ، حتى ظهرت الفتنة من جديد بين أعراب غزّة. ففي عـــام ٨٤٩/ ١٤٤٥ ، وقعت الفتنة بين عُربان جُذام وبين عُربان العايد ، فخرج الأمير (طوخ) نائب غزّة لوقف الفتنة والاقتتال. وانضمّ إليه الأمير (طوغان) نائب القدس. وأمّـــا أمـــراء العرب المختلفون ، فقد طلبوا من النائبين عدم التدخّل بين العربان. فلمّا حاول (طـوخ) فضّ النزاع والاقتتال بينهم ، قتلوه ، وجرحوا نائب القدس. فما إنْ وصلت هذه الأخبـــار إلى القاهرة ، حتى تشوّش السلطان (جُقْمُقْ) ، واستعد لإرسال تجريدة إلى منطقة النزاع ليعيد الهدوء والاستقرار إليهـــا [٤].

وبعد مرور أربعين عامٍ على الهدوء في شمالي بلاد الشام ، ظهر التوتـــر مـــن جديد، ودبّ الخلاف بين أمراء آل فضل بعد مرحلة السكون تلـــك. ففـــي عـــام ٨٨٧/

---

(١)المقريزي ، السلوك ، جـــ٤ ق٢ / ١٤٩ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥/ ١٩٨ .

(٢)ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٣/ ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٥١ ؛ وابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٣/ ٢٠١ .

(٣) ابن حجر ، م.س ، ٣/ ٤٦١ .

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٢/ ١٤٧ .

١٤٨٢، دبّ النزاع بين سيف بن فضل وبين ابن عمّه عسّاف أمير آل فضل. وأمّا جماهير الأعراب فقد التفّت حول سيف بن فضل فاتّهمته السلطة بالخروج عن الطاعة، وأقرّت ابن عمه عسّاف في الإمرة ؛ وسيّرت تجريدة من القاهرة بقيادة الأمير يشبكاك الدوادار الذي لاحق سيف بن فضل حتى الرّها ؛ فلقي يشبك حتفه هناك ، مما أدى إلى انزعاج السلطة المملوكية وخشيت زيادة قوته [١].

وإذا كانت السلطة المملوكية قد عجزت عن إنهاء تمرد سيف بن فضل ، فإنها لجأت إلى العرب أنفسهم ، فغذّت روح العداء والانتقام لدى ابن عمه عسّاف. فمال هذا إلى الحيلة والغدر ، وأرسل الهدايا إلى سيف ، وجهز (فداوياً) معها. ولما وصلت إليه وهو في العراق ؛ مالَ ليتناول الهدية ، فطعنه (الفداوي) ، فمات متأثراً من الطعنة. فما عجز عن تنفيذه المماليك ، نفّذه العرب [٢].

وأما جماعة سيف بن فضل ، فإنّهم لم يسْكتوا على الغدر بأميرهم ، فتحرّكوا للثأر من مقتله ؛ فرصدوا تحرّكات عسّاف حتى قتلوه سنة ٨٩٠/ ١٤٨٥. فأصدر السلطان قايتباي مرسوماً بتعيين علي بن عامر أميراً على عرب آل فضل في حماة [٣].

وفي عام ٨٩١/ ١٤٨٦ ، ظهرت الفتن في غزّة واللد والرملة والقدس ونابلس ، وقُتل عدد من شيوخ العرب وأمرائهم ، أمثال : أبو بكر أمير آل جَرْم ، ويوسف بن الجيوسي شيخ عرب نابلس. فأرسلت السلطة المملوكية تجريدة من القاهرة بقيادة آقبردي الدوادار لإخماد هذه الفتن ، فنجح بالمهمة التي أُوكِلَتْ إليه ، لاستغلاله عنصر المفاجأة ، وتفرُّق الأعراب ؛ وعاد حاملاً عدداً من رؤوس الأعراب ، وعدداً من رجالاتهم مقيدين بالسلاسل الحديدية ، وآخرين من شيوخهم [٤].

وفي حوران ، اختلف أعراب آل مِسرا عام ٨٩٣/ ١٤٨٨ ، فاقتتل أميرهم (جانباي) مع منافسه على إمرة العرب ، الأمير عامر بن مقلّد ؛ لكن جانباي، تمكّن من عامر بن مقلّد وطرده من حوران ، وتبعه حتى أرض المرج ، من غوطة دمشق. فانهزم ابن مقلّد ، ولجأ إلى آل علي بالغوطة. فخرج أميرهم (بحر) وهزم جماعة جانباي ، ونهب خيولهم ، وردّهم إلى ديارهم في حوران. وأما نائب الغيبة

---

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ٣/ ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور، ٢/ ١٩٤ .

(٣) م.ن ، ٣/ ٢٢١ .

(٤) م.ن ، ٣/ ٢٢٥ ، ٢٣١ .

في دمشق (جَنْدر) ، فقد خرج لنجدة آل علي فهم عرب الطاعة ؛ فلم يجد أحداً ، فقدّموا له عدداً من الخيول التي غنموها من جانباي[١].

وقد ظلّ هذا الخلاف بين أمراء آل مِرا حتى سنة ٩٠٣/ ١٤٩٨ ، حين تمكّن (كرتباي الأحمر) نائب دمشق من إصلاح الأمور والتوفيق بين أميري آل مِرا ، جانباي، ومهنّا بن عامر بن مقلّد ، وقسّم الإمرة بينهما مناصفة ، كما قسّم بلاد حوران بينهما ؛ وأشْهد عليهما القضاة ، وخَلَعَ عليهما [٢].

وفي عجلون ، نشبت الفتنة بين العربان عام ٩١٤/ ١٥٠٨ ، فتوجه نائب دمشق لإخمادها. ولمّا وصل إلى صيخرة من قرى عجلون ، أرسل إليه محمد بن ساعد شيخ العرب الهدايا والأموال مع ابنه ، فرفضها النائب ، وربط قبولها بحضور والده محمد بن ساعد [٣].

واستمرت الفتن قائمة في منطقة عجلون حتى سنة ٩١٥/ ١٥٠٨ ، فأرسل السلطان قانصوه الغوري مراسيمه بالقبض على شيخ العرب محمد بن ساعد ، وتخريب دياره. فخرج نائب دمشق لكنّه لم يتمكّن من السيطرة على الأمور [٤].

وفي الكرك ، ظهرت الفتنة بين العربان عام ٩١٦/ ١٥٠٩ ، فكلّف نائب دمشق بوقفها بإعادة الاستقرار هناك. ولمّا وصل الكرك ، جمع شيوخ العربان ، ووفّق بينهم ، وخلع عليهم ، ثم عاد إلى دمشق [٥].

ولم يقتصر القضاء على الفتن والمنازعات بين أعراب الشام على السلطة المملوكية ؛ فإن أمراء العرب قاموا بالدور نفسه أحياناً ؛ فهذا الأمير جانباي أمير آل مرا في حوران ، أرسل حاجبه لإخضاع عرب آل بيّاض ، فأخمد فتنتهم سنة ٩١٧/ ١٥١١[٦].

وبين عربان الطاعة (آل علي) حصلت الفتنة عام ٩٢٠/ ١٥١٥ ؛ فخرج نائب دمشق إلى الغوطة ومرج دمشق ، وأصْلَح الأمور بين أمراء آل علي [٧].

---

(١) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٩٨ – ٩٩ .

(٢) م.ن ، ١/ ١٩٦ .

(٣) م.ن ، ١/ ١٩٨ .

(٤) م.ن ، ١/ ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ .

(٥) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ٢٠٩ – ٢١٠ .

(٦) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٣٥٧ .

(٧) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ٢٢٥ .

الخلاصـــــــــــة:

بعد استعراض أحداث الفصل الأول ، يمكن تدوين الملاحظات الآتية :-

- تركّزت ديار القبائل العربية الشامية وتحرّكاتهم خلال عهد المماليك في بادية الشـــام وأطرافها حول : حمص وتدمر ، وحماة وسلميّة ، وحلب وسَرْمين (إدلب) ، ومعرّة النعمان ، والجزيرة الفراتية. وحول غوطة دمشق ومرجها ، وامتدت حتى حـــوران والجولان. كما وصلت إلى البلقـــاء والكرك والشوبـــك والعقبـــة. وهنـــاك حـــول غزة والداروم، واللد والرملة حتى وصلت نابلس والقدس. كما ظهرت أســـر بدويـــة خارج نطاق البادية الشامية في سهل البقاع اللبناني ما بيـــن بعلبـــك ومشـــغرا فـــي الجنوب.

- تركّزت رئاسة الأعراب الشاميين وزعامتهم في بطون وأفخاذ آل ربيعة الطائيين (آل فضل ، آل مرا ، آل علي). وتفرّعت عن آل فضل بيـــوت (مُـــهنّا ، وعيســـى ، وحارثة). فإذا كان آل فضل وآل مهنّا قد احتلّوا مراكز رئاسيّة من بين أعراب الشام، فإنّ السلطة المملوكية لَمْ تُسْقِط من حساباتها التعامل مع القبائل العربية الأخرى ، بـــل ظلّت العلاقة متوازية إلى حد ما.

- تعاملت السلطة المملوكية مع أعراب الشام على اعتبار أنهم فئة اجتماعية خارجة على النظام المملوكي أحياناً ؛ فعملت على إخضاعهم واستيعابهم ؛ وعلى ضمـــان ولائـــهم لإقرار الأمن والنظام الداخلي في بلاد الشام.

- اتّخذت السلطة المملوكية إجراءاتٍ عملية تجاه أعراب الشـــام ؛ فاســـتحدثت منصبـــاً رسمياً باسم " إمرة العرب " يتولاه أمير من العرب ، وهناك أمراء محليون بالقبـــائل العربية وكأنهم شيوخ قبائل. كما منحتهم ألقاباً تشريفية رمزيّة من ديوان الإنشـــاء ، ولم تُهمل أحداً منهم. كما أقطعتهم الإقطاعات كمصدرِ رزقٍ ثابتٍ ، ومنحتهم العطايـــا والهبات في مناسبات عديدة.

- بدأت إمْرَةُ العرب قوية بقوة أمرائها وتأثيرهم الفاعل على مستوى القبيلة وحتى علـــى مستوى الزعامة المملوكية. لكنّها بدأت تميل إلى الضعف منذ مطلع القـــرن التاســـع الهجري. وكأن هناك خيطاً بين قوتها وبين قوة سلاطين المماليك الذين استحدثوها أو تبنّوها.

- على الرّغم من إيجابية منصب العرب ، فإنّها تَرَكَتْ أثراً سلبياً ، تمثّل فـــي التنـــافس الشديد بين أمراء العرب على تولّي إمرة العرب ، وقاد بالتالي إلى ظهور الخلافـــات الداخلية والتي انتهت بحدوث النزاع الدامي بين أبناء البيت الواحد ، مما أضعف مكانة الأعراب بشكل عام.

- سمحت السلطة المملوكية للأعراب في بلاد الشام بتشكيل أحلاف قبلية ذات أهداف محليّة محدودة ، ما دامت هذه الأحلاف لا تشكّل خطراً حقيقيا على السلطة المملوكية.
- راقبت السلطة المملوكية الخلافات والاقتتال بين أعراب الشام ، كما رصدتها بدقّة ، ولا يُستبعد أنْ تكونَ قد غذّتْها لإضعاف قوّتها ؛ وكأنّها تركت الأعراب يُصَفّون بعضهم ما دامت هي غير قادرة على ذلك.
- رحّبت بعض القبائل العربية الشامية بالتدخّل المملوكي المباشر لحلّ خلافتها المستعصية؛ وبهذه الموافقة يتبين اعتراف أعراب الشام بسلطة المماليك ؛ وكأنّ المماليك مؤهّلين للقيام بهذا الدور القيادي. وكلّ هذا يعني قدرة السلطة المملوكية على احتواء أعراب الشام في النظام المملوكي.
- أمام هذه المواقف المملوكية من أعراب الشام ، فإنّ السلطة المملوكية ستكلّف هؤلاء الأعراب في بلاد الشام بمهما . تتعلّق بالمحافظة على طرق البريد والتجارة والحج من ناحية ، ولتأمين الدولة المملوكية بما تحتاجه من خيل وإبل وأغنام من ناحية أخرى. هذا وستُشْرِكُهم في صفوف الجيش المملوكي كقوّة ضاربة وأحيانا كقوّة احتياطيّة. كلّ هذا سيتضح في سياق الفصل الثاني.

الفصل الثاني

الفصل الثاني

" المهام التي أوكلها المماليك لأعراب بلاد الشام "

أولاً : المحافظة على طرق المواصلات البرية:

أ- طرق البريد .

ب- طرق التجارة.

ج- طرق الحج.

ثانياً : تأمين حاجة المماليك من الخيل والإبل والأغنام.

ثالثاً : المشاركة في الجيش المملوكي.

المهام التي أوكلها المماليك لأعراب الشام

تمهيد:

اهتمت دولة المماليك بأعراب بلاد الشام ، فعملت على ربطهم بجهازها الإداري ، ومنحتهم امتيازاتٍ عديدةٍ من إقطاعاتٍ وهباتٍ ؛ كلّ ذلك من أجل استيعابهم وتوجيه طاقاتهم لصالحها.

سيقودنا هذا للحديث عن المهام التي أوْكَلها المماليك لأعراب الشّام ، ومدى التزامهم بهذه المهام ، والتي يمكن أن تتوافق مع بيئتهم الصحراويّة ، وطبيعتهم البدويّة. فكان لهم دورٌ إيجابيٌّ ساهم في حفظ الأمن واستقرار بادية الشام ؛ ودورٌ سلبيٌّ أدّى إلى هَدْر طاقاتهم وانشغال السلطة المملوكية بالتعامل مع الآثار التي ترتّبت على ذلك.

من هنا ، سنلقي الضوء على نظرة أعراب الشام للمماليك ، فنجدهم يسعون في تحقيق مصالحهم في كِلا الدورين السابقين من منطلق بأنّ البادية باديتهم ، والشام شامهم ، وأن أهل السلطة الفعليّة ليسوا سوى مماليك غرباء وطارئين على بلادهم.

وسنحصر المهام التي أوْكلتها السلطة المملوكيّة لأعراب الشام بحفظ طرق المواصلات من بريدٍ وتجارةٍ وطرقِ حُجاج ؛ وتأمين حاجة الدولة المملوكية من خيلٍ وإبلٍ وأغنامٍ ؛ وإشراكهم في الدفاع عن سيادة الدولة وحفظ حدودها من الأعداء.

أولاً : المحافظة على طرق المواصلات البرّيّة :

احتلت بادية الشام موقعاً مهماً تمرّ فيه طرق المواصلات البريّة المختلفة من طرق بريد ، وطرق الحاج الشاميّ والمصريّ والعراقيّ وطرق الحجّاج المسيحيين ، وطرق التجارة. فطبيعي أن تقع هذه الطرق تحت رحمة أعراب بادية الشام.

وبالرغم من الإجراءات التي اتخذتها السلطة المملوكية لاحتواء تصرّفات أعراب بادية الشام ، فإنّها لم تُكلّل بالنجاح التام ؛ لذلك نَظّمت السلطة المملوكيّة العَلاقة بينها وبين هؤلاء الأعراب ، فأوْكلت إليهم مُهِمّة المحافظة على أمن هذه الطرق وسلامتها.

(أ) طرق البريد :-

اختلف الكتاب والمؤرخون في أصل نظام البريد بسبب الاختلاف في معنى كلمة (بريد) ، التي قد يكون أصلها من اليونانيّة " Beredos " ،أو من اللاتينيّة " Veredus " بمعنى

خيل[١]. أو من الفارسيّة " بريده لام " ومعناهُ مقصوص الذنب ، كناية عن استخدام الفُرس للبغال المقصوص أذنابها " بريد ذنب " ، ثمّ عُرّبت وحُذِفَ نِصْفها الأخير فقيل " بريد [٢]. أو من العربية " بَرَدَ " وجمعها " بُرُد " ؛ وتعني لفظة " بريد " الرّسول [٣]. ويرى القلقشندي بأن معنى البريد لغة ، المسافة المعلومة والمقدّرة اثني عَشَرَ ميلاً (أربعة فراسخ) ، كما أصبحت تعني الدّابة والرسول [٤].

ومن هُنا ، ظلّ الاختلاف قائماً في أصل البريد ، فقيل إنّهُ عربي ، وذهب آخرون إلى أنّه فارسي. فيخبرنا المقريزي أن الفُرس هم أوّلُ من رتّبَ البريد في عهد أحد ملوكهم "دارا بن بهمن " حينما أقام في مراكز البريد دوابَّ مقطوعة الأذناب [٥]. وأمّا القلقشندي ، فإنّه يرى أن أوّل من وضع البريد هم أكاسرةُ الفرس وقياصرةُ الروم [٦]. وأما في الإسلام، فإن أول من وضع البريد هو معاوية بن أبي سفيان حين استقرت له الخلافة ، وأحكمَهُ عبد الملك بن مروان [٧]. وبهذا يكون الأمويون قد صبغوه بالصبغة الإسلامية ، ثمّ طوّرهُ العباسيون * ، ونقله الفاطميون وزادوا فيه.

وأمّا في عهد المماليك فقد أُقرَّ البريد ونظّمه السلطان الظاهر بيبرس لتقصّي أخبار الصليبيين والتّتار من ناحية ، ولمتابعةِ أمْن واستقرار النيابات المصريّة والشاميّة من ناحية أخرى. وقد جعله بريداً سُلطانياً وسمّاه " البريد المنصوري " عام ٦٥٩ / ١٢٦٠ ، وجعله يتناول أموراً عديدة ، لنقل المراسلات الإداريّة والدبلوماسيّة ، والأوامر الحربيّة ، وإرسال الأمراء إلى السجون ، وأخبار السرقة والجرائم والقتل [٨]. يبدو أن اتساع رقعة الدولة المملوكية قد دفعته إلى تنظيم مراكز البريد بحيث تصله أخبار البريد في أقلّ وقت.

وقد عَرَفَ نظام البريد المملوكي أنواعاً ، منها : البريد بواسطة الخيل ، وهو ما عُرف بخيل البريد ؛ فجعلوا لخيل البريد إصطبلاً خاصاً عُرف باسم (إصطبل البريد) ، يشرف عليه سوّاسٌ لخدمة الخيل ، وسُوّاقٌ يركبون مع من رُسِمَ له بركوب خيل البريد

---

(١) عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ، ١/ ٦٠ .

(٢) المقريزي ، الخطط ، ١/ ٢٢٦ .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (بَرَدَ).

(٤) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١٤/ ٤١١ .

(٥) المقريزي ، م.س ، ص.ن .

(٦) القلقشندي ، م.س ، ١٤/ ٤١٢ .

(٧) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ٢٤١ – ٢٤٢ .

* يذكر المقريزي أن أول من رتب البريد في الإسلام هو المهدي بن محمد بن أبي جعفر المنصور سنة ١٦٦هـ ، وجعل دوابّه بغالاً وإبلاً . (الخطط ، ١/ ٢٢٦).

(٨) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٣/ ٢٥٥ ؛ ابن فضل الله العمري ، م.س ، ص : ٢٤٢ .

ليسوقَ فرسه ويخدمه مدّة سيره ؛ ويُشرف على هذا (أمير آخـــور * الـــبريد) وهـــذه الخيول لا يُسمح بركوبها إلاّ في نقل البريد ، كما أنّ الخيل تُدْمَغُ بعلامةٍ خاصة بالبريد[١].

وأما الذي يحمل البريد فَسمّي في عهد المماليك " بريـــــدي " ولــــه رؤســــاء يُســمّون " مقدمي البريد " ؛ فكان البريديّ (صاحب البريد) يحمل علامة خاصة يتمــيّز بها ، وهي عبارة عن لوحةٍ معدنيةٍ مدوّرةٍ منقوش عليها عبارة دينيـــة ، " لا إلـــه إلاّ الله محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق لِيُظْهِرَه على الدّين كله ولو كره المشـــركون ..... " وعلى الوجه الآخر اسم السلطان ، ومكان نقشها فـــي القـــاهرة أو دمشـــق أو حلب. ويضعها البريديُّ في عُنقه. ويتبين من تلك النقوش ممّــــا يـــدلُّ علـــى طابعـــها الرسمي[٢].

وقد أُنشئتْ لخيل البريد طرقٌ بين مصر والشام ، وامتدتْ إلى نواحٍ متعـــددة فـــي بـــلاد الشام ؛ فأصبح على طول هذه الطّرق مراكزُ لاستراحةِ الخيل ، يكون فيها خيـــول جديدة ومن يخدمونها ، وسوّاقون ، وما يُحتاج من زادٍ وعلف. ونتيجة لهذا التنظيم الدقيق كانَ الخبرُ يصل من قلعة الجبل** في القاهرة إلى دمشق في أربعة أيام ويعود بمثلها [٣].

وكانت طرقُ البريد تتعطّل أحياناً ، وذلك بسبب تعرض بلاد الشام إلـــى خطـــر خارجي مثل غزو التتار ؛ فأصبح البريد يُنقل على الهُجن ، ومن يقوم به يُسمى (هَجّاناً) ؛ وكان بها إصطبل خاص بالقاهرة يُعرف بـــ " المناخ " [٤].

وكذلك عُرف البريد بحمام الرسائل ، فكان له محطّات تشبه مراكز بريد الخيـــل وسُميّت بروج الحمام ، فكانت قلعة الجبل في القاهرة هي المركز الرئيسي لشبكة حمـــام الرسائل ، وما يحمله الحمام يُسمى بطائق أو ورق الطير [٥].

وقد جرت العادة أن يُطالع نواب المملكة السلطان بما يتجدّد عندهم من أخبـــار ، تارة على أيدي البريدية وأخرى على أجنحة الحمام ؛ فتعود إليهم الأجوبة السلطانية عليها

---

* إمرة آخورية ، يتولّاها مقدّم ألف ، وموضوعها التحدث عن إصطبل السلطان.
(القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ١٩).

(١) م.ن ، ١/ ١٤٤ – ١١٥ .

(٢) م.ن ، ١٤/ ٤١٠ – ٤١١ .

** قلعة الجبل : يتصل مكانها بجبل المقطّم ، وتشرف على القاهرة والنيل ، وعُرف موضعها الأول بقبة الهواء. أنشـــأها صلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٢هـــ ، وفي عهد المماليك زادوا في عمارتهــا أبـــراج وقاعـــات.
(المقريزي ، الخطط ، ٢/ ٢٠١ – ٢٠٤).

(٣) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص : ٣٢ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١/ ١١٦ ؛ ٤/ ١٩١ .

(٤) ابن شاهين الظاهري ، زبدة ، ص : ١٢٥ – ١٢٦ .

(٥) المقريزي ، م.س ، ١/ ٢٢٢ ، ٢٢٦ .

العلامة، فإذا ورد البريدي أحضره (أميرجا ندار) – من أمراء الألوف – والدوادار ، وكاتب السرّ بين يدي السلطان ، فيقبّل البريدي الأرض ، ويأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدي ، ثم يُناوله للسلطان فيفتحه ؛ ويجلس حينئذٍ كاتب السرّ ويقرأُهُ على السلطان سِراً ، فإنْ كان أحدٌ من الأمراء حاضراً انتحى جانباً حتى يُفرغ من قراءتِهِ ، ويأمر السلطان فيه بأمر [١].

وإنّ كانَ الخبرُ على أجنحة الحمام ، فإنّه يُكتَب في ورقٍ صغيرٍ خفيف ، ويُحمَّلُ على الحمام الأزرق ، فحين يهبط بقلعة الجبل ، يُحضِرُه (البرّاج) ، ويتولى كاتب السرّ قراءة البطاقة [٢].

وأما مراكز البريد المملوكية فهي الأماكن التي تقف فيها خيل البريد لتغيّر خيل البريد فيها فرساً بفرس ؛ فإنّ ابن فضل الله العمري يخبرنا عنها ، فيذكر أن مركزها هو قلعة الجبل في القاهرة ، ومنها ينطلق إلى جهاتٍ ثلاثٍ في مصر (الإسكندرية – أسوان – دمياط) ، وأما الجهة الرابعة فهي نحو الشام، وما يهمّنا الجهة الرابعة (القاهرة – دمشق)، فتكون مراكز البريد على النحو الآتي :

(القاهرة – سرياقوص – بئر البيضاء – بلبيس) وهي آخر مراكز البريد لخيل السلطان. وما بعدها خيل البريد المقررة على الأعراب ذوي الإقطاعات ؛ (السعيدية – الخفارة – الصالحية (آخر الدّيار المصرية) – بئر غربي – القُصير – العالوقة – حبوة (المركز الذي تقف فيه خيل العرب الشهّارة – الغرابي – قطيا) فمن القاهرة إلى قطيا اثنا عشر بريداً، ثم إلى ، صبيحة – السوّادة – الورّادة – بئر القاضي – العريش – الخروبة وهي آخر مراكز البريد للعرب الشهارة، ثم إلى ، رفح – غزة ، ومن غزة يتفرع إلى ثلاث جهات ، هي : الكرك ودمشق وصفد، فطريق غزة – الكرك يشمل : غزة – ملاقس – الخليل – جبا – الصافية – الكرك، وأما طريق غزّة – دمشق فيشمل : غزّة – الجيّتين – بيت درّاس – لُدّ – العوجا – الطِّيرة – قاقون – فحمة – جِنين – زرعين – عين جالوت – بيسان – المجامع – طيّبة – زحر – إربد – طفس – صنمين – غباغب – الكسوة – دمشق [٣].

ومن دمشق ، تتّجهُ مراكز البريد إلى : الرّحبة ، وإلى حمص ، وتدمُر ، وإلى طرابلس

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ٢/ ٢١١ ، ٢٢٦ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ٦٠ .

(٢) المقريزي ، م. س ، ٢/ ٢٢٦ .

(٣)ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ٢٤٨ – ٢٤٩ ؛ وانظر : الملحق ، خريطة ص : ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

وإلى صفد ، وإلى بيروت ، وصيداء ، وبعلبك. ومن دمشق إلى الكرك. وهناك طريق من دمشق إلى حلب [(١)].

ولمّا كانت معظم مراكز البريد تمرّ في بادية الشام ، فإنّ العرب هـم الموكلـون بحفظها. لهذا يمكن القول أنّ الدولة المملوكية تنبّهت إلى دور أعراب الشام فكلّفتهم فـي حفظ مراكز البريد السابقة ، وجعلت كلّ قبيلة من القبائل مسؤولة عن مراكز البريد التـي تقع في منطقتها ؛ وإلزام كلّ قبيلة بما تحتاج إليه تلك المراكز من الخيل. فهذا الظـاهر بيبرس يخلع على أمراء العربان من العائد وجَرْم وثَعْلبة في غـزّة ويضمّنـهم البـلاد ، ويُلزِمهم القيام بالعِداد ويشترط عليهم " خدمة البريد وإحضار الخيل برسمه " [(٢)]. وحينما زار السلطان نفسه الكرك والبلقاء استدعى الأمير (عبيّة) وغيره من مشايخ عُربان بنـي مهدي وألزمهم " دَرْك البلاد وخفَرهم إلى أرض الحجاز " [(٣)]. وحين وصل إلى دمشـق سنة ٦٥٩ / ١٢٦٠ ، استدعى أمراء آل فضل وزبيد وآل مرا ، " فوصـل أرزاقـهم ، وسلّمهم خَفَر البلاد ، وألزمهم حِفْـظَ الدُّروب حتّى حدود العراق " [(٤)].

ولمّا كانَ للظاهر بيبرس منزلة رفيعة في نفوس أعراب الشام ، فإنّ الأمن انتشـر في كل مكان. فاليونيني ، يروي حادثة تشير إلى أهمية الـبريد المملوكـي ودوره فـي إقـرار الأمن :

" دفن يهوديٌ ذهباً بالقرب من قلعة جَعْبَر عندما قصدها التتار ، فهرب إلى حمـاة ، فلمّا نَفَذ ماله كَتَبَ إلى صاحب حماة يذكر أَمْرَ الدفين ، ويسأله أن يُسيّر معه من يحفـره ليأخذه ويدفع لبيت المال نصفه ، فلم يتمكّن من إجابته ، فطالع الظاهر بيبرس ، فورد إليه الجواب أن يوجّهُ لقاء عَرْضه. فلما وصل أخذ بالحفر ومعه ابنه ؛ وإذا بطائفة من البدو على رأسه ، فسألوه عن حاله ، فأخبرهم بالأمر ، فأرادوا قتلـه ؛ فـأخرج لـهم كتـاب السلطان الظاهر بيبرس، فكفّوا عنه ، وساعدوه حتى استخلص ماله ، وتوجّه إلى حمـاة ، ودفع نصف ماله إلى بيت المال " [(٥)].

---

(١) ابن فضل الله العمري ،التعريف، ص : ٢٥٠ . وعن مراكز البريد ، انظر : ابن شاهين الظاهري ، زبدة ، ص : ١١٩ – ١٢١ ؛ والقلقشندي ، صبح الأعشى ، ١٤ / ٤١٢ – ٤٣١ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص : ١١٩ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ٤٨٨ ؛ وابن بطوطة ، رحلته ، ١/ ٧٠ .

(٣) المقريزي ، م.س ، ص : ٤٩٢ .

(٤) ابن عبد الظاهر ، م.س ، ص : ١١٩ .

(٥) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٣/ ٢٥٣ – ٢٥٤ .

وفي عام ٧٥٢ / ١٣٥١ ، توقّفت أحوال البريد بسبب خروج عرب ثعلبة في غزّة عن الطاعة ، ثم تفرّقت في أنحاء البلاد ، وتخلّت عن حفظ البريد ، فتعهّد نائب غزّة بـودّ ثعلبة إلى مكانتها الأولى [١].

وحين عُزل الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون عن السـلطة ، خرجـت عُربان العائد في غزّة ، وقبائل أخرى عن الطاعة ، فاشتدّ عُنفهم ، وكثُر قطعهم للطرق ، وتخلّوا عن حفظ مراكز البريد [٢].

ويؤكّد ابن خلدون دور عرب جنوب بلاد الشام من جُذام والعائد وبني عقبـة وآل مهدي في دَرْكِ السابلةِ وحفظ البريدِ في نواحي البلقاء والكرك حتى أيْلة. وكذلك دور آل فضل في شمالي بلاد الشام ومسؤوليتهم عن أمـن ودَرْك السـابلة وحفـظ الـبريد فـي نواحيها[٣].

وأما صاحب الـدر الفـاخـر ، فيذكر ؛ بأن السلطة المملوكيـة أوكلـت أعراب الشام مهمة تأمين محطّات البريد بالخيل ، فلكلّ محطة (مركـز) عشـرة مـن الخيل. وأنّها أوكلت ثعلبة وجذام والعائد إقامة خمس عشرة منزلة من منـازل الـبريد ، وتأمين كلّ منزلة بعشرة من الخيول [٤]. ثم يذكر ، بأن هؤلاء الأعـراب لـم يقومـوا بالمهمّات المكلفين بها على الوجه الأكمل ، فكانوا يُرْشون الأمـراء الممـاليك المكلّفيـن بالكشف والمراقبة على مراكز البريد بالخيل والجمال والأغنام [٥].

لكن مراكز البريد أهملت في بلاد الشام وتعرّضت للخطر المدّمر بسبب غـزو تيمور لنك الذي خرّب تلك المراكز في سنة ٨٠٣/ ١٤٠٣ ؛ وكان هذا في عهد السـلطان فرج بن برقوق ؛ فأصبح البريد ينقل عن طريق الهجن.

وقد ظلّ البريد وسيلة اتصال طوال عهد المماليك ، ولم يشهد تغييراً يذكر. وظـلّ دور العرب كما حدّده سلاطين المماليك ، يتدخلون في الوقت المناسب ؛ فهذا الأشـرف قايتباي يعزل أمير عرب جَرْم في غزّة عن إمرة العرب " لعجزه عن القيام بالقَوَدِ ، وحفظ البريد " [٦].

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٣ / ٨٤٠ – ٨٤١ .

(٢) م.ن ، ص : ٨٤٣ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ٦/ ٨ .

(٤) ابن أيبك الدواداري ، الدّر الفاخر ، ص : ١١٤ – ١١٥ .

(٥) م.ن ، ص : ١١٧ .

(٦) العليمي الحنبلي ، الأنس الجليل ، ١/ ١٩٨ .

نخلص من هذا ، بأن دمشق أصبحت منذ ٦٥٩ / ١٢٦٠ ، عاصمة ثانية للدولة المملوكية ، ونقطة ارتباط لاتصال المماليك في بلاد الشام ، ومركز أمن ثابت ؛ فهي نقطة انطلاق للطرق البريديّة شمالا حتى حمص وحماة وحلب ومناطق الثغور ؛ وغربا حتى الموانئ الشاميّة ؛ وشرقاً نحو الرّحبة على حدود البادية الشامية ، ولذلك أصدرت السلطة المملوكية الأوامر إلى النواب المماليك في النيابات الشامية للاتصال مع القاهرة عن طريق دمشق ونائبها.

(ب) طـرق التجـارة :-

ارتبطت بلاد الشام مع مصر بروابط اقتصادية متينة ، فلهذه العلاقة جذور تاريخية تعود إلى عهود أبعد بكثير من عهد المماليك.

وأمّا في عهد المماليك فقد ارتبطت دمشق بالقاهرة بطريق دولي امتدّ على خمسة عشر مركزاً رئيسيًّا ، ثمانية منها تقع ضمن حدود بلاد الشام ، والمراكز السبعة الأخرى تقع في الأراضي المصرية. وقد كانت هذه الطرق التجارية تُقطع بمُدَدٍ متباينة ، ففي نقل البريد كانت سريعة جداً ، أمّا في القوافل التجارية فإنها بطيئة.

كما شهدت طرق التجارة بين دمشق وبغداد حركة تجارية نشطة عبر الطريق التجاري الذي يمر بالرحبة. وكذلك شهدت تجارة الشام مع الحجاز نشاطاً ملحوظاً عبر طريق الحاج الشاميّ المعروف.

ولمّا كانت الطرق التجارية تمر في بادية الشام ، فإنّها تقع ضمن نفوذ القبائل العربية التي تعيش فيها. فطريق دمشق – القاهرة يقع ضمن نفوذ القبائل العربية من آل مِرا وبني ثَعْلبة وجَرْم. وطريق دمشق – بغداد فإنه يقع ضمن نفوذ آل مهنا وآل فضل. وطريق دمشق – الحجاز ، فإنه يقع ضمن نفوذ آل مِرا وبني صخر وبني مهدي وآل عقبة وبني لام وغيرهم من القبائل العربية التي تقطن جنوب بلاد الشام.

وقد قام التجار بدورٍ رئيس بتنشيط عملية التجارة بما يملكون من رؤوس أموال وخبرة ، حتى غَدَتْ التجارة مصدرا اقتصادياً هاماً لبلاد الشام في عهد المماليك. فكانت البضائع المتبادلة (المصدّرة والمستَوْرَدة) تحمل بواسطة قوافل تجاريّة تسمى الواحدة منها (قفل) ؛ وتخضع لرسوم جمركية عند مركز (قَطْيا) في مصر ؛ وأما مقدارها فلم يكن ثابتا (١).

ومن هنا ، كان التعاون بين السلطة المملوكية وفئة التجار ضرورياً من ناحية ، وبينها وبين أعراب الشام من ناحية ثانية. لذلك قامت السلطة المملوكيّة بتوجيه آلية

---

(١) أكرم العلبي ، دمشق ، ص : ٢٧٦ .

التجارة الداخلية إلى حد كبير ، فاستوردت القاهرة من دمشق احتياجاتها من الحرير والزيوت والفواكه وحتى الثلج ؛ كما استعانت دمشق بالقاهرة لسدّ احتياجاتها من الحبوب والقطن أحياناً، وإنْ كان مَصدر القمح من خارج مصر. ومن بغداد استوردت دمشق التمور وما يُجلب من الهند عبر الخليج العربي من توابل وبهارات وجلود. كما أقامت دمشق علاقاتٍ تجاريّة مع الحجاز وخاصة في مواسم الحجّ ، فكان الركب الشاميّ يعود مُحَمّلاً بالبضائع والمواد التي تحتاجها دمشق ، لا سيما أن التجار يرافقون ركب الحجاج (١).

ولقد برز دور أعراب الشام الإيجابيّ بالمحافظة على أمن بادية الشام من أجل حماية القوافل التجارية القادمة من القاهرة والحجاز وبغداد إلى دمشق ، ومن دمشق إلى تلك البلدان؛ والتي تمرّ بأراضيهم وذلك مقابل مبالغ مالية تدفع لهم. وقد أجاز (أحمد بن تيمية) لأعراب الشام تحصيل مبلغ من المال من القوافل التجارية المارّة بأراضيهم نظير حمايتهم لتلك القوافل ؛ كما شهد لهم بالتقوى والصلاح (٢).

وقد حرص أعراب الشام على تنفيذ المهّام التي أوكلها المماليك لهم في هذه الميدان. ودلّل هذا الحرص على حسن العَلاقة بينهما من ناحية ، وتوفّر الأمن والاستقرار من ناحية أخرى ، لكنّه في الوقت نفسه يدلل على طاعة أعراب الشام للسلطة المملوكية واعترافَ منهم بالسّيادة لها.

وأما دورُ أعراب الشام السلبيّ ، فقد تمثلَ باندلاع العنف. وقد ظهر بوضوح في حالة انشغال السلطة المملوكية بمواجهة حركاتِ التمرُّدِ والعصيانِ التي أشعلها بعض أمراء المماليك الطامعين بالسلطة لتحقيق مكاسب شخصية لهم. كما ظهر في حالة انشغالها بمواجهة الأخطار الخارجيّة المتمثّلة بمحاولات التتار المتكررة في احتلال بلاد الشام.

ومن هنا يمكن القول بأن انشغال السلطة المملوكية بمشاكلها الداخلية ، وما كان يُهدّدها من أخطار خارجية ، واستخدامها العنف ضدّ أعراب الشام أحيانا ؛ كلّ هذا ساهم في توفير المناخ لأعراب الشام في تأمين احتياجاتهم عن طريق العنف ، فاعترضوا القوافل التجارية ، ونهبوها ، وعرّضوا أفرادها للخطر.

ومن المناسب الوقوف على بعض مظاهر العنف البدوي والذي يصب في الاتجاه السلبيّ ؛ والتدابير والإجراءات المملوكيّة تجاه ذلك العنف. فقد شهد القرنان الثامن

---

(١) إيرا لابيدوس ، مدن الشام ، ص : ٥١ – ٧٥ .

(٢) ابن تيمية ، فقه الجهاد ، ص : ٦٤ .

والتاسع الهجريان / الرابع والخامس عشر الميلاديان جانباً من العنف البدوي ؛ لأنّ الفترة السابقة كانتْ فترة هدوءٍ وتفاهمٍ نسبيٍ بين المماليك وبين أعراب الشام.

ففي سنة ٧٢٠ / ١٣٢٠ ، وصلَ القاهرة من نائب حلب أنّ سليمان وفياضاً ابنَيْ مهنّا بن عيسى قد كَثُر فسادهما ، واعْتَدَيا على التجار والمسافرين وأخافوهم ، مما أدى إلى انقطاع الطرق التجارية في بادية الشام. فاستعدّ نائب حلب وجهز عسكرهُ لقطع دابرهما ؛ وقد تمكّن نائب حلب من ملاحقة الجماعات البدويّة التي شاركتهما في الاعتداء، ومن اعتقال فياض بن مهنا وإرساله إلى القاهرة حيث سُجن (١). كما أقدم أعرابُ الشّمال من بلاد الشام على نَهْبِ عَدَدٍ من قُرى حماة، وإلحاق الأذى بمزروعاتها وتجارتها سنة ٧٢٦ / ١٣٢٥ (٢).

ولمّا كان آل مهنّا مكلّفين بمهمّة حماية الطُّرق التجاريّة في بادية الشام ، فقد حدث ما يُعكِّر صَفْو العلاقات بين المماليك وهؤلاء الأعراب. فقد اتُّهِم عرب آل مهنا باعتراض قافلة تجارية ونَهْبِها بالقرب من الرّحْبة سنة ٧٣٧ / ١٣٣٦ ؛ فلمّا علم (تَنْكِز) * نائب الشام بذلك ، استدعى أمراء آل مهنا ، وحاول إلزامهم بإعادة أموال القافلة لأصحابها ، فاعتذروا عن ذلك ، واتهموا عرب (زبيد الأحلاف) بذلك العمل (٣).

وبعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١ / ١٣٤١ ، أصيبت الدولة المملوكية بنكسةٍ سياسيةٍ لتولّي أمورها سلاطينَ ضِعاف وقعوا تحت رحمةِ أمراءَ مماليك كبار. فانعكستْ خلافات هؤلاء الأمراء على أعراب الشام الذين كانَ لديهم القدرة على إثارة القلاقل وحتّى بثّ الرعب في الديار الشامية أحياناً. ففي سنة ٧٤٢ / ١٣٤١ ، عاد الأميران سليمان وفياض ابنا مهنا إلى اعتراض القوافل التجارية والاعتداء على التجار في بادية الشام. يبدو أن هذه الأعمال كانت ردّة فعل على اعتقال السلطة المملوكية أميرهم (موسى بن مهنا) من قبل السلطان المنصور أبي بكر بن الناصر محمد بن

---

(١) العزاوي ، العراق بين احتلالين ، ١/ ٤٦٥ .

(٢) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ٩٥ .

* تنكز : هو تنكز بن عبد الله الحسامي الناصري ، نائب الشام. جلب إلى القاهرة وهو حدث ، فاشتراه الأشرف خليل، وأخذه لاجين ، ثم صار الناصر محمد بن قلاوون. وقد ولاه الناصر محمد نيابة دمشق سنة ٧١٢هـ ، واستمر فيها ثمانية وعشرين سنة ، ثم غضب منه سنة ٧٤٠هـ ، فصادر أمواله ، ومات في الإسكندرية سنة ٧٤١هـ .

انظر : ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٢/ ٥٥ – ٦٢ ؛ ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٤/ ١٥٦ – ١٦٧ ؛ وابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ٣٨ – ٤١ .

(٣) اليوسفي ، نزهة الناظر ، ص : ٣٣٨ .

قلاوون (حكم أربعة وخمسين يوما)٠ لكنّ أمراء المماليك المتنفّذين سَرْعانَ ما أدركـوا الخطر الناجم عن هذا الموقف ، فأطلقوا سراح الأمير موسى بـن مـهنّا سـنة ٧٤٣ / ١٣٤٢، والذي حَلّفه السلطان على الطّاعة وعدم التعرُّض للقوافل التجاريّة (١).

وقبل أنْ تَهْدأ الأحوال ، اعترض فياض بن مهنا قافلةً تجاريّة في الرحبة ، وكانت قادمةً من بغداد ، واستولى أعرابه على موجوداتها ، حتّى كانَ لأحد التجار مائتـا ألـف دينار (٢).

يبدو أن الخطر على القوافل التجارية قد زاد واتسعتْ دائرته ، حتّى شملت طريق دمشق – بعلبك وطرابلس ؛ كما وصلت أعمال العنف والغارات إلـى القـدس والخليـل ونابلس ، ولمْ تنج الكرك منها٠ فكادت طُرق التجارة أن تنقطع على التجار والمسـافرين لِمَا حدث من سلبٍ ونهبٍ استمرَّ طَوالَ عامين (٧٤٥-٧٤٦ / ١٣٤٥-١٣٤٦) (٣).

ولما زاد عدد أبناء مهنا إلى أكثر من مائة ، عَظُمَ أمرُ آل مهنا ، والتفّت القبـائل حولهم ، زاد أثرهم فتعدّى اعتراض القوافل التجارية في بادية الشام إلى شـنِّ غـاراتٍ مدمّرة على القرى والمدن ، وقَطْعِ الطرق على المسافرين بين النيابات الشامية٠ فأدركت السلطة المملوكية أنّ العنف لا يولّدُ إلاّ العنف ، لذلـك غيّـرتْ مـن إجراءاتهـا نحوهـم ، فبـذل (أرقطاي)* نائب حلب جهده السياسي وتقرّب من أمراء آل مهنا حتّى قَدِمَ عليه عليه فياض ابن مهنا ، فأكرمه وأحسن معاملته ، وتمكّنَ بالتّالي من أخذِ العـهود والمواثيق بعدم التعرُّض لطرقِ التجارة والمسافرين٠ ثم كتب بذلك إلى القاهرة سنة ٧٤٦/ ١٣٤٥ ، فسَرَّ السلطان بذلك ؛ وسادت فترة هدوءٍ قصيرة (٤).

وبعد عامين ، عاد العنف من جديد ، فأقدم عرب آل مهنّا علـى قطـع طـرق التجارة بين حلب وحماة ، فتوقّفَ مرورَ القوافل التجارية هناك (٥).

ثم برز العنفَ من جديد بين الأعراب أنفسهم ، فاقتتل أعراب غـزّة ، والخليـل والقدس ونابلس سنة ٧٥٠/ ١٣٤٩ ٠ وكان أشدّ مظاهره بين عرب جَرْم وثعلبة في غزّة، فانعكس هذا الاقتتال على تعطيل طرق التجارة بين القاهرة ودمشق٠

---

(١) المقريزي ، السلوك ، حـ٢ ق٣ / ٥٩٣ ، ٦٢٧ ، ٦٢٩ ٠

(٢) م٠ن ، ص : ٦٣١ ٠

(٣) م.ن ، ص: ٧٩٨ – ٧٩٩ ٠

* هو أرقطاي بن عبد الله القفحقي ، كان من مماليك الأشرف خليل ، ثم أنشأه الناصر محمد ، وولاه نيابة صفـد ، ثم طرابلس ، ثم ولي حلب سنة ٧٤٦ و ٧٤٨هـ ، ومـات سـنة ٧٥٠هـ٠

(ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ١/ ٣٧٦ ؛ ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٢/ ٣٢)٠

(٤) المقريزي ، السلوك، ح٢ ق٣/ ٧٩٢ ٠

(٥) ابن الوردي ، تاريخه ، ٢/ ١٤٩ ٠

وفي جنوب بلاد الشـــام ، اعترضَ أعراب البلقاء والكرك قوافل تجاريـــة قادمـــة من الحجاز إلى دمشق سنة ٧٥٠/ ١٣٤٩ ، كما شنّوا غاراتٍ علـــى أطـــراف القـــرى والمدن (١).

ولمّا ازداد العنف ، تعثّر سير القوافل التجارية في بادية الشام ، فأوكلت الســـلطة المملوكية مهمة المحافظة على تلك الطرق إلى العرب أنفسهم. فكان هذا بمثابـــة تدبـــير جديد في هذه الفترة. فأوعزت السلطة المملوكية للأمير " سيف بن فضل " للقيـــام بـــهذه المهمّة الصعبة ؛ لكنّه عجز عن منع أبناء عمومته آل مهنا ســـنة ٧٥٥/ ١٣٥٤ ، مـــن اعتراض القوافل التجارية ونشر الأمن (٢). كما ظلَّ فيّاض بن مهنّا خارجـــا عن الطاعة ويهـــدِّدُ طرقَ التجارة في بادية الشام حتى تُوفّي بأرض العراق سنة ٧٦١/ ١٣٦٠(٣).

ولم تتغير صورة العنف ، فقد سار حيّار بن مهنّا على نهج أخيه فـــي الســـلميّة ، وظلّ يهدّد الطرق هناك ، حتّى حضر بنفسه إلى دمشق معلناً ولاء الطّاعة ســـنة ٧٦٧/ ١٣٦٥ (٤).

وفي سنة ٧٧٠/ ١٣٨٦ ، كَثُرَ عنفُ عرب بني كلاب ، فقطعوا الطرق بين حلـــب وحماة ، فخرج إليهم (قشتمر)* نائب حلب بالعسكر حتى أُتوا تلّ السلطان بظاهر حلب ، فإذا عدة من مضارب (آل فضل) ، فاستاق العسكر جمالهم وأغنامهم ، ومـــالوا علـــى بيوتهم فنهبوها ، فثارت ثائرة الأعراب وقاتلوهم ، واستنجدوا بآل مهنّا ، فأتـــاهم الأمـــير حيّار بن مهنا وولده نُعير بجمعٍ كبيرٍ من الأعراب ، فوقعت موقعة شرسة انتهت بمقتـــل نائب حلب قشتمر وولده ، وعدد من عساكر حلب ، ولاذ الباقون بالفرار (٥).

وفي عهد السلطان الظاهر برقوق سنة ٧٩٥/ ١٣٩٣ ، ظهر خطر أعراب الشـــام من جديد ، وذلك حين تعرّضت إحدى القوافل التجارية للنهب على يد جماعة من أعـــراب الكرك، فاشتكى تجّارها إلى نائب الكرك (يوسف القشتمري) فخرج إليـــهم بعســـاكره ،

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٢ ق٣ / ٧٦٨ - ٧٩٩ .

(٢) م.ن ،ص: ٨٩٦ .

(٣) ابن كثـــير ، البدايـــة والنهايـــة ، ١٤/ ٣٠٥ .

– يصف ابن كثير وفاته " بأنه مات ميتة جاهلية ، فقد ظلم الناس ، وأفطر في شهر رمضان ، بلا عـــذر ، وأمر أصحابه وذويه بذلك. (م.ن ، ١٤/ ٣٠٩).

(٤) م.ن ، ١٤/ ٣٤٣ - ٣٦٥ .

* هو قشـــتمر المنصوري ، من بقايا مماليك الناصر محمد بن قلاوون ، تنقل بالخدمة إلى أن ولي نيابة السلطنة بعـــد مقتل حسن بن الناصر محمد ، ثم نيابة دمشق فصفـــد ثم طرابلـــس ثم حلـــب.

(ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ٣ / ٣٣٣ – ٣٣٤).

(٥) المقريزي ،السلوك ، جـ٣ ق١ / ١٧٥ .

وجَمَعَ شيوخَ العرب ، ولاطفهم وأكرمهم ، وحبَّبَ إليهم إعادة ما سلبوه من القافلة ، ثــم حَلّفَهُم على عدم الاعتداء على القوافل التجارية ؛ لكنّه غَدَرَ بــهم ؛ فقيّـد عـدداً منـهم بالسلاسل الحديدية ، فهاجت العربان وثارت ثائرتهم ، وهاجموا نائب الكرك وقتلوه (١).

وأمّا في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، فقد أصبحت المعلومات ذات العلاقة بالطرق التجارية في بلاد الشام نادرة في المصـادر المملوكيـة ، فيكتفـي المقريزي بالإشارة إلى كَثرة عبثِ العربان والعشير في بلاد الشام ، حتى أصبحت طـرق التجارة مهدّدة بشكل ملحوظ (٢).

ويطالعنا ابن قاضي شهبة بحادثة في شعبان ٨٠٠/ ١٣٩٨ ، وذلك حينما اعترض نُعير بن حيّار قافلة تجارية قادمةً من بغداد إلى دمشق ، واستولى على بضاعة التجـار . فشكَوا إلى نائب دمشق ، فأرسل النائبُ معهم قاصد إلى الظاهر برقوق. ثم حضر حاجب نُعير إلى القاهرة ليبرّرَ ما حدث للقافلة ، وأوضح أن نعيرًا أراد تحصيل الرسوم المعتـادة من التجار لكنّهم هربوا إلى الأمير فضل بن عيسى (٣).

وفي الوقت نفسه ، أرسل نائب دمشق إلى نُعير طالبا منه المحافظة على البضاعة وعدم اعتراض التجار ، فوافق نعير على إعادة نصف البضاعة لهم. وأما النصف الثاني من البضاعة فقد اشتراه التجار من الأمير نعير بثمن قليل. وأرسل نُعـير إلـى النـائب يستحثّه على الوساطة مع برقوق واستعطافه ، فوافق برقوق على ذلك (٤).

وفي السنوات الأخيرة من القـرن التاسـع الـهجري ٨٧٠ – ٨٨٠ / ١٤٦٠ – ١٤٧٠، شهدت بلاد الشام ثورات عنيفة للبدو في حوران ، والمناطق الواقعة حول حلـب وطرابلس والكرك. كما دمّروا في العقود اللاحقة منطقة حماة وأجزاء مـن فلسـطين ، وأصبحت منطقة الرملة خرابا. كما تحوّلت نابلس إلى مسرح للقتال بين المماليك والقبائل البدوية ، وتحوّل الوضعُ إلى السّوء والتأزّم (٥).

يبدو أن تلك الثورات قادت إلى تدهور طرق التجارة بين الشام ومصر في الفترة المذكورة ، فتحرّكت الدولة المملوكية إلى تأمين سلامة الطريق من القاهرة إلى غـزّة ، وإن ظلّت طريق غزّة – دمشق آمنة نسبياً. وفي الفـترة نفسـها ، أصبحـت المنـاطق المحيطة بدمشق والقريبة منها ، مسرحا للصراع بين القبائل البدوية والقـرى الشـامية ،

---

(١) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٤٥٥ ؛ ابن الفرات ، تاريخه ، ٩/ ٣٤٩ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ق٢ / ٨٢٨ .

(٣) ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ١/ ٦٥٧ .

(٤) م.ن ، ص : ٦٦٠ .

(٥) إيرا لابيدوس ، مدن الشام ، ص : ٨١ .

فتعرّضت الغوطة وحوران والبقاع إلى غارات البدو المدمّرة ، فانخفض عدد القرى من مائتي قرية إلى اثنتين وأربعين قرية ، حتى أن البدو حرقوا ما يقارب مائتي قرية دفعة واحدة !! [١].

ولم تنج طريق دمشق – بغداد من خطر الأعراب ، ففي سنة ٨٨٥/ ١٤٨٠ ، اعترض بنو خالد قافلة عراقية مُتّجِهَةً إلى دمشق ، ونهبوا نحو ثلاثة آلاف جمل ، وكان ذلك في بريّة " الضمير " شرقي دمشق [٢]. وهذا يعني غياب نيابة دمشق وانشغالها بالمؤامرات الداخلية.

وأما في السنوات الأخيرة من العهد المملوكي (٩٠٠ – ٩١٧ / ١٤٩٤ – ١٥١٣)، فقد أصيبت طرق التجارة بين مصر والشام بالشلل ، وكذلك طرق التجارة المارة في شمالي بادية الشام ، حتى أصبح نادراً أن يمر عام لا تتعرض فيه القوافل التجارية إلى عبث الأعراب واعتراضهم تلك القوافل.

يبدو أن أعراب الشام استغلوا الفوضى السياسية في السنوات الأخيرة من عهد المماليك ، فأقدم عرب المفارجة وبنولام على قطع الطرق التجارية سنة ٩٠٦/ ١٥٠١ ، وأغاروا على أطراف القرى والمدن حتى كادت الحياة أن تتوقف. فما كان من السلطة المملوكية إلاّ أن أعلنت التعبئة العامة إلى درجة إعلان الجهاد في سبيل الله ضد هؤلاء الأعراب ، " فأمر جان بلاط * نائب الغيبة بإشهار المناداة لأمراء وأجناد دمشق بأن يتأهبوا للجهاد !! ..." [٣].

ولم يمر عام واحد حتى تجدد خطر الأعراب ، ففي سنة ٩٠٧/ ١٥٠٢ ، شنت جماعات بدوية غارات على أطراف دمشق ، وخرّبت قرىً كثيرة ، فتحرك نائب دمشق ولاحقهم حتى أرض الصنمين [٤] جنوبي دمشق.

وهناك في صفد ، تحركت قبائل بدوية وهاجمت أطرافها ونهبت القرى المحيطة بها. فخرج نائب الغيبة بدمشق ، واشترك معه ناصر الدين بن الحنش من بعلبك ، فكبسا

---

(١) إيرا لابيدوس ،مدن الشام،ص:٨١ .

(٢) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ١٨ .

* انظر : ترجمته ، ص (١١٨) من هذه الأطروحة .

(٣) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ١٥٥ .

(٤) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٢٤٥ .

ديار الأعراب ، وقتلا وأسرا الأطفال والنساء ، ونهبا الممتلكات [1]. كل هذا لمنع الأعراب من العبث بأمن الطرق التجارية.

وأمامَ ازدياد خطر الأعراب على طرق التجارة ، اتّخذت السلطة المملوكية في القاهرة تدابير عسكريّة لمهاجمة ديار البدو في بلاد الشام. ففي سنة ٩١٣/ ١٥٠٨ ، توجّه الأمير " أزدمر " * الدّوادار الكبير بتجريدة عسكريّة إلى الكرك ثم نابلس وقاتل العربان هناك ، فأسر عشرة من كبارهم ، مما دفع السلطة المملوكية إلى الاحتفال بهذا النصر [2].

ولم يتوقف خطر الأعراب على الطرق التجارية ، ففي العام التالي ٩١٤/ ١٥٠٨، اعترض أعراب حوران ، وأعراب الكرك قوافل تجارية ، مما دفع " سيباي " ** نائب الشام بالخروج بتجريدة كبيرة ، وبالرغم من حجمها الكبير ، لم يتمكن من قطع دابر هؤلاء الأعراب [3].

وبعد عامين ٩١٦/ ١٥١٠ ، ظهر خطر آل فضل من جديد في شمالي بلاد الشام ، واعترضوا القوافل التجارية ، فما كان من نائب الشام سيباي إلا أن خرج من دمشق لمساعدة نائب حمص ، فأغارا على ديار آل فضل بالقرب من سلميّة وتَدْمُر ، ونهبا جمالاً وأغناماً كثيرة ، وقتلا عدداً من شيوخهم ، وسَبَوْا النساء والأطفال ، فدُقَّت البشائر في دمشق والقاهرة !! [4].

وفي العام نفسه خرج الدوادار الكبير من دمشق بتجريدة عسكرية إلى حوران لتأديب عرب (زبيد) لأنّهم اعترضوا قافلةً تجارية ، ففاجأهم وقتل جماعة كبيرة منهم ، وسَبَى نساءهم وأطفالهم ، ونَهَبَ ديارهم [5]. يبدو أنّ عنصر المفاجئة ساهم في إنجاح مهمة هذا الدوادار.

---

(١) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٢٤٥ .

* هو أزدمر الناصري ، تنقل بالخدمة حتى صار دوادار ، وتوفي سنة ٩١٣ هـ .

(ابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ٢٠٥).

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٤/ ١١٧ .

** تنقّل سيباي بالخدمة ، حتى صار باش مماليك ، ثم تولى نيابة حماة ، ثم حلب ، ثم أصبح نائب دمشق ، ثم أمير سلاح بمصر ، ثم أمير الأمراء بدمشق .

(انظر : ابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ١٢٥ ، ١٩٢ ، ٣١٨).

(٣) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٣٢٩ – ٣٣٠ .

(٤) م.ن ، ١/ ٣٣٩ – ٣٤٠ .

(٥) م.ن ، ١/ ٣٤٤ .

وبعد استعراض هذه الأحداث ، نكون قد وقفنا على جـــانب مـــن الـــدور الســـلبي للأعراب اتجاه طرق التجارة. ويتبين أن السلطة المملوكية اتخذت تدابير وإجراءات عـدة لحماية الطرق الداخلية ، ومنها :

أولاً: تكليف المماليك لأعراب الشام بمهمّة حماية الطرق التجاريّة عبر بادية الشـــام مقابل مكافآتٍ مالية تُدفع من خزينة الدولة المملوكية. كما أنّها تغاضت أحيانـــاً عن بعض الإتاوات التي فرضها الأعراب على التجار ومرور القوافل التجارية من بلادهم.

ثانياً: عمدت السلطة المملوكية إلى إرسالِ تجاريدَ عسكرية ، فكانت بمثابة حمـــلات تأديبية لإبعاد خطر أعراب الشام عن طرق التجارة ، وحتّى تُثَبِّـتِ الســـلطة المملوكية سيادتها ووجودها أمام هؤلاء الأعراب. لكنّ هذه التجاريد لم تتمكن من إنهاء خطر البدو بصورة تامة.

ثالثاً: اتجهت السلطة المملوكية إلى زيادة الضرائب اللّاشرعية على الأعراب ؛ كما فرضت (الشراء القسري) على الناس ، حتى أصبـــح هـــذا الإجـــراء أداة استخدمها أمراء المماليك ونوّاب الشام لدعم ثرواتـــهم الخاصـــة ، ممـــا زاد الأمور تعقيداً.

رابعاً: حاولت السلطة المملوكية التقرُّبَ من أمراء العرب لكنّها كانت تُعـــدُّ خطـــط الغدر بهؤلاء الأمراء ، مما ساهم بالتالي بتوليد العنف والغضب عند الأعراب كرد فعل طبيعي.

(جـ) طـــــــرق الحـــــــج :

أولاً : طـــرق الحجّـــاج المســـلمين إلـــى مكّـــة والمدينـــة :-

كما اهتمـت دولــة المماليــك بتنظيــم شــؤون البريــد ، والمحافظـــة علـــى طـــرق التجارة البرّية؛ كذلك نالت طرق الحـــجّ اهتماماً لا يقلّ عـــن الاهتمـــام بـــالبريد والتجارة.

ولمّا كانت بلاد الشـــام تحتـــلّ موقعاً جُغرافياً مميزاً ، فإنّ دروب الحجيج أكسبها أهمية زائدة. فأصبحت دمشق ملتقى قوافل الحجاج من العرب والفـرس والأتـــراك ؛ وبذلك نالــت شــهرة لا تقــل عن القاهـــرة التي كانت مركـــزاً لقوافـــل الحجـــاج القادمـــة من أفريقيا.

ومن أشهر طرق الحج التي كانت تمرّ فيها قوافل الحجاج المسلمين ؛ طريق الحاج الشامي ، وطريق الحاج المصري – الشامي ، وطريق الحاج العراقي – الشامي. فمـــن

هنا ، أظهرت دولة المماليك اهتماماً ملموساً بتنظيم دور القبائل العربية الشامية للمحافظة على دروب الحُجّاج المسلمين.

وللوقوف على دور أعراب الشام الإيجابيّ والسلبي اتجاه دروب الحج ؛ سنلقي الضوء على الأمور المتعلقة بشؤون الحج في عهد المماليك من إعداد لقافلة الحجاج ، ودروب الحج ، وعودة قافلة الحجاج ، وبالتّالي الإجراءات التي اتخذتها السلطة المملوكية إزاء تصرفات أعراب الشام.

- **إعداد قافلة الحاج الشامي :**

خضعت قافلة الحاج الشامي في عهد المماليك إلى تقاليد تكاد أن تكون ثابتة. فكان أوّلُ عملٍ من أعمال إعداد القافلة يتمُّ بوضع السُّنجق (العلم) السلطاني على الباب الأوسط من أبواب الجامع الأموي بدمشق تحت قبة النسر اعتبارا من شهر جمادى الآخرة ، إيذانا للناس بالاستعداد لأمر الحجّ ، وبأنّ قافلة الحجاج ستنطلق في هذا العام ، وأنّ الطريق آمن [(١)].

فكان وضع العلمُ السلطاني يتمُّ باحتفال كبير ترافقه النقارات والمُشعلون. ويتكوّن العلم السلطاني من حرير أصفر مزركش ، وهلاله من ذهب [(٢)].

وبعد وضع العلم السلطاني ، يبدأ دوران المَحْمِلُ *. والمَحْمِلُ ، عبارة عن صندوق خشبي مربّع يعلوه هرم ؛ وفيه الهدايا المعدة للكعبة المشرفة ؛ وهو مزين بالحلي والنفائس ، ويحمله جمل قوي مزيّنٌ بمختلف الحليّ ومغطى بقماش فاخر ، ويُحْمَلُ معه مصحف شريف مغطى بالحرير [(٣)].

وبعد أن انتظمت مسيرة درب الحاج الشامي بين دمشق ومكّة المكرمة ، كان يُرسل إلى الحرمين الشريفين مَحْمِلٌ في معظم السنوات عرف بالمَحْمِل الشامي. وقد أشار إليه عدد من المؤرخين. فهذا ابن بطوطة في حجه سنة ٧٢٧/ ١٣٢٦ ، يذكر : " ولمّا استهل شهر شوال ، خرج الركب الشامي إلى خارج دمشق ، وكان أمير الركب سيف الدين الجوباني ، من كبار الأمراء المماليك " [(٤)].

---

(١) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٣٤٠ .

(٢) م.ن ، ص.ن .

* المَحْمِلُ: الهودج ، وما على البعير مَحْمِلٌ . والمِحْمَلُ: الذي يركب عليه وهو الجمل .
(انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : حمل).

(٣) ابن منظور ، م.ن ، مادة: حَمَل.

(٤) ابن بطوطة ، رحلته ، ١/ ١٢٨ .

وتعود فكرة إرسال المَحْمِل في عهد المماليك إلى الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤/ ١٢٦٥؛ " وجُهّز المَحْمِل وخُلع على المتوجه إلى الحجاز .... وسُيّر معه مبلغ عشرة آلاف درهم لعمارة حرم رسول الله الكريم " [١].

وجَرَتْ عادة المماليك في القاهرة أن يحتفلوا سنوياً بدوران المَحْمِل مرتين ، الأولى في النصف الثاني من رجب ، والثانية في شوال ؛ فينادى بالناس قبل موعده بثلاثة أيام بأنْ يزيّنوا حوانيتهم ودورهم ، ويأتي أهل الريف مِنْ كُلّ مكان حتّى النساء لمشاهدته. ويُعدّ يوم المحمل يوماً مشهوداً ، إذ يبدأ الموكب بتجمّع رجال الدولة في باب القلعة يتقدّمهم الوزير والقضاة الأربعة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة ؛ فيخرج إليهم المَحْمِلُ على جملٍ وأمامه الأمير المعيّن لركب الحجاج ومعه عسكره والسقّاؤون ؛ ثم يطوفون بالمَحْمِل في اتجاهات وأماكن معيّنة [٢].

يبدو أن الغاية من دوران المَحْمِل هو تأكيدُ سيادة الدولة المملوكية ، وإضفاء سمة الحماية الدينية للأراضي المقدسة ، وهذا بدوره يُضفي عليها شرفاً عظيماً. كما يشير إلى أمن الطريق في ذلك العام ، وتهيئة النفوس وتحريك بواعث الناس للانضمام إلى قافلة الحجاج.

وعلى الرُّغْم من التزام معظم الناس بنظام دوران المَحْمِل ، فإن فئة من المماليك الجُلبان كانت تخرج عن المقصد الشريف في يوم المَحْمِل وخاصة في عهد السلاطين المماليك الضّعاف. فصار النّاس يتمنون ويترقّبون فراغ المَحْمِل ليستريحوا من الأفعال القبيحة من خطفٍ للنساء والأطفال ، فأمر السلطان خشقدم سنة ٨٧١/ ١٤٦٦ ، بإبطال الدوران بالمَحْمِل لِيريح الناس من ظُلم المماليك الجلبان [٣] (الذين جلبوا حديثاً).

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ٥٤٤ .

- بينما يذكر السيوطي زمناً آخر : " وفي أيام الظاهر بيبرس طيف بالمحمل سنة ٦٧٥هـ ، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية " . انظر : (حسن المحاضرة ، ٢/ ٩٦).
- ويذكر الجزيري : " أن أول من كسا الكعبة من المماليك ، هو الظاهر بيبرس ، سنة ٦٦١هـ " . انظر : (درر الفرائد ، ١/ ٤١٢).
- كانت كسوة الكعبة في عهد المماليك تنسج بالقاهرة بمشهد الحسين من الحرير الأسود المطرّز بكتابة بيضاء ، ثم استقرت صفراء مشجّرة بالذهب في عهد الظاهر برقوق . (الجزيري ، م.ن ، ص.ن).

(٢)ابن بطوطة ، رحلته ، ٢/ ٦٢ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ٥٩ .

(٣) نظير سعداوي ، صور ومظالم من عهد المماليك ، ص : ٧٩ – ٨٣ .

ولمّا كان المَحْمِل مقتصراً على القاهرة ودمشق ، فإنّنا نسمع أحيانا عــن خــروج المحمل العراقيّ واليمنيّ والحلبيّ ومن القدس الشريف [١].

وعودة إلى المَحْمِل الشامي ؛ فبعد نصب العلم السلطاني ، يخرج المَحْمِل مـن دار السعادة – مقر الحكومة – فيدور حول سور دمشق ومعه جمال وقد زينت بفاخر الثياب. ويتقدّمه رجالٌ لهم لباسٌ خاص. ثم يعود المَحْمِل من حيث انطلق ، ويكون عــادة فــي شهري رجب وشوّال كما يحدث في القاهرة [٢].

ولمّا كان الأصل في الحجّ أن يُوَلّى له أمير فقد عرف بأمير الحجّ *. وقــد جرت عادة سلاطين المماليك حين يحتفلون بليلة المولد النبوي الشريف من كلّ عام (في الثـاني عشر من ربيع الأول) ، بأنْ يجتمع كبار أمراء المماليك والقضاة والقرّاء ، فتكون إشارة لطيفة ، وهو أنه إذا دار المشروب ، يبدأ الساقي بالسلطان ، فيشرب منه ما تيسر ، ثُــمّ يشير إليه بإعطاء باقي المشروب إلى من عيّنه أميرا للحجّ في تلك السنة. فعند وصولــه إليه يفهم الإشارة ، فيقوم على قدميه مسرعًا لتقبيل يد السلطان ، ويسارع الأمراء بتهنئتــه في هذا المنصب الجليل. ثم يبدأ ذلك الأمير بالاستعداد [٣].

وأمّا أمير الركب الشامي ، فيصدر مرسومٌ سلطانيٌ شــريفٌ بتسـميته. وعنـد وصــول ذلك إلى دار السعادة يجري الاحتفال بهذا التعيين ، إذْ يتمّ إلباس الأمير خلعــة إمرة الحجّ من قبل نائب دمشق [٤].

ويتبيّن من المراسيم السلطانية المملوكية أن هذه الوظيفة قد ارتبطــت بــالأمراء المماليك طوال العهد المملوكي ؛ ولم يعين أحد من أبناء مصر أو الشــام. لذلــك كــان يتسابق أمراء المماليك في الحصول على هذه الوظيفة الجليلة لما تُدرُّ عليهم من أمــوال. فقد خَصَّصَ الديوان السلطانيّ لأمير الحج أحد عشر ألف دينار ، ومن الجمــال مئتيــن ، ومن الغلال ثلاثة آلاف إردب من القمح والفول ، ومن التشاريف سبعة [٥]. هذا بالإضافة

---

(١) الجزيري ، درر الفرائد ، ١/ ٤١٢ .

(٢) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٢٧٣ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ؛ ٢/ ٨٦ .

* إمرة الحج : ولاية سياسية وزعامة وتدبير ، وهي من الرتب الدينية الجليلة. وأول من تولاهــا في الإســلام هــو الرسول الكريم حين حج بالناس في الســنة العاشــرة للــهجرة.

(الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص : ١٣٧).

(٣) الجزيري ، م.س ، ١/ ٢٧٨ .

(٤) أكرم العلبي ، دمشق ، ص : ١٤٩ .

(٥) الجزيري ، م.س ، ١/ ٢٦٧ .

إلى ما كان يجمع من السكان من أجل القافلة عن طريق " الرَّمِيَّات " *. فنسمع في نهاية عهد المماليك سنة ٩٢٠/ ١٥١٤ ، أن أمير الركب الشامي سُجِنَ في القلعة بعد عودته لأنّ الحجاج شَكَوْا عليه من " أنه دفن جماعة من الحجاج أحياء وأخذ أموالهم " (١) !!

وأمّا عن عدد الحجّاج الشاميين في كلّ عام فلم يكن محدّدا ، بل متذبذبا حسب تَوفُّر الأمن أو عدمه في طريق الحاج الشامي. فذكر (ابن المِبْرَد) ، أنّ عددَ أفراد قافلة الحجّاج كان حوالي ستة عشر ألف حاج عام ٨٩٨/ ١٤٩٣ (٢) ؛ كما ذكر (فارتيما) في وصفه لقافلة الحجاج الشاميين والتي اشترك فيها سنة ٩٠٩/ ١٥٠٣ ، بأنها كانت تضم نحو أربعين ألف حاج ، وخمسة وثلاثين ألف جمل (٣).

وبعد أنْ تكتمل الاستعدادات ، تخرج قافلة الحجاج من دمشق بقيادة أميرها في يوم مشهود ، ويرافقها قاضي الركب ، وحرس القافلة ، ويتقدّم الجميع مَحْمِلُ الحاج والمصحف الشريف والعلم السلطاني (٤).

وعادة ما تضمّ قافلة الحاج الشامي حُجّاج دمشق وما حولها ، فضلا عن الحجاج الذين يحضرون من خارج بلاد الشام (الغرباء). وأما حجّاج المدن الشامية الأخرى – حلب وحماة وطرابلس وصيدا والقدس فلكلٍّ منها قافلة وأمير حاج أحيانا.

• مهام أمير الحجّ :

إنّ مهمّة أمير الحاجّ مهمة خطيرة لِمَا في طريق الحجّ من مشقة وما يعترِضُ رَكْبُ الحُجّاج من مخاطر ؛ لذلك يقع على عاتقه عشر مهام ، هي :

- جمع الناس في مسيرهم ونزولهم ، فيلزمه معرفة تامة بدروب الحج ، وعليه اليقظة التامة وخاصة من اعتراض الأعراب لركب الحُجّاج.
- ترتيب الحجاج بالمسير والنزول ، وإعطاء كل طائفة منهم مكاناً معروفاً.
- الرّفق بالحجاج.
- أن يسلك بالحجاج أوضح الطرق لتجنب المخاطر.

---

* الرّميّات : جباية الأموال من الناس ، فكان يُفرض على كل حارة مبلغ معين يقوم عُرفاؤها بجمعه ، حتى أن الناس دعوا على الحجاج بعدم العودة لكثرة ما وقع عليهم من الظلم .
(ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٢٤٥ ، ٢٨٩).

(١) م.ن ، ٢/ ٤ .

(٢) ابن المبرد ، ذم الهوى ، مخطوط ، ورقة : ٢٤١ .

(٣) فارتيما ، رحلته ، ص : ٣٦ .

(٤) ابن طولون ، م.س ، ١/ ١٢٩ .

- الإشراف على ورود الماء والمراعي.
- تأمين حراسة الحجاج في نزولهم ورحيلهم.
- مقاتلة من يعترض ركب الحجاج إذا اقتضى الأمر ، ولكن من الأفضل حل مثل هذا الاشكال بالمال.
- الاستماع إلى شكوى الحجاج ، وحلّ منازعاتهم بإحالتهم إلى قاضي المحمل.
- تأديب خائنهم ، ولا يُقتل إلاّ ما أجازه الشرع.
- مراعاة وقت السفر والخروج ، فكان محدّدا الثالث عشر من شوال ، والدقة في العودة في العشرين من مُحَرّم [١].

ولمّا كان من حقّ الحجّاج الشكوى من أمير الحاج عند عودتهم ، فهم يرفعون الرايات السوداء تعبيرا عن سخطهم على تصرفات هذا الأمير [٢]. وهذا يعني أنّ من يتولّى أمير الحج ، يُشترط به حسن الأخلاق والحكمة والشجاعة ، وأن تكون أفعاله مقبولة.

- **المناصب الملحقة بإمرة الحج :**

كان يتبع أمير الحج العديد من المناصب التي يتولاها موظفون يناط بكلٍّ منهم عمل محدّد ؛ فمن أهم هذه المناصب ما يأتي :-

١- **الدّواداريّة** : ويتولاها الدّوادار ، ومهمته تبليغ الرسائل السلطانية وإبلاغ عامة الأمور ، وما يلزم لأخذ العلامة السلطانية على المراسيم والتواقيع. وهو بمثابة نائب أمير الحج. كما أنه يقوم بدور ضابط الأمن في الطريق وأثناء نزول الحجاج بالمراكز نهارا وليلا [٣].

٢- **قضاء المَحْمِل** : كان يتولّاها أيام المماليك قاضٍ من قضاة المذاهب الأربعة ، يُعيِّنه قاضي قضاة ذلك المذهب. ومهمّته شرعيّة تتمثّل بإحقاق الحق بين الحجاج. وهناك شهود المحمل وعادة يكونان اثنين من أهل العدل ويختارهما قاضي المحمل[٤].

---

(١) انظر : الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ١٣٧ – ١٣٨ ؛ والجزيري ، درر الفرائد ، ١/ ٢١٧ – ٢٦١ .

(٢) م.ن ، ص : ٢٦٠ .

(٣) م.ن ، ص:٢٧٥ .

(٤) م.ن ،ص: ٢٨١ – ٢٨٥ .

٣- **ديوان إمرة الحج** : وهو تابع لديوان السلطنة الشريفة ؛ ومهمته تدوين المصروفات الصادرة منذ فترة الاستعداد [١].

٤- **أمير آخور (أمير الإصطبل)** : ووظيفته نظر الخيل من حيث عليقها وسقيها. وهناك أمير آخور الجمال ، ومهمته تتعلق بما تحتاجه الإبل [٢].

٥- **الاستادار (شاد المطبخ)** : ويشرف على أمور الطعام الخاصة بركب الحجاج [٣].

وهناك الميقاتي الذي يشرف على تحديد مواعيد الصلاة واتجاه القبلة ؛ والمؤذن الذي يعلن إقامة الصلاة ؛ كما يرافق الركب طبيب المحمل (الجرائحي) ؛ كما يرافقه مبشر الحج.

كل هذه الوظائف تهدف إلى توزيع المسؤولية وتحديدها ، وضبط مسيرة ركب الحجاج بذهابه وإيابه.

- **وسيلة سفر الحُجّاج :**

كانت الإبل الوسيلة الرئيسية والمناسبة لسفر الحجاج عبر العصور المختلفة لما للإبل من مقدرة على تحمل مشاق السفر وقطع المسافات الطويلة. لذلك أعد الجمل في عهد المماليك ليكون وسيلة مأمونة ومريحة عبر دروب الحجاج. فكانت تحمل :

أ - **المحفّة** : وهي مركبة تتألف من كرسيين من الخشب يجلس فيها راكبان.

ب- **السحليّة** : سرير يشد على ظهر الجمل.

جـ-**الشَّقْدَف** : عبارة عن سريرين من الخشب ، قاعدتهما من الحبال وفوقها مظلة [٤].

وأما عدد الجمال المستخدمة في قافلة الحجاج ، فيعود إلى عدد الحجاج المشاركين فيها ؛ وكانت تصل إلى أربعين ألف جمل. لكن عدد الجمال المعدة للمحمل الشريف وما يتبعه ، إلى ثلاثين جملا. واحد لحمل المحمل الشريف ، وأربعة لحمل الكسوة ؛ وللسقايين ستة جمال ، وللقاضي والشاهدين جملان ، ولشاد المحمل جمل ،

---

(١) الجزيري ،درر الفرائد ، ١/ ٢٨٦ .

(٢) م.ن ، ١/ ٣٠٠ -٣٠١ .

(٣) م.ن ، ص.ن .

(٤) سيد بكر ، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص: ٩٢ - ٩٣ ، محمد دهمان ، المعجم ، ص١: ٩٩.

وللحكيم والمزيّن جمل ، وللمنقرين وجماعة الكوسات ستة جمال ، وللضوئيّة والمشـاعليّة والدليل أربعة جمال ، وما تبقى لحمل الفراش وبقية الأمتعة [١].

• طـــرق الحـــاج الشـــامي :

مَرَّ طريق الحاج الشامي بمراحل متعددة خلال العصور الإسلامية ، فقد ســارت مواكب الحجاج في العصر الأموي بانتظام من دمشق إلى المدينة ومكـة ، ولـم يعكّـر صفوها سوى الثورات المحلية أو هجمات الأعراب.

وفي العصر العباسي ، اعتنى العباسيون بطريق الحاج العراقي (طريق زبيدة) ، إلاّ أن طريق الحاج الشامي استمر كرافد هام لمرور الحجاج لا سيّما في فـترة ضعـف الخلفاء ، وتسلّط القرامطة ومحاولاتهم قطع طرق الحجاج [٢].

كما تعرّضت طرق الحجّ إلى الخطر في زمن الحروب الصليبية ، وغزو التتـار إلى العراق والشام. وبعد التخلص من هذه الأخطار ؛ أصبح لطريق الحاج الشامي فـي عهد المماليك رافدان ، الأول : داخليّ من دمشق إلى المدينة ومكة ، وقد وصفه عدد مـن الرحالة والمؤرخين الذين اشتركوا في مواكب الحجاج.

فهذا ابن بطوطة يصف منازل طرق الحج الشامي التي مَـرّ فيـها سـنة ٧٢٧/ ١٣٢٧، في عهد الناصر محمد بن قلاوون ؛ فيذكر ، أن القافلة خرجت من دمشق إلـى الكسوة ، ويقول : " ارتحلنا من الكسوة إلى قرية الصنمين ، ثم إلى بلدة زرع (أزرع) ، من بلاد حوران ، ثم ارتحلنا إلى بُصرى وأقمنا فيها أربعة أيام ليلحق من تَخَلَّفَ بدمشق. ثم وصلنا إلى زيزة (زيزاء جنوبي عمّان) ، ثم إلى اللّجون حتى وصلنا الكرك.... ثم ارتحلنا إلى معان ، وهي آخر البلاد الشامية.... " [٣]. ثم ينتقل إلى وصف الطريق في أرض الحجاز حتى المدينة ومكّة.

وأما (فارتيما) الرحّالة الإيطالي الذي وصل دمشق واشترك في موكب الحـاج الشامي سنة ٩٠٩/ ١٥٠٣ ، فإنه يصف طريقًا آخرَ موازٍ للطّريق الذي مَـرّ منـه ابـن بطوطة؛ فيذكر منازله الرئيسية : دمشق – الكسوة – المزيريب – البـتراء – العقبـة ، إلـى الدخـول إلـى أرض الحجاز. وقد استغرقت رحلته من دمشق إلى مكة أربعيـن يوما [٤].

---

(١) الجزيري ، درر الفرائد ، ١/ ٢٧٥ .

(٢) سيد بكر ، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص : ١٦٩ .

(٣) ابن بطوطة ، رحلته ، ١/ ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٣ .

(٤) فارتيما ، رحلته ، ص : ٣٥ – ٣٨ .

وأما ابن طولون الذي حجّ عام ٩٢٠/ ١٥١٤ ، فإنه يصف منازل الحاج الشامي بشيء من التفصيل ؛ فيذكر أنه مكث مع ركب الحجاج في (قبة يلبغا) أولى مراحل الحج ، وباتوا فيها يوماً. ثم توجّه الركب إلى خان ذي النون ، ، فالشيخ مسكين ، فطفس فالمزيريب؛ وأقاموا بها عدة أيام ليلحق من تخلّف بدمشق. ثم توجّه الركب إلى أذرعات (درعا) حيث اشترى الحجاج ما يحتاجونه ؛ ثم غادروها مارين بالزرقاء وعمّان حتى وصلوا اللجون فباتوا فيها ليلتين واشتروا ما يحتاجونه. ثم وصل الركب إلى (حالات عمار) ومنها إلى تبوك في بداية الأراضي الحجازية ، فمدائن صالح ومنها إلى (المعلاّ) التي تتوفر فيها الخيرات. وفيها يتوقف التجار النصارى لا يتعدونها. ثم ساروا حتى وصلوا المدينة المنوّرة بعد خمسة وثلاثين يوماً ، ووصلوا مكة بعد عشرة أيام [(١)].

يتبين أن طريق الحاج الشامي في عهد المماليك الذي سلكته القوافل الثلاث السالفة، فيه بعض الاختلاف بذكر منازل الحجاج وخاصة في مراحله الأولى ، وتوقف الحجاج في مركزين ، الأول في بُصرى شرقي درعا ، والثاني في المزيريب إلى الغرب من درعا (٦ كم) ، ووقوف ركب الحجّاج في درعا. كما تظهر اختلافات أخرى في جنوبي بلاد الشام ما بين الكرك ومعان. لكن المدة التي استغرقتها الرحلات فهي متقاربة ما بين خمسة وثلاثين وأربعين يوماً.

وهناك طريق ثانٍ ، لكنه طريق هامشي في جنوب فلسطين ويصل إلى العقبة ، ويلتقي بطريق الحاج المصري في غزّة ، وعُرف بطريق غزّة. وظلّ هذا الطريق معروفاً طوال عهد المماليك [(٢)].

- **عودة قافلة الحاج الشامي :**

كان أمير الحج يُجهّز مُسْبقاً " كتب الوفد " إلى القاهرة ، ويحملها إلى مبشّر الحج ، والتي تسبق الركب بحوالي أسبوعين ، فتصل في الثاني عشر من محرّم. وينطبق هذا الموقف على الركب الشامي. فَكُتُب الوفد تصل إلى السلطان في القاهرة ، بينما تصل كتب أخرى إلى النائب في دمشق. فإذا تأخر مبشر الحج حتى نهاية محرم ، فإن القلق يحصل على الحجاج [(٣)].

(١) ابن طولون ، البرق الشامي في منازل الحاج الشامي ، مخطوط ، ورقة : ٢١٦ – ٢٢٧ .

(٢) أكرم العلبي ، دمشق ، ص : ١٣٥ .

(٣) ابن طولون ، م.س ، ص : ٢٩١ .

ويعود سبب تأخير عودة ركب الحجاج إما لاعتراض جماعات من البدو لذلك الركب، أو لظروف طبيعية قاسية خارجة عن إرادة الحجاج [١]. ففي سنة ٩٠٩/ ١٥٠٣، وردت أخبار لدمشق بأن وفد الحجاج الشامي يحتاج إلى نجدة سريعة ، " فنودي بدمشق إلى ملاقاتهم ونصرتهم وإغاثتهم ؛ فتقطّعت الطرق والناس في قلق ووقوف حال ٠٠٠٠ فخرج نائب دمشق بالعسكر إلى تلقّي الوفد من أجل الخوف عليهم من العرب " [٢]. وقد التقى نائب دمشق بعسكره مع نائب القدس في معان فحصل للحجاج فرج عظيم [٣]. وقد سجّل ابن طولون سنة ٨٩٥/ ١٤٩٠ ، أقصر مدة في تاريخ عودة الحاج الشامي ، فوصل في الثاني والعشرين من محرم [٤].

وأما عن دخول قافلة الحاج الشامي إلى دمشق ، والعائدة من مكة إليها ، فقد وصفها الرحالة (برتراندون) ، كما شاهدها سنة ٨٣٧/ ١٤٣٣ ، فيقول : " رأيت قافلة عائدة من مكة تتألف من ثلاثة آلاف جمل ، واستغرق دخولها مدينة دمشق يومين٠ وقد استقبلها نائب دمشق مع كبار رجال المدينة احتراماً للقرآن الذي تحمله ، وكان يحمله جمل مجلّل كلّه بالحرير٠ ويتقدّم الجمل أربعةُ عازفين ، وعدد كبير من الطبول والأبواق؛ بينما يحمل آخرون طبنجات يطلقونها بين الحين والآخر٠ وكان يسير وراء الجمل ثمانية رجال ، ووراءهم سيدة تركية تجلس على محفّة في هودج يحمله جملٌ مزركش ٠٠٠" [٥].

ويذكر (برتراندون) أن تلك القافلة كانت تضمّ عرباً وأتراكاً وبرابرةً وتتراً وفرساً وأجناساً أخرى٠ وهذا يعني أن القافلة ستغادر دمشق إلى آسيا الصغرى (تركيا)، وإلى العراق ، فيختار نائب دمشق رئيساً لها [٦].

وأما قافلة الحاج الشامي العائدة من مكة إلى القدس ، فإن (برتراندون) قد شاهدها قبل عامٍ من وصوله دمشق سنة (٨٣٦/ ١٤٣٢) ، فيقول : " التقيت بأمير الحج العائد من مكة يرافقه نحو تسعين فارساً ، ومائة جمل تحمل الأطفال والنساء والأمتعة ٠٠٠٠وقضيت الليل معهم " [٧].

---

(١) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ١٧٨ - ١٧٩ ٠

(٢) م٠ن ، ص٠ن ٠

(٣) م٠ن ، ص٠ن ٠

(٤) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ١٥ ٠

(٥) برتراندون ، رحلته ، مجلة الأبحاث ، عدد : ٣ ، ص : ٣٢٠ - ٣٢١ ٠

(٦) م٠ن ، مجلة الأبحاث ، عدد : ٣ ، ص٠ن ٠

(٧) م٠ن ، مجلة الأبحاث ، ص٠ن ٠

- **الإجـراءات المملوكيـة لحفـظ طـرق الحـــج :**

كان لطرق الحجّ بين مصر والأماكن المقدسة في الحجاز ، وبين الشام والأمـــاكن نفسها إشكالات عديدة تتمثّل في المخاطر التي تعـــترض مواكـب الحجــاج ، فتعرقـل مسيرتهم، وتعرّض أعداداً منهم إلى الموت. لهذا ، اهتمت السلطة المملوكية بأمور الحـج وسلامة أرواح الحجّاج وأموالهم ؛ فاتخذت إجراءات عدة ، أهمها :

أولاً : تنظيم دور القبائل العربية التي تمرّ طرق الحجاج من أراضيها. فأوكلت الســلطة المملوكية مهمّة المحافظة على تلك الطرق إلى أعراب الشام. فكانت خَفارة طريـق غزة لقبائل العائد وجَرْم وثعلبة وبني عقبة والمساعيد. وخفارة طرق البادية الشمالية لآل فضل وآل مهنا. كما أسندت مهمة المحافظة على طريق دمشق – الحجاز لآل مرا وبني لام وبني صخر وبني مهدي وقبائل أخرى [١].

ثانياً : حرص سلاطين المماليك على توفير حراسة قوافـل الحجّـــاج ، فخصّصـــوا تجـاريد عسكرية تصل أعداد أفرادها ما بين ستين إلى مائة فارس من الممـــاليك ، يوزّعهم أمير الحج في مقدمة ووسط ومؤخّرة القافلة [٢].

ثالثاً : أقدمت السلطة المملوكية على حفر الآبار والبرك وبناء خزانات الماء في منـــازل طرق الحج ، لكنها لم تكن كافية. ففي سنة ٦٩٢/ ١٢٩٢ ، تعرّضت قافلة الحـــاج الشامي إلى عطش شديد حتّى بلغ ثمن قربة الماء نحو مائة درهم. كمـــا حصلـت موجة عطش مماثلة في سنة ٧٨١/ ١٣٧٩ ، فبلغ ثمن قربة الماء نحو ستين درهماً من الفضّة. كما حصل عطش للحجّاج في عامي ٨١٥ و ٨٦١/ ١٤٤٧ و ١٤٥٧م ، فمات منهم نحو مائتي نفس. وقد قاسى الحجاج مشقةً زائدة من العطش فـــي ســـنة ٨٧٥/ ١٤٧١ ، فأرسل لهم نائب دمشق الماء [٣].

رابعاً : عمدت السلطة المملوكية إلى توفير إمدادات الغذاء لقوافل الحجاج ، ففي سنـــــة ٧٨٠/ ١٣٧٨ ، تعرّضت قافلة الحاج الشامي إلى الجوع ، فأرسل نـــائب دمشـــق إمداداتِ الغذاء للحجاج [٤].

خامساً : أقدمت السلطة المملوكية على بناء حصون وقلاع في محطّات معيّنة وشـــحنتها بالفرسان المماليك وأحياناً كلّفت العربان بحراستها. فكانت بمثابة نقاط أمـــن ثابتـــة ، لكنّها قادرة على الحركة في حالة تعرض قافلة الحجاج للخطر. ففي ســـنة ٩٠٣/

---

(١) الجزيري ، درر الفرائد ، ١/ ٢٨٠ .

(٢) فارتيما ، رحلته ، ص : ٣٦ .

(٣) ابن تغري بردي ، حوادث الدهر ، ٢/ ٣٠٦ – ٣٠٧ .

(٤) م.ن ، ٢/ ٣٠٦ .

١٤٩٧ ، ذَهَبَ نائب دمشق (كرتباي الأحمر) * إلى ديار بني صخر لبناء قلعـــة من أجل حماية طريق الحج من إغارات البدو ، لكنّ بدو المنطقة اعترضوه وأفشلوا مهمّته[١].

وأمّا السلطان قانصوه الغوري فقد بنى قلعة في طريق سيناء – غزّة ، وأخرى في العقبة سنة ٩١٥/ ١٥٠٩ ، ورتّب لهما الحرس من الممـــاليك والأعـــراب [٢]. وعلى الرغم من انتشار تلك القلاع في منازل الحجّ الصحراويّة ، فإنّ حوادث النّهب واعتراض تلك القوافل كانت تحدث لتباعد القلاع عن بعضها البعض.

سادساً : أوقفت السلطة المملوكية تسيير قوافل الحجاج أحياناً ، وذلك حين تصلها أخبـــار عن تأهّب العربان لاعتراض قوافل الحجاج. فقد تعطّل ركب الحاج الشامي ولـــم يحجّ أحد من أهل الشام سنة ٧٠٩/ ١٣٠٩ ، بسبب تهديد العربان لطريـــق الحـــاج الشـــامي [٣]. كما أنّ الأشرف برسباي منع الناس من السفر إلى الأماكن المقدّســـة الحجازية وعطّل رَكْبَ الحاج الشامي سنة ٨٣٥/ ١٤٣٢ ، خشيةً من نهب الأعراب واستعدادهم لقطع الطريق [٤].

كما شجّعت السلطة المملوكية أمراء العرب على مرافقة قوافل الحاج الشامي ؛ فوُجودهم هو حراسة للقافلة.

وقد استغلّ أعراب الشام مواسم الحجّ في التجارة ؛ فيخبرنا ابن بطوطـــة عـــن لقائه بعرب (فيد) من أرض (نجد) فالتقـــى بأميريـــن من أمـــراء آل مهنـــا (فيـــاض وحيار) ومعهما خيلٌ وجِمالٌ ، وعددٌ كبيرٌ من أعراب الشام ، يعرضـــون مـــا لديهم للبيع [٥].

سابعاً : تنظيم ركب الحجّاج في طريق الحجّ خوفاً من الازدحام في الممـــرات الضيقـــة والوديان.

- **محافظـــة أعـــراب الشـــام علـــى طـــرق الحـــجّ الشـــامي :**

---

* تولى نيابة دمشق سنة ٩٠٣هـــ ؛ نفّذ غارات على أعراب الشام ، وتوفي سنة ٩٠٤هـــ في دمشق ، لكـــن أهلـــه دفنوه في القاهرة. (ابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١٢).

(١) م.ن ، ص : ١٠٩ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٤/ ١٥١ .

(٣) الجزيري ، درر الفرائد ، ١/ ٦١٩ .

(٤) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٣/ ٤٧٥ .

(٥) ابن بطوطة ، رحلته ، ١/ ١٠٣ .

يتبيّن من الإجراءات المملوكية السابقة أنّ السلطة المملوكيّة أوكلت مهمّة المحافظة على طرق الحاج الشامي للقبائل العربية التي تمرّ طرق الحجّاج بأراضيها. فقد خصّص المماليك قيمة معلومة من المال (صُرَراً) تُرسل لأمراء العرب (أعراب الدَّرْك) لتسهيل مرور الحجّاج والسهر على أمنهم في منازل الطريق ، وإلزامهم بتوفير الأغنام والعلف. كما تتعهّد كلّ قبيلة للسلطة المملوكية بتبعيّات ما يحدث في أراضيها من نهبٍ لقوافل الحجاج ، فيكون عليها دَرَكَ ذلك أي تَبِعَتَه ، وأداء ما يُفقد ، وكلّ ما يترتّب على ذلك [1].

وكما مرّ سابقاً ، فإن الظاهر بيبرس كلّف أمراء القبائل العربية من جَرْم والعائد ومن آل مهنا دَرْك البلاد وخفرها. وقد ظلّ هذا التقليد الرسمي حتى نهاية الدولة المملوكية لكنّه شمل قبائل عربية أخرى. ويخبرنا (ابن طولون) ، بأنه قد حضر إلى دمشق سنة ٩١٥/ ١٥١٠ ، كلّ من (مُسَلّم) شيخ بني لام ، و(عسّاف) شيخ آل ميرا ، وحلّفا بدار السعادة بين يدي (سيباي) نائب دمشق ، وتعهّدا بحفظ " الحجاج والطرق على العوائد القديمة " [2].

لكنّ أمراء العرب لم يكتفوا بتلك الصُّرر المالية ، بل فرضوا رسوماً مالية على كلّ قافلة حجٍّ قادمة من خارج حدود دولة المماليك ومارّة ببادية الشام ؛ وقد بلغت تلك الرسوم خمسة آلاف دينار. فهذا الأمير حسام الدين مُهنا بن عيسى يخبر أمير ركب الحجّاج العراقيين سنة ٧٢٠/ ١٣٢٠ ، بدفع الرسوم المالية المطلوبة مقابل مرور القافلة ، فيقول : " لنا خَفَرٌ عليكم خمسة آلاف دينار ، وبذلك جرت عادة العرب " [3].

ولم يقتصر دور أعراب الشام على حفظ طرق الحجّ من النّهْب والسّلْب ، وتحصيل الرسوم الماليّة منها ؛ بل جرت العادة أن يُرافق أحد شيوخ القبيلة رَكْب الحاج الشامي، وفي هذه الحالة تكون جِمالُه ساقة الحاج ، ليحصل النفع للفقراء وإطعام الجياع وسقاية العطشى [4]. إن مثل هذا الدور الإنساني يُثمّن للأعراب ويخرجهم عن دائرة العنف.

وإذا كانت السلطة المملوكية قد حرصت على تأمين طرق الحج من خطر البدو ، فإنّ كبار أمراء العرب لم يقلّوا حرصاً عنها. وما قيام أمرائهم بالاشتراك في قوافل الحاج الشامي إلاّ تعبيرٌ عن حِرْصهم على حفظ طرق الحجّ ومساعدة الحجّاج بالوصول إلى

---

(١) الجزيري ، درر الفرائد ، ١/ ٢٣٠ ، ٢٨٠ .

(٢) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٣٤٠ ، إعلام الورى ، ص : ٢٠٠ – ٢٠١ .

(٣) العزاوي ، العراق بين احتلالين ، ١/ ٤٦٦ .

(٤) الجزيري ، م.س ، ١/ ٢٤٠ .

الأماكن المقدسة ، وعودتهم إلى ديارهم سالمين. فقد حَجَّ أميرُ العرب حسام الدين مُهنّا بن عيسى وبرفقته عددٌ كبيرٌ من عربه سنة ٦٩٧/ ١٢٩٨ ، فحمل المنقطعين من الحجّاج ، وتصدّق بأشياء كثيرة ، وأطعم الفقراء ، فشُكِرَتْ سيرته ، وحُمِدَتْ أفعاله [١].
كما حَجَّ الأمير عيسى بن مهنا بن عيسى وأخوه محمد في عدّة من عرب آل فضل سنة ٧١٧/ ١٣١٨ ، وقد بلغت عدّتهم نحو اثني عشر ألف راحلة ، فشُكِرت سيرته وأفعاله[٢].

وفي العام نفسه ، شكا الحجّاج الشاميّون أمير الحاج (أيبك الطويل) بعد دخول المَحْمِل دمشق ، بسبب عجلته في السير ، وسوء خُلقه ، وشحّ نفسه ، وتعريضه الحجّاج للهلاك [٣].

وقد اهتم أعراب الشام بحجّ سلاطين المماليك ، وانتهزوا ذلك لإظهار الطّاعة وتأكيدها ، والتقرّبِ من السلطان الذي يمرُّ بديارهم ، ومرافقة ركبه إلى الديار المقدّسة.
فلمّا اهتمّ السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالحركة إلى الحجّ سنة ٧١٩/ ١٣٢٠ ، أمر بتجهزة السفر وإعداد كُسوة الكعبة ، وكتب لنائب الشام ونائب غزّة بتجهيز ما يحتاج إليه، فتوالت تقادم الأمراء والنواب من سائر البلاد الشامية ، فكان أهمها من تنكز نائب الشام ، ثم تَقْدِمَة الملك المؤيد صاحب حماة. وأمّا أمراء عرب الشام فجهّزوا له مائتي جمل لتحمِلَ ما يحتاجه المطبخ السلطاني ، وأحمال الشعير والدقيق ، والعليق المعدّ إلى خيول السلطان وأمرائه. فقد حمل من دمشق خمسمائة حِمْلٍ على الجمال خاصةً بالمطبخ السلطاني (أصناف الفواكه المختلفة ، والحلوى الشامية ، والطيور .....إلخ) لكنّ أجرة هذه الأحمال دُفعت للعربان [٤].

وحينما عاد السلطان من الحجاز ، لقي جميع العربان من بني مهدي وأمرائها ، وشطي وأخيه عسّاف وأولاده ، وبني لام وعربان حوران ، وأولاد مهنا (موسى وسليمان وفياض وأحمد وحيّار). ولم يتّفق اجتماع هؤلاء لسلطان قبله. وأكثروا من الدّالة عليه من غير مراعاة الآداب السلطانية وهو يتحمّل كلّ تصرّفاتهم. بحيث أن موسى بن مهنا كان له ولدٌ صغير ، فقام ومدّ يده إلى لحية السلطان ، وقال له ، يا أبا علي : " بحياة هذه اللحيّة ، ومسك منها شعرات ، إلاّ ما أعطيتني الضيعة الفلانية ، إنعاماً عليّ ، فصرخ فيه ناظر الجيش وقال له : شلّ يدك ! قطع الله يدك ! فتبسم السلطان وقال:

---

(١) الجزيري ، درر الفرائد ، ١/ ٦١٣ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق١ / ١٧٨ .

(٣) الجزيري ، م.س ، ص.ن .

(٤) المقريزي ، م.س ، ص : ١٩٥ - ١٩٦ .

يا قاضي ! هذه عادة العرب إذا قصدوا كبيراً في شيءٍ فيكون عظمته عندهم مسك لحيته...... " (١).

• اعتراض أعراب الشام طرق الحجّ :

إذا كانَ أعرابُ الشام قد حافظوا على طرق الحجّ أحياناً ، فإنّهم اعترضوا قوافل الحجّاج ونهبوها مراراً. وحتّى نتلمّس الأسباب والدوافع التي دفعتهم لاعتراض الحجاج ؛ ولاستخلاص الآثار التي ترتّبت عليها ؛ فإنّه من المناسب الوقوف على جانب من هذه الحوادث السلبية.

فيطالعنا ابن الفرات في أحداث سنة ٦٨٢/ ١٢٩٠ ، أن أعراب بريّة الشام (البادية) قد تعرّضوا لركب الحجّاج العراقيين ، " وردوه على أعقابه بعد أن قتلوا عدداً منهم ، ونهبوا أموالهم " (٢).

كما تعرّض ركب الحجاج العراقيين سنة ٦٨٩/ ١٢٩٠ ، والمار في بادية الشام إلى النهب والسلب ، مما أدّى إلى تشتُّت شمل الرّكب ، وتعرّض عدد من حُجّاجه إلى الهلاك في بريّة الشام (٣).

ولما اتّجهت العلاقات بين المماليك والتتار إلى الصلح بين الناصر محمد بن قلاوون وبين بو سعيد بن خُرْبَنْدا سنة ٧٢٠/ ١٣٢٠ * ، فأعلن بو سعيد هذا في بلاده لمن أراد الحج فليبادر. فاجتمع خلق عظيم من سائر الأقاليم قاصدين الحج. وما إن بلغ الخبر إلى الأمير مُهنّا بن عيسى بن مُهنّا أمير العرب والخارج عن الطاعة حتى ركب ورجاله وأقاموا لهم في الطريق. فلمّا علم الناصر محمد بن قلاوون بحركة الأمير (مهنا) حتى أدرك خطر ذلك على مصير التقارب والصلح مع التتار. فاستدعى سيف بن فضل بن عيسى ، وهو يعلم تماماً مدى مكانته ومحبّته لدى عمّه مهنا. ولمّا حضر طلب منه أن يعمل ووالده فضل على منع مهنا من اعتراض الحُجّاج العراقيين مهما كلّف الأمر. وفي نهاية المطاف نجح سيف بن فضل في إقناع عمّه مهنا مستغلاً حبه له ، فأخبره عمّه مهنا قائلاً : " يا سيف ! قد قبلت دخولك عليّ ، لأجلك لا لأجل أبيك ولا لأجل الناصر محمد ..... " (٤). فمرّ الركب العراقي حاملاً سنجق السلطان الناصر محمد ، ولم يعترضه الأمير مهنا بن عيسى بل أكرمهم وسهّل مرورهم

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج٢ ق١ / ٢٠١ .

(٢) ابن الفرات ، تاريخه ، ٧/ ٢٦١ .

(٣) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص : ٢١٩ .

* انظر : الفصل الرابع ، ص : ٢٥١-٢٥٢

(٤) العيني ، عقد الجمان ، مخطوط ، جـ٢٢ ، ورقة : ١١٦ — ١١٧ .

في باديـــة الشـــام. ثـــم بعـــث ولده " موسى " إلى الناصر محمد بن قلاوون بأنّـــه لـــم يعترض ركب الحاج العراقي ؛ فأكرمه السلطان وخلع عليه ومن معه [١].

يبدو أنّ مكانَة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وســـمعتَه الطيبـــة ، وكرمَـــه الزائد، شملت حتى عرب البحرين في شرقي شبه الجزيرة العربية ، ففـــي العـــام نفســـه ٧٢٠/ ١٣٢٠ ، تعرّض ركب آخر للحاج العراقي إلى الخطر أثناء مروره فـــي طريـــق زبيدة – طريق آخر – تمثل بخروج ألف فارس من عرب البحرين ، وقطعوا الطريـــق على الركب العراقي ، فلمّا عرّفوهم بكتاب السلطان الناصر محمد وسنجقه ومنشوره الذي يدعو سائر العرب إلى إكرام الركب العراقي وتسهيل مروره ، قالوا : " السمعُ والطاعـــة للملك الناصر ، ثم فسحوا الطريق لهم وساروا آمنين " [٢].

ويخبرنا ابن الصيرفي عن اعتراض أعراب الشام طريق الحـــاج الشـــيرازي – العراقي، المار من بادية الشام سنة ٧٨٥/ ١٣٨٣ ؛ " وأخبر الحـــاج العراقـــي أن حـــاج شيراز * والبصرة طلع عليهم قريش ** في ثمانية آلاف رجـــل ! فأخـــذوا مـــا معـــهم مـــن الجواهـــر واللآلئ ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، ومن فرّ منهم عاد ماشـــياً جائعـــاً عارياً ، وقدموا صحبة الحاج العراقي " [٣]. وأمّا ركب الحاج العراقي ، فقد دفع عشرين ألف دينار ، حساباً عن كلّ جملٍ خمسة دنانير حتى سُمح للركب بالتوجّه إلى مكّة والعودة منها [٤].

وأما طريق الحج الشامي والمصري فكان أكثر عرضة للخطر من طريق الحـــج العراقي ، فهو يمرّ من ديار أعراب حوران والبلقاء والكرك وغزّة وتجمّعـــات مختلـــف الأعراب. وقد اهتم مؤرخو العصر المملوكي والرحالة برصد هذه الأخطار والحـــوادث المتكرّرة ، مما دفعهم لوصف أعراب الشام بالمفسدين وقطّاع الطُرق ، وأن أعمالهم تفوق همجيّة التتار. لهذا اخترنا نماذج من هذه الحوادث تبين طبيعة هذه الاعتداءات التي نفّذها أعراب الشام ضد الحُجّاج.

ففي سنة ٧٨٠/ ١٣٧٩ ، اعترض بنو عُقبة وبنو لام قافلة للحجاج الشاميين وهـــي عائدة من مكة إلى دمشق ، ونهبوها تماماً. كما أدى تشتّت الحجاج في البادية إلى مـــوت

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ق١ / ٢١٢ .

(٢) العيني ، عقد الجمان ، مخطوط ، جـ٢٢ ، ورقة : ٢٢٣ .

* شيراز : هي قصبة بلاد فارس ، مصّرها العرب في عهد عمر بن الخطاب ، ثم أصبحت فيما بعد قـــاعدة الدولـــة الصفارية.

** قريش : لم تذكر المصادر التاريخية اسم والده ، بل اكتفت باسم عمه زامل بن موسى بن مهنا نظراً لشهرته.

(٣) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ١/ ٨٧ .

(٤) م.ن ، ص.ن .

نصف عدد الحُجّاج لأنّهم ضلّوا الطريق ، وقاسوا الجوع والعطش. ووصل باقي الحجاج في حالة يُرثى لها [١].

وقد ظلّ خطر بني عقبة وبني لام ماثلاً في جنوب بلاد الشام سنوات طويلة ، ففي سنة ٧٩٥/ ١٣٩٣ ، اعترضوا ركب الحاج المصري في العقبة ، فنهبوا القافلة وسَلِمَتْ أرواح الحجاج [٢].

وفي سنة ٨٠٤/ ١٤٠٢ ، هاجم عرب (بني سالم) في جنوب بلاد الشام ركب الحاج المصري ، لكن أمير الحج تمكّن من إلحاق الهزيمة بهم ، وقبض على شيخهم (منجد بن خاطر) ، فحمله مقيّداً بالحديد إلى القاهرة. ولما مثُل بين يدي السلطان فرج بن برقوق ، أمر بشنقه أو ردّ ما نهب من الحجاج ، فسُجن في القلعة حتّى التزم عربه بردّ ما نهبوه [٣].

وقد تعرّض ركب الحجّ الشامي لهجومٍ من أعراب الكرك سنة ٨١٤/ ١٤١١ ، وحدث قتال بين حُرّاس الركب وبين الأعراب ، جُرح فيه أمير الحج ، ودخل دمشق مجروحاً ومات متأثّراً بجراحه [٤].

وحتّى حُجّاج المغرب العربي لم يسلموا من أذى أعراب جنوب بلاد الشام ، فقد تَعرّضَ ركبهم الذي رافق الركب المصري سنة ٨٥٩/ ١٤٥٥ ، إلى النهب عن آخره ، لكنّه لم يُقتل أحد [٥].

وفي سلطنة الأشرف إينال عام ٨٦١/ ١٤٥٧ ، قاسى ركب الحاج الشامي والمصري الشدائد من أعراب الكرك الذين قطعوا الطريق على الركبين ونهبوهما [٦].

وفي آخر سنة من سلطنة (خُشْقَدم) ٨٧٢/ ١٤٦٨ ، نُهب ركب الحاج المصري عن آخره حين اعترضه (مبارك) شيخ بني عقبة ، وقتل عدداً من أمراء المماليك المرافقين للركب ، فعظُم ذلك على السلطان ، كما شق على الناس أذى الحجاج في ذلك العام. فجهز السلطان خُشْقَدم حملة عسكرية من مصر ، وعين في قيادتها الأمير (أزبك)* ، والأمير (جانبك) حاجب الحجاب ؛ وصحبتهما أربعة من أمراء

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق٢ / ٢٣٨ .

(٢) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق٢ / ٣٤٨ .

(٣) ابن إياس ، م.س ، جـ١ ق٢ / ٦٣٩ .

(٤) ابن حجر ، م.س ، جـ٢ / ٤٩٣ .

(٥) ابن إياس ، م.س ، جـ٢ ، ص : ٣٢٢ .

(٦) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٦/ ١١٣ .

* أزبك بن ططخ الأشرفي ثم الظاهري حقمق ، جلبه الخواجا ططخ من بلاد جركس ، فاشتراه الأشرف برسباي سنة ٨٤١هـ ، ثم اشتراه الظاهر حقمق. وقد تربى تربية دينية. بدأ بإمرة عشرة واستمر في الترقي إلى عهد =

العشرات ، وعدد من المماليك السلطانية. كما كتب السلطان لنائب الكـرك (بُـلاط) * وإلى نائب غزة (إينال الأشقر) ** بالمسير إلى جهة العقبة ، ومساعدة الحملة العسكرية المصرية لإنهاء خطر الشيخ مبارك وعُربانه [١]. وقد تمكنت هذه الحملة من تنفيذ مهمتها بنجاح ، فقُبض على الشيخ مبارك ، وعلى نحو ستين من عُربانه ، وحُملوا إلى القـاهرة مقيّدين ، ووسطوا جميعاً [٢]. وعلى الرغم من هذه الضربة الموجعة لهؤلاء العربان ، إلاّ أنهم تهيئوا للثأر لشيخهم ورجالهم واستعدوا لاعتراض قوافل الحاج المصري.

وفي عهد السلطان قايتباي ، أصبح طريق الحاج المصـري والشـامي محفوفـاً بالمخاطر أكثر من السابق ؛ وذلك لانشغال السلطان بمواجهة ثورات المماليك الجلبان شبه المستمرة ، وخواء خزينته لكثرة النفقات على التجاريد العسـكريّة إلـى شـمالي الشـام لمواجهة التحركات العثمانيّة ، ولتأمين أخبار أمراء المماليك. كلّ هـذا دفـع السـلطان قايتباي إلى فرض ضرائب جديدة على أعراب الشام ؛ فتنبّهوا إلى تأمين أرزاقـهم ولـو على حساب قوافل الحجاج أحياناً ، وشن الغارات على ديار البدو – من غير القبيلـة – وعلى القرى والمدن ؛ فلم تسلم الكرك والشوبك من تلك الغارات [٣]. ففـي ظـلّ هـذه الفوضى السياسية ، وانشغال السلطة المملوكية، زاد الخطر وانعدم الأمن ، فزادت الأمور تعقيداً.

وإذا كانت حملة خشقدم السابقة قد شلّت بني عقبة ، فإن هذا لا يعني توقف الخطر فقد سمح هذا الظرف بظهور قبائل أخرى أشد خطراً من بني عقبة ، وهم بني لام.

=خشقدم حتى تسلم رأس نوبة النوب سنة ٨٧٠هـ ؛ خرج بتجاريد عسكرية عديد لإنقاذ الحجيج والتجـار ، وحج مرات كان آخرها سنة ٨٧٩هـ. (السخاوي ، الضوء اللامع ، ١/ ٢٧٠ - ٢٧٣).

= جانبك الإينالي الأشرفي برسباي ، يُعرف بقلقسين ، ظلّ يترقى حتى استقر في الحجوبيه أيام خشقدم. وقد حـج أميراً للمحمل سنة ٨٦٩هـ. وتولى نيابة الشام حتى مات سنة ٨٨٣هـ. (السـخاوي ، م.ن ، ٢/ ٥٥).

* بُلاط دوادار الخاج ثم يترقى في الخدمة حتى تولى نيابة صفد دفعة واحدة دون تدريج سنة ٨٦٧هـ. ونقل بعـد عام إلى نيابة حماة ، ثم تولى نيابة الكـرك سـنة ٨٧٢هـ.

(ابن تغري بـردي ، النجـوم الزاهـرة ، ١٦/ ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ٣٠١).

** إينال اليحاوي الظاهري حقمق ويعرف بالأشقر . تأمر أيام الظاهر خشقدم ، وتولى نيابة حلب ثم طرابلـس ، وتولى نيابة غزة سنة ٨٧٠هـ ، وتـوفي سـنة ٨٧٩ هـ .

(السخاوي ، الضوء اللامع ، ١/ ٣٣٠).

(١) ابن تغري بردي ، م.س ، ١٦/ ٣٠٠ – ٣٠١ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ / ٤٥٢ .

(٣) م.ن ، جـ٢ / ٤٥٣ – ٤٧٢ .

ففي سنة ٨٩٨/ ١٤٩٣ ، اعترض بنو لام مبشّر الركب الحاجّ المصريّ ، وهــو من مماليك السلطان قايتباي ، فتأخّر حضوره عدة أيام ، ولم يتّخذ السلطان أيّ إجــراء ، على الرغم من أنّه إنذار مباشر يُنْذِر بتعرُّض الركب العائد للخطر ، فقد تعرّض فعلاً ذلك الركب للنهب والسلب ، ولم يُحرك السلطان ساكناً (١).

وظهر الخطر أكثر وضوحاً سنة ٩٠٠/ ١٤٩٥ ، حين خــرج ركــب الحــاج الشــامي من العقبة إلى دمشق ، وقبل وصوله مدينة معان ، اعترضه بنــو لام ، لكــنّ أميــر الحــاج (أركماس) تخلى عن الركب وافتدى نفسه بمالٍ كثيرٍ ، فاكتفى بنــو لام بالمال. وما إن وصل الركب وادي الحسا قرب الكرك ، حتى ظهرت طائفة من بنــي لام اعترضت الركب، فنهبت الأموال ، وسبت الحريم ، فتفرّق شمل الركب ، والتجأ قسم من الحجاج إلى الشوبك والكرك ، ومات كثير من الأطفال والنساء برداً وجوعاً ، ولم يدخــل دمشق جملٌ واحدٌ إذ استولى بنو لام على نحو ثلاثة عشر ألف جمل من القافلـــة ، ولــم يحرّك نائب الكرك ولا نائب دمشق ولا السلطان ساكناً (٢).

وبعد وفاة السلطان قايتباي سنة ٩٠١/ ١٤٩٦ ، تململت السلطة المملوكية بعــض الشيء ، فتحرّك (كرتباي الأحمر) نائب دمشق ليضع حداً لخطر الأعراب الذيــن آذوا الحُجّاج وخاصةً بني لام. فقاد حملةً بنفسه إلى نواحي الكرك والشــوبك حتى وصلــت معان ، وأغار على منازلهم ، وألحق بهم أضراراً جسيمة ، ونهب مالاً كثــيراً ، وإبــلاً وأغناماً لا تُحصى. ولما عاد إلى دمشق نفّذ غارة على عرب (كرك نــوح) * وأتــى بمشايخ العربان ووسطهم جميعاً (٣).

وعلى الرغم من حِدّة حملة كرتباي الأحمر ، فإنّ الخطر ظهر في مناطق أخرى ، فتحرك بنو صخر واعترضوا قوافل الحجاج ، وكثُر قطّاع الطرق في نواحــي بعلبــك ، ونابلس والخليل وغزّة (٤) ، لتزداد الأمور أكثر سوءاً.

فعاد نائب دمشق إلى تنفيذ غاراته العسكرية الجريئة والمفاجئــة علــى تجمُّعــات البدو، ففي سنة ٩٠٤/ ١٤٩٩ ، سار إلى عرب (بني هذيم) عند قصــر شــبيب فــي

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور ، جـ٣ / ٢٩٤ .

(٢) ابن إياس ، م.ن ، ٣/ ٣٠٦ ، وابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ١٦١ ، والعليمي الحنبلي ، الأنس الجليل ، ٢٧٦/٢ .

* كرك نوح : هي قرية كبيرة تقع في سهل البقاع اللبناني ، شمالي زحلة. (ابن طولون ، إعلام الورى ، ص ٧٢) .

(٣) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ١٩٨ ، وإعلام الورى ، ص : ١١٠ .

(٤) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ١٠٩ .

الزرقاء ، ونَهَب ديارهم وأغنامهم ، وسبى حريمهم ، وأحضرَهُنّ إلى دمشق في أسوأ حال(١).

وقد سار (جان بلاط) * على خُطى سابقهِ كرتباي الأحمر ، فقاد من دمشق غارة مفاجئة في العام نفسه ٩٠٤/ ١٤٩٩ ، على عرب آل موسى في حوران ونَهَبَ نحو ألف جمل من مراعيهم (٢).

يتبيّن من سياسة جان بلاط أنّها ازدادت قسوة وظُلماً اتجاه العربان ومشايخهم ، فقد استدعى عدداً منهم إلى دمشق ، وأمر بضربهم بين يديه ، وألزمهم بشراء الجِمال التي نَهَبَها من آل موسى بالثمن الذي يُريده. كما طلب من كلِّ شيخ مائة ألف دينار !! ثم سجنهم بالقلعة وهم مقيّدون بالحديد (٣). هذا يؤكد ما قلناه سالفاً بأن سياسة بعض أمراء المماليك القاسية كانت عاملاً في توليد العنف والانتقام عند الأعراب وبالتالي الثأر من السلطة المملوكية ولو على حساب قوافل الحُجّاج.

وفي العام نفسه ، وصل خبرٌ من أمير الحاج الشامي (تمرباي القجماس) إلى نائب دمشق يطلب فيه الإسراع بإنقاذ ركب الحجاج من خطر العرب ، فيقول : " إنْ لم تدركونا عجلاً ، وإلاّ أخذ العرب الركب جميعه لكثرتهم " (٤). فخرج جان بلاط إليهم في اليوم المذكور بعسكر دمشق ، وخلّص الركب من عرب آل موسى (٥). وعلى الرغم من عزل جان بلاط من نيابة دمشق ، إلاّ أنّ شبح ظُلْمه لم يُمْحَ من أذهان العرب وشيوخهم.

وما إن استقر النائب الجديد بدمشق (قصروه) ** حتى قاد حملة سنة ٩٠٥/ ١٥٠٠ من دمشق إلى ديار بني صخر ، فجاوز اربد بعسكر كثير ، وفاجأ منازل بني صخر ، وقتل منهم نحو عشرين رجلاً ، وقبض على آخرين ، ونهب من ديارهم إبلاً وغنماً وبقراً ، وعاد إلى إربد يراقب تحرّكات العربان في منطقة حوران (٦).

---

(١) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٢٠٠ .

* جان بلاط : تولى نيابة حلب سنة ٩٠٣ ، ثم تولى نيابة دمشق بعد وفاة كرتباي الأحمر سنة ٩٠٤هـ ثم عُزل بعد عام ، وطُلب إلى مصر لأن سيرته غير محموده ومع ذلك تولى الأتابكية .
(ابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٩).

(٢) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ١١٠ .

(٣) م.ن ، ص : ١١٨ .

(٤) م.ن ، ص.ن .

(٥) م.ن ، ص.ن .

** قصروه : تولى نيابة حلب سنة ٩٠٣هـ ، وبعد عامين تولى دمشق ، ثم عزل منها في نهاية عام ٩٠٥هـ .
(م.ن ، ص : ١٢٠ وما بعدها).

(٦) م.ن ، ص : ١٢٢ .

يبدو أن سياسة (قصروه) لم تختلف عن سياسة سابقيْهِ ، فالأوضــاع السياسـيّة متماثلة ؛ فلاحق عرب آل مِرا وقبض على أميرهم (جانباي) وسجنه بقلعة دمشق. لكنّ هذا الإجراء أثارَ حفيظة عرب آل مِرا ، فسرعان ما تحرّكوا ، وانتظروا موسم الحـج ، فاعترضوا ركب الحاج الشامي في درعا ، واحتاطوا على جمال القافلة كرهينــة حتّـى يُطلق سراح أميرهم من قلعة دمشق. فاضطرّ (قصــروه) نــائب دمشـق إلـى إطـلاق سـراح (جانباي) وبقية المعتقلين من الأعراب (١). وفي العـام نفسـه أمـر بصلب أحمد ابن الحنش أمير آل الحنش ، وكان معتقلاً بقلعة دمشق من أيام جان بـلاط النائب السابق. فتولّى ناصر الديـن ابن الحنش إمرة أسرته (٢).

وفي جنوب بلاد الشام ظلّ خطر بنو لام قائماً ، ففي سـنة ٩٠٨/ ١٥٠٢ ، لمّـا وصل ركب الحاج الشامي إلى الكرك ، اعترضهم جماعة من بني لام وعوّقوهـم عـن الوصـول إلى العقبة ، وطلبوا منهم ثلاثة آلاف دينار ؛ فجبى أمير الحج المبلغ المطلوب من الحجاج ودفعها إلى شيوخ بني لام حتى مكّنوهم من المرور. وما إن وصل الخبر إلى القاهرة ، حتى جرّد السلطان قانصوه الغوري حملة عسكرية إلى الكرك لتأديب بنـي لام ووضْع حدٍ لبقية الأعراب (٣).

يبدو أن الحملة العسكرية التي جرّدها قانصوه الغوري لم تنهِ خطر بني لام تماماً ، إذ تجدّد عنفهم بعد عامين. فرسم السلطان الغوري للأمير (أزدمر) بالخروج على رأس تجريدة عسكرية على حين غفلة ، ففاجأ ديار بني لام وألحق بهم خسائر بالأرواح ، ونَهَبَ ما قدر عليه (٤).

وفي السنوات الأخيرة من عهد المماليك ، يُقدّم لنا الرحالة الإيطالي (فارتيمــا) سنة ٩٠٩/ ١٥٠٣ ، وصفاً تفصيلياً عن ركب الحاج الشامي الذي اشترك فيه كحاج مسلم باسـم (يونس المصري). فيذكر : أن تلك الحملة (القافلة) ضَمّت نحو أربعين ألـف شخص ، وخمسة وثلاثين ألف جمل ؛ يحرسها ستون مملوكاً (٥).

وبعد مسيرة ثلاثة أيام ، تعرّضت القافلة في المزيريـب لكمائـن بـدو (آل الزعبي) ، فخاض حُرّاس القافلة معركة شرسة مع أفراد الكمين. وعلى الرغم من تفوّق عددهم ، إلاّ أنّ فرسان المماليك تمكّنوا من مواجهتهم ، وقتل أعدادٍ منهم ، ولم يُقتل أحـدٌ

---

(١) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ١٢٩ .

(٢) م.ن ، ص : ١٢١ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٤/ ٣٨ .

(٤) م.ن ، ٤/ ١٠٥ .

(٥) فارتيما ، رحلته ، ص : ٣٦ .

من الفرسان المماليك أو الحجاج !! ويعلل ذلك لتخلّف رجال آل الزعبي ، وعدم قدرتهم على إجادة استخدام السلاح كالمماليك !! لكن هذا التعليل يتناقض مع وصفه لفرسانهم *.

ثم تحرّكت القافلة صوب الجنوب ، وقد مرّت بأرض موات (صحراء) حتى وصلت (البتراء) ، فتعرّضت القافلة إلى العطش ، حتى أنّهم دفنوا عدداً من الناس في رمال الصحراء وقد تُرِكَتْ رؤوسهم دون أن تغطّى بالرمال لأنّهم لم يسلموا الروح تماماً(١).

وبالقرب من العقبة ، نزلت القافلة بالقرب من بئر ماء للتزوّد منه وللراحة. وفي الصباح قَدِمَ نحو عشرين ألف بدوي قائلين إنّ الماء ماؤهم ، فطلبوا مالاً لقاء استخدامه ، فامتنع أفراد القافلة عن الدفع على اعتبار أن الماء ماء الله. فاقتتل حراس القافلة مع البدو، واستمرت المناوشات يومين. وانتهى الأمر بأن قدّم لهم أمير الحج ألفاً ومائتين من الدوكات الذهبية – عملة إيطالية – ويدّعي فارتيما بأنّ عدد القتلى من البدو وصل إلى ألف وستمائة رجل ، بينما لم يقتل من القافلة سوى رجل وإمرأة !! (٢).

وإذا كان فارتيما قد حدّد نَسَب بدو المزيريب بآل الزعبي ، فإنّه لم يحدد نسب عرب جنوب بلاد الشام. ولعل ابن إياس يُعرّفهم ببني لام. فقد اعترضوا قافلة الحاج الشامي سنة ٩٠٩/ ١٥٠٣ ، وفرضوا عليها ثلاثمائة ألف دينار ، فجمعها أمير الحج من التجار والحجاج الميسورين ، ودفعوها إلى شيوخ بني لام ، فمكّنوهم من المرور (٣).

وفي سنة ٩١١/ ١٥٠٦ ، تعرض وفد الحاج الشامي إلى النهب بالقرب من الكرك، فتحرّك نائب القدس ، وتمكّن من إنقاذ بقية الركب بالقرب من وادي الحسا ، وأوصلهم إلى دمشق بأمان. وأما سيباي نائب دمشق فقد كان منشغلاً بمقاتلة آل ميرا في حوران(٤).

---

* يذكر فارتيما ، أنّ شيخ قبيلة الزعبي في المزيريب يملك نحو خمسين ألف من الخيول العربية الأصيلة ، وثلاثين ألف بعير، وتمتد مراعيها مسيرة يومين. ويصف فرسان آل الزعبي كما شاهدهم : فقد ظهروا كأنّهم الصقور ، يمتطون خيلاً غير مسرجة ، وسلاح الفارس منهم رمحٌ وحربة وخيزرانه هندية ، وفي آخرها قطعة حديد. وهم ذو أحجام صغيرة ، ولونهم أصفر داكن ، وشعورهم كثيفة وطويلة.

- كما أنّ شيخ آل الزعبي حين يفكر في شن حرب ضد المماليك (نائب دمشق) فإنه يختار موسم الحصاد ، فمخازن الغلال في المزيريب ، وقد وضعت بإحكام ، فيأتي الشيخ برجاله وينهبون كلّ شيء.

(انظر : فارتيما ، رحلته ، ص : ٣٥ – ٣٧).

(١) فارتيما ، م.ن ، ص : ٣٨ .

(٢) م.ن ، ص : ٣٨ – ٤٠ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٤/ ٣٨ .

(٤) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ١٩٢ – ١٩٣ .

وأمام خطر أعراب بلاد الشام في حوران والكرك والعقبة ومعان ، أصدر السلطان قانصوه الغوري مرسوماً سنة ٩٠٩/ ١٥٠٤ ، يقضي بمنع النساء والأطفال من مرافقة قوافل الحجاج خوفاً من عنف البدو. وقد ظلّ هذا القرار نافذاً حتى تمكّن السلطان من تأمين طريق الحج سنة ٩١٣/ ١٥٠٨ * ، فسمح للنساء والأطفال بالسفر إلى الحج[١].

أمام هذا الدور السلبي لأعراب بلاد الشام في اعتراض طرق الحج من بغداد ودمشق والقاهرة ، فإن مؤرخي عصر المماليك لم يعالجوا هذه الظاهرة. وكما أسلفنا ، فإنهم اكتفوا بوصفهم قطّاع طُرق ومفسدين. إنّ عدداً كبيراً من هؤلاء المؤرخين تغاضى وأغمض عينيه عن المظالم التي أنزلها أمراء المماليك وأجنادهم بأهل مصر والشام سواء من الأعراب أو العامة. وبدورنا نكتفي بالقول بأنهم مؤرخو سلطة وسلاطين.

ويمكن أن نتلمّس جانباً من العوامل والدوافع التي حَدَت بأعراب الشام إلى قطع طرق الحج ، ونهب قوافل الحجاج. ولن تكون هذه المبرّرات تأييداً لدورهم السلبي أو دفاعاً عن ذلك العنف الذي عرّض حجاج بيت الله الحرام إلى التشرّد أو الموت. ويمكن إجمال هذه العوامل بالآتي :-

أولاً : إنّ مجمل التدابير والإجراءات المملوكية لحماية طرق الحج لم تكن فعالة بقدر ما كانت انتقامية من أبناء القبائل العربية. فإن إرسال التجاريد العسكرية إلى ديار هؤلاء الأعراب ، وسبي نسائهم وأطفالهم ، ونهب ديارهم ودوابهم ، وحرق منازلهم، ترك أثراً سلبياً في نفوس الأعراب ، وعمّق عملية الثأر لديهم. ويمكن القول إن عقلية المماليك العسكرية طبقت مبدأ بأن أعراب البادية لا يفهمون إلاّ التعامل بالقوة ، ونسوّا أن العنف لا يولّد إلاّ العنف.

كما أنّ سوء معاملة المماليك لأعراب الشام ومحاولة الحطّ من مكانتهم ارتبط بالسلاطين الضعاف ، مما أفسح المجال أمام الأمراء المماليك الطامعين بالسلطة إلى القيام بتلك التدابير الانتقامية. ويظهر هذا بوضوح بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون. وكذلك بعد وفاة الظاهر برقوق ، وفي أواخر عهد المماليك بين نوّاب دمشق المتسلطين أمثال : جان بلاط ، وقصروه ، وسيباي وغيرهم كثير. وخير دليل على ذلك من تعليق ابن طولون على سياسة سيباي نائب دمشق : " لم يهمّه

---

* أرسل السلطان قانصوه الغوري عدداً من التجاريد العسكرية المتتالية : ١٥١١م ، ١٥١٢م ، ١٥١٣م ، وأشرك فيها نواب الشام وغزة والقدس والكرك. (ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٤/ ٨٢ ، ٩٩ ، ١٠٥).

(١) م.ن ، ٤/ ٥٠ ، ١١٧ .

سوى جمع المال الذي أدى إلى تجرؤ القبائل البدوية على السطو ما دامت تستطيع أن ترفع الأذى عنها بمبلغٍ من المال " (١).

ثانياً : انشغال السلطة المملوكية بمشاكلها الداخلية أحياناً من فتن وحركات يقوم بها الأمراء والنواب وثورات الجلبان التي تحدُث بين حين وآخر. كلّ ذلك هيّأ المناخ لأعراب الشام باعتراض قوافل الحج.

ثالثاً : حاجة السلطة المملوكية إلى سدّ النقصان في أموال خزينة السلطان، وخوائها أحياناً لكثرة النفقات، والعمل على تأمين أرزاق أمراء المماليك الذين يُصرّون على نمطٍ مترفع من المعيشة. ولتغطية نفقات التجاريد العسكرية، ولتأمين الإبل والأغنام والخيل من الأعراب. إن فرض ضرائب جديدة على الأعراب، وعدم قدرتهم على تأديتها يمكن أن يكون دافعاً لاعتراض قوافل الحجاج لتأمين الأموال المطلوبة منهم.

رابعاً : تأزّم العلاقات بين المماليك والتتار وانفراجها أحياناً، واتجاهها نحو الصلح، كما حدث في عهد الناصر محمد بن قلاوون (لكنه استخدم سياسة حكيمة لمنع مهنّا بن عيسى من اعتراض قافلة الحاج العراقي).

خامساً : إقدام السلطة المملوكية على سحب إمرة العرب أو المشيخة من أمير من أمراء العرب ومنحها لأمير آخر ؛ سرعان ما يدفع الأمير المعزول بالخروج عن الطاعة، ولجوئه إلى البرية، مما يدفعه لاعتراض قوافل الحجاج لتأمين حياته وأعرابه.

سادساً : الفقر الذي انتشر بين القبائل العربية، نتيجة لظروف البادية القاسية، ولانتشار الأوبئة والأمراض، ونتيجة لهجمات المماليك المدمّرة. كلّ ذلك ساهم في دفع أعراب البادية بالبحث عن مصدرٍ للرزق، باعتراض القوافل التجارية والخاصة بالحجاج.

سابعاً : موارد الماء التي يردُها الحجاج، هي موارد الماء التي يردها العربان، فأصبحت محل نزاع بينهما.

ثانياً : طرق الحُجّاج المسيحيين إلى فلسطين :

يُعدّ الحج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين طوال العصور الوسطى حتى حاضرنا أحد الأسباب الرئيسية في الرحلة إلى بلاد الشام وخاصة فلسطين. فقد كان الهدف الرئيسي للحجاج المسيحيين هو زيارة الأماكن المقدسة التي ولد السيد المسيح عليه

---

(١) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ١/ ٣١٤.

السلام وعاش فيها. لذلك اقتصرت زياراتهم على بيت لحم والقدس والناصرة ، وأحياناً الشريعة (نهر الأردن) وبحيرة طبريا ، وزيارة بعض الأديرة ، وقد تتعدّى أرض الشام إلى سيناء حيث دير القديسة (كاترينا).

ويمكن تحديد الطرق البرية التي سلكها الحجاج المسيحيون عبر بلاد الشام في عهد المماليك ، بطريقين رئيسين ، هما :

- **الطريق الأول** : ويبدأ من (يافا) المرفأ الساحلي ، ويتجه نحو (الرملة) ومنها إلى القدس. ثم إلى (بيت لحم) حيث ولد السيد المسيح ، وقد ينتهي في الناصرة [١]. وهذا الطريق خاص بالحجاج المسيحيين القادمين من أوروبا والغرب.
- **الطريق الثاني** : ويمرّ عبر آسيا الصغرى – أرمينيا – بلاد الشام (حلب – دمشق – القدس) والأماكن المقدسة الأخرى [٢]. وهو خاص بالحجاج المسيحيين القادمين من الشرق وفي مقدمتهم الحجاج الروس.

وسنتناول الطريق الأول كمثال على اهتمام السلطة المملوكية بالحجاج المسيحيين القادمين من الغرب ، والعمل على حمايتهم وتقديم كافة الخدمات إليهم عبر أراضيها.

- **دور السلطة المملوكية في رعاية الحجاج المسيحيين :**

كما اهتمت السلطة المملوكية برعاية الحجاج المسلمين وطرق الحاج الشامي والمصري والعراقي ، فإنها لم تغفل رعاية الحجاج المسيحيين القادمين من أوروبا والشرق إلى القدس.

فعندما يصل حجاج أوروبا المسيحيون إلى ميناء يافا ، تُرْسِلُ السلطة المملوكية (التراجمة) وغيرهم من الموظفين المختصين ليقفوا على عدد الحجاج ، وليعرضوا عليهم برنامج الخدمات التي يمكن تقديمها لهم. وليحصّلوا الضريبة المقرّرة والمعتادة منهم [٣].

كما أن السلطة المملوكية تتعهّد بحماية هؤلاء الحجاج من خطر الأعراب الذين يصلون من البادية ويتجمعون في المناطق الجبلية لمعرفتهم بموسم قدوم هؤلاء الحجاج. فترسل السلطة فرساناً من المماليك لحراسة الحجاج من يافا وحتى القدس وبيت لحم. ويروي فابري (Fabri) الرحّالة الإنجليزيّ الذي زار القدس سنة ٨٨٥/ ١٤٨٠ ، إنه

---

(١) برتراندون ، رحلته ، مجلة الأبحاث ، ص : ٣٠٤ – ٣٠٥ .

(٢) م.ن ، مجلة الأبحاث ، ص : ٣٠٥ .

(٣) م.ن ، مجلة الأبحاث ، ص : ٣٠٥ .

عقب وصول الحجاج المسيحيين إلى يافا ، فقد " راعهم حضور عددٍ كبير من المسلّحين المماليك ، وخاصّة أن هؤلاء الحجاج كانوا عُزّلاً من السلاح. فأخبرهم المماليك أن سبب ظهورهم المسلح لردع البدو القادمين من البادية " (١).

وبعد وصول هؤلاء الحجاج إلى مقصدهم في القدس وبيت لحم والناصرة ، يستعدّ قسمٌ منهم لزيارة الأديرة وفي مقدّمتها دير القديسة كاترينا في سيناء خارج حدود بلاد الشام ، لكنه ضمن سيادة الدولة المملوكية. ثم يستعدّون لإجراء معاملات السفر اللازمة مع كبير المترجمين. فتُنظم الإجراءات اللازمة لدفع ضريبة السلطان المملوكي ، وضريبة الترجمان عن كل حاج. ثم يجري كبير المترجمين اتصالاته بالترجمان الموجود في غزة بقصد ترتيب مرورهم من غزة إلى سيناء. فيسجّل كل حاج البيانات الشخصية بما فيها الأوصاف والعلامات الفارقة ، ويرسلها بدوره إلى كبير التراجمة في القاهرة. يبدو أن مثل هذه الإجراءات كانت تُتّخذ بدقّة كإجراء احترازي للمحافظة على الحجاج خوفاً من البدو ، وحتى لا يتهرّب أحدٌ من دفع الضرائب (٢).

وبعد إتمام هذه الإجراءات ، وتدقيق البيانات الشخصية ، يصحبهم مترجم – كان المترجم سعد الله – ويساعدهم في استئجار حمير وبغالٍ وجمال ، لركوبها ولنقل المؤونة والأمتعة. ثم يتّجهون من القدس إلى الخليل حتّى يصلوا إلى غزة (٣).

ومن هنا يمكن القول ، بأن السلطة المملوكية أولت زيارة الحجاج المسيحيين إلى القدس اهتماماً ملموساً لأسباب اقتصادية وسياسية. فمن ناحية اقتصادية ، تجبي الرسوم المعلومة عن كل حاج ، إضافة إلى ما يمكن أن يحدث من انتعاش اقتصادي (تجاري) في أسواق القدس وبيت لحم والمدن التي يزورونها. ومن ناحية سياسية فإن مجرد السماح لهؤلاء الحجاج بزيارة القدس ، فإنه قد يؤمن للمماليك قدْراً من السمعة الطيّبة ، وبالتالي يدلّل على التسامح الديني.

- **موقف أعراب الشام من الحُجّاج المسيحيين :**

عندما يصل الحجاج المسيحيون إلى غزّة ، يتولّى عَرب جَرْم حراستهم عبر صحراء سيناء وحتى وصولهم دير القديسة كاترينا. ويوفّرون لهم الحمير والجمال كوسائط نقل. وكانوا يتقاضون خمس دوكات عن كلّ حمار – علماً بأنّ ثمن الحمار دوكتان !! – كما يتقاضون عشر دوكات عن كلّ جمل. يبدو أنّهم يفرضون استئجار

Fabri , Felix , The Book of the Wandaring . Vol . 1 . P , 219 . (١)

(٢) برتراندون ، رحلته ، مجلة الأبحاث ، ص : ٣٠٧ .

(٣) م.ن ، ص.ن.

حميرهم وجمالهم على الحجاج ؛ فهم أدلاء للحُجّاج ما بين غزّة ودير القديسة كاترينـــا ؛ كما تتوّفر لديهم الخبرة في معالجة الأمراض إذا تعرّض أحدٌ من الحجاج لمرض ما [١].

ويؤكد (برتراندون) حسن معاملة هؤلاء الأعراب له حين مرض ، فيقـــول : " لم يسلبوني شيئاً ، ولم يصيبوني بأذىً ، في حين أن الأمر كان سهلاً عليهم لو شاءوا [٢].

لكن قيام الأعراب بهذا الدور ، لا يعني أنهم لم يعترضوا الحجـــاج المســيحيين ، فالمقريزي ، يروي عن القبائل البدويّة المتاخمة للقدس ، أنّها شكّلت مصدراً للخطر والفتن والاضطرابات. فقد شنّوا غاراتٍ شديدةٍ على القدس والطـرق المؤديّـة إليـها سنـــة ٧٤٨/ ١٣٤٥ ، وأحدثت السلب والنهب حتى شملت هؤلاء الحجاج [٣].

كما أنّ إرسال السلطة المملوكية جنودها لحراسة الحجاج مؤشر على خطر هؤلاء الأعراب ، وإلاّ لَمَا بعثت جنودها إلى يافا والقدس. وكذلك فإن نائب غزة كان يحدّ مـــن تصرفات الأعراب ويوفّر الأمن للحجاج المسيحيين.

ولا يختلف سبب اعتراض الأعراب لطـــرق الحُجّـاج المســيحيين عـــن ســـبب اعتراضهم للحجاج المسلمين ، كثيراً ؛ سوى أنّ ضعف السلطة المملوكية تمثّل بضعـــف نوابها بالقدس وغزّة أحياناً ، فاستعانوا بالقبائل البدوية. ففي ســـنة ٨٩٩/ ١٤٩٣ ، إبـــان حكم السلطان قايتباي ، حدثت خلافات بين نائب القدس وبين نائب غزة ؛ " فكـــان نـــائب غزة يسلّط بعض الأعراب ، ويُحرّضهم على نائب القدس ، كما يُشجّعهم علـــى الفســـاد واعتـــراض المـــارة بالطرق " [٤]. ويعلّل السخاوي سبب عنفهم ، بعدم خضوعهم للدولة المملوكية تماماً [٥].

لكنّه بمرور الوقت ، حدث تغيّر في تصرفات هؤلاء الأعراب ، فقد كان للأعـــداد الكبيرة من الحجاج المسيحيين الذين يزورون القدس من كلّ عام تأثيرٌ كبيرٌ في ســـلوكهم وتصرّفاتهم ؛ " فقد عرفوا قيمة الذهب الأجنبي ، ولذا فهم يحترمون هؤلاء الحجاج الذيـــن يُنفقون عليهم بسخاء نظير ما يُقدّمون لهم من خدمات. لذلك فإن الســـفر فـــي صحـــراء ســـيناء كان يُشكّل خطورة كبيرة على الحجاج المسيحيين. ومع مرور الوقت أصبح شيئاً

---

(١) برتراندون، رحلته ، مجلة الأبحاث ، ص : ٣٠٩ – ٣١٠ .

(٢) م.ن ، مجلة الأبحاث ، ص : ٣١٠ .

(٣)المقريزي ، السلوك ، جـــ٢ ق٣ / ٧٤٠ .

(٤) العليمي الحنبلي ، الأنس الجليل ، ٢/ ٢٧٩ .

(٥) السخاوي ، التبر المسبوك ، ص : ١٠٢ .

عادياً لقيام هؤلاء البدو برعاية الحجاج وإرشادهم بعد الاتفاق مع مشايخهم على المبـــالغ التي سيحصلون عليها " [١].

• مشـــــاكل طــــــرق الحُجّـــاج :

بعد استعراض طرق الحجاج المسلمين والمسيحيين ، يمكن استخلاص الإشـكالات التي اعترضت طرق الحجّ في عهد المماليك. وقد تبيّن أنّ الإشكالات التـي اعـترضت طرق الحُجّاج المسلمين أكثر تعقيداً ، لأنّها تميّزت بطول المسافة الصحراويّة بين القاهرة ومكة ، ودمشق – مكة ، وبغداد – مكة ، كما أنّها تمرّ من ديار البدو. وأما طرق الحجاج المسيحيين فأنها قصيرة ومحصورة بين يافا والقدس وغزّة ومناطق أُخرى قريب. ويمكن إجمال هذه الإشكالات التي اعترضت هؤلاء الحجاج بالآتي :-

أولاً : مشكلـــة الأمـــن :-

توقّفت مشكلة الأمن على مدى سيطرة السلطة المملوكية على الأوضاع الداخلية ، وقدرتها على نشر الأمن في ربوع الدولة وخاصة تلك الطرق التي تمرّ عبر بادية الشـام وصحراء سيناء وصولاً إلى الحجاز. ويتوقّف هذا على طبيعة ونوع التدابير والإجراءات التي اتخذتها السلطة المملوكية مع أعراب الشام سلماً أو حرباً. ولذلك وجدناهـا تكلّـف أعراب الشام بمهمّة حراسة طرق الحجاج وقوافلهم. ففي سنـة ٧٠٣/ ١٣٥٣ ، وجدنـا الناصـر محمد بن قلاوون يعهد إلى عُربان العائد في غزة ، وبني سليمان في العقبـة ، بحراسة طرق الحجاج التي تمرّ عبر نفوذهم [٢]. كما خصّصت السلطة المملوكية حرّاساً من المماليك لمرافقة قوافل الحج ، وبَنَت قلاعاً وحصوناً فـي منـازل الحـاج الشـامي وشحنتها بالرجال من المماليك والأعراب.

ثانياً : مشكلـــة المـــاء :-

كانت قوافل الحجاج على مرّ العصور تحتاج إلى توفير المياه لشـرب الحجـاج ودوابهم. فالمسافة كما ذكرنا طويلة ، والزمن اللازم لقطعها لا يقل عن شهر في أحسـن الظروف. لذلك حاولت السلطة المملوكية حلّ هذا الإشكال ببناء الخزانات ، وحفر الآبـار والبرك ، لكن انحباس المطر كاف لتعميق المشكلة ، فتتعرض القوافل إلى العطش الشديد مما يعرضهم ودوابهم إلى الهلاك. وقد لمسنا حاجة كل من العربان والحجاج لمصـادر

---

(١) Bartlett (W.H) : Jerusalem Revisited , PP . 53 – 54 .

(٢) ابن إيبك الدواداري ، الدر الفاخر ، ص ١١٥ .

هذه المياه ، فكانت سبباً لتأزّم المواقف بين الأعراب والسلطة ، وتنعكس بالتالي على الحجاج.

ثالثاً : نقص المؤن :-

إنّ توفير الطعام للحجاج ، والأعلاف لدوابهم ، خلال فترة لا تقلُّ عن شهر من ضرورات القافلة ، وإنْ كان أقلّ خطراً من الماء. فكثيراً ما كان يحدث انقطاع كبير للحجاج في الطرق ، فيتعرض الحجاج للجوع وخاصّة في طريق العودة. لذلك كانت السلطة المملوكية في القاهرة تسارع إلى تأمين المؤن وترسلها إلى القوافل ، وكذلك كان يفعل نائب دمشق.

رابعاً : انتشار الأمراض والأوبئة :-

اهتمت السلطة المملوكية إلى حد ما بتوفير الجراحين (الأطباء) لركب الحجاج ، لكن المشكلة كانت تخرج عن إمكاناتهم حين تنتشر الأمراض المُعْدِيَة بين الحجاج ، فيمكن أَنْ يَهْلَك الوفدُ إلاّ من كُتِبَتْ لَهُ الحياة.

ثانياً : تأمين حاجة المماليك من الخيل والإبل والأغنام :

اهتمّ أعراب الشام بالخيل كبقيّة الأعراب ؛ فَعُدّت مفخرتهم ومبعث مجدهم ، عليها يهاجمون عدوّهم ، ويردّون صدمات الغزو. وللخيل إكرام كبيرٌ ومنزلةً رفيعةً في مضاربهم، يربطونها في أكرم أرض أمام البيوت ، كأنّها من أفراد الأسرة ، يحيطونها بكلّ رعاية وقد يُؤثرونها على أنفسهم في الغذاء والماء [١].

والأعراب يهتمّون بتربية الخيل ، وقلّما يحتفظون بذكورها ، فهم يفضّلون إناث الخيل ، والرجل العظيم منهم لا يجد عاراً أنْ يركب فرساً يعدو مُهْرها وراءها. ومن عادتهم المحافظة على ضُمور الخيل لِئلّا تَسْمَن [٢]. كما أنهم يهتمّون بأصول الخيل ونسبها لإحدى سلائل الخيل الأصيلة. ولهم عناية في تربيتها وترويضها ، ولهذا تنشأ الخيول عندهم أكثر جَمالاً ، فهي تعيش في الهواء الطلق والفضاء الفسيح بعيداً عن الإصطبلات المغلقة [٣].

---

(١) عن وصف خيل أعراب الشام ، انظر : ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٤٦ - ١٥٢ .

(٢) برتراندون ، رحلته ، مجلة الأبحاث ، ص : ٣٢٤ .

(٣) أحمد وصفي زكريا ، عشائر الشام ، ١/ ٢٣٨ - ٢٤٠ .

وكما أنّ الخيل مصدر قوة للبدوي ، فهي مصدر رزق ، فكان أعراب الشام يعرضون خيولهم في سوق الخيل تحت قلعة دمشق مدة يومين من كلّ أسبوع (الاثنين والخميس)٠ وقد جرت العادة ركوب نائب دمشق وكبار الأمراء إلى سوق الخيل ، فينتقون منها الخيول العربية الأصيلة (١).

وأمّا الإبل فهي صديقة البدوي الحميمة ، ولَوْلاها لزالت البداوة٠ وهي قوام حياة البدوي ووسيلة بقائها٠ فمِنْها لَبنهُ ووبَرهُ ولحمهُ ، وجلدها نافع له ، وهي واسطة تنقله في البوادي والمسافات الطويلة ، وعليها يحمل أثقاله ، " وهي مراكب العرب وطعامهم ، وهي أكثر البهائم شحوماً وأطيبها لحماً ، وأرقّها لبناً ، كما أنّها من أهمّ وسائل النقل له في البادية " (٢).

كما يهتمّ البدوي بتربية الأغنام ، فهي مصدرٌ من مصادر رزقه ، فمنها صوفه ولحمه ولبنه ؛ وهو دائم البحث عن تأمين المراعي لها ، يرتحل في الربيع معها٠

وكما اهتمّ أعراب الشام بالخيل ، فإنّ سلاطين المماليك لم يقلّوا اهتماماً عنهم ، فحدّدوا لجلبها مصدرَيْن : إمّا بلاد الشام ، وإمّا أهل برقة والمغرب العربي٠ فهذا المنصور قلاوون يرغب في خيل بَرقَة أكثر من خيل بلاد الشام ، ولا يُعرف عنه أنه اشترى فرساً بأكثر من خمسة آلاف درهم ، وكان يقول : " خيل برقة نافعة ، وخيل العرب (أعراب الشام) زينَة " (٣).

وأما الناصر محمد بن قلاوون فكان بخلاف أبيه ؛ فقد اهتم بخيل أعراب الشام (آل فضل وآل مهنا)٠ وكان يبالغ في إكرام أصحابها ويزيد في أثمانها حتى خرج عن المألوف (٤).

وفي الوقت نفسه ، فإنّ نظرة الناصر محمد بن قلاوون إلى الخيل العربية الأصيلة، دفعت آل فضل وآل مهنا وبقية الأعراب إلى الاهتمام كثيراً بعتاق الخيل ، فاهتمّوا بتربيتها وترويضها ، وجلبها من مصادرها الأصيلة ، ودفعوا الأثمان الزائدة على قيمتها حتى أَتَتْهم طوائف العرب بكرام الخيل الأصيلة٠ فتمكّن آل مهنا من الناصر محمد بن قلاوون ، حتى بلغوا أعلى المراتب عنده (٥).

---

(١) ابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ١٠٥ – ١٠٦ ٠

(٢) أحمد وصفي زكريا ، عشائر الشام ، ١/ ٢٤٠–٢٤١ ٠

(٣) المقريزي ، الخطط ، ٢/ ٢٢٥ ٠

(٤) م٠ن ، ص٠ن ٠

(٥) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٢ / ٥٢٩ ٠

ومن خلال سيرة الناصر محمد بن قلاوون ، تبيّنت معرفته بأصول الخيل وأنسابها، فعُدّ أول من اتخذ من سلاطين المماليك ديواناً للإصطبل السلطاني ، وعمل له ناظراً وشهوداً. وجعل من ناظر الإصطبل وظيفة جليلة القدر (١). وأمر بوضع السجلات الدقيقة بأسماء الخيل وأنسابها وأثمانها ومصادرها إنْ كانت من الشام أو العراق أو شبه الجزيرة العربية (القطيف والبحرين). لهذا جاءته الخيول العربية الأصيلة من مصادرها، فَدَفَعَ في الفرس الواحد ما بين عشرة آلاف ومائة ألف درهم. وبلغ من اهتمامه بالخيل أن دفع ثمن خيولٍ جاءته من أعراب الشام نحو مليون درهم في يوم واحد. كما أعدّ سُواساً للخيل ، وأنشأ ميداناً لها عُرِف باسم " ميدان المهاري " سنة ٧٢٠/ ١٣٢٠ ، والميدان الناصري (٢). وقد بلغ عدد الخيل في مراعيها من كلّ سنة ثلاثة آلاف فرس ، تُعْرَضُ عليه فيدمغها بعلامة خاصة ، ويسلّمها للركّابة من الأعراب لترويضها(٣).

ولكنّ الناصر محمد بن قلاوون لم يقتصر جلب الخيول على المشرق العربي ، بل جاءته من المغرب العربي أيضاً. ففي سنة ٧٠٤/ ١٣٠٥ ، تبادل الهدايا مع سلطان المغرب (يوسف بن يعقوب بن مرين) الذي أرسل له هدية حافلة من الخيل والبغال والإبل. وقد ردّ الناصر محمد عليه بهديّة أعلى وأحفل من خيل المشرق العربي ، إذ أرسلها مسرجة بسروج ولُجم مذهّبة (٤).

لذلك ؛ اهتم الناصر محمد بن قلاوون بإجراء السباق السنوي في " ميدان القَبق " * فكان يُشرك خيوله مع خيول أمراء المماليك في السباق ؛ لكنّه لا يَحْتَمِلُ أن تُسبق خيله ؛ فيعدّ ذلك انتقاصاً لملكه. كما كان يحضر السباق مع الأمراء (٥).

كما كان يرسم للأمراء في كلّ سنة أن يُضمّروا الخيول ، فيفرض على كل أمير من أمراء الألوف أربعة خيول مُضمّرة. ويرسم لأمير آخوره أن يُضمّر عدداً من خيوله

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٩/ ١٦٨ .

(٢) المقريزي ، الخطط ، ٢/ ١٩٩ – ٢٠٠ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، حـ ٢ ق٢/ ٥٢٩.

(٤)ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٤٨١ – ٤٨٢ ؛ وابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ١/ ٣٦٣ .

* ميدان القَبَق : يقع هذا الميدان خارج القاهرة من شرقيها ، ويقال له أيضاً الميدان الأسود ، وميدان العيد ، والميدان الأخضر ، وميدان السباق ، وهو ميدان الظاهر بيبرس ، بناه سنة ٦٦٦هـ ، عندما احتفل برمي النشاب وأمور الحرب وحث الناس على لعب الرمح والنشاب .... إلخ.

(انظر : المقريزي ، الخطط ، ٢/ ١١١ – ١١٣).

(٥) ابن تغري بردي ، م.س ، ٩/ ١٦٩ ، والمقريزي ، الخطط ، ٢/ ٢٢٥ .

من غير أن يعرف الأمراء أنّها للسلطان بل يُشيع أنها له ، ويرسلها إلى السباق مع خيول الأمراء (١).

وتروي المصادر المملوكية حادثة للناصر محمد بن قلاوون ؛ فقد اتفق أن كان للأمير (قطلو بغا الفخري) حصانٌ أدهمٌ ، سبق خيول مصر كلّها في سنين ثلاث متتالية ، فبعث أمير العرب " مهنا بن عيسى " فرساً شهباء " بنت الكرشا " إلى السلطان الناصر للسباق ، على أنّها إن سبقت خيل مصر كانت للسلطان ، وإن سُبقت رُدّت إليه. واشترط ألاّ يركبها إلاّ بدويّها الذي قادها إلى مصر. ولما جرى السباق ، وقف الناصر ومعه (سليمان وموسى) ابنا مهنا ؛ وركب البدوي تلك الفرس عرياء بدون سرج ، وكان يرتدي قميصاً ولاطئة (قلنسوة) فوق رأسه ؛ فأقبلت الخيول والشهباء في مقدمتها. ولمّا وقف البدوي بين يدي السلطان ، صاح قائلاً : " السعادة لك اليوم يا مهنا لا شقيت " ،؛ وألقى بنفسه من التعب، فقدّمها ولدا مهنا للناصر محمد بن قلاوون. لكنّ ذلك شق على السلطان فأبطل السباق من خيله (٢).

وكذلك اهتمّ الظاهر برقوق اهتماماً زائداً بالخيل ومرابطها ، فإنّ أعداد الخيول التي تركها بعد وفاته قد وصلت إلى سبعة آلاف (٣).

وقد وجدنا ابن خلدون حين وصل إلى مصر سنة ٧٨٤/ ١٣٨٢ ، يُرغّب الظاهر برقوق بخيل تونس والمغرب ؛ ويدعو سلطان تونس إلى إتحاف الظاهر برقوق بما ينتقيه من الجياد الأصيلة لما فيها من القدرة على تحمل الشّدّة والصبر على المتاعب ، وإن خيل مصر قصّرت الرّاحة والتنعُّم عن الصبر على التعب. وعلى الرغم أنّ ابن خلدون كان يهدف إلى تحقيق هوىً في نفسه ، فإنّه نجح إلى إقناع الطرفين على التواصل. فكتب الظاهر برقوق إلى سلطان تونس ، فبعث له خمسة انتقاها من مراكبه الخاصة ، " وحمّلها في البحر في السفين الواصل بأهلي وأولادي ، فغرقت بمرسى الإسكندرية حين أصابها قاصف من الريح ، وذهب الموجود (الكتب) والسكن والمولود ، ونفقت تلك الجياد "(٤)*.

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٦٩/٩ .

(٢) المقريزي ، الخطط ، ٢/ ٢٠٠ - ٢٠١ ، ٢٢٥ ؛ وابن تغري بردي ، م.س ، ٩/ ١٦٩ - ١٧٠ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٢ / ٥٣٠ .

(٤) ابن خلدون ، التعريف ، ص : ٢٧٩ ، ٣١٢ - ٣١٣ ، ٣٧٥ .

* يذكر ابن قاضي شهبه : " وفي رمضان غرق مركب كبير يُقال له (ربع الدنيا) حضر من المغرب ، وغرقت فيه زوجة القاضي ابن خلدون وخمس بنات ، وما كان معهن من الأموال والكتب ، وتسليم ولداه : محمد وعلي ...."

(انظر : تاريخ ابن قاضي شهبه ، جـ٣ ق١ / ١٣٨).

- ولا ندري لماذا أغفل ابن خلدون هذه التفصيلات !!

يبدو أن الظاهر برقوق كان يستشير ابن خلدون بأمر خيول المغرب ، ففي سنة ٧٩٩/ ١٣٩٧ ؛ " عيّن مملوكاً من مماليكه هو قطلو بُغا ، وبعث عني فحضرت بين يديه، وشاورني في ذلك فوافقته ، وسألني كيف يكون طريقهُ ، فأشرت في الكتاب إلى سلطان تونس من الموحّدين ، وسلطان تلمسان من بني عبد الواد ، وسلطان فاس والمغرب من بني مرين ...... " (١).

وفي آخر العام ، وصلت هدايا سلاطين المغرب الثلاثة ، فكانت هدية صاحب تلمسان تشتمل على ثلاثين من الجياد بمراكبها المموّهة ، وهديّة صاحب تونس تشتمل على العدد نفسه مغشّاة ببراقع الثياب من غير مراكب ؛ وأما هدية صاحب فاس والمغرب فقد اشتملت على خمسة وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللجم الذهبية. وقد عُرضت بين يدي الظاهر برقوق ، وانتهبت الخاصكية ما كان فيها من أقمشة وسيوفٍ ومراكب خيل ، واحتفظ السلطان بالجياد (٢).

هذا ، فقد جرت عادة السلاطين المماليك أن يوزّعوا على أمرائهم الخيول مرّتين : الأولى ، عند خروج السلطان إلى مرابط خيوله في أواخر الربيع ، فيُنعمُ على أخصاء أمرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم. والمرة الثانية ، عندما يلعب الكرة بالميدان. كما كان للسلاطين أوقات أخرى يفرّق فيها الخيل على أكابر الأمراء عند خروجه للصيد ووقت الشدائد. وقد اهتمّ السلاطين بتعويض كلّ من مات له فرس من مماليكه (٣).

وكما اهتم سلاطين المماليك بالخيول ، فإن أمراءهم اهتموا بها أيضاً. فكان لكلّ أميرٍ منهم إصطبلٌ للخيول. ولم يتوان هؤلاء الأمراء عن تقديم الخيل والجمال لسلاطينهم في مناسباتٍ عديدة. ففي سنة ٧٠٩/ ١٣١٠ ، حين عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى سلطنته الثانية ، قَدِم الأمراء بالتقادم ، فقدّم الأمير (قطلو بك المنصوري) نائب دمشق عشرة من الخيل المسرجة والملجّمة بالذهب ، وفي عنق كلٍّ منها كيسٌ فيه ألف دينار (٤).

---

(١) ابن خلدون ، التعريف ، ص : ٣٧٦ – ٣٧٧ .

(٢) م.ن ، ص : ٣٨١ – ٣٨٨ .

(٣) السيد الباز العريني ، المماليك ، ٢٠٣ – ٣٠٤ .

(٤) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق١ / ٦٩ .

وفي عهد السلطان جقمق سنة ٨٤٨/ ١٤٤٤ ، قدّم الزيني يحيى الاستادار ثلاثمائة من الخيول العربية الأصيلة ومائتين من فحولها. كما قدّم له الزيني عبد الباسط أربعين فرساً من الخيول العربية الأصيلة ، منها ستة بسروج معرّقة ، وأربعة بسروج مذهبة (١).

ولمّا كان الأعراب هم المصدر الرئيسي للخيول الأصيلة ، فقد حصل الأمراء عليها إما من سوق الخيل من دمشق مقابل أثمانها ؛ وإما عن طريق العنف. ويظهر هذا في السنوات الأخيرة من العهد المملوكي ، ففي سنة ٩٠٧/ ١٥٠٢ ، خرج النائب قانصوه المحمدي * إلى حوران لنهب خيول عرب آل موسى ، وكان بصحبته (جانباي) أمير آل مرا. كما أمر رجاله بإحضار مئات الخيل من عرب بني صخر ، فتعرّضت ديارهم للنهب ، وأحضروا الخيل المطلوبة سنة ٩٠٨/ ١٥٠٣ . وكذلك ، خرج النائب نفسه سنة ٩٠٩/ ١٥٠٤ ، إلى البقاع لملاحقة ناصر الدين بن الحنش ، ودخل (مشغرا) وحرق بيت ابن الحنش ، ونهب عشرات الخيول (٢).

وقد ظلّ أعراب الشام يشكّلون المصدر الرئيسي لتأمين الخيل الأصيلة للسلاطين المماليك ، فكانت تُقدّم على نوعين : السّياق والتقادُم ؛ فالسّياق كانت تشمل على الخيل والإبل والأغنام وحتى الأبقار ، وهي التي يحضرها العربان للبيع ، فتسجّل في الديوان الخاص. وأما التقادّم فكانت بشكل هدايا يرسلها أمراء العرب إلى السلاطين المماليك مع أبنائهم ، أو يحضرونها بأنفسهم ، وتشمل الخيل والإبل. وفي كلتا الحالتين كانت تُدفع أثمان هذه الخيول والإبل من خزينة الدولة (٣).

ويتبيّن من المراسيم السلطانية الصادرة بحقّ تعيين أمراء العرب في إمرة العرب ، أن تأمين الخيول العربيّة الأصيلة هي إحدى المهمّات المكلّفين بها. " ولتحصّل من الخيل كلّ سابقة تليق أنْ تقدّم إلينا ، وسابحة في كلّ مهمة حين تقدم علينا " (٤).

وأمام الإغراءات المالية ، والمكاسب المادية ، انتهز أمراء عرب الشام الفرص والمناسبات وتنافسوا على تأمين الخيول العربية الأصيلة للسلاطين المماليك. فلمّا كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون يرغب في الخيول المجلوبة إليه أكثر من التي تتوالد في إصطبلاته ، فقد أكثر العرب من الخيول المجلوبة ، فيكافؤهم بأضعاف أثمانها ، حتى

---

(١) السخاوي ، التبر المسبوك ، ص : ١٠١ .

* قانصوه المحمدي : تولى نيابة دمشق سنة ٩٠٧هـ. وله ثلاثة أخوة ، هم : خير بك ، جان بلاط ، وخضر بك. هذا وقد استمر بولاية دمشق حتى سنة ٩١٠هـ.

(ابن طولون ، إعلام الورى ، ص : ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٨٥).

(٢) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٢٦٤ ، وإعلام الورى ، ص : ١٦٥ ، ١٧٨ .

(٣) الخياري ، الإمارة الطائية ، ص : ٩٢ .

(٤) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١٢/ ١٣٥ ، ١٤٠ .

شملت عطاياه عامة العرب ، ولبسوا في أيامه ، " الحرير الأطلس المعدني بالطرّز المزركش والشاشات المرقومة ، وصاغ لنسائهم الأطواق الذهب المرصّع ، والأساور المرصعة بالجواهر واللؤلؤ ، وبعث لهن بالقماش السكندري ، وعمل لهن البراقع المزركشة. ولم يكن لبسهم قبل ذلك إلاّ الخشن من الثياب على عادة العرب " (١).

وبذلك خالف السلطان الناصر محمد بن قلاوون أسلوب التعامل في أمر أعراب الشام مع من سبقه من السلاطين المماليك ، حتى قال (صفرة بن سليمان بن مهنا) : " لقد أفسدت علينا نسواننا " (٢). كما أرسل (مُرّة بن مهنا) مع قاصدٍ يقول معاتباً : " خف الله في المسلمين وبيت المال ، فإنك تفرّقه على العرب ونسائهم وصغارهم ، فكيف يحلّ لك هذا ؟ ومتى سمعت عن بدويّة تلبس غير ثوب القطن والبرقع المصبوغ وفي يدها سِوار من حديد ؟ فو الله لقد أفسدت حالة العرب وحال نسائهم ، وأَطْمعتهم في شيء لم يَكُونوا يَطْمعون فيه من قبلك . " (٣)

وأما السلطان لاجين ، فقد كافأ أمير العرب مهنا بن عيسى لمودة كانت بينهما ، ولمّا قدّم من خيول أصيلة ، فكانت مكافأته المال و" طرد وحش " (٤).

وإذا كان بعض سلاطين المماليك قد أكرموا أمراء عرب الشام مقابل خيولهم وإبلهم ، فإن البعض الآخر لمْ يُنصفوهم حتّى بأثمانها الحقيقية ؛ فهذا السلطان عماد الدين أبو اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون طلب من أعراب الكرك والبلقاء خيولاً عربية أصيلة ، فلما أحضروها دفع لهم أقل من ثمنها المطلوب (٥). كما أنّ غيره من السلاطين اتجه إلى سلب العرب خيولهم ، فشنّوا الغارات على ديارهم ونهبوها.

لكن مكانة آل فضل وآل مهنا ظلت قائمة عند السلاطين المماليك ، حتى عند ابن الناصر محمد المذكور ، فحين قَدِمَ عليه فيّاض بن مهنّا بسبعين فرسٍ ، أكرمه ودفع له ضعف ثمنها (٦). وكذلك حين قدم الأمير سيف بن فضل لتهنئة السلطان حاجي بالسلطنة سنة ٧٤٧/ ١٣٤٦ ، فقدّم له عدداً من الخيول الأصيلة ، فوعده السلطان بإمرة العرب (٧).

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٩/ ١٦٨ .

(٢)المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٢ / ١٦٨ .

(٣) م.ن ، ص.ن .

(٤) ابن تغري بردي ، م.س ، ٩/ ١٦٨ .

(٥) المقريزي ، م.س ، ج٢ ق٢ / ٦٩١ .

(٦)المقريزي ، م.س ، جـ٢ ق١ / ٦٩٢ .

(٧) المقريزي ،م.س ، ج٢ ق١/ ٧١٥ – ٧٢٠ .

وبقدر ما طمع أعراب الشام بأثمان خيولهم ، فإنّ استمرارهم في تأمينها للسلاطين المماليك يُعدّ دليلاً على خضوعهم واستمرار إعلان طاعتهم لهؤلاء السلاطين. ففي سنة ١٣١٥/٧١٥ ، قدم محمد بن عيسى أخو الأمير مهنّا واعتذر عن أخيه ، وقدّم فرساً أصيلة تدعى " بنت الكرواء " – أي ذات السيقان الدقيقة – ؛ وكان قد بلغ ثمنها على أمير العرب نحو ثلاثمائة ألف درهم ، فدفع السلطان ضعف الثمن. وكتب إلى (مهنّا) بالرجوع إلى البلاد ، وخلع على محمد بن عيسى ؛ كما بعث إلى مهنّا بأثني عشر ألف دينار، وبمائتي ألف درهم .(١)

وعلى الرّغم من محاولات أمراء العرب بإزالة الوحشة بينهم وبين السلطة المملوكية، فإن هداياهم لم تُثمرْ ثمارها أحياناً ، فحين " قَدِمَ صولة بن حيّار بن مهنّا بالقَوَد من جهة أبيه على العادة ، فإن السلطان حاجي بن الناصر محمد ، أخذ منه القَوَد ، لكنّه سجنه بالقلعة سنة ٧٦٣/ ١٣٢٦ ، حتى يحضر أبوه بنفسه إلى حضرة السلطان " (٢).

وكما اهتمّ السلاطين المماليك بتأمين الخيول العربية الأصيلة لفرسانهم ، فإنّ اهتمامهم بتأمين الهجن الأصيلة لم يقلّ عن ذلك. فحصلوا عليها من مصر والشام ، ومن شمالي السودان (٣).

وكما قدّم أعراب الشام الخيول الأصيلة للسلاطين المماليك ، فإنهم قدّموا الهجن الأصيلة لهم. ففي سنة ٧٣١/ ١٣٣١ ، قدّم عرب آل فضل للسلطان الناصر محمد بن قلاوون مئات من الإبل بمناسبة سفره إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج (٤). وظهرت حاجة السلطان عماد الدين أبي اسماعيل بن الناصر محمد سنة ٧٤٦/ ١٣٤٥ ، إلى الجمال ، فطلب من أمراء عرب الشام ستة آلاف جمل ، وألفين من الأغنام ، وجميع ما يحتاجه من العبيّ والأقتاب *. كما تلقى هدية من الأمير فيّاض بن مهنّا شملت خمسين جملاً (٥).

وفي حالة عدم استجابة أعراب الشام لتأمين حاجة السلطان من الإبل ، فإن القوة هي السبيل للحصول عليها. فقد أقدم السلطان شيخ المحمودي على مداهمة ديار جماعات من الأعراب شرقي دمشق ، ونهب آلاف الجمال والأغنام وفرقها على مماليكه سنة ٨١٥/ ١٤١٢ (٦). كما أقدم (تنبك ميق) نائب دمشق على مهاجمة ديار ومرابع

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق١ / ٤٤٤ .

(٢) ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، جـ٣ ق٢ / ٢٠٤ .

(٣) ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ١/ ٣٦٤ .

(٤) المقريزي ، م.س ، جـ٢ ق١ / ٣٥٠ .

* الأقتاب : مفردها (قَتَب) وهو ما يوضع على سنام البعير . (البستاني ، محيط المحيط ، مادة : قَتَب).

(٥) المقريزي ، م.س ، جـ٢ ق٣ / ٦٩٢ ، ٧٧٦ .

(٦) المقريزي ، م.س ، جـ٤ ق١ / ١٣٦ .

آل علي وبني خالد بالقرب من حمص ونَهَبَ ألفٍ وخمسمائة جمل ؛ أرسل منـــها ألــف وثلاثمائة جمل إلى شيخ المحمودي واحتفظ بالباقي (١).

يبدو أن استخدام القوة ضدّ أعراب الشام في هذه الفترة ، راجعٌ لعــــدم اســتقرار الأمور وللفوضى السياسية التي مرّت بها البلاد بعد اجتياح تيمور لنـــك لبـــلاد الشــام ، واختلاف وتنافس أمراء المماليك على السلطة بعد مقتل السلطان فرج بن برقوق.

ثالثاً : المشـــاركة فـــي الجيـــش المملـــوكي :

نشأت دولة المماليك نشأة عسكرية في ظلّ ظروف مشحونة بالأخطـــار الداخليّــة والخارجيّة ؛ فاعتمدت على العنصر المملوكي كقوةٍ أساسيّة فاعلة في الجيش المملوكــي. ولمّا كانت السلطة المملوكية تعمل في اتجاهٍ واحدٍ مع رعاياها ، فإنّها استثنت أهل مصـــر والشام والحجاز من الخدمة العسكريّة بصورة عامة. لكنّها في الوقت نفسه تنبّهت إلى قوّة أعراب بلاد الشام وحَجْمهم العسكري في بادية الشام الواسعة وذات الموقـــع الجغرافـــي المهّم في نطاق الدولة المملوكية ، فعملت على استيعابهم ضمن قوّاتها العسكرية.

وفي هذا الاتجاه ، وصف ابن فضل الله العمري أعــراب الشـــام بأنّهم : " قـــادة الطلائع ، وجناح الجيش المملوكي ، وحَفَظَةُ الطرق ، والقائمـــون بخيـــل البريـــد " (٢). كما وصفهم ابن إياس ، قائلاً : "إنّهم المشاة والفرسان الذين يؤلّفـــون طلائـــع الجيـــش المملوكي النظامي التي تُنهك قوّات العدو " (٣).

ويورد ابن شاهين الظاهري ، وصفاً للجيش المملوكي ، فيذكر أنه ينقسم في أساسه قسمين : أحدُهما ديوان الجيش المصري ، والآخر ديوان الجيش الشامي ؛ وكلاهما فـــي القاهرة. على أنّ هذين الديوانيْن يشملان الجنود المماليك والعرب ، والتركمان والأكراد. فقد بلغ عدد فرسان القبائل العربية الشامية المسجلة في ديوان الجيش المملوكي نحو تسعةِ وعشرين ألف فارسٍ وراجلٍ من آل فضل وآل مهنّا ، وآل مرا ، وآل علي ، وبني عقبة، وبني مهدي ، وجَرْم والعائد (٤).

وللوقوف على تنظيم الوحدات القتالية المؤلفة من أعراب بلاد الشــــام ، فإنّنـــا نجـــد (الكتيبة) المكوّنة من مائة إلى ألف رجل هي عماد تلك الوحدات القتالية ؛ كمـــا

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ق١ / ٤٤٤ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١١٢ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق٢ / ١٤٤ .

(٤) ابن شاهين الظاهري ، زبدة ، ص : ١٠٥ .

ظـــهرت (الفرقة) المؤلّفة من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف رجلٍ فـــي ذلـــك التنظيـــم. والكتيبة والفرقة يقابلان ما يسمى بالجريدة عند المماليك ، وإن أطلق عليها النويري اســـم الجيش (١).

ومن هنا ، حرصت السلطة المملوكية على تنظيم الوحدات القتالية عنـــد أعـــراب الشام على أساس انضمام الجنود العرب من قبيلة واحدة ليبقى الانسجام قائماً بين أفـــــراد الكتيبة أو الفرقة بعيداً عن الاختلافات (٢). ويوضّح (المقريزي) ذلك ، ضمن استعدادات المنصـــور قلاوون في مواجهة المغول سنة ٦٨٠/ ١٢٨١ ؛ فيقول : " حضـــــر الأمـــير أحمد بن حجّي في جماعة كبيرة من آل مِرا تكوّن زهاء أربعة آلاف فارس ، شاكّين فـــي السلاح على الخيل المسوّمة ، وعليهم القَرْغَنْدات * الحمر من الأطلس المعدني ، والديباج الرومي ، وعلى رؤوسهم البَيْض ** ، مقلّدين سيوفهم وبأيديهم الرماح ، وأمامهم العبيـــد تميل على الركائب وترقص بتراقص المهاري ، وبأيديهم الجنائب ، ووراءهـــم الظعـــائن والحمول ، ومعهم مغنّيةٌ تُعرف بالحضرمية سافرة في الهودج وهي تغنّي....... (٣).

وفي الوقت نفسه يرد العدد ذاته عند الشدياق ؛ حين حضر الأمير قرقمـــاز مـــن وادي التيْم بأربعة آلاف فارس من الشهابيين لمساعدة المنصور قلاوون (٤). كما حضـــر أمراء من العرب بثلاثة آلاف فارس. والجدير بالذكر أن التجاريد السلطانية العســـكرية تـــرد بالرقميـــن نفسهما ؛ وهذا يعني أن الفرقة والتجـــاريد تكـــاد تكـــوّن ذات العـــدد ، وربّمـــا يعـــود ذلك إلى ترتيب العسكر في ديوان الجيش المملوكي ، فيما يخص الكتيبـــة أو الفرقـــة أو التجريدة العسكرية.

ولما كان أعراب الشام أهل فروسية ، فقد اعتنوا بتربية الخيـــل عنايـــة فائقـــة ، واشتهروا بالشجاعة والإقدام ، والضرب بالسيف ، والرشق بالسّـــهام ، كمـــا اســـتخدموا

---

(١) النويري ، نهاية الأرب ، ٦/ ١٨٩ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ٢١٩ .

* القرغندات (الكزغَند) : لفظ فارسي يعني المعطف القصير ويُلبس فوق الزردية ، ويصنع من القطـــن أو الحريـــر المبطن المنجد. (البستاني ، محيط المحيط ، مادة : قزم).

- ويصفها ماير (Mayer) ، بأنّها دروع من البرنجاندين الأحمر ؛ وهي عبارة عن سُترة قصيرة لا يزيد عن ٧٠ســـم مصنوعة من قماش متين جداً ، ولها ياقة عريضة. وتكون مكسوّة بالمخمل الأحمر المرصع بمسامير نحاسية صغـــيرة. (الملابس المملوكية ، ص : ٧٢).

** البَيْض : جمع بيضة . وهي الخوذة الحديدية يلبسها الجند لوقاية الرأس ، وقد سميت بذلك لما فيها مـــن الشـــبه الشكلي بالبيضة . (البستاني ، م.س ، مادة : بيض).

(٣)المقريزي ، السلوك ، حـــ١ ق٣ / ٦٩٠ .

(٤) انظر : الفصل الرابع ، ص : (٢٣٥).

الترس والنشاب ، وكذلك المقلاع لرمي الحجارة. وهذه الأسلحة ذائعة الصيت وواسعة الانتشار بين أعراب الشام ، وكلها من أسلحة العصور الوسطى.

ومن هنا ، مارس أعراب الشام أساليب قتالية في المعارك ، منها ما هو موروث أو ثابت كالكر والفر ، فكان هذا الأسلوب أكثر وضوحا وممارسة في حياة البدوي ، يمارسه في شن الغارة السريعة والمحددة الهدف ، سواء بين الأعراب أنفسهم ، أو ضد الأعداء الدائمين. ويشير اليونيني إلى مثل هذا الأسلوب حين يصف صمود الأمير عيسى بن مهنا أمام المغول " فطاردهم وطاردوه " [١]. ولا نبالغ إذا وصفنا تلك الغارات التي شنها آل جرم وبنو ثعلبة على معسكرات العثمانيين في غزة سنة ٩٢٣/ ١٥١٧ ، بأنها حرب عصابات [٢]. ، تعتمد أساسا على الكر والفر. وأما من حيث التشكيلة العددية للوحدات القتالية التي تستخدم في الكر والفر ، فإنها لا تدخل ضمن نظام الكتيبة أو الفرقة السابق ؛ بل يفترض أن يكون العدد في الوحدة المغيرة أقل من مائة فارس ، ويقل حتى خمسة عشر فارسا.

وتعد الكمائن التي كان ينصبها أعراب الشام من أساليب القتال التي تعتمد على عنصر المفاجأة لإرباك العدو ، فقد نصب أعراب الشام كمائن عديدة ضد المغول لاعتراض تحركاتهم العسكرية ، وفي ملاحقة فلولهم المهزومة بعد المعارك الكبيرة ؛ فكانت مناطق البادية الشامية أكثر دراية ومعرفة في مسالكها. كما شهدت مخاضات الفرات والخابور نصب مثل هذه الكمائن لإلحاق أكبر قدر من الخسائر في المغول الذين يهددون حدود بلاد الشام. كما شاهدنا أعراب جنود بلاد الشام ينصبون مثل هذه الكمائن في أغوار الأردن ضد تجمعات تيمور لنك [٣] ، ونصبوها ضد العثمانيين بعد احتلالهم دمشق.

وقد فاجأنا ابن الحنش بأسلوب جديد في مقاومة العثمانيين حينما أطلق مياه أنهر دمشق على الأراضي الواقعة شرقي دمشق ليعوق حركتهم وإلحاق أكبر قدر من الخسائر البشرية. كما لجأ أعراب حوران والمحيطين بدمشق إلى محاصرة العثمانيين داخل دمشق ، فلم ينج أي جندي حاول الخروج من دمشق ، ومنعوا الأعلاف عن خيولهم لدرجة أنها سابت تأكل ورق الشجر [٤].

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٢/ ٤٦٨ ، وانظر : الفصل الرابع ، ص : (٢٣١).

(٢) انظر : الفصل الرابع ، ص : ٢٧٠ .

(٣)ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق٢ / ٦٠٧ ، وانظر : الفصل الرابع ، ص : ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٤) م.ن ، ص : ١١٢ ، ١١٧ ، وانظر : الفصل الرابع ، ص : ٢٧٠ .

وفي أكثر من موقع ، شكّل أعراب الشام قوّاتٍ استطلاعيّة لكشف أخبار العــدو ، كما شكّلوا أحياناً مقدّمة الجيش المملوكي كمشاة ، وأما الفرسان العرب فقد انتظموا فـــي صفوف المماليك ، فكوّنوا ميمنة أو ميسرة الجيش في المعارك الكبرى والحاسمة.

الخلاصـــــــــــــة:

أوكلت الســــلطة المملوكيـــة مـــهمّات واضحـــة لأعـــراب الشـــام تمثّلـــت بـــالآتي :-

أولاً : لمّا كانت طرق البريد تمر في بادية الشام ، فإنّ السلطة المملوكية أَوْكَلَـــتْ مهمـــة حفظها لأهل البادية فهم أوْلى وأدرى ببواديتهم ، وقد جعلت كلّ قبيلةٍ مسؤولة عـــن حفـــظ مراكز البريد التي تمرّ بمنطقتها ، وألزمتهم بتأمين الخيل لتلك المحطات.

ثانياً : حرصت السلطة المملوكية على تكليف أعراب الشام بالمحافظة على طرق التجارة وأمن وسلامة القوافل التجارية التي تمرّ ببادية الشام ؛ وقد سمحت للبدو بتحصيـــل مبالغ معيّنة من التجار.

ثالثاً : اهتمت السلطة المملوكية بتأمين طرق الحاج المصري والشامي والعراقي ، وطرق الحجّاج المسيحيين ، لما لها من أهميّة دينيّة. وقد اتّخذت إجراءات عمليّة للمحافظة على طرق الحاج فأشركت بدو الشام بالمحافظة عليها.

رابعاً : اهتم أعراب الشام بتربية الخيول الأصيلة ، وظلّوا يشكّلون المصــــدر الرئيســـي لتأمين حاجة الدولة المملوكية من تلك الخيول. وهذا ينطبق على الإبل والأغنام.

خامساً : شكّل أعراب الشام جزءاً هاماً من الجيش المملوكي ، فكوّنوا طلائعه وعيونـــــه المتقدّمة ؛ وجانباً من أجنحته ، وقوّاته الاحتياطيّـــة.

الفصل الثالث

الفصل الثالث

مشاركة أعراب الشام

في سياسة المماليك الداخلية

أولاً : دور أعراب الشام في إحياء الخلافة العباسية .

ثانياً : موقف أعراب الشام من حركات التمرد والعصيان المملوكية :

(أ) في عهد الدولة المملوكية الأولى (التركية) :

- حركة سنقر الأشقر .
- حركة قراسنقر الجوكندار .
- عصيان يلبغا اليحياوي .
- عصيان بَيْبُغا أرُس .

(ب) في عهد الدولة المملوكية الثانية (الجركسية) :

- حركة يلبغا الناصري ومنطاش .
- عصيان دمرداش المحمدي .
- حركة جكم .
- تمرّد تغري برمش .

ثالثاً : العلاقة بين أعراب الشام والتركمان .

مشاركة أعراب الشام في سياسة المماليك الداخليّة

تمهيـــــــــــــــد:

اتّجهت سياسة المماليك إلى الانفراد بالحكم ، لكنّها لــم تتجـاهل أعـراب الشـام ومصــر . ففي الوقت الذي انشغل فيه المماليك بمواجهة ثورات أعراب مصــر والفتــن التي شهدتها القاهرة ؛ كان أعراب الشام يشاركون السلطة المملوكية في سياستها الداخليـة إلى حدٍ ما .

وللوقوف على طبيعة مشاركة أعراب الشام في سياسة المماليك الداخلية فــي بــلاد الشــام ، فإنّ ضرورة محتوى هذا الفصل تقتضي استعراض دور العــرب فــي إحيــاء الخلافة العباسية ؛ ثم إلقاء الضوء على موقفهم من حركات التمرد والعصيان التي قام بها أمراء المماليك حين اتّخذوا من بلاد الشام مسرحاً لصراعاتهم على السلطة.

ولمّا كان من الصعب التحدث عن موقف أعراب الشام بصورة منفصلة عــن تلــك الحركات التي تشبه السلسلة المعقّدة ، لذلك سيتمّ استعراض أهم أحداثها لاستخلاص موقف الأعراب المؤيد أو المعارض لها.

وحين شكّل التركمان قوة مؤثّرة جديدة في المنطقة منذ القــرن الثــامن الــهجري ، فســيتمّ التعرف على طبيعة العلاقات البدويّة – التركمانية من خلال إشارات متناثرة فــي المصادر التاريخية.

أولاً _ دور أعراب الشام في إحياء الخلافة العباسيّة :

كان بعض أمراء عرب الشام يقومون بمهام سياسية إمّا من تلقاء أنفسهم أو بتكليــف من سلاطين المماليك ؛ فمن أمثلة ذلك مشاركة الأمير عيسى بن مهنا في إحياء الخلافــة العباسية.

ويعود أمر إحياء الخلافة العباسية إلى سنة ٦٥٩ / ١٢٦١ ، بعد أنْ شَغَرَ منصبــها نحو ثلاث سنوات ونصف (٦٥٦ – ٦٥٩ / ١٢٥٨ – ١٢٦١)، أي بعد مقتل الخليفــة العباسي المستعصم بالله (أبو أحمد) ٦٤٠ – ٦٥٦ / ١٢٤٢ – ١٢٥٨ ، على يد المغول حينما اجتاحوا بغداد بقيادة زعيمهم هولاكو .

وفي القاهرة ، سعى الظاهر بيبرس في السنة التالية من سلطنته إلى إعادة الخلافة العباسية إلى مكانتها ولكنّ في القاهرة. وكان يهدف من وراء ذلك إلى إيجاد سند شرعيّ لحكمه ، وتقوية عرشه بين نظرائه المماليك الطامعين بالسلطنة. ويُعلّلُ مويـر (m uir) سعي بيبرس لإحياء الخلافة العباسية بمصر إلى خشيته من قيام الشيعة بإرجاع الدولة الفاطمية [١].

ولم يكن الظاهر بيبرس أوّل من فكّر في إحياء الخلافة العباسية بل سبقه إلى التفكير في ذلك الملك يوسف الناصر الأيوبي صاحب دمشق سنة (٦٥٧ / ١٢٥٩) ؛ فما كاد يعلم من الأمير عيسى بن مهنّا أنّ أميراً عباسياً يُدعي (أبو العباس أحمد بن علي الحسن ابن أبي بكر بن الحسن بن علي القُبّي بن المسترشد بالله الحاكم بأمر الله) فيما بعد ؛ قَدِم الشام بعد أخذ المغول بغداد ، وكان قد خرج منها بصحبة جماعته ، فقصد حسين بن فلاح أمير بني خفاجة من عرب العراق ، فطالع به الناصر يوسف ؛ فأرسل يستدعيه ، لكنّه فُوجئ بقدوم المغول ، فعاد الأمير العباسي إلى ديار عيسى بن مهنّا [٢].

وكذلك حاول المظفّر قطز عندما دخل دمشق بعد انتصاره في موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ ، فإنّه اجتمع بالأمير العباسي المذكور بوساطة الأمير عيسى بن مهنّا، وبايعه بالخلافة ، وعيّن في خدمته جماعة من أمراء عرب الشام. ثم سيّره إلى بغداد ففتح عانة والحديثة وهيت والأنبار وانتصر على المغول [٣].

يتضح مما تقدّم محاولات أمراء الأيوبيين والمماليك في إحياء الخلافة العباسية. وقد ظلّت هذه الرغبة كامنةً حتى تولّى الظاهر بيبرس عرش سلطنة المماليك ؛ فشرع في تنفيذ ما فكّر فيه هؤلاء لكي يُعزّز مكانته. وقد تحققت آماله في إحياء الخلافة العباسية عندما ورد إليه كتاب من الأميرين علاء الدين طيبرس * نائب دمشق ، وعلاء الدين

---

(١) W. Muir , The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt , PP. 14 - 15 .

– هذا التفسير ، لم نجد ما يؤيده في المصادر التاريخية العربية ، ولعلّه اعتقد أن وجود الطائفة الاسماعيلية في بلاد الشام آنذاك والتي كانت على عداء مع بيبرس ، ربّما تفكّر في إحياء الخلافة الفاطمية ؛ لكنّها كانت ضعيفة وغير قادرة على الإطاحة بعرش بيبرس.

(٢) ابن أيبك الدوادار ، الدرة الزكية ، ص : ٨٧ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص : ٤٢٨ .

(٣) السيوطي ، م.ن . ص . ن .

– لكنّ ابن أبي الفضائل ؛ يكتفي بقول قطز إلى عيسى بن مهنا : " إذا رجعنا إلى مصر ، أنفذه إلينا .... ".
(النهج السديد ، ١/ ٩٣).

* علاء الدين طيبرس : هو صهر بيبرس ، تولى نيابة دمشق سنة ٦٥٩هـ ، ثم عُزل وصودرت أمواله. وقد توفّي سنة ٦٨٩هـ . (محمد دهمان ، ولاة دمشق ، ص : ٦٠).

أيدكيـن البندقداري * ؛ بأنّه ورد الغوطة رجل ادّعى أنّه أبو القاسم أحمد الأسـمر بـن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر ، وهو عم المستعصم وأخـو المستنصـر ، ومعـه جماعـة مـن عـرب خفاجة ** في قريب الخمسين فارساً. وأنّ الأمير سيف الديـن قلج البغدادي عَرَفَ أمراء العرب المذكورين ، وقال : بهؤلاء يحصل المقصود (١).

وسرعان ما كتب بيبرس إلى نائب دمشق بالقيام على خدمة (أبو القاسـم أحمـد) وتعظيم حرمته ، وأن يُسيّرَ معه حجّاب من دمشق ، فسار أبو القاسم أحمد إلى القـاهرة مكرّماً أي تكريم. ويروي ابن أيبك الدوادار ، " فلما ملك الظاهر وفد عليه المستنصر بالله مع جماعة من بني مهارش ، وهم عشرة نفر يتقدّمهم الأمير ناصر الديـن مـهنّا " (٢). ويؤكّـد ابن تغري بردي على مرافقة عيسى بن مهنّا لأبـي القاسـم أحمـد إلـى القاهـرة بقولـه : " وفد عليه مع جماعة من بني مهارش وهم عشرة أمراء يتقدّمهم ابـن قَسَا وشرف الدين بن مهنّا " (٣) وهو عيسى بن مهنّا كمـا يذكـره فـي ترجمتـه سـنة ١٢٨٤/٦٨٣ .

ولمّا وصل الأمير العباسي مصر ، خرج الظاهر بيبرس من قلعة الجبـل إلـى لقائـه ومعه الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنّا ، وقاضي القضاة تاج الدين بـن بنـت الأعز ، وسائر الأمراء ، وجميع العسكر ، وأعيان القاهرة ؛ وخرجت اليهود بـالتوراة ، والنصارى بالإنجيل(٤). وعندما وقعت عينه على الأمير العباسي نزل عن فرسه ونـزل الإمام عن فرسه وتعانقا. وسار السلطان بالأمير إلى باب النصر ، وشقّ القاهرة وقد لبس الشـعار العباسـي (الأسود) ، وخرج الناس لرؤيته. وصَعِد قلعة الجبل وهو راكـبٌ ، وأُنْزِل في مكانٍ قد هُيّء له فيها ، وبالغ السلطان بإكرامه (٥).

---

* علاء الدين أيدكين البندقداري : هو أستاذ الظاهر بيبرس ، وكان من مماليك الصالح نجم الدين أيوب ، ولما تولّـى بيبرس السلطنة كان يُعظّمه ويعترف له بحق التربية ، وكان هذا يبالغ في خدمة بيبرس.
وقد توفي سنة ٦٨٤هـ . (محمد دهمان ، ولاة دمشق ، ص : ٥٩) .

** يذكرهم اليونيني والسيوطي بعـرب بـني مهـارش.
(ذيل مرآة الزمان ، ١/ ٤٤١ ؛ تاريخ الخلفاء ، ٢/ ٤٢٧).

(١) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص : ٢١٣ ؛ والمقريزي ، السلوك ، حـ١ ق٢ / ٤٤٨ .

(٢) ابن أيبك الدوادار ، الدرة الزكية ، ص : ٧٢ .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٧/ ١٠٩ ، ٣٦٣ .

(٤) اليونيـني ، م.س ، ٤٤١/١ ؛ المقريـزي ، م.س، حـ١ ق٢/ ٤٤٩ ؛
والسيوطي ، م.س ، ص : ٤٢٧ - ٤٢٨ .

(٥) المقريزي ، م.س ، ج١ ق٢ /٤٤٩ .

ولم تمضِ أيام ، حتى أمر بيبرس بعقد مجلس لإثبات نسب الأمير العباسي ، فعقد بحضور الوزير وقاضي القضاة ونوّاب الحكم وعلماء وفقهاء القاهرة والمشايخ وأعيان الصوفيّة ، والأمراء والتجار ؛ كما حضره الشيخ عز الدين بن عبد السلام. وقد جلس السلطان بغير كرسي إلى جانب الأمير العباسي. فشهد الأعراب الذين قَدِموا معه ، وأقاموا البيّنة ؛ وقُرئ نسب الأمير العباسي ، فأثبته قاضي القضاة ، ثم بايعه بالخلافة ، وتبعه بالمبايعة السلطان بيبرس على العمل بكتاب الله وسنّة رسوله ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ؛ ثمّ بايعه الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ، وتبعه الأمراء وكبار رجال الدولة ، ولقّبوه بالمستنصر بالله (١).

ثم كتب الظاهر بيبرس إلى نوّابه لأخذ البيعة للخليفة من الناس ، وأمر بنقش السّكة باسميهما ؛ كما أمر بالدعاء للخليفة قبل الدعاء له في خطبة الجمعة. ثم دعاه ليخطب ويصلّي بالناس صلاة الجمعة. فركب الخليفة من البرج المقيم به في القلعة ودخل مسجد القلعة وعليه ثياب سود ، وصعد المنبر ، وخطب خطبة بليغة ذكر فيها شرف بني العباس ، وأثنى على فضل الظاهر بيبرس الذي ردّ الخلافة لهم ؛ وصلّى بالناس صلاة الجمعة (٢).

وعلى الرغم من مبايعة الخليفة المستنصر بالله بعد أن ثبت نسبه ، فإنّ بعض المؤرخين حاولوا الغمز والتشكيك في نسبه العباسي. ويظهر ذلك من قول أبي الفداء : " وفي رجب من هذه السنة (٦٥٩/١٢٦١) ، قدِم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخصٌ أسود اللّون اسمه أحمد ، زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله " (٣). كما أن ابن أبي الفضائل يُسمّيه بالمستنصر بالله الأسود (٤).

يبدو أن هذا الشكّ بصحّة نسب الخليفة ربّما تطرّق إلى مثل هؤلاء المؤرخين من سواد لونه. والواقع أن سواد اللون لا يمنع صحة النسب. كما أنّ ابن إياس يذكر بأنّ أم الخليفة المستنصر بالله كانت حبشية الأصل (٥). وكذلك فإنّ غالبيّة المؤرخين الذين طرقوا هذا الباب لم يذكروا شيئاً يشير إلى الشكّ في صحة نسبه ، بل يُسلسلونَ نسبه إلى عبد الله ابن العباس الهاشمي.

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١/ ٤٤٢ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ٢٣٢ .

(٢) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص : ٢١٣ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ٤٥٣ – ٤٥٦ ؛ والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص : ٤٢٧ .

(٣) أبو الفداء ، المختصر ، ٣/ ٢١٢ .

(٤) ابن أبي الفضائل ، النهج السديد ، ١/ ١٠٥ .

(٥) ابن أيبك الدوادار ، الدرة الزكية ، ص : ٩٣ ، وابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق١ / ٣١٤ – ٣١٦ .

ولمّا كان الظاهر بيبرس يرغب بإحاطة عرشه بهالة من الهيبة والاحترام ، فإنه رأى أن يفوّض الخليفة العباسي تقاليد الحكم. ففي سنة ٦٥٩ / ١٢٦١ ، ضربت خيمة للخليفة وأخرى للسلطان خارج القاهرة ، وتقدّم الخليفة بالخلعة وهي : عمامة سوداء مذهّبة مزركشة ، ودرّاعة (جبّة صوف وصدريّة) بنفسجية اللون ، وطَوْقٌ من ذهب ، وعدة سيوف ؛ وألبس الخليفة السلطان الخلعة بيده ، وطوّقه وقيّده. ثم نُصِبَ منبرٌ فَصَعِدَ إليه فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء وتلى مرسوم التقليد وهو من إنشائه. ولما فرغ من قراءته ركب السلطان والخليفة وشقّا القاهرة وعادا إلى القلعة بموكب مهيب[١].

ولما أراد الخليفة المستنصر بالله العودة إلى بغداد لاستعادتها من المغول ، جهّزه الظاهر بيبرس ؛ فرتّب له أتابك بألف فارس ، واستادارً ، وشرابياً ، ودوادارً ، ولكلّ منهم خمسمائة فارس ؛ وخازندار بمائتي فارس ، وحاجباً وكاتباً ، وقاضياً ووزيراً. ورتّب له مائة فرس ، وثلاثين بغلاً ، ومائة جملٍ ، وأنفق أموالاً وصلت إلى نحو مليون دينار من ذهب ، وأمّن له كلّ ما يحتاجه ومن وفد معه من أعراب العراق [٢].

فلما تهيّأ كلُّ ذلك ، سافر السلطان مع الخليفة إلى دمشق وبصحبتهما أولاد صاحب الموصل * ، والأمير عيسى بن مهنّا. وحينما وصلوا إلى دمشق ، استقبلهم نائبها ، ونزل السلطان في قلعة دمشق ، ونزل الخليفة بالتربة السلطانية بسفح جبل قاسيون [٣].

وكان السلطان عازماً على إرسال عشرة آلاف فارسٍ مع الخليفة لاستعادة بغداد، ويكون أولاد صاحب الموصل في خدمته. فخلا أحدهم بالسلطان وأشار عليه ألاّ يفعل ذلك : " فإنّ الخليفة إذا استقر ببغدادَ نازعك وأخرجك من مصر " [٤] ؛ فدخل

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١/ ٤٤٣ - ٤٤٩ ؛ الصقاعي ، تالي كتاب وفيات الأعيان ، ص : ٢- ٣ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ٤٥٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٧/ ١٠٦ - ١٠٧ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٢/ ٥٣ - ٥٨ .

(٢) الصقاعي ، م.س ، ص : ٣ ؛ المقريزي ، م.س ، ص : ٤٦٠ - ٤٦١ ؛ والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص : ٤٢٧.

* أولاد صاحب الموصل : هم الملك الصالح اسماعيل صاحب الموصل ، والملك المجاهد اسحق صاحب جزيرة ابن عمر ، وأخوهما المظفر صاحب سنجار. وفدوا على الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩/١٢٦١ . (انظر : أبو الفداء ، مختصر البشر ، ٣/ ٢١٣).

(٣) المقريزي ، م.س ، ص : ٤٦٠ .

(٤) المقريزي ، م.س ، ص: ٤٦٢ .

الوسواس إلى قلب السلطان ، ولم يبعث معه سوى ثلاثمائة فارس ، وتركه يخترق البادية مع قوة من الأعراب والتركمان [١]. وبذلك تركه إلى قدره المحتوم.

وعندما وصل الخليفة إلى الرحبة ، فارقه أولاد صاحب الموصل بحجّة أنّه ليس معهم مرسوم من السلطان. ثم وفد عليه الأمير (علي بن حديثة) من أمراء آل فضل ومعه أربعمائة فارس من العرب ؛ و التحق به نحو ستين مملوكاً من مماليك أولاد صاحب الموصل. ولحق به الأمير عز الدين بن بركة من حماه في ثلاثين فارساً [٢].

ثم رحل الخليفة من الرحبة إلى مشهد علي في العراق ، فلما وصل عانة وجد رجلاً ادّعى أنّه من بني العباس هو (الأمير أبو العباس أحمد بن الأمير أبي علي الحسن القُبّي بن المسترشد بالله) ومعه سبعمائة فارس تركماني. وكان الأمير شمس الدين آقوش البرلي قد بايعه خليفة باسم الحاكم بأمر الله ، وجهّز له الفرسان ، وبعثه إلى بغداد ؛ فاجتمع بالأمير أحمد ، واتفقا على إقامة الدولة العباسية في بغداد [٣]. ثمّ سار إلى الحديثة، وخرج يُريد (هيت) – وقد كتب إلى الظاهر بيبرس بذلك – لكن أهلها أغلقوا المدينة بوجهه ، فحاصرها ثم دخلها. ولما بلغ نوّاب المغول ببغداد قَصْدَ المستنصر بالله ، خرج (قُرابُغا) مقدّم المغول بخمسة آلاف جندي ، وقصد الأنبار لملاقاة المستنصر بالله، فنهبها وقتل معظم أهلها [٤].

وحين وصل الخليفة الأنبار ، رأى طلائع المغول ؛ فبدأ بترتيب عسكره ؛ فجعل الأعراب ميمنةً ، والتركمان ميسرةً ، وباقي العسكر قلباً ؛ وحمل بنفسه على المغول فكسر مقدّمتهم ؛ لكنّ الأعراب والتركمان خذلوه حين خرج لهم كمين مغوليّ ، ففرّ العرب والتركمان ، وأحاطت قوات المغول بمن بقى مع الخليفة. ورغم صدق عسكر الخليفة بالقتال ، إلاّ أنّ قوات المغول تمكّنت منهم ، ولم يُعثر للمستنصر بالله على خبر. وأمّا الأمير العباسي أحمد (الحاكم بأمر الله) فقد تمكّن من الهرب مع جماعته نحو بلاد الشام [٥]. وبذلك انتهت خلافة المستنصر بالله سنة ٦٦٠ / ١٢٦٢ ، ولم تستمرّ أكثر من ستة أشهر.

(١) W. Muir , The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt , P . 16.

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٧ / ١١٥ .

(٣) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١/ ٤٥٥ ؛ والمقريزي ، السلوك ،جـ١ ق٢ /٤٦٢ .

(٤) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص : ٢١٥ ؛ واليونيني ، م.س ، ص : ٤٨٥ – ٤٨٦ .

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ٢٣٣ ؛ المقريزي ، م.س ، ٤٦٣ – ٤٦٧ ؛ ابن تغري بردي ، م.س ، ٧/ ١١٣ – ١١٧ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص : ٤٢٨ ؛ وابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق١ / ٣١٨ – ٣١٩ .

وعندما وصل الأمير العباسي الرحبة ، استجار بأمير العرب عيســـى بــن مــهنّا فأجاره. ثم كاتب فيه الظاهر بيبرس ، فطلبه السلطان ، فوصل القاهرة بصحبة الأمـــير عيســى بـــن مهنا ؛ فأكرمه السلطان ، واستمرّ بقيّة العام بلا بيعة ، والسكّة تضرب باسم المستنصر بالله المقتول [١].

وفي الثامن من محرم سنة ٦٦١ / ١٢٦٢ ، عقد السلطان مجلســاً عامــاً حضــره الوزير وقاضي القضاة والعلماء والفقهاء والأمراء ليُثبت نسب الأمير العباسي. فلما شـهد الشهود ، قُرئ نسبه ، وثبّته قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، فبايعه بالخلافــة ، ثم بايعه السلطان ولقّب الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين [٢].

ولما تمّت البيعة ، أقبل الخليفة الحاكم بأمر الله ، وقلّد السلطان أمور البلاد والعباد ، وأقامه قسيمهُ (قسيم أمير المؤمنين) ، وفوّض إليه سائر الأمور [٣]. وفي اليوم التالي ، ظهر الخليفة وعليه السواد ، وصَعِد المنبر ، وخطب خطبة الجمعة ، ثمّ صلّى بالنـــاس. وفي اليوم نفسه خُطِب على منابر القاهرة بالدعاء للخليفة الحاكم بأمر الله ؛ وكُتِــب إلــى نوّاب السلطنة في بلاد الشام لأخذ البيعة له [٤].

وبذلك أُعيدت الخلافة العباسية ثانية إلى القاهرة ، بيدَ أنّه في هذه المرّة لم يكن هناك تفكير في إرسال الخليفة الحاكم بأمر الله إلى بغداد. وقد استمرت خلافةُ الحاكم بــأمر الله زُهاءَ أربعين عاماً [٥] ؛ لكن سُلطته ظلّت دينية.

وبالرُغم من مبايعة الخليفة الحاكم بأمر الله ، فإنّه يبدو أن مسألة الخلافة العباسية لم تُحسم تماماً ؛ إذ لم تمض ثلاث سنوات على المبايعة ، فإذا بالظاهر بيبرس يرســل مــن دمشق إلى القاهرة رجُلَيْن ادّعيا أنّهما من بني العباس [٦]. كما وفد إلى القاهرة علي بــن الخليفة المستعصم [٧]. يظهر من هذا أن أبناء البيت العباسي ينظرون إلى القاهرة ملجــأً آمناً لهم في ظلّ سلطة المماليك.

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١/ ٤٨٧ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ٤٦٨ .

(٢) المقريزي ، م.ن ، ص : ٤٧٧ .

- يروي أبو الفــداء : " في أواخر ذي الحجة من سنة ٦٦١هـ ، عقد بيبرس مجلساً عاماً ، وأحضر رجلاً من نســل بني العباس يسمّى أحمــد ، وأثبت نسبــه وبايعــه بالخلافــة ".

(المختصر ، ٣/ ٢١٥).

(٣) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٢/ ٥٩ .

(٤) المقريزي ، م.س ، جـ١ ق٢ / ٤٧٩.

(٥) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص : ٤٢٩ .

(٦) النويري ، نهاية الأرب ، ٢٨/ ١٢٩ .

(٧) المقريزي ، م.س ، ص : ٥٥٤ .

وإذا كان الظاهر بيبرس قد أحيا الخلافة العباسية ليقوّي مركزه في الحكم ، فإنّه بدأ بأخذ الحيطة إزاء نفوذ الحاكم بأمر الله ، فاحتفظ بثلاثة من بني العباس كورقة يهدّد بها الحاكم بأمر الله كلّما فكّر بالتدخّل في شؤون السلطنة ، فالخليفة البديل في القاهرة. لهذا كلّه، جعل بيبرس من الخليفة شخصاً عادياً مُراقباً في القلعة لا يُمثّل سوى رمزٍ ديني.

وبعد الوقوف على المجريات ، وتحديد دور الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية ، يمكن تفسير اهتمام أعراب الشام بإحياء الخلافة العباسية على النحو التالي :

إنّ تحرك أمير العرب عيسى بن مهنّا في هذا الاتجاه له بواعثه ، كما أنّ مساعدة الأمير علي بن حديثة للخليفة المستنصر بالله للوصول إلى بغداد يسير في الاتجاه نفسه.

ومن هنا ، يمكن القول أنّ اهتمام أعراب الشام وحرصهم على إحياء الخلافة العباسية في القاهرة يعود مردّه إلى باعثين : الباعث الأول ديني ؛ فوجود خليفة للمسلمين ضرورة دينية لرعاية أمور المسلمين الدينية والدنيوية ؛ وحتى لا يبقى منصب الخلافة شاغراً مدة أطول من هذه المدة (٦٥٦ - ٦٥٩هـ). ويعزّز هذا الباعث شهادة أحمد بن تيمية لأعراب الشام بالتقوى والصلاح ، وكذلك شهادة ابن كثير الدمشقي للأمير عيسى بن مهنّا بالتديّن والتقوى.

والباعث الثاني سياسي ؛ فوجود خليفة للمسلمين في القاهرة يمكن أن يحدّ من تسلّط المماليك على أهل البلاد ، فالمماليك اعتبروهم عامة وأحياناً رُعاعاً. وقد دفع هذا التفكير بالأعراب أحياناً بالتصريح بأنّهم أحقّ من المماليك الغرباء الأرقّاء. ويضاف إلى ذلك، ضرورة إبقاء الخلافة وحصرها بالجنس العربي فالعرب مادة الإسلام.

ومن هنا ، لم يقف أعراب الشام متفرّجين على تصرّفات المماليك ، فهم يشكّلون قوة سياسية وعسكرية لا يجوز تجاوزها تماماً. فتنبّه بعض سلاطين المماليك إلى حجم أعراب الشام وأهميتهم ، فعملوا على استيعابهم في النظام المملوكي ، واستحداث " إمرة العرب " في دواوينهم ، وبالتالي ، تكليفهم بحفظ الطرق ، ودرك البلاد والعداد ، كما أسلفنا في الفصل السابق [1].

وصفوة القول ، فإنّ أعراب الشام نظروا إلى الخلافة نظرة إجلال وإكبار ، فاهتموا بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، وليس بدمشق ، فالسلطة الحقيقية هناك.

---

(١) انظر : الفصل الثاني ، ص :٨٤ وما بعدها.

ثانياً : موقف أعراب الشام من حركات التمرّد والعصيان المملوكية :

(أ) حركات التمرد والعصيان في عهد الدولة المملوكيّة الأولى (التركيّة)

لم يغب أعراب الشام عن أحداث الساحة المملوكية في بلاد الشام ، فقد تراوح موقفهم بين التأييد والمعارضة لحركات التمرّد والعصيان والثورات التي قام بها بعض أمراء المماليك ضدّ سلاطينهم. فمن أهم هذه الحركات :

حركة سَنْقر الأشقر – حركة قراسنقر الجوكندار – عصيان يَلْبُغا اليحاوي – عصيان بيبغا أرُس.

● موقف أعراب الشام من حركة سَنْقر الأشقر (٦٧٨ – ١٢٨٠/٦٨٦ – ١٢٨٧):

كان الأمير شمس الدين سنقر بن عبد الله العلائي الصالحي النجمي والمشهور بالأشقر ، من أبرز مماليك الصالح نجم الدين أيوب ، ومن زملاء الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون (خشداشاً)* لهما. فلمّا تسلطن الظاهر بيبرس أسند إليه مهام عسكرية ضد المغول ، فأحرز سمعة طيبة لشجاعته ، وإقدامه ، ولنجاحه بتلك المهام. وكان سنقر الأشقر يرى نفسه أحقّ بالسلطنة من الظاهر بيبرس ، لكنّه لم يُظهر العصيان أو التمرّد في عهده تقديراً للخشداشية ولحنكة بيبرس (١).

ولما خُلع السعيد بن الظاهر بيبرس سنة ٦٧٨ / ١٢٨٠ ، اجتمع الأمراء وعرضوا السلطنة على قلاوون فرفضها مبيّناً عدم طمعه بها. فقد أحسن التدابير بهذا الرفض لأنّه أسكت ثورة المماليك الظاهرية الذين يشكّلون معظم عسكر مصر ، والقلاع والنيابات بأيديهم. وكان أشدّ ما يخشاه من نائب دمشق أيْدَمر ** ، ومن سنقر الأشقر. وأشار

---

* الخشداش : لفظ فارسي معناه في الخدمة ؛ والخشداشية ، هم الأمراء المماليك الذين نشأوا مماليك عند سيّد واحد.
(محمد دهمان ، المعجم ، ص : ٦٨ – ٦٩).

(١) ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ٨/ ١٧٢ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ١٥/ ٤٩٠–٤٩١؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨/ ٣٧ .

** هو الأمير عز الدين أيْدَمر الظاهري ، أحد أمراء الظاهر بيبرس الكبار ، عيّنه نائباً على الكرك ، ثم على دمشق سنة ٦٧٠هـ. اعتقله قلاوون ، وأفرج عنه الأشرف خليل بن قلاوون وتُوفّي في دمشق سنة ٧٠٠هـ .
(ابن الفرات ، تاريخه ، ٧/ ١٥١).

قـلاوون بـألّا تخرج السلطنة عن ذريّة بيبرس. فكان ما يُريده حين أجمع الأمـراء علـى (بدر الدين سُلامش) سلطاناً ولقّبوه بالعادل ، وله من العمـر سـبع سـنوات ؛ واختاروا قلاوون أتابكَ له ، وحَلّفوا للإثنين (١).

وقد تصرّف الأتابك قلاوون تصرّف السلاطين ، وعامله الأمراء ما يعـاملون بـه السلطان. ولمّا كان أيْدمر قد اعتقله أمراء دمشق ، فإنّه أبعد من طريق قلاوون. فما كان منه إلاّ أن عيّن سنقر الأشقر نائب دمشق ، تمهيداً للوصول إلى عرش السلطنة. فدخـل سنقر الأشـقر إلى دمشق بالأمراء والعساكر ، واحتفل الناس بدخوله وعـاملوه معاملـة السلاطين ؛ واستقر بدار السعادة *. ثم خطا قلاوون خطوة أجرأ من ذلك ، حين قبـض على كبار الأمراء الظاهرية (٢).

ولم يمض أكثر من ثلاثة شهور حتى أصبحت الطريق ممهّدة لوصول قلاوون إلـى عرش السلطنة. فدعا إلى اجتماعٍ حضره كبـار الأمـراء فـي العشـرين من رجـب ١٢٨٠/٦٧٨ ، واتفق الجميع على خلع الطفل (سُلامش) وتسييره إلى الكـرك عنـد أخيـه الملك السعيد ، وعيّنوا الأتابك قلاوون سلطاناً ، لقبوه بالمنصـور ، وحلفـوا لـه جميعـاً. واختار السلطان قلاوون الأمير عز الدين الأفرم نائباً للسلطنة في مصر (٣).

وحين أرسل المنصور قلاوون البريد إلى دمشق ، حلَف له أمراء الشـام وأعيانـها ورجال الدولة ، وامتنع سنقر الأشقر نائب دمشق عن ذلك ، وخُطِبَ له على منابر دمشق والمدن الشامية. فكان امتناع سنقر الأشقر عن القَسَم بدايةً لحركته ضد السلطان (٤).

وقد خَطَر ببال سنقر الأشقر أن يتسلطن بالشام ، ويُصبح الأمر ما كان عليـه فـي أواخر الدولة الأيوبيّة ؛ سلطانٌ في مصر ، وآخـرُ في الشام ؛ وبدأ بتمهيد الأمور لنفسه.

فلمّا أرسل المنصور قلاوون الأمير حسام الدين لاجين إلى دمشق وفي يده مرسـوم بأن ينزل قلعة دمشق ، ارتاب منه سنقر الأشقر ، فجمع الأمراء وبيّـن لـهم اعتراضـه علـى خلـع العادل سُلامش بن الظاهر بيبرس من السلطنة بتدبير من قلاوون ؛ واعتلائه

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٧/٤-٨ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ٤٩١/١٥ ؛ ابن الفرات ، تاريخه ، ١٤٠/٧-١٤١ ؛ ابن خطيب الناصرية ، الدر المنتخب ، مخطوط ، ورقة : ٤٩٥ .

* دار السعادة : هي دار أيوبيّة ؛ وقد رُقّمت وجددت مراراً في عهد المماليك ؛ وصار أمراء المماليك يحلون فيها. (محمد دهمان ، ولاة دمشق ، ص : ٣٨-٣٩).

(٢) ابن الفرات ، م.س ، ١٤٩/٧-١٥٠ .

(٣) اليونيني ، م.س ، ٨/٤ ؛ وابن الفرات ، م.س ، ص : ١٥٢ .

(٤) اليونيني ، م.س ، ص.ن ؛ وابن الفرات ، م.س ، ص.ن .

عـرش السلطنة. ودعاهم إلى طاعته ، واستحلفهم لنفسه فاستجابوا له ، فأعلن اسـتقلاله بالبلاد الشاميّة [١].

وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة (٦٧٨ / ١٢٨٠) ، سار سنقر الأشـقر بالعسكر من دار السعادة ودخل القلعة ، واعتقل لاجين. ثمّ حلّـف الأمـراء والجنـد ، وتسلّطن ، وتلقّب بالملك الكامل ، فنودي في دمشق بسلطنته [٢] ثمّ طلب القضاة والعلمـاء ووجهاء دمشق إلى مسجد القلعة ، فبايعوه سلطاناً ، وأصدر القاضي شـمس الديـن بـن خلكان فتوى تجيز مقاتلة السلطان قلاوون [٣]. ثمّ جهّز رسله إلى نواب الشـام والقـلاع ليُحلّفَ له ، فلاقى تأييداً من معظمـهم. كما سارع بإرسال عساكر الشام إلى غزّة لحفـظ الحدود الشامية مع مصر ومنع دخول عسكر مصر إليها [٤].

ثمّ كتب سنقر الأشقر إلى أمراء العرب فلاقت دعوته استجابة كبيرة منهم ، فوفـد عليه الأمير عيسى بن مهنّا أمير العرب ، فاستقبله الأشقر ، وأجلسه عـن يمينـه فـوق الحاضرين من المماليك. كما قَدِمَ عليه الأمير أحمد بن حجّي أميـر آل مـرا ، فأكرمـه الأشـقر وأعزّ وفادته [٥].

وقد كان لموقف الأمير عيسى بن مهنّا المؤيد للأشقر أثره الكبير في نفس السـلطان قلاوون مما دفعه إلى عزله عن إمرة العرب ، وتعيين الأمير فخر الدين عثمان بن مانع ، والأمير شمس الدين محمد بن أبي بكر أميرين على العرب مناصفة عوضاً عن عيسى بن مهنّا. كما نزع إقطاع عيسى بن مهنّا ونقله للأميرين المذكورين. ثم عيّن الأمير حسـام الدين درّاج أميراً لآل عامر ، وحدّد إقطاعه حول الرّستن بالقرب من حمص [٦].

حاول المنصور قلاوون إنهاء حركة سنقر الأشقر بالوسائل السلميّة ، فأرسل إليـه يلومه على تصرّفه ، ويقبّح فعلته ، وأن يعود إلى صوابه ؛ وتتّحد الكلمة لمواجهة أعـداء الدولة. لكن هذه الدعوة لم تلقَ استحساناً عند سنقر الأشقر. فاتجه قلاوون إلى اسـتخدام القوة لإنهاء هذا التمرّد ، فأنفذ عسكراً إلى غزّة سنة ٦٧٩ / ١٢٨٠ ، لـيرى ردّة فعـل

---

(١) ابن أيبك الدواداري ، الدرّة الزكيّة ، ص : ٢٣٤ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٣/٦٧٨ .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٤/ ١١ ، ابن أيبك الدواداري ، م.س ، ص : ٢٣٤ ؛ وابن خطيب الناصرية، الدر المنتخب ، مخطوط ، ورقة : ٤٩٧ .

(٣) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص : ١٩٦ ؛ أبو الفداء ، مختصر البشر ، ٤/ ١٣ – ١٤ ؛ والمقريزي ، م.س ، جـ١ ق٣ / ٦٧٨ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ،؛ وابن خطيب الناصرية ، م.س ، ورقة : ٤٩٧ .

(٥) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ٤٩٢/١٥ ؛ ابن حبيب ، درة الأسلاك ، مخطوط ، ورقة : ٥٦ ؛ المقريزي ، م.س ، ٦٧١–٦٧٤ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٢٩٤/٧–٢٩٥ .

(٦) ابن الفرات ، تاريخه ، ١٧٧/٧ ؛ والمقريزي ، م.س ، ٦٧٩ .

الأشقر ، لكنّ عساكر الشام التي أرسلها الأشقر تصدّت لعساكر مصر ومنعتها من دخـول غزّة٠ ثم أعـاد أمراء العسكر المصري الكرّة على عساكر الأشـقر ، فانسـحبوا نحـو الرملة (١)٠

ولم يكتف قلاوون بذلك ، بل جهّز جيشاً كبيراً بلغ تعداده نحو ستة آلاف جنـدي ، وسلّم إمرته للأمير سَنْجر الحلبي ؛ فتراجعت عساكر سنقر الأشقر إلى دمشق للدفاع عنها؛ ووصلت طلائع عسكر قلاوون إلى أطراف دمشق٠ ولمّا كان سنقر الأشقر قد استمال إليه بعض أمراء الشام ، فإن النجدات أتته من حلب وحماة وبعلبك٠ وحضر إليه الأمير عيسى ابن مهنّا بفرسان عربه ؛ وكذلك فعل أحمد بن حجي٠ وقد بلغ تعداد قوّاته إثني عشر ألف جندي٠ وخرج الأشقر بنفسه وضرب خيمة بظاهر دمشق ، ووزّع المهـام على أمرائـه استعداداً للمعركة الفاصلة٠ كما " قرّر مع العربان الذين جمعهم أن يقاطعوا ساعة الملتقى على العساكر المصريّة ، ويجيئونهم من ورائهم ، ويحطّوا أيديـهم فـي نـهب الأثقـال والغلمان والجمال ليثنوا إليهم عنانهم٠٠٠٠٠٠" (٢)٠

وفي الخامس عشر من صفر ، التقى الجمعان ، عسكر مصر وعسكر الشـام فـي موقعة حامية في أرض الكسوة ، واستمر القتال من طلـوع الشـمس حتّـى وقـت العصر٠ وقد نفّذ فرسان العرب ما أوصوا به من نهب الأثقال والأحمال ؛ لكـنّ سـنجر الحلبي * منع جنوده من مقاتلتهم قائلاً : " لا تلتفوا إليهم ولا تعرّجوا عليهم ، وشأنكم ومن أمـامكم ، فإنّا إذا هزمناهُم استرجعْنا الذي لنا ، وغنمنا الذي لهم ، فأطاعـوه وتقدّمـوا، فاسـتظهروا وغنموا " (٣)٠ وفي الوقت نفسه تآمر أكثر عسكر الشام على سنقر الأشقر ، وغدروا به ، فانحازوا إلى معسكر سنجر الحلبي ، ولم يثبّت مع الأشقر إلاّ عيسى بن مهنّا وفرسانه٠ ولما توقف القتال، لحق سنجر الحلبي بالأعراب ، وأعاد ما نهبوه (٤)٠

والجدير بالذكر ، أنّ عيسى بن مهنّا لمّا رأى حدوث الهزيمة ، أمر فرسانه بحمايـة سنقر الأشقر ، فحملوه من أرض المعركة ، وساروا به إلى غوطـة دمشـق ، ودخلـوا المرج، وقصدوا بريّة الرحبة حيث ديار عيسى بن مهنّا٠ فأجاره ابن مهنّا ، ونصب لـه بيتاً من الشّعَر ٠ وأما أصحاب الأشقر فقد تفرّقوا عنه ، وتراجع أكـثرهم إلـى عسـكر

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٣ / ٦٧٥ ٠

(٢) بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، مخطوط ، جـ٩/ ١٠٣ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٧/ ٢٩٥

* هو الأمير الكبير علم الدين سنجر الحلبي ؛ من أكابر أمراء الصالحية النجميّة ، وأول نائب في دمشق سنة ٦٥٨هـ، حين عيّنه المظفر قطز٠ ولما تولى بيبرس رفض الخضوع له وتلقّب بالملك المجاهد ، لكن بيبرس هزمه واعتقله٠ وتُوفيّ ٦٩٢هـ٠ (ابن طولون الصالحي ، إعلام الورى ، ص : ٣٢)٠

(٣) بيبرس المنصوري ، م٠س ، ص٠٥٠

(٤) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ٤٩٢/١٥ ؛ وابن حطيب الناصرية ، الدر المنتخب ، مخطوط ، ورقة : ٤٩٧ ٠

قلاوون. وكذلك فعل أحمد بن حجي أمير آل مرا ، فقد تخلّى عن سنقر الأشقر بعد الهزيمة ، ودخل دمشق بأمانٍ من سنجر الحلبي [(١)].

كما أنّ دور أعراب الشام في هذه المواجهة كان مجرّد تدبير عسكري اقتضته ظروف المعركة وكما دبّره سنقر الأشقر ، وإن كانت هذه المهمة لا تقلّ شأناً عن مهمة الجنود النظاميين في أرض المعركة. ولذلك لم تكن مهمة فرسان أعراب الشام هي النهب لمؤخرة الجيوش المعادية ، فقد وجدناهم يشكّلون ميمنة أو ميسرة الجيش المملوكي في المعارك المصيرية التي وقعت بين المماليك والمغول. كما أنّ قسماً من فرسان الأعراب في هذه المعركة هم الذين حملوا سنقر الأشقر من أرض المعركة وانقذوه من الأسر أو القتل.

وحين وصل الأمير عيسى بن مهنا وسنقر الأشقر إلى الرحبة ، امتنع نائبها عن التسليم ، فتوجّها إلى حمص ، لكنّهما افترقا عندما علما بخروج ثلاثة آلاف فارس من عسكر قلاوون بطلبهما. فعاد عيسى بن مهنّا إلى دياره ، ثمّ توجّه إلى بريّة العراق ، بينما اتجه سنقر الأشقر نحو حصون الساحل الشمالي ، فملك حصوناً عديدة * أهمها حصن صِهْيَون ** ، حيث أولاده وحريمه وأمواله [(٢)].

وأمّا سنجر الحلبي فقد دخل دمشق وقلعتها ، ثم نزل القصر الأبلق [(٣)] ؛ وبدأ بترتيب الأوضاع الجديدة ، وأرسل يخبر السلطان قلاوون بما جرى. فجاءه كتاب المنصور قلاوون، وفيه عفوٌ عامّ عن جميع الأمراء والجنود ، وكلّ من اشترك أو أيّد حركة سنقر الأشقر. ومما جاء فيه : "..... أنتم جعلتمونا خوارج ، فكأن سنقر الأشقر من نسل العباس !! ..... وإننا عَفَونا عن جميع الناس الخاص والعام ، أرباب السيف والقلم ،

---

(١) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ١٥ / ٤٩٣ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٣ / ٦٧٧ .

* من هذه الحصون : شيزر ، برزية ، عكار ، جَبْلَة ، اللاذقية والشغر .

(ابن كثير ، البداية ، ١٣/ ٣٤٠).

** صِهْيَون : حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص. وهو قلعة على صخر أصم في طرف جبل يظهر من اللاذقية ؛ ظلّ بيد الصليبيين حتى استرجعه صلاح الدين الأيوبي ٥٨٤هـ .

(ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٣/ ٤٩٦).

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٤/ ٤١ ؛ ابن كثير ، م.س ، ١٣/ ٣٤٠ - ٣٤١ ؛ ابن الفرات ، تاريخه ، ٧/ ١٧١ - ١٧٢ ؛ والمقريزي ، م.س ، جـ١ ق٣ / ٦٧٧ .

(٣) القصر الأبلق : بناه الفاطميون في دمشق ؛ وفي العهد الأيوبي عُرِف بالجوسق. ثمّ جدّده بيبرس من الحجر الأسود والأصفر. ثمّ حُوّل في عهد العثمانيين (سليمان القانوني) إلى تكيّة.

(محمد دهمان ، ولاة دمشق ، ص : ٢٠ ، ٤٠).

وأمنّاهم على أنفسهم وأهليهم ، وأموالهم.... " [١]. ثمّ أصدر تقليداً بتولية حسام الدين لاجين نيابة دمشق ، فاستقبله الأمراء ، ولبس الخلعة ، وعاد سنجر الحلبي إلى القاهرة. لكن انتصار الحلبي على الأشقر كان وبالاً عليه ، فقد عَظُمَ في أعين الأمراء ، ولهج بعضهم بتسميته بالملك المجاهد ، فخشي المنصور قلاوون أن يُفْلِتَ الملك منه ، فاعتقله وظلّ في سجنه حتى مات قلاوون ٦٨٩ / ١٢٩٠ [٢].

وقد ظلّ سنقر الأشقر في حصن صِهْيَوْن حتى سنة ٦٨٠ / ١٢٨٢ ، حين داهم المغول حمص ، فجرت اتصالات بين قلاوون وسنقر الأشقر ، انتهت بامتثال الأشقر واجتماع الكلمة لمواجهة المغول ، واستمر الأشقر بعد ذلك موالياً ومسالماً للمنصور قلاوون مدى حياته.

هكذا ، انتهت حركة سنقر الأشقر دون أن تَحقّق أهدافها ، وعادت دمشق بولائها للمنصور قلاوون.

وأما الأمير عيسى بن مهنّا ، فلم يُطل المقام في بريّة العراق ، إذ سرعان ما عاد إلى إعلان الطاعة والولاء للمنصور قلاوون. ففي شهر ذي الحجة ٦٨٩ / ١٢٨١ ، قدم الأمير عيسى بن مهنّا على المنصور قلاوون " في منزلة (الروحاء) من عمل الساحل قبالة عكّا ، فركب السلطان في موكبه ، وتلقّاه على بعد ، وبالغ في إكرامه واحترامه ، وعامله بالصفح والإحسان " [٣] ؛ وأعاد إليه إمرة العرب وإقطاعه [٤].

ولعل سبب عودة الأمير عيسى بن مهنا إلى طاعة السلطان قلاوون عائدة إلى الظروف المستجدة والمتمثلة بتحرك المغول لاحتلال بلاد الشام ، فالخطر على بلاده وأهله. كما أنّ دخول منافسه أحمد بن حجي أمير آل مرا إلى الطاعة قد يكون سبباً آخر لعودته. وكذلك تلك الاتصالات بين السلطان قلاوون وسنقر الأشقر والتي انتهت باجتماع الكلمة على مواجهة المغول. وأخيراً ، حسن استغلاله للعفو العام الذي أصدره قلاوون عن العام والخاص وكل من أيّد سنقر الأشقر.

نلتمس من خلال هذه الأحداث أن الدافع الذي حَدا بسنقر الأشقر للقيام بحركته هو رغبته الاستقلالية بحكم بلاد الشام. فقد اتّضحت حين تسلطن وتلقّب بالملك الكامل. لكنه أخطأ بحساباته حين اعتمد على ذلك التأييد الذي جاءه من أمراءَ من بني جلدته الطامعين بالحكم ، فهم لا يقلّون عنه بتلك الرغبة الاستقلالية ، وهو يعلم حقيقة أمرهم أكثر من

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٤/ ٤٥ ؛ وابن أيبك الدوادار ، الدرة الزكية ، ص : ٢٣٨ .

(٢) ابن خطيب الناصرية ، الدر المنتخب ، مخطوط ، ورقة : ٤٩٨ .

(٣) اليونيني ، م.س ، ٤/ ٥٤ .

(٤) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٣ / ٦٨٤ .

غيره. كما أنّه لم يُقدّر دوافع أعراب الشام من تأييده ، ومدى إمكاناتهم العسكرية. وكذلك خفي عليه دهاء قلاوون ومكره السياسي ، وقوّته العسكرية في القاهرة. كلّ هذا قاد إلى إخفاقٍ واضحٍ وسريع لحركته الاستقلالية ، ولم تحقّق أهدافها.

وأمّا أمير العرب عيسى بن مهنا الذي أيّد حركة سنقر الأشقر ، فيمكن القول بأنّ الدافع لهذا التأييد يسير في اتجاهين ، فالاتجاه الأول : يتمثّل بالوفاء للسلطان بيبرس ولذريّته ، فقد كانت علاقته مع بيبرس حسنة بكُلِّ المقاييس ، فهو الذي أمّرهُ على العرب ، ومنحه الإقطاعات ، وضَمَنَ له الامتيازات ، وقبل شفاعاته بأمراء وأئمة مثل أحمد بن تيمية ، فمكانته محفوظة عند بيبرس. وأمّا الاتجاه الثاني : فيتمثّل برغبته الاستقلالية ، والعمل على الحدّ من سلطة قلاوون مستقبلاً ؛ فهو الذي أبعد ذرية بيبرس عن الحكم. وكذلك وصفه المؤرخون بالعدل والتديُّن ، فإنّه يرفض الظلم الواقع على بني جلدته من المماليك.

وأمّا الأمير أحمد بن حجي أمير آل مرا ، فيبدو أنّ تأييده لحركة سنقر الأشقر نابعة من دائرة المنافسة الشديدة على إمرة العرب ، وبالذات مع عيسى بن مهنّا ؛ وما إن هُزم سنقر الأشقر واستجار بالأمير عيسى بن مهنّا حتى غيّر موقفه ، وأعلن الطاعة للسلطان قلاوون من دون أن ينتظر مرسوم العفو السلطاني عن أولئك المشاركين بحركة سنقر الأشقر من مماليك وعرب. فإذا كان أحمد بن حجي يطمع بإمرة العرب فإنّ قلاوون خيّب ظنّه حين منحها لغيره من آل مهنّا ، فظلّ يحسب حسابهم ، وينتظر عودة أميرهم عيسى ابن مهنّا إلى الطاعة ؛ وهذا ما حدث بعد شهورٍ وجيزة.

• موقف أعراب الشام من حركة قراسنقر الجوكندار * الجركسي المنصوري (٧١٠ – ٧١٢ / ١٣١٠ – ١٣١٣) :

شهدت بلاد الشام حركة عصيانٍ أخرى بوجه السلطة المملوكية في السنوات الأولى من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، لكنّها تختلف بالأسباب والدوافع عن سابقتها (حركة سنقر الأشقر). فقاد هذه الحركة الأمير قراسنقر ، وانضمّ إليه الأمير آقوش الأفرم ، وأيّدها الأمير أيدمر الزردكاش. وكان لأعراب الشام موقفٌ من هذه الحركة يكاد يختلف نسبياً عن موقفهم من حركة سنقر الأشقر.

---

* الجوكندار : حامل الجوكان (العصا المدهونة) للسلطان ليلعب بالكرة من على ظهر الفرس .
(محمد دهمان ، المعجم ، ص : ٥٨).

وقَراسنقر هذا ، مملوكٌ جركسيٌّ ، اشتراه المنصور قلاوون قبل أنْ يتسلطن ، وجعله ساقياً ثمّ رقّاهُ حتّى غدا من مقدّمي الألوف بمصر ؛ وولاّهُ نيابة حماة ، ثـمّ نيابـة حلب ، وظلّ فيها لعشر سنين حتى عزله الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩١ / ١٢٩٢ ، وجعله أمير جاندار * ، فأخذ يكيدُ للأشرف خليل حتى قُتِل. لكنَّ الناصر محمد بن قلاوون عفا عنه وأنعم عليه بالإمرةِ سنة ٦٩٣ / ١٢٩٤ ، وظلّ يتقلّب في النيابات حتـى سنة ٦٩٦ / ١٢٩٧ . وفي سلطنة الناصر محمد الثانية (٦٩٨ – ٧٠٨ / ١٢٩٨ – ١٣٠٨) ، وصل قَراسنقر إلى مرتبةٍ عالية حتى صارت أمور المملكة بيده [(١)].

ولمّا استولى بيبرس الجاشنكير ** على عرش السلطنة سنة ٧٠٨ / ١٣٠٨ ، كـان قَراسنقر من أكبر الأسباب في سلطنة الجاشنكير ، لكنّ قراسنقر نَدِم علـى ذلـك فـولاّه الجاشنكير نيابة حلب. ومن وقتها أخذ قراسنقر يعمل لنفسه خوفاً من القبض عليـه [(٢)]. وقد نشط باستمالة الأمراء والجند المماليك لتأييد الناصر محمد المقيم بقلعة الكرك ، وقبّح عليهم إطاعة الجاشنكير ، وأرسل ابنه محمداً إلى الناصر محمد وألبسه (زِي الأعـواب) *** ليتمكّن من الوصول إلى قلعة الكرك [(٣)].

---

* أمير جاندار : جاندار ، لفظ فارسي بمعنى الممسك للروح ، أي الحافظ للسلطان ، فلا يأذنُ بالدخول عليه إلاّ لمن يثقُ بـه . وهو لقب للذي يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان. كمـا يشـرف علـى الزردخانة (دار السلاح). (محمد دهمان ، المعجم ، ص : ٣٠).

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٣/ ٣٣٠ ؛ ابن حبيـب ، تذكـرة النبيـه ، ص : ١٠٧ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٤٨ ؛ وابن تغري بردي ، الدليل الشافي ، ٢/ ٥٣٩ .

** بيبرس الجاشنكير : كان من مماليك المنصور قلاوون ، رقّـاه حتى أصبح جاشنكيره (متذوّق الطعام والشراب) ، ثمّ أمَّرَهُ إمرة طبلخاناة. طالب بدم الأشرف خليل بن قلاوون ، وساهم بإقامة الناصر محمد سلطاناً. ولمّا تسلطن لاجين أمَّرَهُ ، ثمّ قام بتدبير مملكة الناصر محمد ، لكنّه استبد وسلاّر بالسلطنة ، فضجر منهما الناصر وأقام بالكرك. قتلهُ الناصر سنة ٧٠٩ / ١٣٠٩ .

(ابن حجر ، م.س ، ٢/ ٣٦ – ٤٠).

(٢) ابن أيبك الدواداري ، الدر الفاخر ، ص : ٢١٩ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق١ / ٤٥ .

*** زي الأعرب : يتألّف لباس البدوي من قميص واسعٍ وطويلٍ ، وفوقه ثوبٌ له أكمام عريضة وطويلـة ، ولونه أبيـض أو رمادي ، ونسيجه من القطن ، وحواشيه مكفوفة. ويلبس البدوي عباءةً فوق الثوب تكون رقيقـةً في الصّيف ، وفي الشتاء يزيد عليها كساءً مبطّناً أو جلداً من جلود الأغنام يُسمّى (فروة أو صديريـة). ويرتدي حزاماً من الصوف. وأما غطاء الرأس فيُدعى قضاضة تحت العقال ، وغالباً ما يظهر البـدوي ملثّماً بقضاضته. والبدوي لا يلبس سروالاً. وينتعلُ البدوي (الحذوة) الخف البـسيط ، وإن مشـى البعض حفاة !!.

انظر : (أحمد وصفي زكريا ، عشائر الشام ، ١/ ٢٠٣ – ٢٠٤).

(٣) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ٥٦ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨/ ٢٤٠ .

عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى سلطنته الثالثة عـــام ٧٠٩ / ١٣٠٩ ، مسـتغلاً سمعة والده وسوء تصرّف الجاشنكير وسلاّر * ؛ فلاقى كلّ التأييد من غالبية أمـــراء النيابــــات الشامية، فكان قراسنقر أكبر مناصرٌ له وعاضده بالعســكر الحلــبي. كما أنّ الأمير أسندمر كرجي نائب طرابلس حضر إلى الكرك لمقابلة الناصر محمد وكان متخفّياً بزي الأعراب ، " فجلس الناصر وأسَنْدَمر إلى جانبه وعليه لباس العربان ، وقد ضــرب اللّثام ....." (١) ؛ واتّفقا على ملاطفة الجاشنكير حتى يتمكّنا منه. كما لاقى التأييد مــن أعراب الشام وفي مقدّمتهم آل فضل بإمرة مهنّا بن عيسى. وقدْ جنّد النــاصر محمــد عــدداً مــن أعراب الكرك لإيصال رسائله لأمراء الشام ، " وسيّر إليهم العربـــان بــها فأوصلوها إلى أربابها " (٢).

ولمّا وصل الناصر محمد إلى دمشق استقبله أمراء الشام ** ووعدوه بالنصر. ثـمّ خرج من دمشق يريد مصر ، وحينما وصل إلى غزّة ، " قدِم عليه العربان والتركمـــان ، وقدِم عليه الأمير مهنّا بن عيسى بجماعة من عرب آل فضل ، فركب السلطان إلى لقائه ، وسُرّ السلطان بذلك سروراً كبيراً " (٣).

وعندما اعتلى الناصر محمد بن قلاوون عرش سلطنته الثالثة ، شرع بترتيب أمـور سلطنته بحكمة ودهاء ، فقد عركته الأحداث ، فأفاض بالتشاريف على جميع الأمراء الذين ساعدوه بالعودة إلى السلطنة ، واستجاب لمطالبهم رغم شكّه في ولائهم له. كما أنّه لَــمْ يتوانَ عن معاقبة الأمراء الذين ساندوا بيبرس الجاشنكير في سلطنته (٤).

ولم يغب أعراب الشام عن ساحة الأحداث ، ففي سنة ٧١٠ / ١٣١٠ ، حضر أمير العرب مهنّا بن عيسى إلى القاهرة (٥) ، ومعه عدد من أمراء أعراب الشام ليهنّئوا السلطان الناصر محمد بعودته إلى الحكم ، فركب السلطان للقائهم ثم أكرمهم وأنعم عليهم (٦).

---

* سلاّر : كان من مماليك الصالح علي بن قلاوون ، فلما مات صار من خواص أبيه ، ثمّ من خواص الأشـــرف خليـــل. وناب في الملك عن الناصر محمد عشر سنوات. ولما ولي لاجين أكرمه ، وحين قُتل لاجين ندبوه لإحضـــار الناصر من الكرك ، فقدّمه على كلّ الأمراء. مات في رمضان ٧٢٠ / ١٣٢٠ .

(ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٢/ ٢٧٦ - ٢٧٨).

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨/ ٢٥٦ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، حـــ٢ ق١ / ٥٦ .

** أمراء الشام ، هم : قراسنقر ، أسندمر كرجي ، والأفرم .

(٣) المقريزي ، م.ن ، ص : ٧٢ .

(٤) انظر : بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية ، ص : ٢٠٩ - ٢١٠ ؛ المقريزي ، السلوك ، حـــ٢ ق١ / ٧ - ٧٧ ؛ وابن تغري بردي ، م.س ، ٩/ ١١ .

(٥) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، مخطوط ، ٢٦ / ١٢١ .

(٦) بيبرس المنصوري ، م.س ، ص : ٢١٠ .

وقد انتهز أمير العرب مهنّا بن عيسى هذه المناسبة ، وسأل السلطان الناصر ، فاستجاب لسؤاله في تولية المؤيّد اسماعيل (أبو الفداء) ولاية حماة [١]. وقَبِل شفاعته بالأمير أيدمر الشيخي [٢]. فعفا عنه السلطان. ولما طلب الشفاعة بالأمير (بُرلْغي) * ، عدّد الناصر محمد ذنوب هذا الأمير ، فما زال مهنا بن عيسى حتى خفّف عنه السلطان ووعده بالإفراج عنه. فرضي أمير العرب وعاد إلى دياره ومن وَفَدَ معه ، وهم كثيرو الدّعاء للسلطان والثناء عليه [٣]. وقد تبيّن فيما بعد أنّ الناصر محمد لم يوف بوعده لمهنا بن عيسى بإطلاق سراح الأمير بُرلْغي ، إذ ضيّق عليه حتّى مات بسجنه بعد أقلّ من شهرين [٤]. فجفل مهنا من السلطان الناصر ، وزاد احتراسه في كلّ تحركاته. ويمكن القول ، بأنّ نقطة الخلاف بينهما بدأت من هذا الموقف.

وأما قراسنقر فقد أقام نحو سنةٍ نائباً في دمشق وهو يرى كلّ يومٍ مصرع أمير الأمراء المماليك ، وقد أخذ الناصر ينكّلُ بهم ، فخاف قراسنقر أن يشمله التنكيل ، فطلب من السلطان نيابة حلب فقلّده إياها. لكنّ الناصر ظلّ يتعقّب قراسنقر بكلّ حيلةٍ وقراسنقر يزداد حذراً وحيطة [٥].

وفي حلب تلقّى قراسنقر تحذيراً من الأمراء ** الذين جرّدهم الناصر إلى الشام ومعهم خمسة آلاف فارس *** بحجّة الدفاع عن بلاد الشام ؛ ومما جاء في تحذيرهم له : " خُذْ حذرك ! ما خَرَجَتْ هذه التجريدة إلاّ بسبب القبض عليك ، فخذ خلاصك ، ولا تقع كما وقع غيرك .... فإنْ وقَعْتَ بين يديه شوى لحمك وأطعمك .... " [٦].

---

(١) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ٥٩ – ٦٠ .

(٢) أيدمر الشيخي : كان من مماليك الناصر محمد بن قلاوون ، وُلي نيابة حماة مرتين ، مات بحلب سنة ٧٧٣ / ١٣٧١. (ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ١/ ٤٥٧).

* بُرلْغي التتري الأشرفي ، أسَرَهُ أمير العرب مهنا بن عيسى في إحدى غاراته على المغول ، وأهداه للمنصور قلاوون ، فأعطاه لولده خليل. ترقى بالخدمة إلى أن غلب الجاشنكير وسلاّر على السلطة ، فزاحمها برلغي في الأمر والنهي. ثم تزوّج من ابنة الجاشنكير. لحق بالناصر محمد بالكرك وغدر بصهره. مات بسجنه سنة ٧١١ / ١٣١١ . (ابن حجر ، م.س ، ٢/ ١٠).

(٣) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق١ / ٨٨ .

(٤) م.ن ، ص.ن .

(٥) بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية ، ص : ٢٢٣ – ٢٢٨ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق١ / ١٠٢ .

** الأمراء هم : حسام الدين قراسنقر لاجين ، حسام الدين لاجين الجاشنكير ، وعز الدين أيدمر الخطيري .

*** يبالغ ابن بطوطة بعددهم بعشرين ألفاً . (رحلته ، ١/ ٩٣).

(٦) ابن أيبك الدواداري ، الدر الفاخر ، ص : ٢١٨ .

على ضوء هذا التحذير ، أخذ قراسنقر في التدبير لنفسه خوفاً من القبض عليه ، كما قُبِضَ على غيره من الأمراء ، فتقرّب إلى عرب آل فضل ، وصادق سليمان بن مهنّا، كما أنعم على أخيه موسى بن مهنّا ، حتى انتشرت سمعته الطيّبة بين الأعراب. ثمّ استدعى أمير العرب مهنّا بن عيسى إلى حلب ، فقدم عليه ، وأقام عنده أياماً ، وأفضى قراسنقر لمهنّا بسرّه ، وأنّه خائف على نفسه من السلطان الناصر محمد ؛ وأوقفه على كتابٍ من السلطان بالقبض على مهنا ، وأنّه غير موافق على ذلك. وكأنّ قراسنقر قاصدٌ إثارة مهنا تمهيداً لضمان موقفه ضد السلطان الناصر [١].

ثمّ بعث قراسنقر ابنه علياً إلى السلطان طالباً السماح له بتأدية فريضة الحجّ ، فأذِن له بذلك [٢]. وبهذه الموافقة قدّر السلطان بأنّها الفرصة المواتية للقبض عليه. كما تنبّه السلطان إلى اجتماع مهنّا بقراسنقر ، فأرسل إلى مهنّا يطلب منه فرساً معيّنة ، ودعاه للحضور بها إلى القاهرة ، لكنّ مهنا أرسل الفرس المطلوبة واعتذر عن الحضور [٣].

خرج قراسنقر من حلب إلى الحجاز ومعه أربعمائة مملوك ، وترك مملوكه (بلبان جركس) مع بقيّة مماليكه في حراسة أهله وأمواله. وأمّا السلطان فإنّه استناب قُرْطاي ، وأمره بألاّ يُمكّن قراسنقر من دخول حلب إذا عاد. وكتب إلى نواب دمشق والكرك وغزّة باعتراض قراسنقر والقبض عليه. كما كتب إلى أمراء بني مهدي في البلقاء وبني عقبة بالكرك للمهمّة نفسها. ولما وصل زيزاء * ، ورد عليه كتاب من مناصحيه (عيونه) في القاهرة يحذّرونه من الوصول إلى مكة ، " لقد جُرِّد عليك من الحجاز الشريف خمسمائة مملوك ، ولو أنّك متعلق بستار الكعبة ، فَخذْ خلاصك " [٤].

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ١٠٧ – ١٠٨ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٩/ ٣١ .

(٢) بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية ، ص : ٢٣٥ .

(٣) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ٦٤ ؛ ابن فضل الله العمري ، المسالك ، ٤/ ١٤٣ ؛ المقريزي ، م.س ، ص : ١٠٨؛ وابن تغري بردي ، م.س ، ص.ن .

* زيزاء (زيزياء) : " من قرى البلقاء ، يطؤها الحاج الشامي ، ويقام بها لهم سوق ، وفيهل بركة عظيمة ". وتبعد اليوم عن عمّان جنوباً نحو ثلاثين كيلو متراً.

(ياقوت ، معجم البلدان ، ٣/١٨٤).

(٤) ابن أيبك الدواداري ، الدر الفاخر ، ص : ٢١٩ .

– يدافع بيبرس المنصوري عن السلطان ، فيقول : " وصل إليه – قراسنقر – بعض مماليكه وهو في زيزاء ، فأوهموه بأنّ مولانا السلطان أبطن له مكراً وأضمر به غدراً ، وأوصى الأمراء المتوجهين بإمساكه وثنوا عزائمه عن السير.... ".

(م.س ، ص : ٢٣٥).

– لكنّ ما سُقناه من أحداث ، فإنها مؤشر على تعقّب السلطان لقراسنقر ، وكذلك قوله يوم ورده خبر وفاة قراسنقر بمراغة سنة ٧٢٨هـ : " والله ما كنت اشتهي موته إلاّ تحت سيفي ، وأكون قد قدرت عليه ".

(ابن أيبك الدواداري ، م.س ، ص : ٢٤١).

رجع قراسنقر من زيزياء ، وسار من غير الطريق التي قدم منها ، فلم يتمكّن أحدٌ من اعتراضه. واتجه صوب ديار عرب مهنّا بن عيسى بهدف الاستجارة *. وحين قرُب من بيت مهنّا ، صاح أمام بيوت النساء : " الجوارُ يا أميرَ العرب ، فـردّت عليه زوج مهنّا – عائشة بنت عسّاف – لقد أجرناك ومن معك. فقال : إنّما أطلبُ أولادي وأهلي ومالي. فقالت له : لكَ ما تحبُ ، فانزلْ بجوارنا ، ففعل ذلك " [١]. ولمّا حضر مهنّا ، رحّب بقراسنقر وطمأنه ، وأكّد له عدم التخلي عنه ، لكنه عاتبه : " يا أمير شمس الدين ، لقد أرميتَ نفسك بالنار الحمراء وأرميتنا معك " [٢]. وذكّره بأنّ حضوره كان يقتضي الحصول على إذنٍ من السلطان ؛ لكنّ قراسنقر أكّد له بأنّه لا فائدة من اللوم ، وقال : " إنّما أُحبُّ أهلي ومالي الذي تركته بحلب " [٣].

تشاور مهنّا مع أولاده وإخوانه وبني عمه بأمر قراسنقر ، فمنهم من أيّد إجارة قراسنقر، ومنهم من عارضها بقوله " كيف نحارب الملك الناصر ونحن في بلاده الشام ؟ فقال لهم مهنا : أما أنا فأفعل لهذا الرجل ما يريده وأذهب معه إلى سلطان العراق " [٤]. فكان رأي فضل بن عيسى إمساك قراسنقر وإرساله إلى السلطان كوسيلة تقرّبٍ إلى القاهرة. وأما زوج مهنا فإنّها بالغت في خدمة قراسنقر ، فهي التي أجارته. وعندما سمعت رأي فضل بن عيسى ، ندبت حظّها ، وقالت : " تَعْساً لأمّ مهنّا التي ولدت الفضل بعده ..... " وطلبت من مهنّا بألاّ يفرّط بالاستجارة [٥].

وأما قراسنقر فقد طلب من الأمير مهنّا بن عيسى الوساطة لدى السلطان ، فكلمته مسموعة هناك ، وطلب قلعة الروم ** ليكون نائباً فيها ، فله بحلب سبعة وعشرون سنة.

يبدو أنّ مهنّا في موقف حرج بين أهله ومع السلطان ومن استجار به ، لكنّه خطا خطوة لإبعاد شبح الفتنة ، والإبقاء على حسن العلاقة مع السلطنة ، وظن أن إيعاد

---

* الاستجارة : هي طلب الحماية ، وهي من العادات والتقاليد العربية الثابتة، وتتمّ عندما يطلب أحد الأعراب أو جماعات منهم الحماية من طرف آخر حين يلحق به خطرٌ أو ضيمٌ فيتعهد الطرف المجير بالحماية لمن استجار به مهما كلّف الثمن.

(١) ابن أيبك الدواداري ، الدر الفاخر ، ص : ٢٢٠ ؛ وابن بطوطة ، رحلته ، ١/ ٩٣ .

(٢) ابن أيبك الدواداري ، م.س ، ص .ن.

(٣) ابن بطوطة ، م.س ، ص : ٩٤ .

(٤) ابن بطوطة ، م.س ، ص.ن .

(٥) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٤٣ .

** قلعة الروم : قلعة حصينة تقع في غربي الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط.

(ياقوت ، معجم البلدان ، ٤/ ٤٤٣).

قراسنقر إلى قلعة الروم فيه راحة للسلطان. لكن إجراءات السلطان وتدابيره تسير في اتجاه آخر.

وحين غادر موسى بن مهنّا إلى القاهرة ، أشار مهنّا بن عيسى على قراسنقر بالعودة إلى حلب حتى يأتي ردّ السلطان ، فامتثل لطلبه. ولما حاول قراسنقر دخول حلب ، منعه قرطاي ، لأنّه بدون مرسوم سلطاني. فقرطاي شديد الحرص على تنفيذ أوامر السلطان. فأرسل قراسنقر يطلب مملوكه (جركس) وأولاده وأهله وأمواله ، فمنعه قرطاي منها. فعاد قراسنقر إلى مهنا يُعرّفه بموقف قرطاي [١].

ظلّ مهنّا بن عيسى ملتزماً بمساندة قراسنقر ، فأرسل حاجبه (محمد بن نصّار) إلى قرطاي في حلب ، وكتب له طالباً إرسال كلّ ما يخص قراسنقر وأوهمه أن السلطان الناصر رضي عن قراسنقر ، وهو سائر لتولّي نيابة السلطنة بمصر ، وأكّد له صدور المرسوم السلطاني في القاهرة وأنه في الطريق إلى حلب. فلمّا اطّلع قرطاي على كتاب مهنا نَدِم على ما صدر منه بحقّ قراسنقر ، فأخرج كلّ ما يخصّ قراسنقر ، وسيّر يعتذر منه ، وحمّل أثقاله على ألفي جملٍ ، وساق له الخيل والأغنام والأبقار ، وخرج الموكب بحراسة ألف فارس ، كما خرج أهل حلب لوداعه [٢].

وسرعان ما اتجه قراسنقر بأهله وأمواله إلى ديار مهنّا بن عيسى ، فلمّا قرب من الديار خرج مهنا وأولاده وأخوته وبني عمومته لاستقباله ، فرحّبوا به ، وأنزلوه قريباً منهم على شاطئ الفرات ، وبدا خبر قراسنقر ينتشر في النيابات الشاميّة [٣].

يظهر أنّ مهنّا بن عيسى قد أقدم على خطوة أخطر من قبول استجارة قراسنقر ، وإن كانت مكمّلة لها ، فلا يستبعد أنّه استعدّ لعواقبها. ورغم أنه يعلم سلفاً عدم قدرته على مواجهة عسكر السلطان ، فإن خلاصه الوحيد هو الخروج إلى برية العراق. لكن يبقى اللغز ، وهو عدم انتظاره ردّ السلطان مع ابنه موسى بشأن شفاعته بقراسنقر ، فالذي يبدو

---

(١) ابن أيبك الدواداري ، الدر الفاخر ، ص : ٢٢١ .

(٢) م.ن ، ص.ن .

- يروي ابن بطوطة رواية أخرى ؛ " ركب مهنا فيمن أطاعه من أهله ، واستنفر من أهله خمسة وعشرين ألفاً ، وقصدوا حلب ، فأحرقوا باب قلعتها ، وتغلّبوا عليها ، واستخلصوا مال قراسنقر ومن بقي من أهله ". (رحلته ، ١/ ٩٤).

- كما يروي المقريزي رواية أخرى ، ويردّدها ابن تغري بردي ؛ بأن السلطان الناصر انخدع حينما جاءه كتاب من أمرائه المجرّدين في حماة ، وعرّفوه بدخول قراسنقر في الطاعة ، فكتب تقليد قراسنقر بنيابة صرخد ، ورسم بتوجّه الأمير أيتمش المحمّدي إلى حلب لإخراج قراسنقر وتسليمها له ، فقدمت أموال قراسنقر.

(المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق١ / ١١٠ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٩/ ٣٢).

(٣) ابن أيبك الدواداري ، م.س ، ص : ٢٢٢ .

أنّ مهنّا أراد أن يُوفي بعهده لقراسنقر بتخليص حريمه وأمواله من حلب ، وأمّا قبول شفاعته بقراسنقر فمشكوك بها.

وأمّا الناصر محمد ، فأنّه أكرم موسى بن مهنّا ، وأجزل له العطاء ، وكتب لوالده بأنْ يُخيّر قراسنقر في أي بلدٍ من الشام حتى يولّيه إيّاه. وفي الوقت نفسه أمر بتسيير تجريدة عسكريّة جديدة لمداهمة ديار آل مهنّا ، والقبض على قراسنقر ومهنّا [١].

فلمّا عَلِمَ قراسنقر بأمر التجريدة العسكرية كتب إلى آقوش الأفرم نائب طرابلس يستدعيه ، فأجابه بالموافقة ووعده بالحضور. وكتب الأفرم إلى صهره الزردكاش في دمشق يطلب منه الحضور ، وأرسل إليه خمسة آلاف ديناراً ليفرّقها فيمن يستميله من أمراء دمشق. كما كتب الأفرم إلى مهنّا بن عيسى بأنّه واصلٌ إليه بجماعة من مماليكه [٢].

وباتساع نطاق حركة قراسنقر ، واجتذاب الأفرم والزردكاش ، أرسل السلطان الأمير طُقُطاي الدوادار بالأمان إلى قراسنقر ، وتقليده حلب على عادته ، ويعتبُ عليه وعلى ما خامره من الشك الهذياني ؛ وممّا جاء في كتابه الموجّه للأمير مهنّا بن عيسى بشأن قراسنقر: "أنت رجلٌ كبيرٌ ، ونحن برأيك نقتدي بالأمور الكبار ، ترجع إلى كلام الجهلة والأعداء ، وتفعل ما لا تفعله الصغار ! الله الله ، تترك هذا ، وترجع إلى حلب وأنت طيب القلب منشرح الصدر مبسوط الأمل ، فأنت تعلم محلّك عندنا وعظيم منزلتك ، ونحن قد أقمناك مقام أنفسنا من جميع الممالك الشامية " [٣].

كما ورد إلى مهنّا مرسوم السلطان بأنْ يتوجّه صحبة طقطاي ، ويُلْبِسَ قراسنقر الخلعة بيده ، ويُعيده إلى حلب. فامتثل مهنّا ، وحضر صحبة طقطاي واجتمعا بقراسنقر ؛ وطلب مهنّا منه أن يمتثل للمرسوم الشريف ، ويقبل بالخلعة والتقليد ، وأن يرجع عن توهّمه ، لكنّ قراسنقر قال لمهنّا : " أنا الآن في جيرتك ، ومهما لحقني من ضيم كان عيبه عليك ، وعاره ملازم لك. فقال مهنّا : لا تفعل إلاّ خلاصك ، وأنا مساعدك في جميع مصالحك. ثمّ قال قراسنقر فأمّا الخلعة فقد قبلتها ، وأمّا عودتي إلى حلب ، فلا. وأنا بقيت رجلاً كبيراً ولا قدرة لي على التعذيب ، ولو علمتُ أنّني إذا امتثلت بين يديه قتلني في ساعتي وأراحني ، لما تأخرّتُ ، لكنّني أخشى التعذيب " [٤].

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق١ / ١٠٩ .

(٢) م.ن ، ص : ١١٠ .

(٣) ابن أيبك الدواداري ، الدر الفاخر ، ص : ٢٢٣ .

(٤) م.ن ، ص : ٢٢٤ .

ثم ورد كتاب آخر من السلطان الناصر للأمير مهنّا بن عيسى علـــى يـــد أرغـــون الدوادار، وثلاثمائة قطعة قماش وخلعة ، وفيــــه أمــــانٌ لقراســـنقر ، وأن يســـيره إلـــى القاهــــــرة، "٠٠٠٠٠ وقد حَلَفْنا الأيْمان أنّه عندنا العزيز الغالي " [١].

أمام هذه الأيْمان السلطانية ، بدا مهنا وكأنّه مقتنعٌ بصدقها ، فنصح قراسنقر بالتوجّه إلى القاهرة – لعلّ مهنّا نسي عدم موافقة السلطان على منح قراسنقر قلعة الروم – فقسـمُ السلطان واضح ولا غَدْرَ فيه ، لكنّ قراسنقر اعتذر لمهنا قائلاً : " يا أبا موسى ، أنا فـــي الأصل مملوك جركسي ، ورأسي لا يساوي درهماً ، وماذا أنا لو قُتِلْتُ ، وإنّما عيبي يبقى ملازماً لك ، ويلبسك العار بين العربان إلى آخر الدهر " [٢]. فلمّا هـــمّ بـــالركوب إلـــى القاهرة بكى ، وأبكى معه مهنّا ، فطلب مهنا منه البقاء [٣].

وحينما بَدَت فكرة الرحيل عند قراسنقر إلى المغول ، طلب منه مهنا التريّث حتّـــى يصل الأفرم من طرابلس٠ فحضر الأفرم ومعه الزردكاش ووالي قلعة دمشق ، فاستقبلهم مهنّا وقراسنقر٠ وسرعان ما عَرَضَ الأفرم خطّته باستخدام القوّة ضدّ الأمراء المجرّدين ، ثمّ دخول دمشق ، والوصول إلى غزّة لمنع من يأتي من مصر إلى الشام ، وطلب مساعدة العرب بذلك ، فلم يوافقه مهنّا ولا قراسنقر [٤].

ثمّ كَتَبَ مهنّا يستعطف السلطان ويقول له : " هؤلاء مماليكك ومماليك أبيك ، وكبار بيتكم وقد هربوا من الموت ، وسألوا أنّ تكفّ عنهم ، وتجعل البيرة لقراسنقر ، والرحبـــة للأفرم ، وبَهَسْنا * للزردكاش وإذا حضر مهمّ جامع للإسلام حضروا إليه ، واجتهدوا بين يديك " [٥]. فأجابهم السلطان بإطابة القلب ، وأنه جعل الصُبَيْبَة **لقراسنقر ، وعجلـــون للأفرم ، والصلت للزردكاش٠ لكنّ ذلك زادهم قلقاً ونفوراً [٦].

يبدو إصرار السلطان على بقائهم بين يديه ؛ كما يظهر فشل محاولات الأمير مـــهنّا للتوفيق بين الطرفين٠ وأما خوف الأمراء الثلاثة من السلطان فيصعـــــب انتزاعــــه ؛

---

(١) ابن أيبك الدواداري ، الدر الفاخر ، ص : ٢٢٥ .

(٢) م.ن ،ص.ن .

(٣) م٠ن ، ص٠ن .

(٤) م٠ن ، ص : ٢٢٦ ؛ ومغلطاي ، تاريخ سلاطين المماليك ، ص : ١٥٧ .

* بَهَسْنا : قلعة حصينة بقرب مرعش وسميساط ، وهي مـــن أعمـــال حلـــب .

(ياقوت ، معجم البلدان ، ١/ ٦١١)٠

(٥) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ٤/ ١٤٤ .

** الصُبَيْبَة : هي قلعة بأعلى جبل شاهق ، تطلّ على بلدة بانياس التابعة للقنيطرة ، ويدعوها العوام بقصر النمـــرود ٠ وهي اليوم خربة ٠ (محمد دهمان ، ولاة دمشق ، ص : ١٤٩)٠

(٦) ابن فضل الله العمري ، م٠س ، ص٠ن .

فلم يبقَ أمامهم إلاّ فكرة الخروج من بلاد الشام إلى بلاد المغول. فبدأ الأمير مهنّا بتجهيزهم لذلك.

وفي مستهلّ سنة ٧١٢ / ١٣١٢ ، وَرَدَ البريد من حلب إلى القاهرة بعبور قراسنقر والأفرم والزردكاش إلى بلاد المغول ، وأنّهم بعثوا بأولادهم وحريمهم إلى مصر ، وطلبوا أن يُبلّغ السلطان بأنّ ما حملهم على دخول بلاد المغول ما هو إلاّ الخوف ، وأما الحريم والأولاد فهم أمانةٌ عند السلطان ، فليفعل معهم ما يليق (١).

ولمّا عادت التجريدة العسكرية من الشام إلى القاهرة دون أن يقبض أمراؤها على قراسنقر ، أو منعه من العبور إلى بلاد المغول ، قبض السلطان على عددٍ منهم ، بحجّة ميلهم إلى قراسنقر ، ومنهم : جمال الدين آقوش نائب الكرك ، ولاجين الجاشنكير ، وسنقر الكمالي ، وبيبرس المنصوري نائب السلطنة (٢).

وأمّا مهنّا بن عيسى ، فإنّه خرج إلى برية العراق سنة ٧١٢ / ١٣١٣ ، فكتب السلطان إلى فضل بن عيسى وقلّده إمرة العرب ، عوضاً عن أخيه مهنّا.

هكذا انتهت حركة قراسنقر بخروجه والأفرم والزردكاش من بلاد الشام إلى بلاد المغول ، وخروج مهنّا بن عيسى عن الطاعة. ولم يتمكّن السلطان من قتل أحدهم رغم محاولاته المتعدّدَة بعد خروجهم. وأما أثر هذه الحركة على العلاقات المملوكية – المغولية ، فهذا ما سنعالجه في الفصل اللاحق.

ووقفة قصيرة بعد استعراض أحداث حركة قراسنقر التي انتهت دون مواجهة مسلّحة. يتبيّن أنّ قراسنقر أعلن عصيانه بوجه السلطان الناصر ، ليس طمعاً بالسلطة ، وإنّما هو الخوف الذي لازمه من السياسة المتشدّدة التي اتبعها الناصر اتجاه الأمراء ؛ والذي لم يعُدْ يثق بأحدٍ منهم. فإن قراسنقر قد راعه ذلك المشهد المثير بملاحقة الناصر لهؤلاء الأمراء وتصفيتهم واحداً تلو الآخر. وليس بعيداً أنّه وجد نفسه غريباً بين أمراء مماليكَ أتراك ، فهم جركسي الأصل. ولعلّ هذا عامل آخر يمكنُ أن يُضاف إلى الظروف التي دفعت قراسنقر لإعلان عصيانه بوجه السلطان الناصر التركي الأصل.

وأمّا انضمام الأفرم لحركة قراسنقر ، وخروجه عن طاعة السلطان الناصر ، فمردّ ذلك عائدٌ إلى أحلامه بالسلطنة ، والتي بدت مبكّرة منذ عهد سيّده قلاوون. لكنّ الأفرم غريب الأطوار ، فقد عارض استيلاء بيبرس الجاشنكير وسلاّر على الحكم ، لكنّه آثر البقاء بالقصر الأبلق ودار السعادة والتمتع بنِعَم دمشق وجمالها. فكان يدّعي القدرة على إنهاء سلطة الجاشنكير – خادمه بالأمس ، لولا تلك الأمور. ولما غدا صاحب الأمر

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق١ / ١١٥ .

(٢) ابن أيبك الدواداري ، الدر الفاخر ، ص : ٢٢٩ ؛ المقريزي ، م.س ، جـ٢ ق١ / ١١٧ .

المطاع بدمشق ، ولا يُرَدّ له طلب بالقاهرة ، أقدم على معارضة قدوم الناصر إلى دمشق وهو عائدٌ من الكرك إلى القاهرة لتسلم مقاليد سلطنته الثالثة. فلعلّ معارضته هذه نابعة من رغبته بالإبقاء على مكانته السياسية وامتيازاته الدمشقية. لكنّه حين وجد نفسه المعارض الوحيد بين نوّاب الشام ، عاد بتذلُّلٍ زائدٍ بين السلطان بدمشق ، وتزلّف له بالقاهرة ليضمن العودة إلى نيابة دمشق.

ومَا إنْ عيّنه السلطان بصرخد ولم يُعِدْهُ إلى نيابة دمشق ونَقَلَهُ إلى نيابة طرابلس بعد اكتشاف مراسلاته مع سلاّر المقيم بالشوبك ؛ أيقن الأفرم أنه مستهدف ، وإنّ إجراءات السلطان ستطاله ولو بعد حين. فلمّا تأزّمت الأمور سنة ٧١١ / ١٣١١ ، واتصل به قراسنقر كأمير جركسي مثله ، وجدها فرصة لإبعاد شبح الملاحقة ، فخرج عن الطاعة وانضمّ إلى قراسنقر.

ولكنّ مهنّا بن عيسى لديه مبرّرات وحسابات تختلف عن مبرّرات هؤلاء المماليك الغرباء عن بلاد الشام. فهو أمير العرب ، وسيّدُ قومه ، وله صفة سياسية داخل الإدارة المملوكية. وكان ذو مكانة عالية لدى المنصور قلاوون. لكنّ الأشرف خليل بن قلاوون أهانه ثمّ خدعه ورماه وأولاده وإخوته في السجن ، فظلّ حذراً من تصرفات المماليك وسلاطينهم. ولمّا تسلطن الناصر محمد بن قلاوون ، أقرّه على إقطاعه وامتيازاته ؛ لكنّ الأمور أخذت تسير في الاتجاه المعاكس يوم أخلّ السلطان الناصر بوعده وقتل مملوك مهنا (بُرلْغي) في سجنه.

كما كان للجوء قراسنقر عند أمير العرب مهنّا وطلب الاستجارة معنىً واحداً ، هو تعهّد مهنا بحماية قراسنقر من الضيّم. ورغم محاولة مهنا تبرير إجارته لقراسنقر ، إلاّ أن السلطان أدار ظهره لهذا القانون البدويّ ، فلا قانون إلاّ ما يَصْدُر عن السلطة المملوكية في القاهرة. ومن هنا حرص مهنّا على احترام مكانته بين أعراب الشام ، فخشيَ إنْ فرّط بقراسنقر أن يلتصق به العار مدى الدهر.

وقد كان لقراسنقر دورٌ واضحٌ بإثارة حفيظة مهنّا بن عيسى حين أطلعه على أمر السلطان بالقبض عليه ، وعدم رضاء قراسنقر ، فخشي مهنّا أن يقع في حبال الناصر كما وقع في حبال أخيه الأشرف خليل من قبْله.

ولعلّ استمرار مساندة مهنّا بن عيسى لقراسنقر إشارة إلى قوّة مهنا المعنوية واعتداده بنفسه ، فهو يقف نِدّاً للسلطان ، ويقوم بدور الوساطة السياسية ، ويتقن دوره القيادي ، ويفوّت الفرصة على السلطان بالقبض على من استجار به حتى لو أدى ذلك إلى مداهمة ديار عُربانه. كلّ هذا دفعه للتوجه إلى بريّة العراق ، فعُدَّ هذا التوجّه خروجاً عن الطاعة بمنظور السلطة المملوكية.

• موقف أعراب الشام من عصيان يَلبُغا اليحياوي الناصري (٧٤٧ - ٧٤٨ / ١٣٤٦ - ١٣٤٧) :

لم يتوقّف نوّاب الشام من الأمراء المماليك عن تمرّدهم وعصيانهم بوجه السلطة المملوكية ، فهذا الأمير سيف الدين يلبغا اليحياوي - تركي الجنسية - كان أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون ، وقد شُغِف به ، وبنى له داراً عظيمة ، ورقّاه إلى أمير مئة تقدمة ألف ؛ نراه يعلن العصيان بوجه أبناء الناصر محمد سنة (٧٤٧ - ٤٤٨ / ١٣٤٦ - ١٣٤٧) ، وهو قائمٌ بنيابة دمشق [١].

بدأ يلبغا اليحياوي تحركه مُستغِلاً تدابير السلطان شعبان بن الناصر محمد ، حين لاحق أمراء والده سجناً وقتلاً ؛ وانشغاله باللهو والترف عن أمور السلطنة ، مما أفقر البلاد والأمراء. فلمّا تهيّأ السلطان شعبان للحجّ سنة ٧٤٧ / ١٣٤٦ ، طلب من نواب الشام تغطية نفقات سفره إلى الحجاز والتي فاقت كلّ تصوّر. فتنكّرَ له كثيرٌ من أمراء الشام [٢].

وزاد الأمور تعقيداً حين علم يلبغا اليحياوي عن عزم السلطان شعبان على إمساكه ، فاحترز اليحياوي على نفسه ، وجمع أمراء دمشق الموالين له ، وحلّفهم على القيام بوجه السلطان شعبان. كما حضر إليه عدد من الأمراء وهم : أسندمر نائب حماة ، وبيدمر البدري نائب طرابلس ، وطرنطاي البشمقدار نائب حمص ، والأمير آراق التفاح نائب صفد ؛ فاجتمعوا وقرّروا عزل السلطان شعبان ، وأعلنوا عصيانهم والخروج عن الطاعة [٣].

ثمّ كتب اليحياوي كتاباً للسلطان شعبان ، ومما جاء فيه : " إنني أحد الأوصياء عليك، ومما قاله الشهيد قلاوون لي وللأمراء في وصيّته ؛ إذا أقمتم أحداً ممن أولادي ولم ترتضوا بسيرته جُرّوه برجله وأقيموا غيره. وأنت أفسدتَ المملكة ، وأفقرتَ الأمراء والأجناد ، وقتلتَ أخاك ، وقبضتَ على أكابر والدك ، وانشغلتَ عن المُلك ، والتهيت بالنساء وشرب الخمر..... " [٤].

---

(١) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ١٤٢ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٣ / ٦٨١ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠/ ١١٨ .

(٢) المقريزي ، م.س ، جـ٢ ق٣ / ٧٠٧ ؛ ابن تغري بردي ، م.س ، ١٠/ ١٣٣ ؛ وابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق١ / ٥٠٨ .

(٣) المقريزي ، م.س ، ص : ٧٠٨ ؛ وابن تغري بردي ، م.س ، ص : ١٣٤ .

(٤) المقريزي ، م.س ، ص : ٧٠٩ ؛ وابن تغري بردي ، م.س ، ص.٥٠ .

فلمّا ورد كتاب اليحيـاوي إلى دار السلطنة ، قرأه السلطان شعبان ، تغيّر كثيـراً ، وأوقف عليه الأمير أرغون العلائي * ، فقال له : " والله لقد كنتُ أحسب هذا ، وقلتُ لـك فلم تسمعَ قولي " [١] ؛ وأشار عليه بكتمان هذا. فأبطلَ سفره إلى الحجاز ، وجمع كبـار أمرائه ، فاتّفقوا على خروج العسكر بقيادة الأمير أرقطاي ** إلى دمشق.

ثمّ وصل كتابٌ آخر من اليحياوي وفيه تواقيع أمراء دمشق ، ونـوّاب الشـام يخاطبون السلطان شعبان " ...... إنّك لا تصلح للمُلك ، وإنّما أخذتَه بالغلبـة من غير رضا الأمراء ، ونحنُ ما بقينا نصلح لك ، وأنتَ لا تصلـح لنـا ، والمصلحـة أن تَعْـزِل نفسك " [٢].

وأمّا الأمور في القاهرة ، فقد اتخذت مساراً آخر ، إذ وقع الخلاف بيـن الأمـراء المجرّدين إلى دمشق ، وحتى الأمير أرغون العلائي انقطع عن الخدمـة ، وزاد تنكّـر الأمراء للسلطان شعبان ، كما كاتب بعضهم يلبغا اليحياوي ، مما أدى إلى تعطيل تسـيير العسكر إلى دمشق ، وأصبحت الأمور تنذر بمواجهة بين السلطان وأمرائه [٣].

تخوّف السلطان شعبان ، وسجن أخويه (حاجي وحسين) وحاول قَتْلهما ، فلم يمكّنه الخدم. ولم يبقَ أمامه سوى مواجهة الأمراء ، لكنّ مماليكه تخلّوا عنه ، فأشـار عليـه الأمراء بخلع نفسه ، فأجابهم إلى ذلك وبكى. وانتهت أزمة الحكم بتوليـة حـاجي بـن الناصـر محمد سنة ٧٤٧ / ١٣٤٦ ، والذي أمر بخنق أخيه شعبان [٤].

فأرسل أمراء القاهرة يُبشّرون يلبغا اليحياوي نائب دمشق بعـزل شعبـان وتوليـة حاجي عرش السلطنة ، فَحَلَفَ لهُ اليحياوي وأمراء دمشق ، وأقام له الخطبة وضرب

---

* أرغون العلائي ؛ من مماليك الناصر محمد ، تزوّج أم الملك الصالح اسماعيل بن الناصر محمد ، ثم صار أكبر امـرائه ومدبّر مملكته. اعتقل في ولاية المظفر حاجي ، وقتله الأمـراء سـنة ٧٤٨هـ .
(ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ١/ ٣٧٦).

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٣ / ٧٠٩ .

** أرقطاي القفحقي ؛ من مماليك الأشرف خليل بن قلاوون ، تولى نيابة حمص سنة ٧١٦هـ ، ثم صفد وطرابلس. وفي عهد السلطان شعبان تولى نيابة حلب. وتولى نيابة السلطنة في عهد حاجي ، ثم نيابة دمشق، لكنه لم يدخلها فمات في الطريق إليها سنة ٧٥٠هـ .
(ابن حجر ، م.س ، ١/ ٣٧٦).

(٢) المقريزي ، م.س ، ص : ٧١٠ .

(٣) المقريزي ، م.س ، ص : ٧١١ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠/ ١٣٥ - ١٣٧ .

(٤) المقريزي ، م.س ، ص : ٧١٢ - ٧١٣ ؛ وابن تغري بردي ، م.س ، ١٠/ ١٣٨ .

السكّة باسمه ، وهنّأه بجلوسه على عرش السلطنة (١).

لكنّ يلبغا اليحياوي لم يهدأ ، فهو يبحث عن السلطة ، فشكا إلى السلطان حاجي من نوّاب الشام الذين لم يؤيّدوه بمحاولة عزله السلطان شعبان ، فرسم حاجي بعزلهم وحضورهم إلى القاهرة (٢).

وأما السلطان حاجي ، فإنّه لم يستفد من مصير أخيه شعبان ، فنهج نهجه ، وانهمك باللهو والترف. ولما بدأ حاجي بتعقّب الأمراء ، تخوّف من مكانة الأمير يلبغا اليحياوي لتأليبه الأمراء على السلطان الجديد (٣).

يبدو أن السلطان حاجي قد تنبّه إلى مكانة أعراب الشام وخاصة آل مهنّا ، فأمراؤهم يتنافسون على إمرة العرب ، ويطرقون بابه ، فزاد في إقطاعاتهم وامتيازاتهم. فكتب السلطان إلى أرغون شاه * نائب حلب يطلب منه تكليف آل مهنّا وبقية العربان بقطع طرق البادية الشامية على يلبغا اليحياوي ، وعدم تمكينه من التوجّه شرقاً إلى بلاد المغول (٤).

ثم أرسل السلطان حاجي كتاباً إلى يلبغا اليحياوي يدعوه إلى القاهرة ليكون رأس أمراء المشورة ، وأن نيابة الشام أنعمَ بها على الأمير أرغون شاه نائب حلب. فلمّا اطّلع اليحياوي على كتاب السلطان ، ظهرت حقيقة نفسه ، فانحلّ عزمه وظنّ أنّ استدعاءه حقيقة ، فأجاب بالسمع والطاعة (٥) ، فكلّفه هذا الموقف روحه فيما بعد.

تجهّز يلبغا اليحياوي للسفر إلى القاهرة ، ففقد حينها عدداً من مؤيّديه. وكانت كتب السلطان قد وردت سرّاً إلى الأمراء بالقبض عليه خارج دمشق. فلمّا وصل اليحياوي إلى الكسوة ، اعترض الأمراء طريقه وحاولوا إمساكه ، فهرب اليحياوي بمماليكه وأثقاله إلى

---

(١) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ١٤٦ .

(٢) نوّاب الشام ، هم : طغتمر الأحمدي نائب حلب ، مغلطاي المرتيني نائب قلعة دمشق ، ونائب غزة. (المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٣ / ٧١٧).

(٣) م.ن ، ص : ٧٢٠ - ٧٢٣ .

* أرغون شاه الناصري : أصله من بلاد الصين ، قدّمه سلطان المغول بوسعيد خدابندا ، هدية للناصر محمد بن قلاوون ، فحظي عنده وربّاه ، ثم جعله رأس نوبة الجمدارية (الذي يُلبس السلطان ثيابه). ثم ولّي الاستادارية في زمن حاجي ، وولاه صفد ثمّ حلب ، قتل سنة ٧٥٠هـ. (ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ١/ ٣٧٣).

(٤) المقريزي ، م.س ، جـ٢ ق٣ / ٧٣٢ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠/ ١٦١ .

(٥) المقريزي ، م.س ، ص : ٧٣٢ ، وابن تغري بردي ، م.س ، ص : ١٦١ .

- ينفرد ابن كثير بقوله " بأن اليحياوي رفض طلب السلطان بإباء وشمم ، وقهر رسول حاجي وطرده . (البداية والنهاية ، ١٤/ ٢٥٠).

جهة الضمير الشرقي في دمشق. ثمّ سار في بريّة الشام باتجاه العراق حيث المغـول ؛ لكنّ دليله البدوي خانهُ حين قاده إلى ديار العربان ، فنهبوا أثقاله وطاردوه عبر الباديـة ، فأجبره مماليكه على التوجّه إلى حماة للالتجاء بها من العربان ، فتلقّـاه نائبـها الأمـير قُطليجا* بعسكره ، وأظهر له حسن الوفادة ، ودخل به إلى المدينة ، ثمّ قبض عليه ومـن معه من الأمراء والمماليك ، وسيّره إلى القاهرة ، وكتب بذلك إلى السلطان حاجي (١).

أرسل السلطان حاجي الأمير منجك ** لقتل يلبغا اليحياوي حيثما يلتقي به ، فسـار منجك من القاهرة حتّى التقى بيلبغا اليحياوي بقاقون *** ، فَصَعِدَ به إلى قلعتها ، وقتلـه وحزّ رأسه وأرسله إلى السلطان سنة ٧٤٨ / ١٣٤٧ (٢).

يتبيّن ، أن عصيان يلبغا اليحياوي حدث بظروف تختلـف كثـيراً عـن ظـروف الحركتين السابقتين (سنقر الأشقر وقراسنقر) ؛ فالأمراء هم الأمراء ، لكنّ السـلاطين ليسوا هم أولئك السلاطين ؛ فقلاوون وابنه الناصر محمد ليسا كشعبان وحاجي ، اللذيـن سيّرتها روح الاندفاع والمراهقة ، وانصرفا إلى العبث واللهو بـأمور السـلطنة ، وبـدأ الأمراء يُصفّون حساباتهم باسم السُّلطانين. فالسلطة المملوكية كانت تمرّ في أزمة حكـم وراثي غير مؤهلٍ بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون ، فحدثت الانقسـامات وانتشـرت الفوضى.

يبدو أنّ ظروف السلطنة المملوكية هذه قد انعكست على أعراب الشام ، فما أن مات أمير العرب مهنّا بن عيسى سنة ٧٣٥ / ١٣٣٥ ؛ حتى ظهر التنافس الحاد علـى إمـرة العرب بين أمراء البيت الواحد من آل مهنا وآل فضل ، ففتّ في عضد هذا البيت ، كمـا ساءت العلاقة بينهم وبين القبائل العربية أحياناً. فطبيعي أن يكون دور هؤلاء الأعـراب محدوداً بقطع طرق البادية على يلبغا اليحياوي ونهب أثقاله ومطاردته. ورغم هذا الـدور

---

* قُطليجا الحموي الجمدار ، كان من أخصّاء الناصر محمد ، ولّي نيابة حماة ثم حلب ، مـات سـنة ٧٥٠هـ .
(ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٣/ ٣٤٠).

(١) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ١٤٧ - ١٤٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٣ / ٧٣٣ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠/ ١٦٢ .

** منجك بن عبد الله اليوسفي الناصري ، أصلـه من مماليك الناصر محمد بن قلاوون ، تولى نيابـة دمشـق مرتيـن (٧٥٩ و ٧٧٠ هـ). تسلّم أتابكية العسكر ، ثم نيابة السلطنة في القاهرة. توفي سنة ٧٧٦هـ .
(ابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ١٠٠ - ١٠١ ؛ ابن تغري بردي ، م.س ، ١١/ ١٣٣ - ١٣٤).

*** قاقون : حصن بفلسطين قرب الرملة . (ياقوت ، معجم البلدان ، ٤/ ٣٣٩).

(٢) المقريزي ، م.س ، ص.ن .

المحدود لأعراب البادية في هذه الحركة ، إلاّ أنه يمكن القول بأنّهم دقّوا المسمار الأول في نَعْش أمير من أشهر المماليك.

• موقف أعراب الشام من عصيان بَيْبُغا أُرُس * (٧٥١ - ٧٥٣ / ١٣٥٠ - ١٣٥١) :

كان بيبغا أُرُس أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون ، ثمّ ترقّى حتى صار أمير طبلخاناة أيام السلطان اسماعيل بن الناصر محمد (٧٤٣ - ٧٤٦ / ١٣٤٢ - ١٣٤٥). وفي عهد السلطان شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦ - ٧٤٧ / ١٣٤٥ - ١٣٤٧) ، وصل إلى مرتبة أمير مقدّم ألف ، وولي نيابة السلطنة بمصر في عهد السلطان حسن بن الناصر محمد (٧٥٢ - ٧٥٥ / ١٣٥١ - ١٣٥٤) [(١)]. هذا وقد اشتهر أمر بيبغا أرس منذ اشتراكه بقتل السلطان حاجي بن الناصر محمد سنة ٧٤٨ / ١٣٤٧ [(٢)].

ولمّا كان بيبغا أرس رأس المشورة ونائب السلطنة ، وأخوه منجك وزيراً ، فإنّهما تنفّذا بأمور السلطنة. لكن السلطان حسن بلغ سن الرشد سنة ٧٥١ / ١٣٥٠ ، فـاتّخذ أول قرار سلطاني بالقبض على منجك الوزير ، وسَجَنَهُ وصادر أمواله. فقد كان خروج بيبغا أرس والأمير طاز إلى الحجّ من أهم العوامل التي ساعدت السلطان حسن على عزل منجك [(٣)].

وما إنْ وصلَ ركب الحُجّاج بإمرة بزلار إلى أيْلة (العقبة) ، حتّى ورد كتاب السلطان حسن إلى الأمراء الثلاثة يخبرهم بما فعل ؛ وبالوقت نفسه طيب خاطر بيبُغا لعزل أخيه منجك [(٤)].

ولمّا كثُرت الأراجيف بتحالف الأمير طاز مع بيبغا أرس بالعقبة ، ازداد قلق السلطان حسن ، فاتّجه نظره إلى أعراب الشام لمساعدته في ملاحقة بيبغا أُرُس. فـأفرج

---

* أُرُس : اسم قبيلة مغولية . (ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٣/ ٤٨٦). ويرد عند غيره من المؤرخين بـ (آروس) و (آرُس) و(رُوس).

(١) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ١٠/ ٣٥٦ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ٣/ ١٠٣ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٣ / ٩٠٥ ؛ وابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٢/ ٤٤ .

(٢) الصفدي ، م.س ، ص.ن .

(٣) المقريزي ، م.س ، ص : ٨٢٢ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠/ ٢١٩ .

(٤) ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٥١١ ؛ المقريزي ، م.س ، ص : ٨٢٢- ٨٢٥ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠/ ٢٢١ .

السلطان حسن عن الأمير فيّاض بن مهنّا بن عيسى من سجنه في القاهرة ، وكلّفه بالخروج بعربه إلى العقبة لمواجهة أي تحرك لبيبغا أرس. وقد وعده بإمرة العرب عوضاً عن حيّار بن مهنّا بن عيسى الذي عزله عنها سنة ٧٥١ / ١٣٥٠ - كما أسلفنا في الفصل الأول - ولم يكتف السلطان حسن بتحريك عرب آل مهنّا ، بل كتب إلى بني عقبة بالكرك ، وبني مهدي بالبلقاء ، بالانضمام إلى الأمير فيّاض بن مهنّا في العقبة وتحت إمرته (١).

كان لهذا الإجراء السلطاني دلالته ، فالسلطان حسن بلغ سن الرشد ، وقد صحا من طفولته وهو يرى التآمر والقتل والتكالب على الحكم ، ففقد الثقة بمن حوله من الأمراء ، فَهُمْ قَتَلَةُ أخيه حاجي. كما أنّهُ يَنشُدُ التحرر من نفوذ هؤلاء الأمراء المتسلّطين عليه. ولم يَغْرُب عن ذهنه قطع الطريق على بيبغا أرس قبل أن ينفذ إلى دمشق وينضمّ للأمير أحمد الساقي نائب صفد الذي أعلن عصيانه ، وربّما يجد التأييد من أمير العرب حيّار بن مهنّا المعزول عن إمرة العرب.

ثمّ اتخذ السلطان قراره الثاني فأصدر مرسوماً بالقبض على بيبغا أرس ، وأرسل جاشنكيره طيْلان (طيْنال) ليقود بيبغا أرس إلى سجن الكرك. ولما اطّلع بزلار وطاز على مرسوم السلطان أخبرا بيبغا أرس بذلك ، فاستسلم لهما في المويلحة * ، لكنه أبدى رغبته لهما بتأدية فريضة الحج ، فقيّده طاز ، وحجّ بيبغا وهو مقيّدّ. ولما أتمّ مناسك الحج قاده طيلان الجاشنكير إلى سجن الكرك سنة ٧٥٢ / ١٣٥١ (٢). وأمّا الأمير فيّاض بن مهنّا فقد أرسل يخبر السلطان حسن بسجن بيبغا أرس ، وعاد إلى دياره ، فأنعم عليه السلطان بإمرة العرب كما وعده.

وقد ظلّ بيبغا أُرُس مسجوناً حتى أفرج عنه السلطان الصالح السنةَ نفسها (١٣٥١/٧٥٢) ولما قَدِم بيبغا أرس إلى القاهرة ، أكرمه السلطان الصالح وعيّنه نائب

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٣ / ٨٢٦ - ٨٢٧ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠/ ٢٢٢ .

* المويْلحة (المويْلح) : محطّة من محطّات الحاج الشامي والمصري. وهي بلدة بها قلعة حصينة ونخيل وأبارٌ عذبة ؛ وفيها سوق يباع فيه ما يلزم الحجاج والمسافرين. واليوم تقع في السعودية ، وتبعد عن العقبة نحو ٢٣٠ كيلو متراً.

(ابن تغري بردي ، م.س ، ١٠/٢٢٣ - ٢٢٤).

(٢) المقريزي ، م.س ، جـ٢ ق٣ / ٨٢٨ ؛ وابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٢/ ٤٤ - ٤٥ .

- يذكر الصفدي وابن خلدون بأنّه قبض على بيبغا أرس في ينبع.

(الوافي بالوفيات ، ١٠/ ٣٧٥ ، والعبر ، ٥/ ٥١١).

الخلافات لصالح السلطة المملوكية. ويبدو أن السلطان حسن كان كوالده الناصر محمد لا يثق بحيّار بن مهنّا الذي تولّى إمرة العرب سنة ٧٤٩ / ١٣٤٧ ، لكنّ السلطان حسن كان قد تحفّظ على فيّاض بن مهنّا في سجن القلعة بالقاهرة.

فلمّا أعلن بيبغا أرس عصيانه ، أقدم السلطان حسن على عزل حيّار بن مهنّا ، وإطلاق سراح فيّاض بن مهنّا من سجن القلعة ووعده بإمرة العرب إن قبض على بيبغا أرس أو حتّى منعه من الوصول إلى دمشق. كما أكّد السلطان حسن على طاعة بني عقبة في الكرك وبني مهدي في البلقاء ، وضمّهم تحت إمرة فيّاض بن مهنّا ولوائه. ورغم أن أمراء المماليك هم الذين قبضوا على بيبغا أرس ، إلاّ أن فيّاض بن مهنّا وأعراب الكرك والبلقاء نفّذوا ما أوكلوا به من مهام ، فأوفى السلطان بوعده لفيّاض وقلّده إمرة العرب.

ومرة أخرى ، ظهر تحالف جديد بين بيبغا أرس وحيّار بن مهنا وابن دلغادر التركماني في حلب ، لكنّ السلطة المملوكية ممثّلة بالسلطان الصالح تمكّنت من تفتيت تحالف هؤلاء العصاة ولم تُمكّن أحداً من تحقيق أهدافه. ولعلّ عرب البادية الشمالية الذين اعترضوا بيبغا أرس هم عرب فيّاض بن مهنّا الذين أجبروه على اللجوء إلى التركمان حلفاء حيّار بن مهنّا.

هكذا انتهت حركة بيبغا أرس دون أن تحقق أهدافها بفضل سياسة السلطة المملوكية وحسن استغلالها للظروف السائدة. وبانتهاء هذه الحركة انطوت صفحة من حركات التمرد والعصيان التي قام بها أمراء المماليك في العصر المملوكي الأول ، والتي لاقت التأييد أو المعارضة من أعراب الشام.

وإذا كان سلاطين المماليك الأتراك قد تمكّنوا من وأد حركات التمرّد السابقة ، فإن هذا لا يعني توقّف حركات التمرد. فقد شهدت دولة المماليك الثانية حركات تمرّد وثورات أدى بعضها إلى هزّ عروش وسقوط عروش أخرى. هذا ما سنراه في الصفحات القادمة.

(ب) دور أعراب الشام في حركات التمرد والعصيان في عهد دولة المماليك الثانية (الجركسيّة) :

شهدت دولة المماليك الثانية (الجركسيّة) حركات تمرّد عديدة ؛ وقد كان لأعراب الشام دورٌ واضحٌ في هذه الحركات ، تمثّل بالتأييد أو المعارضة. فمن أهم هذه الحركات:

- حركة يَلْبُغا الناصري ومِنْطاش.
- عصيان دمرداش المحمدي.

- حركة جكم.
- حركة شيخ المحمودي ونوروز الحافظي.
- تمرد تغري برمش.

• **حركة يلبغا الناصري * ومنطاش ** (٧٩٠-٧٩٥/١٣٨٨-١٣٩٣).**

اتجه الظاهر برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ / ١٣٨٢ - ١٣٩٨) ، منذ بداية سلطنته إلى جركسة الدولة المملوكية ، فأثار هذا التوجُّه قلق المماليك الأتراك وفي مقدمتهم يلبغا الناصري نائب حلب.

ومن هنا ، حرص يلبغا الناصري على عدم استقرار بلاد الشام ، ففي هدوئها توطيدٌ لنفوذ برقوق الجركسي ، وإعانةٌ على تحقيق سياسته الرامية إلى إلغاء الوجود للعنصر التركي في الدولة المملوكية الجديدة. فقد تظاهر الناصري بطاعة السلطان برقوق ، فقدم من حلب لتهنئته بالسلطنة سنة ٧٨٥ / ١٣٨٣ ، فأكرمه السلطان برقوق وأعاده لنيابة حلب. وحتى يُثبت الناصري حسن نواياه ، طرد نُعير بن حيّار بن مهنا أمير آل فضل من مرج حلب ، لأنه خرج عن طاعة الظاهر برقوق [١].

وكما أسلفنا في الفصل الأول [٢]؛ فإن سبب خروج الأمير نعير بن حيّار عن طاعة السلطان برقوق إنّما يعود إلى تنافس أمراء آل فضل على تولي منصب " إمرة العرب ". ورغم استقلال نعير بإمرة العرب (٧٨٢ - ٧٨٥ / ١٣٨٠ - ١٣٨٣) ، إلاّ إنه تعرّض للعزل منها بالأمير إبراهيم بن قارا سنة ٧٨٥ / ١٣٨٣ ، " فهاجم عثمان بن قارا وعربه

---

* هو الأمير يلبغا بن عبد الله الناصري اليلبغاوي ، أصله من مماليك يلبغا العمري أستاذ برقوق. وقد تولى أيام العمري إمرة طبلخاناة ، ثمّ صار أمير مائة ومقدّم ألف في دولة الأشرف شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨هـ). وبعدها تولى نيابة حلب في عهد المنصور علي بن شعبان (٧٧٨ - ٧٨٣هـ). وفي الوقت الذي كان فيه يلبغا الناصري أميراً كبيراً ، كان برقوق من مماليك الأسياد ، إذا ضمّهُ مجلس مع الناصري قام بين يديه. ولما تسلطن برقوق ظل الناصري نائب حلب. قتله برقوق سنة ٧٩٣هـ .

(ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣/ ١٠٣ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢/ ١٢٦ - ١٢٧).

** هو الأمير سيف الدين تمر بُغا الأشرفي الظاهري المعروف بمنطاش. اشتراه برقوق سنة ٧٨٧هـ ، واعتقه ، ثم ولاّه ملطية. قتل سنة ٧٩٥هـ.

(ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٢/ ٥٢).

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٤٨٥ ؛ وابن قاضي شهبة ، م.س ، ص : ٤٨٤ .

(٢) انظر هذه الأطروحة : الفصل الأول ، ص : ٥٠-٥١.

ونائب حلب يلبغا الناصري ديار نُعير وهزموه ونهبوا ماله وسبوا عياله ، وأخـــذوا لـــه ثلاثون ألف جمل » (١).

يتبيّن من هذا الهجوم على نُعير ، أنّ عرب إبراهيم وعثمان أقدموا على ذلك حفاظاً على مكاسبهم بالاحتفاظ بإمرة العرب وفي الوقت نفسه إشعاراً بالطاعة للظاهر برقــوق ، وكذلك يلبغا الناصري ليثبت حسن نواياه كما ذكرنا. ولما وجد نُعيرٌ نفسه ضعيفـــاً عـــاد وأعلن طاعته للسلطان برقوق ، فحضر إلى حلب سنة ٧٨٦ / ١٣٨٤ ، فاســتقبله يَلبُغـا الناصري ، واتفق معه على أنْ يَطأ بساط السلطان برقوق في حلب. لكنّ برقوق غضـب من ذلك الاتفاق فطلب من الناصري أن يأتي بنُعير طَوْعاً أو كُرْهاً إلى القاهرة (٢).

ولمْ يتوانَ نُعير عن إرسال ابنه إلى برقوق ليخبره بطاعة والده ، وســاعياً بتوليــه إمرة العرب ، فأكرمه برقوق وأعادَ لوالده إمرة العرب وسحبها من عثمان بن قارا (٣).

ويمكن القول بأن هذا التذبذب في حالة نُعير بن حيّار بين إعلان الطاعة والخـروج عنها ، يجعله مؤهلاً للوقوف بوجه السلطان برقوق إذا تهيأت له الظروف.

وإذا كان يلبغا الناصري ينتظر الفرصة المواتية ليعلن تمرّده وثورته بوجه السلطان برقوق ، فإن الشكوك بدأت تساور برقوق إزاء الناصري حينما حارب التركمان دونمـــا إذْنٍ منه. وممّا ثبّت هذه الشكوك إطلاق سراح سولي بن دُلغادر ** التركمـــاني الــذي حضر إلى حلب طائعاً ؛ فاتّهمه السلطان برقوق بتدبير أمرِ هروبه ، فعزله من نيابـــة حلــب سنـــة ٧٨٧ / ١٣٨٥ ، وعين مكانه سودون المظفّري الجركسي نائب حماة. ولمّا قدِم يلبغا الناصري من حلب إلى القاهرة ، قُيّدَ وأُرسِل إلـــى ســجن الإســكندريّة ليـأمن السلطان شرّه (٤). ثمّ أفرج عنه سنة ٧٨٨ / ١٣٨٦ ، ثمّ قلّده نيابة حلــب ســنة ٧٩٠ / ١٣٨٨ ، ونقل ســودون المظفري إلى أتابك عسكر حلب (٥).

وأما منطاش نائب ملطية فقد عزّ عليه مصير أبناء جلدته المماليك الــترك ، وهــو يرى ملاحقة الظاهر برقوق لهم بالنفي والسجن والقتل ؛ فأخذ منطاش تجميــع المـــاليك

---

(١) ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣/ ١٠٩ – ١١٠ .

(٢) م.ن ، ص : ١٣٤ .

(٣) م.ن ، ص : ١٥٦ .

** خرج سولي دُلغادر عن طاعة برقوق ، لكنّه حضر طائعاً إلى حلب ، فأنزله يلبغا الناصري في قلعة حلب. ولما طلبه برقوق ، دبّر الناصري هروبه.

(ابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٣٠٢ – ٣٠٣ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٥٣١).

(٤) ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٥٤٠ ، وابن حجر ، م.س ، ص.ن .

(٥) المقريزي ، م.س ، ج٣ ق٢ / ٥٤٣ ، ٥٧٣ .

- **دور أعـراب الشـام وتركماتهـا فـي ثـورة يلبغـا الناصـري :**

تمكّن الناصري من كشف نوايا السلطان برقوق إزاء المماليك الأتراك ، فقرّر مواجهته علناً ؛ فاجتمع بالأمراء الأتراك وقرّروا خلع برقوق من عرش السلطنة. ولمّا تلقّى الناصري التأييد من أمراء حلب استولى على قلعتها ؛ ثمّ استدعى أمراء العرب فحضر منهم الأمير نُعير بن حيّار مؤيداً ، كما حضر إليه من التركمان سولي بن دُلغادر التركماني طائعاً. ولمّا علم منطاش بتحرك الناصري ، قَدِم عليه طائعاً ومؤيداً ، فتحالفا على إسقاط حكم برقوق (١).

يتبيّن من هذا الموقف المعلن تعاضد اليلبغاويّة بزعامة الناصري مع الأشرفية بزعامة منطاش ، وتأييد أعراب الشام وتركمان العمق ، مما يُنذر باهتزاز عرش برقوق.

وما إن عَلِمَ برقوق بهذه الأخبار السيّئة من تلكتمر حتى اتخذ تدابير عملية ؛ فجمع شمل المماليك الجراكسة لمواجهة المماليك الترك. وعيّن إينال اليوسفي في نيابة حلب وأمره بالقبض على الناصري لكنّه انضمّ للناصري. ثمّ استشار برقوق الأمراء والقضاة بأمر الناصري مُبدياً رغبته بالخروج لقتال الناصري ، لكنّهم أشاروا عليه بإرسال عسكر مصر لإنهاء حركة الناصري ، فوافق السلطان بعد تردّد ؛ فهو غيرُ راغب بإرسال غالبية جنده إلى الشام والبقاء في القاهرة بعددٍ قليل. فأظهر التودّد للأمراء كثيراً ، وبذل لهم العطايا ، وحلّفهم على الطاعة. ولم ينس العامّة ، فأبطل كثيراً من الضرائب المفروضة عليهم في مصر (٢).

ثمّ تواترت أخبار الشام إلى القاهرة بأن جماعة من الأمراء * المنفيين في طرابلس استولوا عليها وقبضوا على نائبها أستدمر المحمدي ، وبعثوا إلى الناصري يُعلنون التأييد والطاعة (٣). وأمّا في حماة فقد هرب نائبها سودون العثماني إلى دمشق(٤). وأما بعلبك فقد انضمّ نائبها كمشبغا الحموي إلى الناصري ، فتولى نيابتها

---

(١) ابن الفرات ، تاريخه ،ج٩ ق١ / ٥٣ ؛ ابن حبيب ، ذيل درة الأسلاك ، ورقة : ٢٣٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ ٣ ق٢ /٥٩٢ ، ابن قاضي شهبة ،تاريخه، ٢٦٣/٣ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٣٦٥/١ ؛ السخاوي ، ذيل دول الإسلام ، ص : ٩٧ ؛ والقاضي عبد الباسط ، نيل الأمل ، ورقة : ١٤٨.

(٢) ابن الفرات ، م.س ، ص : ٧٤ ؛ ابن حجر ، م.س ، ص.ن ؛ وابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ١٨٦/١.

* الأمراء هم : أقبغا جبجق ، بزلار العمري ، دمرداش اليوسفي ، قرابغا فرج الله ، وكمشبغا الأشرفي.

(٣) ابن الفرات ، م.س ، جـ٩ ق١ / ٥٤ ؛ المقريزي ، م.س ، جـ٣ ق٢ / ٥٩٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١/ ٢٥٩ ؛ وابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق٢ / ٣٩٦ .

(٤)ابن الفرات ، م.س ، ص : ٥٥ ؛ والمقريزي ، م.س ، ص : ٥٩٣ .

علاء الدين بن الحنش شيخ عشير بعلبك والبقاع ، وظلّ موالياً للظاهر برقوق [١]. وبذلك ازدادت قوة الناصري بانضمام طرابلس وحماة حتى أصبحتا كلمة واحدة مع حلب.

وفي العام نفسه (٧٩١ / ١٣٨٩) ، جمع يلبغا الناصري مؤيّديه من أمراء المماليك ، وأمير العربان نُعير ، وأمير التركمان سولي بن دُلغادر ، وقد حدّد لهم هدف ثورته بخلع برقوق وإعادة دولة قلاوون بتعيين حاجي بن شعبان من ذريّة قلاوون ، وبتخليص الخليفة المتوكل * من سجن برقوق ؛ ثمّ أعلن الخطبة باسميهما. فجاءه التأييد من غالبية النيابات الشامية ، ودخلت قلاعها في طاعته خلا قلاع دمشق والكرك وبعلبك. وحضر إليه نُعير بن حيّار بفرسانه ، وسولي بن دُلغادر بتركمانه ؛ فلم يبق أمامه سوى التوجه إلى دمشق [٢].

أقلقت هذه الأخبار برقوق ، فراح يتخبّط بسياسته نحو الخليفة المتوكل ، فأعاده إلى السجن وضيّق عليه ، ومنع الدخول عليه غير من يخدمه ، ثمّ عاد بعد يومٍ واحدٍ فأطلق سراحه ، وأحضره إلى مجلسه بين العلماء والأمراء ولاطفه واعتذر له ، لكنّه حددّ إقامته بالقلعة لمراقبته [٣].

ولم يبقَ أمام برقوق إلاّ إنفاذ حملته العسكرية إلى بلاد الشام ، فاستعرض عساكر الحملة ، وعيّن خمسة من كبار أمرائه لقيادتها ، واختار خمسمائة من مماليكه الخاصة ، وأضافهم لِلواء جركس الخليلي ** ، وسلّم قيادة الحملة

---

(١) ابن صصرى ، الدرّة المضيئة ، ص : ٧ .

* هو المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المعتضد ، وُلّي الخلافة سنة ٧٦٣/ ١٣٦٢ ، وامتدت أيامه خمساً وأربعين سنة تخللها خلع وحبس. وفي سنة ٧٨٥ / ١٣٨٣ ، اتّفق جماعة من الأمراء المماليك على عزل السلطان برقوق وساعدهم على ذلك الخليفة المتوكل ، ووافقهم بدر بن سلاّم أمير قبيلة خفاجة بصعيد مصر. فلما بلغ ذلك برقوق أمسك الخليفة المتوكل وسجنه وخلعه وفوّض الخلافة إلى عمر بن إبراهيم بن الواثق ، وسمّر بقية المتآمرين. (انظر : السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص : ٤٤٧ ؛ وابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٢٧٥).

(٢) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق١ / ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٥٩٥ .

(٣) ابن الفرات ، م.س ، ص : ٥٧ ؛ وابن حجر ، م.س ، ١/ ٣٦٦ .

** جركس الخليلي اليلبغاوي : أمير آخور الظاهر برقوق ، وأصله من مماليك يلبغا العمري ، ومن آثاره خان الخليلي بالقاهرة ، قتل في موقعة خان لاجين ، فحزن عليه برقوق.

(ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٤/ ٢٠٥ - ٢٠٧).

إلى أيتمش البجاسي * أتابك العسكر (١).

وفي دمشق ، استقبل حسام الدين طرنطائي نائب دمشق الحملة ، واجتمع مع الأمراء والقضاة ، فاستقر الرأي على إرسال جماعة من العلماء إلى الناصري لإجراء الصلح بينه وبين السلطان ، لكنّ مساعيهم لم تنجح. وبينما كان العسكر المصري مشغولاً باللهو والفساد في دمشق ، فإذا بطلائع الناصري تحطُ عند خان لاجين (٢) ، شرقي دمشق، واتخذ الناصري من المكان ساحة للمعركة. فخرج العسكر المصري من دمشق ماراً ببرزة ، وسار نحو خان لاجين. وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة ٧٩١ / ١٣٨٩ ، التحم الجيشان في قتال شديد ، انتهى بهزيمة عسكر برقوق ، واستسلام أيتمش البجاسي أتابك العسكر ، وقتل جركس الخليلي (٣).

وقد كان وراء هزيمة عسكر السلطان برقوق في خان لاجين أسباب منها : عدم حضور السلطان برقوق إلى دمشق على رأس جيشه ، وقلّة عدد عسكره بالمقارنة مع عسكر يلبغا الناصري ؛ وخيانة عدد من أمراء برقوق وفي مقدّمتهم أحمد بن يلبغا ** ، وسرعة استسلام أيتمش البجاسي وحجزه في قلعة دمشق ، ومقتل جركس الخليلي وهو من أهم أمراء الحملة. ومما ساعد الناصري في حسم الموقف لصالحه سرعة تحركه ، واستغلاله عنصر الوقت الذي كان فيه عسكر برقوق منشغلٌ باللّهو في دمشق.

---

* أيتمش البجاسي الجرجاوي : أتابك عسكر برقوق ، قرّبه برقوق ورقاه وجعاه أمير مائة مقدم ألف ، ورأس نوبة النوب. وبعد موت برقوق صار مدبّر مملكة فرج بن برقوق ، قتل في قلعة دمشق سنة ٨٠٢هـ.

(ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٣/ ١٤٣ - ١٥١).

(١) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق١ / ٥٨ - ٥٩ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٥٤٩ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٥٩٣ ؛ وابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣ / ٢٦٧ .

(٢) خان لاجين : بناه حسام الدين لاجين المنصوري نائب دمشق في عهد قلاوون ؛ ويقع تحت ثنيّة العقاب التي تطل على غوطة دمشق. واليوم يُعرف بخان عياش. ويقع في ملتقى طريق بغداد - حمص.

(محمد دهمان ، ولاة دمشق ، ص : ٧٠).

(٣) ابن صصرى ، الدرة المضيئة ، ص : ١٢ ؛ ابن الفرات ، م.س ، ص : ٦٣ - ٦٤ ؛ ابن حبيب ، ذيل درة الأسلاك ، ورقة : ٢٣٩ ؛ المقريزي ، م.س ، ص : ٥٩٨ - ٥٩٩ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١/ ٢٦٤ - ٢٦٥ .

** أحمد بن يلبغا : هو أستاذ الظاهر برقوق وأمير مجلسه. انحاز إلى الناصري في أرض المعركة في الوقت المناسب ، وقدم مع الناصري إلى القاهرة ، فأمّره أمير مجلس ، لكنّ منطاش سجنه مع الناصري فيما بعد. ولما عاد برقوق إلى سلطنته الثانية أفرج عنه وأعاده أمير مجلس ! وقد قتل في عهد فرج بن برقوق في قلعة دمشق سنة ٨٠٢ / ١٤٠٠ .

(ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٢/ ٢٦٨ - ٢٦٩).

كما كان لأعراب الشام دورٌ واضحٌ في تحقيق النصر ليلبغا الناصري ، فقد شكّل عُربان آل فضل وغيرهم من فرسان القبائل الأخرى جانباً من قوات الناصري ، وقد لعب فرسان نُعير بن حيّار جناحاً قوياً وهاماً في قوات الناصري ، ففي الوقت الذي كان فيه هؤلاء الفرسان يقتلون ويأسرون من عسكر برقوق ، كانت جموعٌ أخرى من العربان تنهبُ مؤخرة الجيش المصري وأثقاله ، وتلاحق من يهرب من عسكر برقوق. وكذلك أقدم عرب آل مرا على قطع الطرق المؤدية إلى دمشق تحسُّباً من وصول نجدات عسكرية أو حدوث أي مفاجآت من عسكر برقوق ، وسدّها على الفارين من أرض المعركة وملاحقتهم أسراً وقتلاً. وهذا الأمير عنقاء بن شطي أمير عرب آل مرا كان يرقُب الطريق الرئيسي الذي يمكن أن يسلكه الفارين من عسكر برقوق. وبالقرب من (خربة اللصوص) الواقعة على طريق دمشق – حوران اعترض عنقاء بن شطي طريق الأمير يونس الدوادار وجماعته الفارين صوب مصر ، فقبض عليه وحزّ رأسه وأرسله إلى يلبغا الناصري في دمشق. وحين بلغ برقوق مقتل يونس الدوادار ، شعر بزوال ملكه وكادت نفسه أن تزهق. وكذلك قام التركمان بقيادة سولي بن دُلغادر بأسر وقتل ونهب قوات برقوق ، ولم يقلّ دورهم عن دور أعراب الشام في إلحاق الهزيمة بعسكر برقوق[١].

وأمّا يلبغا الناصري ، فلم يتوان عن كسب ثمار انتصاره في موقعة لاجين ، فدخل إلى دمشق ورتّب أمور نيابتها وبقية النيابات الشاميّة ؛ وأسقط اسم الظاهر برقوق من الخطبة ، وأبقى على اسم الخليفة المتوكل. ثم تجهّز لدخول مصر. وسرعان ما توجّه بقواته من دمشق إلى القاهرة ، وقد انضمّت إلى قواته جماعات كبيرة من قبائل عربان الشام التي أيّدت الناصري ، وجماعات تركمانية التي شاركت في معركة خان لاجين وفئات تركمانية جديدة وحتى جماعات كرديّة [٢].

وأمّا ردّة الفعل عند السلطان برقوق على هزيمة قواته وفقدان خيرة أمرائه في خان لاجين ، ومن إسقاطه اسمه من خطبة الجمعة ، فإن قواه قد خارت ، وتأكد من زوال ملكه. ومع هذا ، فإنّه فكّر بإعداد حملة ثانية لدفع الناصري عن مصر ، ولم يفكّر

---

(١) استخلصنا هذه العوامل من المصادر التي كادت تجمع عليها :
- ابن صصرى ، الدرة المضيئة ، ص : ١٧ ؛ ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق١ / ٦٢ – ٦٤ ، ٥٧ ، ٧٠ ؛
ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٥٤٩ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٥٩٨ – ٥٩٩ ؛
ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣/ ٢٧٠ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٣٦٦ ؛
وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١/ ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ .
(٢) المقريزي ، م.س ، جـ٣ ق٢ / ٦٠٧ ؛ ابن قاضي شهبة ، م.س ، ٣/ ٢٧١ ؛
وابن الفرات ، م.س ، جـ٩ ق١ / ٧٢ .

بقيادتها شخصياً ، بل فضّل البقاء في القاهرة. لكنّ مستشاريه وأمراءه الجدد ، نصحوه بعدم فائدتها ، فالناصري متقدّم نحو مصر بقوات جرّارة منتصرة ، فَعَدَلَ برقوق عن إرسال قوات جديدة. ولمّا وصلت قوات الناصري إلى قطيا * ، إزداد برقوق تقرّباً من الخليفة المتوكل إلى درجة أنّه أمر بالدعاء للخليفة قبل نفسه !!. ثمّ حَصّنَ القلعة ، وحرّض مماليكه على الثبات معه دفاعاً عن وجودهم الجركسي ، ووزّع الأموال والخيول على الأمراء والمماليك [1]. لكنّ هذه الإجراءات لم تثمر أمام تصميم الناصري على دخول القاهرة.

ففي سنة ٧٩١ / ١٣٨٩ ، تمكّنت قوات الناصري من دخول القاهرة ، وإلحاق الهزيمة بقوات الظاهر برقوق واختفائه في بيت أحد مماليكه. وأما الناصري فقد أقام في قُبّة النصر خارج القاهرة ، وحضر إليه منطاش وبصحبته الخليفة ، فأحسن الناصري استقباله بحضور العلماء وكبار الأمراء. ثم استشارهم الناصري بأمر السلطنة وأبعد الفكرة عن نفسه وأشار بأن تكون لواحدٍ من بيت قلاوون ، فاختاروا أمير حاجي بن الأشرف شعبان سلطاناً ولقّبوه بالملك المنصور في العاشر من جمادي الآخرة ٧٩١ / ١٣٨٩ [2] ؛ وبذلك عاد إلى سلطنته مرة ثانية.

أصبح الناصري أتابك العسكر للسلطان حاجي ومدبراً لمملكته ، فهو معنيٌّ بتنظيم الأمور ، وإعادة ترتيب أوراق السلطنة ، فاتخذ إجراءات عديدة ، منها :

- منع المماليك الأتراك ، ومن حَضَرَ من أعراب الشام وتركمانها ، وزُعر القاهرة وعامّتها من الاستمرار بنهب القاهرة والاعتداء على حرمات الناس ، وهددهم بالقتل ، لإعادة الهدوء والطمأنينة للناس.

- أفرج عن الأمراء الأتراك المسجونين بالإسكندرية ، وأحضرهم إلى القاهرة تمهيداً لتوزيع المناصب القياديّة عليهم.

---

* قطيا (قطية) : قرية في الطريق بين مصر والشام قرب الفرما . وفيها أخذ المكس من الوافدين على مصر.
(محمد رمزي ، القاموس الجغرافي ، ١/ ٣٥١).

(١) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق١ / ٧٥ – ٨٤ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٥٥٠ – ٥٥١ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٦٠٩ – ٦١٥ ؛ ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣ / ٢٧٤ – ٢٧٧ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١/ ٢٧٥ وما بعدها ؛ وابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ١/ ١٩٧ – ٢١٠ .

(٢) ابن صصرى ، الدرّة المضيئة ، ص : ١٩ ؛ المقريزي ، م.س ، ص : ٦٢٧ – ٦٣٢ ؛ ابن قاضي شهبة ، م.س ، ص : ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٣٦٨ ؛ ابن تغري بردي ، م.س ، ص : ٣٢٢ ، ٣٢٥ – ٣٢٦ ؛ وابن الصيرفي ، م.س ، ص : ٢١٤ – ٢١٧ ، ٢٢٢–٢٢٤.

– رسم بسفر برقوق إلى قلعة الكرك ، وأوصى حسن الكَجْكَني نائب الكرك بالمحافظة على حياة برقوق ، وأن يُفرج عنه إن شكّ في أي أمرٍ يهدّد حياته ، وذلك تحسُّباً لأي خلافٍ قد يحدث مستقبلاً.

– أمّن المماليك الجراكسة ، وأبقى على إقطاعات المماليك السلطانية السابقين ، لكنه أبعدهم عن خدمة السلطان حاجي ، وعيّن مماليك أتراك في خدمته. وبعد أن استقرت الأمور أبعد أكبر عدد ممكن من الجراكسة إلى الشام ووزّعهم على نوّابها الأتراك ، ولاحق من بقي منهم في القاهرة. لكن هذا الإجراء سيكون مردوده ضد مستقبل الناصري.

– رحّب بقدوم أمير العرب نُعير بن حيّار إلى القاهرة حينما وصل مهنئاً بالنّصر ، وأنعم عليه ، وقبل شفاعته بعددٍ من الأمراء المسجونين ، وسار معه لتهنئة السلطان حاجي. والجدير بالذكر أنّ نُعيراً أشار على الأمراء بقتل الظاهر برقوق. وهذه الإشارة تفسّر عمق الخلاف بين نُعير وبرقوق ، فلم يطأ نعير بلاط برقوق طيلة سلطنته الأولى.

– جلس الناصري بدار العدل للفصل في المنازعات ودفع الظلم عن الناس.

– فرّق الإقطاعات بين أمرائه ومماليكه اليلبغاوية الأتراك ، وسلّمهم المناصب القيادية ، بينما تجاهل أمراء منطاش الأشرفية.

– تجاهل منطاش ولم يُشركه في الحكم.

• الصراع بين منطاش والناصري :

يتبيّن من خلال التدابير التي نفّذها يلبغا الناصري أنّه استأثر بالسلطة وتصرّف تَصرُّف السلاطين ، فأدت سياسته هذه إلى التعجيل بإنهاء حكم المماليك الأتراك بشكل عام ، وأثارت حفيظة حليفة منطاش.

كان منطاش وأتباعه يراقبون تدابير الناصري ، فأحسّوا أنّ الأمرَ يَفلتُ من أيديهم وتركّزَ بيد الناصري وأمرائه ــ لذلك قرّر منطاش التخلّص من يلبغا الناصري. لكنّ الناصري لم يغفل عن مراقبة منطاش وتصرّفاته ، " فكان منطاش متربّصاً بالدولة طاوياً جوانحه على الغدر " [١].

وأما بوادر فتنة منطاش ، فقد بدأت بالظهور في السادس عشر من شعبان ٧٩١ / ١٣٨٩ ، حين انقطع عن الخدمة مدّعياً المرض ، فتنبّه الناصري

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٥٥٢ .

إلــى مكيــدة منطاش ، وأشار على الطنبُغا الجوباني * بعيادتـــه ، فاســتقبله منطـــاش وأكرمه. فلمّا همَّ الجوباني بالانصراف قبض عليه منطاش ؛ واندفع منطاش ومماليكه إلى القلعة للقبض على الناصري مباغتة ، فلم يتمكّن من مقصده ، لإن الناصري كان قد أغلق أبواب القلعة حرصاً واحتياطياً ، وقد اكتفى منطاش بنهب الخيل من الاسطبل الســلطاني ، وعاد إلى داره استعداداً للقتال (١).

وأما الناصري قد اتجه لمعالجة الموقف بأسلوب آخر ، فاستدعى الخليفة وطلب منه وساطة إجراء الصلح مع منطاش. لكن جهود الخليفة لم تفلح حين لخّص له منطاش سبب ثورته قائلاً : " ..... أنا في طاعة السلطان...... وإنّ غريمي واحد هو الناصري لأنّه حلَف لي بسيواس وحلب ودمشق بأن أكون وإيّاه شــيئاً واحــداً ، ...... فخــان العهود وترفّع عليّ ..... وبعثني لمقاتلة العرب ، ولم يعطني شيئاً من المال ، وخـصّ نفسه بأحسن الإقطاعات ...... فوالله ما أكف عنه حتى أقتله أو يقتلني ..... (٢).

فاستعدّ يلبغا الناصري للأمر ، ونزل من القلعة بمماليكه لقتال منطاش ، واســـتمر القتال سجالاً بينهما ثلاثة أيام ؛ وانتهى بهروب الناصري إلى ســــرياقوس ** وســيطرة منطاش على القلعة ، وإعلان طاعته للسلطان حاجي الذي عيّنه أتــابك العســكر. ولمــا أُحضر الناصري بين يدي منطاش ، اكتفى بسجنه بالإسكندرية مع عدد من أمرائه (٣).

نهج منطاش أتابك العسكر سياسة لم تكن أفضل من سياسة سابقه الناصري ، فانفرد بالسلطة واستأثر بها ، ولاحق الجراكسة والمماليك اليلبغاوية ، وتناسى وعوده للعامّة ومن سار وراءه ، لكنّه تقرّب من السلطان حاجي فتزوج أخت السلطان (٤).

وفي بلاد الشام لم تجرِ الأمور على هوى منطاش ، ففوجئ بخروج نُعير بن حيــار ابن مهنّا انتصاراً ليلبغا الناصري ، واتفق نُعير مع سولي بن دُلغـــادر التركمـــاني علــى

---

* ولاّه برقوق في سلطنته الأولى أمير مجلس ، ثم نيابة الكرك ، ثم نيابة دمشق سنة ٧٨٩ / ١٣٨٧ ، ثم سجنه برقوق في ٧٩١ / ١٣٨٩ ، ثم اعتقله منطاش. ولما عاد برقوق إلى سلطنته الثانية ، ولاّه نيابة دمشق ثانية ، وندبه برقوق لمقاتلة منطاش سنة ٧٩٢ / ١٣٩٠ .

(ابن طولون الصالحي ، إعلام الورى ، ص : ٥٤ - ٥٥).

(١) ابن الفرات ، تاريخه ، حـ٩ ق١ / ١١٧ ؛ وابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣/ ٢٨١ .

(٢) ابن الفرات ، م.س ، حـ٩ ق١ / ١٢٠ - ١٢١ ؛ المقريــزي ، الســلوك ، حــ٣ ق٢ / ٦٤٤ ؛ وابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ١/ ٢٣٧ .

** سرياقوس : بلده صغيرة من ضواحي القاهرة . (محمد رمزي ، القاموس الجغرافي ، ٢/ ٣٥).

(٣) ابن الفرات ، م.س ، ص : ١٢٣ - ١٢٥ ؛ والمقريزي ، م.س ، ص.ن .

(٤) ابن قاضي شهبة ، م.س ، ٣/ ٢٨٨ - ٢٨٩ .

محاربة منطاش. ووصل منطاش تهديداً من بزلار * نائب الشام يتوعّده بقدوم القاهرة بثلاثين ألف فارس (١). هذا يعني أنّ منطاش سيواجه المتاعب في بلاد الشام ، فاتّجهت أنظاره إلى الكرك حيث برقوق ما يزال حياً.

• **مكيدة منطاش لقتل برقوق في الكرك :**

لما بلغ منطاش بأنّ نُعيرَ بن حيّار قد كاتب برقوق في سجن الكرك ، وأعلن الطاعة له ، ووعده بالحضور إلى خدمته متى طُلب منه ، وأرسل إليه معتذراً عن عصيانه السابق (٢) ، حينها خشي منطاش أن تخرج الشام من يده ، وبالتالي عودة برقوق إلى الحكم.

أعدّ منطاش مؤامرة لقتل برقوق في سجن الكرك ، فبعث الشهاب البريدي * إلى الكرك وحمّله رسالة شفوية لنائب الكرك لتسهيل مهمة الشهاب بقتل برقوق (٣). لكن نائب الكرك تذكّر وصيّة الناصري ، فأنزل الشهاب البريدي بالقلعة ، وامتثل لمنطاش بالسمع والطاعة، وماطله في تنفيذ مهمته. ثم أرسل إلى منطاش يطلب منه مرسوماً عليه خط الخليفة والسلطان وخطوط القضاة الأربعة ، وكبار الأمراء ، بأنهم رضوا بقتل برقوق ؛ وحينها يُرسلون من يتسلّم برقوق ويقتله (٤).

ولما شاع خبر الشهاب البريدي بين أهل الكرك عن طريق خادم برقوق في سجنه ، هبّ قاضي الكرك ومعه نحو مائتي رجل ، فهاجموا القلعة وقت إفطار المسلمين في رمضان ، وتمكّنوا من الشهاب البريدي فقتلوه ، وطلبوا من برقوق أن يدوس رأس غريمه. ولمّا حاولوا قتل نائب الكرك ، استجار ببرقوق فأجاره (٥).

---

* بزلار العمري الناصري ؛ نائب دمشق ، أصله من مماليك الناصر حسن ، نفاه برقوق إلى طرابلس. أيّد الناصري في حلب ودخل معه إلى مصر ، فثبّته في نيابة دمشق ، ولما استولى منطاش على السلطة تعصّب للناصري. قتل بقلعة دمشق سنة ٧٩١هـ.
(ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٣/ ٣٦١ - ٣٦٣).

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢/ ٦٥١ .

(٢) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق١ / ١٤٠ ؛ وابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٣٧٤ .

* هو الشهاب أحمد ، من أهل الكرك ، تزوّج من ابنة قاضي الكرك اسماعيل بن أحمد المقّيري ، وكان الشهاب أحمد قد تعلّق بزوجته لجمالها ، إلاّ أن أباها طلّقها منه. فخدم بريدياً عند منطاش وأبدى استعداده لقتل برقوق لينتقم من قاضي الكرك. (ابن حجر ، م.س ، ١/ ٣٧٦).

(٣) ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣ / ٢٨٥ .

(٤) ابن الفرات ، م.س ، جـ٩ ق١ / ١٤٠ ؛ ابن حبيب ، ذيل درة الأسلاك ، ورقة : ١٤٠ ؛ والمقريزي ، م . س ، ص : ٦٧٥ .

(٥) ابن قاضي شهبة ، م . س ، ص : ٢٨٦ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ٥/٥٥٤.

• مشاركـــة أعــراب الشـــام فـــي عـــودة برقـــوق إلـــى الحكـــم :

نجا برقوق من مكيدة منطاش فتوجهت أنظاره إلى القاهرة ، وقويت عزيمته حيـــن وَفَدَ عليه خمسمائة مملوك من مماليكه الخاصة المنفيين في بلاد الشام ، ومســـاندة أهـــل الكرك له. كما كان لأعراب الشام دورٌ واضحٌ في عودة برقوق إلى القاهرة ؛ فحضر إليه أمير بني عقبة (هيثم بن خاطر) ومعه سبعة آلاف رجل من عربه. وتلقّى برقوق التأييد من عرب جَرْم في غزّة ، وعُربان الشوبك ومشايخ العشير. وعرض عليه تاجر مسـيحي من الشوبك مائة ألف دينار ليفرقها بين مؤيّديه ، كلّ هذا دفع برقوق لإعلان اســمه فـــي الخطبة وإسقاط اسم السلطان حاجي منها [(١)].

تمكّن برقوق من الخروج من الكرك ، وتجهّز ركبه العسكري صوب دمشق. ويكاد ابن قاضي شهبة أنْ ينفرد بوصف الطريق التي سلكها برقوق من الكرك إلى دمشق ، كما أن روايته اليتيمة هامة بالنسبة إلى مشاركة الأعراب من مختلف أنحاء بلاد الشـــام فـــي عودة برقوق إلى عرش السلطنة. فيروي : خرج برقوق من الكرك بمماليكه ومن انضـم إليه من أهل الكرك والعربان ، ولما نزل اللجُون * جاءه كتاب من كمشبغا الحموي نـائب حلب يقوي عزيمته ويعلن الطاعة بمن معه من حلب وحماة. كما وفد عليه وهو مقيم في اللجون أمراء بني مهدي من البلقاء وحلفوا على الطاعة. وفي حُسْبان ** لقي الـــترحيب من أهلها ومن عربان بني مهدي. ولما وصل برقوق إلى الزرقاء *** ، جـــاءه قاسـم الحارثي ، وعيسى بن فضل والغزاوي ، وحَلَفوا له وبايعوه. وفي أذرعـــات (درعـــا) كثرت جماعته ، وانتقل إلى بلدة الشيخ مسكين ، ثمّ نزل بقرية كُتَيْبة قرب الكسوة قريبـــاً من دمشق ، فجاءه آل علي ووعدوه بالنصر [(٢)].

وما إن اقترب برقوق من دمشق حتى خرج نائبها (جَنْتَمِر) **** لمنع برقوق من

---

(١) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق١ / ١٤٠ .

* اللجّون : بلد بالأردن ، وهي إحدى محطات الحاج الشامي ، تقع بين بركة زيزاء وحصن الكرك. ويمكن تحديد موقعها بين الكـــرك والقطرانـــــة.

(ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ / ١٥).

** حُسبان : مدينة في إقليم البلقاء ؛ تتبع نيابة دمشق ، واليوم تقع جنـــوب غـــربي عمّـــان.

(ابن شاهين الظاهري ، زبدة ، ص : ٤٦).

*** الزرقاء : مدينة على طريق الحاج الشامي ، تقع إلى الشمال من عمان ، ويمرّ فيها نهر الزرقاء.

(٢) ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣/٢٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

وانظر الخريطة التي توضح مسار الطريق التي سلكها برقوق من الكرك إلى دمشق ، ص : ٣٢٨ .

**** جنتمر (جَرْدَمر) : كان من مماليك الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون ؛ ظل يترقّى حتى خلع الصالح وأعاد الناصر حسن. وبواسطته ارتقى أخوه (طاز) إلى أعلى وظائف الدولة. تولّى جنتمر نيابة دمشق =

دخولها. وفي الحادي والعشرين من ذي القعدة ٧٩١ / ١٣٨٩ ، حدثت معركة شقحب بين برقوق وجنتمر انتهت بهزيمة نائب دمشق ، فهرب وتحصّن بقلعتها [١]. وانتقل برقوق لمحاصرة دمشق ؛ ثم دخلها بعسكره ووصل الميدان الكبير (ساحة المرجة حالياً) ، ووقف أسفل القلعة. لكنّ عامة دمشق هاجموا جموعه التي عاشت في حي القبيبات نهباً وحرقاً ، فاضطرّ برقوق إلى الخروج من دمشق والإقامة في قبة يلبغا [٢].

وفي اليوم التالي من موقعة شقحب ، ظهر حسين بن باكيش نائب غزّة بعسكره وعشير نابلس ، فتصدى له برقوق عند (عقبة شحورا) ، وألحق به هزيمة مُرّة ، وغنم خيوله وجماله وأسلحته ، وعاد إلى قبة يلبغا [٣].

ولما انتشرت أخبار انتصارات برقوق على عسكر دمشق ، أرسل كمشبغا الحموي * في حلب ثمانين مملوكاً من مماليك برقوق محمّلين بالعُدَدِ والأثقال [٤]. ثم حضر علاء الدين ابن الحنش شيخ عشير بعلبك بقواته ونزل قبة يلبغا ، فخلع عليه برقوق وسُرّ بتأييده كثيراً. وأما جموع ابن الحنش فقد اتجهت صوب كفر سوسة من قرى

-في ثورة الناصري ، قتله الظاهر برقوق سنة ٧٩٣ / ١٣٩١ . (ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٢/ ٧٥ ، ٣١٥).

(١) يروي ابن الفرات ؛ بأن خسائر العسكر الشامي في معركة شقحب بلغت ألف وخمسمائة رجل ؛ ومن الأمراء خمسة عشر أميراً ، وهرب ستة وثلاثون أميراً إلى القاهرة . بينما بلغت خسائر برقوق سبعة أمراء وستين رجلاً.

(تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ق١ / ١٥٢).

- ويحدد المقريزي الأعداد نفسها. (السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٦٦٧).

- وأما ابن قاضي شهبة فإنّه يشكك بهذه الأرقام ، فيقول : " ... بأن عسكر الشام كله لم يبلغ ألف وخمسمائة ". (تاريخ ابن قاضي شهبة ، ٣/ ٢٩٦).

(٢) قبة يلبغا : أنشأها الأمير يلبغا اليحياوي نائب دمشق في موضع خيمته ذكرى انتصاره بخلع الكامل شعبان. واستخدمت فيما بعد استراحة للسلاطين والأمراء. وتقع قرب قرية القدم.

(محمد دهمان ، ولاة دمشق ، ص : ١٩٥).

- ابن صصرى ، الدرة المضيئة ، ص : ٢٧ ؛ وابن قاضي شهبة ، م.س ، ص : ٢٩٥ .

(٣) ابن صصرى ، م.س ، ص : ٢٨ ؛ المقريزي ، م.س ، ص.ن ؛ ابن قاضي شهبة ، م.س ، ص : ٢٩٦ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١/ ٣٥٦ .

* كمشبغا الحموي اليلبغاوي ؛ اشتراه ابن صاحب حماة وهو صغير وربّاه ثم قدّمه للناصر حسن. ثم أخذه يلبغا العمري وصيّره رأس نوبة عنده. وظلّ يترقّى حتى تولّى نيابة حماة ، دمشق ، صفد ، وطرابلس. قبض عليه يلبغا الناصري ثم أفرج عنه وولاّه حلب. فلما خرج منطاش على برقوق ، أعلن كمشبغا تأييده لبرقوق. عيّنه برقوق أتابك العسكر ، ثم غضب عليه سنة ٨٠١هـ ، فسجنه في الإسكندرية ومات في سجنه قبل وفاة برقوق بأيام. (السخاوي ، الضوء اللامع ، ٦/ ٢٣٠).

(٤)ابن الفرات ، م.س ، جـ٩ ق١ / ١٥٣ .

دمشق، فنهبوها وخرّبوا مساكنها حتى طالت أيديهم جامع القرية ومنارته ، كما اشـــتركوا بنهب دمشق، وحرق بعض أحيائها [١]. ثمّ وفد عليه من صفد الأمير قجماس ابـــن عـــم برقـــوق، وإينال اليوسفي ومعها نحو مائتي مملوك [٢]. وبعد أيـــام وصـــل كمشـــبُغا الحموي بعسكر حلب، فقدّم المال والسلاح والخيل لبرقوق [٣].

وبانضمام هذه القوات المؤيّدة من بعلبك وصفـــد وحلـــب ، زادت قـــوة برقـــوق ، واشتدت عزيمته، حتى إنّهُ فكّر بالتوجّه إلى القاهرة وترك دمشق ؛ لكن أمراءه أبْعدوا هذه الفكرة عنه حتى يستولي على دمشق.

وحين ضيّق برقوق على دمشق ، وقطع ابن الحنش المياه عن أهلها ، بعث جَنْتَمِـــر من قلعة دمشق مستغيثاً بنُعير بن حيّار ، فلبّى نداء الاستغاثة ، ووصل بفرسانه إلى مـــرج دمشق. فبعث برقوق كمشبغا الحموي لدفع نُعير ، فاقتتل الجمعان شرقي دمشق ، وانكسر نُعير وأُسر خادمه ، فمنّ عليه برقوق وكساه وحمّله هدايا ، وردّه إلى سيّده نُعير [٤].

يلاحظ تقلّب نُعير بن حيّار بولائه لبرقوق ، فبالأمس القريب أيّد نُعيرٌ برقوق سجين الكرك ، واليوم يقاتله. يبدو أن هذا التأييد جاء انتصاراً للناصري ضـــد منطـــاش كمـــا أسلفنا. وأما اليوم فإن نُعيراً يخشى عودة برقوق إلى القاهرة ، وحينها لن ينسى له قدومه لتهنئة السلطان حاجي. ولعلّ نُعيراً خشي على مصير إمرة العرب بأن تخـــرج مـــن آل فضل إلى أعراب الكرك والبلقاء وبعلبك الذين وقفوا بجانب برقوق في محنته ، وما زالوا يساهمون بتحقيق انتصاراته.

ورغم وصول أخبار انتصارات برقوق إلى القاهرة ، وتأييد معظـــم نـــوّاب الشـــام وأعرابها له ، إلاّ أن منطاش كان منشغلاً باحتفالات زواجه من أخت الســـلطان حـــاجي لدرجة أن تكاليفها أفقرت الخزينة [٥]. ولعلّه كان يفتقر إلى الحنكة السياسية. لكنّه عـــاد وصحا من غفلته حين هزّته كلمات جنتمر نائب دمشق : " ..... أدْرك المدينة والقلعـة – دمشق – وإلاّ أخذها برقوق ، ويصعب الأمر عليك ، فقد حصّنْتُ لك المدينة وقلعتها ، ونحن في انتظارك والسلام " [٦].

وعلى أثر ذلك ، اتخذ منطاش إجراءات ، منها :

---

(١) ابن صصرى ، الدرة المضيئة ، ص : ٢٨ ؛ وابن قاضي شهبة ، تاريخه ٣/ ٣٠٠ .

(٢) عن حادثة هروبهما من قلعة صفد ، انظـــر : ابـــن صصـــرى ، م.س، ص : ٣٣ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـــ٣ ق٢ / ٦٦٩ – ٦٧٠ ؛ وابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٣٧٦ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٥٥٦ .

(٤) بن الفرات ، تاريخه ، جـــ٩ ق١ / ١٥٣ .

(٥) ابن حجر ، م.س ، ١/ ٢٧٩ ؛ وابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ١/ ٢٥٥ .

(٦) ابن صصرى ، م.س ، ص : ٣١ .

- استدعى الخليفة والسلطان والعلماء والأمراء ، وأعلن بلوغ السلطان حاجي سنّ الرشد ، فسمحوا له التحدُّث في أمور السلطنة [١].
- أمّن الأموال اللازمة لتجهيز حملة عسكرية لمواجهة برقوق ، فأخذ ثلاثمائة ألف درهم من مال الأيتام ، وألزم والي القاهرة بخمسمائة ألف درهم [٢] ، وحصل على سبعمائة ألف درهم من القاضي ابن أبي البقاء مقابل توليته قاضياً للقضاة[٣]. كما صادر وديعةً لجركس الخليلي المتوفّى والتي بلغت ستمائةٍ وخمسين ألف درهم [٤]. وألزم رئيس اليهود بخمسين ألف درهم ، وبطريرك النصارى بمائة ألف درهم [٥].
- استصدر فتوىً من القضاة الأربعة وشيخ الإسلام البلقيني تُجيزُ قتال برقوق ، خلاصتها : " إن الظاهر برقوق خلع الخليفة والسلطان ، وقتل شريفاً بالحرم الشريف ، واستحلّ الأموال والأنفس ، واستعان بالكفار على المسلمين " [٦].
- تعقّب المماليك الجراكسة ، فسجن منهم أكثر من ألف مملوك ، وكذلك فعل بالمماليك اليلبغاوية.
- انفق مئات الآلاف من الدراهم على أمراء الحملة ، وأمّن لهم الخيول والإبل ، وأمر بتجمّع القوات بالرّيدانيّة * ، يتقدّمها الخليفة والسلطان والقضاة الأربعة.
- عيّن (تُكا) ** نائباً للسلطنة في القاهرة ، وفوّضه بأمور السلطنة.

وبعد أن اكتملت استعدادات منطاش ، خرج من الريدانية صوب بلاد الشام ، فوصل غزّة في الثاني من محرم سنة ٧٩٢ / ١٣٩٠ ؛ فلمّا بلغ برقوق خبر الحملة ، ترك قبة

---

(١) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق١ / ١٦٠ .

(٢) ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣/ ٣٠٢ .

(٣) ابن الفرات ، م.س ، جـ٩ ق١ / ١٦٦ .

(٤) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١١/ ٣٦٢ .

(٥) المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٦٧١ .

(٦) ابن الفرات ، م.س ، ص : ١٦٠ ؛ ابن قاضي شهبة ، م.س ، ص : ٢٩٩ ، والمقريزي ، م.س ، ص : ٦٧٣ .

* الريدانية : اسم بستان يقع في حدود الصحراء شمالي القاهرة ، أنشأه ريدان الصقلبي ، أحد خدّام العزيز بالله الفاطمي. (المقريزي ، الخطط ، ١/ ١٣٩).

** هو الأمير تُكا بن عبد الله الأشرفي ، أصله من مماليك الأشرف شعبان ، ظلّ يترقى حتى صار من مقدمي الألوف، قبض عليه برقوق وقتله سنة ٧٩٣هـ.

(ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٤/ ٨١).

يلبغا واتجه صوب تلّ شقحب قبل وصول منطاش بأسبوع. وفي الرابع عشر من محـــرم من العام نفسه ، تقاتل الجيشان قتال المستميت في موقعة شقحب * ؛ وانتهت بانتصـــار برقوق رغم قلة قواته والتي بلغت أربعة آلاف جندي. وقد تمكّن برقوق من القبض على الخليفة والسلطان بأرض المعركة ، فطمأنهما ، ثم جمع العلماء وأشهدهم على المنصـــور حاجي بخلع نفسه ، وبويع برقوق بالسلطنة وتوجّه إلى القاهرة (١).

وفي القاهرة حدثت مصادفة عجيبة حين ثار المماليك الجراكسة بقيادة بُطــا** فـــي سجن القلعة ودون علمهم بما جرى في موقعة شقحب ، فخرجوا من ســـجنهم وتســلّموا الاسطبل السلطاني والقلعة ، وعيّنوا سودون الشيخوني*** نائباً للسلطنة. ثمّ انضمّ إليـــهم أكثر من ألف من الجراكسة ، وقبضوا على مماليك وأمراء منطاش وأودعوهـــم ســـجن القلعة. وأخذ بُطا بترتيب أمور القاهرة ، استعداداً لاستدعاء برقوق إليها (٢).

• استمـــرار الصـــراع بيـــن برقـــوق ومنطـــاش :

بدأ الظاهر برقوق سلطنته الثانية في الرابع عشر من صفر ســـنة ٧٩٢ / ١٣٩٠ ، فأعاد ترتيب الدولة الجركسية على أساس تصفية حساباته مع المماليك الأتراك وأعـــراب الشام. لكنّ هذا الأمر لم يَكُنْ سهلاً ما دام منطاش يعبث في بلاد الشام.

وفي دمشق تصرّف منطاش كأنّه سلطان الشـــام ، فعيّـــن النـــوّاب ، وأرســـل تجريـــدة بقيادة محمد شاه بن بيدمر إلى بعلبك للانتقام من علاء الدين بن الحنش لأنّه أيّـد برقوق – كما أسلفنا – ورفض تسليم المدينة لمنطاش. وظلّ منطاش يركب إلى بعلبـــك

---

* شقحب : قرية تقع بين دمشق ودرعا على مقربة من مرج الصُّفّر وإلى الغرب من غباغب.
(محمد دهمان ، ولاة دمشق ، ص : ٢٥٧).

(١) عن تفاصيل أحداث موقعـــة شـــقحب ، انظـــر :
ابن صصرى ، الدرة المضيئة ، ص : ٤٩ – ٥٢ ؛ ابن الفرات ، تاريخه ، جـــ٩ ق١ / ١٨٥ – ١٨٨ ؛ ابن حبيب ، ذيل درة الأسلاك ، ورقة : ٢٥٢ – ٢٥٣ ؛ المقريزي ، الســلوك ، جـــ٣ ق٢ / ٦٩٢ – ٦٩٥ ؛ ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، جـــ١ ق٣ / ٣١٩ – ٣٢٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجـــوم الزاهرة ، ١١/ ٣٦٧ – ٣٧١؛ ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ١/ ٢٧٣ – ٢٨١ ؛ وابن إياس ، بدائع الزهـــور ، جـــ١ ق٢ / ٤٢٧ – ٤٢٨ .

** هو الأمير بطا بن عبد الله الطولوتمري الظاهري ، اشتراه برقوق وجعله من خواصّه ، ثم انعم عليه بإمرة عشـــرة. ولما عاد برقوق إلى سلطنته الثانية جعله دواداره الكبير ، ثم عيّنه نائب دمشق ، مـــات ســـنة ٧٩٤هـــ.
(ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٣/ ٣٧٥ – ٣٧٩).

*** هو الأمير سودون الفخري الشيخوني ، أصله من مماليك شيخون العمري الناصري ، ترقّى إلى أن تولّى نيابة السلطنة. توفي سنة ٧٨٩هـــ. (ابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٥١٧).

(٢) ابن الفرات ، م.س ، ص : ١٩١ – ١٩٣ .

يتفقد أسوارها إلى أنْ تمّ سقوطها بيد ابن بيدمر ؛ فقبض على ابن الحنش ومعه مائة وعشرون من أعوانه. ثمّ أُحضروا إلى دمشق وهم مسمّرون على جمالٍ يتقدّمُهم ابن الحنش ورأس ابنه الصغير معلّقٌ في عنقه ، فأمر منطاش بتوسيطهم تحت قلعة دمشق بما فيهم علاء الدين بن الحنش (١).

ثمّ توجّهت أنظار منطاش إلى صفد ، فأرسل تجريدة لمحاصرتها ، لكنّ نائب صفد وأهلها ألحقوا هزيمة مُرّةً بعسكر منطاش (٢). وفي الوقت نفسه أرسل تجريدة إلى حلب ، فلاقت مصير حملة صفد ، ورُدّ عسكره على أعقابهم (٣).

وأمّا عربان الشام ، فقد تفاوتت مواقفهم بين التأييد والمعارضة ؛ ففي الوقت الذي اتّجه فيه عنقاء بن شطي أمير آل مرا إلى دمشق مؤيّداً ، كان عرب آل علي يقطعون الطرق الشرقية المؤدية إلى دمشق ويعترضون القوافل القادمة إلى منطاش ، وإنْ حاول منطاش دفعهم إلى البريّة ، فلم يتمكّن إلاّ بالعودة بآلاف الجمال من مراعيهم (٤). وأما نُعير بن حيّار فلم يُعلن موقفه ، بينما ظلّ عرب الجنوب على تأييدهم للظاهر برقوق. وفي الوقت نفسه ساورت منطاش الشكوك بأمرائه في دمشق ، فسجن (جَنْتَمِر) الذي ناصره بالأمس القريب ؛ كما أنّه تتبّع المماليك الجراكسة (٥).

لكنّ برقوق ، لم يكن غافلاً عن تدابير منطاش ، فعالج الأمور بدهاء وحكمة ، حين أطلق سراح الأمراء * الأتراك من سجن الإسكندرية ، وعيّن عدداً منهم في المناصب القيادية، وخلع على غريمه يلبغا الناصري وجعله أمير سلاح (٦).

ثمّ جهّز برقوق حملة عسكرية غالبية أفرادها من المماليك اليلبغاوية ، وكأنّه يريد تصفيتهم مع المماليك الأشرفية في بلاد الشام. وجعل أمر الحملة بيد يلبغا الناصري ، وطلب منه أن يصفّي حساباته مع منطاش ... هو غريمك ، فاعرف كيف تقاتله"(٧). ولمّا اقتربت الحملة من دمشق ، خرج منطاش منها وعَسكَرَ بقُبّة يلبغا. وحين بلغه

---

(١) ابن صصرى ، الدرة المضيئة ، ص : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ؛ وابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣/ ٣٢٦ ، ٣٢٩ .

(٢) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق١ / ٢١٠ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٧١٨ .

(٤) ابن قاضي شهبة ، م.س ، ٣/ ٣٣٢ .

(٥) ابن قاضي شهبة ، م.س ، ص : ٣٣٢ .

* الطنبغا الجوباني نائب دمشق ، إينال اليوسفي أتابك العسكر ، قرادمرداش نائب طرابلس ، ومأمور القلطماوي نائب حماة .

(٦) ابن الفرات ، م.س ، ص : ٢٠٥ .

(٧) المقريزي ، م.س ، ص : ٧١٢ ؛ ابن قاضي شهبة ، م.س ، ص : ٣٢٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢/ ٩ .

استيلاء أيتمش البجاسي والمماليك الجراكسة على قلعة دمشق ، ولّى هارباً ومعه ستمائة فارس ، ورافقه عنقاء بن شطي أمير آل مرا حتى وصلوا ديار نُعير بن حيّار قرب حمص. ولما التقى بنعير استجار به فأجاره [١].

وأما عسكر مصر ، فقد دخل دمشق دون قتال ، وبدأ الطنبغا الجوباني بترتيب أمور نيابته ؛ وحضر إليه أمير عرب حارثة بألف فارس مُعلناً تأييده لبرقوق [٢].

• موقف أعراب الشام من معركة حمص (٧٩٢ / ١٣٩٠) :

بدت ملامح الصدام العسكري تلوح بين عسكر برقوق ومنطاش. فقد تحالف منطاش مع نُعير بن حيّار وعنقاء بن شطي على محاربة عسكر مصر وأخذ دمشق. وأمّا الجوباني نائب دمشق فقد أرسل إلى نعير يطالبه بتسليم منطاش أو إخراجه من دياره ، فلم يستجب نُعير لطلبه [٣].

أخذ منطاش بتجميع قواته من المماليك الأشرفية ، وفرسان آل فضل وآل مرا وآلاف من التركمان . وبعد أن استولوا على حماة وحمص ، وَفِدَتْ عليهم جماعات من عُربان آل علي من غوطة دمشق وحطّت رجالها في ديار نُعير بن حيّار قرب حمص[٤].

ولما تقابل الطرفان في سلمية ، رتّب كل فريق قواته إلى ثلاث فِرَقٍ ؛ الطنبغا الجوباني في القلب لمواجهة الأشرفية والتركمان ، وقرادمرداش في الميسرة لمواجهة منطاش وعنقاء بن شطي ، وأما يلبغا الناصري فقد تولى قيادة الميمنة لقتال فرقة نُعير بن حيّار – حليفه بالأمس – وأما جموع عربان آل علي وآل مرا فقد استعدت لنهب مؤخرة عسكر برقوق [٥].

وفي الثاني من شعبان سنة ٧٩٢ / ١٣٩٠ ، التحم الجيشان في حرب ضروس ، وفيها تمكّن الناصري من إلحاق الهزيمة بنعير ، ولاحقه حتى دياره ، فنهبها وسباها

---

(١) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق١ / ٢١٠ – ٢١١ .

(٢) م.ن ، ص : ٢١١ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٥٦٢ .

– ذكر ابن الفرات أن عددهم نحو ثمانية آلاف فارس . (تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ق١ / ٢١٧).

– حدثت المعركة بأرض سلمية ، وقد أجمعت المصادر التاريخيّة على تسميتها بمعركة حمص ، ولعلّ سبب ذلك تبعيّة سلميّة إلى حمص ، علماً أنّها كانت تتبع تارة لحماة وأخرى لحمص.

(٤) ابن خلدون ، م.س ، ص.ن .

(٥) استخلصنا هذا التقسيم من مختلف مصادر الحاشية.

وأحرقها ، وابتعد نُعير عن دياره وكلّه حسرة ومرارة. وأما قرادمرداش * فقد تواجه مع منطاش فجرح كلٌّ منهما الآخر ، لكنّ عنقاء بن شطي اخترق ميسرة دمرداش وألحق بها الهزيمة. وهناك ، في القلب وقعت أعلام الطنبغا الجوباني وسقط هو جسداً بلا رأس، فقد قتله أحد مماليك منطاش غدراً. وهبّت جموع آل علي وآل مرا تنهب أثقال العسكر المصري [١].

ورغم هذه الصورة المأساوية لكثرة عدد القتلى من الطرفين ، وتشتت شمل العسكريين ، إلاّ أنّ يلبغا الناصري لَمْلَمَ بقايا جيشه وانسحب صوب دمشق لينتقم من ديار آل علي في غوطة دمشق ، فهاجم ديارهم ونهبها ، وساق منهم نحو مائتين ووسّطهم بدمشق [٢]. وأما الظاهر برقوق فقد عدّها نصراً سياسياً ، وأرسل يهنّئ الناصري ، وأنعم عليه بنيابة دمشق عوضاً عن الجوباني.

وبالمقابل ، انشغل نُعير بن حيّار بتضميد جراح هزيمته ، فاتّجه صوب (سرمين) ليعيد توزيعها على عربانه ، فهي جزء من إقطاعه ، فوجد فيها تركماناً وقد أقطعهم إياها كمشبغا الحموي نائب حلب ، فهرب التركمان إلى حلب ، فحضر عسكر حلب وألحق بنعير هزيمة لا تقل عن الأولى ، فقتلوا عدداً من عربانه وأسروا نحو مائتين من خيرة فرسانه ومن بينهم ابنه (علياً) ، فاقتيدوا إلى حلب ، فأمر النائب بتوسيطهم ، وأبقى علىٰ ابن نعير سجيناً [٣].

إنّ هاتين الهزيمتين أذاقتا نعيراً المرّ بأهله وذويه ، فملّ الحرب ، وأدرك آل فضل أن منطاش سبب هذه النكبات على العرب. فراسل نعيرٌ نائب حلب بشأن ابنه (علي) ، واعتذر وطلب الدخول بالطاعة. فانتهز نائب حلب هذه الفرصة ، وأرسل أمير مجلسه بصحبة نائب قلعة حلب ، معهما (عبد الرحمن) حاجب نعير إلى القاهرة. وهناك ، في القاهرة ، اعتذر حاجب نعير عما بدا من سيّده ، وانّه ما خرج عن الطاعة ، وطلب له الأمان ، فأكرمه الظاهر برقوق ، وأرسل تقليداً باستمرار نعير في إمرة آل فضل [٤].

---

* عاد دمرداش إلى دمشق على هجين وهو بحالة رثّة وأمامه بدوي . وأخبر دمرداش : أنه لما رأى هزيمة فرقته ، رمى نفسه عن فرسه وخلع ملابسه وهرب تائهاً ، فأمسكه هذا البدوي ، وقاده إلى خيمته ، وقال لأمّه : يا أماه هذا كسبي . ثم صدقه دمرداش باسمه ومرتبته ، فأكرمه البدوي وأحضره إلى دمشق ، ثم عاد إلى أهله محملاً بالهدايا والذهب. (ابن صصرى ، الدرة المضيئة ، ص : ٦٧).

(١) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق١ / ٢١٨ - ٢٢٠ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٧٢١ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٥٦٢ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢/ ١٦ .

(٣) ابن الفرات ، م.س ، جـ٩ ق١ / ٢٢٠ ؛ ابن خلدون ، م.س ، ص : ٥٦٤ ؛ المقريزي ، م.س ، جـ٣ ق٢ / ٧٢٢ ؛ وابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣/ ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٤) المقريزي ، م.س ، ص : ٧٢٤ ؛ ابن قاضي شهبة ، م.س ، ص : ٣٤٦ .

ولمّا علِم منطاش بهذه المراسلات والاتصالات ، أدرك أنه فقد حليفاً وسنداً قوياً ؛ لكنّه لم يُظهر شيئاً لنعير بل تقرّب منه واحتال عليه ؛ فطلب منه سبعمائة فارس من العرب للإغارة على التركمان ونهب أغنامهم ، فسار منطاش ومعه عنقاء بن شطي ، فلمّا اجتاز الدّرْبَنْد * ، احتال على الفرسان وأخذ خيولهم وأسلحتهم ؛ فعادوا مع عنقاء بن شطّي حُفاة. ثمّ اتّجه منطاش إلى مَرْعش ، ومنها إلى عَيْنتاب [١].

لقد سُقنا هذه المواقف تأكيداً للنصر السياسي الذي حقّقه برقوق ، فأعاد النيابات الشامية إلى حظيرة الدولة الجركسية ، بينما ظلّ منطاش طريداً وخارجاً عن الطاعة.

بَيْدَ أنّ بقاء منطاش حيّاً طليقاً قد أقضّ مضجع الظاهر برقوق ، لا سيّما أنّه لم يستقرّ في مكانٍ معيّن ، وكأنّه يقود حرب عصابات. ففي سنة ٧٩٣ / ١٣٩١ ، ظهر منطاش في دمشق ، فقد دخلها وجلس في القصر الأبلق ، منتهزاً خروج الناصري إلى بعلبك ، هذا وقد حضر عنقاء بن شطي بألفٍ من فرسان آل مرا [٢]. وأما الناصري فلم يبق أمامه إلاّ محاربة منطاش وإخراجه من دمشق ؛ فظلّت المناوشات بينهما طيلة شهر رجب من السنة نفسها.

وبعث برقوق عسكراً من مصر لمساعدة الناصري ، كما حضر علاء الدين بن الحنش الثاني ونائب قلعة بعلبك لمساعدة نائب دمشق. ولما دخلت قوات ابن الحنش عن طريق المزة – أحد أحياء دمشق حالياً – أرسل منطاش عسكره فأظهروا لهم بأنّهم من عسكر الناصري وقادهم إلى الميدان ، وأوكلوا أمر هؤلاء القيسية لليمانية " فعرّوهم من ثيابهم وسيوفهم ، ودارت اليمانية حولهم بالسيوف كلٌّ من يلحق واحد يضربه ويقتله وهو عريان ولم يَرِقَّ لهم قلب ...... " فهرب ابن الحنش ونائب قلعة بعلبك ونجيا بنفسيهما [٣].

أصبح وضع يلبغا الناصري حرجاً في دمشق ، فقد وصلها إياس الجركسي نائب صفد ، وقاتل المنطاشية قتالاً ضارياً تحت قلعة دمشق ؛ وصلها أُقبغا الصغير نائب طرابلس، وابن الحنش من بعلبك ؛ فلم يبق أمام الناصري إلاّ طرد منطاش من دمشق ، فحمل حملة قوية وقاتل منطاش قتالاً حاداً ليُبعِد الشكوك التي تحوم حوله. وما أنْ بَلَغَ

– ينفرد ابن الفرات ليخبرنا : بأن رسول عنقاء بن شطي أمير آل مرا كان بصحبة حاجب نعير ، وأنه أخبر السلطان بالتزام عنقاء بإحضار جثة منطاش ، وطلب الأمان لعنقاء فأمّنه السلطان برقوق .

(تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ق١ / ٢٣٣).

* الدَّرْبَنْـدُ : ممر في جبال طوروس .

(١) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق١ / ٢٣٣ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٧٢٥ – ٧٢٦ .

(٢) ابن صصرى ، الدرة المضيئة ، ص : ٩٠ .

(٣) م.ن ، ص : ٨٠ ، وانظر : البخيت ، مجلة دراسة تاريخية ، العددان ١٣ ، ١٤ / ص : ٩١ .

منطاش خبر قدوم الظاهر برقوق من القاهرة على رأس حملة كبيرة ، حتى هرب ومعه عنقاء بن شطي ، واتجها جنوباً إلى البرّيّة ، فلحقهما الناصري ، ووصل صرخد ، ولم يعثر لهما على أثر [١].

وفجأة ، ظهر نعير بن حيّار قرب عذراء والضمير شرقي دمشق في الثاني عشر من شعبان سنة ٧٩٣ / ١٣٩١ ، ولم يعلم بهروب منطاش من دمشق – فخرج الناصري ونائب طرابلس وابن الحنش لدفع نعير عن دمشق ، إلاّ أن نعيراً انتصر عليهم وقتل من عسكرهم نحو ألف ومائتين وستين جندياً ، ومن بينهم علاء الدين بن الحنش الثاني [٢]. ويصف ابن صصرى الموقف : " ..... ورجعت الترك مكسورين ، وراحت العرب منصورين ، ومن أعظم العظائم أن تفوز العرب وتغنم منهم الغنام " [٣]. وأمّا نُعير بن حيّار ، فقد رحل عن الضمير وبعث يعتذر إلى نائب الشام قائلاً " أنا مملوك السلطان برقوق " [٤].

• خروج برقوق إلى بلاد الشام (٧٩٣ / ١٣٩١) :

بدأت الشكوك تساور برقوق تجاه يلبغا الناصري ، فخرج من القاهرة على رأس حملة عسكرية ليضع حداً لما يجري في بلاد الشام. وفي الثاني والعشرين من رمضان سنة ٧٩٣ / ١٣٩١ ، وصل برقوق إلى دمشق ، فأكرم الناصري وخلع عليه ، ثمّ توجّه صوب حلب وبصحبته الناصري وكبار الأمراء [٥].

وبعد أن أقام برقوق في حلب نحو شهر ، ورد عليه خبراً بأنّ سالم الدوكاري التركماني قبض على منطاش ، فأرسل السلطان كلاً من قرادمرداش نائب حلب والناصري وإينال اليوسفي أتابك العسكر لإحضار منطاش. فأقام دمرداش أربعة أيام والدوكاري يماطله بتسليم منطاش ، ثم هرب الدوكاري ومنطاش إلى سِنْجار. فأظهر الناصري غضبه على دمرداش وكاد أن يقتله. ولما رجع الأمراء دون طائل تأكدت شكوك برقوق كلّ ما حصل من منطاش كان بموافقة يلبغا الناصري. وقد تأكدت هذه الشكوك حين اطّلع برقوق على كتاب الناصري المرسل إلى الدوكاري بألاّ يُسلّم منطاش ،

---

(١) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق٢ / ٢٥٧ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٧٤٧ .

(٢) ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣/ ٣٧٧ .

(٣) ابن صصرى ، الدرة المضية ، ص : ٩٠ ؛ والبخيت ، مجلة دراسة تاريخية ، العددان ١٣ ، ١٤ / ص : ٩٢ .

(٤) ابن صصرى ، م.س ، ص : ٩٣ .

(٥) ابن الفرات ، م.س ، جـ٩ ق٢ / ٢٦٥ ؛ المقريزي ، م.س ، جـ٣ ق٢ / ٧٤٨ ، ٧٥١ ؛ وابن قاضي شهبة ، م.س ، ٣/ ٣٧٧ .

" ...... ما دام منطاش موجودٌ فنحن موجودون ..... " ؛ فلما حضر الناصري بين يدي برقوق ، عاتبه ووبّخه ثم ذبحه [١].

ثم اتجهت أنظار برقوق إلى عنقاء بن شطّي أمير آل مرا ، فأرسل إليه (فداوية) فقتلوه في حوران سنة ٧٩٤ / ١٣٩٢ ، ليترك منطاش دون حلفاء أقوياء [٢]. وقبل أن يغادر برقوق دمشق ، عيّن عدداً من أمرائه الجراكسة نوّاباً في جميع النيابات الشامية.

• دور نَعير بن حيّار في إنهاء ثورة منطاش (٧٩٥ / ١٣٩٣) :

يمكن تلمس الظروف التي قادت لوضع حدٍ لمنطاش سنة ٧٩٥ / ١٣٩٣ ، على النحو الآتي :

الظرف الأول ؛ يتعلق بسياسة الظاهر برقوق ، فقد رأيناه يتخلّص من حلفاء منطاش ، ثمّ اختياره لجلبان الجركسي في نيابة حلب سنة ٧٩٤ / ١٣٩٢ ، وحتى يُثبت هذا النائب جدارته ، أصبح كلّ همه القبض على منطاش. فتقرّب جلبان من نُعير بن حيّار وراسله وحسّن له القبض على منطاش. لكنّ التزام نعير بإجارة منطاش جعله يتردّد بالقبض عليه. فاتفق نعير ومنطاش ومعهما ابن بزدغان التركماني وابن ينال التركماني على غزو سلميّة وإعادتها لنُعير بن حيّار ؛ فلما اتجهت عساكرهم إليها ، تصدّى لهم الأمير محمد بن قارا بن مهنا أمير آل فضل ومعه تركمان شيزر ، وألحق بهم هزيمة منكرة ، قُتل فيها ابن بزدغان وابن ينال ، وبعث برأسيهما إلى نائب دمشق ؛ كما جُرح منطاش وكاد أن يقع بيد محمد بن قارا لولا ابن نعير الذي أردفه خلفه وهرب به من أرض الموقعة [٣].

وعلى الرغم من هذه الهزيمة ، إلاّ أن نعيراً ومنطاش أعادا تجميع قواتهما واتجها صوب حماة ، وتمكّنا من نهبها [٤]. وأما جلبان نائب حلب فقد أرسل عسكره إلى ديار نُعير بن حيّار فأسروا الأطفال والنساء ونهبوا الأموال وأحرقوا البيوت . كما رتّب كمائن عسكرية في طريق عودة نُعير ومنطاش ، وأثناء عودة نُعير إلى دياره نهضت

---

(١) ابن الفرات ، تاريخه ، ج٩ق٢/ ٢٧١ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٥٦٨ – ٥٦٩ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج٣ ق٢ / ٧٥١ – ٧٥٢ ؛ ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣/ ٣٨٦ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٤١٤ ؛ وابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ١/ ٣٣٦ – ٣٣٧ .

(٢) ابن صصرى ، الدرة المضيئة ، ص : ١١٠ ؛ والمقريزي ، م.س ، ص : ٧٧٩ .

(٣) ابن الفرات ، م.س ، جـ٩ ق٢ / ٣٣٢ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢/ ٣٩ .

(٤) ابن قاضي شهبة ، م.س ، ٣/ ٤٦٥ .

بوجهه كمائن حلب ، فاستمرّ القتال من الصباح حتى الظهر ، وفقد نُعير خِيرة فرسانه ، فهرب محزوناً على أهله وفرسانه [١].

وأما الظرف الثاني ؛ فيتعلّق بالعرب (آل فضل وآل مهنّا) ، فقد أدرك العقلاء منهم أن سياسة نُعير جلبتْ الموت والخراب والدّمار على عربهم ؛ فاجتمع الأمير عامر بن طاهر بن حيّار بن مهنّا (ابن أخ نعير) مع أولاد نعير ومنهم (أبو بكر وعمر)، وأمراء آخرين ، فعرضوا على كبيرهم نُعير بن حيّار بأن يجيبهم إلى إحدى الحسنيين : إما أنْ يُمسك منطاش ، أو يُخلي سبيلهم إلى طاعة السلطان برقوق ، ويفارقهم نُعير إلى حيث شاء [٢]. فجزع نعيرٌ مما سمع ، فلم يسعه اقتتال أبناء البيت الواحد. فاختار القبض على منطاش.

وسرعان ما توجّه الأمير عامر بن طاهر بن حيّار إلى القاهرة ، وبصحبته أمراء من آل مهنّا ، وحجّاب نُعير بن حيّار ؛ وأخبر الظاهر برقوق بما جرى ، وأن أبناء نعير متفقين معه ؛ فأكرمه السلطان وأقبل عليه ، وأجلسه بجانبه ووعده بكلّ خير. وأما ولدا نُعير (أبو بكر وعمر) فإنّهما اتجها صوب دمشق ، وسألا تَنَم الجركسي نائب دمشق بأن يشفع لهما عند الظاهر برقوق ؛ فاستجاب برقوق لشفاعة النائب بهما [٣]. ثمّ بعث ولدا نُعير بكتاب إلى حاجب السلطان في القاهرة يعلنان الطاعة [٤].

وأما نعيرٌ بن حيّار ، فقد عرض شروطه على جُلبان نائب حلب ، مقابل القبض على منطاش ، وتركزت تلك الشروط بالحصول على الأمان وإمرة العرب ، فأقسم له جلبان بتحقيق ذلك.

وتكادُ تجمع المصادر التاريخية على خبر القبض على منطاش ونهايته المفجعة. فقد اتفق جُلبان نائب حلب مع نُعير بن حيّار على خطة للقبض على منطاش ؛ فأرسل جُلبان شاد الشربخاناة * ومعهُ خمسة عشر فارساً من خيرة فرسان حلب إلى ديار نُعير بن حيّار قرب سلميّة. ولما أقاموا في خيمته ، كَلّفَ نعيرٌ عبداً من عبيده بإحضار منطاش من خيمته ، فلمّا وصل العبدُ أحس منطاش بالخطر فركب فرسه ، لكنّ العبد أمسك لِجامَ الفرس بقوّة ، وطلب منه أن يكلّم أمير العرب نُعير. ثم ظهر عبدٌ آخر وطلب منه النزول عن الفرس ، لكنّه امتنع ، فإذا بعددٍ من العبيد يُجبروه على النزول ، وأخذوا سيفه ،

---

(١) ابن الفرات ، تاريخه ، ص : ٣٣٣ ؛ ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٤٦٥/٣ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٤٠/١٢ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٥٧٠ .

(٣) ابن الفرات ، م.س ، جـ٩ ق١ / ٣٣٦ .

(٤) ابن الفرات ، م.س ، ص.ن .

* هو المشرف على بيت الشراب وفيه شتى أنواع الأشربة.

ففاجأهم بطعن نفسه بسكين عدة طعنات ، فغشي عليه. فأخبروا نَعيراً بذلك ، فقال له كمشبغا شاد الشربخاناة : إن منطاش يموت ، فاخبره نُعير ، إذا مات تقطع رأسه وترسله لنائب حلب !! ، ثمّ أفاق منطاش ، فسلّمه نعيرّ لكمشبغا ، وأرسل معه أربعمائة فارس أوصلوه لنائب حلب. فاستلمه جلبان ، وسلّمه لنائب القلعة بحضور القضاة ، وكتب محضراً بذلك وأرسله إلى الظاهر برقوق. فبعث السلطان بالأمير (طولو) بن علي شاه أمير عشرة لإحضار رأس منطاش ؛ فلمّا وصل طولو إلى حلب ، أحضر منطاش وعَصَرَهَ ، ثم ذبحه وقطع رأسه ، وطاف به في حلب وحماة وحمص ودمشق [١].

وفي القاهرة ، أقيمت الزينة ابتهاجاً بموت منطاش وانتهاء فتنته ، فلما حضر رأس منطاش عُلّق على باب القلعة ثمّ على باب زويلة ؛ وبعدها أمر السلطان بتسليم هذا الرأس لزوجة منطاش ، فدفنته في السادس عشر من رمضان سنة ٧٩٥ / ١٣٩٣ [٢].

وبذلك يكون خطر منطاش قد توقّف تماماً بعد أن عصف بالقاهرة ودمشق طويلاً ، رُغْمَ أنّ أجَلَه نَفَذ بالغدر والخيانة.

وأما جُلبان نائب حلب ، فقد أرسل يشفع بنُعير بن حيّار عند السلطان ، وأن يردّ عليه إقطاعه وإمرته ، فأجاب السلطان بردّ إقطاعه [٣]. واشترط منحه الأمان بأن يحضر إلى القاهرة ، أو يدوس بساط السلطان في حلب ؛ وبالوقت نفسه بعث لأمراء حلب بالقبض على نَعير. فلما أحسّ جلبان بالمؤامرة ، عزّ عليه قَسمُه لنُعير فنصحه بعدم الذهاب إلى القاهرة أو الحضور إلى حلب. وعندما زار الظاهر برقوق حلب ، عزل جُلبان وسجنه لأنّه لم يمكِّنه من نُعير بن حيّار [٤].

لكنّ حركات التمرد والعصيان لم تتوقف بين أمراء المماليك ؛ وكذلك لم ينتهِ دور نُعير بن حيّار وورثته من تلك الحركات. هذا ما سنتناوله في الصفحات الآتية.

• موقف أعراب الشام من حركات التمرد والعصيان في عهد فرج بن برقوق :

---

(١) ابن صصرى ، الدرة المضيئة ، ص : ١٣٩ ؛ ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق٢ / ٣٣٨ – ٣٣٩ ؛ ابن حبيب ، ذيل درة الأسلاك ، ورقة : ٢٨٦ – ٢٨٧ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٥٧٠ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٧٨٥ – ٧٨٧ ؛ ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣/ ٤٧٠ – ٤٧١ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢/ ٤١ – ٤٢ ؛ والقاضي عبد الباسط ، نيل الأمل ، ورقة : ١٦٠ .

(٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٤٥٢ .

(٣) ابن قاضي شهبة ، م.س ، ٣/ ٤٧٥ .

(٤) ابن قاضي شهبة، م.س ، ص : ٥٢٢ – ٥٢٣ .

تميّزت فترة حكم السلطان فرج بن برقـوق (٨٠١ – ٨١٥ / ١٣٩٨ – ١٤١٢) ، بعدم الاستقرار السياسي ، فشهدت صراعاً على السلطة بينه وبين أمرائه ، وبين الأمـراء أنفسهم. وأمّا موقف أعراب الشام من ذلك الصراع فقد تراوح بين التأييد والمعارضـة ، وإنْ كان محدوداً. ويمكن أنْ نجمل مظاهر ذلك الصراع وموقف أعراب الشام منه علـى النحو الآتي :

١ – موقف نُعير بن حيّار من عصيان دمرداش المحمّدي* (٨٠٤ / ١٤٠٢) :

بدأ دمرداش المحمّدي نائب حلب تمرّده على السلطة المملوكية حينما عزله السلطان فرج بن برقوق من نيابة حلب سنة ٨٠٤ / ١٤٠٢ ، لأنه آوى تغري بردي بن يشبغا الذي هرب من دمشق عندما لاحقه السلطان كأحد المؤيدين لحركة تَنَمْ الحسني **. وهناك ، في حلب اتفق دمرداش وتغري بردي بإعلان خروجهما على طاعة السلطان فرج [(١)].

وفي الوقت نفسه ، أمر السلطان فرج بنقل دقماق المحمّدي *** من نيابة صفد إلى نيابة حلب عوضاً عن دمرداش المحمّدي. فخرج دقماق من صفد بعسكر قليل وآلافٍ من التركمان صوب حلب لتسلُّم نيابتها. ولم تتجاهل السلطة المملوكية قوّة عرب آل فضل في سلميّة ، فكلّف نُعير بن حيّار بالانضمام إلى دقماق المحمّدي ؛ فوجدها نُعير فرصة للانتقام من دمرداش المحمدي الذي سحب منه إقطاع سرمين وهي جزء من إقطاعه وأعطاها للتركمان [(٢)]. ولما اقترب دقماق من حلب ، تصدّى له دمرداش وتغري بردي ، فألحقا به الهزيمة لأنّ التركمان تخلّوا عنه عندما انسحبوا من صفوف قواته قبل

---

* دمرداش المحمدي الظاهري ؛ من مماليك الظاهر برقوق ، ظلّ يترقى حتى تولى نيابة حلب ، وعندما هاجم تيمور لنك حلب سنة ٨٠٣هـ ، خلع عليه ورافقه إلى دمشق . وحين وصل السلطان فرج إلى دمشق لمحاربة تيمور لنك ، انسحب دمرداش إلى السلطان. مات في سجنه سنة ٨١٨هـ. (ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٥/ ٣١٦ – ٣٢٣).

** تنم الحسني الظاهري ؛ من مماليك الظاهر برقوق ، استقر في نيابة دمشق ، ولمّا استبدّ الأمراء بالسلطان فرج لجأ إليه أيتمش البجاسي أتابك العسكر ومعهُ تغري بردي أمير سلاح. قتله السلطان فرج سنة ٨٠٢هـ. (م.ن ، ٤/ ١٦٨).

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٣ / ١٠٧٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢/ ٢٨١ – ٢٨٢ .

*** دقماق المحمدي ؛ من مماليك الظاهر برقوق ، تولى عدة نيابات في بلاد الشام. وقع في أسر تيمور لنك سنة ٨٠٣هـ. وقُتل سنة ٨٠٨هـ في حماة.

(ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٥/ ٣١٠ – ٣١٣).

(٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٢/ ١٩٩ – ٢٠٠ ، والدرر الكامنة ، ٥٤٠ ، جـ١ / ٢٠٣ .

المواجهة. فعاد دقماق إلى دمشق مستنجداً بنائبها أقبغا الطروشي *. كما كتب إلى نواب الشام وعربانها بنصرة السلطان فرج بن برقوق. وأمّا نُعير بن حيّار فقد سار إلى سلميّة لتجميع قواته من جديد (١).

ولما شعر دقماق بقوّته ، عاد إلى حلب ومعه عسكر الشام وعربانها ، وانضم إليه نعير بن حيار ، فتمكّن دقماق وحليفه نعير من إلحاق الهزيمة بدمرداش وتغري بردي ، فهربا إلى بلاد التركمان ، حيث لجأ دمرداش إلى سيس ، بينما رحل تغري بردي إلى القاهرة عندما وصله الأمان من السلطان فرج. وأما دقماق فقد دخل إلى حلب ، بينما اتجه حليفه نُعير إلى سلميّة لطرد التركمان منها (٢).

لكنّ دمرداش جمع آلاف التركمان ومعه أحمد بن رمضان أمير تركمان سيس ، ونزلا بالقرب من حماة لينتقما من نُعير بن حيّار. فخرج دقماق من حلب في الثاني عشر من رمضان سنة ٨٠٤ / ١٤٠٢ ، صوب حماة ، فلمّا وصلها انضمَّ إليه نائبها ، فاقتتلا مع دمرداش ، فأقبل نُعير بن حيّار واخترق صفوف التركمان ، وألحق بهم الهزيمة ، فتبعهم نائب حلب ونُعير ، ونهبوا بيوت ابن رمضان (٣).

وفي سنة ٨٠٦ / ١٤٠٤ ، أقدم السلطان فرج على عزل دقماق من نيابة حلب ، فعاد دمرداش إليها بالقوة. وأمّا نُعير بن حيّار فقد كتب إلى السلطان فرج ، بأن دمرداش ودقماق لا يصلحان لنيابة حلب ، والتزم بألاّ يساعد أحدهما ضد الآخر ، واقترح تعيين نائب جديد لنيابة حلب ، وتعهّد بنصرته (٤).

٢- موقف أعراب الشام من حركة جكَم** (٨٠٨ - ٨٠٩ / ١٤٠٦ - ١٤٠٨) :

---

* من مماليك الظاهر برقوق ؛ تولى نيابة دمشق بعد خروج تغري بردي منها ، ثم نقل إلى حلب عوضاً عن دقماق المحمّدي. مات في حلب سنة ٨٠٦هـ.

(ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٢/ ٤٧٢ - ٤٧٤).

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢ / ٢٨٣ ، ٢٨٧ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٣ / ١٠٨١ ؛ وابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٤/ ٢٦٠ .

(٣) المقريزي ، م.س ، ص : ١٠٨٢ ؛ وابن قاضي شهبة ، م.س ، ص : ٢٦٦ .

(٤) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٢/ ٢٦١ .

** حكَم بن عبد الله الظاهري ، أصله من مماليك الظاهر برقوق ، ظل يترقى حتى صار أمير مئة ومقدّم ألف في عهد الناصر فرج بن برقوق ، قُتل سنة ٨١٠هـ.

(ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٤/ ٣١٣).

ظلّت القاهرة مسرحاً للصراع بين أمراء الناصر فرج بن برقوق ، فشهدت حلقة تكاد أن تكون معقّدة. فما أن انتهى الأمراء من إبعاد أيتمش البجاسي ، سنة ٨٠٢ / ١٤٠٠ ، عن تدبير أمور مملكة الناصر فرج ، حتى ظهرت فتنة أخرى تزعّمها جكم سنة ٨٠٣ / ١٤٠١، وانتهت بإبعاد يشبك الشعباني الدوادار الكبير للسلطان ، وأصبح جكم الدوادار عوضاً عنه. لكن الأمور لم تجر على هوى جكم ، فظهر له منافس آخر هو سودون طاز (١) أمير آخور كبير ، وانتهت باعتقال جكم ونوروز الحافظي وعدد من الأمراء وسجنهم في الإسكندرية سنة ٨٠٤ / ١٤٠٢ ، وعودة يشبك الشعباني إلى الدوادارية من جديد (٢).

وفي سنة ٨٠٥ / ١٤٠٣ ، نُقل الأمراء من سجون مصر إلى سجون بلاد الشام ، فسُجن جكم في قلعة حصن الأكراد (٣) ، بينما سجن سودون طاز في قلعة المرقب (٤) ، ثمّ حُوّل جكم إلى قلعة المرقب ؛ فالتقى الخصمان في سجن واحد. وأما نوروز الحافظي فقد سُجن في قلعة الصبيبة (٥).

هذا ، وقد استمر جكم مسجوناً إلى أن أخذه دمرداش المحمدي نائب طرابلس ، ودخل معه إلى حلب سنة ٨٠٦ / ١٤٠٤ . ورغم إطلاق سراحه ، إلاّ أنه هرب إلى حماة ومنها التجأ إلى إنطاكية عند ابن صاحب الباز عدوّ دمرداش (٦).

ولم يهدأ جكم ، بل جمع التركمان من حوله واستولى على طرابلس. ثم قاتل دمرداش وطرده من حلب سنة ٨٠٧ / ١٤٠٤ ؛ وهناك راودته فكرة السلطنة. فاسقط اسم

---

(١) سودون طاز ؛ من مماليك الظاهر برقوق ، تفوّق بالفروسية فجعله معلّم رمح ، ثمّ قدّمه الناصر فرج وعيّنه أمير آخور. قتل سنة ٨٠٦هـ.

(ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٤/ ٣٧٧ - ٣٧٨ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، مج٢ جـ٣ / ٢٥٨).

(٢) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٤/ ٣١٣ - ٣١٥ ؛ السخاوي ، م.س ، ص : ٧٦ .

(٣) قلعة حصن الأكراد : قلعة حصينة بين حمص وبعلبك ، تقع على الجبل الذي يقابل حمص غرباً والمتصل بجبل لبنان. (ياقوت ، معجم البلدان ، ٢/ ٣٠٤).

(٤) قلعة المرقب : اسم لبلد ،و حصن منيع ، يُشرف على ساحل الشام ، ويتبع نيابة طرابلس ، ولا زالت آثار القلعة موجودة بالقرب من طَرْطوس.

(أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص : ٢٥٤).

(٥) قلعة الصبيبة : هي قلعة بانياس جنوب غربي دمشق ، وترتفع نحو مائتي قَدَم ويطل عليها جبل الشيخ ، وما تزال آثارها حتى اليوم. (م.ن ، ص : ٢٤٨).

(٦) ابن قاضي شهبة ، م.س ، ٤/ ٣٩٨ ، ٤٠٠ ؛ ابن تغري بردي ، م.س ، ٤/ ٣١٧ .

الناصر فرج من الخطبة وأرسل إلى عمر بن فضل أمير عرب جَرْم في غزّة بأن يُجهّز الإقامة لأنّه ذاهب إلى مصر. ثم عاد وأجّل إعلان نفسه سلطاناً [١].

وفي العام نفسه ، شهدت القاهرة فتنة أخرى أدت إلى هروب يَشْبَك الشعباني وعدد من الأمراء إلى دمشق. والجدير بالذكر أنّ عُربان فلسطين وشيوخ عشيرها قدّموا المُساعَدَة ليشبك الشعباني حتّى وصوله إلى دمشق فاستقبله نائبها شيخ المحمودي وأكرمه[٢].

وأما شيخ المحمودي فقد خشي من سيطرة جكم على النيابات الشمالية من الشام ، فأطلق سراح نوروز الحافظي من قلعة الصبيبة ، وجهّز عسكره للإستيلاء على صفد ، واستدعى أحمد بن بشارة بعشيره ، وطلب مساعدة عُربان صفد وعشيرها. وقد تمكّن شيخ من دخول صفد لكنه عجز عن دخول قلعتها بسبب تحصّن بكتمر جلَق فيها [٣].

وفي دمشق ، اتفق شيخ ويشبك ونوروز على الخروج عن طاعة السلطان ودعوة جكم بالموافقة. وبذلك أصبحت بلاد الشام خارجة عن طاعة السلطان فرج. وأما جكم فقد وجدها فرصة لتحقيق طموحاته فقدِم إلى دمشق ، وأظهر شِعار السلطنة ، وبيّن رغبته بإعلان سلطنته في حلب ؛ بينما رأى شيخ وأمراء دمشق التوجّه إلى القاهرة ، فاتفق الجميع على ذلك وسلّموا القيادة لجكم [٤].

ورغم تمكّن أمراء دمشق من دخول القاهرة ، إلاّ أن مطالبهم لَمْ تَتَعَدّ إبعاد الأمراء المتنفّذين وفي مقدّمتهم (إينال بيه ، ودمرداش) ، ولم يطالبوا بعزل السلطان فرج ! ولمّا رُفِضت مطالبهم ، اقتتلوا مع عسكر السلطان ، فانسحب عدد من أمراء الشام إلى عسكر السلطان ، وهرب جكم وشيخ إلى الشام ، بينما اختفى يشبك في القاهرة [٥].

ولمّا عاد فرج بن برقوق إلى سلطنته الثانية * ، عمل على استقطاب أمراء الشام المعارضين ليحدّ من نفوذ أمراء مصر ، ففوّض نيابة حلب إلى جكم ، ونيابة دمشق إلى

---

(١) ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٤/ ٤٠٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٣ / ١١٤٤ ، ١١٥٠ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق٢ / ٧٠٥ .

(٢) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٢/ ١٧٦ .

(٣) المقريزي ، م.س ، جـ٣ ق٣ / ١١٤٧ ؛ ابن الصيرفي ، م.س ، ٢/ ١٩٧ ؛ وابن إياس ، م.س ، جـ١ ق٢ / ٧٠٨ .

(٤) المقريزي ، م.س ، ص : ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ؛ ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٤/ ٣١٧ .

(٥) المقريزي ، م.س ، ص : ١١٦٢ - ١١٦٤ ، ابن تغري بردي ، م.س ، ص : ٣١٧ - ٣١٨ ؛ ابن الصيرفي ، م.س ، ص : ٢٠٤ ؛ وابن إياس ، م.س ، ص : ٧٢١ - ٧٢٣ .

* اختفى فرج بن برقوق مدة شهرين وتسلطن أخوه عبد العزيز في فترة اختفائه.

شيخ المحمودي في جمادى الآخرة سنة ٨٠٨ / ١٤٠٥ (١).

انصرف جكم إلى إقرار الأمور في نيابة حلب ونواحي طرابلس ، فلاحق ابن صاحب الباز التركماني الذي تغلّب على إنطاكية وجبلَة واللاذقية وقلاع المنطقة. وأثناء حصاره لابن الباز في إنطاكية ، بلَغه أنّ أمير العرب نُعير بن حيّار سار بجموعه لأخذ حلب انتصاراً لابن الباز ، فترك جكم حصار إنطاكية ، واتجه إلى ديار نُعير بن حيّار ، فوافاهُ على قِنّسرين *. وهي من ديار آل فضل ، فاقتتلا قتالاً شديداً انتهى بهزيمة نُعير ، فقبض عليه جكم وحمله معه إلى حلب وقتله سنة ٨٠٨ / ١٤٠٦ ، ثم عاد إلى إنطاكية ، وشدّد عليها الحصار ، فسأل ابن الباز الأمان ونزل من القلعة ، فقتلهُ جكم ، واستولى على جميع قلاع المنطقة (٢).

لكنّ دور آل مهنّا لم يَنْتهِ ، فقد ثاروا بزعامة أميرهم الجديد العِجْل بن نُعير ، ونشروا الخراب والدّمار في نواحي حلب لإضعاف جكم قاتل نُعير. ويظهر أَنّ الأحداث بدأت تسيرُ لصالحهم ؛ فأقدم الناصر فرج على عزل جكم ، وعيّن دمرداش المحمّدي في نيابة حلب ؛ كما ظهر الخلاف بين شيخ المحمودي نائب دمشق وجكم بعد صحبتهما (٣). فلما جهّز شيخ المحمودي عسكر الشام ، قدِم عليه العِجل بن نُعير مُطالباً بدم والده ، كما حضر ابن صاحب الباز ** مطالباً بدم والده أيضاً. ووصل دمرداش من القاهرة لتسلُّم نيابة حلب ، ووفد عليه الأمير علاّن نائب حماة ، وقد استقرّ أتابك عسكر دمشق (٤).

سار شيخ بجموعه الكبيرة من عذراء شرقي دمشق صوب حمص ، وكان جكم قد جمع قوّاته ومعه نوروز الحافظي عند الرَّستن - بين حمص وحماة على طرف نهر العاصي-. ففي الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة ٨٠٨ / ١٤٠٦ ، اقتتل الفريقان ، فحمل جكم على شيخ في الميمنة فكسره ، وتحوّلا إلى العِجل بن نُعير في الميسرة فاخترق صفوفه ، وثبت الطرفان ، لكن كمائن جكم خرجت تقاتل مؤخرة العِجل فاختلّت صفوفه

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢/ ٤١ - ٤٧ .

* قِنّسرين : مدينة جنوبي حلب ، فتحها المسلمون سنة ١٧هـ . كانت وحمص شيئاً واحداً.

(ابن حوقل ، صورة الأرض ، ١٦٣ - ١٦٤).

(٢) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٤/ ٣٢٠ .

(٣) يفسّر ابن حجر هذا الخلاف ؛ بأن شيخ حقد على جكم لأنه انتصر على ابن صاحب الباز ، وقتل نُعير.

(إنباء الغمر ، ٢/ ٣٢٧).

** هو كردي كندر أمير تركمان العمق بعد مقتل فارس بن صاحب الباز ، قتله ططر سنة ٨٢٤هـ.

(السخاوي ، الضوء اللامع ، مج٣ جـ٦ / ١١٧).

(٤) المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ق١ / ٢١ ؛ ابن حجر ، م.س ، ص : ٣٢٧ ؛

وابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٢/ ٢٢٠ .

وانهزمت عُربانه. وقد قتل في هذه الموقعة الأمير طولون نائب صفد ، وعلاّن ، وعاد شيخ والعجل مكسوري الجناح (١).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ففي بداية عام ٨٠٩ / ١٤٠٦ ، لاحق نوروز الحافظي حليف جكم الأمراء المهزومين إلى دمشق ، فهرب شيخ ودمرداش إلى القاهرة. ثمّ اتّجه نوروز للانتقام من عرب حوران وصرخد ، وإن لم يتمكّن منهم ، لكنّه نهب عدداً من إبلهم. كما أرسل حملة إلى عرب الأغوار ، فقبض على الأمير فواز أمير عرب حارثة وشنقه (٢). وبذلك أصبحت دمشق ونواحيها تحت سيطرة نوروز الحافظي ، بينما حلب والنيابات الشمالية في قبضة جكم.

ففي التاسع من شوال سنة ٨٠٩ / ١٤٠٧ ، جمع أعيان حلب من الفقهاء والقضاة والأمراء ، وحلّفهم لنفسه وخلّع الناصر فرج ، وتسلطن باسم (الملك العادل) ، وكتب إلى نوّاب الشام بذلك (٣). لكن مدة سلطنته لم تطُل ؛ فلمّا خرج لمقاتلة التركمان أخضعهم حتى وصل إلى آمد * ، فحارب قرايلك. فقُتِلَ جكم على يد أحد رجال قرايلك في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٨٠٩ / ١٤٠٨ ، وأرسل رأسه مع حاجب نُعير بن حيّار إلى القاهرة (٤). فأبدى آل مهنّا ارتياحهم لمقتل جكم ، وأكّدوا ولاءهم وإعلان طاعتهم للسلطان.

وبعد مقتل جكم ، تعرّضت حلب للحصار من قبل التركمان ، حين جمع علي بن خليل بن دُلغادر التركماني جموعه لتخليص ابنه من قلعة حلب ، وللانتقام من أصحاب جكم. كما تعرّضت حماة لحصار محكم من عرب آل فضل ، حين حاصرها العِجْل بن نُعير. لكنّ نوروز الحافظي تمكن من فكّ حصار حماة وحلب ، ثم عاد إلى دمشق (٥).

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ق١ / ٢٢ .

(٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ص : ٣٥٢ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق٢ / ٧٦٠ .

(٣) المقريزي ، م.س ، ص : ٤١ ؛ ابن حجر ، م.س ، ص : ٣٥٦ .

* آمد : مدينة في ديار بكر تقع غربي دجلة ، ويدور النهر من حولها كالهلال.
(لسترانج ، بلدان الخلافة ، ص : ١٤٢).

(٤) المقريزي ، م.س ، جـ٤ ق١ ، ٤٥ - ٤٦ ؛ ابن حجر ، م.س ، ٢/ ٣٥٨ ؛
ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٤/ ٣٢٢ ؛ وابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٢/ ٢٣٠ .
- وينفرد ابن تغري بردي بأن حاجب الأمير نعير قدِم إلى القاهرة برأس حكم. (النجوم الزاهرة ، ١٣/ ٦٢).

(٥) ابن حجر ، م.س ، ص : ٣٨٨ - ٣٨٩ .

٣- موقف أعراب الشام من حركة شيخ المحمودي ونوروز الحافظي (٨١٠- ٨١٧ / ١٤٠٧ - ١٤١٤) :

أصبحت أوضاع بلاد الشام غير مستقرّة في بداية سنة ٨١٠ / ١٤٠٧ ، فنوروز الحافظي يحتفظ بدمشق ، وتَمْرَ بُغا المشطوب بنيابة حلب ؛ وشيخ المحمودي متحصّنٌ في صفد وله نيابة طرابلس. وأما الناصر فرج فقد أرسل خلعة إلى شيخ المحمودي بنيابة دمشق تمهيداً للقبض عليه ونوروز الحافظي. فلما وصل الناصر إلى غزّة ، هرب نوروز من دمشق ، فدخلها شيخ المحمودي دون قتال [١].

وحين دخل السلطان فرج مدينة دمشق ، أكرم شيخ المحمودي ثمّ قبض عليه ، كما قبض على يَشْبَك الشّعباني وأودعهما في سجن القلعة ، لكنهما هربا وظهرا في حمص[٢].

فكتب السلطان إلى نوروز الحافظي المقيم في حلب وخلع عليه بنيابة دمشق ، وطلب منه القبض على شيخ ويشبك [٣].

وما إنْ رحل السلطان فرج من دمشق إلى القاهرة ، حتى سارع شيخ ويشبك بدخول دمشق قبل أن يصلها نوروز الحافظي. ثم خرج يشبك الشعباني من دمشق إلى بعلبك لمنع نوروز من دخول دمشق ؛ لكن نوروز تمكّن من يشبك ، وقطع رأسه وأرسله إلى السلطان وهو في طريقه إلى القاهرة ، فهرب شيخ من دمشق إلى شيزر ، ودخل نوروز إلى دمشق [٤].

وتروي المصادر التاريخية أنّ نوروز اجتمع مع شيخ واصطلحا ، وانضمّ إليهما تَمْر بُغا المشطوب ؛ واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان فرج [٥]. لكنّ شيخ المحمودي غدر بحليفه ومال إلى السلطان فرج ، فجاءته الخلعة بنيابة دمشق في ذي القعدة سنة ٨١٠ / ١٤٠٨ ، فلم يتقلّدها بل أرسلها إلى نوروز بدمشق ليثبت حسن نواياه [٦].

لكنّ هذه الصُحبة لم تدم طويلاً ؛ ففي الثاني عشر من صفر ٨١١ / ١٤٠٩ ، جمع شيخ جمعاً من عُربان آل مهنا وتركمان العمق وسار بهم صوب دمشق حتى

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ق١/ ٥٥ .

(٢) م.ن ، ص : ٥٧ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٣ / ٦٤ .

(٣) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٤) م.ن ، ص : ٢٤٢ .

(٥) المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ق١ / ٦٢ ، وابن تغري بردي ، م.س ، ١٣/ ٦٩ .

(٦) المقريزي ، م.س ، ص : ٦٣ .

وصل سَعْسَع * ؛ فخرج نوروز من دمشق لملاقاته هناك ، إلاّ أنه لم يثبُتْ أمام شيخ فهرب صوب حلب إلى طرف حليفه تمر بغا المشطوب ، بينما دخل شيخ دمشق (١).

وفي حلب ، برز الخلاف بين نوروز والمشطوب ، لكنّ المشطوب مال إلى السلطان فرج ، وتحصّن بقلعة حلب ، فهرب نوروز إلى ملطيّة ، وبهذا الخلاف ، فقد نوروز حليفاً كان بأمسّ الحاجة إليه (٢).

وأما شيخ فقد سار من دمشق إلى سهل العمق ، فانضمّ إليه عرب آل فضل ، وتركمان العمق ؛ وأرسل تجريدة مشتركة من عسكر الشام ومؤيّديه من العربان والتركمان إلى ملطيّة؛ فهرب نوروز منها إلى قلعة الروم. وبالمقابل حضر دمرداش المحمدي من طرابلس ، وتسلّم نيابة حلب ، وعاد شيخ إلى دمشق (٣).

يبدو أنّ مهمة دمرداش المحمدي تركّزت على ملاحقة نوروز ، فجمع دمرداش جماعات من عرب آل فضل وبني كلاب ومن التركمان ، وسار بهم نحو عينتاب ، فهرب نوروز إلى قلعة الروم مرة أخرى (٤).

وفي سنة ٨١٢ / ١٤١٠ ، اظهر شيخ خروجه عن الطاعة ، وبدأت نفسه تحدثه بالسلطنة ، فجمع قضاة دمشق وأمراءها وتحدث معهم بجواز محاربة السلطان فرج ، فأفتاه القاضي شهاب الدين أحمد بن الحسباني بجوار ذلك ، فبدأ الاستعداد لمقاتلة السلطان(٥).

ولما بلغت هذه الأخبار إلى القاهرة ، حضر الناصر فرج إلى دمشق ، فهرب شيخ إلى صرخد ؛ فلاحقه السلطان وشدّد عليه الحصار ، وضرب قلعتها بالمنجنيق ، فطلب شيخ المحمودي الأمان ، وصَعِد إليه فتح الله كاتب السر ، وتغري بردي أتابك العسكر ، واتفقا مع شيخ على تعيينه نائباً لطرابلس ؛ فاستجاب السلطان فرج للاتفاق ورحل إلى القاهرة. وأثناء رحيل شيخ إلى طربلس ، مرّ بدمشق ، فاعترضه نائبها بكتمر (شلّق) ، لكن شيخ هزمه ولاحقه إلى صفد (٦).

هذا ، ولم يكن أعراب المنطقة بمعزل عن الصراع بين أمراء المماليك ، فاجتمع عرب دمشق ، وانضم إليهم عرب حارثة بزعامة شيخهم حسن بن قاسم ابن متير ببك ،

---

* سَعْسَع : إحدى قرى صفد ، وتقع إلى الشمال الغربي منها.

(١) المقريزي ، السلوك ، حـ٤ ق١ / ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٢/ ٣٩٦ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ص : ٧٣ .

(٣) ابن تغري بردي ، م.ن ، ص : ٧٤ – ٧٥ .

(٤) المقريزي ، م.س ، ص : ٨٦ – ٨٧ .

(٥) ابن حجر ، م.س ، ص : ٤٢١ .

(٦) العيني ، السيف المهند ، ص : ٢٥٢ .

وعشير نابلس بزعامة شيخهم أبي بكر مشّاق. ثم نَظّموا أنفسهم في ثلاث فِرَق ، وزحفوا على صفد، لكنهم ووجهوا بمقاومة عنيفة من عسكر مصر ومن انضم إليهم من العربان وفي مقدّمتهم الأمير مهنا الغزاوي أمير عرب الأغوار ، والأمير فضل بن غنام بن زامل آل مهنّا بجمع من عربه - كان هذا على خلاف مع العِجْل بن نُعير - ومحمد بن هيازع أمير آل مهدي في البلقاء. وقد أبلوا هؤلاء بلاءً حسناً ، وكسروا عسكر دمشق ، ولاحقوهم إلى الحولة بوادي الأردن ، ونهبوا العسكر المهزوم وهم بأسوأ حال [١]. فانسحب شيخ إلى حمص. ولتخفيف وقع الهزيمة على عسكره ، أرسل تجريدة للانتقام من عرب آل مهدي الذين عسكروا في بيسان بشكل مؤقت ، وتمكّنت تلك التجريدة من نهب خيامهم [٢].

وفي شمالي بلاد الشام ، التقى شيخ المحمودي مع العِجْل بن نُعير في وادي الخزندار * ، وتحالفا على أخذ حماة من نوروز ودمرداش. ففي ذي الحجة ٨١٢ / ١٤١٠، اقتتل الفريقان خارج أسوار حماة ، وانتهى القتال بهزيمة دمرداش ونوروز ، فتحصنا داخل حماة [٣].

ولمّا اشتد حصار شيخ والعِجّل بن نُعير على حماة ، كتب دمرداش إلى الناصر فرج يُحثُّهُ على الحضور إلى حماة وإلاّ خرجت بلاد الشام من يده. وفي الوقت نفسه ، اجتمع نوروز بأعيان المدينة المحاصرة ، وأقنعهم بالكتابة إلى العِجّل بين نُعير بأنّ نوروز هرب من المدينة ولم يبقَ فيها إلاّ دمرداش ؛ وسألوه أن يأخذ الأمان من شيخ ، فظنّ العجل بأنها الحقيقة. ولما أعلم شيخ بالأمر ، بعث فرقة من مماليكه وفرسان العجل ، فصعِدوا سور حماة بواسطة سلالم يحملونها ، وتركوا خيولهم ، ونزلوا إلى المدينة ، ففاجأهم نوروز بعسكره وقتلوهم عدا أميرين من أمراء العِجل ، وعلّقوا رؤوس القتلى على الأسوار. ثمّ ألزم نوروز الأميرين بالكتابة إلى العِجل بن نعير بأن الصلح قد انعقد بين شيخ ونوروز ، وأنهما اتفقا على أن يمسك نوروزُ بدمرداش ويسلّمه لشيخ ، وأن يمسك شيخ بالعِجل ويسلّمه لنوروز. فلما تلقّى العِجل الخبر من أميريه ، صُدِم بالخبر ، فترك شيخ وسار إلى البرّيّة ، بينما اتّجه شيخ إلى حمص [٤]. وحين وصل الناصر فرج إلى دمشق في ربيع الأول سنة ٨١٣ / ١٤١١ ، اتّجه نوروز وشيخ إلى الصلح ، لأن كلاً

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ق١ / ١٢١ - ١٢٣ .

(٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٢/ ٤٢٧ .

* وادي الخزندار : أحد مروج سلمية.

(٣) المقريزي ، م.س ، ص : ١٢٦ ؛ وابن حجر ، م.س ، ص : ٤٢٨ .

(٤) المقريزي ، م.س ، جـ٤ ق١ / ١٢٨ ؛ وابن حجر ، م.س ، ٢/ ٤٢٩ .

منهما خاف على نفسه أن يظفر به السلطان ، وعزما على التخلّص من دمرداش المحمدي، وابن أخيه قرقماس. فلما أحسّ دمرداش بالخطر ، التجأ إلى ديار العِجل بن نُعير ، وظلّ ينتظر وصول السلطان إلى حلب ، ثُمّ هرب إلى إنطاكية [١].

وأمّا شيخ ونوروز ، فإنّهما سارا إلى حلب ، وأعلنا عصيانهما على السلطان. وما أن اقترب السلطان من حلب ، حتى حضر إليه دمرداش من طرف العِجل بن نعير ، بينما هرب نوروز وشيخ إلى مَرْعَش ، فلاحقهما السلطان فرج وأقام بالأبلستين نحو شهرين ، وكتب لهما يُخيّرُهُما بين الخروج من مملكته ، وبين الوقوف لمحاربته ، أو الرجوع إلى طاعته. لكن شيخ اعتذر عن الحضور ، وطلب من السلطان نيابة أبلستين لنفسه ، وإعطاء نوروز ملطيّة ، فلم يوافق السلطان على ذلك [٢].

وعندما تحقّق شيخ نوروز من وصول السلطان إلى دمشق ، اتجهت أنظارهما إلى القاهرة ، فسارا عبر البادية الشامية حتىوصلا غزّة ومنها إلى القاهرة ، وكادا أن يُسيطرا على القلعة ، لكن وصول عساكر السلطان فرج بالوقت المناسب أدّى إلى هروبهما إلى الكرك [٣].

ولمّا أيقن السلطان فرج صعوبة إنهاء تمرّدهما ، سار من دمشق إلى الكرك وعقد الصلح معهما ، وجلسا على مائدة السلطان ، فخلع على شيخ بنيابة حلب ، وعلى نوروز بنيابة طرابلس ، بينما عيّن تغري بردي أتابك عسكره نائباً لدمشق لإشعارهما بوجود عين قوية للسلطان في بلاد الشام [٤].

وحين استقر شيخ ونوروز بنيابتهما ، اتفقا على مداهمة ديار العِجل بن نُعير لأنّه آوى دمرداش المحمدي عندما هرب من حماة. وما أن اقتربت طلائعهما من دياره ، أدرك أنه غير قادر على مواجهتهما ؛ فخرج بجماعته إلى الرحبة ، ومنها إلى برية العراق ، منتظراً مساعدة السلطان فرج [٥]لكن مسلسل الخروج عن الطاعة لم ينتهِ ، فإذا بالأخبار تتواتر بخروج شيخ ونوروز عن الطاعة ؛ وأنّهما يستعدّان للاستيلاء على دمشق

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ص : ١٣٥ - ١٣٦ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، ص : ٤٥٠ - ٤٥١ ؛ والعيني ، السيف المهند ، ص : ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢) م.ن ، ص : ٢٥٣ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٣/ ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) المقريزي ، م.س ، ص : ١٥٠ - ١٥١ ، ١٥٦ ؛ ابن حجر ، م.س ، ص : ٤٥٣ - ٤٥٤ ؛ ابن تغري بردي ، م.س ، ص : ١٠٧ - ١١٤ ؛ وابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٢/ ٢٦٧ - ٢٧٠ .

(٤) المقريزي ، م.س ، ص : ١٨١ ؛ وابن حجر ، م.س ، ص : ٤٨٤ .

(٥) المقريزي ، م.س ، جـ٤ ق١ / ١٨١ ، وابن حجر ، م.س ، ٢/ ٤٨٤ .

من تغري بردي [١]. وكأنّ شيخ يقرّب نفسه من السلطنة ، ويجرّ السلطان إلى أجله في دمشق.

وما كاد يصل خبر خروجهما عن الطاعة إلى القاهرة ، حتى خرج السلطان فرج من مصر إلى الشام في الثامن من ذي الحجة سنة ٨١٤ / ١٤١٢ ، وعندما وصل إلى غزّة ، بلغه أنّ طلائع قواته انضمت إلى شيخ ونوروز في حمص. ومن دمشق خرج السلطان صوب حمص ، ولاحقهم إلى البقاع ، فانسحبوا إلى اللجون. وفيها وقع القتال في الثالث عشر من محرّم سنة ٨١٥ / ١٤١٢ ، فهُزم السلطان والتجأ إلى قلعة دمشق ليلقى مصرعه فيها ، وذلك في السادس من صفر سنة ٨١٥ / ١٤١٢ [٢].

ولمّا اعتلى شيخ المحمودي عرش السلطنة في السادس عشر من شعبان سنة ٨١٥ / ١٤١٢ ، أعاد ترتيب مملكته ، لكن نوروز الحافظي نائب دمشق اعترض على سلطنة شيخ وأعلن عصيانه في الأول من رمضان من العام نفسه. وبدأ نوروز يتصرّف كأنّه سلطان الشام ، فضرب السكّة باسمه ، وأصدر المراسيم بتعيين النوّاب ، وكاتب شيخ المحمودي معاتباً ، ولم يخاطبه بالسلطان ، وإنما اكتفى بمولانا. كما ذكّره بالعهود بينهما ثم خرج لمحاربة دمرداش نائب حلب من جهة شيخ المحمودي [٣].

ولمّا اقترب نوروز من حلب سنة ٨١٦ / ١٤١٣ ، تركها دمرداش واتجه إلى العمق ، فدخلها نوروز وعيّن الأمير طوخ * نائباً لها ، كما ولّى الأمير قُمش * نائباً لطرابلس. ثمّ التقى بالعجل بن نعير واصطلح معه ، وأعاد إليه إقطاعه وإمرته. والجدير بالذكر أن سبب انضمام العجل لأعداء السلطان شيخ يعود إلى سنة ٨١٠ / ١٤٠٨ ، حينما سحب شيخ إقطاع العجل في سرمين ووزّعه على أمراء آل فضل [٤].

هذا ، فقد ترجم العجل موقفه المؤيد لنوروز بمهاجمة دمرداش في بانقوسا – شمال شرقي حلب – ومنعه من الوصول إلى حلب ، فهرب دمرداش إلى إعزاز. ثم انضمّ

---

(١) العيني ، السيف المهند ، ص : ٢٥٨ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ق١ / ٢٠٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٢/ ٥٠٥ ، ٥١٠ ؛ العيني ، م.س ، ص : ٢٦٠ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٣/ ١٣٨ – ١٤٨ ؛ ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٢/ ٣٠٨ – ٣٠٩ ؛ وابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق٢ / ٨١٩ – ٨٢٠ .

(٣) المقريزي ، م.س ، ص : ٢٤٥ ، ٢٤٦ – ٢٥٩ ؛ العيني ، م.س ، ص : ٣١١ ، ٣١٣ .

* الأميران طوخ وقمش ؛ من مماليك الظاهر برقوق ، وصلا إلى رتبة أمير مقدم ألف ، ثارا على الناصر فرج ، وقتلهما المؤيد شيخ المحمودي سنة ٨١٧هـ في دمشق .

(السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ٤ / ٩ ، جـ٦ / ٢٢٥).

(٤) ابن حجر ، م.س ، ٣/ ٧ ، ٢٧ .

العجل بن نعير إلى قوات الأمير طوخ نائب حلب ، وإلى الأمير قَمَش نائب طرابلس. وحينما اجتمعت قواتهم في تل باشر قرب عينتاب ، طلب طوخ من العِجْل بن نُعير أنْ يسير معه لمحاربة دمرداش ، فأظهر الموافقة ، لكنّه تأخر قليلاً. ولما بلغ طوخ اتفاق العجل ودمرداش ، أضمر طوخ الغدر للعجل بن نُعير ، ولما حضر العِجل بن نُعير بعددٍ قليل من رجاله ، قتله في الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٨١٦ / ١٤١٣ ، وعاد طوخ بقواته إلى حلب [١].

يتبيّن أن العِجل بن نعير ، راح ضحية تذبذب موقفه بين التأييد والمعارضة للأمراء المماليك. ولعلّ موقفه الأخير حين اتفق مع دمرداش ناتج عن إحساسه بزوال نوروز الحافظي ، فمال إلى الأقوى وهو السلطان المؤيد شيخ المحمودي.

وبمقتل العِجْل بن نُعير ، ثار آل مهنا بزعامة أميرهم الجديد حسين بن نُعير الذي أصبح من أولويات واجباته الثأر لأخيه العِجل. فاستدعى دمرداش ، وسارا إلى حلب ، لكن طوخ وقَمَش تحصنا بقلعة حلب ، فلم يتمكّن حسين بن نعير وحليفهُ دمرداش من طوخ وأتباعه [٢].

وهناك ، في مرج دمشق ثار آل علي بوجه نوروز الحافظي ، لكنّه خاض ضدّهم معارك انتهت بمقتل أميرهم فضل بن عيسى بن رملة بن جمّاز في ذي القعدة سنة ٨١٦ / ١٤١٤ [٣].

ولمّا فشلت جهود المؤيد شيخ المحمودي في إقناع نوروز بالعودة إلى الطاعة ، خرج شيخ من القاهرة إلى دمشق وحاصر نوروز المتحصن بقلعة دمشق ، وانتهى الأمر باستسلام نوروز بعد حصوله على الأمان. لكن السلطان شيخ قتله سنة ٨١٧ / ١٤١٤ ، كما ذبح جميع الأمراء الذين أيّدوا نوروز الحافظي [٤].

٤- موقف أعراب الشام من تمرّد تغري برمش* (٨٤٢ / ١٤٣٨) :

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ق١ / ٢٦١ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٤/ ١٣ .

(٢) المقريزي ، م.س ، جـ٤ ق١ / ٢٦٢ ؛ وابن تغري بردي ، م.س ، ١٤/ ١٤ .

(٣) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٣/ ٣٠ .

(٤) المقريزي ، م.س ، ص : ٢٨٣ ؛ ابن حجر ، م.س ، ص : ٣٦ ؛ وابن تغري بردي ، م.س ، ص : ٢١ .

* هو حسين بن أحمد البهسني التركماني المدعو (تغري برمش) ؛ وهو من أهالي بهسنا ، ولم يمسّه الرّق . قدم القاهرة مع أخيه حسن ، فعمل في ميدان الخياطة ، وانتقل إلى خدمة تغري بردي ؛ ثم أصبح دوادار شيخ المحمودي ، وصار من مقدمي الألوف في عهد برسباي ، وعيّنه نائب حلب سنة ٨٣٩هـ.

(ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٤/ ٥٨ - ٦٥).

حين تسلطن جقمق سنة ٨٤٢ / ١٤٣٨ ، أقدم علـى عـزل السـلطان العزيـز يوسـف بن برسباي ، فأعلن تغري برمش نائب حلب عصيانه في رمضـان مـن العـام نفسـه احتجاجاً على عزل العزيز يوسف. ولم يفكّر تغري برمش بالسلطنـة ، فهـو يعلـم سلفـاً أنـه من أصولٍ تركية. لكن الأمير حطط الدقماقي نائب قلعة حلـب حاربه ، فهرب برمش إلى طرابلس ودخلها بجموع العربان والتركمان بـدون قتـال لأن نائبها جلبان المؤيدي * هرب منها [١].

هذا ، فقد انتهز تغري برمش خروج الأمير الغادر بن عُذراء بن نُعير عن الطاعـة حينما عزله السلطان جُقمق وعيّن موسى بن محمد بن حديثة أميراً على آل مهنّا – كمـا أسلفنا في الباب الأول – فجمع برمش من حوله عربان الغادر بن عُذراء ، وانضمّ إليـه جموع من تركمان العمق [٢].

ولما بلغ خبر عصيان تغري برمش إلى القاهرة ، أمر السلطان جُقمق عسكر دمشق بالتوجّه إلى حماة للقضاء على تمرّده. لكن تغري برمش خرج من حلب ومعهُ ثلاثة آلاف فارس من عربان الغادر بن عذراء ومن التركمان ، وسارا إلى حماة. ولما التقى الجمعان انضمّ موسى بن حديثة أمير آل مهنّا إلى العسكر المصري ، وحدثت بينهما معركة حاسمة انتهت بهزيمة تغري برمش وتعرّضت قوّاته إلى النّهب [٣].

وبعد المعركة ، اتجه تغري برمش إلى الجبل الأقرع ** ، بينمـا اتجـه الغـادر ابن عُذراء إلى البرّيّة. لكنّ تركمان العمق المؤيدين لجقمـق ، تمكّنـوا مـن القبـض على تغري برمش ، وحملوه إلى حلب ليُقتل فيها في الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة ٨٤٢ / ١٤٣٩ [٤].

يتبيّن أنّ دورَ آل مهنّا كان محدوداً في حركة تغري برمش ، لكنّـه مؤشـرٌ علـى الانقسام في صفوف آل مهنّا مما سيقلّص دورهم تدريجياً في التدخل في سياسة الممـاليك وصراعاتهم الداخلية. وبعد هذه الحركة لم نعد نسمع في المصادر التاريخيـة عـن دورِ

---

* توفي جلبان المؤيدي في دمشـق سـنة ٨٥٩هـ .
(السخاوي ، الضوء اللامع ، ٢/ ٧٨).

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٤ ق٣ / ١١١٥ – ١١٢٠ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٥/ ٣٢٤ .

(٣) المقريزي ، م.س ، جـ٤ ق٣ / ١١٤١ ؛ وابن تغري بردي ، م.س ، ١٥/ ٣٢٤ – ٣٢٦ .

** الجبل الأقرع ، أحد جبال سوريا ، يقع إلى الجنوب الغربي من سهل العمق .

(٤) المقريزي ، م.س ، ص : ١١٤٥ ؛ وابن تغري بردي ، م.س ، ص : ٣٢٧ .

مؤثرٍ لأعراب الشام بوجه عام في تلك الصراعات المملوكية ، والتي لم تنته حتى سقوط دولة المماليك.

ثالثاً : العلاقة بين أعراب الشام والتركمان :

لمّا كانت ضرورة البحث في الصفحات السابقة قد دفعتنا إلى الإشارة بصورة متفرقة عن العمل المشترك بين أعراب الشام والتركمان ، فإنه من المناسب هنا أن نجمع جانباً من هذا العمل المشترك بين الجماعتين بصورة موحدة.

فالتركمان نسلٌ من الترك ؛ وهم أحد فروع قبيلة الغز التركية [١]. كانت مواطنهم الأولى في صحراء التركمان الواقعة بين بحر آرال وبحر الخزر من تركستان [٢]. وأما التركمان الذين استقرّوا في بلاد الروم (آسيا الصغرى) ، وفي بلاد الشام فإنهم جاءوا مع ألب أرسلان السلجوقي في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي [٣].

وقد بدأت القبائل التركمانية بتشكيل إماراتٍ لها في بلاد الروم منذ القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ؛ فخضع بعضها للسلطة المملوكية كإمارة دُلغادر * ، كما أسّسوا إمارات أخرى خارج حدود نيابة حلب كإمارة آق قوينلو (الشاه البيضاء) في ديار بكر ومقرّها آمد ؛ وإمارة قرا قوينلو (الشاه السوداء) في الموصل وأربيل وسنجار، ومقرها الحلّة في العراق [٤].

ومن أشهر القبائل التركمانية التي استقرت في شمالي بلاد الشام : الإينالية والأشروية والبياضيّة ، وقد سكنت هذه القبائل في حلب ونواحيها ، ومن آثارهم في حلب (حارة التركمان) [٥]. كما استقرّت مجموعة تركمانية أخرى عُرفت باسم تركمان العمق نسبة إلى سهل العمق ضمن نيابة حلب. هذا ، وقد استقرت جماعات تركمانية أخرى في أنحاء متفرقة من بلاد الشام.

---

(١) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص : ١٠ .

(٢) أبو الفداء ، المختصر ، ٣/ ٢٦ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، م.س ، ص.ن .

* إمارة دُلغادر (ذو الغادر) : دُلغادر اسم لقبيلة تركمانية. وقد شكّلت هذه القبيلة إمارتها (إمارة دُلغادر) سنة ٧٤٠/ ١٣٣٩ ، على يد زين الدين قُراجا بن خليل التركماني (ت ٧٥٤ / ١٣٥٣). وقد ضمّ قراجا أبلستين (البستان) من إرتنا ملك الأرمن ، وبعدها ضمّ مرعش . ثم توسّعت على حساب ملطية وبهسنا في عهد خليل بن قراجا ، المتوفّى (٧٨٨/ ١٣٨٦).

انظر (ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٢/ ٤٦ - ٤٧ ؛ وابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٣/ ٣٢٩).

(٤) العزاوي ، العراق بين احتلالين ، ٣/ ٢٦ - ٢٧ .

(٥) ابن الشحنة ، الدر المنتخب ، ص : ٢٤١ .

وأما طبيعة العلاقات بين أعراب الشام وهؤلاء التركمان فقد حددتها الظروف السياسية التي سادت في تلك المنطقة وما يحيط بها من قوى سياسية مؤثرة (المماليك – المغول – العثمانيون)٠ وبدورنا نتلمس إشارات متناثرة في المصادر التاريخية عن العلاقة بين أعراب الشام وبين إمارة دلغادر وتركمان العمق ، وأحيانا مع إمارتي الآق قوينلو وقرا قوينلو؛ وكذلك مع الأطراف الجنوبية الشرقية من إمارة قرامان في سيس وأضنة وطرسوس٠

ففي سنة ٧٤٥ / ١٣٤٤ ، اتفق أمير العرب فياض بن مهنا بن عيسى الخارج عن الطاعة مع قراجا بن دلغادر بن خليل التركماني أمير الأبلستين على محاصرة قلعة درندة واستوليا عليها من الأرمن ؛ ثم سارا للاستيلاء على حلب٠ إلا أن هذا التحالف لم يرق للسلطة المملوكية في القاهرة ؛ فعندما طلب نائب حلب المساعدة من القاهرة ، أرسل السلطان اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ، تجريدة عسكرية لإبعاد خطرهما [١]. فاتجه فياض بن مهنا إلى الشرق ، لكن صاحب ماردين منعه ، وسأل السلطان الشفاعة به ، فقبل السلطان ، ورد لفياض إقطاعه٠ كما أرسل أمانا إلى قراجا بن خليل وأفرج عن حريمه وأولاده من سجن قلعة حلب [٢].

وحين اختلف الأمير حيار بن مهنا مع الأمير سيف بن فضل لسنة ٧٥٤ / ١٣٥٣ ، لجأ سيف إلى عرب بني كلاب ، بينما استعان حيار بن مهنا بأولاد قراجا بن دلغادر ، وساروا إلى ديار بني كلاب للقبض على سيف بن فضل٠ لكن عرب بني كلاب ألحقوا الهزيمة بحيار بن مهنا والتركمان ، وقتلوا منهم حوالي سبعمائة رجل [٣].

ولعل سبب مساعدة أولاد دلغادر لحيار بن مهنا جاء للضغط على السلطة المملوكية للإفراج عن والدهم قراجا بن دلغادر حين قبض عليه أرغون الكاملي نائب حلب وأرسله مقيدا إلى القاهرة٠ لكن السلطان أمر بقتله توسيطا تحت القلعة سنة ٧٥٤ / ١٣٥٣ [٤] ؛ مما أدى إلى خروج تركمان دلغادر عن الطاعة ، فشنوا غارات على شمالي بلاد الشام ، وعاثوا فيها نهبا وخرابا٠ وقد ظل الوضع يزداد سوءا حتى سنة ٧٨٣ / ١٣٨١ ، عندما جهز الأتابك برقوق حملة عسكرية إلى مرعش ليضع حدا إلى خليل بن قراجا التركماني٠ وقد اشترك في تلك الحملة نواب الشام ، كما اشترك فيها عربان الشام وعشرانها٠ وقد

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق٣ / ٦٦٦ ٠

(٢) ابن الوردي ، تاريخه ، ص : ٤٨٢ ٠

(٣) المقريزي ، م٠س ، ص : ٨٩٨ ، انظر هذه الأطروحة ، الفصل الثالث ، ص : ١٧٢-١٧٣ ٠

(٤) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٣/ ٣٢٩ ٠

تمكّنت هذه الحملة بقيادة يونس الدوادار من إلحاق الهزيمة بخليل بن قراجا ، ووصلت الحملة إلى الأبلستين ، ونشرت الهدوء في إمارة دُلغادر [١].

ولم تنته تلك التحالفات بين أعراب الشام وتركمان دُلغادر ، فعندما أعلن يلبغا الناصري نائب حلب عصيانه – كما أسلفنا سابقاً – فإنه تلقى التأييد من نُعير بن حيّار أمير آل فضل والعرب ، ومن سولي بن قراجا بن دُلغادر التركماني واتفق معهما على محاربة السلطان برقوق. ولما قبض منطاش على الناصري في القاهرة سنة ٧٩١ / ١٣٨٩ ، اتّجه نُعير وسولي إلى مهاجمة حلب ونهب ديارها انتصاراً للناصري [٢].

وفي سنة ٧٩٥ / ١٣٩٣ ، استعان نُعير بن حيّار بابن بزدغان التركماني ، وابن إينال التركماني ، لاستعادة إقطاعه في سلميّة. فلما توجّهت جموعهم إلى سلميّة تصدّى لهم أمير العرب محمد بن قارا فهزمهم ، وقبض على الأميرين التركمانيين فقتلهما وأرسل برأسيهما إلى القاهرة [٣].

ولمّا أعلن تركمان العمق الطاعة للظاهر برقوق سنة ٧٩٧ / ١٣٩٥ ، اتجه نُعير ابن حيّار بعربانه إلى البرّيّة ، فأقدم تركمان العمق على مهاجمة نُعير وقتلوا نحو ألف من عربانه ، ومات له نحو ثلاثة آلاف بعيرٍ من العطش [٤].

وتكاد تكون صورة العلاقات البدويّة – التركمانية أكثر وضوحاً في عهد الناصر فرج بن برقوق ، فبعد رحيل تيمور لنك عن بلاد الشام سنة ٨٠٣ / ١٤٠١ ، أصبحت حلب خاوية على عروشها ، فلما عاد دمرداش المحمدي إلى حلب ، أقدم نُعير بن حيّار على حصار حلب في ذي الحجة من العام نفسه. فما كان من دمرداش المحمدي الذي لا يملك عسكراً كافياً لفك الحصار إلاّ الاستنجاد بأحمد بن رمضان التركماني * ، فحضر أحمد بخيله وفرسانه واقتتل مع نُعير أياماً ، فلمّا رأى أنّ الغلبة تميل لصالح ابن رمضان فرّ ليلاً إلى البرّيّة [٥].

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٤٤٢ – ٤٤٣ .

(٢) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ١/ ١٨٩ ، ٢٤٥ ، انظر هذه الأطروحة ، ص : ١٧٩-١٨٠ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق٢ / ٣٣٢ ؛ وابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٤٥١ .

(٤) ابن الفرات ، م.س ، ص : ٤٠٥ ؛ المقريزي ، م.س ، جـ٣ ق٢ / ٨٣٣ ؛ وابن حجر ، م.س ، ص : ٤٩١ .

* أحمد بن رمضان التركماني الأجقي ؛ هو صاحب أذنة (أضنة) وسيس من إمارة قرامان التركمانية ، ولي الإمرة سنة ٧٨٠هـ ، واستمر يشاقق العسكر الشامي تارة ويدخل تحت الطاعة تارة أخرى حتى مات سنة ٨١٩هـ. (السخاوي ، الضوء اللامع ، ١/ ٣٠٣).

(٥) ابن حجر ، م.س ، ٢/ ١٤٠ .

وقد رأينا أمراء المماليك يستعينون بالأعــراب والتركمـــان ، ففـــي صفـــر ســـنة ١٤٠١/٨٠٤ ، استعان دمرداش المحمدي مرة أخرى بأحمد بن رمضان التركماني ، بينما استعاد دقماق المحمدي بنعير بن حيّار الذي مكّنه من دخول حلب وفرار العُصاة إلى بلاد التركمان [١].

وحينما حاول محمد بن شهري حاجب حجّاب حلب أن يطرد دقمـــاق المحمـــدي مـــن حلب فإنّه استعان بالأمير (دمشق بن خُجا بن سالم الدوكاري) أمير جَعْبَر وهو من تركمان العمق ، فحاصرا دقماق وطرداه من حلب ، فاتجه إلـــى ديـــار نُعـــير وطلـــب مساعدته، وكان دمشق بن خُجا من ألد أعداء نُعير. فسار نُعير بفرسانه إلى ناحية جَعْـبَر والتقى بدمشق بن خُجا ما بين بالس وجَعْبَر ، وانتهت الموقعة بهزيمة التركمـــان وقتـــل أميرهم دمشق بن خُجا في السابع عشر من رمضان سنة ٨٠٦ / ١٤٠٤ [٢].

ولما تولّى فارس بن صاحب الباز التركماني زعامة تركمان العمق ، استولى علـــى المناطق الغربية التابعة لحلب * ، وشنّ غاراتٍ على حلب وديارها انتقاماً لمقتل دمشق بن خُجا [٣].

ورغم العداء المستحكم بين نُعير بن حيّار وبين تركمان العمق ، إلاّ أن الظـــروف التي استجدّت سنة ٨٠٨ / ١٤٠٦٦ ، دفعت نُعير بن حيّار وفارس بـــن صـــاحب البـــاز للتعاون ضد جَكَم الذي تمكّن من قَتْلِهما[٤]. كما لاحظنا التعاون بين العِجْـــل بـــن نُعـــير وتركمان العمق وانضمامها إلى قوات السلطة المملوكية للانتقام من جَكَم [٥].

وبعد مقتل نُعير والعِجْل ، ومقتل فارس بن صاحب الباز ، ضعفت شوكة آل مـــهنّا وكذلك تركمان العمق ؛ ولم نعد نسمع في مصادرنا التاريخية عن تلك العلاقة بين أعراب الشام والتركمان ، وإنما تركزت الأخبار عن العلاقة بين المماليك والمغول والعثمانيين.

ولما كانت المناطق الجنوبية الشرقية من الأناضول والمنـــاطق المتاخمـــة للحـــدود الشامية شمالاً ذات أهمية لكل من المماليك والعثمانيين والمغول ؛ فإن الممـــاليك أولوهـــا اهتماماً خاصاً لأنها تؤمّن الأراضي الواقعة في شمالي بلاد الشام ، فأخضعوها لنفوذهـــم في كثير من الأحيان. وكذلك اهتم العثمانيون بها لأنها تشكّل منفذاً حيويـــاً للأنـــاضول ،

---

(١) الغزّي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣/ ١٧٣ ، انظر هذه الأطروحة ، ص : ٢٠١ .

(٢) ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٤/ ٣٥٧ ، ٣٧٧ ؛ ابن حجـــر ، إنبـــاء الغمـــر ، ٢/ ٢٦٦ – ٢٦٧ ؛ والسخاوي ، الضوء اللامع ، ٣/ ٢١٩ .

* حارم ، الشغر ، القصر .

(٣)المقريزي ، السلوك ، جـــ٣ ق٣ / ١١٤٢ .

(٤) انظر : هذه الأطروحة، الفصل الثالث ، ص : ٢٠٢ .

(٥) انظر : هذه الأطروحة ، الفصل الثالث ، ص :٢٠٢ – ٢٠٣ .

وتهدّد القوافل التجارية القادمة من الشرق ، فسعوا إلى إتمام السيطرة على كل أجزاء آسيا الصغرى. كما أن المغول اتجهوا بتوسعاتهم إلى المنطقة نفسها للوصول إلى بلاد الشـــام وإبعاد العثمانيين عنها.

ومن هنا برز الصراع الدامي بين المماليك والمغول ، وبين المماليك والعثمــانيين ، وبين المغول والعثمانيين ، فحاول كلّ منهم بسط نفوذه على هذه المنطقة الحيوية ســـواء باحتلالها أو بتعيين أمراء وحكام موالين لهم فيها ، مما جعل العلاقة تسوء بينهم أحيانـــاً. هذا ما ستعالجه في الفصل الرابع.

الخلاصـــــــــــة:

لم يكن أعراب الشام بمعزلٍ عن مجريات السياسة الداخلية للمماليك ، فقد شـــاركوا بإحياء الخلافة العباسية التي قضى عليها هولاكو سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ ، لبواعث دينيـــة. فقد نظروا إليها نظرة إجلالٍ وإكبار ، وحتى لا يبقى منصب الخلافة شاغراً مدة أطــول. ولعلّ إحساسهم بأحقيّتهم بالحكم باعث آخر دفعهم لإحيائها. بينما وجدنا الظاهر بيـــبرس يلهث وراء إحياء الخلافة العباسية لتدعيم حكمه وأبناء جلدته من المماليك ، ففيـــها ســندٌ شرعي لحكمه رغم أنّه أبقى ومن جاء بعده من سلاطين المماليك على الخليفة رمزاً دينيـاً دون سلطة سياسية.

ولما كان الأمراء المماليك يتصارعون على السّلطة ، فقد اتّخذوا من بـــلاد الشــام مسرحاً لهذا الصراع مستفيدين من بُعدها الجغرافي. وقد كانت حركات التمرّد المملوكيـة واضحة بأهدافها التي ترمي إلى إضعاف نفوذ الأمراء المتسلّطين على السلاطين الضعفاء أو الصغار. كما أنها كانت ترمي أحياناً إلى أكثر من هذا ، وهو الوصول إلـــى عــرش السلطنة الذي اعتُبِرَ حق مشروع لكل مملوك.

وللوقوف على أهداف أمراء العرب من تأييد أو معارضة حركات التمرّد المملوكية، يمكن تسجيل الملحوظات الآتية :-

أولاً : موقف أعراب الشام من حركات تمرّدِ الأمراء المماليك في عهد الدولة المملوكيـــة الأولى (التركيّـــة) :

يبدو أنّ أمراء أعراب الشام كانوا يتنافسون على تولّي منصب (إمـــرة العـــرب)، ففي تولّيها إثبات لوجودهم السياسي في دولة المماليك. وإذا كان الظاهر بيبرس قد سنّها ، واختار الأمير عيسى بن مهنا أول أمير لتولّيها ، فإنّ تأييد عيسى بن مهنا لحركة (ســنقر الأشقر) ضد قلاوون قد جاء وفاءً للظاهر بيبرس ولذريّته ؛ إضافة إلى أنّ هـــذا التــأييد

يمثّل رغبة استقلالية لدى أمير العرب عيسى بن مهنّا. والجدير بالذكر أن هذا التأييد ظلّ في دائرة المحافظة على سلامة بلاد الشام دون تعريضها لخطر التتار ؛ فلما تمادى سنقر الأشقر وراسل التتار أنّبهُ عيسى بن مهنّا وفارقه إلى برّيّة العراق ، ولم يطل به المقـــام فعاد إلى طاعة قلاوون الذي أكرمه وأحسن وفادته وردّ إليه إمرته وإقطاعه.

وأمّا أحمد بن حجي أمير آل مِرا ، فقد أيّد (سنقر الأشقر) من باب المنافسة الحادّة على تولـــي منصـــب (إمـــرة العرب) ؛ فما أنْ هُزم الأشقر حتى عاد إلـــى الطاعـــة سريعاً.

ويمكن القول بأنّ حكمةَ المنصور قلاوون وقدرتَه على حساب الأمور ، كانتـا وراء قَبول طاعة أحمد بن حجي ثم عيسى بن مهنّا. كما أنّه دليلٌ على اعتراف قلاوون بقـــوة أعراب الشام ، وتوظيف هذه القوّة وطاقات هؤلاء الأعراب للمحافظـــة علـــى اســـتقرار الدولة، ودفعٌ لخطر التتار الذي يهدّد المماليك والأعراب على حد سواء.

وأمّا تأييد مهنّا بن عيسى أمير أعراب الشام لحركة (قراسنقر الجوكندار) ، فلـــهُ مبرّراته ؛ ففيه احترام لمبدأ " الاستجارة " عند العرب ، فالاستجارة تعهد بحماية المستجير من الضّيم مهما كلّف الثمن ، والتفريط بها قد يُلحق العار بالمُجير طوال الدهر. كمـــا أنّ مهنّا بن عيسى سيّد قومه ، وقد علتْ مكانته عند قلاوون ؛ لكن الأشرف خليل بن قلاوون ألحق الإهانة بمهنّا وهي إهانةٌ للأعراب وتحجيمٌ لدورهم السياسي. ومن هنا ظلّ مهنا بـــن عيسى حذراً من المماليك وإن احتلّ مكانةً مرموقة لدى الناصر محمد بن قلاوون الـــــذي رفض وساطة مهنا في أمر قراسنقر الجوكندار. ولمّا عاد مهنّا إلى الطاعة أكرمه الناصر محمد وأعاد إليه إمرة العرب وإقطاعه.

وبموت مهنّا بن عيسى تراجعت قوة أعراب الشام السياسية لازدياد التنـــافس بيـــن أمراء آل فضل وآل مهنا على تولي منصب إمرة العرب. ومن هنا كان دورهم محـــدوداً في حركة يلبغا اليحياوي ، وإن كانوا سبباً في إنهاء حركته لصالح المماليك.

هذا ، ولم يتوان سلاطين المماليك عن تغذية تنافس أمراء العرب على تولي منصب إمرة العرب ؛ فقد استغل السلطان حسن بن الناصر محمد ســـنة ٧٥١ / ١٣٥٠ ، ذلـــك التنافس بين فيّاض بن مهنا ، وحيّار بن مهنا أمير العرب ، فأقدم السلطان حســـن علـــى إطلاق سراح فياض بن مهنا ووعده بتولي إمرة العرب عن حيّار ، مقابل ملاحقته بيبغـــا أُرس ، كما ألحق أعراب جنوب بلاد الشام من بني عقبة وبني مهدي إلى لوائه.

ثانياً : موقف أعراب الشام من حركات تمرّد أمراء المماليك في عهد الدولة المملوكيـــة الجركسيّة :

لم تختلف بواعث تأييد أعراب الشام لحركات التمرّد المملوكية أو معارضتها ، عن تلك البواعث التي أسلفنا الحديث عنها. فقد بنى أمراء العرب موقفهم من تلك الحركات بما لا يتعارض مع مصالحهم ومدى وصولهم إلى تولي منصب إمرة العرب.

فهذا أمير العرب نُعير بن حيّار يعلنُ تأييده ليلبغا الناصري بثورته على الظاهر برقوق لأن برقوق عزله عن إمرة العرب سنة ٧٨٥ / ١٣٨٣ . لكنّ نعيراً ظلّ في موقف متذبذب بين التأييد والمعارضة لحركة منطاش بعد مقتل يلبغا الناصري. فالهزائم التي لحقت به ، والضغوط الأسرية أجبرته تماماً على إنهاء حركة منطاش في الوقت الذي عجز فيه الظاهر برقوق عن إنهائها.

لكن الأمر اللافت للنظر تمثّل بذلك التأييد الواسع من مختلف قبائل أعراب الشام للظاهر برقوق الذي لاقى كلّ العون والمساعدة الفعليّة أثناء عودته من الكرك إلى القاهرة عبْر دمشق. ولعل تلك القبائل قد تضرّرت من الخراب والدمار الذي أحدثته ثورة منطاش.

وفي اتّجاهٍ آخر ، عارض نُعير بن حيّار تمرّد دمرداش المحمدي سنة ٨٠٤/ ١٤٠٢، فقد وجد بتكليف السلطان فرج بن برقوق بملاحقة دمرداش في حلب فرصة للانتقام من دمرداش الذي سحب إقطاع سرمين من نُعير وأعطاه لتركمان العمق. فكان انضمام نعير إلى ذلك التحالف المؤيّد للسلطان فرج فيه انتصار ساحق على دمرداش والتركمان. كما أنّ نعيراً احتلّ مكانة مرموقة عند السلطان فرج حينما أشار عليه بعزل دمرداش المتمرّد ، ودقماق المؤيد للسلطان عن نيابة حلب ، فهما لا يصلحان للنيابة ؛ وتعهّد للسلطان فرج بحماية النائب الجديد في حالة تعيينه في حلب.

ومرةً أخرى ، تدخّل نُعير بن حيّار في مسرح الصراع الدائر بين أمراء المماليك ، فأيّد السلطان فرج بن برقوق ولاحق جكم سنة ٨٠٨ / ١٤٠٦ ، لكن هذا التأييد كلّفه حياته، فقد قتله (جكم) في العام نفسه.

ولما امتدت يد (جكم) إلى تركمان آمد ، لقي حتفه على أيديهم ، فأرسلوا رأس جكم مع حاجب نعير إلى القاهرة. وفي هذا إشارة إلى عودة العلاقات البدوية – التركمانية إلى مسار التحالف من جديد ، وإرضاء لآل فضل وفي مقدّمتهم الأمير الجديد العِجْل بن نعير.

وأما العِجل بن نُعير المطالب بدم والده فقد راح ضحيّة مواقفه المتذبذبة بين التأييد والمعارضة لكلٍّ من شيخ المحمودي ونوروز الحافظي سنة ٨١٠ – ٨١٦ / ١٤٠٧ – ١٤١٣ .

وبموت نُعير وابنه العِجل بدا الانقسام في صفوف آل فضل ؛ ففي سنة ٨٤٢ / ١٣٣٩ ، أيّد الغادر بن عُذراء الخارج عن الطاعة تمرّد (تغري برمش)، بينما انضم موسى بن حديثة أمير آل مهنّا إلى السلطان (جقمق)• وبانضمام موسى بن حديثة إلى عسكر جقمق انهزم تغري برمش وحليفه الغادر بن عُذراء الذي هرب إلى البرّيّة• لكنّ موقف تركمان العمق كان أجدى من موقف آل مهنّا ، فقد قبضوا على تغري برمش ليُقتل في العام نفسه• ومن هنا بدأ دور أعراب الشام يتقلّص تدريجيّاً في سياسة المماليك الداخلية في بلاد الشام•

ثالثاً : المحور البدوي – التركماني في بلاد الشام سنة ٧٥٢ / ١٣٥١ :

استغلّ بيبغا أُرس خروج الأمير حيّار بن مهنّا وحليفه قَراجا بن دُلغادر التركماني عن طاعة السلطان الصالح بن الناصر محمد سنة ٧٥٢ / ١٣٥١ ، فأعلن عصيانه من جديد في حلب• لكنهما تخلّيا عن بيبغا أُرس في أحلك الظروف التي مرّ بها في دمشق ، فكانا يطمعان بعفوٍ من السلطان الصالح• وهذا ما حدث لقراجا بن دُلغادر ، فما أن صدر عنه عفو السلطان الصالح حتى لاحق بيبغا أُرس إلى أبلستين ، فقبض عليه وأرسله إلى حلب ليُقتل سنة ٧٥٤ / ١٣٥٣ •

هذا ، فقد تجدّد المحور البدوي – التركماني عام ٧٩١ / ١٣٨٩ ؛ وذلك حينما أعلن يلبغا الناصري ثورته بوجه الظاهر برقوق ، فتحالف مع نُعير بن حيّار أمير العرب ، وسولي بن دُلغادر ، فكلاهما معزول عن إمرة قومه• وقد كان لتأييدهما لثورة الناصري واشتراك فرسانهما في صفوف الناصري أكبر الأثر في إلحاق الهزيمة بعسكر برقوق في معركة خان لاجين ، وخطوة متقدّمة في الطريق لعزل برقوق عن عرشه• كما سارت قوّاتهما إلى القاهرة في صفوف قوات الناصري•

وإذا كان الانقسام قد دبّ في صفوف أعراب الشام ، فإن التركمان قد أصيبوا بالدّاء نفسه ، وقد ظهر ذلك عندما طلب تركمان آمد وأبلستين من الظاهر برقوق عبور الفوات لمقاتلة الناصري حين أعلن ثورته ، ولو أن الظاهر برقوق اكتفى بتوجيه الشكر لهم•

وفي اتجاه آخر ، ظهر خلاف بين نُعير بن حيّار وبين تُركمان العمق سنة ١٤٠٢/٨٠٤ ، حينما أقدم دمرداش المحمدي على سحب إقطاع نُعير في سرمين وإعطائه لهؤلاء التركمان ، فما كان من نعير إلاّ إلحاق الهزيمة بدمرداش ومؤيّديه التركمان ، وأعاد إقطاعه•

وفي زمن متأخر ، أطلّ تحالف تركماني - بدوي جديد ســـنة ٨٠٨ / ١٤٠٦ ، - كما أسلفنا قبل قليل - عندما انتقم التركمان من جكَم ، فحزّوا رأسه وأرسلوه مع حـــاجب نُعير إلى القاهرة ، فلاقى هذا الموقف الرضا بين عرب نُعير وهؤلاء التركمان.

رابعاً :

يمكن القول أنّ أرض التتار شكّلت ملاذاً آمناً للأمراء المماليك ولأمـــراء العـــرب الخارجين عن طاعة السلطة المملوكية ؛ بينما شكلت إمارات التركمان في شـــمالي بـــلاد الشام ملاذاً مؤقتاً وغير آمنٍ للأمراء المماليك ، وتحالفاً مؤقتاً مع أمراء العرب الخارجين عن الطاعة ، وأحياناً المؤيدين للسلطة المملوكية حسب تبعية التركمان للمماليك.

الفصل الرابع

الفصل الرابع

موقف أعراب الشام من الصراع
بين
المماليك والقوى الخارجية

أولاً : الصراع بين المماليك والمغول .

ثانياً : الصراع بين المماليك والصليبيين .

ثالثاً : الصراع بين المماليك والعثمانيين .

موقف أعراب الشام من الصـــراع بيــن الممـــاليك والقـــوى الخارجية:

تمهيـــــــــــــــــد:

إنّ العَلاقات الدوليّة بمفهومها الحديث والمعاصر لم يكن لها وجودٌ في العصـــور الوسطى ؛ لكنّه كان لها وجود يكاد يقترب من هذا المعنى. فإذا انعدم التمثيل الدبلوماسي آنذاك ، فإنّ تبادل الرسائل والرسُل في المناسبات الهامة والأزمات العالقة كفيـل بحلّـها أحياناً؛ فإذا عجزت الرسائل والرسل عن إزالة التأزّم ، كانت السيوف هي الحل المناسب.

ومن هنا ، واجهت الدولة المملوكية أخطاراً خارجية كانت تعصف بكيانها. ورغم إحساس أعراب الشام أحياناً بأن هؤلاء المماليك دخلاء على بلادهم ، إلاّ أن هذا الإحساس لم يمنعهم من الوقوف بصفّ المماليك لدرء الأخطار الخارجية التي لم تفرّق بين مملـوك أو بدوي.

هذا ما سيدور حوله الفصل الرابع ؛ فقد واجهت دولة المماليك ثلاثــة أخطـار ؛ خطرٌ مغولي مدمّر ، نقل أرض المعركة إلى أرض الدولة المملوكية فــي بــلاد الشــام، لكــنّ عين جالوت أوقفت هــذا الزحـف المدمّــر ، وغـيّرت حسـابات الأطـراف المتصارعة.

وهناك خطرٌ آخر ، هو بقايا الوجود الصليبي في سواحل بلاد الشام ، وإن حــاول المغول بناء تحالفٍ مع الصليبيين ، إلاّ أنّ المماليك وأعراب الشام تمكّنوا من فصم عُـرى ذلك التحالف.

وأما الخطر الثالث فقد جاء في وقتٍ كانت فيه دولة المماليك ضعيفــة وجبهتــها الداخلية متصدّعة ، مما أكسب العثمانيون القدرة على تحويل بلاد الشام ومصر والحجـاز إلى ولايات عثمانية في بداية القرن السادس عشر حين وضعــوا بالسـيف حـداً لـدور المماليك، وأخضعوا أعراب الشام.

أولاً _ موقف أعراب الشام من الصراع بين المماليك والمغول:

• بدايــة الاحتكــاك بيــن المغـــول والمماليـــك :

اتّجهت أنظار المغول إلى بلاد الشام ومصر بعد استيلاء هولاكو * على بغداد سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ ، وإزالة الخلافة العباسية بهيبتها الروحية ونفوذها السياسي. فأصبح الطريــق

---

* هولاكو بن تولي بن جانكيزخان ، حكم إيران والعراق (٦٥٤ – ٦٦٣هـ).

التي زال عنها حكم الأيوبيين فحكَمها مماليكهم ؛ ثمّ بلاد الشام وقد سيطر عليها عددٌ من أمراء بني أيوب وعلى رأسهم الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق.

ولمّا كان الناصر يوسف يخشى غزو هولاكو للشام في أي وقت. أرسل ابنه العزيز محمداً على رأسِ وفدٍ إلى هولاكو ، وسأله على لسان والده أن يساعده على أخذ مصر من المماليك (١). لكنّ هولاكو غضب من الوفد الأيوبي الذي لم يناسب مقامه ؛ فأرسل للناصر يوسف مع ابنه العزيز كتاب تهديدٍ ووعيد ، يأمره بالخضوع والتبعية دون قيدٍ أو شرط (٢).

وعندما تقدّمت قوات هولاكو إلى بلاد الشام سنة ٦٥٧ / ١٢٥٩ ، أدرك الناصر يوسف خطر الموقف فطلب معونة السلطان قُطز في القاهرة. ورغم سوء العلاقات بينهما، فإن خطورة الأمر جعلت قطز يستجيب لطلب الناصر يوسف (٣).

وحين استولى هولاكو على حلب بالسيف سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ ، وعلى حماة دون قتال ؛ رحلَ الناصر يوسف عن دمشق ومن اجتمع إليه من أعراب الشام وتركُمانها صوب مصر. وعند قَطْيا بين غزّة ومصر ، تَرَكَهُ عسكره ومعهم بيبرس البندقداري ، وقد اتّجهوا إلى مصر ، بينما اتّجه الناصر يوسف إلى الكرك (٤).

وفي الوقت الذي ترك فيه الناصر يوسف دمشق لمصيرها ، وصلت طلائع المغول إلى حَرَستا في غوطة دمشق ، ومعهم أمانٌ من هولاكو إلى أهلها ، فأُدخلوا دمشق ، وأعلنوا الأمان فيها (٥). ثم دخلها كَتْبُغا نوين بقوّاته ؛ وعلى حد قول (أبو شامة) فإن دمشق نجت من التدمير والتخريب بفضل أعيانها ؛ لكن قلعتها عصت لمدة شهرين ثم سقطت بيد كُتبُغا بعد أن ضربها بالمنجنيق (٦).

(١) المقريزي ، السلوك ، حـ١ ق٢ / ٤١٠ – ٤١١ . ينفرد المقريزي باستجابة هولاكو لطلب الناصر يوسف ، فيذكر : " .... فأمر هولاكو أن يتوجّه إليه (الناصر يوسف) بعسكر قدره عشرين ألف فارس .... " . لكن هذا الخبر يتناقض مع رسالة التهديد والوعيد التي حملها العزيز لوالده.

(٢) م.ن ، ص : ٤١٥ – ٤١٦ ، العيني ، عقد الجمان ، ١/ ٢٠ .

(٣) أبو الفداء ، المختصر ، ٣/ ١٩٩٩ .

(٤) ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص : ٤٦ .

– يقدّر ابن أيبك الدواداري ، وغيره ، عدد القوات التي انضمت للناصر يوسف بمائة ألف جندي.

(٥) الهمذاني ، جامع التواريخ ، مج٢ حـ١ / ٣٠٦ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١/ ٣٤٩ .

(٦) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص : ٢٠٤ ؛ الهمذاني ، م.س ، ص : ٣٠٨ .

– رحل هولاكو من حلب عائداً إلى عاصمة المغول (قره قورم) في منغوليا ، بسبب موت أخيه (منكو قان) الخان الأكبر للمغول ، وليحضر اجتماع زعماء المغول لاختيار خان جديد ؛ فاختاروا (قوبيلاي) أخ هولاكو ، وقبل رحيله سلّم القيادة إلى كتبغا نوين ، الذي اعتمد عليه بفتح إيران والجزيرة الفراتية.

(المقريزي ، م.س ، حـ٣ ق٢ / ٤٢٧).

ثمّ بدأ كتبغا بتوزيع قوّاته ونشرها في جنوب بلاد الشام لإخضاعها ، فشملت غاراتهم : صرخد ، حوران ، الصّبيبة ، نابلس ، الخليل ، أطراف غزّة ، والسلط ؛ وسقطت قلاعها بأيديهم مُلْحقين القتل والخراب والنهب والسلب [١].

وفي البلقاء ، وبالقرب من زيزاء وحُسبان ، تصدّى عرب بنو مهدي لكتيبة من المغول ، بَيْد أنّها قَدِمت للقبض على الناصر يوسف ، فانهزم بنو مهدي وتعرّضت ديارهم للنهب والسلب ، وسبى المغول نساءهم وأولادهم ، ومن استطاع الهرب إلى البرّيّة نجا[٢]. وأما الناصر يوسف فقد وقع بيد المغول قبل أن يهرب إلى البرّيّة ؛ فاقتيد إلى عجلون التي عصت قلعتها على المغول ، فأمر الناصر بتسليمها لهم. ثم أُحْضِرَ الناصر يوسف بين يدي كُتبُغا فأرسله إلى هولاكو ليلاقي مصيره فيما بعد سنة ٦٥٩ / ١٢٦٠[٣].

وفي حوران ، شَنّ آل مرا وزبيد غاراتٍ على جشارات * المغول ، في مرج راهط بنواحي دمشق ، فلم يتمكّن المغول منهم [٤].

يتبيّن أنّ أعراب الشام أدركوا خطر المغول على بلادهم ، لكنّ إمكاناتهم لم تتعدَّ شنّ الغارات على أطراف تجمّعات المغول ، والحرص على عدم المواجهة ، إذْ سرعان ما يُنفذون غاراتهم ويفرّون إلى البادية دون أن يتمكن المغول منهم. وإذا كانت المصادر التاريخية المعاصرة لهذه الأحداث قد صَمَتت عن ذكر موقف أعراب الشام (آل فضل ، آل بشّار ، ، آل مهنا ، بنو كلاب ، آل علي ، بنو عقبة وجَرْم) ؛ فإنّه يفترض أن يكون هؤلاء الأعراب قد نزحوا إلى داخل البادية ، وتسحّبت أعدادٌ منهم إلى الناصر يوسف عندما أقام في (بَرْزة) على أثر سقوط حلب بيد هولاكو. ولا يُستبعد أن يكون قسمٌ منهم نَفَذ إلى مصر مع بيبرس. ولعلّه تفسير لوجود أعراب الشام في صفوف قطز في عين جالوت.

---

(١) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص:٢٠٤ .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١/ ٣٥٨ .

- يروي أبو الفداء والعيني ؛ بأن حسين الكردي طبر دار الناصر يوسف حسّن له المضي إلى المغول ، فنزل زيزاء ، فسار حسين هذا إلى كتبغا في دمشق وعرّفه بمكان الناصر فأرسل فرقة لإحضاره.

(المختصر ، ٣/ ٢٠٤ ، عقد الجمان ، ١/ ٢٣٤).

(٣) أبو شامة ، م.س ، ص : ٢٠٥ .

- عندما وقف الناصر يوسف بين يدي هولاكو ، طمأنه : " عندما استولي على مصر سأفوّض لك الشام ".

(الهمذاني ، جامع التواريخ ، ١/ ٣٠٨).

* الجشار : الصحن والخيل والأبقار التي تساق مع الجيش.

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣ / ٢١٩ .

• أعراب الشام في معركـــة عيــن جالــوت * (٦٥٨ / ١٢٦٠) :

عندما أحكم هولاكو سيطرته على بلاد الشام ، بدأ يفكّر بغزو مصر ، فأرسل كتاباً إلى السلطان قطز كلّه تهديدٌ ووعيد ؛ وطلب منه الخضوع والاعتراف بسلطان المغـول. فجاء ردُ قطز بقتل رُسُل هولاكو [١] ؛ وهو بمثابة إعلان الحرب على المغول. وبذلـــك وقعتْ مسؤوليّة مواجهة المغول في بلاد الشام ومصر على عاتق المماليك.

ورغم الصعوبات التي واجهت قطز ودولته الناشئة ؛ إلاّ أنّه تمكّن من تجهيز قوّاته من مماليك مصر وعربانها. كما وفد عليه صاحب حماة المنصور محمد الأيوبي وأخـــوه الأفضل بعسكر من الشام. وانضمّ إليه أمراء أعراب وفي مقدّمتهم أمـــراء آل فضـــل ؛ وكذلك حضرت عنده جماعات من تركمان الشام [٢].

ولمّا أتمّ قطز تجهيز قوّاته ، اجتمع بهم في الرّيدانية شمالي القاهرة ، وبيّــن لـــهم خطر المغول المُحْدق بمصر والشام ، وشجّعهم على الإقدام ، وقـــوّى جأشـــهم وحـــرّك عزائمهم ، وحرّضهم على قتال المغول [٣]. ثمّ أصدر أوامــــره إلــــى الأمــير بيــبرس البندقداري بتقدّم العسكر لاستطلاع تحركات المغول. فلمّا وصل بيــبرس إلـــى غـــزّة هربـــت منهـــا جمـــوع المغول ، فلاحقهم عُربان المنطقة ينهبون خيولهم وأثقالهم [٤].

وفي الخامس عشر من شعبان ٦٥٨ / ١٢٦٠ ، وصل قطز إلى غـــزّة ، واتجـــه إلـــى مرج عكا. وفي الوقت نفسه كان بيبرس يناوش تجمّعات المغول ليُبعد أنظارهم عن حركـــة قطز ، وظلّ بيبرس يُشاغلهم ويستدرجهم حيناً حتى وصـــل قطـــز إلـــى عيـــن جالوت[٥].

وأما قوات المغول فإنّها كانت تعسكر بالقرب من بعلبـــك فـــي البقـــاع ، فجمـــع كيتوبوقـــا (كُتُبُغا) قوّاته المنتشرة في أنحاء بلاد الشام والتي وصل عددها إلـــى اثنـــي عشر ألفاً ، وســـار بها إلى غور الأردن. هذا وقد انضمّ إليه بعض حكـــام الشـــام مـــن

---

* عين جالوت : بلدة بين بيسان ونابلس ، وهي من أعمال فلسطين .
(ياقوت ، معجم البلدان ، ٤/ ٢٠٠).

(١) ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ٨/ ٤٧ – ٤٨ .

(٢) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص : ٢٠٧ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١/ ٣٦٤ .

(٣) م.ن ، ص : ٣٦٥ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ١/ ٣٦٤ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ٢١٩ .

(٥) اليونيني ، م.س ، ١/ ٣٦٦ .

الأيوبيين مثل الأشرف صاحب حمص ، لكنّ قطز تمكّن من استمالته فوعده بخذلان المغول ، والسعيد حسن بن العزيز الذي ظلّ منحازاً للمغول [١].

وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ ، التقى الجمعان في عين جالوت ، واحتدم القتال الضّاري بينهما ، فأبلى فرسان المماليك والعربان بلاءً حسناً أدى إلى هزيمة المغول ، ومقتل قائدهم كُتُبُغا وأَسْرِ ابنه. ثمّ تولّى بيبرس البندقداري وعُربان الشام ملاحقة فلول المغول حتى الفرات ؛ وكانت تجمّعات الأهالي في البوادي والأرياف تقتل كلّ مغولي يقع بَيْنَ أيْدِيهم [٢].

هكذا بفضل تعاون المماليك وأعراب الشام ومصر تحقّق النصر الذي أوقف سيل المغول الجارف ؛ وتقوّضت أسطورة الجيش المغولي الذي لا يُهزم. ويمكن اعتبار هذه الموقعة أول تجربة حربية بين أسلوبين من الحرب ، أسلوب جيش متمرّس لم يسبق هزيمته ، وأسلوب جيش من المماليك والأعراب سيطرت عليه أوهام الدعاية العسكرية المغولية. لكنّ الأهمية الكبرى لموقعة عين جالوت ، أنها ساهمت في تدعيم دولة المماليك الناشئة ، وفتح باب التعاون بين المماليك وأعراب الشام ، وبالتالي تأهيلهم لذلك الدور الفاعل في سلسلة الصراع الطويل بين المغول والمماليك.

وبعد هذا النصر ، دخل السلطان المظفر قطز إلى دمشق ، فعمل على إعادة الأمن إلى نصابه ، ورتّب أمور الشام ، ثمّ كافأ أمراءه فأعطاهم إقطاعات في بلاد الشام ، وكافأ أمراء العرب وفي مقدّمتهم الأمير عيسى بن مُهنّا بن مانع أمير آل فضل ، فأقطعه سلميّة تقديراً لشجاعته وإقدامه وللدور الذي قام به وأعراب الشام في تحقيق النصر [٣].

ثم أمّر قطز ، المنصور محمد الأيوبي في مملكة حماة ، والأشرف الأيوبي في حمص ، وولّى الأمير سنجر الحلبي نائباً له في دمشق ؛ وأما حلب فقد ولّى عليها علاء الدين بن لؤلؤ صاحب الموصل ليضمن أخبار المغول من أخيه الصالح

---

(١) الهمذاني ، جامع التواريخ ، مج٢ جـ١ / ٣٠٦ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، ٣/ ٢٠٤ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ٤٣٠ .

(٢) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص : ٢٠٨ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١/٣٦٦، ابن ايبك الدوادار ، الدرّة الزّكيّة ، ص : ٥٠ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٤٣٧ ؛ المقريزي ، م.س ، ص : ٤٣٠ ؛ العيني ، عقد الجمان ، ١/ ٢٤٣ - ٢٤٤ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٧/ ٧٩ - ٨٠ .

(٣) أبو الفداء ، م.س ، ص : ٢٠٥ ؛ المقريزي ، م.س ، ص : ٤٣٣ .

صاحب الموصل [1]. لكنّ هذا المبرّر لم يُقنع بيبرس البندقداري الذي وعده بإقطاعه حلب، فكان هذا سبباً من الأسباب التي دفعت بيبرس للتآمر مع عدد من أمراء المماليك المعزيّة على حياة قطز ؛ فقتلوه بالقُصَيْر * أثناء عودتهم إلى القاهرة. فبَدَلَ من أنّ تحتفلَ القاهرة بانتصار قطز ، فإنّها احتفلت ببيبرس سلطاناً للمماليك [2].

• سياسة الظاهر بيبرس إزاء المغول : (٦٥٩ – ٦٧٥ / ١٢٦٠ – ١٢٧٧) :

لم تُمْحَ هزيمة المغول في عين جالوت من ذاكرة هولاكو ، لكنّه لم يجرؤ على اجتياح بلاد الشام ، بل اكتفى بإقلاق دولة المماليك في بلاد الشام. ومن هنا ، أصبحت المشكلة التي تواجه حكم الظاهر بيبرس تتمثل في خطر المغول. لذا بدأ بيبرس ببناء الجبهة الداخلية ، فقد رأيناه مهتماً بأعراب الشام كلّ الاهتمام ؛ فعيّن الأمير عيسى بن مهنّا أميراً على العرب ، وكلّف الأعراب بحفظ حدود بلاد الشام حتى حدود العراق ، وألزمهم بدَرْك البلاد ، وشرط عليهم حفظ طرق البريد والحج والتجارة. وفي الوقت ذاته عمل على إنهاء خلافات البدو ، ولاحق الخارجين على القانون [3].

ولم يكتف بيبرس بأعراب الشام ، بل اهتمّ أيضاً بأعراب الحدود الشامية العراقية ، وهم عرب خفاجة المقيمون ببرّيّة العراق ، فغمرَهم بالعطايا والأموال ، وحرّضهم على قتال المغول ؛ فكانوا عوناً له طوال فترة حكمه. وقد شنّوا غاراتٍ على المغول حتى وصلت أبواب بغداد. وقد أكّد أمراء عرب خفاجة في زياراتهم المتكرّرة للقاهرة بأنّهم عيون السلطان وسيفه على المغول [4].

وسعى بيبرس في تأمين خطوطه الدفاعية المتقدّمة ، فأمر بإحراق مروج الأعشاب التي يُعسكر فيها جيش المغول ، فجُهِّزَت القدّاحات وآلات النار وأُحرقت تلك المروج من آمِد إلى خلاط في سنة ٦٦٠ / ١٢٦٢ [5] ، فقُطِعت السُبل والطرق المؤدية إلى بلاد الشام من هذه الجبهة الخطيرة.

---

(١) العيني ، عقد الجمان ، ١/ ٢٤٨ – ٢٤٩ .

* القُصَيْر : بلد بمصر في أوّل طريق الرمل ، بينه وبين الصالحية مرحلة. (أبو الفداء ، المختصر ، ٣/ ٢٠٧).

(٢) ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص : ٦١ – ٦٢ ؛ والمقريزي ، السلوك ، حـ١ ق٢ / ٤٣٤ – ٤٣٥ .

(٣) النويري ، نهاية الأرب ، ٣٠ / ٣٧ ، ٤٦ ، ٨٠ . وانظر هذه الأطروحة ، ص :٨٨ – ٩٤ .

(٤) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص : ١٨٢ ؛ والمقريزي ، م.س ، ص : ٤٧٦ .

(٥) عن أسلوب حرق هذه المروج ، انظر : ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ٢٠١ .

كما أعاد بيبرس بناء القلاع والحصون الشامية من حوران إلى حمص والتي خرّبها المغول. وبذلك أقام خطاً حصيناً من أغوار الأردن إلى نهر العاصي. كما بنى أبراج المراقبة و المناور ، ووضع نظام بريد دقيق ربط بموجبه جميع أنحاء الدولة بشبكة خطوط البريد السريع (١).

ففي الوقت الذي اهتمّ فيه الظاهر بيبرس ببناء جبهة دفاعية قوية لمواجهة المغول، فإنّه اهتم بتقوية الجيش ، فأكثر من شراء المماليك القفجاق ، فهم من بني جنسه ، وعلى حدّ قول القلقشندي : " مالت الجنسية إلى الجنسية " ، حتى وصل تعداد جيشه إلى أربعين ألفاً (٢).

وفي ميدان السياسة الخارجية تحالف الظاهر بيبرس مع بركة خان سلطان مغول القفجاق * ضد إيلخانات فارس ** ؛ وقد تُوّج هذا التحالف بزواج سياسي حين تزوّج بيبرس من ابنة بركة خان الذي اعتنق الإسلام ، وقاد حرباً ضدّ بني جنسه مغول فارس. وتُظهر رسالة بركة خان سنة ٦٦١ / ١٢٦٣ ، جانباً من العلاقات بين بركة وبيبرس ؛ " فليعلم السلطان أنني حاربتُ هولاكو الذي هو من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تعصُّباً لدين الإسلام " (٣).

---

(١) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص : ٢٠٠ – ٢٠١ ، وانظر الفصل الثاني من هذه الأطروحة ، ص : ٨٨ – ٩٠ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ٤٥٦ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٧/ ١٩٧ .

* مغول القفجاق : عندما قسّم جنكيز خان دولته بين أبنائه الأربعة ، كانت الأجزاء الواقعة غربي قزوين وحوض الفولجا من نصيب ابنه (جوجي) ، فأقام هناك دولة عُرفت باسم (مغول القفجاق) ولُقّبت بالقبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبي الذي اشتهرت فيه خيامها. هذا وقد انتشر الإسلام بين أبناء هذه القبيلة في عهد بركة بن جوجي بن جنكيزخان (٦٥٤ – ٦٦٥هـ) ، وكان بركة أول من أسلم من أمراء المغول. (ابن خلدون ، العبر ، ٤٣١ – ٤٣٢).

** إيلخانات فارس : أسس هولاكو بن تولي بن جنكيز خان أسرة مغولية حكمت إيران مائة سنة (٦٥٤ – ٧٥٤هـ) . وكلمة (إيل) المغولية تعني خاضع أو مطيع ، فكان هولاكو مطيعاً لأخيه منكوقان الخان الأكبر. وبعد وفاته أصبح هولاكو صاحب الكلمة في إيران والعراق.

(فؤاد الصياد ، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانات ، ص : ٢٧ – ٢٨).

(٣) العيني ، عقد الجمان ، ١/ ٣٦١ .

• استعانة بيبرس بأعراب الشام ضد المغول :

حينما أصبح خطر المغول الشُغل الشاغل للظاهر بيبرس ، فإن الحروب بينهما استمرت دون انقطاع ؛ فاستعان بيبرس بقبائل أعراب الشام وفي مقدّمتهم آل فضل باعتبارهم من جنود الدولة يقاتلون في صفوف الجيش المملوكي ضد الأعداء.

ففي سنة ٦٥٩ / ١٢٦٠ ، انتهز المغول فترة انتقالِ الحكم إلى بيبرس ، فأرسل هولاكو حملة عسكرية من ستة آلاف فارس لغزو الشام انتقاماً من هزيمة عين جالوت ، ولإعادة الثقة إلى عسكره. وقد تمكّن (بيدرا) قائد الحملة من دخول حلب وأعمل السيف بأهلها ، فهرب الأمير حسام الدين الجوكنداري مقدّم عسكر حلب بعسكره القليل إلى حماة ورحل مع صاحبها إلى حمص ، وانضمّ إليهم أمير آل فضل (زامل بن علي بن حديثة) بفرسانه [1]. وفي الخامس من محرّم سنة ٦٥٩ / ١٢٦٠ ، اجتمع الفريقان عند الرستن ، وانتهى الاقتتال بهزيمة المغول ، وفرار بيدرا إلى جهة حلب ، وقد تلاقفتهم أيدي العربان أسراً وقتلاً [2]. وتبرز أهمية هذه الموقعة (موقعة الرّستَن) من مشاركة عرب آل فضل فيها بجانب المماليك ، ومن النصر الذي تحقّق على أيدي ألف وأربعمائة فارسٍ مقابل ستة آلاف مغولي ؛ كما تبين عزم المماليك والأعراب على مواجهة المغول في أي مكانٍ من بلاد الشام وإبعادهم عنها.

وبينما كان الظاهر بيبرس منشغلاً بالاستعداد لمحاصرة قَيْسارِيّة * سنة ١٢٦٤/٦٦٣، وَرَدَ عليه خبرُ حملة هولاكو على البيرة ، فأرسل بيبرس الأمير بدر الدين الخازندار على البريد إلى دمشق لتجهيز أربعة آلاف فارس من عسكر الشام ، وسيّر الأمير عز الدين إيغان المعروف بـ (سم الموت) على رأس حملة عدد فرسانها أربعة آلاف ، ثمّ أتبعهم بأربعة آلاف أخرى بقيادة الأمير جمال الدين آقوش المحمدي. وفي غزّة وَرَدَ عليه خبرٌ بأن المغول نصبوا سبعة عشر منجنيقاً على البيرة ، فكتم

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ٤٤٢ .

(٢) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص : ٢١١ ، يذكر بأنه قتل من المغول ألف رجل و لم يقتل من المماليك سوى رجل واحد ؛ النويري ، نهاية الأرب ، ٣٠/ ٤٠ ؛ ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص : ٦٨ ؛ وأبو الفداء ، المختصر ، ٣/ ٢٠٩ .

يروي اليونيني : " حكى لي محمد بن حسن القيمري ، فقال : " والله لقد رأيت بعيني طيوراً بيضاء وهي تضرب بأجنحتها وجوه التتار ..... ".

(ذيل مرآة الزمان ، ١/ ٤٣٥).

* قَيْسارِيّة : بلدة على ساحل بحر الشام (المتوسط) ، من أعمال فلسطين ، بينها وبين طبريا ثلاثة أيام.

(ياقوت ، معجم البلدان ، ٤/ ٤٧٨).

الخبر، وأرسل يحثُّ إيغان وآقوش بالإسراع لإنقاذ البيرة وإلاّ : " سُقْتُ إليها بنفسي " [١]. وكان قد بعث بالأمير عيسى بن مهنّا بفرسانه إلى حرّان * لمناوشة المغول ريثما يصل عسكر الشام ومصر. فلمّا وصل الأمير عيسى بن مهنا إلى حرّان ، وشاهد المغول طلائع عسكر المماليك ، رحلوا عن البيرة تاركين وراءهم منجنيقاتهم بعد أن دمّروا جانباً من قلعة البيرة [٢].

ويبالغ المقريزي بدور عيسى بن مهنا بأنه : " سار وطرد التتر من حرّان والبيرة " [٣]. ليس هذا تقليلاً من شأن أعراب الشام وأميرهم عيسى بن مهنا ، في مواجهة المغول ؛ ولعلّ مؤرخنا المقريزي قصد جنود الحملة الاثنى عشر ألف وقوات عيسى بن مهنّا معاً. هذا ولم تشر المصادر التاريخية إلى أي قتال بين الطرفين في البيرة، وإن وقعت مناوشات بين فرسان العرب والمغول في حرّان.

ولما بلغ الظاهر بيبرس رحيل المغول عن البيرة ، منع الأمراء والعسكر من العودة إلاّ بعد تعمير وبناء ما خرّبه المغول في القلعة كما أمر بحمل آلات القتال من مصر والشام إلى البيرة ، وشحن قلعتها بكلّ ما يحتاجه أهلها في الحصار لمدة عشر سنوات [٤].

ورغم موت هولاكو سنة ٦٦٣ / ١٢٦٥ ، بعد إخفاق حملته على البيرة بأيّام ، إلاّ أنّ سياسة المغول لم تتغيّر إزاء المماليك ، بل إنّ خان المغول الجديد أباقا (أبغا) بن هولاكو زاد الأمور تعقيداً حينما تحالف مع الصليبيين ضدّ المماليك [٥]. وهو مؤشرٌ على أنّ موت الأشخاص والقادة قد لا يؤثّر أحياناً في مسيرة الدول كدولة إيلخانات فارس.

ولمّا تمكّن بيبرس من دفع خطر التحالف المغولي – الصليبي ، تبادر إلى أبغا بن هولاكو إجراء صلح مع بيبرس ، لكنّه على هوى المغول. فأرسل أبغا كتاباً إلى بيبرس سنة ٦٦٧ / ١٢٦٩ ، كلّه تهديد ووعيد ، فلم يَلْقَ رغبة عند بيبرس الذي ردّ عليه بالمطالبة بكلّ أرض الخليفة التي اغتصبها المغول [٦].

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ٥٢٤ .

* حرّان : مدينة مشهورة في شمال الجزيرة الفراتية ، وهي قريبة من الرُّها ، والرّقة.

(ياقوت ، معجم البلدان ، ٢/ ٢٧١).

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٢/ ٣١٨ ؛ وابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص : ١٠٧ .

(٣) المقريزي ، م.س ، ص : ٥٤١ .

(٤) المقريزي ، م.س ، ص : ٥٢٥ .

(٥) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ٢ – ٣ .

(٦) المقريزي ، م.س ، جـ١ ق٢ / ٥٧٤ .

فاستأنف المغول غاراتهم على بلاد الشام ، ففي سـنة ٦٧٠ / ١٢٧١ ، أرسـل أبغـا حملة من عشرة آلاف فارس على الأبلستين ومرعش استعداداً لغزو بلاد الشـام. ولما بلغ المغول وجود بيبرس في دمشق ، حركوا ألف وخمسمائة فارس لكشف حـدود الشام ، وأغاروا على حلب ، ووصلت غاراتهم إلى عينتاب والعمق وحتى حارم. فلمّـا ورد خبر المغول على بيبرس " جَفَّل الرعيّة إلى الحصون " وخرج بعسكره من دمشـق لاستدراج المغول ، لكنهم لم يتجاوزوا المناطق التي أغاروا عليها [١].

فكتب الظاهر بيبرس إلى القاهرة بتجريد مقدّم العسكر بدر الدين البيسري بثلاثـة آلاف فارسٍ ، فاستغرقت مدة وصول البريد وحضور العسكر إلى دمشق تسعة أيّام ! ثـمّ خرج بيبرس بعسكر الشام ومصر وحلب ؛ فلمّا وصل حماة بلغه وقوع خلاف بين الأمير عيسى بن مهنّا وأمراء آل فضل ، وأن عيسى بن مهنّا هدّد قومه بالتوجـه إلـى بريّـة العراق. فخشي بيبرس إن استدعى أمراء آل فضل أن يخرجوا عن الطاعة ، فكتب إلـى عيسى بن مهنّا وطلب منه خيولاً معيّنة ، فحضر عيسى بن مهنّا ومعه أكـابر قومـه ، فطيّـب بيبرس خاطرهم وأكرمهم. ولما سأل عيسى بن مهنّا عمّا نُقل عنه ، قال : نعم ! فازداد إعجاب السلطان بصدقه وشجاعته ، ثم ساروا بصحبته إلى حلب [٢].

وفي حلب ، اتّبع بيبرس خطة من شأنها قطع الاتصال بين تجمُّعـات المغـول ، فسيّر الأمير عيسى بن مهنّا إلى حرّان والرُّها لمواجهة المغول ، وفي حالة إتمام مهمّتـه يسير إلى مرعش لمساعدة آقسنقر. ثم بعث بالأمير علاء الدين طيبرس إلى جهة حـرّان لمساعدة عيسى بن مهنّا في حالة تعرّضه للخطر ، كما أرسل قوات أخرى إلـى جـهات العمـق وعينتاب [٣].

خرج الأمير عيسى بن مهنّا بفرسانه من حلب ، وخاض الفرات ، وسار صـوب حرّان ، فلما وصلها خرج إليه نوّاب المغول فصمد بوجههم " فطاردوه وطاردهم " ؛ ثـمّ استسلموا له ونزلوا عن خيولهم ، وألقوا سلاحهم ، وقبّلوا الأرض بين يديه كأنّه سلطان ، فأمر بالقبض عليهم جميعاً ، وكانوا نحو ستين فارساً [٤]. ولمّا حضر الأمـير طيـبرس الوزيري إلى حرّان تسلّم الأسرى المغول وعاد بهم إلى حلب ، وسار عيسى بن مهنّا إلى مرعش ، وانضمّ هناك إلى آقسنقر ، فألحقا بجموع التتار هزيمة منكرة [٥].

---

(١) ابن أيبك الدواداري ، الدُّرة الزكية ، ص : ١٦٤ – ١٦٥ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ٥٩٨ – ٥٩٩ ، ٩٩٩ .

(٣) بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية ، ص : ٧٣ .

(٤) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٢/ ٤٦٨ ؛ النويري ، نهاية الأرب ، ٣٠/ ١٨٧ .

(٥) المقريزي ، م٠س ، جـ١ ق٢ / ٦٠٠ .

وفي عام ٦٧١ / ١٢٧٢ ، كلّف الظاهر بيبرس الأمير عيسى بن مهنّا بكشف أخبار المغول جهة الرحبة ، فبعث عدداً من عُربانه ، وعادوا إلى منبج قرب حلب حيث يُقيم بيبرس ، فحدّدوا له موقع قوات المغول على الفرات مما يلي الجزيرة ، وقدّروا عددهم بثلاثة آلاف فارس. فتوجّه بيبرس إلى بحيرة قدس قرب حمص ، وأمر بتحميل مراكب الصيّادين على الجمال. واتجه بعسكره إلى الفرات ، فألقوا بالمراكب كجسرٍ ليمرّ عليه الجنود ، وخاض مع الأمير قلاوون الفرات ، واقتتلوا مع قوات المغول ؛ فأسروا منهم مائتين ، ولم ينج منهم إلاّ القليل (١). وقد أدى هذا الانتصار إلى انسحاب القوات المغولية عن البيرة قبل أن يصلها الظاهر بيبرس. ولمّا وصلها الظاهر بيبرس ، خلع على نائبها ، وقدّم لأهلها ما غنمه من المغول ، ثمّ عاد إلى دمشق (٢).

يتبيّن من تحركات المغول أنّ هدفهم إقلاق المماليك ، لكنّ عيون أعراب الشام حاضرة لكشف تحركات المغول ، وبيبرس دائم الحركة ويُثبِتُ كلّ يوم أنّه قادرٌ على إرباك المغول.

ولم تغفل عيون العرب عن تحرّكات المغول ، ففي ٦٧٢ / ١٢٧٤ ، أخبروا بيبرس بتحرّك قوات أبْغا خان نحو حدود بلاد الشام ، فتحرك بيبرس بجيشه من مصر إلى الشام ، وبصحبته عددٌ من كبار الأمراء ، وفي مقدّمتهم قلاوون وسنقر الأشقر. وفي دمشق ، أصدر بيبرس بتهيؤ جميع قبائل العرب وأهل القرى (الفرسان والخيالة) لملاقاة المغول. كما أمر ببناء جسرين على الفرات عند الرحبة لعبور قواته. وفي الوقت نفسه رسم للأمير عيسى بن مهنّا بالإغارة على بغداد لإرباك المغول ؛ فلما وصل عيسى بن مهنّا إلى الأنبار ، هرب المغول منها دون قتال (٣).

ولما حاولت بعض الثغور الشمالية الخروج عن الطاعة ، سارع الظاهر بيبرس وبصحبته أمير العرب عيسى بن مهنّا ، ولما وصلا سيس ٦٧٣ / ١٢٧٤ ، كلّف بيبرس الأمير عيسى بالتوجه إلى البيرة لدفع المغول ، فلما أحسّوا بقدومه رحلوا عنها ، ودخلها عيسى بن مهنا فرحّب به نائبها. وأما بيبرس فقد دخل سيس وخرّبها فحضر إليه التركمان طائعين (٤).

---

(١) ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، ص : ٥٥ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٣/ ٢ – ٣ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٧/ ١٥٨ – ١٥٩ .

(٢) م.ن ، ص : ١٥٩ ؛ وابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق١ / ٣٣٢ .

(٣) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص : ٤٢٦ ؛ وابن الفرات ، تاريخه ، ٧/ ٦ .

(٤) ابن الفرات ، م.ن ، ص : ٢٩ – ٣٠ .

على أن آخر تعاون بين الظاهر بيبرس والأمير عيسى بن مهنا كان سنة ٦٧٥/١٢٧٧ • فقد توجّه بيبرس لمحاربة المغول بأبلستين ، وفي الوقت نفسه كلف عيسى ابن مهنا بالتوجّه إلى حلب والتنسيق مع نائبها الأمير علي بن مجلي ، لحفظ معابر ومخاضات الفرات (فرع الخابور) حتى لا يدخل منها المغول إلى بلاد الشام• فلما بلغ أبغا خان نزول عيسى بن مهنا وابن مجلي على نهر الخابور ، جهّز لهم جماعات من عرب خفاجة العراقيين ، لكنهم هُزموا أمام قوات عيسى بن مهنا وابن مجلي ، وغَنِم منهم ألفاً ومائتي جمل(١)• وأما الظاهر بيبرس فقد ختم حياته بأعظم انتصارٍ على المغول في أبلستين * ، وعاد إلى دمشق ، وقد توفي فيها سنة ٦٧٦ / ١٢٧٧ •

وبهذا ، يكون الظاهر بيبرس قد دافع عن دولته الناشئة وأرسى قواعدها المتينة ، فظلّ منهاجه مثلاً أعلى للسلاطين المماليك من بعده• وكذلك ، فإن الأمير عيسى بن مهنا تعاون مع بيبرس ، ودافع عن وطنه وأهله ، وزرع قيمة وطنية لأهل الشام• فكلاهما يذودان عن حدود بلاد الشام ومصر بلا كللٍ أو مَلل•

• أسرة قلاوون وأعراب الشام في مواجهة المغول:-

لم يتوقف العداء بين إيلخانات فارس وبين المماليك بعد وفاة الظاهر بيبرس بل ظل مستحكماً حتى استقر قلاوون بالحكم• وأخذت جيوش المغول تجتاح الحدود الشامية مرتكبة نفس الفظائع التي اُرتكبت زمن هولاكو•

ولما كانت بلاد الشام تشهد محاولة انفصالية عن مصر بسبب ثورة سنقر الأشقر** ٦٧٩ / ١٢٨٠ ، فإن قلاوون سَيّرَ جيشه من القاهرة إلى دمشق وهزم الأشقر ومنعه من تحقيق استقلاله ببلاد الشام• لكن سنقر الأشقر كاتب المغول عندما أجاره حليفه عيسى بن مهنا أمير العرب في الرحبة ، ولما استشار الأشقر الأمير عيسى بن مهنا ، لامهُ على مكاتبة المغول ، ومما قاله :

---

(١) ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، ص : ١٧٠ – ١٧١ ؛ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٣/ ١٧٦ ؛ وابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص : ١٩٨ •

* أرسل أباقا خان إلى الظاهر بيبرس يبرر هزيمة المغول قائلاً : " إنكم تنقضّون فجأة كاللصوص وتطاردون فرساننا وطلائعنا وتقتلون بعضهم ثم تفرون •••• فإذا كنتم تريدون لقاءنا •••• فادخلوا الميدان وثبتوا الأقدام ••••" . (الهمذاني ، جامع التواريخ ، مج٢ جـ٢ / ٦٣)•

** انظر هذه الأطروحة : الفصل الثالث ، ص : ١٤٨ وما بعدها•

" أَنْتَ قَدْ أنقذك الله من الكفر ، ومَنّ عليك بالإسلام ، تعود وترجع إلـى الكفـر ، وتكون سبباً لمجيء الكفار إلى بلاد المسلمين لأجل هوىً في نفسك ومصلحتك ، ولا بُـدّ من الموت ، فكيف تلقى الله عزّ وجلّ ؟ والمصلحة أن تطلع إلى صِهْيَون الذي فيه أهلـك وأولادك " [١].

ثمّ افترقا ، فرحل الأشقر إلى صِهْيَوْن ، بينما اتجه عيسى بن مـهنّا إلـى برّيّـة العراق وظلّ فيها حتّى نهاية العام. وما أن أحسّ عيسى بن مهنّا بخطر المغول على بلاد الشام حتى عاد إلى دياره وأعلن الطاعة ؛ وذهب إلى السلطان قلاوون وهو في الروحـاء قُبالة عكّا [٢].

ولمّا كان أباقا خان يراقب ما يجري في بلاد الشام ، فإنّه استغلّ التصدّع الذي حلّ بالجبهة الداخلية للمماليك ، فسيّر حملة من خمسين ألفاً بقيادة أخيه (منكوتمر) ، فوصلت إلى عينتاب وبغراس وحلب وأحرقوا المساجد والمنازل وألحقوا الخراب والدمار فيـها. وعندما وردتهم أخبار وصول السلطان قلاوون إلى غزّة ، وعقده الصلـح مـع سـنقر الأشقر، رحلوا عن حلب [٣].

• مشاركة أعراب الشـام في معركـة حمـص (٦٨٠ /١٢٨١):

عاد أباقا خان إلى تصعيد الجبهة مع المماليك ، فبعث حملة من ثمانين ألفاً بقيـادة أخيه منكوتمر لاجتياح بلاد الشام سنة ٦٨٠ / ١٢٨١ ، فلما وردت أخبار تحرك المغـول وهو في دمشق ، أرسل كتيبة استطلاعية من عُربان الشام والمماليك إلى شمالي بلاد الشام لرصد تحركات المغول ، وقد ظفروا بشخص يُدعى (جلتار بهادر) أمير آخـور أباقـا خان، فأحضروه إلى قلاوون في دمشق في العشرين من جمادى الأولى ؛ فأكرمه ولاطفه، ثمّ سأله عن أخبار قومه ، فقدّم له وصفاً يكاد أن يكون دقيقاً عن جيش ابن هولاكو ، وبيّن

---

(١) ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص : ٢٣٧ .

* يروي بيبرس المنصوري ، بأن عيسى بن مهنا كاتب المغول ؛ " وكتب معه شرف الدين عيسى بن مهنا ملـك العرب بمثل ذلك ... وبادرا بالهرب إلى صهيون ". (زبدة الفكرة ، جـ٩ / ورقة : ١٠٤).

- وقد ردّد المؤرخون الذين نقلوا عن المنصوري هذه الرواية أمثال : النويري ، والمقريزي ، والعيني ، وابن تغـري بردي. لكن اليونيني وابن كثير لم يُشيرا إلى ذلك.

- لم نعثر على مكاتبة عيسى بن مهنا إلى المغول ، كما أنّه لم يذهب مع سنقر الأشقر إلى صهيون بـل إلى باديـة العراق ثم عاد إلى وطنه حيث لقي كل الترحيب من قلاوون ، بينما قبّح قلاوون على الأشقر فعلتـه ، وحـتى الأشقر ندم على اتصاله بالمغول. لكن المنصوري رجل سلطة ولعله لم يتحرّ الحقيقة.

(٢) انظر : الفصل الثالث ، ص : ١٥٥ .

(٣) ابن كثير ، البداية ، ١٣/ ٣٤١ .

عن عزمه على احتلال بلاد الشام في شهر رجب ٦٨٠ / ١٢٨١ [١] ، أي بعد شهرين من تاريخه.

ولمّا تقدّمت قوّات المغول من الأبلستين – مرعش – عينتاب – حلب ، أمر السلطان قلاوون باستعراض جيشه ، وأعلن الجهاد والتعبئة العامة للقاء المغول. فجاءته العساكر من سائر النيابات الشامية ، وحضر إليه أمراء عرب الشام وفي مقدمتهم الأمير عيسى بن مهنّا بفرسانه ، والأمير أحمد بن حجي أمير آل مِرا وبصحبته أربعة آلاف فارس * ، ولم يتأخر أحدٌ من سائر أعراب الشام [٢]. كما وفدَ عليه من وادي التّيْم الأمير (قرقماز) أمير الشهابيين بأربعة آلاف فارس ، " وفي سنة ٦٨٠/١٢٨١ حينما وصلت جيوش المغول إلى الشام استنجد الملك المنصور قلاوون الألفي ملك مصر بالأمير قرقماز فحضر إليه بأربعة آلاف فارسٍ وتوجّه معه إلى حمص " [٣].

ففي الوقت الذي وصل فيه قلاوون بخمسين ألف فارس إلى حمص، ورد إليه خبر نزول منكوتمر في حماة على رأس جيش من ثمانين ألف فارس ، وأن أباقا خان نزل في الرّحبة ومعه ثلاثة آلاف فارس ليراقب ما يحدث منتظراً نتيجة اللقاء [٤].

ولمّا كان الصلح قد عُقد بين قلاوون وسنقر الأشقر ، فقد نزل الأشقر مع أمرائه من صِهْيَون إلى قلاوون ، فتعانقا وجلسا عند مشهد خالد بن الوليد ، وأقسما وتحالفا ألاّ يؤذيا بعضهما بعضاً ، ويعملا على دفع المغول ؛ فسُرَّ الجميع عندما رأوا السلطان يُعامل سنقر الأشقر هذه المعاملة الحسنة ، وضرَب له دهليزاً بجانبه [٥]. وفي دمشق توجّه عامة الناس بأطفالهم وشيوخهم إلى الجامع الأموي يدعون الله ويتضرعون إليه بتحقيق النصر على المغول [٦].

ثمّ رتّب قلاوون قوّاته ، فجعل الأمير عيسى بن مهنّا على رأس الميمنة وفيها أعراب الشام ، ومعه الأمراء : المنصور محمد صاحب حماة بعسكره ، وبدر الدين البيسري وطيبرس الوزيري وعز الدين الأفرم ولاجين نائب الشام ومعهم عسكر مصر

---

(١) بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، جـ٩ / ورقة : ١١٢ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٤/ ٩٠ .

* انظر : وصف دخولهم دمشق ؛ الفصل الثاني ، ص : ١٣٥ .

(٢) بيبرس المنصوري ، م.س ، جـ٩ ،ورقة / ١١٣ ؛ ابن الفرات ، تاريخه ، ٧/ ٢١٣ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٣ / ٦٩٠ .

(٣) الشدياق ، أخبار الأعيان في جبل لبنان ، ص : ٤٧ .

(٤) اليونيني ، م.س ، ٤/٩٠ – ٩١ .

(٥) ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص : ٢٤٢ ، وابن الفرات ، م.س ، ٧/ ٢١٣ .

(٦) اليونيني ، م.س ، ص : ٩٢ .

والشام. وأمّا أحمد بن حجي أمير آل مرا فإنّه ردَفَ الميمنة بفرسانه [١]. وأما الميسرة فقد عين لقيادتها سنقر الأشقر ومعه أمراءه وفرسانه ومن انضمّ إليهم من التركمان [٢]. وفي القلب الجاليش السلطاني ، وقد وقف فيه حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة ، وعدد من الأمراء المقرّبين ، ووقف السلطان تحت السناجق (الأعلام) وحوله ألف فارسٍ من مماليكه وأرباب الوظائف. وفي المقابل امتدّ عرض جيش منكوتمر أربعة فراسخ [٣] *.

وفي الخامس عشر من رجب سنة ٦٨٠ / ١٢٨١ ، نشب القتال الدامي بين الطرفين منذ الصّباح واستمر حتى المساء ، وقد تمكّنت الميمنة بقيادة عيسى بن مهنّا من كسر ميسرة المغول ، بينما تمكّنت ميمنة المغول من إلحاق الهزيمة بميسرة المماليك مع ثبات الأشقر والأمراء ، ولم يعلم الطرفان ما حصل. ثمّ مال ابن مهنّا على قلب قوات المغول وفيه منكوتمر الذي سقط جريحاً ، فحمله جنودهُ بعيداً عن أرض المعركة فاهتزّ جيش المغول واختلّت صفوفه [٤]. ثمّ ظهر ابن مهنا يدافع عن السناجق السلطانية وثبت معه سنقر الأشقر وكبار الأمراء. وكان أحمد بن حجي يضرب مؤخرة المغول وأطرافهم، فقتل من المغول أعداداً كبيرة [٥].

وفي صباح الجمعة السادس عشر من رجب ، أمر السلطان قلاوون بملاحقة فلول المغول ، فلاحقهم فرسان العرب يقتلون ويأسرون جنود المغول حتى الفرات. وهناك أضرموا النار في الأزوار ** ، فمات حرقاً من اختفى فيها من جند المغول [٦]. وأمّا فلولهم عند سلميّة ، فإن البدوي الواحد ، كان يقتل عشرةً من جنود المغول ، دون مقاومة. ومن دخل البادية من فلولهم تاهَ وماتَ عطشاً وجوعاً. ولذلك ، يقول

---

(١) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ١٥ ؛ والنويري ، نهاية الأرب ، ٣١/ ٣٣ .

(٢) النويري ، م.ن ، ص.ن .

(٣) الهمذاني ، جامع التواريخ ، مج٢ جـ٢ / ٨٣ .

* الفرسخ : ثلاثة أميال هاشمية ، والميل الهاشمي ٥٧٦٠ متراً . (المعجم المدرسي ، ص : ٧٩٣).

(٤) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٤/ ٩٣ ؛ أبو الفداء ، م.س ، ٤/ ١٥ ؛ ابن الفرات ، تاريخه ، ٧/ ٢١٨ - ٢٢٢ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٣ / ٦٩٣ .

- " ..... ولما مال التتار على ناحية جاليش القلب ، أشار السلطان إلينا بأن نردفه جميعاً ".

(بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة ، جـ٩ / ١١٤).

(٥) ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص : ٢٤٣ .

** الأزوار : جمع زارة ، وهي الأرض ذات المياه والحلفا والقصب.

(٦) العيني ، عقد الجمان ، ٣/ ٢٨٢ .

الهمذانـــي : " فُنيَ الجيش المغولي ولم ينج منه أحدٌ سوى منكوتمر وعدد من فرســـانه ، ومن كُتب له الحياة ..... " (١).

وفي الرحبة استقبل أباقا خان الأمير منكوتمر ، فوبّخه ولامه على الهزيمة وتمنـى موته مع من مات من المغول. ثمّ رحل إلى بغدادَ ومنها إلى همذان ليموت فيها مغمومـاً على هزيمة جيشه. وبعد عام مات منكوتمر متأثراً بجراحه (٢). بينما عـــاد المنصـور قلاوون منتصراً إلى دمشق وهي تحتفل بالنصر ؛ ثم سار إلى القاهرة فدخلها وقد تزيّنـت إحتفاءً بهذا النصر (٣).

هذا ، وقد أشاد غالبية المؤرخين الذين أرّخو لمعركة حمص بدور عرب آل فضل وآل مرا وبقيّة الأعراب الذين انضمّوا إلى المعركة ؛ وبالأميرين عيسى بن مهنّا وأحمـد بن حجّي. كما أكّدوا على إقدامهم الذي حسم المعركة لصالح قلاوون. وبهذا أثبت عرب الشام حضورهم العسكري والسياسي جنباً إلى جنب مع المماليك. وبفضل هذا التعـــاون أُبعد الخطر المغولي عن بلاد الشام ومصر إلى حين.

وبعد معركة حمص ، شهدت العلاقات المغولية – المملوكية انفراجاً مؤقتـاً بعـد مرحلة تأزُّمٍ استمرت أكثر من عشرين عاماً. ففي سنة ٦٨١ / ١٢٨٣ ، بـدأت صفحـة جديدة مـن هذه العلاقات عقب موت أباقا خان (أبغا) ، وتولّـى ابنـه تكـودار خـان (أحمد) * قيادة إيلخانات فارس (٤). فانتهج السلطان أحمد سياسة سِلْمِيّة (٥) ، لكنّها لم ترق لأمراء المغول فقتلوه سنة ٦٨٣ / ١٢٨٤ ، بسبب سياسته وإسلامه. ولمّا تولّى أرغـون ابن أباقا السلطة على إثر مقتل أحمد ، أعاد العلاقات إلى التأزّم من جديد (٦).

ورغم انشغال قلاوون بأمر الصليبيين في بلاد الشام ، إلاّ أنه ظلّ متيقّظاً وحَـذِراً إزاء تحركات المغول ، فلم يغفل عن مراقبة حدود بلاد الشـــام. والجديـر بـالذكر إنّ مصادرنا التاريخية صمتت عن أحداث هذه المرحلة بين المغول والمماليك ، بينما ركّـزت

---

(١) الهمذاني ، جامع التواريخ،مج٢ ج٢/ ٨٣ .

(٢) ابن الفرات ، تاريخه ، ٧/ ٢٣٤ .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٧/ ٢٣٥ .

* يُعَدّ تكودار خان أوّل من أسلم من أمراء المغول في فارس ، وتسمى باسم (أحمد).

(٤) ابن الفرات ، م.س ، ٨/ ٣ – ٤ .

(٥) جرت مكاتبات بين تكودار (أحمد) وبين المنصور قلاوون ، ويلخصها ابن الفوطي برســالة السـلطان أحمـد ..... " إن الله حبّانا بالإيلخاناة ، وأمر بالعدل وحقن الدماء ، فإن أردت الموادعة فنحن نكفّ عسكرنا عـن قصد بلادك ، ونفسح للتجار في السفر كيف شاؤوا آمنين ، فإن فعلت ذلك وإلاّ فعيّن للقتال موضعاً ، واعلـم أن الله يُطالبك بما يُسفك بيننا من دماء " فاســتجاب قـلاوون لعرضــه.

(الحوادث الجامعة ، ص: ٢٠٢ – ٢٠٣).

(٦) ابن الفرات ، م.س ، ٨ / ٣ – ٤ .

على أخبار الصليبيين ، وإعادة حصون جبال العلويين وسنقر الأشقر إلى الطاعة. لكن ابن عبد الظاهر ينفرد بذكر تلك الغارة التي قام بها (هبة بن عيسى بن مهنّا) أحد أمراء آل فضل ، على تجمعات المغول في آمد ونصيبين سنة ٦٨٤ / ١٢٨٥ ، وكان معه حشود من العربان ، فغنموا ما يزيد على ثلاثين ألف رأس من الأغنام والأبقار والخيول، وعادوا سالمين ، " فارتجت بلاد الكفار بهذه الغارة " [(١)].

ولم يكن المغول أقلّ انشغالاً من المماليك ، فشهدت دولتهم صراعاً دموياً على السلطة بعد مقتل السلطان أحمد. ورغم تلك الصراعات الدموية ، إلاّ أنّ أرغون خان ردّ على غارة عرب آل فضل ، فأرسل حملة عسكرية إلى الرحبة والرقّة * سنة ٦٨٥ / ١٢٨٦ ، لكنّهم لم يظفروا بأحدٍ من العربان وإن قتلوا خمسة رجال وسبوا إمرأة من الرقّة[(٢)].

ولمّا وردت هذه الأخبار إلى قلاوون ، فإنّه أمر حسام الدين طرنطاي ** نائب الشام بالإغارة على المغول في بغداد ، فسيّر طرنطاي جماعة من عرب آل فضل لاستطلاع حركة المغول في برية العراق ، وقد وصلوا عانة *** ؛ فلم يخرج أحد من عساكر المغول، وإنما تحصّنوا في قلعتها ، فساق العربان المواشي وعادوا إلى بلاد الشام[(٣)].

لكنّ العلاقات المغولية – المملوكية لم تهدأ بل استمر العداء في عهد الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ – ٦٩٣ / ١٢٩٠ – ١٢٩٣) ؛ فبقي يقظاً إزاء تحركات المغول لدرجة أنّه تطلّع إلى ضم العراق. فعندما أغار المغول على الرّحبة سنة ٦٩١ / ١٢٩٢ ، خرجت من دمشق تجريدة عسكرية إلى الرّحبة ، فلم تدرك أحداً من المغول[(٤)].

وبعد أن فرغ الأشرف خليل من الاستيلاء على عكا وبقية الحصون والمدن الساحلية من أيدي الصليبيين سنة ٦٩٠ / ١٢٩١ ، تطلّع إلى إنهاء الخطر

---

(١) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص : ١١١ – ١١٢ .

* الرُّقّة : مدينة مشهورة على الفرات من أرض الجزيرة الفراتية ، بينها وبين حرّان ثلاثة أيام.
(ياقوت ، معجم البلدان ، ٣/ ٦٧).

(٢) ابن عبد الظاهر ، م . س ، ص : ١٤٦ .

** قتلهُ الأشرف خليل خليل فيما بعد سنة ٦٨٩ / ١٢٩٠ . (ابن الفرات ، تاريخه ، ٨/ ٩٩ – ١٠١).

*** عانة : بلدة مشرفة على الفرات قرب الحديثة ، وهي بين الرقة وهيت ، وفيها قلعة حصينة.
(ياقوت ، م.س ، ٤/ ٨١).

(٣) ابن عبد الظاهر ، م.س ، ص ١٤٦ .

(٤) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٣ / ٧٧٧ .

المغولي – الصليبي المشترك الذي هدّد بلاد الشام ؛ فعزم على أخذ قلعة الروم التي كانت تحت حكم المغول على حدّ قول العيني [١].

ورغم أن قلعة الروم كانت أكبر قـــاعدة للأرمـــن وفيـــها كرســـي البطريـــرك (كيثاغيكوس)، إلاّ أن الظروف كانت مواتية للأشرف خليل بن قـــلاوون. فبعـــد مـــوت أرغون خان سلطان مغول فارس سنة ٦٩٠ / ١٢٩١ ، جاءت أعدادُ كثيرة من المغـــول إلى قلعة الروم ، واتفقوا مع الأرمن على قطع الطرق على المسلمين ، وقد تمكّنوا مـــن أسر أعداداً من التجار [٢]. فأصبحت هذه القلعة مصدر متاعب للمماليك. وقد ظهر ذلـــك من خلال الكتاب الذي أرسله قراسنقر الجوكندار نائب حلب للأشرف خليل بن قـــلاوون. فاستشار الأشرف أمراءه وبيّن لهم ضرورة قطع الطريق على المغول ، والبرهنة علـــى قوّة الدولة المملوكية ، فوافقوا على ذلك ، واعتبروها حرباً وقائية ضد المغول [٣].

ويمكن أن نستدل على القلق الذي أشغل السلطة المملوكية من خطر قلعة الـــروم ؛ وذلك من خلال الكتاب المطول الذي بعثه الأشرف خليل إلى قاضي قضاة دمشق يبشّـــره بسقوط قلعة الروم ؛ " ...... ولما أذن الله بالفتح الذي أغلق على الأرمـــن والتتـــار أبواب الصّواب ...... وما يكون بعد هذا الفتح إلاّ فتح المشرق والعراق .... " [٤]. وربّما يظهر ذلك القلق بصورة أكثر وضوحاً من خلال الكتاب المطول الذي بعثه علـــم الدين سنجر الشجاعي * نائب دمشق إلى قاضي القضاة نفسه بعد سقوط قلـــعة الـــروم ، ومما جاء فيه : " .... وكانت هذه القلعة للثغور الإسلامية بمنزلة الشجى في الحلـــق ، والغلّـــة في الصدر ، .... وقد سكن أهلها إلى مخادعة الجـــار وموادعـــة التتـــار وممالأتهم على الإسلام بالنفس والمال .... وفيها من التتار ما يفوق عـــدد الأرمـــن ... ." [٥]. كما أنّ نشوة النصر بفتح عكّا قد قوّت من عزيمة السلطان وأمرائـــه للاستيلاء على قلعة الروم.

ولمّا خرج الأشرف خليل بن قلاوون على رأس عسكر مصر والشام فـــي ربيـــع الآخر سنة ٦٩١ / ١٢٩٢ ؛ فقد اصطحب معه آلافاً من فرسان آل مهنّا وآل مرا وبنـــي

---

(١) العيني ، عقد الجمان ، ٣/ ١٢١ .

(٢) م.ن ، ص: ١١٠ .

(٣) م . ن ، ص : ١١١ .

(٤) ابن الفرات ، تاريخه ، ٨/ ١٣٨ .

* سنجر الشجاعي : من مماليك المنصور قلاوون ؛ تولّى الوزارة في عهده ثم عزله لظلمه سنة ٦٨٧ هـــ . ثمّ عيّنـــه الأشرف خليل نائباً في دمشق سنة ٦٩٠هـــ . قُتل الشجاعي في بداية سلطنة الناصر محمد بـــن قلاوون سنة ٦٩٣هـــ. (م.ن ، ص : ١٨٩).

(٥) ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص : ٣٢٩ – ٣٣٠ .

كلاب. وعندما قطع الفرات اتجاه قلعة الروم ، رتّب جماعة من آل مهنّا عيوناً على دروب الفرات ومخاضاته لمراقبة تحركات المغول ومنعهم من دخول بلاد الشام (١).

وعندما طال أمدُ حصار المماليك والأعراب لقلعة الروم ، لحقت بالعسكر مشقّةٌ بالغة ، وأصيبوا بالملل والتذمّر حتى لحق ذلك بالأشرف خليل الذي اقترح على قادته العسكريين أن يرحل ثمّ يعود لحصار القلعة في السنة القادمة. لكنّ رأي السلطان لاقى معارضة قوية من أمراء الجيش وعلى رأسهم سنقر الأشقر * ، وأجمعوا على الثبات حتى فتح القلعة (٢).

وأمام تلك الشدّة العصبية التي انتابت السلطان والأمراء ، وصل جماعة من عيون آل مهنّا وأخبروا السلطان بأنّهم رصدوا تومان (عشرة آلاف فارس) ، من المغول وقد عبروا الفرات ، وهم متجهون إلى قلعة الروم (٣).

وبعد مشاورات بين السلطان والأمراء ، استقر الرأي على تكليف عدد من الأمراء لاستطلاع أمر المغول ، فاختاروا : سنقر الأشقر ، وبكتاش الفخري أمير سلاح ، والأمير بيبرس المنصوري (المؤرخ) ، ومعهم ألفا فارس ، وآلاف من فرسان العرب لخبرتهم في المنطقة. ولما عبروا الفرات لم يدركوا المغول. ويؤكد بيبرس المنصوري ذلك ، فيقول : " وممّا اتفق ونحنُ نازلون في الحصار ؛ أشرفت من البرّ طائفة من التتار ، فجرّد السلطان من يكشف الخبر وأنا فيهم ، فسرنا في جرائد مجدّين يوماً وليلة فلم ندرك أثراً. ثمّ دارت الأيام ، فحضر بدر الدين جنكلي أحد أمراء المغول ، فحدّثني أنّه كان في ذلك اليوم في أولئك القوم وعدتهم عشرة آلاف فارسٍ صحبة مقدمتهم بيتمش. فلمّا شاهدوا الجيوش الإسلامية وقد ملأت السهول والجبال بادروا بالفرار " (٤).

---

(١) العيني ، عقد الجمان ، ٣/ ١١٤ - ١١٥ .

* سيكون هذا الموقف المعارض لرأي السلطان سبباً للقبض على سنقر الأشقر بعد عودته إلى القاهرة ، ليموت في سجنه سنة ٦٩٢هـ.

(٢) العيني ، م.س ، ٣/ ١١٣ .

(٣) العيني ، م.س ، ٣/ ١١٤ .

(٤) بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية ، ص : ١٣١ .

- يروي العيني رواية أخرى نقلاً عن "نزهة الناظر" لليوسفي : " ..... استنجدوا أهل القلعة بصاحب سيس الأرمني ، فألبس خمسة آلاف لباس المغول ، وطلبّ منهم أن يعبروا الفرات دون اقتتال مع المماليك حتى يتراءى لعربان الشام أنّهم عساكر المغول " . فلما رصد الأعراب حركتهم أخبروا السلطان. (عقد الجمان ، ٣/ ١١٥).

وبعد ثلاثة وثلاثين يوماً من الحصار سقطت قلعة الروم بيد المماليك والأعراب ، فأمر الأشرف خليل بتسميتها " قلعة المسلمين " [١]. وقبل رحيل جيش المماليك عنها ، أقام السلطان الأمير سنجر الشجاعي لتحصين القلعة ، وإصلاح ما خَرِبَ فيها. ثمّ عاد السلطان إلى القاهرة بعد أنْ رتّب أمور حلب ودمشق. ورغم هذا الانتصار ، لاحق السلطان الأمراء المنتصرين ، فاعتقل عدداً منهم وقتل آخرين. وقد امتدت يده إلى أمير العرب مهنّا بن عيسى وأولاده واخوته سنة ٦٩٢ / ١٢٩٣ – كما أسلفنا سابقاً – .

ولم تسمح حالة المغول بشنّ حرب على المماليك في عهد (كيختو) سلطان المغول الذي خلف أخاه أرغون ؛ فاتّخذت العلاقات المغولية – المملوكية صورة حرب دعائية. ففي سنة ٦٩٢ / ١٢٩٣ ، وصل رُسل كيختو إلى القاهرة حاملين رسالة شفوية للأشرف خليل بن قلاوون ، فقالوا له : " إنّ القان يريد الإقامة في حلب ، فإنّها ممّا فتحه أبوه هولاكو بسيفه ، وهي في مُلْكِه. وإنْ لمْ يسمح بذلك ، فهو يقصد العبور إلى الشام " [٢].

وقد ردّ الأشرف خليل بالجواب الآتي: " الحمد لله الذي وافق أخي القان ما كان في نفسي ، فكنت قد تحدّثتُ مع أمراء دولتي أن أسيّر طالباً بغداد من أخي. وإن لم يسمح ركبتُ ودخلت بعسكري وأخربت بلاده ، وقتلتُ رجالهُ ، وجعلت فيها نائباً فإنّ بغداد هي دار السلام ، وأرجو أنْ أعيدها كما كانت " [٣]. ورسم الأشرف خليل بأنْ يُكتب إلى سائر نيابات الشام بتجهيز الإقامات ، وللعسكر أن يجهّزوا أنفسهم لدخول الفرات وأخذِ بغداد.

على أنّ العلاقات بين المماليك والمغول لم تشهد انفراجاً بل مالت إلى التّوتّر رغم إعلان (غازان) سلطان المغول إسلامه ؛ فلم يَكُنْ لهذا أيّ أثرٍ في توطيد العلاقات مع المماليك ؛ بل سار في سياسة التوسّع التي انتهجها إيلخانات المغول السابقين مستغِلاً صراع أمراء المماليك على السلطة.

ففي سنة ٦٩٨ / ١٢٩٨ ، استعدّ غازان لغزو بلاد الشام ، فأنْفَذ سبعين ألفاً من قوّاته إلى إمارات التركمان والأرمن ليزيد من عدد قواته لاحتلال الشام. لكن الخلاف دبّ بين أمراء جيشه حين انشقّ الأمير سلامش بخمسة وعشرين ألفاً ، فلاحقهُ غازان وهزمه عند سيواس ؛ فهرب سلامش * إلى الناصر محمد بن قلاوون [٤].

---

(١) ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص : ٣٣٣ .

(٢) العيني ، عقد الجمان ، ٣/ ١٨٧ .

(٣) م.ن ، ص : ١٨٨ .

* قتله جماعة من المغول في حلب ، وهو عائدٌ لإحضار أهله وذويه.

(٤) ابن أيبك الدواداري ، م.س ، ص : ٨ – ١١ .

• المماليـــك وأعـــراب الشـــام فـــي معركـــة وادي الخزنـــدار (٦٩٩ / ١٢٩٩) :

عاد غازان وجهّز جيشاً جديداً من مائة ألف جندي سنة ٦٩٩ / ١٢٩٩ ، لاجتيـاح بلاد الشام. ولما وردت أخباره إلى القاهرة ، خرج الناصر محمد بن قـلاوون بأمرائـه والفُرقةُ بينهم حتى وصل إلى دمشق ؛ وفيها انضمّ إليه عُربان جنوب الشام والمتطوعـون من الأرياف. ولمّا عسكر الناصر في حمص استدعى مهنّا بن عيسى فحضر ومعــه آل مهنـا وآل فضل. ثمّ رتّب جماعات منهم لكشف أخبار غازان ، فعادوا وأخـبروه بـأنّ غازان نزل بقوّاته في مجمّع المروج (وادي الخزندار) قرب سلميّة ، فسـار السـلطان بقواته إلى المكان نفسه [١].

ولمّا ظهرت طلائع المغول ؛ قام أمراء الناصر محمد بترتيب القـوات ، فأقـاموا أمير العرب مهنّا بن عيسى وأخاه فضلاً في رأس الميمنة ومعهما آل مهنّا وآل فضل وآل مرا وآل علي وبنو كلاب وبقية العربان الذين انضموا للناصر محمد في دمشق. وتلاهما في الميمنة بُلبان الطبّاخي نائب عسكر حلب وحماة. ووقف في الميسرة بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح ، ومعه عدد من الأمراء ونواب الشام. وفي القلب ، وقـف بيـبرس الجاشنكير وسلاّر وبُرلغي وقطلو بك الحاجب. وجعلوا الأجنحة من المماليك السـلطانية يتقدّمهم خمسمائة من الزرّاقين *. وأما السلطان الناصر محمد ، فقد أبعدوه قليـلاً عـن قطاعات الجيش ومعه حسام الدين لاجين الاستادار ، كما أبعدوا عنه السناجق السـلطانية حتى لا يُعرف مكانه [٢].

ثمّ صدرت الأوامر للجنود والمماليك بأن يرموا برماحهم ويعتمدوا على الضّـرب بالسيوف والدبابيس ؛ كما طُلب من الزرّاقين الاستعداد لبدء الهجوم [٣]. وبالمقـابل فقـد طلب غازان من أمرائه وجنوده بعدم التحرك حتى يرى الواحد منهم غريمه يُقبل عليـه. وقصد من ذلك إضعاف خيل العربان والمماليك ، وأن يُمكّن رُماة السهام منهم ؛ ومن ثـمّ يحمل هو ويحملون معه حملة واحدة [٤].

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٣ / ٨٨٦ ؛ العيني ، عقد الجمان ، ٤/ ٨ – ٩ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨/ ١٢١ .

* الزرّاقون : هم النفّاطون الذين يحملون بأيديهم قوارير فيها مواد مشتعلة لرميها على الأعداء (زجاجات حارقة). (دهمان ، المعجم ، ، ص : ٨٥).

(٢) المقريزي ، م.س ، جـ١ ق٣ / ٨٨٦ ؛ العيني ، م.س ، ٤/ ١١ – ١٣ .

(٣) العيني ، م.س ، ٤/ ١٣ .

(٤) المقريزي ، م.س ، جـ١ ق٣ / ٨٨٧ .

وفي يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ربيع الأول ٦٩٩ / ١٢٩٩ ، نشبت المعركة بين الطرفين عندما اندفع الزرّاقون المماليك ، وحمل فرسان الميمنة على قوات غازان ، والخيول بقوة بأسها ؛ فلم يتحرك المغول من أماكنهم. فلما طالت المسافة بدأت القوارير النفطية تنطفئ ، كما أظهرت الخيل تقصيراً في عَدْوِها. وحين اقتربت الميمنة من قوات المغول ، حمل غازان وجنده حملة واحدة ، وكان يتقدمهم نحو عشرة آلاف من رماة السهام التي أصابت خيول العرب ، فسقط عنها الفرسان ؛ مما أحدث خَلْخَلَةً في الصفوف ، فهرب من استطاع من فرسان العرب وتبعهم جنود حلب وحماة ، وبذلك انهزمت ميمنة المماليك [1].

لكنّ ميسرة المماليك صدمت ميمنة المغول فتفرّق شملها ، وهُزِمت بعد أن قُتِل منها نحو خمسة آلاف مغولي. وكاد غازان أن يولي الأدبار ، لكن قُبْجُق * قوّى من عزيمته وثبّته حتى عاد إلى القتال ، وانضمّت إليه جموع المغول ، فحمل وحملوا معه حملة واحدة على ميسرة المماليك فتشتت شملها [2].

هكذا انتهت معركة وادي الخزندار ، ورحل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وانسحبت فلول جيشه دون نظام ، وتركوا وراءهم أثقالهم وأسلحتهم. وقد تعرّضت القوات المهزومة إلى الأهوال والأخطار وخاصة تلك التي سارت بمحاذاة الساحل متجهة إلى مصر فقد اعترضها عربان بعلبك وأهل جبال كسروان ، فكان خطرهم أشدّ من خطر المغول [3]. وأما الناصر محمد فقد رحل إلى حمص ومنها إلى بعلبك ثم إلى دمشق فالقاهرة. وعاد العربان إلى ديارهم.

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج١ ق٣ / ٨٨٧.

* قُبْجُق : مغولي الأصل ، وقع في الأسر بيد الظاهر بيبرس في أبلستين سنة ٦٧٥هـ ، فأعطاه لقلاوون. ولّي نيابة دمشق سنة ٦٩٦هـ ، ثم هرب إلى جهة المغول سنة ٦٩٨هـ ، فأكرمه غازان وأمّره. وقد أشار على غازان اجتياح بلاد الشام انتقاماً من المماليك ، فكانت معركة الخزندار. وكان يقول : لولاي لما قتل من المسلمين أحد ، ولولاي ما نجا منهم أحد. ثم عاد إلى طاعة الناصر بعد احتلال غازان لدمشق. وقد حضر موقعة شقحب سنة ٧٠٢هـ ، ومات سنة ٧١٠هـ. (ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٣/ ٣٢٥ – ٣٢٧).

(٢) العيني ، عقد الجمان ، ٤/ ١٥ .

(٣) ابن أيبك الدواداري ، الدر الفاخر ، ص : ١٦ – ١٧ ؛ البرزالي ، المقتفي ، ص : ٤٢ .

– ربّما كانت الهزيمة شديدة الأثر في نفوس المماليك ، فيروي العيني ، عن اليوسفي صاحب نزهة الناظر : عندما انسحب لاجين بثلاثة آلاف فارس ، تعقّبهم فارس مغوليٌّ و لم يلتفت إليه أحد ! لكنّ فارساً بدوياً أخذته الحميّة فصاح بهم ونبّههم بوجود رجلٍ واحد وليس ألف ، فلم يجبه أحد ؛ فلوى البدوي فرسه وكرّ على ذلك المغولي وهو يقول : الله أكبر ، فعاد المغولي و لم يدركه البدوي .(العيني ، م س ، ٤/ ٢٣).

وأما غازان فقد توقّف عن ملاحقة القوات المملوكية المهزومة ، ولعل قُبْجُقَ قد أشفق على السلطان والمماليك ، فأقنع غازان بعدم ملاحقتهم فربّما تكون مكيدة من المماليك ، فسمع رأيه وعاد إلى حمص ليستولي على الخزائن السلطانية [١].

ورُغم أن خسائر المماليك والعربان لم تتجاوز ألفاً وخمسمائة قتيل كما قدّرها ابن كثير [٢] ؛ إلاّ أن أثرها السياسي كان مُدمّراً. فقد تُركت دمشق بلا نائب ، كما تُركت بلاد الشام دون مدافعين عنها لتقع لُقمةً سائغةً بيد غازان. ولم يصمُدْ ببلاد الشام كلّها سوى قلعة دمشق *.

لذلك ، توجه غازان إلى دمشق ، واستولى عليها دون مقاومة ، بعد أن أعطى الأمان لأهلها [٣]. ولما لم يكن للمغول أمان ، فقد تعرّضت الصالحية * للنهب والسلب وهتك الحرمات وحرق المساجد. كما أرسل غازان أكثر من عشرين ألفاً من جنوده على أغوار الأردن وديار العربان ، حتى وصلت غاراتهم إلى غزّة ملحقة الخراب والدمار. وبعد أن جبى غازان من دمشق نحو ثلاثة ملايين من الدراهم خلال شهرين ؛ فإنّه رَحَلَ إلى بلاده ، وولّى قبجق نائباً لدمشق ، وقطلو شاه مقدّم العساكر. ولم يطل المقام بقطلو شاه بعد سيّده ، فرحل عن دمشق بعد أن حصل على الأموال التي طلبها [٤].

ولعلّ سرّ هزيمة المماليك والعربان في معركة وادي الخزندار يكمُن في ذلك الاختلاف بين أمراء المماليك وصراعهم على السلطة ، والسلطان لا حولَ له ولا قوّة بين هؤلاء الأمراء الكبار. لكنّهم عادوا إلى صوابهم ، فعملوا على تضميد الجراح والإصرار على محو تلك الهزيمة من النفوس. وكذلك ، فإن أمير العرب مهنّا بن عيسى لم تهدأ نفسه بعدُ من غَدْرِ الأشرف خليل ، كما أسلفنا سابقاً.

---

(١) ابن أيبك الدواداري ، الدر الفاخر، ص: ١٦-١٧ .

(٢) ابن كثير ، البداية ، ١٤/ ٤ .

* صمدت قلعة دمشق بفضل شجاعة نائبها (أرجواش المنصوري) ؛ وكان أصله من مماليك قلاوون ، فولاّه قلعة دمشق لإقدامه في المعارك. وظل يحصّن بقلعة دمشق فلم يقدر عليها أحد. وقد تحدى غازان وقبجق عندما جلس على كرسي بأعلى أبراج القلعة وخاطبهم بسهام ألف مدافع ، وقد سمع نصيحة أحمد بن تيمية : بألاّ يسلّم القلعة حتى وإن لم يبق فيها حجر واحد. (ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ١/ ٣٧١).

(٣) خرج علماء دمشق يتقدّمهم ابن جماعة ، وابن تيمية ، وقابلوا غازان بالسّبّك ،وطلبوا منه الأمان ، فأرسله لأهلها.

* الصالحية : قرية كبيرة في سفح جبل قاسيون المطلّ على دمشق .

(٤) البرزالي ، المقتفى ، ص : ٤٣ — ٥٧ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٣/ ٨٨٩— ٩٠٦ ؛ والعيني ، عقد الجمان ، ٤/ ٢٩ — ٤٥

هذا ، فقد اعتقد غازان أنّه قد ملّك بلاد الشام ، فقرّر العودة إليها ولم يمض سنة على دخوله دمشق. وحتى يؤكد قوّته وتفوّقها على المماليك ، فقد استعدّ لدخول بلاد الشام، فجهّز سبعين ألف جندي وعبر الفرات إلى الشام دون أن يعلم بوحدة الصف المملوكي.

فلمّا ورد خبر عبور غازان للفرات إلى بلاد الشام سنة ٧٠٠ / ١٣٠٠ ؛ سرعان ما خرجت قوات الناصر محمد بن قلاوون من القاهرة إلى بلاد الشام لمواجهة المغول. وقد قام أحمد بن تيمية بدورٍ ملموسٍ في تثبيت الناس ، وشحن عزائمهم ، وبث روح الجهاد في نفوسهم ضد المغول. وقد اجتمع ابن تيمية مع (الأفرم) نائب دمشق وحثّه على الجهاد وإبعاد المغول (١). كما خرج ابن تيمية والعلماء إلى الضمير شرقي دمشق ، وقصدوا أمير العرب مهنّا بن عيسى ، فوجدوه قد رحل ؛ فساروا خلفه حتى أدركوه في برّيّة الشام ، فاجتمعوا به ، وحثّه ابن تيمية على الرجوع والتعاون مع الأفرم ، والاستعداد لملاقاة المغول؛ فأجاب بالسمع والطاعة (٢).

ثمّ توجه ابن تيمية إلى القاهرة ، واجتمع بالناصر محمد بن قلاوون وأركان دولته ، وذكّرهم بالجهاد إلى درجة أنه خاطب السلطان الناصر والأمراء ، قائلاً : " إنْ كُنتم أعْرَضْتُم عن الشام وحمايته ، أقمْنا سلطاناً يحميه ويحوطه ويستغِلّه زمن الأمن ....." (٣).

فكان لهذا الدور الذي قام به أحمد بن تيمية أثره باستعداد دمشق والقاهرة لمواجهة غازان. لكنّ الأمطار والثلوج التي سقطت في شمالي بلاد الشام منعت غازان من الوصول إلى دمشق بعد أن فقد نحو عشرة آلاف فرس ، وتعرّض جنوده إلى الهلاك من شدّة البرد وندرة الأقوات (٤). كما وصل السلطان الناصر محمد بن قلاوون بقواته إلى غزة ثم العوجا * من فلسطين. وحين بلغه رحيل غازان عن شمالي بلاد الشام عاد إلى القاهرة ، وقد قاست قواته من البرد والثلوج أيضاً (٥).

---

(١) البرزالي ، المقتفي، ص : ٦٢ – ٦٧ .

(٢) م.ن ، ص : ٩٩ .

(٣) ابن كثير ، البداية ، ١٤/ ١٥ .

(٤) م.ن ، ص : ١٦ .

* العوجا : نهر بين أرسوف والرملة من أرض فلسطين.

(٥) العيني ، عقد الجمان ، ٤/ ١٢٦ – ١٢٨ .

• دور أعـــراب الشـــــام فـــي معركـــــة شقحـــب (مـــرج الصّفَّـــر)* (٧٠٢ / ١٣٠٣) :

حاول غازان سلطان المغول أن يستغل عامل الوقت في غزو بلاد الشام ، فأرسل كتابا إلى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠١ / ١٣٠٢ ، يعرض فيه الصلح بلغة التهديد، فجاء رد الناصر محمد مفندا لادعاءاته كلها (١).

وفي سنة ٧٠٢ / ١٣٠٢ ، وصل رسل غازان إلى القاهرة طالبين الصلـــح مـــن الناصر محمد ومهددين بقوة المغول ؛ فأعيد الجواب مع رسل النـــاصر محمـــد ، ولمـــا اجتمعوا بغازان سجنهم بعد المقابلة ، ولم يتمكنوا من العودة إلا بعد موته (٢).

ثم وصلت الأخبار إلى دمشق بدخول قطلو شاه ومعه خمسون ألفا إلى شمالي بلاد الشام ، وإن طائفة منهم تقدر بأربعة آلاف فارس تقدمت إلى منزلة عُرْض** ، فتصـــدى لها عسكر المماليك وعرب وآل فضل بألف وخمسمائة فارس ، وألحقوا بـــالمغول القتـــل لدرجة أنه لم ينج منهم أحد. وقد أرسلوا إلى دمشق مائة وثمانين أسيرا بعد أن قتل مـــن المماليك والأعراب نحو ثمانية وخمسين فارسا (٣).

وفي الوقت نفسه ، عبر غازان بثلاثين ألف فارس الفرات إلى الرّحبة ، فما كـــان من علم الدين سنجر الغتمي نائب الرحبة إلا أن استقبله ولاطفه ، ثم أقنعه بعـــدم قدرتـــه على المقاومة ، فنجت الرّحبة من التدمير والتخريب (٤). ومن الرّحبة أرسل غازان كتابا إلى الأفرم نائب دمشق ، يحثه على الطاعة ، وأن يكون نائبه بدمشق. وقد قصد من ذلك إحداث انقسام في جبهة المماليك وبث الفرقة بين دمشق والقاهرة ؛ لكنّ طلبـــه لـــمْ يلـــقَ استجابة من الأفرم. وعندئذ عزم غازان على الرحيل إلى بغداد ؛ فأمر قطلو شاه بـــالتّقدّم إلى دمشق واحتلالها ، وأمده بعشرين ألفا من قواته. فاندفع قطلو شاه حتى وصـــل إلـــى مرج راهط شرقي دمشق ، وامتد انتشار قواته حتى حرســـتا وعربيـــل – مـــن قـــرى

---

* مرج الصّفَّر : سهل واسع جنوبي دمشق ، يمر فيه نهر الأعوج ، ويبعد عن دمشق خمسة وعشرون كيلو مـــترا، وتقع إلى الغرب منه قرية صغيرة تعرف باسم شقحب ، ويشرف تل غباغب على مرج الصفـــر. (محمد دهمان ، ولاة دمشق ، ص : ٩٢).

(١) عن نص كتاب غازان وردّ الناصر محمد عليه ، انظر : المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٣ / ١٠١٦ – ١٠٢٣ .

(٢) العيني ، عقد الجمان ، ٤/ ٢٠٨ .

** عُرْض : بلدة صغيرة في برية الشام ، تدخل في أعمال حلب ، وتقع بين تدمر والرصافة. (ياقوت ، معجم البلدان ، ٤/ ١١٦).

(٣) البرزالي ، المقتفي ، ص : ٨٦ .

(٤) العيني ، م.س ، ٤/ ٢١٠ .

دمشق[١]. والجدير بالذكر أن أخبار تحرّكات قطلو شاه كـانت تصـلُ أولاً بـأوّلٍ إلـى المماليك منذ خروجه من حمص حتى وصوله مرج راهط ، وذلك عن طريق العربـان المكلّفين بذلك.

وأمّا السلطان الناصر محمد بن قلاوون فقد عزم على الخروج من مصـر إلـى الشام، فأرسل طلائع قوّاته إلى دمشق ، وطلب من نواب الشام مشاغلة المغول إلى حين وصوله. فتجمّعت عساكر النوّاب في الكسوة ، واستدعوا أمراء أعراب الشام ، فلم يتأخر أحد منهم. ورتّبوا جماعات من الأعراب لمراقبة تحركات قطلو شاه واستعداداته شـرقي دمشق ؛ كما بعثوا بآخرين إلى الفرات لكشف أخبار العدو. وقد استقرّ رأيـهم علـى أن يكون مكان اللقاء في مرج الصُّفّر عند شقحب جنوبي دمشق [٢].

وفي دمشق ، انتشرت الفوضى بين الأهالي من شـدّة خوفـهم لعـدم حضـور السلطان. وقد قام الشيخ أحمد بن تيمية بطمأنة الأهالي ، وعمل على بـث روح الجـهاد بينهم ، وقوّى من عزائمهم حتى عاد الكثير ممن كان يعتزم الهرب ، ثم انتقل ابن تيميـة إلى الكسوة وقام بالدور نفسه بين الأمراء والجند المماليك [٣].

ومن جانب آخر ، أرسل الأمراء أحمد بن تيمية ليَستَحِثّ السلطان علـى سـرعة الوصول إليهم ؛ فالتقى به في طريق مصر ، ووجَدَه قَدْ انثنى عزمه فشـجّعه ، وذكّـره بالجهاد ولقاء الأعداء ؛ وبيّن له بأنّ النصر سيكون حليفه هذه المرة ، فأثّرت به كلمـات ابن تيمية ، وسارا حتى وصلا شقحب في مسـتهلّ رمضـان سـنة ٧٠٢ / ١٣٠٣ [٤]. ويذكر ابـن إيـاس بأن السلطان الناصر محمد حضر بجيش جرّار من المماليك وعربان الشرقية مـن مصـر. كما انضمّ إليه عربان غزّة ونابلس وهو في الطريـق ؛ وقـدّر عـدد جيشـه بمائتـي ألـف جندي [٥].

وقد كان لوصول السلطان الناصر محمد إلى شقحب أثرٌ طيّبٌ في نفوس الأمراء ؛ فباشروا في ترتيب كتائب الجيش. ولما بدأوا بإبعاد السلطان عن القلب – كما حصل فـي موقعة الخزندار – فإن السلطان لامهم ، وأصرّ على تولي قيادة القلب بلوائه ، لدرجة أنّـه

---

(١) العيني ،عقد الجمان ، ٤/ ٢١١ – ٢١٦ .

(٢) ابن أيبك الدواداري ، الدر الفاخر ، ص : ٨٣ ؛ العيني ، م.س ، ٤/ ٢٢٢ – ٢٢٣ .

(٣) العيني ، م.س ، ٤/ ٢٢٤ .

(٤) ابن كثير ، البداية ، ١٤/ ٢٥ .

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق١ / ٤١٣ .

طلب تقييد فرسه ، وطلب من أحمد بن تيمية أن يقف عن يمينه * ، والخليفة عن يساره. ووقف معه من الأمراء : سلاّر والأقرم وبيبرس الجاشنكير [(١)].

وأمّا رأس الميمنة فأعطيت للأمير لاجين الاستادار ومعه عدد من الأمراء. وفي جناحها الأمير قبجق بعسكر حماة وعدد من أعراب الشام. وفي الميسرة ، الأمير بكتاش الفخري أمير سلاح ، وقراسنقر الجوكندار نائب حلب ، وأمير العرب مهنّا بن عيسى ومعه عرب آل مهنّا وآل فضل ، والأمير بيبرس المنصوري (المؤرخ) [(٢)].

وأما قوّات المغول فكانت تُعسكر في تلّ غباغب ، فلمّا عاين قطلو شاه مقدّم المغول المرج وجده مكتظّاً بجيش المماليك لدرجة يكاد لا يتّسع لهم ؛ فقصد ترتيب قوّاته بأن " يجعل مقابل كلّ موكب موكباً " ، لكنه رأى ميسرة المماليك التي كان فيها مهنّا بن عيسى وفرسانه قد سيطرت على مجرى النهر الكبير ** ؛ ويصعب الوصول إليهم. فاختار مخاضة في النهر وعندها ميمنة المماليك ، فاستقر الرأي النزول دفعة واحدة ، والمرور من تلك المخاضة ، وكسر ميمنة المماليك [(٣)].

وبعد عصر يوم السبت ثاني أيام رمضان سنة ٧٠٢ / ١٣٠٣ ، نشبت المعركة وكادت ميمنة المماليك تنكسر ، لكن القلب والميسرة أردفاها بالفرسان. ولم يتوقّف القتال إلاّ بحلول الظلام ، فانسحب المغول إلى التلال. فأقدم المماليك على تطويق التلال ؛ وظلّت الكوسات تدقّ والآلات تزعق حتى الصباح. وفي اليوم الثاني فتحت ميسرة المماليك فَرْجة على النهر لمرور المغول منها ؛ فمرّ جوبان بعشرين ألفاً ، وتلاه قطلو شاه بخمسين ألفاً ؛ ولم يكن مرورهم من النهر سهلاً ، ففقدوا خيولاً عديدة ، ولم يبق أمامهم إلاّ الفرار ، فكانت الهزيمة عندما أطبقت عليهم قوات المماليك والأعراب. وقد صدر المرسوم السلطاني بتتبع فلول المغول حتى الفرات. وفي البادية الشامية تَلقّفَتْهُمْ أيدي العربان لدرجة أنّهم فقدوا نصف جيشهم ، حيث مات الكثير منهم عطشاً وجوعاً [(٤)].

ويلخّص ابن سباط ذلك بقوله : " حين انهزمت التتار لاحقتهم عساكر المماليك ،

---

* اعتذر أحمد بن تيمية للسلطان قائلاً : السُّنّة أن يقف الرجل تحت راية قومه ونحن من جيش الشام.

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٣ / ٩٣٢ .

(٢) بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية ، ص : ١٦٥ - ١٦٦ ؛ العيني ، عقد الجمان ، ٤/ ٢٣٢ - ٢٣٣ .

** هو النهر الأعوج الذي ينبع من السفح الشرقي لجبل الشيخ.

(٣) العيني ، م.ن ، ص : ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٤) استفاضت المصادر المملوكية بوصف أحداث المعركة ؛ انظر :

بيبرس المنصوري ، م.س ، ص : ١٦٦ - ١٦٨ ؛ ابن أيبك الدواداري ، الدر الفاخر ، ص : ٨٤ - ٨٨ ؛ البرزالي ، المقتفي ، ص : ٩٢ - ٩٣ ؛ المقريزي ، م.س ، جـ١ ق٣ / ٩٣٣ - ٩٣٥ ؛ وابن كثير ، البداية ، ١٤/ ٢٥ - ٢٦ .

وفرسان العرب ، واشترك العربان في قطع الطرق على التتار ، فأسروا وقتلوا جماعاتٍ كثيرة منهم " [١].

وفي الرابع من رمضان ، دخل شيخ الإسلام أحمد بن تيمية إلى دمشق فاستقبله الناس بالدعاء. وتبعه السلطان والأمراء ، فاستقبلوا استقبال الفاتحين. ثمّ أعاد السلطان ترتيب أوضاع النيابات الشامية ؛ وبعث إلى غازان سلطان المغول ، يُحقّر من شأنه ، ويطلب منه الجلاء عن العراق ، ويتوعده بالحضور ليُقصيه عن البلاد [٢].

وقد ظلّ السلطان الناصر محمد بن قلاوون في دمشق حتى شهد عيد رمضان ؛ ثمّ عاد إلى القاهرة وهي تحتفل بالنصر بأجمل حُللها ، بينما كان غازان يتجرّع مرّ الهزيمة ، فمات مغموماً سنة ٧٠٣ / ١٣٠٤ .

وبعد هذا ، يمكن أنْ نتلمّس تلك العوامل التي ساهمت في تحقيق هذا النصر الذي أحرزه المماليك وأعراب الشام ومصر في موقعة مرج الصُفّر ، على النحو الآتي :

- وحدة الصف بين أمراء المماليك واجتماعهم على كلمة واحدة وهي الرغبة الصادقة بمحو آثار هزيمة موقعة الخزندار قبل ثلاث سنوات.

- مشاركة أعراب الشام ومصر في المعركة ، وإصرارهم على طرد المغول ، واستمرارهم بالسهر على حماية حدود بلاد الشام من الخطر المغولي.

- كان لكلمة الجهاد الأثر الواضح في نفوس المقاتلين ، فأحسن ابن تيمية توظيفها بين الأهالي والعربان والمماليك بدءاً بالسلطان ؛ حتى إنّه كان يتنقّل في أرض المعركة بين الأمراء والجند وهو يتلو آياتٍ من القرآن الكريم تلك الآيات التي تحضُّ على الجهاد ؛ كما أفتى لهم بالإفطار في رمضان فكان يأكل أمامهم ويذكّرهم بالسلف الصالح.

- الفداء والتضحية الذي أبداه الأمراء والجند ، فكان " لاجين " أول من استلّ سيفه وسقط صريعاً في أرض المعركة ومعه عدد من الأمراء. كما سقط ألف وخمسمائة من المماليك السلطانية ، وآلافٍ من فرسان العرب.

- اعتقاد قطلو شاه مقدم المغول بأن اللقاء مع عسكر الشام ، لكنه فوجئ بالسلطان وعسكر مصر ، فخارت عزيمته وفكر بالهزيمة منذ بداية اللقاء ، لكن القيادة المملوكية لم تمكّنه من ذلك إلاّ بأفدح الخسائر .

---

(١) ابن سباط ، صدق الأخبار ، ٢/ ٥٧٩ .

(٢) مغلطاي ، تاريخ سلاطين المماليك ، ص : ١١٨ – ١٢١ .

- ملاحقة عُربان الشام لفلول المغول في البادية ، وتتبعهم أسْراً وقَتْلاً حتى حدود الفرات.

• موقف أعراب الشام من العلاقات المغولية - المملوكية بعد موت غازان :

ظلّت العلاقات المغولية – المملوكية تتراوح بين التوتر والانفراج بعد موت غازان حتى انعقد الصلح بينهما سنة ٧٢٠ / ١٣٢٠ . فقد بدأ خدا بندا * سلطان المغول الجديد عهده بطلب الصلح من الناصر محمد بن قلاوون سلطان المماليك ؛ فأوفد السفراء للقاهرة ، وخاطبه بالأخوّة ونسيان الماضي ، فقد " عفا الله عمّا سلف ، ومن عاد فلينتقم الله منه ..... "(١). فأجابه الناصر محمد بحذر وبعث إليه الهدايا مع الرُسُل (٢). وما أن اتّبع خدا بندا المذهب الشيعي سنة ٧٠٧ / ١٣٠٨ ، حتى غيّر من سياسته إزاء المماليك السُنّة (٣).

ورغم انشغال السلطة المملوكية بمشاكلها الداخلية ، فإن عيون عربان الشام لم تَغْفل عن مراقبة حدود الفرات ؛ فقد أغار سليمان بن مهنّا بفرسان آل فضل سنة ٧١١ / ١٣١١ ، على تجمّعات المغول ما بين (هيت وتكريت) في العراق ، فقتل أعداداً منهم وأسَر آخرين ؛ واستاق إبلاً وخيلاً ؛ ثمّ حضر إلى القاهرة ومعه أسرى المغول ، فأكرمه الناصر محمد وغمره بالعطايا والأموال (٤).

لكنّ المغول استأنفوا الهجوم على بلاد الشام ؛ ففي سنة ٧١٢ / ١٣١٢ ، قاد خدا بندا جيشهُ ونزل على الرّحبة بتحريض من (قراسنقر والأفرم) ، فحاصروها نحو شهر ،

---

* خدا بندا (أولجايتو) : هو محمد خدا بندا بن أرغون بن أباقا بن هولاكو ، سلطان مغول فارس (٧٠٣ – ٧١٦هـ).
- يذكر ابن بطوطة أن ضبط اسمه مُختَلَفٌ فيه ، وخدا بالفارسية (اسم الله) و(بنده) عبد أو غلام ، فيكون معناه : عبد الله . وقال أن اسمه " خَرْ بنده " ومعناه : غلام الحمار ، وهو المشهور هناك. (رحلة ابن بطوطة ، ١/ ٢٤٥ – ٢٤٦).

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق١ / ٦ .

(٢) العيني ، عقد الجمان ، ٤/ ٣٤٥ .

(٣) العزاوي ، العراق بين احتلالين ، ١/ ٤٠٧ .

(٤) بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية ؛ ص : ٢٣٢ ؛ والمقريزي ، م.س ، ص : ١٠٦ .

ثمّ رحلوا عنها إلى بغداد لأنّ قلعتها عصت عليهم ، كما عانى جنودهم من البرد والمطر ، إضافة إلى وصول الناصر محمد بقواته إلى دمشق (١).

وبعد موت خدا بندا سنة ٧١٦ / ١٣١٦ ، انشغل مغول فارس بوراثة العرش بسبب تولي (بو سعيد) * بن خدا بندا سلطنة المغول وعمره لم يتجاوز ثلاث عشرة سنة؛ وأصبح جوبان مدبّر مملكته (٢).

وأما الناصر محمد بن قلاوون ، فقد ظلّ يُكنُّ العداء والبغضاء لمغول فارس بسبب إيوائهم قراسنقر والأفرم ومن يلتجئ إليهم من أمراء المماليك والعرب ، كما أسلفنا في حركة قراسنقر . فكان يُرسل (الفداوية – الإسماعيلية) ** لاغتيال الأمراء المماليك الخارجين عن الطاعة. ففي سنة ٧٢٠ / ١٣٢٠ ، أرسل الناصر محمد ثلاثين (فداوياً) من قلعة (مصياف) *** إلى مُراغة وتبريز وشيراز في إيران لتصفية قراسنقر ومن تبعه من الأمراء المناوئين مما أدّى إلى شيوع الخبر هناك بأنّ قصد هؤلاء هو اغتيال (بو سعيد) وكبار رجال دولته ، فاحترسوا جميعاً على أنفسهم (٣).

ولمّا كان إسماعيل السلاّمي**** يعمل على تقريب وجهات النظر بين المغول والمماليك عن طريق جوبان ، فإن جوبان أنكر عليه تصرّفات السلطان الناصر محمد

---

(١) أبو الفداء ، المختصر ، ٤/ ٧٠ ؛ وابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ٢/ ٤٥ .

* بو سعيد (٧١٧ – ٧٣٧هـ) : هو اسم علم دون ألف بأوّله كما رآه الصفدي في المكاتبات مع الناصر محمد بن قلاوون

(٢) جوبان النوين ، هو نائب السلطنة ، زوّج ابنته إلى بو سعيد ، لكنه قتله سنة ٧٢٨هـ ، وعمره ستين سنة ، ودفنته ابنته في البقيع بالمدينة المنورة.

(ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٢/ ٧٨ – ٧٩).

**الفداوية ، هم طائفة من الإسماعيلية الذين ينسبون أنفسهم إلى (إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب). وهم فرقة من الشيعة ، وسُمّوا بالفداوية لأنهم يُفادون بالمال من يقتلونه. ويُسمّون في بلاد العجم بالباطنية لأنهم يُبطنون مذهبهم ويُخفونه. ولهم سبع قلاع بين حمص وحماة متصلة بالبحر على القرب من طرابلس ، وهي : مصياف ، الخوابي ، القدموس ، الكهف ، العليقة ، الرصافة ، والمينقة . وتعرف بقلاع الدعوة .

(القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١/ ١٥٤ – ١٥٨).

*** مصياف (مصياب) : حصن مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس .

(ياقوت ، معجم البلدان ، ٥/ ١٦٨).

(٣) المقريزي ، السلوك ، جـ٢ ق١ / ٢٠٧ .

**** هو مجد الدين إسماعيل بن محمد بن ياقوت السلاّمي ، كان تاجراً خاصاً في دولة الناصر محمد بن قلاوون ، فيدخل بلاد المغول ، ويعود بالرقيق ؛ وفي الوقت نفسه كان سفيراً للسلطان. توفي سنة ٧٤٣هـ .

(ابن حجر ، د.ك ، ١/ ٤٠٧).

قائلاً : " ويلك ! أنتَ كلّ قليل تُحْضِرُ لنا هديّة ، وتريد منّا أن نكون متّفقين مع صاحب مصر لِتمكُر بنا حتى تقتلنا الفداوية - الإسماعيلية " (١).

لكنّ إسماعيل السلاّمي ظلّ يحاول مع جوبان حتى تمكّن من إقناعه بإجراء الصلح مع المماليك. فلمّا وصلت رُسُل بو سعيد إلى القاهرة سنة ٧٢٠ / ١٣٢٠ ، عرضوا شروط الصلح على الناصر محمد ؛ وأهم ما تضمّنته :

- ألاّ تدخل الفداوية - الإسماعيلية إلى بلاد المغول.
- أن تتوقف غارات أعراب الشام على بلاد المغول.
- عدم المطالبة بقراسنقر والأفرم.
- فتح طرق التجارة بين بلاد المغول ودولة المماليك.
- أن يسير محمل الحاج العراقي والشيرازي إلى الحجاز كلّ سنة رافعاً علم السلطان الناصر محمد بن قلاوون.(٢)

ولمّا وقف الناصر محمد على هذه الشروط ، استشار الأمراء والعلماء ، فأشاروا عليه بإقرار أمور الصلح حسب الشروط السابقة. فكتب الجواب بالموافقة إلى بو سعيد سلطان المغول ، وأشار إلى عرب آل عيسى (٣) " ..... إنّ عرب آل عيسى قد كَثُر فسادهم في البلاد ، وخرجوا عن طاعتي ، وقد أخْرَجْتَهُم من بلادي ، وأريدُ ألاّ تمكّنوهم من الدخول إلى بلادكم. فأنا أُخْرِجُ عسكراً من عندي ، وأنتم اخرجوا عسكراً من عندكم ، فنشيل سائر العرب ..... " (٤).

يتبيّن أن الناصر محمد بن قلاوون قد عجز عن إرضاء عرب آل مهنّا وآل فضل، أو استيعابهم في دولته بعد فرار قراسنقر. ورغم وسائل الترغيب والترهيب التي بذلها في إقناع مهنّا بن عيسى بتسليم قراسنقر ، إلاّ أنّه أخفق في ذلك كما أسلفنا سابقاً. ولمّا علم الناصر محمد بمنح بو سعيد إقطاعاً إلى مهنّا بن عيسى في الحلّة من العراق ، قطع خُبْز مهنّا بن عيسى وطرده من سلميّة والشام ، فرحل إلى بريّة العراق سنة ٧٢٠ / ١٣٢٠ ، قبل إجراء الصلح. ومع ذلك ، ظلّ الناصر محمد حريصاً على أولاد مهنّا وأقاربه ، ولم يُفرط بآل مهنّا فمثلهم لا يفرّط بهم.

وأما بو سعيد سلطان مغول فارس ، فقد خشي من مهنّا بن عيسى على مصير الصلح الذي أجراه مع الناصر محمد ؛ فقد سرت شائعة بين حُسّاد مهنّا من كبار رجال

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج٢ ق٢٠٧/١ .

(٢) م.ن ، ص: ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٣) م.ن ، ص : ٢١٠ .

(٤) العيني ، عقد الجمان ، مخطوط جـ٢٢ ، ورقة ٢٢١ .

دولة بو سعيد بأنّ مهنّا ما حضر إلاّ لتحريض بو سعيد على أخذ بلاد الشام. فلمّا قابل سلطان المغول ، سأله عن سبب حضوره ، فقال مهنّا : " نحن أناسٌ عربٌ ، وعلينا طاعة مفروضة للملوك ، ورأينا من سلطاننا أمراً فخشينا عاقبته ، فخرجنا عن طاعته ، فسيّر يقول : أخْرج من بلادي ؛ فخرجتُ إلى بلادك ، ونزحتُ عن طاعته ، فإن قبِلتنا أقمنا ، وإن كُنتَ تكره وجودنا رحلْنا عَنك ، فالبَرُّ للبدويّ متّسع. فقال له بو سعيد : البلاد بلادكم، وحلّت بك البركة " (١).

ولمّا استشار بو سعيد الأمير مهنّا بن عيسى بالإبقاء على الصلح مع الناصر محمد أو نقضه ومهاجمة بلاد الشام ، قال له مهنّا : " اعلمْ أنّ ما عند العرب أصعب من الكذب، والكذب يتبعه الغدر وأنتم بينكم أيْمان ، ومن غَدَرَ صاحبه نصره الله عليه بغدره له " (٢).

ومَرةً أخرى تبرز حنكة الأمير مهنا وتمرّسه بأخلاق القادة ، فأجاب بو سعيد الجواب اللائق بالسلاطين ، لكنّه لم يوافقه على الغدر من حيث المبدأ ، ولا مهاجمة وطنه بلاد الشام. كما أن هذا الموقف يشير إلى حرص سلاطين المغول على مصادقة العرب كورقة سياسية يمكن الضغط بها على سلاطين المماليك وقت الأزمات.

وبهذا الصلح ، استمرت العلاقات الهادئة بين المغول والمماليك حتى وفاة بو سعيد سلطان المغول سنة ٧٣٦ / ١٣٣٥ . فبعد وفاته ، انشغل مغول فارس بمشاكلهم الداخلية. ولم تعد دولتهم قادرة على توسيع رقعتها على حساب بلاد الشام. كما أنّ موت قراسنقر سنة ٧٢٧ / ١٣٢٧ ، ثم عودة الأمير مهنّا بن عيسى إلى الطاعة ، قد أراحت الناصر محمد بن قلاوون ، وساهمت باستمرار الصلح مع المغول.

• موقف أعراب الشام من العلاقات المغولية – المملوكية في عهد دولة المماليك الجراكسة :

ظلّت العلاقات بين المغول والمماليك في ركودٍ لانشغال كلّ منهما بمشاكله الداخلية بعد وفاة بو سعيد سلطان المغول ، ومن بعد الناصر محمد بن قلاوون سلطان المماليك. لكنّ خطر المغول ظهر من جديد على بلاد الشام بعد فترة طويلة وذلك بظهور تيمور لنك* ونزعته التوسعية. وما كاد تيمور لنك يحتلّ الرُّها وملطيّة ، ويحاصر ماردين سنة

(١) اليوسفي ، نزهة الناظر ، ص : ١١ .

(٢) م.ن ، ص : ٢٠٢ .

* تيمور لنك ؛ هو تيمور بن تُرْغاي بن أبْغاي ؛ وتيمور تعني الحديد. وُلد تيمور سنة ٧٣٦ / ١٣٣٥ ، في قرية تسمى خواجا أليغار (المدينة الخضراء) من عمل كيش في بلاد ما وراء النهر. وينتمي تيمور إلى فرع (كركن) وتعني صهر الملوك ، وهي من قبيلة (برلاس). ولقب (لنك) أي الأعرج.–

١١٨٧/٧٨٩ [١] ، حتى أرسل الظاهر برقوق حملة عسكرية للدفاع عن حلب لدرجة أن جيشه تصدى لقوات تيمور لنك وأبعدها عن ماردين [٢].

وقد ازداد خطر تيمور لنك على بلاد الشام بعد احتلاله بغداد سنة ٧٩٥ / ١٣٩٣ ، وهروب سلطانها أحمد بن أويس * إلى الرّحبة. ثمّ حاول تيمور لنك استمالة أمير العرب نُعير بن حيّار ، فأرسل له خلعة مع رسله ، فلبسها نُعير وشكر تيمور لنك [٣].

ولمّا وصل أحمد بن أويس إلى الرحبة ، استقبله نُعير بن حيّار بألفين من فرسان العرب ، واستضافه في دياره وأكرمه وأمّنه على نفسه ومن بصحبته ووعده بالحماية. ثمّ كَتَبَ إلى الظاهر برقوق يُعلمه بالأمر ، فجاءه الردّ بإكرام أحمد بن أويس وتأمين حياته ومرافقته إلى حلب [٤]. وبالوقت نفسه بعث الظاهر برقوق إلى جلبان نائب حلب يأمره باستقبال ابن أويس وتجهيزه إلى القاهرة. فخرج أحمد بن أويس وبرفقته نُعير بن حيّار إلى حلب ، ودخلاها بأحسن صورة [٥].

وفي القاهرة ، استقبل الظاهر برقوق السلطان أحمد بن أويس أحسن استقبال ، ووعده بالمساعدة وإعادته إلى عرشه في بغداد ، والانتقام من تيمور لنك [٦].

وأما نُعير بن حيّار ، فقد ظلّ متيقّظاً لخطر المغول وغدر تيمور لنك ، فما أن رحل تيمور لنك عن بغداد سنة ٧٩٦ / ١٣٩٤ ، إلى الشرق لظروف استدعته هناك ، حتى توجّه نُعير بآلافٍ من فرسانه إلى بغداد ، فدخلها بقوة السيف ، وأقام فيها الخطبة باسم الظاهر برقوق ، وأثبت ذلك في محضر وأرسله مع ابنه عمر إلى القاهرة ؛ فاستقبله برقوق بالريدانية وأكرمه ووعد والده خيراً [٧].

= توفي في أنزار على نهر (حاكسارتس) سنة ٨٠٧ / ١٤٠٥ ، وله من العمر إحدى وسبعون سنة. (ابن عربشاه ، عجائب المقدور ، ص : ٣ ، ٦ ، ٢٥٤).

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق٢ / ٣٨٦ .

(٢) ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣/ ٢٦٠ .

* أحمد بن أويس بن الشيخ حسن بن حسين بن أقبغا الجلائري من نسل هولاكو ، صاحب بغداد وتبريز. استولى على السلطة بعد أن قتل أخيه حسين سنة ٧٨٤هـ . ومات أحمد مقتولاً سنة ٨١٣هـ. (ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٦٢٧).

(٣) ابن قاضي شهبة ، م.س ، ص : ٤٧٩ .

(٤) ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٩ ق٢ / ٣٤٥ ؛ والمقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٧٨٩ .

(٥) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٤٥٣ ؛ وابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ١/ ٣٦٤ .

(٦) ابن الفرات ، م.س ، ص : ٣٦٦ – ٣٦٧ ؛ وابن قاضي شهبة ، م.س ، ٣/ ٥٠٤ – ٥٠٥ .

(٧) ابن الفرات ، م.س ، ص : ٣٦٩ ؛ المقريزي ، م.س ، جـ٣ ق٢ / ١١١ ؛ وابن حجر ، م.س ، ١/ ٤٧٥ .

وبعد أن أكمل برقوق تجهيز أحمد بن أويس بالرجال والمال والسلاح والخيل والجمال، سارا إلى دمشق ، ثم ودّعه بمثل ما استقبله. وقد بقي برقوق في دمشق حتى اطمأنّ على دخول أحمد بن أويس بغداد ، وتمكُّنه من طرد حاكمها مسعود الخراساني الذي عيّنه تيمور لنك [١]. والجدير بالذكر ، أنّ الظاهر برقوق استقبل في دمشق رُسل خان بلاد القبجاق ، ورُسل بايزيد الأول سلطان العثمانيين ، وقد تلقى منهما عروض التأييد لمواجهة خطر تيمور لنك [٢]. كما اطمأن برقوق على قوة الجبهة الداخلية في بلاد الشام ، وأرسل خلعة إمرة العرب إلى نُعير بن حيّار في سلميّة ، واستقبل أمراء عربان الشام وقد عسكرت قواتهم في حوران قرب دمشق [٣].

يتبيّن من هذه الأحداث ، أنّ نُعيراً لم يُغضب تيمور لنك حينما قبل خلعته ولَبِسها ، لكنّه خيّب ظنّه عندما استقبل أحمد بن أويس ووفر له كلّ ما يحتاجه كما أغار على بغداد. وبهذا ، يكون نُعيراً قد دللّ على تماسك جبهة بلاد الشام ومصر أمام تيمور لنك؛ كما سعى لإثبات حسن نيّته للظاهر برقوق.

ومن جهة ثانية ، فإن الظاهر برقوق قدّر المخاطر التي ستترتب على استقباله لأحمد ابن أويس ؛ وأنّه أشعر تيمور لنك بقوة دولة المماليك الجراكسة ، ما دفع تيمور لنك بأن يُفكّر كثيراً قبل اجتياحه (بلاد الشام). وبعودة أحمد بن أويس إلى بغداد يكون برقوق قد أوفى بتعهّده لابن أويس. وكذلك فإن الظاهر برقوق برهن على قدرته في مواجهة الأحداث الصّعبة ، وأنه أحسن التصرُّف مع أركان دولته وما جاورها من قوىً مؤيدة ومعارِضة ؛ وغدت بغداد تابعة للمماليك ولو بصورة مؤقتة وشكلية.

حرص تيمور لنك على تتبُّع أخبار دولة المماليك الجراكسة عن طريق بثّ شبكات التجسُّس في حلب ودمشق وحتى القاهرة. لكن عيون الظاهر برقوق من عُربان الشام ومماليك القاهرة تمكّنت من شلّ حركتهم والقبض عليهم. وقد ظلّت عيون هؤلاء الأعراب تراقب تحركات قوات تيمور لنك في منطقة الثغور الشمالية [٤].

ثمّ تطوّر الاحتكاك بين الطرفين حينما بعث تيمور لنك بوفدٍ من أربعين شخصاً إلى الظاهر برقوق سنة ٧٩٦ / ١٣٩٤ ؛ لكن نائب الرحبة لم يُمكّن الوفد من الوصول

---

(١) ابن الفرات ، تاريخه ، ج٩ ق٢/ ٣٨٦ ؛ وابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣/ ٥١٨ .

(٢) ابن صصرى ، الدرة المضيئة ، ص : ١٥٤ – ١٥٥ .

(٣)المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٨١٤ .

(٤) ابن الفرات ، م.س ، جـ٩ ق٢ / ١٤ – ١٩ ؛ والمقريزي ، م.س ، جـ٣ ق٢ / ٥٦٤ .

إلى القاهرة فقد جاءته الأوامر من القاهرة بقتل أعضاء الوفد ، فقتل المغول من أعضاء الوفد وأبقى على تسعة أفراد تبيّن له أنهم من أبناء الأعيان في بغداد [١].

وبمقتل رُسل تيمور لنك تأزّم الموقف بينهما ، فاتّخذ كلّ طرف الاستعدادات اللازمة للمواجهة ، فدخلت العلاقات بينهما مرحلة التهديد والوعيد عن طريق الرسائل بين تيمور لنك والظاهر برقوق (٧٩٦ – ٨٠٠ / ١٣٩٤ – ١٣٩٧) *. وقد أثبتت تلك الرسائل قدرة الظاهر برقوق على مواجهة تيمور لنك ، فقد خاطب خصمه الندّ للندّ لدرجة أقلقت تيمور لنك، فلم يجرؤ على اقتحام بلاد الشام في حياة برقوق.

وجاءت الفرصة المناسبة لتيمور لنك بوفاة الظاهر برقوق سنة ٨٠١ / ١٣٩٨ ، فعزم على اجتياح بلاد الشام. ووصلت طلائع قوّاته إلى سيواس حيث قتل نائبها ، ثم استولى تيمور لنك على ملطيّة سنة ٨٠٣ / ١٤٠٠ ، وتقدّمت قواته إلى مرعش ، وتمركزَت في عينتاب [٢].

فلما وصلت قوات تيمور لنك إلى حَيْلان – قرية من قرى حلب – أدرك نائب حلب خطر الموقف الذي يتهدّد حلب ؛ فاستدعى نواب الشام والأمراء **، وكتبوا إلى القاهرة يطلبون المساعدة ، ومما جاء في كتابهم : " أدركوا المسلمين وإلاّ هلكوا " [٣]. وقد حضر نُعير بن حيّار أمير العرب. بجمع كبير إلى ظاهر حلب ، وبعث يستدعي أمراء التركمان لمواجهة تيمور لنك [٤].

لكنّ النواب والأمراء يئسوا من حضور السلطان فرج بن برقوق ، فالأمراء يتحكّمون بالقرار لصغر سِنّ السلطان. لذلك قرّروا مواجهة تيمور لنك ؛ وقُدّرت قوّاتهم بثلاثة آلاف رجل [٥]. والجدير بالذكر أن نُعيراً انسحب بعربه قبل وصول تيمور لنك لخلاف دبّ بينه وبين التركمان.

---

(١) ابن صصرى ، الدرة المضيئة ، ص : ١٤٥ ؛ ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٣/ ٥٠٣ ؛ وابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٤٧٤ .

* عن الرسائل المتبادلة بين تيمور لنك وبرقوق ، انظر : ابن عربشاه ، عجائب المقدور ، ص : ٩٧ – ٩٨ ؛ والمقريزي ، السلوك ،ج٣ ق٢ / ٨٠٥ – ٨٠٧ .

(٢)ابن قاضي شهبة ، م.س ، ٤/ ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٢/ ٢١٨ – ٢١٩ .

** الأمراء هم : دمرداش المحمدي نائب حلب ، سودون نائب دمشق ، دقماق نائب حماة ، والطنبغا العثماني نائب صفد.

(٣) ابن تغري بردي ، م.ن ، ص.ن .

(٤) ابن قاضي شهبة ، م.س ، ٤/ ١٤٥ .

(٥) ابن قاضي شهبة ، م.س ، ص : ١٥٣ ؛ ابن حجر ، م.س ، ٢/ ١٣٤ .

ثمّ زحف تيمور لنك على مدينة حلب ، وأحاط بأسوارها ، وتمكّن بالتـــالي مــن اقتحامها رغم بلاء العساكر المملوكية وأهل حلب ؛ فعاثت قوات المغول بالمدينة ، وفعلت ما لا يفعله البشر بالأطفال والنساء بعد التجائهم إلى مساجد حلب وقراها !! وأمــا قلعــة حلب فقد استسلمت لتيمور لنك بعد أنّ أمّنها ، فأنزل الأمراء والمماليك مقيّدين. وقد أمــر تيمور لنك ببناء الأبراج والمآذن من رؤوس القتلى [١]. ومثّل هذا فعل (مــيران) ابــن تيمــور لنــك بأهل حماة [٢]. وأما حمص فقد نجت من الهلاك بعد أن منح تيمور لنــك أهلها إكراماً لخالد بن الوليد [٣]. ولمّا نزل ابن تيمور لنك على بعلبك وجدها خالية مــن أهلها الذين تركوها حتى لا يلقوا مصير أهل حلب وحماة [٤].

وأمّا عرب آل مهنّا وآل فضل ، فيفترض أنهم نزحوا عن سلميّة وديارهم الأخرى إلى بادية الشام كملاذٍ آمن من وحشية المغول ، فقد سمعوا ما اقترفته قوات المغــول في حلب ، مما أثار الرَّعْبَ في قلوبهم.

وعندما وصلت أخبار المغول إلى القاهرة ، تجهز السلطان فرج بــن برقــوق ، وخرج بقواته من القاهرة إلى بلاد الشام ، فوصل دمشق في السادس من جمادي الأولــى سنة ٨٠٣/١٤٠٠ ، وأقام بقبّة يلبغا استعداداً لقتال تيمور لنك ، ومنعه من أخذ دمشق [٥].

وفي الوقت نفسه ، كانت فرق الجيش المغولي منتشرة في أنحاء بلاد الشام تعيـث فساداً وهلاكاً. وكذلك وصل تيمور لنك من البقاع إلى (قطنا) قرب دمشـــق ، وحفــر خندقاً حول عسكره ، كما بنى سوراً ارتفاعه نحو مترين تحسباً من أي هجوم مفاجئ مــن أعراب المنطقة وقوات المماليك. ثمّ نزل بالكسوة على نحو عشرين كيلــو مــتراً مــن دمشق[٦].

وفجأة ظهر نُعير بن حيّار بثلاثة آلاف فارس في عــذراء والضميــر شرقـــــي في دمشق [٧] ، كما تجمّع أعراب المنطقة (آل علي ، وبنو مــهدي ، وعــرب حارثــة والغِزّاويين ، وآل مِرا) في غور الأردن ، وهاجموا تجمعات عسكر تيمور لنك ، وقتلـوا

---

(١) ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٤/ ١٥٤ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢/ ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جــ٣ ق٣ / ١٣٤ ؛ ابن قاضي شهبة ، م.س ، ص : ١٥٥ ؛
وابن تغري بردي ، م.س ، ص : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٣) ابن عربشاه ، عجائب المقدور ، ص : ١٤٧ .

(٤) ابن قاضي شهبة ، م.س ، ٤/ ١٦٣ .

(٥) ابن قاضي شهبة ، م.س ، ص : ١٦٠ ؛ وابن تغري بردي ، م.س ، ص : ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٦) المقريزي ، م.س ، جــ٣ ق٣ / ١٠٤٠ - ١٠٤١ ؛ وابن قاضي شهبة ، م.س ، ص : ١٦٤ - ١٦٥ .

(٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جــ١ ق٢ / ٦٠٧ .

منهم نحو ثلاثة آلاف مغولي ، واستولوا منهم على أحمال الذهب واللؤلؤ التي نهبوها مـن الأهالي (١).

وفي الوقت الذي استعدّ فيه أهل دمشق للدفاع عن مدينتهم ، فإنّهم استأنسوا بصمود قوات السلطان فرج وحضور الأعراب إلى أطراف دمشق. لكنّهم فوجئوا في العشـــرين من جمادى الأولى برحيل السلطان فرج عن دمشق وعاد إلى القاهرة ، وتبعـه الأمـراء والجند بحجة تعرّض عرشه إلى مؤامرة هناك (٢). وبهذا تُركت دمشق إلـــى مصيرهـا المشؤوم بين يدي تيمور لنك. هذا وقد تعرّضت عساكر المماليك أثناء عودتها إلى القاهرة إلى السلب والنهب والقتل من عُربان لبنان وفلسطين ، لدرجة أنه لم يصل منهم إلاّ القليل، ومـــع كلّ أميرٍ مملوكٌ أو مملوكان (٣).

وخلاصة القول ، فإنّ دمشق قد عَصَتْ على تيمور لنك بفضل صمـــود أهلــها. ولمّا كانت قوّات تيمور لنك لا تحتمل الانتظار لحاجتها إلى الأقوات ، ولهلاك أعداد مـن البرد والمطر ؛ فإن تيمور لنك ملكها بالغدر والحيلة ، بعد أن غدر بعلمائها الذين اختاروا قاضي القضاة (تقي الدين بن محمد بن مفلح) لإجراء الصلح مع تيمور لنـــك وتسـليم المدينة ، فخدعه تيمور لنك بقوله : " ..... إن هذه المدينة بلد الأنبياء ، وقد أعْتَقْتُـــها لرسول الله صدقة عن أولادي !! " (٤).

وبعد أن جرّد تيمور لنك أهالي دمشق مِمّا يملكون ، استباح المدينة لجنده ، فأنزلوا فيها كلّ الجرائم البشعة والوحشية والتي فاقت ما عملوه في حلب. ولم يكتف بذلك ، بـل أمر بحرق الجامع الأموي ، ومدينة دمشق بعد أن استســلمت قلعتـها ليُخْفـي جرائمـه الوحشية. ثمّ رحل عنها في شعبان سنة ٨٠٣ / ١٤٠١ ، بعد أن أقـــام عليـها ثمـانين يوماً(٥).

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور، ج١ ق٢ /٦٠٧ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٣ / ١٠٤٤ ؛ ابن قاضي شهبة ، تاريخه ، ٤/ ١٦٧ – ١٦٨ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢/ ٢٣٦ – ٢٣٧ ؛ ابن الصيرفي ، نزهة النفوس ، ٢/ ٨٤ ؛ وابن إياس ، م.س ، جـ١ ق٢ / ٦٠٩ .

(٣) ابن تغري بردي ، م.س ، ١٢/ ٢٣٧ – ٢٣٨ .

(٤)ابن إياس ، م.س ، جـ١ ق٢ / ٦١٠ .

(٥) المقريزي ، م.س ، جـ٣ ق٢ / ١٠٤٥ – ١٠٥٢ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٢/ ١٣٧ – ١٣٩ ؛ ابن عربشاه ، عجائب المقدور ، ص : ١٧١ – ١٧٢ ؛ وابن تغري بردي ، م.س ، ص : ٢٣٩ – ٢٤٠ .

وعندما رحل تيمور لنك عن دمشق ، بعث إلى السلطان فرج يعتذر عمّا حدث من تجاوزات في بلاد الشام ؛ وطلب منه الإفراج عن (أطلمش) * ، مقابل الإفراج عن جميع ما لديه من الأسرى. فنفذ فرج طلب تيمور لنك ، وتبادل معه الهدايا [1]. وفي الوقت نفسه، جمع نُعير بن حيّار عربانه ونزل على تدمر [2].

وبعد هذا العرض السريع والموجز للأحداث ، يمكن تلمّس بعض أسباب هزيمة المماليك أمام تيمور لنك على النحو الآتي :

١-تصدّع الجبهة الداخلية لدولة المماليك ؛ فبعد وفاة الظاهر برقوق ، تسلطن ابنه (فرج) ولم يتجاوز عمره عشر سنين ، فاختلف الأمراء عليه كثيرا ، مِمّا أنساهم خطر المغول. والمشكلة أنّ أمراء السلطان فرج هم أمراء والده ، لكنّ صراعهم على السلطة أدّى إلى انعدام القرار في ظلّ السلطان الطفل. لذلك لم تكن القيادة المملوكية في ظلّ الأوضاع الجديدة مؤهلة لاتخاذ القرار والإجراءات اللازمة لمواجهة تيمور لنك ، لأنّ اجتياحه لبلاد الشام لم يكن مفاجأة.

٢-قلّةعدد جيش المماليك الذي قاتل جيش تيمور لنك في حلب ، فلا مقارنة بين أعداد الجيشين ، ثلاثة آلاف مملوك مقابل عشرات الآلاف من المغول. وقد قدر ابن خلدون جيش تيمور لنك الذي دخل حلب بمليون جندي، بينما قدر ابن إياس عدده بنصف مليون. يبدو أن كَلًّا منهما قد بالغ بالعدد ، لكنّه يفترض أن يزيد عدد جيش تيمور لنك على مائة ألف على أقل تقدير ، وإلا عُدّ ذلك انتحارا بالمفهوم العسكري آنذاك.

٣-وصل نواب الشام المكلفون بصد خطر تيمور لنك ، إلى مرحلة اليأس من قدوم السلطان من مصر ، فلم يبق أمامهم سوى المواجهة غير المتكافئة ، والمحسومة بالهزيمة سلفا.

٤-إن تصدع الجبهة الداخلية ، وعدم وجود سلطان قوي ، أدى إلى عدم اشتراك القوى المحلية في بلاد الشام ومصر. فلم يحدث التنسيق المطلوب بين قيادة المماليك

---

* أطلمش أطلندي : أحد نواب تيمور لنك ، وزوج أخته ، اعتقله قرا يوسف التركماني صاحب تبريز وأرسله إلى برقوق سنة ٧٩٨هـ . وقد ظل في سجن القلعة حتى أطلق سراحه سنة ٨٠٣هـ ، ووصل إلى سمرقند حيث تيمور لنك. (المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ / ٨٥١).

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢/ ٢٤٠ ، وابن إياس ، بدائع الزهور ، ص : ٦٢١ .

(٢) المقريزي ، م.س ، جـ٣ ق٣ / ١٠٥٦ .

وأعراب الشام. فإنّ مَنْ تصدّى من أعراب الشام لقوات المغول كان دفاعاً عن النفس وعن الوطن.

٥-إنّ انسحاب السلطان فرج المفاجئ من دمشق في لحظةٍ حرجة من أرض المعركة أذْهَلَ أهل دمشق. وكان من الممكن أنْ تُقاوِم دمشق المحصنة بأسوارها وقلعتها شهوراً. علماً بأن تيمور لنك لا يستطيع الانتظار طويلاً. لكنّ تعلّق المماليك بالحكم، أدى إلى اختلافهم وسقوط بلاد الشام بيد تيمور لنك.

وبالتالي ، فإنّ مَكْرَ تيمور لنك وقدرته على انتهاز الفرص وتحديد الوقت المناسب ، ساهم في تحقيق أحلامه باجتياح الشام بعد موت الظاهر برقوق.

ثانياً : موقف أعراب الشام من الصراع بين المماليك والصليبيين :

في الوقت الذي كان فيه الخطر المغولي يُهدّد الدولة المملوكية الناشئة ، اتجهت الإمارات الصليبية المتبقية في بلاد الشام إلى التحالف مع المغول لتساعدهم ضدّ المماليك، وتَضْمَنَ لهم الاحتفاظ بالأراضي المقدّسة. لكن هذا التحالف تضاءل واختفى لِمَا بذله المماليك في دفع خطر المغول عن بلاد الشام كما أسلفنا سابقاً.

فمنذ أنْ تسلّم الظاهر بيبرس السلطة ، فإنه قد تمكّن من توحيد بلاد الشام ومصر ، وأصبح هدفه المعلن " أن يُلقي بالفرنجة في البحر بصورة نهائية ، ويحوّل التّجارة من الموانئ الشامية إلى الموانئ المصرية " (١). لكنّه لم يشرع في تنفيذ سياسته هذه إزاء الصليبيين إلاّ بعد أن عقد اتفاقيّاتٍ مع الدول المحيطة بمملكته؛ فتحالف مع بركة خان سلطان مغول القفجاق ضد إيلخانات فارس ، وتبودلت البعوث بينهما (٦٥٩ – ٦٦١ / ١٢٦١ – ١٢٦٣). كما عقد اتفاقيّةً دفاعية مع ميخائيل باليو لوجس (Michael Palaeo Logus) إمبراطور بيزنطة ؛ ووسّع دائرة تحالفاته ، فأرسل بعوثاً إلى مانفرد (Manfred) ملك صقلية وتسكانيا (٢).

وكما أشرك الظاهر بيبرس أعراب الشام في مقاومة المغول ، فإنّه عمل الشيء نفسه في مقاومة الصليبيين ، على اعتبار هؤلاء الأعراب من جنود الدولة يقاتلون في

(١) هانس ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص : ٤٠٢ .

(٢) Lane – Pool , A History of Egypt in the Middle ages , pp . 265 – 266 .

صفوف الجيش المملوكي في الحروب ضد الأعداء. وقد حافظ على هذه السياسة من جاء بعده من سلاطين المماليك أمثال الناصر قلاوون وابنه خليل.

وتظهر أول إشارة في المصادر المملوكية إلى مشاركة أعـراب الشـام للظـاهر بيبرس في مقاومة الصليبيين سنة ٦٥٩ / ١٢٦١ ، وذلك حين اشترك الأمير شرف الدين عيسى بن مهنّا بألفين من فرسان العرب في مساعدة بيبرس بالإغارة علـى طرابلـس ، والاستيلاء على قلعتي حلْبا وعِرقا * وسحبهما من أيدي الصليبيين [١].

ولما سار الظاهر بيبرس من مصر إلى الشام نـزل قيسـاريّة فـي فلسـطين ، واستدعى أعراب المنطقة ، وأحضر آلات الحصار [٢] ، ثم استولى على قيساريّة وقلعتها بعد حصار استمرّ ستة أيام ؛ ففرّ قسم من أهلها إلى عكا سنة ٦٦٤ / ١٢٩٩ [٣]. وفـي الوقـت نفسـه سيّر كتيبة من عُربان الشام إلى أبواب عكّـا ، فأسـروا جماعـة مـن الصليبيين [٤]. وباحتلاله قيساريّة فَصلَ يافا عن بقيّة المدن التي يحتلّها الصليبيون. ثـم احتل حيفا وتِبْنيـن وأَرْسوف ** [٥].

ثمّ اتّجهت أنظار الظاهر بيبرس إلى صفد ، فنزل عليها وحاصرها في الثاني مـن رمضان سنة ٦٦٤ / ١٢٦٦ ؛ ولما اشتد القتال بين عسكر بيبرس والصليبيين ؛ نصـب الظاهر بيبرس خيمة كبيرة بمثابة مستشفىً ميدانياً ، " فصارَ من يُجـرح مـن العربـان والفقهاء والجند يُحمل إليها " [٦]. كما أنّه كان يتنقّل بين الجنود مـن ممـاليك وعربـان

---

* عِرْقـة (عِرْقـا) : بلدة صغيرة ذات قلعة حصينة ، ولها بساتين ونهرٌ صغير ، وهي من أعمال دمشـق ، آخـر أعمالها من جهة الشمال. بينهما وبين البحر ميل واحد ، بينهما وبين طرابلس اثنا عشر ميـلاً وهـي شـرقي طرابلـس.

انظر : (ياقوت ، معجم البلدان ، ٤/ ١٢٢ ؛ وأبو الفـداء تقـويم البلـدان ، ص : ٢٥٥).

(١) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص : ٢٥٢ .

(٢) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص : ٢٣٣ .

(٣)اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٢/ ٣١٨ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، ٢/ ٢ ؛ والعيني ، عقد الجمان ، ١/ ٣٩٦ .

(٤)المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ / ٥٢٧ .

** تِبْنـين : بلدة في جبال بني عامر المطلّة على بانياس بين دمشق وصور.

(ياقوت ، م.س ، ٢/ ١٦).

– أرسوف : مدينة بين قيسارية ويافا ، تطلُّ على ساحل بحر الشام.

(ياقوت ، م.س ، ١/ ١٨٢).

(٥) اليونيني ، م.س ، ص.ن ؛ المقريزي ، م.س ، ص : ٥٣٤ ؛ والعيني ، م.س ، ص : ٣٩٧ .

(٦) المقريزي ، م.س ، ص : ٥٤٦ .

ويشجّعهم على الثبات ومحاربة الصليبيين حتى سقطت قلعة صفد بعد حصارٍ استمر ثلاثة اسابيع ؛ فأمر بهدمها وإعادة بنائها من جديد (١).

وفي عام ٦٧٤ / ١٢٧٦ ، جنّد الظاهر بيبرس أعراب آل فضل لمواجهة الصليبيين في السواحل الشمالية من بلاد الشام. فطلب من عيسى بن مهنا محاصرة حصن القُصَيْر* ؛ ولما حضر السلطان بيبرس إلى المكان اشترك معهم في الهجوم على الحصن ودخله مع فرسان العرب والمماليك (٢).

ولما تولّى السلطان قلاوون عرش السلطنة ، هادن الصليبيين للتفرّغ إلى مواجهة الخطر المغولي ؛ فعقد معاهدة مع بوهمند السابع أمير طرابلس سنة ٦٨٠ / ١٢٨١ ، ومعاهدة أخرى مع أمير عكا سنة ٦٨٢ / ١٢٨٣ ؛ لكنّ الصليبيين نقضوا هاتين المعاهدتين. لذلك ، أقدم قلاوون على احتلال طرابلس سنة ٦٨٨ / ١٢٨٩ ، بعد أن أشرك عسكر مصر ، وعساكر النيابات الشامية (٣) من المماليك وأعراب الشام.

وعندما نقضت عكا المعاهدة المعقودة مع قلاوون ، أعلن قلاوون الجهاد ضد الصليبيين سنة ٦٨٩ / ١٢٩٠ ؛ فطلب تجهيز العساكر من كلِّ صوبٍ من بلاد الشام في البادية والقرى والمدن. فلبّى الجميع النداء ، لكنّ الموت أوقف تحرير عكا على يده (٤).

فلما تولى الأشرف خليل بن قلاوون الحكم ، جعل تحرير عكا من أولويات أهدافه، فقاد بنفسه الحملة على عكا سنة ٦٩٠ / ١٢٩١ . وقد بلغ عدد قواته نحو مائتي ألف مقاتل ، منهم ستون ألفاً من الفرسان والباقي من المشاة. والجدير بالذكر أن عدد المتطوعين من أعراب الشام كانوا أكثر من جند المماليك (٥). ويذكر المقريزي أن آل فضل قدموا مع أميرهم مهنا بن عيسى ، وبني عقبة بقيادة أميرهم عبيّة (٦).

وبسقوط عكا بيد الأشرف خليل بن قلاوون ، انتهى الوجود الصليبي في بلاد الشام ، إذ استسلمت الحصون المتبقية بدون قتال في : صور وصيداء وبيروت وعثليت وحيفا (٧).

---

(١) ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص : ١٦٦ – ١١٨ ؛ والعيني ، عقد الجمان ، ١/ ٤٢١ – ٤٢٢ .

* القُصَيْر : حصن بين حارم وإنطاكية .

(٢) ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، ص : ١٢١ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٣/ ١١١ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخه ، ٨ / ٨٠ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٣ / ٧٤٧ .

(٤) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨/ ٥ .

(٥) م.ن ، ص.ن .

(٦) المقريزي ، م.س ، ص : ٧٦٠ .

(٧) ابن الفرات ، م.س ، ص : ١١٢ – ١١٣ .

هكذا انطوت صفحة الحروب الصليبية على يد الأشرف خليل بن قلاوون ، فكان لأعراب الشام دورٌ ملموسٌ ومشاركةٌ فاعلةٌ في إنهائها.

ثالثاً : موقف أعراب الشام من العلاقات المملوكية - العثمانية:

بدأت العلاقات بين المماليك والعثمانيين بداية طيّبة ، فلمْ يحدث بينهما عداءٌ واضحٌ أو صِدام عسكريٌ مكشوف. واستمرت هذه العلاقة الحسنة نحو قرن من الزمان ؛ وذلك منذ بداية حكم الظاهر برقوق (٧٨٤ / ١٣٨٢) ، وحتى بداية حكم قايتباي (٨٧٢ / ١٤٦٨). ويرجع ذلك إلى أنّ العامل الأساسي في هذه العلاقة الطيبة بينهما هو الخطر المغولي المشترك الذي واجه الدولتين ؛ ولعدم تضارب مصالحهما في المنطقة. كما أنّهما دولتان مسلمتان سُنيّتان. وقد كان المماليك ينظرون بارتياح إلى انتصارات العثمانيين في أوروبا لأن ذلك يجعل وجهة نظر العثمانيين بعيدة عن حدود المماليك.

ورغم هذه البداية الطيّبة بين المماليك والعثمانيين ، إلاّ أن الحذر المملوكي كان واضحاً في التعامل مع العثمانيين. فهذا الظاهر برقوق كان يقول : " لا أخاف من تيمور، فإنّ كلّ أمير يساعدني عليه ، وإنّما أخاف من ابن عثمان بايزيد الأول "[1]. كما يروي ابن حجر بأنه سمع ابن خلدون مراراً وهو يحذّر السلطات المملوكية في القاهرة من خطر العثمانيين ، بقوله : " لا تخشوا على مُلْك مصر إلاّ من أولاد بني عثمان"[2].

لكن العلاقات بدأت تسوء بين المماليك والعثمانيين منذ أنْ أوْلى العثمانيون اهتمامهم بمناطق الأناضول ، وتدخّلوا في شؤون بعض الإمارات المشمولة بحماية المماليك كإمارة دُلغادر ، وجنوبي إمارة قُرمان.

فقد ظهر على السطح ما يعكّرُ صفو العلاقات بين الدولتين منذ أن تولى بايزيد الثاني السلطة (٨٨٦ – ٩١٨ / ١٤٨١ – ١٥١٢) ، واختلف مع أخيه (جَـمّ) على العرش. فقد تلقى (جَمّ) المساعدات التي طلبها من قايتباي ، مِمّا أدى إلى توتّر العلاقات بين العثمانيين والمماليك[3].

---

(١) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ١/ ٤٩١ .

(٢) م.ن ، ص.ن .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٣/ ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ؛ وابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ٨/ ٨٦ .

ومنْ هَنا ، بدأ الصدام المسلّح يلوح بالأفق بين الدولتين ، فالدولة العثمانية أصبحت قوّة منافسة لدولة المماليك. فلمّا كانت الدولة العثمانية تتّخذ مـــن الحـــرب وســيلة وأداة لتحقيق أهدافها ، فصار لا بُدّ لإحدى هاتين القوتين أن تتزعّم العالم الإسلامي.

لقد ساءت العلاقات بين الطرفين في عهــد بايزيــد الثانـــي وقايتبـــــاي فـــي الفتـــرة (٨٨٩ – ٨٩٥ / ١٤٨٤ – ١٤٩٠) ، فحدث بينهما صِدامات عســكرية علـــى الحدود في إمارة دُلغادر ، وإنْ أراد العثمانيون بها الانتقام من المماليك لإيوائهم الأمـــير (جَمّ). فبدأ أول صِدام مسلّح بين الطرفين باعتداء قام به علي دولات (علاء الدولـــة) أمير دُلغادر ومعه فِرَقٌ من جنود العثمانيين على الحدود المملوكية ، واستيلائه على أَذَنَـة (أَضَنَة) في جنوبي إمارة قرامان. فتصدى له الأمير تِمراز * أمير السلاح ، واستعاد منه المناطق التي احتلها ، وأسَرَ جُنداً كثيراً من العثمانيين [١].

ورغم انتصار المماليك ، إلاّ أنّ قايتباي آثَرَ حقن دماء الطرفين ؛ فأرســل وفــداً برئاسة جاني بك حبيب ** أمير آخور إلى بايزيد الثاني ســـنة ٨٩٠ / ١٤٨٥ ، ليعقــد الصلح مع العثمانيين ؛ وليقدّم للسلطان العثماني تقليداً من الخليفة العباسي بأن يكون " ابن عثمان سلطاناً على بلاد الروم .... " [٢]. لكن بايزيد الثاني لم يستجب لنداء الصلــح ، واستعدّ لمهاجمة أطراف بلاد الشام [٣].

ففي سنة ٨٩٠ / ١٤٨٥ ، وردت الأخبار إلى نائب حلب بأن بايزيد الثاني استولى على أراضٍ واسعةٍ من بلاد الشام ، وأنه زاحفٌ على دولة المماليك. فسيّر قايتباي حملــة عسكرية بقيادة أزبك أتابك العسكر من مصر لمحاربة علي دولات ؛ واشترك مع أزبـــك الأمير قجماس نائب دمشق ، وجاني بك نائب الكرك. وقد تمكّنت هذه الحملة من إلحـــاق الهزيمة بالعثمانيين وقتلت من قواتهم أربعين ألف جندي ، وأسر أحد قادتهم (أحمد بـــن هَرَسَك) [٤].

لكنّ بايزيد الثاني لم يتّعظ من الهزيمة وخسائرها البشرية ، فاستولت قواته علـــى قلاع جنوبي إمارة قرامان (أضنة وطَرَسوس) ؛ كما احتلت قيصريّة سنة ٨٩٣ / ١٤٨٨

---

* تمراز الشمسي الأشرفي برسباي ، وهو ابن أخت قايتباي .

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ٣/ ٣٦ – ٣٨ ؛ وابن إياس ، بدائع الزهور ، ٣/ ٢١٠ ؛ وابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٦٣ .

** ويقال له حانبك العلائي ، وقد ظلّ يترقى حتى صار أمير آخور . مات سنة ٨٩٣هـ . (السخاوي ، م.س ، ص : ٥٩).

(٢) ابن إياس ، م.س ، ٣/ ٢١٥ .

(٣) ابن إياس ،م.س ، ٣/ ٢٢١ .

(٤)ابن طولون ، م.س ، ١/ ٦٧ – ٦٨ ؛ ابن إياس ، م.س ، ٣/ ٢٢٦ ، ٢٣٥ .

وبالوقت نفسه أرسل أسطولاً إلى طرسوس وطرابلس. فجهّز قايتباي حملة أكبر من الحملة السابقة ، بقيادة أزبك أتابك العسكر ، وأشرك معه عربان الطاعة في بلاد الشام ، وهم : عربان نابلس بزعامة شيخهم (ابن إسماعيل) وابن الحنش مقدّم عرب البقاع ، على أن تكون مهمتهم طلائع ومقدمة الجيش المملوكي كمشاة لا كفرسان. فلما اقتربت هذه الطلائع (المشاة) من أضنة ، خرجت عليهم كمائن عثمانية قادمةً من البحر ومن خلفهم ، فتمكّنت من إلحاق الهزيمة بالمشاة الأعراب بعد أن قتلت أعداداً كبيرة منهم. وأما ابن إسماعيل وابن الحنش فقد تمكّنا من الهرب [1]. لكن ظهور أزبك بأربعة آلاف فارس من المماليك السلطانية أنقذ الموقف ، وألحق بقوات بايزيد الثاني وعلى دولات هزيمة أقسى من السابقة [2].

ثمّ تجمّعت القوات العثمانية من جديد على سيس وطرسوس سنة ٨٩٤ / ١٤٨٩ ، وسارت طلائع أخرى باتجاه حلب. ولما بلغت أخبار تحركات القوات العثمانية إلى القاهرة ، أرسل قايتباي حملة ثالثة بقيادة أزبك أتابك العسكر. وقد وصلت هذه الحملة إلى قيصرية واستولت على قلاع منها : كولك وكوّاره [3]. وقد كانت هذه الحملة سنة ٨٩٥ / ١٤٨٩ ، آخر الحملات العسكرية التي انفذها قايتباي لمحاربة بايزيد الثاني. ثم توّجت علاقتهما بتوقيع صلح ٨٩٦ / ١٤٩١ [4].

ومما يلفت النظر ، أن قايتباي أشرك عُربان الشام في الحملة الثانية سنة ٨٩٣ / ١٤٨٨ ، بينما لم يُشرك أحداً من أعراب الشام في الحملات الأخرى. ويعود سبب تلك إلى توتر العلاقات بين أمراء المماليك وأعراب الشام. ويظهر ذلك من خلال الأحداث التي تتبّعها ابن طولون الصالحي.

ففي عام ٨٩٠ / ١٤٨٥ ، كان آل علي و آل مرا في نزاع مع نائب دمشق ، فشنّوا غارات على نواحي دمشق وأطرافها لدرجة أنه لم يقدر على منعهم [5]. وحتى في عام ٨٩٣/ ١٤٨٨ ، خيّم النزاع الأسريّ على آل مرا وانعكس ذلك على آل علي ونائب دمشق. فحينما أقدم الأمير جانباي أمير آل مرا على طرد أحد منافسيه وهو (عامر بن مقلّد) وملاحقته حتى مرج غوطة دمشق ، تصدّى آل علي للأمير جانباي ، لأن ابن مقلّد

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٣/ ٢٥٠ ، ٢٥٣ – ٢٥٥ ؛ ابن طولون الصالحي ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٩٢ – ٩٧ .

(٢) ابن إياس ، م.س ، ص : ٢٥٦ .

(٣) أبن إياس ، م.س ، ص : ٢٧٠ ، ٢٧٣ .

(٤) ابن طولون ، م.س ، ١/ ١٣٧ ، ١٤٧ .

(٥) ابن طولون ، م.س ، ص : ٧١ .

استجار بهم (١). ثم خرج قانصوه اليحياوي نائب دمشق سنة ٨٩٤ / ١٤٨٩ ، وهاجم ديار آل مرا شرقي صرخد ، فتصدى له عامر بن مقلّد ؛ وبعد معركة شرسة بينهما ، هرب ابن مقلّد إلى البرّيّة ونجا بنفسه وأهله (٢). وفي الوقت الذي كان فيه نائب دمشق يلاحق الأعراب ، كان خازندار السلطان قايتباي يُصادر أهل دمشق (٣).

ولم تقتصر ملاحقة المماليك لأعراب حوران ، بل طالت هذه الملاحقات أعراب آل فضل بين حلب وحماة بحجة اعتداء هؤلاء الأعراب على قافلة تجارية خارجة من حلب إلى دمشق (٤).

لقد سقنا هذه الأحداث كشواهد على سوء العلاقة بين السلطة المملوكية وأعراب الشام في عهد قايتباي ، علّها تُسهم في تفسير إبعاده أعراب الشام عن الحملات السابقة. والجدير بالذكر أن أمراء الحملات قد عارضوا إشراك أعراب الشام حتى مشاركة أولئك المشاة في حملة ٨٩٣ / ١٤٨٨ ، ولعلّ موافقتهم جاءت إرضاء للسلطان ، ولتخفيف الخسائر على المماليك السلطانية.

• العَلاقة بين قانصوه الغوري وسليم الأول :

دخلت العلاقات المملوكية – العثمانية في مسارٍ جديدٍ منذ أن اعتلى سليم الأول* عرش سلطنة العثمانيين سنة ٩١٨ / ١٥١٢ . فقد ظهر ذلك في أوّل سلوك لقانصوه الغوري ؛ فإنه لم يهنّئ سليماً باعتلائه عرش السلطنة ، في الوقت الذي حزن فيه وبكى على وفاة بايزيد الثاني (٥). ومع ذلك ، فقد تبادلا الرسائل ** التي اتسمت بالودّ الظاهري حيناً وبالشكّ والحذر أحياناً.

---

(١) ابن طولون، مفاكهة الخلان ، ١/ ٩٨ .

(٢) م.ن ، ص: ١١١ – ١١٢ .

(٣) م.ن ، ص : ١١١ .

(٤) م.ن ، ص : ١٢٥ .

* سليم بن بايزيد الثاني (٨٧٢ – ٩٢٦هـ): لم يُعرف شيئاً عن حداثته ، فقد ظهر اسمه حينما اختار أبوه أخاه الأكبر (أحمد) وليّاً للعهد ، الأمر الذي أدى إلى منازعات بينهما ، والتي انتهت بتسلّمه الحكم سنة ٩١٨ / ١٥١٢ .

(ابن عماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ٨/ ١٤٣).

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٤/ ٢٧٠ .

** انظر : أحمد فؤاد متولي ، الفتح العثماني ، ص : ١٤٧ – ١٥٥ ، ١٦٢ – ١٦٤ .

وبذلك اختلفت العلاقات المملوكية – العثمانية عن سابقتها ، لأن الأحداث فرضت نفسها على قانصوه الغوري. فقد أدى لجوء بعض أمراء البيت العثماني إلى المماليك إلى غضب سليم الأول ، وإنْ كظم غيظه إلى حين التخلّص من الخطر الصفوي [١].

فعندما انتصر سليم الأول على إسماعيل الصفوي في معركة جالديران ٩٢٠ / ١٥١٤ ، أرسل قاصده إلى قانصوه الغوري ، لكنّ الغوري لم يحتفل أو يزيّن القاهرة كعادة المماليك في الانتصارات التي حقّقها العثمانيون في أوروبا. ورغم ذلك ، فإن الغوري قد كَتَب يهنّئ سليماً بهذا النصر [٢]. وهذا يوضّح تحفّظ الغوري إزاء النزاع العثماني – الصفوي ، لأنه كان يخشى خطرهما على مصير دولة المماليك.

وما كاد سليم الأول يفرغ من تحجيم الجبهة الصفوية حتى اتجهت أنظاره إلى دولة المماليك ؛ فهو يسعى لإيجاد سند شرعي لدولته ، ويمكن تحقيق ذلك بالإشراف على الأماكن المقدسة في الحجاز ، ونقل مقرّ الخلافة من القاهرة إلى استانبول.

ولما عُرِف عن سليم الأول ، انّه ينفّذ أهدافه بموجب خطة مدروسة ، يحدّدُ زمن الحوادث ومكانها ؛ فسرعان ما استولى على إمارة دُلغادر وقتل أميرها علي دولات (علاء الدولة) وابنه ووزيره ، وأرسل رؤوسهم إلى السلطان الغوري سنة ٩٢١ / ١٥١٥ . فلما رآهم الغوري ، تنكّد وشقّ عليه ذلك ، وقال : " لماذا أُرْسَلَ لِيَ هذه الرؤوس ؟ هل هي رؤوس ملوك الفرنج !! " [٣].

ولم يكد الغوري ينتهي من هذه الأخبار حتى جاءته أنباءٌ أشدّ سوءاً منها ؛ فقد تجدد الخلاف بين إسماعيل الصفوي وسليم الأول على آمد سنة ٩٢٢ / ١٥١٦ ؛ فقرّر الغوري الخروج بنفسه إلى حلب ؛ " ..... أنا أخرج بنفسي وأقعد في حلب حتى نوى ما يكون من أمر الصفوي وابن عثمان. فإنّ كلّ من انتصر منهما على غريمه لا بد أن يزحف على بلادنا " [٤]. وبذلك وصلت العلاقات المملوكية – العثمانية إلى مفترق طرق؛ وأصبحت تنذر بالصدام المسلّح ؛ وغدا أصدقاء الأمس أعداء اليوم.

• المواجهة في مرج دابق ٩٢٢/١٥١٦ :

لا يعنينا أسباب وأحداث ونتائج معركة مرج دابق رُغم أهميتها في التاريخ العربي العثماني ؛ وإنّما نبحث عن موقف أعراب الشام من هذه المواجهة بين المماليك والعثمانيين.

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٤/ ٢٨٩ ، ٢٩١ .

(٢)ابن إياس ، م.ن ، ٤/ ٣٩٨ ، ٤٠٤ ؛ الإشبيلي ، الدر المصان ، ص : ٤ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٤/ ٤٦٢ – ٤٦٣ ؛ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٣٨٤ .

(٤) ابن إياس ، م.س ، ٥/ ٢٢ ؛ الإشبيلي ، م.س ، ص : ٧ – ٨ .

فعندما أخذ السلطان قانصوه الغوري بتجهيز جيشه للقاء سليم الأول ، فإنّه ألـــزم شيوخ عربان مصر بتجهيز عشرين ألف فارس من العربان ، ثم استقرّ الأمر على خمسة آلاف [١]. كما أرسل إلى طرابلس بإعداد المشاة من عربان المنطقة للخروج أمام الجيش المملوكي ؛ وألزم نيابات الشام الأخرى (دمشق – حلب – حمـاة – غـزّة – صفـد – الكرك) بتجهيز أعدادٍ من المشاة للغرض نفسه [٢].

وحينما وصل الغوري بجيشه إلى القابون شرقي دمشق ، كان ناصر الديـــن بـــن الحنش من بين كبار مستقبليه مع نائب دمشق سيباي. وقد قـــدّم ابـــن الحنـــش هديّـــة للســـلطان مـــن : " ألـــف دينار ، وعدد من الخيول والجمال والغنم والطيـــور والعســـل والسمن ..... " [٣]. والجدير بالذكر أنّ ابن الحنش وعربانه كـــانوا ســـادة البقـــاع والجولان في هذه الفترة – ولمّا وصل الغوري إلى حلب ، استقبله خاير بك نائب المدينة، وجانبرد الغزالي نائب حماة ؛ ثم ألحق به سيباي بجيش دمشق [٤].

ومن حلب أرسل الغوري كاتب سرّه الأمير (مغلباي) الـدّوادار للسـلطان سليم الأول الذي وصل إلى عينتاب. وقد أراد الغوري التوسّـط بـالصلح بيـن سـليم الأول وإسماعيل الصفوي. لكنّ حشود سليم الأول في عينتاب لم تكن لمقاتلة الصفوي ، وإنّمـا لمقاتلة الغوري. فلما اجتمع الوفد المملوكي مع السلطان سليم ، قـال : " يـا مغلبـاي ، أستاذك ما كـان عنده رجلٌ من أهل العلم يرسله لنا ! ... " [٥]. ثمّ عاد مغلباي محلوق اللحية ، وبلباس رثّ ، وأركبه السلطان سليم على اكديش هزيل ، وقال له : " قل لأستاذك يلاقيني على مرج دابق " [٦]. وقبل المعركة ، تلقّى الغوري آخر رسالة من سليم الأول ، كلها تهديد ووعيد ، واستفزازٌ وإثارة ، ومما جاء فيها : " قانصوه الغوري ، أصلـــح الله شأنه .... إنّك لجأت إلى أسلوب الحيَل ، وتواطأت مع أعدائي .... وإني قد أدركـتُ فسادك وفِتَنك ؛ فإنْ كان لديك ذرّة منْ الحميّة وقدرٌ من الرجولة ، وفي قلبك جرأة ، فـلا تنزوي في دائرة الرّعب.....واستعدّ وجميع أعوانك ؛ فعليك أن تُحدّد الأسلوب الـــذي تريده وأن تُحدّد المكان لكي تلاقي جنودي ..... " [٧].

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٥/ ٣١ .

(٢) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ٢/ ١٨ .

(٣) م.ن ، ٢/ ١٩ .

(٤) م.ن ، ٢/ ٢٢ .

(٥) ابن زنبل ، آخرة المماليك ، ص : ١٣ .

(٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٥/ ٦٨ .

(٧) أحمد فؤاد متولي ، الفتح العثماني ، ص : ١٦٢ – ١٦٤ . (مترجمة عن اللغة العثمانية).

إنّ الحالة التي عاد عليها مغلباي الدّوادار ، وكلمات سليم الأول ، كـــانت كافيـــة لإثارة الغوري ، فتحرك بقواته إلى مرج دابق. وكانت قوات سليم الأوّل قد وصلت إلـــى المكان نفسه. وفي يوم الأحد الخامس والعشرين من رجب ٩٢٢ / ١٥١٦ ، التقى ســـليم الأول مع الغوري في موضع يعرف بتلّ الفار ، فكان النصر في أوّل النهار للغوري ، ثمّ تحول لصالح سليم الأول عند الظهر ، وانتهت المعركة بأقسى هزيمة في تاريخ المماليك؛ وأمّا الغوري فقد فُقِدَ ولم يُعْرف له على أثر (١).

وبعد المعركة ، دخل سليم الأول إلى حلب دون قتال ، واستسلمت لـــه حمـــاة ثـــمّ حمص ؛ وكذلك دخل دمشق بعد أن منحها الأمان (٢).

وأما دور أعراب الشام في معركة مرج دابق ، فإنّ المصادر التاريخية المعاصرة للحدث لم تشر إلى أعراب الشام ، وإن ذكرت تركيبة الجيش المملوكي بأن غالبيته مـــن المماليك السلطانية وقليل من العرب البدو.

وبالرغم من انتصار سليم الأول في معركة مرج دابق ، فإنّ جماعات مـــن البـــدو لـــم ترحّب بالعثمانيين في بادئ الأمر. فلمّا وصل جانبرد الغزالي إلى دمشق ، اســـتدعى ناصر الدين بن الحنش ، فوصل بفرسانه إلى المزّة خارج دمشق (٣). وقد فـــرض ابـــن الحنش شروطه على الغزالي المهزوم ، وأحسن استغلال هذه الفترة ؛ فطلب من الغزالـــي التخلّص من أحد خصومه المعروف باسم المقدّم علاء الدين بن العماد المقدسي الشـــهير بابن العلاّق ، وكان هذا مسجوناً في قلعة دمشق ، قبل معركة مرج دابق. وقد ساوم ابـــن الحنش الأمير جانبرد الغزالي على ذلك ؛ " إن قطعت رقبة ابن العلاّق العدو الأكبر لي ، فأنا أدرك ملك الروم (سليم) من بلاد حماة إلى بعلبك على أن تولّينـــي حمـــص " (٤). فوافق الغزالي على طلب ابن الحنش ، وقطع رأس ابن العلاّق وأرســـله لابـــن الحنـــش بالمزّة. فدخل ابن الحنش دمشق ، وألبسه الغزالي خلعة وولاّه حمص. وتصـــرّف ابـــن الحنش من مركزٍ قوي بوجود صهره ابن جانباي البدوي أمير آل مرا الذي حضر إلـــى دمشق ، وتلقّى خلعة من الغزالي وأدركه على حوران والمرج (٥).

---

(١) انظر : ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٥/ ٦٨ – ٧٣ ؛ ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ٢/ ٢٤ ؛ ابن زنبل ، آخرة المماليك ، ص : ١٥ – ١٦ ؛ والإشبيلي ، الدر المصان ، ص : ٩ .

(٢) ابن إياس ، م.س ، ٥/ ٧٣ ؛ وابن طولون ، م.س ، ٢/ ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ .

(٣) ابن طولون ، م.س ، ٢/ ٢٥ .

(٤) ابن طولون ، م.س ، ص : ٢٦ .

(٥) ابن طولون ، م.س ، ص.ن .

ولما بلغ ابن الحنش وصول جاليش عسكر سليم الأول إلى القابون شرقي دمشق ، تصدّى لهم في معركة مهولة ، قتل فيها عدد كبير من العثمانيين. كما أطلق عليهم مياه أنهر دمشق ، حتى صار كلّ من دخل تلك المياه يُوحلُ بفرسه ، فلا يقدر على الخلاص ، فهلك منهم جماعة كبيرة [١].

ولما وصلت أخبار مقاومة ابن الحنش إلى القاهرة ، رسم السلطان طومان باي – الذي تسلطن بعد قانصوه الغوري – لابن الحنش بنيابة حمص ووعده بأتابكية دمشق [٢]. والجدير بالذكر ، أنّ تولية النيابة في العصر المملوكي لم تُعط إلاّ للمماليك ، لهذا ، عُدّت تولية ابن الحنش لنيابة حمص ، أمراً مستجداً في تاريخ المماليك ، وإن كان لها ظروفها الخاصة.

أصبح ابن الحنش زعيم المقاومة في بلاد الشام ، فأرسل لطومان باي يقول : " مدّني ببعض عسكرك ، وأنا أجمع عُربان الشام ، وضمان كسرة ابن عثمان عليّ " [٣]. وقد أرسل ابن الحنش مرة أخرى لطومان باي يستحثّه على إرسال تجريدة عسكرية قبل أن يزحف سليم الأول على غزّة [٤] ؛ لكن طومان باي كان مشغولاً بتحصين القاهرة فلم يبعث بأحد من عسكره لابن الحنش.

لم يكن آل الحنش الوحيدين من أعراب الشام الذين عارضوا الوجود العثماني ، بل أَقْدَم آل علي وآل مرا وعُربان الأغوار على نصب كمائن في الطرق المؤدّية إلى دمشق ، ومنعوا جلب الشعير والقمح والتّبن إلى قوات سليم الأول التي عسكرت داخل دمشق. ولا نبالغ إذا وصفنا حالة دمشق بأنها محاصرة ؛ فانقطع العليق على خيول العسكر العثماني ، فأخذت تأكلُ ورق الشجر. كما تمكّنت تلك الكمائن من قتل كلّ من يخرج من العسكر العثماني إلى نواحي دمشق [٥].

وشهدت غزّة التي عسكر فيها سنان باشا بآلاف من الجنود العثمانيين ، ما لم يتوقعه العثمانيون ، فقد شنّ آل جَرْم وبنو ثعلبة حرب عصابات ضد العسكر العثماني ، فكانوا يغيرون بمجموعة قليلة من الفرسان البدو على معسكرات العثمانيين ، ثمّ يفرّون إلى البادية والجبال دون أن يلحق بهم أذىً [٦].

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٥/ ١٠٦ .

(٢) م.ن ، ٥/ ١٠٧ .

(٣) م.ن ، ص.ن .

(٤) م.ن ، ص : ١١٧ .

(٥) م.ن ، ص: ١١٢ ، ١١٧ .

(٦) م.ن ، ص : ١٣٥ .

يبدو أن سليم الأول تنبّه إلى خطر العربان ، وخشي من اتساع نطاق المقاومة البدويّة ، فأرسل فرقة من أربعة آلاف جندي إلى بلاد ابن ساعد في عجلون والأغوار لحفظ الطرق وإجبار عُربان المنطقة على الطاعة (١). كما أرسل نحو عشرة آلاف جندي عثماني إلى نابلس والقدس والخليل وغزّة للغرض نفسه ، وحتى لا يسبقه طومان باي إلى هذه المناطق المذكورة (٢).

ثمّ شهدت بيسان آخر مقاومة مملوكية في بلاد الشام ، فقد أرسل طومان باي طلائع جيشه بقيادة جانبرد الغزالي الذي عيّنه نائباً لدمشق ، على أن يتبعه بالجيش المملوكي لمحاربة سليم الأول قبل أن يصل إلى مصر . وقد سلك الغزالي طريقاً عبر سيناء غير الطريق الساحلي المعروف بين غزّة ومصر ، ليبتعد عن القوات العثمانية الموجودة في غزّة . ولم ينتظر الغزالي وصول القوات المملوكية المساندة ، بل تقدّم إلى بيسان بألفي فارس وما تمكّن من جمعه من عُربان المنطقة . فالتقى بقوات العثمانيين التي يقودها سنان باشا ، فمُني الغزالي بهزيمة منكرة ، ولم ينج من المماليك والعربان إلاّ من كتبت له الحياة (٣).

يبدو أن عنصر المفاجأة ، والسلاح العثماني ؛ كان لهما الفضل في إلحاق الهزيمة بالغزالي . فقد استخدم العثمانيون رماحاً طويلة في رأسها كلاليب من حديد يخطفون بها الفارس عن ظهر فرسه . كما استخدم الرماة منهم سلاح البنادق التي ترمي الرصاص وهي مثبّتة في عَرَباتٍ تسير على عجلاتٍ وتجرّها أبقار وجواميس . وعاد الغزالي مكسور الجناح إلى مصر ، ومَنْ وصل معه مِنَ الجند كانوا في حالة رثّة (٤).

وعودة إلى ناصر الدين بن الحنش ، فقد بدّل ولاءه من المماليك إلى العثمانيين . ولعل تفسير ذلك عائدٌ إلى اليأس الذي انتابه من تأخر وصول القوات التي طلبها من طومان باي ؛ وكذلك تلك الهزيمة التي لحقت بالغزالي في بيسان ، وكأنّه أدرك فعلاً أنها آخر حالات المقاومة المملوكية للعثمانيين في بلاد الشام ، فحضر ابن الحنش إلى دمشق طائعاً . وقد شاهده ابن طولون الصالحي حين مرّ عليه " وقد ألبسه العثمانيون خلعةً ، وأعطوه سُنجقاً ، وإمرة العرب في بلاد الشام ، وإقطاع نوى إضافة إلى ما كانَ بحوزته ؛ وألزموه بإحضار الأعراب المناوئين للعثمانيين ، فالتزم بذلك .... " (٥).

---

(١) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ٢/ ٣٦ .

(٢) م .ن ، ص : ٣٦ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٥/ ١٢٩ .

(٤) م.ن ، ٥/ ١٢٩ ، ١٣١ .

(٥) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ٢/ ٣٢ .

وبالمقارنة بين مقاومة القوى المحلية الشامية من العربان ، وبين مقاومة المماليك للعثمانيين بعد معركة مرج دابق ، فإننا نرى مقاومة عُربان الشام للعثمانيين بوسائلهم وإمكاناتهم المتاحة ، ودون تنسيق مع السلطة المملوكية. وإذا كانت هذه المقاومة قد أزعجت العثمانيين وأقلقتهم ، إلى حدٍ ما ، فإنها لم تمنعهم من بسط نفوذهم على بلاد الشام.

وبالمقابل فإن أهالي المدن الشامية الكبرى ، قد رحّبوا بالعثمانيين على أمل الخلاص من ظلم المماليك الذي لَحِقَ بهم من حملات قايتباي وقانصوه الغوري. ولذلك اتصل أعيان حلب بسليم الأول وهو مقيم في عينتاب قبل مرج دابق ووعدوه بالمساعدة ، وسهّلوا له الأمر. وقد انعكست نقمتهم على المماليك بمنع فلول الأمراء والجند المماليك المهزومين في مرج دابق ١٥١٦م من دخول حلب ، كما ألحقوا الضرر بهم (١).

وكذلك فعلت دمشق ، فقد سلّم أعيان دمشق مدينتهم للعثمانيين دون مقاومة. لكنها لم تنجُ من عبث الجنود العثمانيين الذين دخلوها قبل سليم الأول ، ففتكوا بالمدينة ، وتجاهروا بالمعاصي ، وطردوا الأهالي من بيوتهم ، واعتدوا على حرماتهم ، وألحقوا الأذى بابن طولون الصالحي ، فيقول : " .... وأُخرِجتُ من بيتي ، ورُمِيَت كُتُبي ، ولم يُوقَّر أحدٌ لا صغيراً ولا كبيراً ، ولا أهل القرآن ، ولا أهل العلم .... " (٢) لكنّ الأذى رُفع عنهم بدخول سليم الأول دمشق.

وأما المماليك فإنهم لم يُبْدوا أيّة مقاومة بعد مرج دابق ، فهم لم يحتفظوا بقوات مرابطة أو احتياطية في بلاد الشام ، فقد حُسِم الموقف العسكري لصالح العثمانيين بهزيمة المماليك في مرج دابق ، مما سهّل مهمة العثمانيين في بسط نفوذهم على بلاد الشام والاستعداد لغزو مصر.

نخلص من هذا إلى أنّ المماليك استبعدوا مشاركة أعراب الشام لهم مشاركة فاعلة في مرج دابق. كما أن مقاومة أعراب الشام للعثمانيين كانت محدودة وفي نطاق ضيّق. ويعود مردُّ ذلك إلى طبيعة العلاقات السائدة آنذاك بين المماليك وأعراب الشام في عهد قانصوه الغوري ، وبشكلٍ خاص في عهد نائبه (سيباي) بدمشق (٩١٢ - ٩٢٢/ ١٥٠٦-١٥١٦)، ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتي :

١-اتّسمت سياسة سيباي نائب دمشق بالشدّة اتجاه عُربان نيابة دمشق ، فكانت سياسته انتقامية ، مما ولّد عند القبائل العربية هناك عوامل الثأر والانتقام عند أعراب الشام.

---

(١) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ٢/ ٣٤ .

(٢) م.ن ، ص.ن .

٢-اعتَبَرَ سيباي ومن سبقه من نوّاب دمشق في عهد قانصوه الغـوري بـأنّ مواشـي وأموال هؤلاء الأعراب مُلكاً لهم لذلك لم تنقطع المناوشات المسـلّحة بينـهم وبيـن أعراب الشام بحجة المحافظة على طرق التجارة والحج.

٣-كان سيباي يسعى للحصول على المال بأي شكل ليسُدّ تعطّش أستاذه الغوري الـذي عُرف عنه حبّهُ لجمع المال لسدّ نفقات ترفه أولاً ونفقات ومطالب مماليكـه الجلبـان التي لا تنقطعُ ثانياً. فإذا كان هَمُّ سيباي جمع المال من أعراب الشام ، فإنّ هذا الأمر أدى إلى تجرؤ القبائل العربية على السّطْو والنّهب ما دامت تستطيع دفع الأذى عنـها بمبلغ من المال. وإذا كان سيباي يبرّر تجاريده العسكرية بحجّة إعادة الأعراب إلـى الطاعة ، فإن حملاته طالت أعراب آل فضل وهم طائعون سنة ٩١٦ / ١٥١٠ [١].

٤-لمّا كانت السلطة المملوكية تتّهم هؤلاء الأعراب بالفساد والنهب وقطع الطرق ، فـإن حملات سيباي المتكررة والمتلاحقة على الأعراب ، أثبتت أن السـلطة المملوكيـة تحولّت إلى أداة نهب لهؤلاء الأعراب.

٥-إنّ السلطة المملوكية كانت غارقة بمشاكل مماليكها الجلبـان ، فلـم تسـتوعب أعـراب الشام ولم تعمل أساساً على استيعابهم ، وربّما لعدم إدراكها حقيقة الخطـر العثماني الذي يُحدق بها عن قرب.

وبالتالي ، فإن السلطة المملوكية في هذه الفترة لم تكن مؤهلة لمواجهة العثمـانيين وإبعادهم عن بلاد الشام ومصر. فالقيادة المملوكية ممثّلة بسلطانها العجـوز (قـانصوه الغوري) غارقة بمشاكلها الداخلية مع المماليك الجلبان ، وغير قادرة على اتخاذ القـرار المناسب بحقّهم ؛ بينما القيادة العثمانية ممثّلة بسلطانها (سليم الأول) الشاب المتحمـس والقادر على اتخاذ القرار ؛ فوفّر الانضباط في صفوف جيشه ، كما أنّـه كـان علـى اطـلاع بما يجري في مصر والشام ، فاختار الوقت المناسب لِضَمّ بلاد الشام ، ولم يتردّد بضمّ مصر.

وقبل أن يزحف سليم الأول على مصر ، عمل على تجنُـب الطريـق السـاحلي المعروف بين غزّة والقاهرة ؛ فجنّد عدداً من بدو المنطقة ، (نيابـة غـزة ، والمنطقـة الشرقية من مصر) لكشف الطرق الصحراوية الأخرى عبر سيناء إلى مصر ، فـهؤلاء البدو على دراية وخبرة في المرور عبر سيناء.

---

(١) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ١/ ٣٣٩ - ٣٤٠ .

أرسل سليم الأول قاصده إلى طومان باي سلطان المماليك – بعد قانصوه الغوري سنة ٩٢٢ / ١٥١٦ ؛ فلمّا وصل القاصد وبصحبته خمسة عشر عثمانياً إلى غـزّة ، استمال عدداً من البدو بمالٍ كثير ، فأتوا به عبر سيناء – عجرود * ، ولم يشعر به أحد من المماليك (١).

ولمّا قبض المماليك السلطانية على القاصد وَوَفْدِهِ في وسط القاهرة ، كان مع القاصد ثلاثة من العربان الشاميين. وبينما هم على هذه الحال ، حضر ثلاثة من العثمانيين من خان الخليلي ، وسلّموا على القاصد ؛ فاتُّهِمَ الجميع بالتجسّس لصالح سليم الأول (٢).

وما أن علم السلطان طومان باي حتّى رَسَم بشَنق اثنين من العربان المرافقين للوفد العثماني ، لأنّهم أتوا بالوفد من الطريق المخفيّة على العثمانيين. كما أمر بالبحث عن أربعين عثمانياً كانوا قد اختفوا بالقاهرة قبل حضور الوفد. وقد نودي بخان الخليلي بأن لا يأوي أحدٌ غريباً من جماعة سليم الأول (٣).

وقد ضبط مع الوفد كتبٌ ومطالعات موجهة للأمراء وأعيان القاهرة ؛ فرسم طومان باي بتغريق قاصد سليم الأول في النيل (٤).

والجدير بالذكر أنّ سليماً الأول عندما زحف على مصر ، قسّم جيشه إلى فرقتين ؛ الأولى عبر الطريق الساحلي المعروف ، والفرقة الثانية عبر طريق سيناء – عجرود ، مما يشير إلى تجنيد عربان المنطقة (٥).

وبانتصار سليم الأول على طومان باي في معركة الريدانية سنة ٩٢٣ / ١٥١٧ ، تحولّت مصر إلى ولاية عثمانية ، وعيّن عليها خاير بك والياً. ولما عاد سليم الأول إلى دمشق ، عيّن جانبرد الغزالي والياً على بلاد الشام. كما عزل ابن الحنش وعيّن محمد بن قرقماش البدوي نائباً على بيروت وصيدا ، وأعطاه التقدمة على البقاع والجولان ونوى(٦).

---

* عجرود : محطة من محطات الحاج المصري على بعد عشرين كيلو متراً إلى الشمال الغربي من مدينة السويس . (محمد رمزي ، القاموس الجغرافي ، ١/ ٣٢١).

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ٥/ ١٢٢ .

(٢) ابن إياس ، م.ن ،ص : ١٢٣ .

(٣) م.ن ، ص : ١٢٤ .

(٤) م.ن ، ص.ن .

(٥) م.ن ، ص : ١٣٦ .

(٦) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ٢/ ٧٧ – ٧٩ .

الخلاصــــــــــــة:

يتبيّن من أحداث هذا الفصل أن دولة المماليك الناشئة قد تعرّضت إلى خطرين في آنٍ واحد ؛ خطرُ بقايا الصليبيين في سواحل بلاد الشام ، وخطرُ المغول الجارف والمدمّر الذي لا يميّز بين المماليك وبين أعراب الشام. وهناك خطر العثمانيين الذي ظهر فـــي السنوات الأخيرة من عمر الدولة المملوكية.

ففي الوقت الذي كان فيه المماليك وأعراب الشام يتصدّون للخطر المغولي ؛ فقـــد أُنيطت بهم مهمة تصفية بقايا الصليبيين من بلاد الشام. فاشترك أعراب الشام ولو بشـــكل محدود مع بيبرس وقلاوون وخليل في تصفية الصليبيين.

كما تمكّن سلاطين المماليك وأمراء أعراب الشام من بناء جبهة دفاعيّـــة صلبـــة تكسّرت عليها هجمات المغول في معارك فاصلة (عين جالوت ، وحمص ، وشـقحب). وقد أكّد غالبية مؤرخو تلك الفترة على دور أعراب الشام الفاعل والمؤثر في تحقيق تلـــك الانتصارات على المغول.

ولم يقتصر دور أعراب الشام على الاشتراك في هذه المعارك الحاسمة ، بل ظلّوا العيون الساهرة على حدود بلاد الشام مع العراق ومخاضات الفرات ، يراقبون تحركـــات المغول ، ويشاغلون طلائعهم ، وينذرون قيادة المماليك بشكل مبكر بحجم الخطر القادم.

والجدير بالذكر أنّ أمراء أعراب الشام ظلّوا أوفياء لبلادهم رغـــم اتخـــاذ باديـــة العراق ودولة المغول ملجأً آمناً من بطش وملاحقة المماليك ، لكنّهم لم يتآمروا أو يتحالفوا مع المغول ضد المماليك ، ولم يسهّلوا مهمة المغول في اجتياح بلاد الشام بـــل تصـــدّوا للمغول وساهموا في دحرهم.

كلّ هذا يشير إلى جبهة داخلية قوية ؛ لكنّه عندما تصدّعت هذه الجبهـــة الداخليـــة للمماليك ، فقد أُلحق المغول هزائم مدمّرة بالمماليك وأعراب الشام ، فكـــانت هزيمـــة موقعـــة (الخازندار) سنة ٦٩٩/ ١٢٩٩ خير مثال على ذلك. إلاّ إن الهزيمـــة دفعـــت أمراء المماليك وسلاطينهم إلى وقف الصراعات السلطوية جانباً ، وتعبئة طاقات أعـــراب الشام ، مما مكّن الجبهة من محو آثار تلك الهزيمة بعد أقل من ثلاث سنوات في معركـــة حمص.

وكما تصدّعت الجبهة الداخلية في بداية حكم الناصر محمد بـــن قـــلاوون ، فقـــد تكرّرت مثل هذه الصورة في عهد فرج بن برقوق ، مما سهّل مهمة تيمور لنك باجتيـــاح بلاد الشام. وإذا كان المماليك وأعراب الشام قد هُزموا في موقعة الخازندار ، فإن أمـــراء فرج بن برقوق قد غيّبوا أعراب الشام تماماً عن مواجهة تيمور لنك. وأما مصير تلـــك القبائل البدويّة ، فيفترض أنها ابتعدت مؤقّتاً عن ديارها واتجهت إلى داخل باديـــة الشـــام

حتى لا يُصيبها دمار قوات تيمور لنك. لكنّ هذا لم يمنع عناصر بدوية نشطة من مهاجمة تجمّعات المغول في وسط بلاد الشام وإلحاق الخسائر البشرية والمادية بهم.

وأمّا دورُ أعراب الشام في مواجهة العثمانيين في بدايـــة القـــرن الســـادس عشـــر الميلادي ، فقد كان محدوداً وعلى نطاق ضيّق وغير مؤثّر في الأحداث. ومـــردُّ ذلك راجع إلى سوء العلاقة بين سلطة المماليك وأعراب الشام ، وخاصة في عهد قايتبـاي وقانصوه الغوري. كما أن ضعف دولة المماليك انعكس على دور أعراب الشام سلباً.

ومن اللافت للنظر أمران ؛ غياب أعراب الشام عن معركة (مرج دابق) ، فـــلا نملك تفسيراً لذلك سوى تأكيد سوء العلاقة بين المماليك وأعراب الشام. الأمر الآخـــر ؛ ظهور مقاومة أعراب الشام لقوات سليم الأول في دمشق وضواحيها ، وفي غزّة ، لكنّـــها في نهاية الأمر لم تمنع سليم الأول من تحويل بلاد الشام إلى ولاية عثمانية.

الخاتمـــــة

الخاتمـــــــــــة

ظلّ المماليك على علاقةٍ متّصلةٍ مع أعراب الشام طوال الحكم المملوكي ، لكنّها علاقـــة متذبذبة بين مدٍّ وجزرٍ ، اتفاقٍ واختلافٍ ، تعاونٍ وتنازع. وبـــالرغم مـــن ذلـــك ، فـــإنّ المماليك استطاعوا الوصول إلى اتفاقٍ طويل الأمد مع أعراب الشام ، وأدخلوهم في نظام الدولة المملوكية.

وللوقوف على مدى العلاقة بين أعراب الشام و دولة المماليك ؛ اخترنـــا نمـــاذج لعلاقاتٍ إيجابية ، وأخرى لعلاقاتٍ سلبية كصورة مرئية لتذبذب هـــذه العلاقـــات بيـــن الطرفين ؛ ويمكن من خلالها تلمس أوجه المصالح المشتركة التي أسهمت في خلق هـــذه العلاقات ؛ كما يمكن التعرف إلى السلطان المملوكي الذي شهدت في عصره تواصلاً أكثر من غيره.

علاقـــات إيجابيّة	علاقـــات سلبيّة	السلاطيـــن
• إكرام وفود أعراب الشـــام والإنفـــاق عليهم بسخاء في القاهـــرة ســـنة ٦٤٨ / ١٢٥٠ .		عز الدين أيبك.
• منح عيسى بـــن مهنّـــا أميـــر آل فضـــل (سلميّة) مكافأة لدوره وعربـــه في محاربة المغول في موقعـــة عيـــن جالوت سنة ٦٥٨/١٢٦٠ .		قطـــز
• إصدار منشور بإمرة العـــرب للأمـــير عيسى بن مهنّا ، واستقرارها كوظيفـــة رسمية منذ سنة ٦٥٩ / ١٢٦٠ . • اشتراك أعراب الشام في إحياء الخلافـــة العباســـية ســـنة ٦٥٩/١٢٦١ و ٦٦١/١٢٦٢ . • حل الخلافـــات بيـــن أعـــراب الشـــام وإصلاح أحوالهم.	• اعتقال الأمير زامل بـــن علي بن حديثة في قلعة عجلون ثم قلعة الجبـــل ٦٦٣ / ١٢٦٥ . • ملاحقة أعراب جنـــوب بلاد الشام لاعتراضـــهم طرق التجارة والحـــج أحياناً ٦٦٣ / ١٢٦٥ .	الظاهر بيبرس.

علاقــــات إيجابيّة	علاقــــات سلبيّة	السلاطيــن
• تكليف أعراب الشام بحفظ طرق التجارة والحج وخدمة البريد وخدمات أخرى ٦٥٩ / ١٢٦٠ . • تأمين الخيل والإبل والأغنام للدولة المملوكية. • تكليف أعراب الشام بمقاومة المغول : ٦٥٩ و ٦٧٥ / ١٢٦٠ و ١٢٧٠ والصليبيين : ٦٥٩ و ٦٦٤ / ١٢٦٠ و١٢٦٦ .		
• التعاون في مقاومة المغول سنة ٦٨٠ / ١٢٨١ ؛ وفي مقاومة الصليبيين سنة ٦٨٩ / ١٢٩٠ .	• خروج أعراب الشام عن الطاعة وتأييد (عيسى بن مهنّا وأحمد ابن حجّي) لحركة سنقر الأشقر الانفصالية ٦٧٨ / ١٢٨٠.	قلاوون.
• مقاومة الصليبيين سنة ٦٩٠ / ١٢٩١.	• الانتقام من أعراب الشام ، واعتقال أميرهم مهنّا بن عيسى ، وعدد من أولاده وإخوته.	الأشرف خليل ابن قلاوون.
• عودة بني كلاب إلى الطاعة سنة ٧٠٤ / ١٣٤٠ . • قبول شفاعة مهنّا بن عيسى بالشيخ أحمد بن تيمية سنة ٧٠٧ / ١٣٠٦ . • اجتماع زعماء أعراب الشام حول السلطان ومساعدته للعودة وتهنئته بالحج. • مقاومة المغول : ٦٦٩ / ١٢٩٩ ، ٧٠٢ / ١٣٠٠٣ .	• خروج أمير العرب مهنّا بن عيسى عن الطاعة والتجاؤه إلى المغول سنة ١٣١٢/٧١٢ بسبب فشله بإنهاء الخلاف بين قراسنقر والسلطان.	الناصر محمد بن قلاوون.

السلاطين	علاقات سلبيّة	علاقات إيجابيّة
أبناء الناصر محمد بن قلاوون : أحمد - حسين حسن - شعبان- حاجي.	• خروج أمراء العرب عن الطاعة ٧٤٢-٧٧٥ /١٣٤١-١٣٧٣. • مهاجمة أمراء المماليك لديار أعراب الشام أحياناً (٧٤٢ - ٧٨٣هـ).	• عودة الأمير مهنّا إلى الطاعة سنة ٧٣٤ / ١٣٣٣ . • استعانة السلاطين بأعراب الشام لاستعادة عروشهم ، ولإنهاء حركات التمرد المملوكية ٧٤٢ / ١٣٤١ ، ٧٤٣ / ١٣٤٢ ، ٧٦٢ / ١٣٦١ .
الظاهر برقوق.	• اقتتال بين نواب الشام وأعرابها. • خروج أمير العرب نعير عن الطاعة وتأييده لحركات التمرد والعصيان (حركة الناصري ومنطاش) ٧٩١ / ١٣٨٨ .	• إعانة أعراب جنوب بلاد الشام ، وعرب آل الحنش للظاهر برقوق بالعودة إلى عرش السلطنة ؛ ٧٩١ / ١٣٨٩ . • انفراج العلاقات بين أمير العرب نُعير ابن حيّار وبرقوق ٧٩٥ / ١٣٩٣ بعد مقتل منطاش. • وقوف أعراب الشام بجانب برقوق في مواجهة خطر تيمور لنك ٧٩٦ / ١٣٩٤ .
فرج بن برقوق.	• صراع بين أمراء المماليك وأمراء أعراب الشام ٨٠٤ / ١٤٠٢ ، ٨٠٩ / ١٤٠٧ .	• استعانة السلطة المملوكية بعرب آل فضل بالقضاء على حركات التمرد المملوكية ٨٠٤ / ١٤٠٢ ، ٨٠٨ / ١٤٠٦ .
شيخ المحمودي.	• ملاحقة السلطة المملوكية لأمراء أعراب الشام : آل فضل ، جَرْم ، آل بشار ٨١٨ / ١٤١٥، ٨٢٠/ ١٤١٧ .	• استعانة السلطة المملوكية بعرب الشام ضد التركمان ٨١٥ / ١٤١٢ .

علاقـــات إيجابية	علاقـــات سلبيـــة	السلاطيـــن
	• خروج أمراء العـــرب عـــن الطاعـــة ٨٣١ / ١٤٣٣، واستمـرار الصـــراع بين الســـلطة وأمـــراء العرب ٨٤٨ / ١٤٤٤ ، ٨٥٧ / ١٤٥٣ .	برسباي و جقمق.
• مشاركة محدودة لأعراب الشـــام فـــي مقاومة الخطر العثماني ٨٩١ / ١٤٨٦.	• ملاحقـة الســـلطة لأعـــراب الشـام فـــي دمشـــق وحـــوران ٨٩٠ / ١٤٨٥ ، ٨٩٣/ ١٤٨٨ .	قايتباي.
• مشاركة ضيقة جدا لأعراب الشام فـــي مقاومة العثمانيين ٩٢٢ / ١٥١٦ .	• خلافـات حـادة بيـــن السـلطة المملوكيـــة وأعراب الشام. • تـهميش دور أعـــراب الشـام فـــي مواجهـــة العثمـــانيين ٩٠٦ – ٩٢٢/١٥٠٠_١٥٦١ .	قانصوه الغوري.

أثـــــر العلاقـــات بوجهيها الإيجابي و السلبي بيـــــن أعـــراب الشـــام والمماليـــك

إنّ إلقاء نظرة فاحصة على محتوى هذه الأطروحة ، وما اخترنـــاه مـــن نمـــاذج للعلاقات التي سادت بين أعراب الشام والمماليك ، يمكن أن تساعدنا في الوقـــوف علـــى جانب من النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة.

أولاً :

سارت العلاقات بين أعراب الشام كفئة محكومة وبين المماليك كفئة حاكمة في اتجاهين : الأول ، يمثل العلاقات الإيجابية ؛ والثاني ، يمثل العلاقات السلبية.

ثانياً :

تركّزت العلاقات الإيجابية بين أعراب الشام والمماليك في عهد دولة المماليك الأولى (التركيّة) وبداية حكم دولة المماليك الثانية (الجركسيّة) ؛ بينما تركّزت العلاقات السلبية بين الطرفين في عهد دولة المماليك الجراكسة خلال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، والسنوات الأولى من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي.

ثالثاً :

تركتْ العلاقات الإيجابية بين أعراب الشام والمماليك آثاراً طيبةً ؛ بينما تركتْ العلاقات السلبية آثاراً سيئة ، يمكن تلمّسها على **الصعيدين الداخلي والخارجي** على النحو الآتي :

■ على الصعيد الداخلي :

(أ) أثر العلاقات الإيجابية :

● أدركت السلطة المملوكية أهمّية أعراب الشام كفئة لا يمكن تجاوزها تماماً ؛ فعملت على استيعابهم في نُظُمها الإدارية. ومن هنا استحدثت لهم منصب **(إمرة العرب)** كمنصب سياسي يتولاّه أمير العرب. وقد أكّدت السلطة المملوكية على أحقّية آل فضل بتولي هذا المنصب ، ربّما لأنّ قبيلتهم حافظت على طابعها البدوي ، وتمتّعت بشهرة واسعة لامتداد نفوذها في رقعةٍ واسعةٍ من بادية الشام ، إضافة إلى أنّها من أكبر القبائل العربية وأكثرها قوةً وتماسكاً. كما أنّ السلطة المملوكيّة حافظت على منصب **(مشيخة العرب)** الذي يتولاّه أمير محلّي من أبناء القبيلة الواحدة. هذا ، وقد ظلّ السلاطين المماليك يُعيّنون أمراء العرب وشيوخهم ويعزلونهم وقتما شاءوا.

● اشترك أعراب الشام والمماليك في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، فالأعراب حريصون على ضرورة وجود خليفة يرعى أمورهم الدينية والدنيويّة ، ولعلّه يحدّ من سلطة المماليك ؛ والمماليك يعملون على توفير سند شرعي لسلطتهم السياسيّة.

● شكّل أعراب الشام مصدراً أساسياً لتأمين حاجة المماليك من الخيول العربية الأصيلة والهجن والأغنام ، سواء عن طريق بيعها لسلاطين المماليك أو إهدائها لهم ؛ كما فرضت السلطة ضريبة العِداد على الإبل والأغنام. وقد دفعت حاجة المماليك للخيول العربية الأصيلة إلى زيادة اهتمام أعراب الشام بتربية الخيول وتتبع أصولها حتى غَدَت وسيلةً تقرِّب بين الأمراء العرب وبين السلاطين المماليك. ومع هذه الأهمية الزائدة لخيول الشرق العربي ، إلاّ أنّها لم تمنع توجّه أنظار السلاطين المماليك إلى خيول المغرب العربي والحصول عليها عن طريق الشراء أو الهدايا.

● أدرك سلاطين المماليك أهمية أعراب الشام ، فهم سكّان بادية الشام التي تمر فيها طرق التجارة ودروب الحج ومراكز البريد ؛ فكلّفتهم بمهمة رعاية دروب الحج الإسلامي والمسيحي ، وجنّدتهم لحماية القوافل التجارية عبر بادية الشام ، والمحافظة على مراكز البريد وتأمينها بالخيول اللازمة. وقد تلقى هؤلاء الأعراب الإقطاعات والمكافآت من المماليك ، كما سمح لهم بفرض ضرائب على القوافل التجاريّة مقابل حمايتها.

وقد تعهّد آل فضل للسلطة المملوكية بإصلاح السابلة في بلاد الشام وخاصة بين بلاد الشام والعراق ، كما تعهّد عرب جنوب بلاد الشام بالمحافظة على مراكز البريد ، ودروب الحج ، والقوافل التجارية. ومع هذا فإنّ السلطة المملوكية كانت ترسل حملات تأديبيّة ضدّ البدو ، لإشعارهم بوجود السّلطة المملوكيّة ، ولحماية مصالحها من العنف البدوي.

● استعان سلاطين المماليك بأعراب الشام في تثبيت عروشهم والعودة إليها في حالة خلعهم منها أو نَفْيهم. ومن هنا غدت (الكرك) في جنوبي بلاد الشام ملاذاً آمناً لهؤلاء السلاطين أمثال : الناصر محمد بن قلاوون وأولاده ، والظاهر برقوق ، الذين تلقّوا كلّ العون والمساعدة من أهل الكرك والبلقاء وبقية أعراب الشام. وقد وصلت العلاقات الحسنة بينهما إلى درجة أنّ عدداً من سلاطين المماليك ارتدى زِيّ الأعراب تخفّياً أو تقرُّباً وتحبُّباً.

● حظي أمراء عرب الشام بالكثير من التقدير من سلاطين المماليك ، فكثيراً ما قدّم لهم السلاطين الهدايا والإقطاعات وحسن الضيافة في القاهرة ، لدرجة أن الدولة المملوكية حدّدت مبالغ مالية ثابتة للإغداق على أمراء العرب.

● نال بعض أمراء الشام مَرْتَبة (نائب السلطان) ولو بصورة محدودة ، مِثْلَمَا حدث للأمير علاء الدين بن الحنش الذي عيّنه الظاهر برقوق نائباً لبعلبك ؛ كما عيّن طومان

باي الأمير ناصر الدين بن الحنش نائباً لحمص. وهكذا ، احتلّ أعراب الشام مكانة مرموقة لدى سلاطين المماليك ، فأصبحت كلمتهم مسموعة ، وشفاعتهم مقبولة أحياناً.

(ب) أثر العلاقات السلبيّة :

إذا كان المماليك يشكّلون دولة ذات سيادة وسلطة تتحكّمُ في نوع النشاط وتحدده لرعاياها ؛ فإنّ أعراب الشام من رعايا هذه الدولة ، لكن ولاءهم للقبيلة وليس للدولة ، ولهم مقاييسهم الخاصة بالإخلاص السياسي للدولة ، والذي يُفترض أن يأخذ بعين الاعتبار مصالحهم الماديّة ومنافعهم الشخصيّة ، ويحترم عاداتهم وتقاليدهم. وهم ينفرون من القيود التي تفرضها السلطة المملوكية ويقاومون أيّة محاولة لإذلالهم أو استرقاقهم لأنها تتعارض مع حريّتهم البدويّة.

ومن هنا فإن العقلية الأرستقراطية العسكرية المملوكية ممثّلة بالأشرف خليل بن قلاوون لم تستوعب مفاهيم البداوة. بل فتحت صفحةً جديدةً من سُوءِ العلاقات لكسر شوكة أعراب الشام ممثلين بأميرهم مهنّا بن عيسى الذي ارتفعت مكانته منذ عهد قلاوون، فغدر الأشرف خليل به واعتقله وعدداً من أبنائه وإخوته ، وزجّ بهم في سجن القلعة بالقاهرة.

● ارتبطت العلاقات السلبية بحالات من الشّكّ في التعامل بين أعراب الشام والمماليك، فولّدت فقدان الثّقة ، وأوصلتها إلى حدّ الكراهية المتبادلة والقائمة على أساس من النسب أولاً والمصالح ثانياً.

● تحيّن كلٌ من الطرفين الفرص المناسبة للإيقاع بالطرف الآخر ، فانضمّ أعراب الشام إلى حركات التمرّد والعصيان التي قام بها أمراء مماليك طامعون بالسلطة. فأقدم بعض سلاطين المماليك على عزل أمراء العرب الخارجين عن الطاعة وتعيين أمراء عرب مؤيّدين لهم ؛ وقسّموا إمرة العرب مناصفة أو أكثر أحياناً. كما سحبوا إقطاع أمراء العرب المعارضين وقطعوا أخبازهم ؛ وأمروا بطردهم من ديارهم ، حتى وصل الأمر بالسلطان قايتباي إلى تولية منصب مشيخة العرب لأمراء مماليك على حدّ قول ابن إياس.

● وجد أعراب الشام أنفسهم محاطين بسلطانٍ يملك دولة قوية استخدمت العنف انتقاماً منهم ، ولكنّهم لم يتقاعسوا بل استخدموا من الأساليب ما يوازي عنف الدولة ؛ فاعترضوا قوافل التجارة ، وألحقوا الأذى بمواسم الحج ؛ وشنّوا غاراتٍ على القرى والمدن الواقعة

على حافة البادية لتأمين مصادر رزقهم. فتعاملت السلطة المملوكية معهم كخارجين عن القانون والنظام دون النظر إلى الأسباب ؛ فأنفذت ضدّهم حملاتٍ عسكريّةٍ ألحقت الخراب والدمار في ديارهم. وقد ولّدت عمليات الانتقام المملوكية عُنفاً بدوياً لم يتوقف تماماً مما انعكس على أوضاع بلاد الشام ، وجعلها تدخل في فترات من الفوضى وانعدام الأمن أحياناً.

ومن هنا يمكن القول بأن تصادم العقليات المملوكية مع العقليات البدوية الشامية أفرز علاقاتٍ سيئةٍ ارتبطت بنتائج سلبية على العرب والمماليك على الصعيد الداخلي.

▪ على الصعيد الخارجي :

(أ) في ظل العلاقات الإيجابية :

● أدرك المماليك وأعراب الشام خطر المغول المدمّر على مصيرهم ، فلم يفرّط بعض سلاطين المماليك بأعراب الشام رُغم تأزّم المواقف التي وصلت إلى حدّ لجوء بعض أمراء العرب إلى طرف المغول. كما أنّ أعراب الشام لم يتعاونوا مع المغول ولم يشجّعوهم على غزو بلاد الشام. وربّما كان لجوءهم إلى أعدائهم بمثابة ورقة ضغطٍ مؤقتة على قيادة المماليك.

● كوّن المماليك من أعراب الشام قواتٍ عسكريةٍ نظاميّة تقاتل في صفوف الجيش المملوكي ؛ كما شكّلوا منهم قوات احتياطيّة تقاتل عند اللزوم.

● أدى التعاون والتنسيق بين أعراب الشام والمماليك إلى تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام ، وحقّق انتصاراتٍ ساحقة على المغول في معارك حاسمة بدءاً بعين جالوت ، وانتهاءً بموقعة شقحب.

● أيّد أعراب الشام حكم المماليك لبلاد الشام وسياستهم الخارجية ، وربّما كان ذلك لأن المماليك أصبحوا بنظر أعراب الشام القوّة المؤهلة للدفاع عن الديار الشاميّة. كما أن هذا التجاوب كان عاملاً من العوامل التي مكّنت المماليك من الدفاع عن بلاد الشام.

(ب) في ظل العلاقات السلبية :

● أدّى عدم التنسيق والتعاون بين المماليك وأعراب الشام والقوى المحلية الأخرى إلى تعرّضِ بلاد الشام إلى الخراب والدمار الذي ألحقه المغول غير مرّة.

● اتّجه بعض سلاطين المماليك - فرج بن برقوق قايتباي وقانصوه الغـــوري - إلـــى تهميش دور أعراب الشام السياسي والعسكري ، مما كان له أكبر الأثر في إبعادهم عـــن مواجهة الأخطار الخارجية (المغولية والعثمانية) والتصدي لها ؛ فعُدّ هذا من العوامـــل التي عجّلت في سقوط دولة المماليك على يد العثمانيين ، وتحويل بلاد الشام إلى ولايـــة عثمانية.

لهذا كلّه ، يمكن القول إنّ أعراب الشام كان لهم دورٌ بارزٌ في استتاب الأمن ودفع الأخطار الخارجية إذا كانت سياسة المماليك إيجابية معهم. كما كان لهم دورٌ في الإخلال بالأمن وتصدّع الجبهة الداخلية إذا كانت علاقة السلاطين المماليك سلبية معهم.

وبعد ، فلا أزعَم لهذا البحث ونتائجه الكمال ، فقد أحاطت به ظـــروف إيجابيـــة وأخرى سلبية ؛ وبقيت كثرة من الأمور المتعلقة به بحاجة ماسة إلى مزيدٍ مـــن البحـــث والاستقصاء والتنقيب ، خاصة في عصرٍ لا زالت أغلب وثائقه مخطوطة. ولذا أقدّم دعوة خالصة للباحثين والمهتمين بهذا العصر كي يتناولوا بالبحث والدراسة علاقات الممـــاليك بفئات أخرى من فئات المجتمع المملوكي .

الملاحق والجداول
وشجر النسب والخرائط

الملاحـــــــــــق

اخترنا ستة ملاحق تاريخية كنماذج للنصوص التاريخية المأخوذة من مصادرهـــا الأولى. وقد حَرصنا على عدم التدخل بمفرداتها ، وعلى ألا تكون قد نشرت في الكتابات المعاصرة ، ورتّبناها حسب أسبقيتها الزمنية على نحو الآتي :

- **الملحق الأول** : يتعلّق بأمراء أعراب الشام الذين وفدوا علــى الظــاهر بيــبرس. وهــو منقــول عــن :
  ابن شداد (-٦٨٤/١٢٨٥) ، تاريخ الملك الظـاهر ، ص : ٣٣٣-٣٣٥.

- **الملحق الثاني**: يتناول وصفاً لآل عيسى من آل ربيعة الطــائيين كمــا وصفــهم :
  ابن فضل الله العمـــري (-٧٤٩/١٣٤٩)، مســالك الأبصــار ، مخطوط ، ٤/١٤٤-١٥٣.

- **الملحق الثالث**: وهو ترجمة للأمير حسام الدين مهنّا بن عيسى بن مهنا أمير العــرب ، نقــلاً عـــن :
  الصفدي ، الوافي بالوفيّات ، مخطوط ، ٢٦ / ١٩٩-١٢٢.

- **الملحق الرابع**: تناول جانباً من العلاقة بين أولاد نُعير بن حيّار مع السلطان الظـــاهر برقوق ، وهم يُعلنون الطاعة في الوقت الذي كان فيه والدهم نعير بـــن حيّار خارجاً عن الطاعـــة ؛ نقــلاً عــن :
  ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ٩/ ٣٣٦-٣٣٨.

- **الملحق الخامس**: وهو مثالٌ على نموذج لنسخة تقليد بإمرة آل فضل للأمير فضل بـــن عيسى بن مهنا ، صادرٌ عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ؛ نقـــلاً عن: القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١٢/ ١١٨-١٢١.

- **الملحق السادس**: وهو مثالٌ على نموذج لنسخة مرسوم بتولي الأمير قناة بـــن نجــاد نصف إمرة آل مرا ، صادرٌ عن السلطان الناصر محمد بن قــلاوون ؛ نقلاً عن : القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١٢/ ١٣٢- ١٣٥.

(الملحـــــق الأول)

أمراء أعراب الشام الذين وفدوا على الظاهر بيبرس

أرسى الظاهرُ بيبرس دعائمَ العلاقاتِ الحسنةِ معَ أمراءِ أعرابِ الشـــــام ، فـــأمّرَ أمراءهم ، وأقطعهم الإقطاعاتِ ، وكلّفهم بحفظِ الدروبِ وحمايةِ الحدود.

* وممّن وفدد عليه من أمراء العرب : وفدَ عليه أوّل مملكته الأميرُ شرفُ الديـــن عيسى بنُ مهنّا بنِ مانعِ بنِ حُذيفةَ من آل فضلٍ ، فأحسن إليه وأقبلَ عليه ، وأمّره علـــى نقرةِ حلبَ إلى حمصَ ، وأقطعه سَرْمِيْنَ ونصفَ سلميّة ، وقدّمه على أمراءِ آلِ فضـــلٍ وأصدر له منشورَ إمرة العرب على عرب الشام ، وأقطع أولاده مهنّا فضـــلَ وهبـــة ومحمدَ وحذيفة. ووفد عليه عثمانُ بنُ مانع فأَقْطَعَهُ. ووفدد عليه الأميرُ نورُ الدين زامـــلُ ابنُ الأميـــر سيـــفِ الدين عليّ بن حذيفة ، فأحسن إليه وأقطعه إقطاعاً ؛ فلمّا باينَ الأمـــيرُ شمسُ الديـــن آقـــوش برلي السلطان الملك الظاهر ، انضمّ إليه ، ثمّ لمّا قَصَدَ شمسُ الدين آقوش برلي السلطان الملك الظاهر ، فارقه زاملُ ، وقَصَدَ التّترَ ، فلم يزل السلطانُ يُعمل الحيلةَ عليه إلى أن قَدِمَ عليه فحبسَه ولمْ يزلْ في حَبْسه إلى أن مات فيه. ووفد عليه إخوتُه أولاد الأميرِ سيفِ الدين عليّ بنِ حذيفةَ ، وهم : أبو بكر ، وعامرُ ، وبُرَيـــدُ ، وعمـــرُ ، وأولادهم. ووفد عليه أولادُ ثابتُ بنُ مانع ، وهم : إبراهيم ، ويحيى ، ومحمد ، وســيف. ووفد عليه أولادُ ظاهر بـــن غنّـــام بن محمدِ بنِ عامرِ بـــنِ فضـــل ، وهـــم : ربيعـــةُ ، ودرّاجُ ، وعامرُ ، وسعيدُ ، وحميدُ. ووفد عليه أولادُ هبةَ بنِ مانعِ بنِ حذيفةَ ، وهم : مانعُ وحذيفةُ ، وفضلُ. ووفد عليه أولاد جـــرّاحِ بنِ مانعِ بنِ حذيفةَ ، وهم : زمّالُ ، وعميرةُ ، وفضايلُ ، ومن هؤلاءِ مَنْ خوّلَهُ وموّلَهُ وأقطعهُ ، ومنهم من لم يلتفت إليه ، ومنهم مـــن حبسه. ووفد عليـــه عمـــرُو بـــنُ مخلـــولٍ وحامدُ ، وكان السلطان قد غضب عليـــهما ، وحبسهما بقلعة عجلـــونَ ، فنقبـــاها وهربا إلى التتر [(١)].

وممّن وفد عليه من آل مِرى (مِرا) : وفَدَ عليه الأميرُ أحمدُ بنُ حجّي بن بُريدٍ ، وأخواه ، وولداه سليمانُ وعسّافٌ.

---

(١) " ثمّ ندما على ما فعلا ، فكتبا إلى السلطان يستعطفانه عليهما ، فحلف أنه لا يرضى عنهما حتى يعودا بأنفســـهما إلى قلعة عجلونَ ويجعلا القيودَ في أرجلهما على ما كانا عليه حين حبسهما ، ففعلا ما طُلب منــــهما ، فعفـــا عنهما السلطان ". (ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، ص : ٦١).

ووفد عليه من عربِ الكركِ : الأميرُ شجاعُ الدينِ عربيدُ بنُ معالي ، والأميرُ عونُ ابنُ رزانٍ ، ناصرُ الدينِ عذيرُ بنُ نُمي ، وشرفُ الدينِ راشدُ بنُ نحـــير ، وهـــــؤلاءِ أعيـــانُ مشايخِ عربِ البلقا ، فاستخدمهم وأقطعهم من بلاد البلقا خارجاً عما كان بأيديـــهم في الأيام السالفة والترك المتقدمة. ووفد عليه سابِقُ الدينِ عُقْبَةُ ، وناصرُ الدينِ غنّامُ ابـن جوذر ، وهما أميرا بني عُقْبَة. ووفدَ عليه لما فتح الشوبكُ جمال الدين سكلُ بنُ نجادِ أمير بني عقبة بالبلقا ، وأخوهُ وهيبةُ بنُ نجاد ، وغيرهما من المشايخ فأقطعهم.

ومن عرب زبيدٍ : الأميرُ ناصرُ الدينِ نوفلُ أميرُ آلِ زبيدٍ ، والأميرُ زينُ الديـــنِ هارونُ ، ولما توفيا وفد ولداهما على باب السلطان الملكِ الظاهر ، وهما الأميرُ ضو بـنُ نوفلٍ ، والأميرُ موسى بنُ هارونَ ، فأقرّهما على إمرة أبويهما وأحسنَ إليهما.

(ابنُ شـدّادٍ ، تاريـــخ الملـــك الظـــاهر ، ص : ٣٣٣ - ٣٣٥).

(الملحـــــق الثانـــــي)

وصفُ آلِ عيسى من آلِ ربيعةَ الطائيينَ من أعرابِ الشامِ

" ..... وهؤلاءِ آلُ عيسى هم في وقْتِنا ملوكُ الـبرِّ مـا بَعُـدَ واقتـربَ ، وساداتُ الناس ، ولا تصلحُ إلاّ عليهم العربُ. قد ضربوا على الأرض نطاقاً ، وتفرقـوا فِجاجَها حِجازاً وشاماً وعِراقاً. أنّى نزلوا خِلْتَ الأرض قد رمَتْ أفلاذَهـا ، أو السّـماءَ قد مَرَتْ رذاذها ، ترتجُّ بخيولها صهيلاً وتحتجّ بسيوفها على الرقابِ صليلاً. تجمع قنابلَ، وتلْمعُ مناصِلَ ، وتُنبت قَناً ، وتُميت فِتناً. قد نصبوا بمدَرجَةِ الطريقِ خيامَهُم ، وأوقـروا في عالم السماع أعلامَهُم وأنّ الكرمَ أعلامُهم. وتقارعوا في قِرى الضّيفان ، وسـارعوا إلى تَقْريبِ الجفان. قد داروا على البلاد أسواراً حصينةً ، وسِواراً على مِعْصَمِ كُلِّ نَهْر ، وعِقْداً في جِيدِ كُلِّ مدينة ، وأحاطوا بالبَرِّ من كُلِّ جهاتِه ، وحرَسوهُ من سائر مواضِعِـه وآفاتِهِ ، وصانوه من كُلِّ طارقٍ يتطرّقُ ، وسارقٍ يتسلّلُ أو يتسرّقُ. فلا تبصرُ إلاّ مرسى خيامٍ ، ومسرى هِيام ، وموردَ كِرامٍ ، وموقدَ ضِرام ومقْعدَ هُمام ، ومَعْقدَ ذِمامٍ ، ومجـالَ غَمامٍ ، وآجالَ رزقٍ أو حِمام ، ومَعْهدَ أيادٍ جِسامٍ ، ومَشْهَدَ يومٍ يرعفُ به أنْفُ قنـاةٍ أو حُسـامٍ ؛ وتكبيـراً وتكثيرَ صِلاتٍ ، ومكانَ مَفْزَعٍ ، وأماناً من يَجْزَعٍ ، وملْجأ خـائفٍ ، وملْجَمِ حائفٍ. وسجايا ملكيّة ، وعطايا بَرْمكيّة ، مواهِبَ طائيّـة ، ومذاهـبَ حاتميّـة ، وبوادرَ ربيعيّة ، ونوادرَ مرعيّة. وصوارمَ تَتَحَسُ بذيلها الرقاب ، ومكارمَ تَتَحَسَّسُ علـى آثارها السُّحاب. لا يُطرَقُ لهم غاب ، ولا يُطرَقُ لهم بَذلُ رِغاب. ولا يُطرحُ لهم بيـت مضيف ، ولا يُطيح إلاّ إليهم تابع مشتى ومَصيف. لا يخلو ناديهم عـن سـيّدٍ مُسَـوَّدٍ ، وكريمٍ مُقَدّمٍ ، وشُجاعٍ بَطلٍ ، وجوادٍ كريمٍ ، وحليمٍ وقورٍ ، ووافدِ آملٍ ، وقاصدِ نـائلٍ ، وصارخٍ ملْهوفٍ ، وهاربٍ مُستجيـرٍ. لا تَنْفَـكُّ لهم ناراً قِرىً وقِراع ، ومنـاراً مُنـىً ومناع ؛ يَسْرحُ عدد الرملِ لهم إبلٌ وشاه ، ومددَ البحرِ ما يُريد المريدُ منهم ويشاء. تُطِلُّ منهم على بيوتٍ قد بُنيت من الشـعر الأسـود ، وبُطِّنت بالديبـاج والحريـر والوَشْـي المرقومِ ، وفُرِشت بالمفارش الروميّة ، والقطائفِ الكُرجيّة ؛ ونُضّـدَت بـها الوسـائد ، وقامت حولها الولائد. وشُدَّت بوتدِ السّماء أطنابُها ، وأُعِدَّت لطوالـعِ النُّجـوم قِبابُـها ، وأُرْخِيَتْ سُجُفُها ، وشُرِّعَتْ أبوابُها إلى الهواء ، واستُصرِخَتْ واستُغيثَ بها لدفع اللأواء ، ورُفِعت عُمُدُها ، ووُضِعت حَجَلاتُها ، وقُرِّر في الأرض وتَدُها ، وطَلَعتْ البـدور فـي أكِلّتِها، ورتعت الظّباء في مشارقِ أهِلّتها.

وحولهم خيولٌ تحمي حُجُبَها ، وترمي إزاءَ البيوتِ سُحُبَها ، وتعرفُ بين العـرب الأترابِ عُرُبَها ، وتعرضُ في الشُّهبِ الحسانِ نُخَبَها من كرائمِ الخيلِ المخبورةِ ، وعظـائمِ

السيلِ معنىً وصورة. قدْ تمايلْت ألواناً ، وتقابلتْ في مناسبَ الخيلِ إخواناً ، وتنوّعت شياتُها فبرزتْ بُستاناً. وتسرّعتْ أعْوَجيّاتُها السوابق فَقَصُرَ مدى لاحق ، وتقدّمت قُدّامه ميداناً. وتفرّعت من أصول العرب في ربيعةَ ومُضَرَ ، وتبرّعتْ بما لا يلْزمُها فمنها ما انتظرَ ما خلفهُ ، ومنها ما فاتَ النّظر. وتقدّمتْ وأمْهلَتْ وراءها الرياح ، وأقدمت وأنْهلت ظَمَأها مورد الصباح. ومرّ كلُّ طرفٍ منها وطرفُ البرقِ حائر ، وقدْ وجوارُ المجرّةِ ما فيها طريقٌ لسائر. وخفّت والطيْرُ في وكَناتها لم تبْرحْ ؛ ووقفت والوحوش في مكان بياتِها لم تسْرَحْ * ....

..... فأمّا هؤلاءِ العربُ إذا ركبوا الهياجَ أو وثبوا إلى معاركةِ الفِجاجِ ، سدّت الأفُقَ قتاماً ، والطّرفَ إيلاً كراماً. قدْ تقلّدوا سيوفاً تُغرّقُ الأرواحَ في لُجَجِها ، وتُقصّرُ مُناظات الرّقاب لحجَجها. كأنّما طُبعت فيها حُمْرُ المنايا أو طُبّقت عليها سودُ الرّزايا. ترصّعت بالنجوم ، وانتهلت بالهلال ، وتقطّعتْ من الغيوم ، وضَرَبَتْ مُرهفات النّصالِ. لا يُخشى ورقُ حديدِها الأخضرُ ، ولا يُجتلى وجهُ فرنْدها الصقيل ولا يُنْظَرُ. قيل لها صوارمُ لأنّها صرَمَت الأعْمار ، وقواضبُ لإنّها تقْضِبُ الأجَلَ وتُعجّلُ الثمار ، ومَشْرفيّاتٌ لأنّها أشرَفَتْ على الرؤوس ، ومهنّداتٌ لأنّها تَرَى رأيَ الهنْدِ في إحراقِ النفوس ، ومناصلُ لأنّها تتنَصّلُ لا ممّا جَنَتْ ، وقواطعُ لأنّها تقطعُ بالأمرِ أساءَتْ أو أحْسَنَتْ. كأنّما تأكّلتْ فيها النار أو تشكّلتْ فيها الأنهارُ ** ......

(ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٤٤ – ١٥٣).

* يستمر ابن فضل الله العمري في وصف الخيل حتى ص : ١٥٢ .

** يستمر في وصف السيوف حتى نهاية ص : ١٢٣ .

(الملحـــــق الثالـــــث)

الأميـــرُ حســـامُ الديـــنِ مهنّـــا بـــنُ عيســـى بـــنِ مهنّـــا

مُهنّا بنُ عيسى بن مهنّا أميرُ آلِ فضلِ عرب الشامِ ، من بيتِ أوّلـــه رجـلٌ مـــن طـــيء من بني سلسلةَ بنِ عنينِ بنِ سلامانَ. نشأ هذا الرجلُ في أيّام أتابك زنكي وأيّـــام ولده نور الدين الشهيد ، وفد عليه فأكرمه وأشاد بذكره ؛ وإلى هذا عنين تنتسب كلُ عربِ عنين بولده ومن خلفائه ومن استخدمه الأمراء الذين من ولده. وهم يزعُمون أنّهم من ولَدِ جعفرِ بن يحيى بنِ خالدِ بنِ برمكَ من العبّاسة بنتِ المهديّ أختِ الرشيد هَارونَ. وهـؤلاء آل فضـــل هم جمهرةُ العرب ، وغمام الكرم ، وسحب السمّاح.

وجدُه ، هو الأميرُ مانعُ بنُ حديثَةَ بنِ فضلِ بنِ ربيعةَ الطائيُّ الســـاميُّ التدمـويُّ ؛ وكان أميرُ عربِ الشامِ في دولة طغتكين صاحبِ دمشقَ. ولم يُصرّح لأحدٍ من هذا البيتِ بإمرةِ على العربِ بتقليدٍ من السلطانِ إلاّ من أيامِ العادل أخي السلطان صلاحِ الدينِ الـــذي أمّرَ منهم حديثَةَ. ثمّ إنّ ابنه الكامل قسّم الإمرةَ نصفين ، نصفاً لمانعِ بنِ حديثَةَ وعلا فيـها قدْرُهُ وبَعُدَ صيتُهُ. فلمّا كان من البحريةِ ما كان ، ساقت تصاريفُ الدّهرِ الملكَ الظـــاهر بيبرسَ إلى بيوتهم وهو طريدٌ مُشرّدٌ ، ولم يكن قد بقي معه سوى فرسٍ واحدٍ يعولُ عليه ، فسألَ علـــيّ بن حديثَةَ فرساً يركبهُ فلم يُعْطِهِ شيئاً ، وكان ذلك بمحضرٍ من عيسى بـــن مهنّـــا ، فأخـــذه عيسى وضمّهُ إليه وآواهُ وأكرَمَهُ ، وخيّره في ربائطِ خيْلِهِ ، فاختار منها فرساً فأعطاه ذلك ، وزوّده وبالغ في الإحسانِ إليه ، فعرفها له الظاهر ؛ فلمّا تملّك انـتزع الإمرة من أبـــي بكرِ بنِ عليٍّ ، وجعلها لعيسى بن مهنّا. وأتاهُ أحمدُ بنُ طاهرِ بنِ غنّام ، وسألهُ أنْ يُشـــرِكَهُ مَعَـــهُ في الإمرة ، فأرضاه بأن يُعطيَه إمرةَ ببوقٍ وعَلَم. وبقي أبـــو بكر بنُ عليٍّ شريداً طريداً ، وتارةً بأطراف الشام إلى أن مات. وأمّنهُ الظاهر غيرَ مـــرةٍ وحلف له فَمَا وثق به ولا اطمأنّ إليه. ثمّ إنّ درجةَ عيسى بن مهنا عَلَتْ عندَ الظاهر ولـم يزل معظّمـــاً إلـــى أن مات (١).

ثمّ إنّ الإمرة صارت لولده هذا ، حسامِ الدين مهنّا بنِ عيســـى فـــي أيّـــامِ الملـــكِ المنصورِ قلاوونَ ؛ وعلَتْ مكانته في أيّامِ المنصورِ أكثرَ من مكانةِ أبيهِ.

قال القاضي شهابُ الدين أحمدُ بنُ فضلِ الله : حكى لي شيخُنا أبو الثنـــاءِ محمودُ ، قال : حضرتُ طرنطاي المنصوريّ وهو مخيمٌ بالخربةِ ، وقد حضره أحمدُ بـــن حجـــي أميرُ آلِ مِرا يدّعي بألف بعير أخَذَتْها آل فضل لعربه ؛ ومهنّا حاضرٌ وكلٌ منهما جـــالسٌ

---

(١) مات سنة ٦٨٣ / ١٢٨٤ .

إلى جانب من طرنطاي ؛ فألَحّ أحمدُ بنُ حجي في المطالبة ، واحتــدَّ وارتفــعَ صوتُــه ؛ ومهنّــا ســـاكتٌ لا يتكلّم ؛ فلمّا طال تمادى أحمدُ في الضجيج ، وتمـــادى مـــهنّا فـــي السكوت ، أقبل طرنطاي على مهنّا ، وقال له : ما تقولُ يا ملكَ العربِ ؟ فقـــال : ومـــا أقولُ! نعطيهم مـــا طلبـــوا ، هم أولادُ عمّنا ، وإن كانت لهم عندَنـــا هـــذهِ البعـــيراتُ أعطيناهم حقّهم ؛ وإنْ كـــانَ مـــا لهم شيء ، فما هو كثيرٌ إذا أعطينا بني عمّنا من مالِنا. فقال له أحمدُ : لا ، لا ، قُلْ ، تكلّم ؛ وزاد في هذا ومثْلِهِ ، ومهنّا ساكت. فلمّا زاد رفـــع مهنّا رأسهُ إليه ، وقال له : يا أحمد ، إنْ كانَ كلامك عليك هيّناً ، فكلامي عليّ مـــا هـــو هيّن ؛ وهذه الأباعرة أقلُّ مِنْ أنْ يحصّلَ فيها كلام ؛ وأنا معطيك إيّاها ، ثم قـــام. فقـــال طرنطاي : هكذا واللهِ يكونُ الأميرُ.

ودام مهنّا على هذا حتّى جاءت الدولةُ الأشرفيةُ ؛ ولمّا خرج الأشرفُ (خليلُ بـــنُ قلاوونَ) لفتحِ قلعةِ الرومِ ؛ مرّت العساكرُ بسرمينِ إقطـــاعُ مهنّـــا ، فأكلَـــت زروعها ، وآذَت أهلها ، فَشَكَوا إلى مهنّا أذيّةَ العساكر ؛ فشكا إلى الأشرف ؛ فعَزَّ عليه ، واســـتنقص همّتهُ ، وقال : كم جهد ما آذوا حتى تواجهني بالشكوى ، وما كان يُغتفر هذا الفعل لـــهذا الجيش العظيم ، الخارج لأجلِ إذلالِ العدوِّ وقصِّ جناحِ الكُفْر ؛ وأسمعه من هذا ومثلـــه. ثـــمّ لمّا كان الفتح ؛ ركِبَ الأشرف في الفرات في خواصّه ومعه جلساؤه من بني مهدي ؛ وكانوا يُضْحِكونه. فجاء مهنّا بن عيسى ؛ فأمر بمد الإسكالةِ لـــه ليدخُـــل ، فلمّـــا دخـــلَ عليهـــا، غَمَزَ عليه ، فَحُرِكَت الإسكالة فوقع في الماء وتلوّث بالطين ، فهزئت به بنـــــو مهدي ، وضحك الأشرفُ ومن حوله ، وطوى مهنّا على المهانـــةِ ؛ ثـــمّ اســـتأذن فـــي الانصراف إلى بيوته فـــأذن له وقال : إلى لعنةِ الله ؛ فأسرّها مهنّا في نفسه ولـــم يُبدهـــا وركب من وقته ، وتوجّه إلى أهله وأقام عندهم على حذر. ثمّ لما عاد الأشرف ، ونـــزل بحماة ، بعـــث إليه مهنّا بخيلٍ وجِمالٍ فقبلها وخلع على رسوله ، وبعث إليه خلعةً ســـنيّةً ليُطمّنـــهُ ثـــمّ يَكبِسَـــهُ. ثمّ لما جاءت إليه لبسها إظهاراً للطاعة ، وارتحل لوقته ضاربـــاً وجهَ البرّ ، فلـــم يتـــمّ للأشرف ما أراده ، وعاد إلى مصر وفي نفسه من إمساكِ مـــــهنّا وإخوته وبنيه. وظنّ مهنا أنْ لا حِقْدَ عنده.

فلم يلبث الأشرفُ أن خرج إلى الكركِ ؛ وخرج إلى دمشقَ ؛ وخرج مهنّا على أنّه يصيدُ كباشَ الجبلِ ؛ ثمّ إنّ مهنّا عمل له ضيافةً عظيمةً فحضرهـــا الأشـــرفُ ، وأكـــلَ منهـــا. ولمّا فَرَغ من ذلك ، أمسك مهنّا ومعه جماعةً ، وجهّزهم إلى مصر ؛ وحبســـهم في برج القلعة ، وضيّق عليهم إلاّ في الراتب لهم. وكان مهنّا في الحبْسِ لا يأكلُ إلاّ بعـدَ مدّة ؛ وإذا أكلَ ، أكلَ ما يُقيمُ رَمَقَهُ. ويُصلّي الصّبحَ ويديرُ وجهَهُ إلى الحائط ويصمتُ ولا

يكلّمُ أحداً حتى تطلعُ الشمسُ ؛ ثمّ يقومُ بعجلةٍ وسرعةٍ ، ويأخذُ كفاً من حَصَى أو تـــراب كان هناك ؛ ثمّ يُزَمْجِرُ ويرمي به إلى الحائطِ كالأسدِ الصائلِ.

فلمّا خرج الأشرفُ إلى الصيدِ تركَ ذلك الفعل ، فقيل له في ذلك ، فقال : قُضِـــيَ الأمرُ ؛ ولم يُرَ منبسطاً إلاّ في ذلك الحين.

قال : وحدثني ، مظفر الدين موسى ولدُ مهنّا ، قال : لمّا كُنّا بالاعتقال ، كان عمّي محمدُ بنُ عيسى مغرىً بدخولِ المُرْتَفَق والتطويلِ فيه ؛ وكان المرتفقُ مقارباً لدور حريـم السلطان ولبعض الأمراء ؛ فقلت له في ذلك : يا ولد مهنّا لَعلّي أسمعُ خبراً من النسوانِ ، فإنّهن يتحدثن بما لا يتحدثُ به الرجال. فبينما نحنُ ذاتَ يومٍ ، وإذا بمحمـدٍ قـد خرج ، وقال : ليسراكم ، قد سمعتُ صائحةَ النساءِ تقولُ : واسلطاناه ! فقلنا له : دعنا بما تقول ، فقال : هو ما أقول لكم. وكان لنا صاحبٌ من العرب تنكّرَ وأقـام بمصـــر ، وكـــان يقـفُ قُبالةَ مرمى البرجِ الذي نحن فيه ، ويُومئُ إلينا ونُومئُ إليه ؛ غير أنّه لا يسمعُنـــا ولا نسمعهُ. فلمّا كُنّا في تلك الساعةِ ، ومحمدٌ يحدّثُنا ، إذا نحنُ بصاحبِنا قد جاء وأومـأ ، ثمّ مـدَّ يـدهُ إلى التراب ، وصنعَ فيه هيئة قبرٍ ونصبَ عليه عُوداً عليه خرقة صفـراء ، كأنّها صنجقٌ سلطانيٌ ثمّ نكّسها ، وقَعَد يبكي ثم وقف قائماً ورقص ، فتأكّدَ الخبر عندنـــا بموت الأشرف.

فلمّا فتح علينا من الغد ، سألْنا الفتّاحَ والسجّانين ، فأنكرونا ، ثـمّ اعتـــرف لنـا بعضُهم ؛ فكان هذا أعظمَ سرورٍ دخل في قلبنا. فلمّا خرجوا من السجن ، شَكَوْا احتياجهم إلى النساء ، فأطلق لهم جماعة من الجواري الأشرفيات ؛ ولم يكن مرادهـم بذلـــك إلاّ التّشفّي. وأُعيدَ الجماعة إلى أهلهم إلاّ (مهنّا) فإنّه أُخّرَ مدةً ، ثمّ جُهّزَ ؛ فلمّا خرج مـــن دمشق لحقَهُ البريد إلى ثنية العقاب بأنْ يعودَ فامتنع وتوجّهَ إلى أهله. وكانوا قدْ ندِموا على إطلاقه. ثمّ إنّه قدِم مصْرَ بعد ذلك مرّاتٍ وهو كالطائرِ الحذرِ الذي نُصِبَ له الشَّـرك في كلِّ مكان.

وآخرُ مدّةٍ قدِمَها في أوائلِ الدولةِ الناصريّة الأخيرة سنة عشرٍ وسبعمائة. وكـــان بُرُلْغي الكبيرُ مملوكُ مهنّا وهو الذي قدِمه ؛ فلمّا وجدَهُ قد أُمْسِك ، تحدّث فيه مع السلطان، وقال : هذا مملوكي ، وقدّمته ليُعطى إقطاعاً في الحلقة ، فأُعْطي فوقَ حقّه حتى جعلتمـوه ملكاً من الملوك ؛ وأنا أُريدُ أن تأخُذَ كلّ ماله ومماليكه وتُعْطيني إيّاه برقَبتهِ ليكون عنـدي إلى أنْ يموتَ ؛ فوعدهُ بذلك. ثمّ إنّ بُرُلغي ماتَ في ذلك الوقتِ ، فقيل له : قد مـــات ؛ فعزَّ ذلك عليه عدم قبول شفاعتهِ مع ما كان يَمُتُّ به من سوابق الخدم.

ولما كان السلطانُ في الكرك ، فخرج مهنّا وقدْ طارَ خوفاً ورُعْباً ؛ ولمّا اجتمـــع بقراسنقر وكانت بينهما صداقةٌ قديمةٌ مؤكّدَةٌ. وكلٌّ منهما مســـتوْحِشٌ ؛ فجـدّد الأيْمـــان

والعهود على الضافرة ، وأنْ لا يُسلِّمَ أحدٌ منهما صاحبَه. فلمّا توجّـــه قراســنقرُ إلـــى حلَــب ، زاره مهنّا ، فخلا بمهنّا ، فأراه قراسنقر كتاباً من السلطان فيه إعْمالُ الحيلة على إمساك مهنّا ، فقال له مهنا : ما أنتَ صانعٌ ؟ قال : أنا أطيعه فيك ، وأجاهره وهو يجعلني دأبه (-) فمن يحميني منه إذا قصدني ؟ قال له مهنا : تجيء إلينا ؛ فتحالَفا علـــى ذلك.

ثمّ إنّ مهنّا وفّى لقراسنقر لما توجّه إليه ...... وأجاره. وأمّا زوجـــةُ مـــهنا عائشةُ بنتُ عسّافٍ ، فإنّها بالغت في خدمة قراسنقر ، وكانت تقولُ لمهنّا : يا مهنّا ، ذِكْـرُ الدهر لا تَدَعْهُ. وكذلك محمد بن عيسى بن علي ، إلاّ فضلَ بن عيسى أخو مهنا ؛ فمـــا كان رأيُه إلاّ التقرّب بإمساكِ قراسنقرَ والجماعة إلى السلطان ؛ فكانت عائشةُ تقولُ : تعِساً لأمٍّ ولدتْ الفضل بعد مهنا وعيسى. فكتب مهنا إلى السلطان يستعطفه ويقــول : هــؤلاءِ ممالِيــكُكَ ومماليكُ أبيك ، وكبارُ بيتكم وقد هربوا من الموت وسألوا أن تكــفَّ عنـــهم ، وتجعلَ البيرة لقراسنقر ، والرحبةَ للأفرم ، وبَهَسْنا للزردكاش. وإذا حصل مُـــهِمٌّ جـــامعٌ للإسلام ، حضروا إليه ، وجاهدوا بين يديك. فأجابَهُم بإطابةِ القلبِ ، وأنّـــه قــد جعــل الصّبيبةَ لقراسنقرِ وعجلونَ للأفرمِ والصلتَ للزردكاشِ أو إمرِيّة كما كان ؛ فما اطمـــأنّوا لذلك ، وزادهم نفوراً ، فجهّزهم إلى خُرْبَنْدا ، وقال : متى حميْتَ هؤلاءِ كنتُ أنـــا فـــي طاعتك ...... وبعثَ معهــم من جهَتِهِ لخُرْبَنْدا ولمن حوله خيولاً مسوّمةً ، فقوبلـــوا بالإكرام والرّعاية ؛ وخلع علـــى ســـليمانَ (بنِ مهنّا) وأطلق له أموالاً جمّةً. وجُـــهّزت لمهنّا خِلعٌ وإنعاماتٌ ، ويبلّـــغ بالبصـــرة له ولأهله ، ومعها الحِلّةُ والكوفة وسائرُ البـــلاد الفراتيّة.

واشتدّت الوحشةُ بينه (مهنّا) وبينَ السلطانِ الناصر ، وتأكّدت ؛ فأعطى الإمـــرةَ لأخيهِ فضلٍ. وتظاهر مهنّا بالمنافرةِ والمباينةِ والوحشة ؛ وحضر إلى عند خُرْبَنْدا فأكرمه غايةَ الإكرام ، وأجَلّهُ نهاية الإجلال. وقرّر أمرَ الركب العراقي ، فأعطى عصـــاهُ خفارةً لهم وتأميناً. وضاع الزمانُ وامتدت الأيامُ والليالي في المراوغة من مـــهنّا وهـــو يَعِـدُ السلطان أنّه يحضرُ إليه ويُمنّيهِ ويُسوّفُ به من وقتٍ إلى وقتٍ ، والبريدُ يروحُ ويجـــيءُ ، والرُسُل تتردّدُ. وجَهّزَ إليه أرسلانَ الدوادارُ والطُنبغا الحاجبُ الذي عمل نيابـــةَ حلـــبَ ، والشيـــخَ صدر الدين ابنَ الوكيلِ ؛ وما ألوى ولا عاج. ثمّ كان أولاده وإخوته يتنـــاوبون الحضور إلى السلطان وهو يُنْعم عليهم بمئي ألوف ، وبالإقطاعات العظيمةِ ، والأمـــلاك ؛ وهم يُمنّونهُ حضورَه ، ويعدونه بقدومه ؛ ومهنا لا يزدادُ إلاّ حَذَراً ، والسلطان لا يزدادُ إلاّ طمعاً في حضوره.

ومعَ ذلكَ في هذه المدّةِ ، وهي ما يقاربُ اثنتين وعشرين سنةً ما تنقطع المراسلاتُ بينهما ، ولا المكاتباتُ والشفاعاتُ. وإذا ظهرت للمسلمين مصلحةٌ نَبّهَ مهنّا عليها ، وأشار بها. وكانَ السلطان يَقْبَلُ نُصْحَهُ. ثمّ لما كانت سنةُ أربعِ وثلاثين (٧٣٤هـ) ، توجّـــه مهنا بنفسِهِ إلى السلطان ودخل مِصرَ وأكرمه غايةَ الإكرام ، وأنعم عليه إنعاماتٍ كثـــيرةٍ إلى الغايةِ. وعاد مهنا راجعاً إلى بلاده ولمْ يزلْ إلى أن تُوفّي في ذي القعدة سنة خمـــس وثلاثين وسبعمائةٍ ، بقرب سلميّة ؛ وأقاموا عليه المأتم ولَبِسوا السوّاد. وعاش نيّفاً وثمانين سنة. وكان وقوراً متواضعاً لا يحفل بملبس.

(الصفـدي ، الوافـي بالوفيـــات ، مخطوط ، ٢٦ / ١١٩-١٢٢).

(الملحـــــق الرابـــــع)

أولاً : مضمونُ كتاب الأميـر سيـفِ الديـنِ تَنَـمْ نائـب دمشـق إلى الأمير سيف الدين بتخاص حاجب حجّاب الظاهر برقوق سنة ٧٩٥ / ١٣٩٣ .

اتفق أولادُ نعير بن حيّارِ بن مهنّا (عُمر ، أبو بكر ، غنّام) معَ ابن عمّهم الأمير عامرِ بنِ طاهرِ بنِ حيّارِ بنِ مهنّا ، بالخروج عن طاعة الأميرِ نعيرِ والدخول في طاعةِ السلطان برقوق ، فأقبل عليهم وأكرمهم. وكان نائبُ دمشقَ الأميرُ تنم وأولادُ نعير قد كتبوا إلى الأمراء بالديار المصرية يسألونهم الشفاعة لدى السلطانِ برقوق بأن يرضى عنهم.

ومما جاء في كتابِ دمشقَ :

" بعدَ بسم الله الرحمن الرحيم ، الملكي ، الظاهريّ ، يُقبّلُ الأرض ويُنْهي بعد ابتهاله إلى الله تعالى بالأدعية بدوام الأيامِ الكريمةِ المخدوميّةِ ، وخلودِ سعادتِها وعلوِّ درجاتِها الكريمةِ في الدنيا والآخرة ؛ أنّ مملوكَ السلطانِ خلّد اللهُ تعالى مُلْكَهُ ، ومولانا عزّ نصرهُ ، عامرَ بنَ ظالمٍ (طاهر) حضر إلى الطاعةِ الشريفةِ ، وأحضر صحبتَه أبا بكر وعمرَ ولدي نعيرٍ ، وحضر بعدهم غنّام ولَدُ نُعير ، وحضر صحبتهم خلق كثيرٌ من العربان ممن كان صحبةَ نعيرِ المخذول ، ولم يتأخر عند المخذول إلاّ القليلُ من العربان والتركمان ممن لم يقدر على الانفصال منه. وقد هاجر الأميرُ عامرٌ المذكورُ إلى الأبواب الشريفة خلّد اللهُ سلطانَها راجياً من مراحمها الشاملةِ الصفحَ والعفوَ والتجاوزَ عن ذنوبه السالفةِ وبعده يحضر إلى بين يدي المواقف المعظمةِ ، خلّدَ اللهُ تعالى سلطانَها أولادُ نعير كلُهم ، وقد جَهّزه المملوكُ إلى خدمةِ الأبوابِ الشريفةِ صحبةَ الولدِ شهابِ الدينِ أحمدَ دوادار المملوك وضمن له عن المراحم الشريفة كلَّ خيرٍ ونعمةٍ ، وليس يخفى عن العلوم الكريمة أنّ هذا عامراً هو جناحُ نعيرِ المخذولِ وعمدتُه وفعل ما يجب عليه من الرجوع إلى الطاعة الشريفة وإحضارِ أولاد نعير المخذول ، طائعين وهو يتدرّك للمواقفِ الشريفةِ كلّما يُراد منه من الخير وتأمنُ البلادُ والعبادُ وقد حصل بقدومه من الخير ما لا يخفى عن العلوم الكريمة ؛ والمملوك يسألُ من الصدقاتِ العميمةِ جبرَ خاطرهِ والإقبالَ عليه ومساعدتَه بين يدي المواقفِ الشريفة خلّد اللهُ سلطانَها والقيامَ معه بكلّ ممكنٍ ، والوفاء بضمان المملوك له فيما تكلفه من الخير بحيث يعود مجبوراً بحسن النظر الكريم قرير العينِ بحصول الرضى الشريفِ عليه إجابةً لسؤال المملوكِ وجَبْراً لخاطرِ المشار إليه ،

وقد حمل الولدُ أميرُ شهابُ الدينِ من تقبيـل الأرض لـه والأدعيـةَ ، ورفـع الأدعيـةِ الصالحةِ واستعراضِ المراسيمِ العاليةِ والمهمّاتِ الجليلةِ ما يُنهيهِ إلى الولدِ مـن العلـوم الكريمةِ ، وهو المحسنُ في الإصغاءِ إلى قبول ما يحمله من ذلـك ويشـرف المملـوك بالمراسيمِ العاليةِ والمهماتِ الشريفةِ . "

ثانياً : " مضمونُ كتابِ أولادِ نعيرٍ إلى الأميرِ بتخاص حاجبِ الحجابِ "

" بعدَ بسم الله الرحمن الرحيم ، الملكي ، الظاهريّ ، يُقبّلونَ الأرض ويُنـهون أن المماليكَ مماليكَ مولانا السلطانِ خلّد اللهُ مُلْكَه ونشرَ صدقاتِه وإحسانَه ، ومماليكَ مولانـا أميرِ حاجبِ أعزّ اللهُ أنصارَه ، وأنّ المماليكَ ما تأخّروا عن الحضور إلى الطاعة الشريفة من مدة إلاّ اتباعَ رضا خاطرِ والدِ المماليكِ لأن طاعةَ الوالدِ واجبةٌ لقوله تعالى : " فَـلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُما " (١) ؛ فلمّا تحقّق المماليك أن والدهم يُنيب إلى شـيءٍ واحـدٍ اجتمع المماليكُ بعامرٍ ابن عمّهم وتوافقوا معه أنهم يكونون في الطاعة المفترضة ، فأناب إلى ذلك ورغب فيه ، وتحالفوا معه أنهم يكونون مجتهدين بالطاعةِ المفترضةِ والخدمـةِ الشريفة ، يُعادون من عاداها ، ويُناصحون من ناصحها، وإنّ المماليك حضـروا بمـن معهم من العُربان إلى الطاعةِ واجتمع رأيُ المماليك على تجهيز عامر بنِ عم الممـاليكِ إلى خدمة الأبوابِ الشريفةِ ؛ لأنه هو كبيرُ المماليك وشيخُهُم والحـاكمُ فـي أمرهـم ولا يخالفونه بما يعزمُ عليه ، وإنه إذا يدرك بشيءٍ من ما يكون فيه رضى الخواطر الشريفة ، كان المماليكُ قائمين معه ، ولايقفون عن أمره جملةً كافيةً ؛ وسؤال المماليك من الصدقات الكريمة أعزّ اللهُ أنصارَها حسنَ سفارتِها الكريمةِ لذي المواقفِ المعظّمة مساعدته علـى إعادة أرزاقِ المماليكِ ، وجبرِ خاطرِ عامرِ المذكورِ ، بحيث أن يعـود طيّـب القلـب ، منشرح الصدر ؛ وإذا حضر بخير وعافية يحضر مملوكُ الأبواب الشريفةِ المملوكُ أبـو بكر ، وإذا حضر أبو بكر يحضر المملوك عمرُ ، وقد جهّز المماليكُ ممـاليكُ الأبـوابِ العاليةِ ميسرةُ وربيعةُ حجابُ المماليك على أيديهم المطالعاتِ ، وقـد حملاهـا مشـافهةً يُعيدانها على المسامع الكريمة. والمماليك يسألون الإصغاء إليها والاستماع. أنهوا ذلـك والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . "

(ابـن الفـرات ، تاريخـه ، ٩/ ٣٣٦ – ٣٣٨).

---

(١) الإسراء ، ١٧ / ١٣ .

(الملحـــق الخامــــس)

نسخـــةُ تقليـــد بإمـــرة آل فضـــلِ

نسخة تقليد بإمرة آل فضل ؛ كُتِبَ به للأميرِ شجاعِ الدين فضل بن عيسى عوضاً عن أخيه مهنّا عندما خرج أخوه المذكورُ مع قراسنقر والأفرمَ ومن معهما من المتسحّبين؛ وأقام هو بأطراف البلاد ولم يفارق الخدمة في شهور سنة اثنتي عشرة وسبعمائة ، وهي من إنشاء الشيخ شهابِ الدينِ محمودِ الحلبي ، وهو :

الحمدُ للهِ الذي مَنَحَ آلَ فَضْلٍ في أيّامنا الزاهرةِ بحسنِ الطّاعةِ فَضْلاً ، وقدّمَ عليهم بقديمِ الإخْلاص في الولاءِ من أنفُسِهم شُجاعاً يجمعُ لهم على الخدْمةِ أُلفةً ويُنظِّمُ لهم على المخالصةِ شمْلاً ، وحَفِظَ عليهم من إعْزازِ مكانِ بَيْتِهم لدَيْنا مكانةً لا تنقُصُ لها الأيّامُ حُكْماً ولا تنقُصُ لها الحوادثُ ظِلاً.

نحْمَدُه على نِعَمِهِ التي شَمِلَتْ بِبِرِّنا ، الحَضَرَ والبَدْوَ ، وألْهَجَتْ بشُكْرِنا ألْسِنَةَ العَجَمِ في الشّدْوِ والعربِ في الحَدْوِ ، وأعْمَلَت في الجهادِ بين يَدَيْنا من اليَعْمَلاتِ [١] ما يُباري بالنّصِّ والعَنَقِ الصّافِناتِ [٢] في الخبَبِ والعَدْوِ ، ونشهَدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وحدَه لا شريك له شهادةً نَذْرأُ بها الأمورَ العِظامَ ، ونقلّدُ بيُمْنِها ما أهَمَّ من مصالحِ الإسلامِ لمن يجري بتدبيره على أحسنِ نظامٍ ، ونشهد أنّ محمداً عبدُهُ ورسولهُ المبعوثُ من أعلى ذوائبِ العربِ وأشرفِها.......

وبعدُ ، فإنّ أوْلى مَنْ أَجْنَتْهُ الطّاعةُ ثمرةَ إخلاصِه ، ورفَعَتْهُ المخالصةُ إلى أسْنى رُتَبِ تَقْريبهِ واختصاصِه ، وألّفَ بمبادرتهِ إلى الخدْمةِ الشريفةِ قلوبَ القبائلِ وجَمَعَ شملَها ، وقلّدهُ حُسْنَ الوفاءِ من أمْرِ قومِهِ وإمْرتِهم ما يُسْتَشْهَدُ فيه بقول الله تعالى : (وكانوا أحَقَّ بِها وأهْلَها) [٣]- من ارتَقى إلى أسْنى رُتَبِ دُنياهُ بحفْظِ دينهِ، ودَلّ تمسكُه بإيمانِهِ على صِحّةِ إيمانِهِ وقوّةِ يقينِهِ ، ولاحَظَتْه عيون السّعادةِ فكانَ في حِزْبِ اللهِ الغالبِ وهو حِزْبُنا ، وقابَلَتْهُ وجوهُ الإقبالِ فأرَتْهُ أنّ المغبُونَ من فاتَهُ تَقْريبُنا وقُرْبُنا ، ورأى إحسانَنا إليه بعينٍ لم يَطْرِفْها الجحودُ ، ولم يَطْرُقْها إعراضُ السُعودِ ، فسلكَ جادّةَ الوفاءِ وهي من أيمنِ الطّرُقِ طَريقا ، واقتدى في الطاعة والولاء بمَنْ قال فيهم بمثل قوله : (وحَسُنَ أُولئكَ رَفيقاً) [٤].

---

(١) اليَعْمَلَة : الناقة الفارهة.

(٢) النصّ : السير الشديد ؛ والعَنَق : ضربٌ من السير فسيح سريع ، والصافنات : الخيول.

(٣) الفتح ، ٤٨/ ٢٦ .

(٤) النساء ، ٤/ ٦٩ .

ولما كان المجلسُ العالي....... هو الذي حاز من سعادةِ الدّنيا والآخرةِ بحسن الطّاعةِ ما حاز ، وفاز منْ برّنا بجميل المبادرةِ إلى الخدمةِ بما فـــاز ، وعلِـمَ مواقـــعَ إحساننا إليه فعمِل على استدامةِ وبَلّها ، واستزادةَ فَضلها ، والارتواء من مَعْروفها الـــذي باءَ بالحرمانِ مَنْ خرجَ عنْ ظِلّها مع ما أضافَ إلى ذلك من شجاعةٍ تَبيتُ منـــها أعـداء الدِّينِ على وَجَلٍ ومَهابةٍ تَسْري إلى قلوبِ مَنْ بَعُدَ مِنْ أهلِ الكُفْرِ سُرى ما قَرُبَ من الأجَلِ، اقتضتْ آراؤنا الشريفةُ أنْ نمُدَّ على أطراف الممالك المحروســة منــهُ ســوراً مصَفّحــاً بصِفاحِه ، مُشَرّفاً بأسنّةِ رِماحِه.

فَرُسِمَ بالأمرِ الشريفِ العالي – لا زالَ يُقلّدُ وَليّهُ فَضْلاً ، ويَمْلأُ ممالكـــهُ إحســاناً وعدلاً– أن يفوّض إليه (إمرة آل فضل) ، لما تقدّم من أسباب تقديمِهِ ، وأُومئَ إليهِ مـــن عنايتِنا بهذا البيتِ الذي هو سِرُّ حديثِهِ وقَديمِهِ ، وجادتُها الأمانَةُ التي لا تَستَزِلُّها الأهـــواءُ ولا تستَفِزُّها الرُّقى.

ولِيَكُنْ لأخبارِ العَدُوِّ مُطالِعاً ، ولنَجْوَى حركاتِهم وسَكَناتِهم علـــى البُعْـدِ ســامعاً ، ولديارِهِم كُلَّ وقتٍ مُصَبّحاً حتّى يظنّوه من كلِّ ثنيّةٍ عليهم طالِعاً ، وليُدِم التّأهُّبَ حتـــى لا يفوتُه من العدوِّ غارةٌ ولا غِرّةٌ ، ويُلْزِمْ أصحابَهُ بالتيَقُّظِ لإدامةِ الجهادِ الذي جَرّبَ الأعداءُ من مواقِعَ سيوفِهم غير مَرّة ؛ وقد خَبَرْنا شجاعَتَهُ وإقدامَهُ ، وسياستَهِ في نَقْضِ كلِّ أمْـــرٍ وإبرامِهِ ، ما يُغني عن الوصايا التي مِلاكُها تقوى اللهِ تعالى وهي من سَجاياهُ التي وصِفَت ، وخصائصِه التي أُلِفَت وعُرِفت ؛ فليَجْعَلْها مرآةَ ذِكْرِهِ ، وفاتحةَ فكرِهِ ؛ واللهُ تعالى يؤيّدُهُ في سِرِّهِ وجَهْرِهِ بمَنّهِ وكرَمهِ ، إن شاء اللهُ تعالى.

(القلقشـــندي ، صبـــح الأعشـــى ، ١٢/ ١١٨ – ١٢١).

(الملحـــق الســـادس)

نسخـــةُ مرســومٍ شريــفٍ بنصــف إمــرة آل مــرا

كُتِبَ هذا المرسومُ لقناة بن نجّاد [1] سنة ٧٣٣هـ ، من إنشاءِ المقرّ الشهابيّ ابــنِ فضلِ اللهِ العمريّ ، وتضمّن :

الحمدُ للهِ الذي استخدم لنصرْنا كلَّ سيفٍ وقناةٍ ، وكلَّ سرعةٍ وأناةٍ ، وكــلَّ مثقّــفٍ تُسلَى [2] جناياتُه ويَعْذُب جَناه ، وكلَّ ماضٍ لا يعوقُه عن مقاصدِه الصالحـــةِ يعــوق وهو عبد مناة.

نحمدُ حَمْدَ مَنْ أغناه ، ونشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يستمِدُّ مــن قِبَلِها فلق الصّباحِ سناه ، ويُفَكُّ منها من قَبْضَةِ السيوف عُناه ، ونشـــهدُ أنّ محمـــداً عبـدُه ورسولُه الذي بوّأه منازلَ الشرف وبناه ، وأحلّه من العرب في مكان يَخْضَعُ له رأسُ كــلِّ جبّارٍ ويَخْشَعُ بصرُهُ وتستمع لما يوحي أُذُناه ، صلى اللهُ عليه وعلى آل وصحبه صــــلاةً تخصُّهم من كل شرف بأسماهُ وأسناهُ ، وسلّم تسليماً.

وبعدُ ، فإنّ لكلِّ ثاكِلةٍ قراراً ، ولكلِّ هاجرةٍ مزاراً ، ولكلِّ مِعْصمٍ سِواراً لا يليقُ إلاّ بزندِه ، ولكلِّ عُنُقٍ درّاً لا يصلُح إلاّ لعقدِه ، ولكلِّ سيفٍ طال هُجوعُهُ في غِمْدِهِ انســلالاً ، ولكلِّ قناةٍ لم تُعْتَقَل اعتقالاً ، وكانت إمرةُ آل مِرا قد ثبّتت من البيت الأحمديّ [3] بــأوثق أوتادِها ، ووصلتْ منه في الرِّفعة إلى نِجادها ، ولم تزل تتنقلُ في آفاقها بُدورُهم الطالعةُ ، وتُضيءُ عليها من صفاحهم بروقُهم اللامعةُ ، وتجولُ فيها من سوابقهم السّحُب الهامعـــةُ ، وتغني في حروبها عزائمُهم إذا وقعت الواقِعةُ ، وتقدّمت للمجلــس الســاميّ ، الأمــيريّ بركابِنا الشّريف صُحبةً حَمِدَ فيها السُّرى وخدمةً لهُ نارَ القِرى ، وهاجر إلينا في وقـــتٍ دلَّ على وفائهِ ، وسَهِرَ إلى قصدنا اللّيلَ وله النجمُ محيط المقَلِ بإغفائه ، وانقطـــع إلينـــا بأمَلِه، ولازم من عهدنا الشريف صالح عمله ، واستحقّ تعجيلَ نِقمِنا الشريفةِ وإن تأخّرت لأجَلٍ موقوت ، وأملِ نجاحُه لا يفوت.

وليَجْمَعْ قوْمَه على طاعتِنا الشريفةِ كلَّ الجَمْع ، ويُقابِلْ ما تَرِدُ به مراسِمُنا المطاعةُ عليه بما أوْجبَ اللهُ لها منَ الطاعة والسّمْع ، وليأخُذْ للجهادِ أُهْبَتَه ، ويعجّلْ إليـــه هبّتَـــه ،

---

(١) آلت إمرة آل مِرا لأحمد بن حجّي ، ثمّ صارت في بيتين من آل أحمد بن حجّي : بيت نجّاد وبيت سليمان . وهـذا قناة بن نجّاد هو الذي تولى نصف إمرة آل مِرا.

(٢) تُسْلَى : تُترك .

(٣) نسبة إلى أحمد بن حجّي بن يزيد بن تَبَل بن مِرا بن ربيعة .

ولْيقِفْ من وراء البلاد الشاميّة المحروسة دريئةً لأسوارها المنيعة ، ونطاقاً على مَعاقِلها الرفيعةِ ، وسدّاً من بين أيديها وخلفها لباب كُلّ ذريعةٍ ، وخندقاً يحوط بلادَها الوسيعةَ وحجاباً يمنع فيها من تعدّى الحقّ وخاضَ الشريعة ، ولا يفارقِ البلاد حتى يُعبِّس في وجوهها السّحاب ، ولا يعودُ حتى تُؤْذِنَ زروعُها المخيِّمةُ بذهاب ؛ والكرمُ هو فيه سجايا، والحزمُ بيده المرآويّة من آل مِراءٍ يظهرُ له الخفايا ؛ ...... فلْيكن لرفيقهِ أكثرَ مساعدةً من الأخ لأخيه ، وأكبرَ معاضدةً من المِصْراع لقسيمه والجفْنِ لجفْنِهِ والشّيْءِ لما يؤاخيه. هذا يجب ويتعيّن وليسَ يجمعهما فردُ طاعة ، ولا يلزمهما لشيءٍ واحدٍ استطاعة؛ فكيف وهو ورفيقه إلينا اعتزاؤهما ومنّا إعزازُهما ، وهما فرْعان معتنِقانِ : لديْنا إجْناؤُهما وبيدنا إهزازُهما.

ولْيُحَصِّلْ من الخيلِ كلّ سابقةٍ تليقُ أنْ تُقدَّم إلينا ، وسابحةٍ في كلّ مهمّةٍ يَقْدَمُ علينا. والشرْعُ الشريفُ يكونُ إليه مآبُك ، وعليهِ عَفْوُك وعقابُك ، وبمقتضاهُ عَقْدُ كلّ نِكاح لا يَصِحُّ إلاّ على وجْهِهِ المرضيّ وإلاّ فهو سِفاح ؛ والميراثُ على حُكمِه لمن جَرَّهُ إليه فهو ظُلْمٌ صُراح ؛ وبقيّةُ ما نوصيه به إذا انتهى منه إلى هذه النُّبْذة فما عليه في سواها جُناح. وسبيلُ كلّ واقفٍ على تقليدنا هذا أن يُنيبَ إلى نصوصيه ، ويؤوبَ إلى عُمومه وخُصوصه ، والحذرَ من الخروج عنهُ بقولٍ أو عملٍ ، فالسيفُ أسبقُ منَ العَذَل ؛ والله يُمتّعه بما وهبَهُ مِنَ النَّقَل ، والمحاسن التي يَدُ المسامع والأفواهِ والمُقَل ؛ والخطّ الشريف أعلاه.

(القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١٢/ ١٣٢ – ١٣٥).

الجـــــداول

اقتصرت على جدولٍ يمثّل قائمة بأسماء أمراء أعراب الشام
ومن عاصرهم من سلاطين المماليك

قائمة بأسماء أمراء أعراب الشام الذين عاصروا سلاطين المماليك

م	السلاطين المماليك الأتراك	مُدّة الحكم	أمراء أعراب الشام
١-	شجر الدر	٦٤٨ / ١٢٥٠.	• علي بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة الطائي أمّرته شجر الدر عوضا عن ظاهر بن غنام.
٢-	عز الدين أيبك	٦٤٨ - ٦٥٥ / ١٢٥٠ - ١٢٥٧.	• زامل بن علي بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة الطائي. (أمير آل علي) - حتى بداية عهد بيبرس.
٣-	المنصور علي بن أيبك	٦٥٥ - ٦٥٧هـ.	
٤-	المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧ - ٦٥٨ / ١٢٥٨ - ١٢٥٩.	
٥-	الظاهر بيبرس البندقداري	٦٥٨ - ٦٧٦ / ١٢٥٩ - ١٢٧٧.	• حسام الدين عيسى بن مهنّا أمير آل فضل وأمير العرب (- ٦٨٣هـ). - أحمد بن حجي أمير آل مرا (- ٦٨٢هـ).
٦-	السعيد محمد بركة بن بيبرس	٦٧٦ - ٦٧٨ / ١٢٧٧ - ١٢٧٩.	- حسام الدين عيسى بن مهنّا.
٧-	العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس	٦٧٨ / ١٢٧٩.	- حسام الدين عيسى بن مهنّا.
٨-	المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٨ - ٦٨٩ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠.	- حسام الدين عيسى بن مهنّا (- ٦٨٣هـ).

م	السلاطين المماليك الأتراك	مُدّة الحكم	أمراء أعراب الشام
			• حسام الدين مهنّا بن عيسى (- ٧٣٥هـ).
٩-	الأشرف خليل بن قلاوون	٦٨٩ - ٦٩٣ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣.	- عزل مهنّا بن عيسى ٦٩٢هـ ، وتعيين : • محمد بن أبي بكر بن علي بن حديثة أمير آل علي أميراً على العرب (٦٩٢ - ٦٩٤ هـ).
١٠-	الناصر محمد بن قلاوون	٦٩٣ - ٦٩٤ / ١٢٩٣ - ١٢٩٤. (السلطنة الأولى).	• محمد بن أبي بكر بن علي بن حديثة.
١١-	العادل زين الدين كتبغا	٦٩٤ / ١٢٩٤ .	• إعادة : مهنّا بن عيسى.
١٢-	حسام الدين لاجين المنصوري • الناصر محمد بن قلاوون	٦٩٤ - ٦٩٨ / ١٢٩٤ - ١٢٩٨. ٦٩٨ - ٧٠٨ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨. (السلطنة الثانية).	• مهنّا بن عيسى. • مهنّا بن عيسى.
١٣-	ركن الدين بيبرس الجاشنكير • الناصر محمد بن قلاوون	٧٠٨ - ٧٠٩ / ١٣٠٨ - ١٣٠٩. ٧٠٩ - ٧٤١ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠. (السلطنة الثالثة).	• مهنّا بن عيسى. • فضل بن عيسى بن مهنّا (٧١٢ - ٧٢٠هـ). • محمد بن أبي بكر بن علي بن حديثة (٧٢٠هـ). • موسى بن مهنّا (٧٣٦ - ٧٤٢هـ).
١٤-	أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون	٧٤١ - ٧٤٢ / ١٣٤٠ - ١٣٤١.	• فيّاض بن مهنّا بن عيسى.

م	السلاطين المماليك الأتراك	مُدّة الحكم	أمراء أعراب الشام
١٥-	علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاوون	٧٤٢ - ٧٤٣ / ١٣٤١ - ١٣٤٢.	• سليمان بن مهنّا بن عيسى (- ٧٤٤هـ).
١٦-	أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون	٧٤٣ / ١٣٤٢.	• سليمان بن مهنّا بن عيسى.
١٧-	اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون	٧٤٣ - ٧٤٦ / ١٣٤٢ - ١٣٤٥.	• عيسى بن فضل. • سيف بن فضل. • أحمد بن مهنا.
١٨-	شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون	٧٤٦ - ٧٤٧ / ١٣٤٥ - ١٣٤٦.	• سيف بن فضل. • أحمد بن مهنّا.
١٩-	حاجي الأول بن الناصر محمد ابن قلاوون	٧٤٧ - ٧٤٨ / ١٣٤٦ - ١٣٤٧.	• سيف بن فضل (- ٧٦٠هـ).
٢٠-	الحسن بن الناصر محمد بن قلاوون	٧٤٩ - ٧٥٢ / ١٣٤٧ - ١٣٥١.	• أحمد بن مهنّا (- ٧٤٩هـ). • فيّاض بن مهنّا بن عيسى (للمرة الثانية). • حيّار بن مهنّا ، عُزل سنة ٧٥١هـ.
٢١-	صالح بن الناصر محمد بن قلاوون * الحسن بن الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثانية)	٧٥٢ - ٧٥٥ / ١٣٥١ - ١٣٥٤.	• حين عُزل حيّار بن مهنّا ، تولى بعده عدد من الأمراء : - فيّاض بن مهنّا ثم سيف بن فضل ، وعمر بن موسى بن مهنّا ثم رمله بن جماز.
٢٢-	محمد بن حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون	٧٦٢ - ٧٦٤ / ١٣٦١ - ١٣٦٢.	• حيّار بن مهنّا (- ٧٧٦هـ).
٢٣-	شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون	٧٦٤ - ٧٧٨ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦.	• قارا بن مهنّا (٧٧٦ - ٧٨١هـ).

م	السلاطين المماليك الأتراك	مُدّة الحكم	أمراء أعراب الشام
			• زامل بن موسى بن مهنّا ابن عيسى بن مهنا. تولى الإمرة سنة ٧٧٠ و ٧٨١هـ، واقتسمها مع معيقل بن فضل وزامل بن موسى ابن عيسى بن مهنّا.
٢٤-	علي بن شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون	٧٧٨ - ٧٨٣ / ١٣٧٦ - ١٣٨١.	
٢٥-	حاجي الثاني بن شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون	٧٨٣ - ٧٨٤ / ١٣٨١ - ١٣٨٢.	• نعير بن حيار (٧٣٠ - ٨٠٨هـ).

م	السلاطين المماليك الجراكسة	مدّة الحكم	أمراء أعراب الشام
١-	الظاهر برقوق بن أنس العثماني	٧٨٤ - ٨٠١ / ١٣٨٢ - ١٣٩٨.	• نُعير بن حيّار بن مهنّا. • إبراهيم بن قارا سنة ٧٨٥ / ١٣٨٣.* • عثمان بن قارا بن مهنّا (٧٨٥ – ٧٨٧هـ).
٢-	حاجي الثاني بن شعبان • الظاهر برقوق بن أنس العثماني	٧٩١ - ٧٩٢ / ١٣٨٩. ٧٩٢ - ٨٠١هـ. (المرة الثانية).	• نُعير بن حيّار. • نُعير بن حيّار ؛ ثم محمد بن قارا (٧٩٤ - ٧٩٦هـ). • فضل بن عيسى بن رملة ابن جمّاز بن محمد بن أبي بكر بن علي بن حديثة (- ٨١٦هـ).
٣-	فرج بن برقوق	٨٠١ - ٨١٥ / ١٣٩٨ - ١٤١٢.	• نُعير بن حيّار (- ٨٠٨هـ). • العِجّل بن نُعير (- ٨١٦هـ). • فضل بن علي بن نُعير.
٤-	عبد العزيز بن برقوق • فرج بن برقوق	٨٠٨ / ١٤٠٥. ٨٠٨ - ٨١٥ / ١٤٠٥ - ١٤١٢.	
٥-	المستعين بالله أبو فضل العباسي (الخليفة العباسي).	٨١٥ / ١٤١٢. (فترة انتقالية).	
٦-	المؤيد شيخ المحمودي	٨١٥ - ٨٢٤ / ١٤١٢ - ١٤٢١.	• العِجْل بن نعير. • حُسين بن نُعير (٨١٦ - ٨١٨هـ).

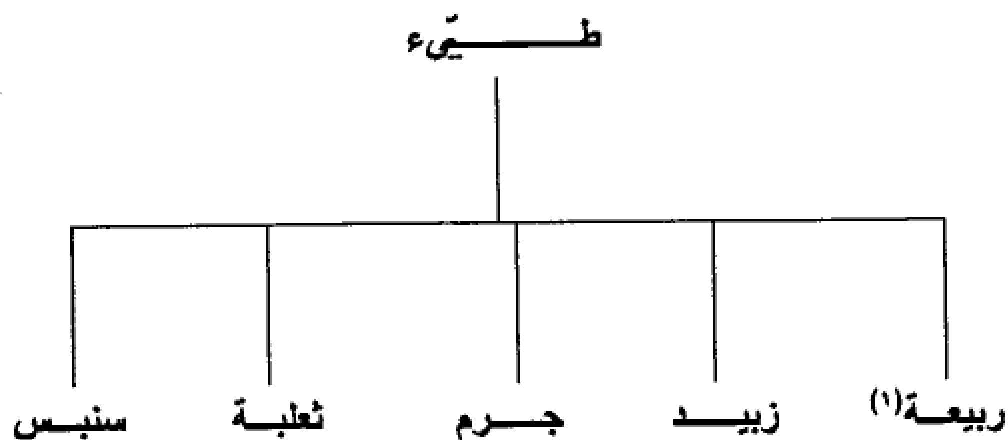
* عزل نُعير وعُيِّن إبراهيم بن قارا بن مهنا سنة ٧٨٥هـ . (تاريخ ابن قاضي شهبة ، ٣/ ١٠٩).

م	السلاطين المماليك الجراكسة	مدّة الحكم	أمراء أعراب الشام
			• حديثة بن سيف (٨١٨ - ٨٢٢هـ).
٧-	أحمد بن المؤيّد شيخ المحمودي	٨٢٤ / ١٤٢١.	
٨-	سيف الدين ططر	٨٢٤ / ١٤٢١.	
٩-	محمد بن ططر	٨٢٤ / ١٤٢٢.	
١٠-	الأشرف برسباي	٨٢٥ - ٨٤١ / ١٤٢٢ - ١٤٣٧.	• عُذراء بن علي بن نعير (- ٨٣١هـ). • مدلج بن علي بن نُعير بن حيّار (٨٣١ . ٨٣٣هـ).
١١-	يوسف بن برسباي	حكم (٩٤) يوماً.	• سليمان بن عذراء بن علي بن نُعير (- ٨٤٠هـ). • الغادر بن نَعير بن حيّار (٨٤٢هـ).
١٢-	الظاهر سيف الدين جقمق	٨٤٢ - ٨٥٧ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣.	• موسى بن حديثة. • محمد بن تُوقان بن نُعير أمير آل فضل (- ٨٥٤هـ).
١٣-	عثمان بن جقمق	٨٥٧ / ١٤٥٣.	
١٤-	إينال العلائي	٨٥٧ - ٨٦٥ / ١٤٥٣ - ١٤٦٠.	• الأمير عسّاف (عُزل ٨٥٨هـ). • حديثة بن عُذراء بن علي ابن نَعير بن حيّار بن مهنّا.
١٥-	أحمد بن إينال العلائي	٨٦٥ / ١٤٦٠.	• حديثة بن عُذراء بن علي ابن نُعير بن حيّار بن مهنّا.
١٦-	سيف الدين خشقدم	٨٦٥ - ٨٧٢ / ١٤٦٠ - ١٤٦٧.	• حديثة بن عُذراء بن علي ابن نُعير بن حيّار بن مهنّا.
١٧-	سيف الدين بلباي	٨٧٢ / ١٤٦٧.	

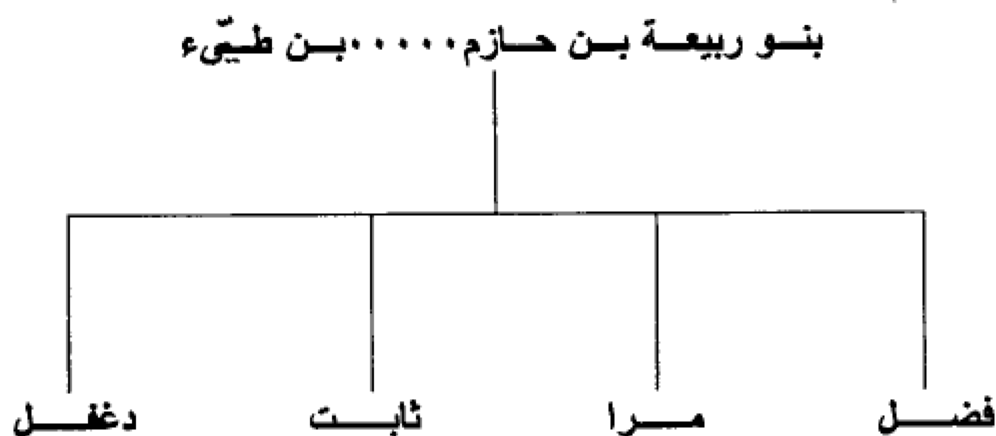
م	السلاطين المماليك الجراكسة	مدة الحكم	أمراء أعراب الشام
١٨-	الظاهر تمر بغا	٨٧٢ / ١٤٦٧.	
١٩-	الأشرف قايتباي	٨٧٢ - ٩٠١ / ١٤٦٨ - ١٤٩٥.	• سيف بن علي بن نُعير بن حيّار بن مهنّا (٨٧٣ - ٨٨٧هـ). • الأمير عسّاف ابن عم سيف بن علي بن نُعير (- ٨٩٠هـ). • علي بن سيف بن علي ابن نُعير بن حيّار بن مهنا (٨٩٢هـ).
٢٠-	محمد بن قايتباي	٩٠١ - ٩٠٤ / ١٤٩٥ - ١٤٩٨.	• علي بن عامر بن طاهر ابن حيّار بن مهنّا (٨٩٠ - ٩٠٣هـ). • الأمير محمد بن يوسف تولى الإمرة ٩٠٣هـ.
٢١-	الظاهر قانصوه	٩٠٤ - ٩٠٥ / ١٤٩٨ - ١٤٩٩.	
٢٢-	الأشرف جانبلاط	٩٠٥ - ٩٠٦ / ١٤٩٩ - ١٥٠٠.	عدد من الأمراء المحليين.
٢٣-	سيف الدين طومان باي الأول	٩٠٦ / ١٥٠٠ (حكم مائة يوم).	
٢٤-	الأشرف قانصوه الغوري	٩٠٦ - ٩٢٢ / ١٥٠٠ - ١٥١٦.	• محمد بن ساعد.
٢٥-	الأشرف طومان باي الثاني	٩٢٢ / ١٥١٦ - ١٥١٧.	• ناصر الدين محمد بن الحنش.

شـــجر النسب

تناولت عدداً من الصور المرئية لأنساب أعراب الشام ؛ وقد مثّلت هياكل مستقلة لنسب كل من: طيّء، آل فضل ، آل عيسى ، آل مهنا بن عيسى ، آل حيّار، آل مِرا بن ربيعة ، وآل علـــــي.و أُتبعـــت بشجرة نسب عامة وشاملة لآل ربيعة الطائيين.



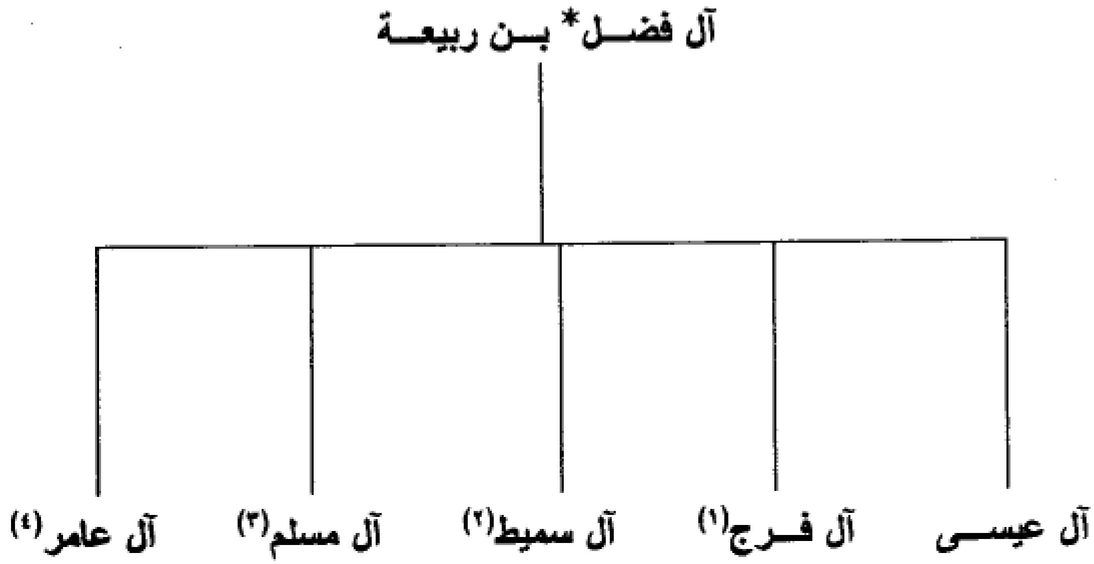
(البطون الأربعة الأولى في بلاد الشـــام ، والبطن الخامس في مصـــر)



(أولاد ربيعـــــة الأربعـــة)

(١) ربيعة بن حازم بن علي بن مفرج بن دغفل بن جراح بن شبيب بن مسعود بن سعيد بن حرب بن السكن بن رفيـــع ابن علقي بن حوط بن عمرة بن خالد بن معبد بن عدي بن أفلت بن سلسلة بن عمرو بن سلسلة بن غنم بن ثـــوب ابن معن بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثعل بن الغوث بن طـــيء٠

(ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٣٦)٠



* تركزت الإمرة في بيت مهنا بن عيسى (ت ٧٣٥ / ١٣٣٥).

(١) آل فرج ، الإمرة مناصفة بين زيد بن طاهر وبين غنام بن وهبة.

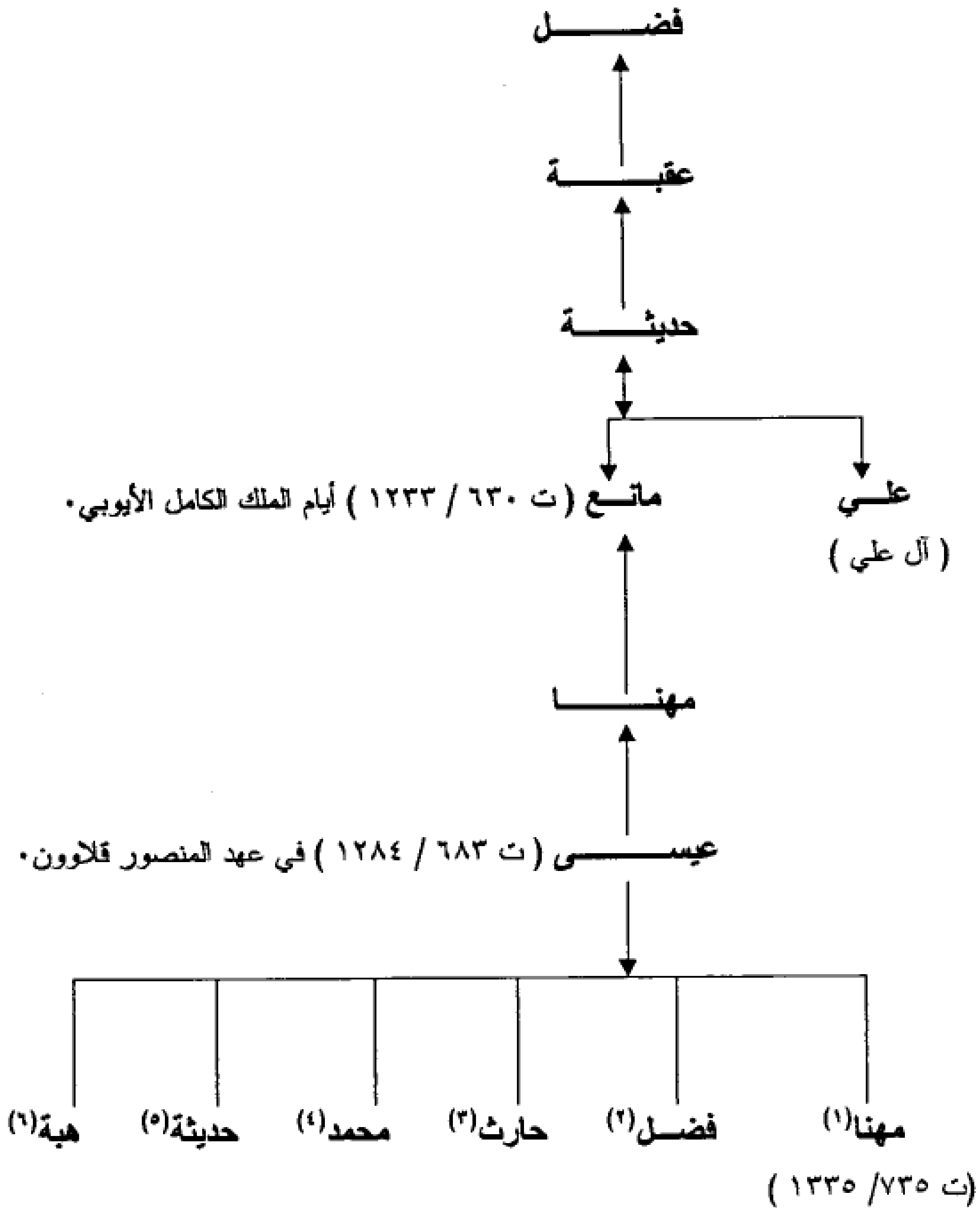
(٢) آل سميط ، أميرهم صافية بن حجير بن الصميد.

(٣) آل مسلم ، أميرهم طامي بن عباس.

(٤) آل عامر ، الإمرة فيهم في بني عامر بن دراج.

(ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٣٧).

آل عيســـى بـــن فضــل بـــن ربيعــــة



(١) تركزت الإمرة في بيت مهنا بن عيسى ، وأميرهم أحمد بن مهنا وهو أمير سائر آل فضل.

(٢) بيت فضل بن عيسى ، وأميرهم سيف بن فضل.

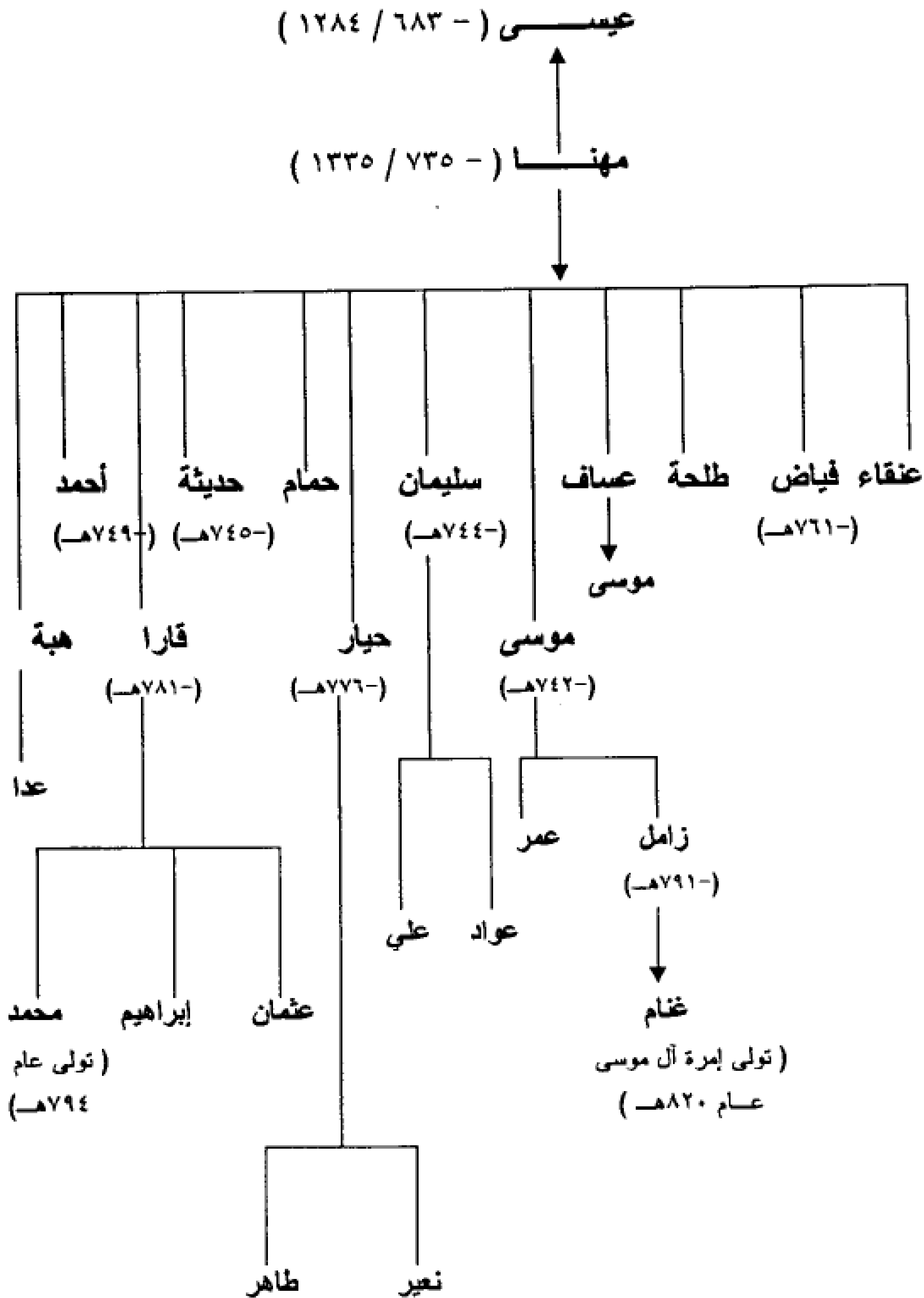
(٣) بيت حارث بن عيسى ، وأميرهم قناة (قتادة) بن حارث.

(٤ ، ٥ ، ٦) هؤلاء وأولادهم أتباع مهنا بن عيسى.

(- ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط ، ٤/ ١٣٨ ،

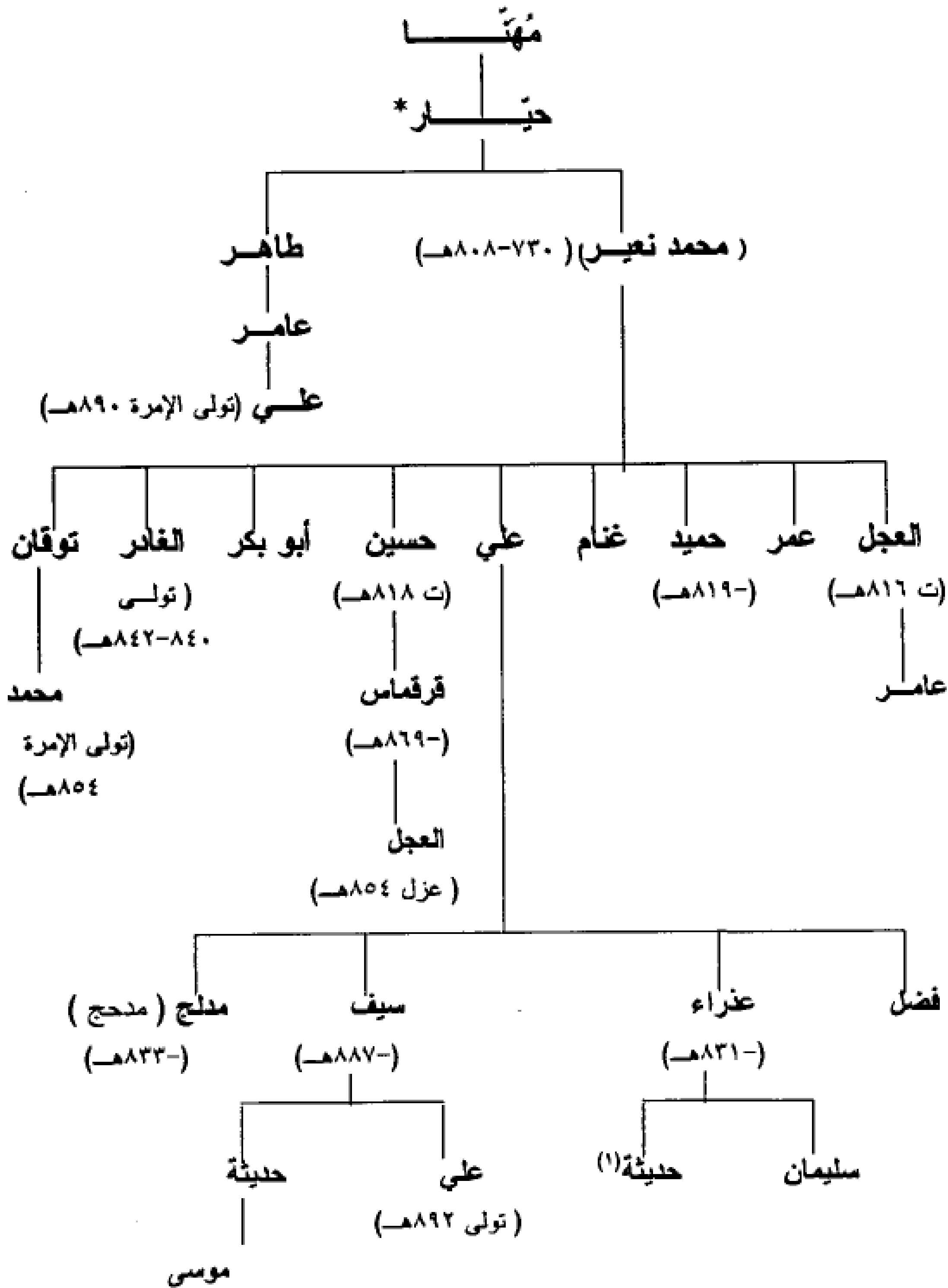
- القلقشندي ، قلائد الجمان ، ص : ٧٩).

آل مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن عقبة بن فضل



(القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ٢١٥)٠

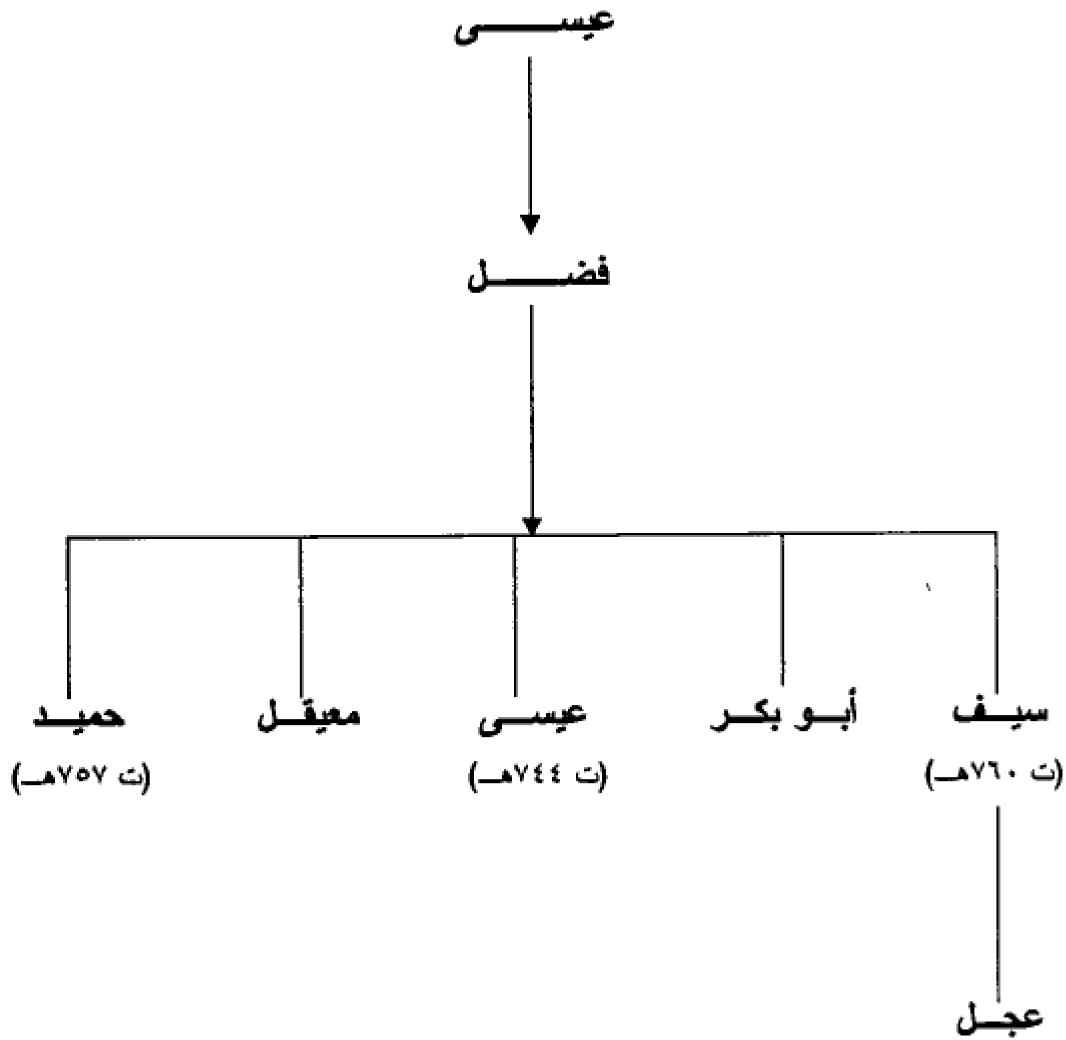
آل حيّار بن مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن عقبة بن فضل

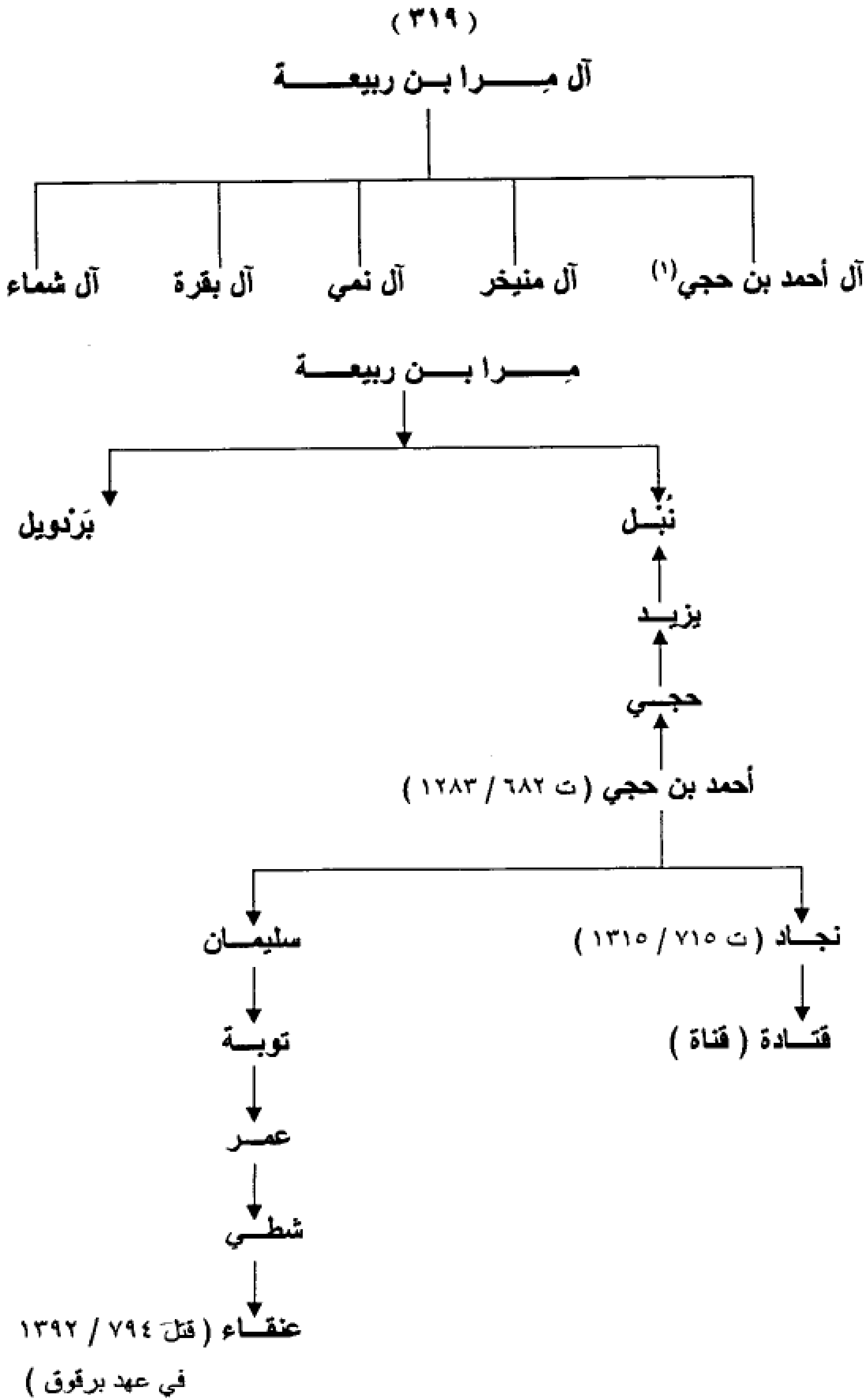


* حيار بن مهنا (٧١٠ – ٧٧٦هـ) : ولي الإمرة بعد وفاة أخيه أحمد سنة ٧٤٩هـ. وعزل سنة ٧٥٢هـ ثم أعيدت له سنة ٧٥٥هـ وعزل فيما بعد سنة ٧٦١هـ. (ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٢/ ١٦٩).

(١) حديثة بن عذراء بن علي بن نعير بن حيار بن مهنا : تولى الإمرة منذ (٨٥٨ – ٨٧٢هـ) مرات عدة. (ابن تغري بردي ، حوادث الدهور ، ٢/ ٤٩١).

آل فضل بن عيسى بن مهنّا بن مانع بن حديثة بن عقبة بن فضل

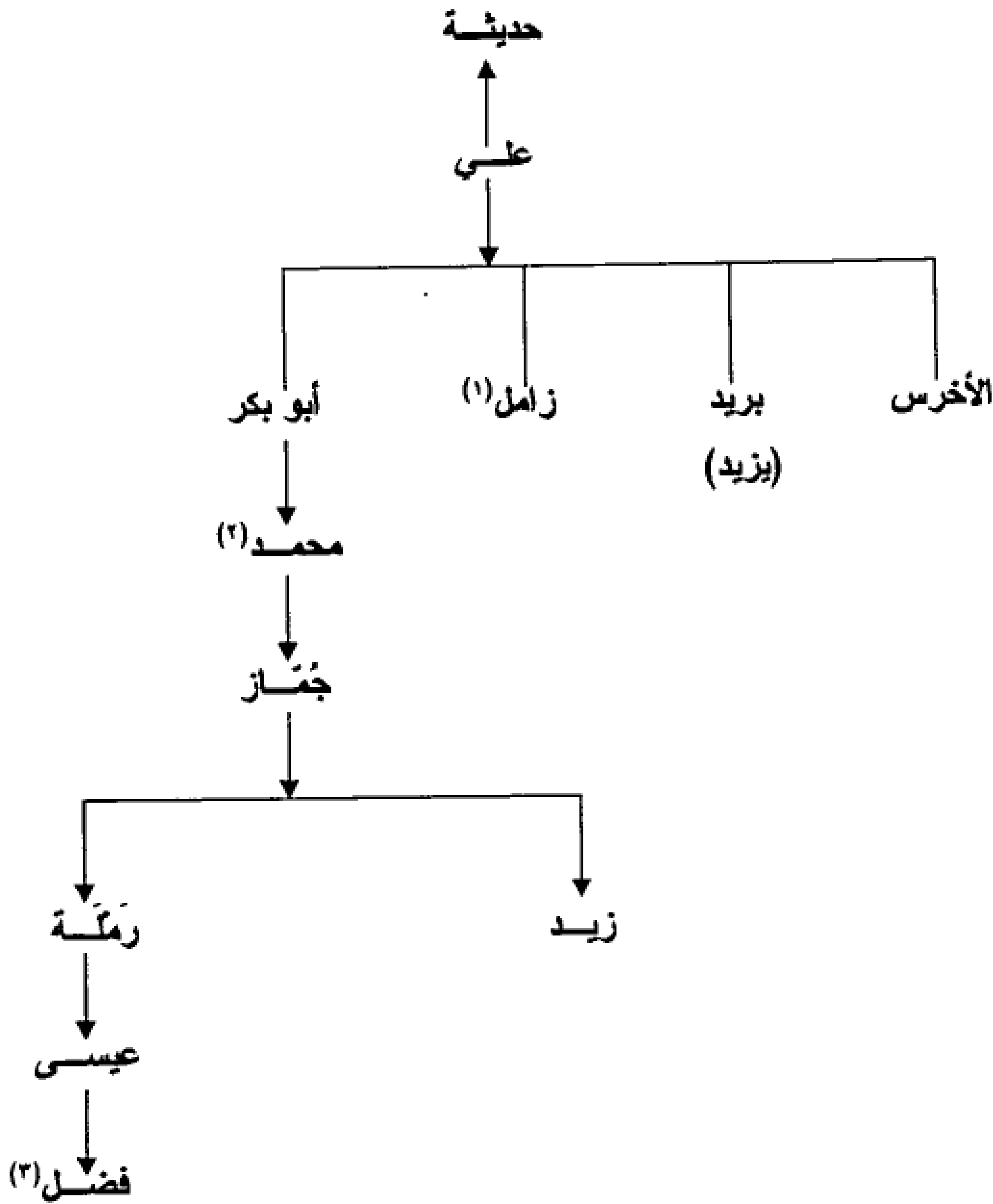




(١) تركزت الإمرة في آل أحمد بن حجي.

(ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، مخطوط : ٤/ ١٣٦ ، والقلقشندي ، قلائد الجمان ، ص : ٨٠).

آل علـي بـن حديثـة بـن عقبـة بـن فضـل بـن ربيعـة



(١) وفد زامل بن علي بن حديثة على عز الدين أيبك ، ومعه أخوه أبو بكر.

(٢) تولى محمد بن أبو بكر بن علي بن حديثة إمرة العرب بدلاً من آل فضل (مهنا وفضل) حين طردهم الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٦هـ. (القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ٢١٧ - ٢١٨).

(٣) هو أمير آل علي ، دام في الإمرة خمساً وثلاثين سنة ، كان ممن نصر الظاهر برقوق لما خرج من الكرك ، قتل سنة (٨١٦ / ١٤١٣). (ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٣/ ٣٠ ؛ السخاوي ، الضوء اللامع ، جـ٣ ق٦ / ١٧٤).

- ذكر القلقشندي ، أن الأمير هو عيسى بن زيد بن جماز . (صبح الأعشى ، ٤/ ٢١٨).
لكن الصحيح كما ذكرنا في (٣).

(شجرة نسب بنو ربيعة)
من أعراب بلاد الشام
إعداد : محمد الشناق

الخرائـــــط

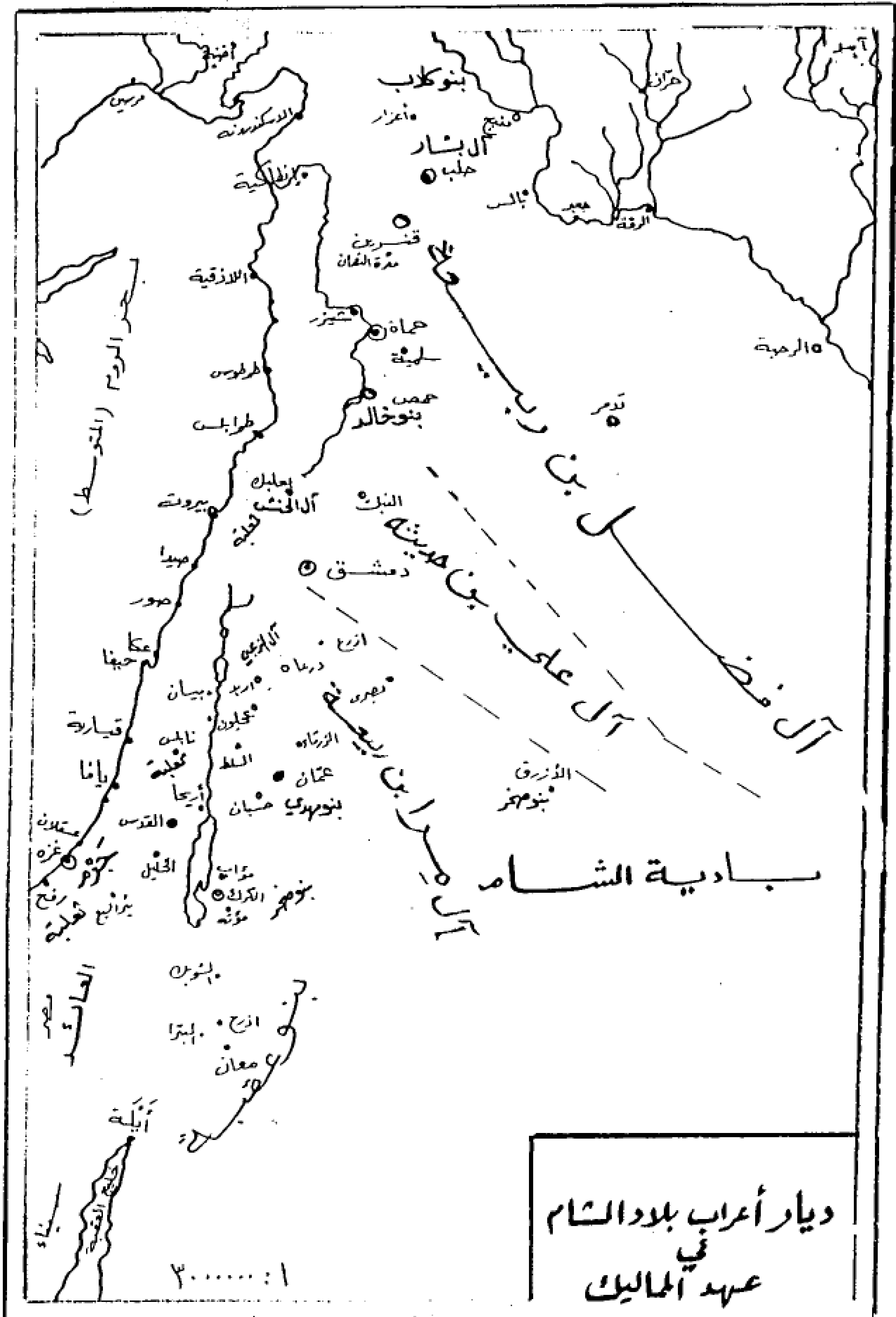
١- خارطة التقسيمات الإدارية في بلاد الشام في عهد المماليك.
٢- ديار أعراب الشام في عهد المماليك.
٣- شمالي الجزيرة الفراتية.
٤- تأييد أعراب الشام للظاهر برقوق.
٥- طرق الحاج الشامي والمصري في عهد المماليك.
٦- طرق البريد في عهد الظاهر بيبرس.
٧- بداية شبكة محطّات للحمام الزاجل في عهد المماليك.
٨- تطور شبكة طرق البريد في القرن الرابع عشر الميلادي.

التقسيمات الإدارية في الشام
في
عهد المماليك

محمد الشناق

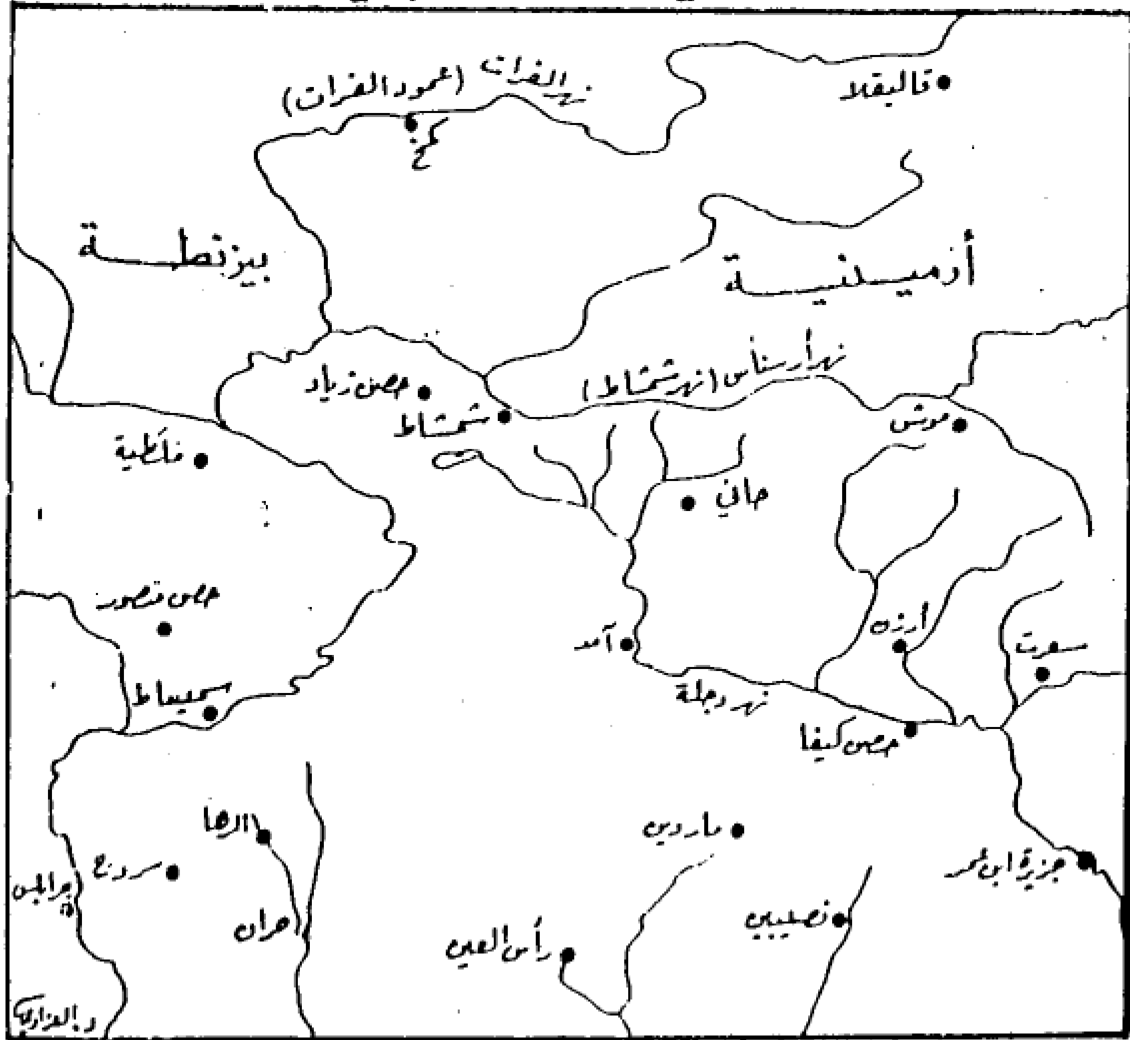
١ : ٢٠٠٠٠٠٠

(كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، ص: ١٢٨؛ حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص: ١٤٢)



إعداد : محمد الشناق

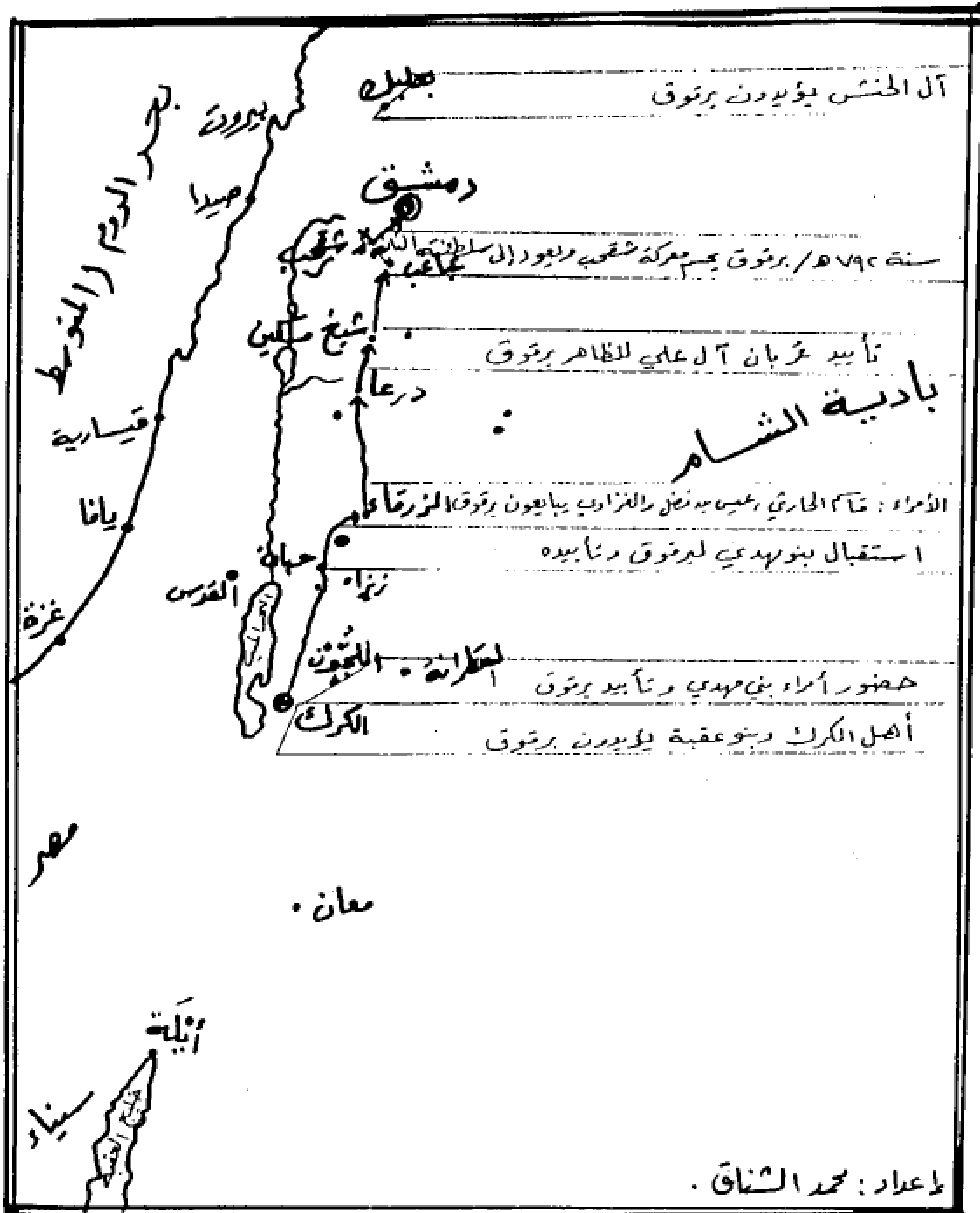
شمالي الجزيرة الفراتية



٠ ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠ ١٢٥كم

— ١١٤ —

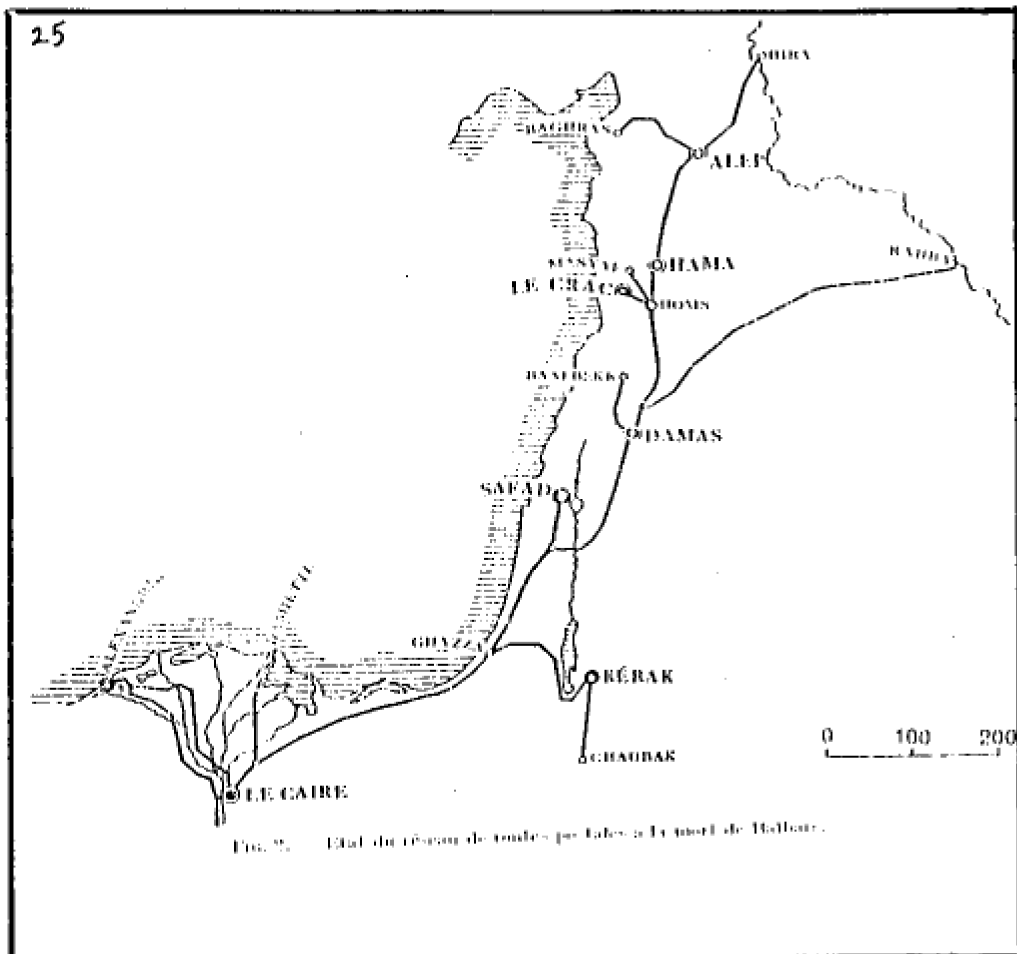
(الغزاوي ، مجلة دراسات تاريخية ـ العددان: ١٥/١٦، جامعة دمشق .)



(تأييد أعراب الشام للظاهر برقوق)

حلب
الرقة
بالس
حماة
حمص
الرحبة
الفرات
تدمر
من بغداد
البقاع
دمشق
الكسوة
خان دنون
غباغب
أزرع
بادية الشام
درعا
بصرى
المفرق
الزرقاء
عمان
زيزا
القطرانة
الكرك
الشوبك
الحسا
معان
غزة
بحر الروم
(المتوسط)
قبرص
القاهرة
السويس
نخل
أيلة
سيناء
المدورة
تبوك
المويلح
ينبع
المدينة المنورة
مكة المكرمة
بحر القلزم (الأحمر)
ش
إعداد: محمد الشناق

(طرق الحاج الشامي والمصري في عهد المماليك)



طرق البريد عند وفاة الظاهر بيبرس

(سوفاجيه، طرق البريد، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق)

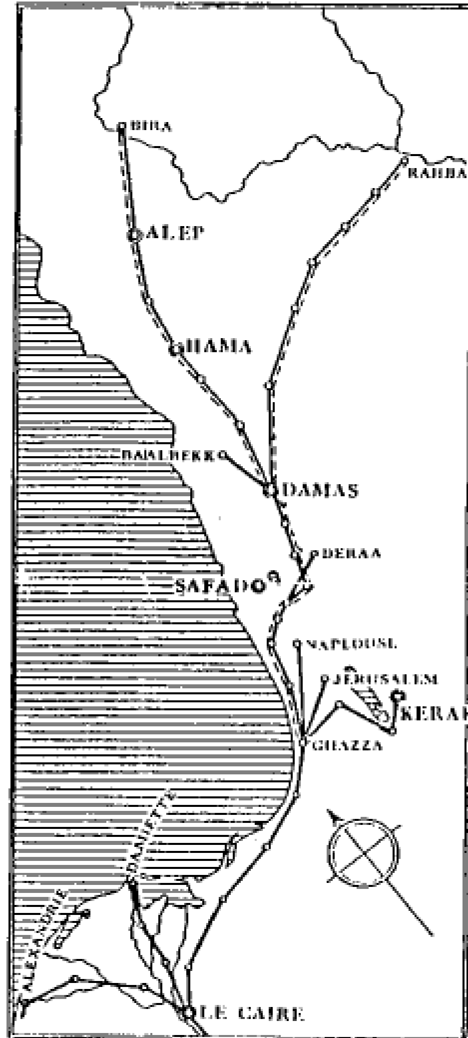


Fig. 6. — Le réseau de colombiers (en traits pleins) et de signaux optiques (en traits interrompus).

بداية شبكة محطات الحمام الزاجل
في
عهد المماليك

(سوناجيه، طرق البريد، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق.)

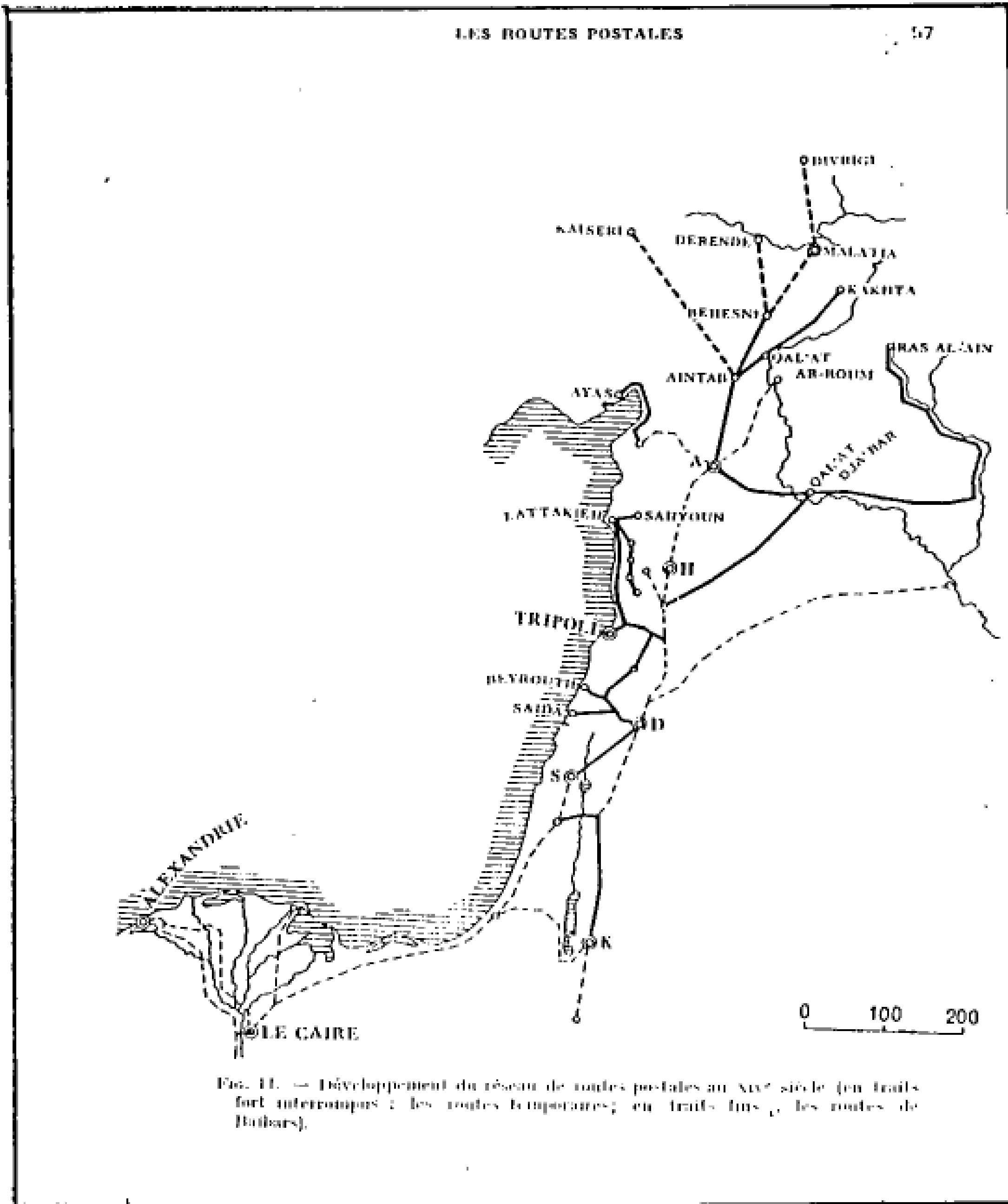


Fig. 11. — Développement du réseau de routes postales au XIVe siècle (en traits fort interrompus : les routes temporaires; en traits fins : les routes de Baibars).

تطور شبكة طرق البريد في عهد المماليك

في القرن الرابع عشر الميلادي

(سوفاجيه ، طرق البريد ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية - دمشق)

المصادر والمراجع

أولاً : المصـــــادر العربيـــــة

(أ) المصـــادر المخطوطـــة :

١- ابن حبيـب ، الحسـن بـن عمـر بـن الحسـن الحلبـــي (-٧٧٩ / ١٣٧٧)
·- درة الأسلاك في دولة الأتراك·- القاهرة : دار الكتب ، رقم (٦١٧٠)·

٢- ابـن حبيـــب ، الطاهـــر بـــن الحســـن الحلبـــي (-٨٠٨ / ١٤٠٥)
·- ذيل درة الأسلاك في دولة الأتراك· - عمّان : الجامعة الأردنية ، رقم ، ٥٣٩.

٣- ابـن خطيـــب الناصريـــة ، علـــي بـــن محمـــــد (-٨٤٣ / ١٤٤٠)
·- الدر المنتخب في تاريخ حلب· - دمشق : مكتبة الأســد ، رقـم : ١٤٥٠١ ، ١٤٥٠٢ ·

٤- ابن خليـل الظاهري ، زين الديـن عبـد الباسـط الملطي (-٩٢٠ / ١٥١٤) ·- نيل الأمل في ذيل الدول· - عمّان : الجامعة الأردنية ، رقم ، ٦١٠ ·

٥- ابـن طولـون ، محمـد بـن علـي الصالحـي الدمشـــقي (-٩٥٣ / ١٥٤٦)
·- المنزل السامي في منازل الحاج الشامي· - القاهرة : دار الكتب ، رقم ، ٧٩ ·

٦- ابن فضل الله العمري ، شـهاب الديـن أحمد بـن يحيـى (-٧٤٩ / ١٣٤٩) ·- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار· - أبو ظبي : المجمع الثقافي ، ج ٤،٣ · (نسخة مصورة)·

٧- ابـن المبـرد ، يوسـف بـن حسـن بـن عبـد الهـــادي (-٩٠٩ / ١٣٤٩)
·- ذم الهوى والذعر في أحوال الزعر· - دمشق : مكتبة الأسد ، رقم : ٣٢٤٣ ·

٨- الصفـــدي ، صـــلاح الديـــن خليـــل بـن أيبـــك (-٧٦٤ / ١٣٦٣) ·- أعيان العصر وأعوان النصر· - أبو ظبـــي : المجمّـع الثقـافي ، ج٣ · (نســخة مصورة)·
- الوافي بالوفيات ·- لويس بوزيه ·- ج٢٦ - (خاص)·

٩- العينـــي ، بـــدر الديـــن محمـــود (- ٨٥٥ / ١٤٥١) ·- عقـد الجمـان في تاريخ أهل الزمان· - القاهرة : دار الكتب ، رقم : ١٥٨٤. - ج٢٢ ·

١٠- المنصوري ، ركن الدين بن عبد الله الدوادار (-٧٢٥ / ١٣٢٥) .- **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**. - القاهرة : جامعة القاهرة ، رقم ، ٢٤٠٢٨ . - ج٩ .

(ب) المصـــــادر المطبوعـــــة :

١١- ابن أبي الفضائل ، المفضّل (-٦٧٢ / ١٢٧٣) .- **النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد**.- تحقيق ، بلوشيه. - باريس : ١٣٣٠ / ١٩١٢ . - ٢ج.

١٢- ابن أجا ، محمد بن محمود بن خليل الحلبي (-٨٨١ / ١٤٧٦) .- **تاريخ الأمير يشبك الظاهري**.- تحقيق عبد القادر طليمات. - القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٣٩٣ / ١٩٧٣ .

١٣- ابن إياس ، محمد بن أحمد الحنفي (-٩٣٠ / ١٥٢٠) .- **بدائع الزهور في وقائع الدهور** .- تحقيق محمد مصطفى. - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٠٨ - ١٤٠٤ / ١٩٦٠ - ١٩٨٤ . - ٥ج .

١٤- ابن أيبك الدوادار ، أبو بكر بن عبد الله (-٧٣٤ / ١٣٢٢) .-

- **كنز الدرر وجامع الغرر (الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية)** .- تحقيق أولرخ هارمان .- القاهرة : المعهد الألماني للآثار ، مطبعة عيسى البابي وشركاه، ١٣٩١ / ١٩٧١ . - ج٨ .
- **كنز الدرر وجامع الغرر (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)** .- تحقيق هانس رويمر .- القاهرة : المعهد الألماني للآثار ، سامي الخانجي، ١٣٨٠ / ١٩٦٠ .- ج٩ .

١٥- ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (-٧٧٩ / ١٣٧٧) .- **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)** . - تحقيق علي المنتصر الكتاني . - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥ / ١٩٨٥ . - ٢ج .

١٦- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨٧٤ / ١٤٦٩).-

- **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور** . - تحقيق كمال الدين عز الدين . - القاهرة : عالم الكتب ، ١٤١٠ / ١٩٩٠ . - ٢ج .

• المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي . – تحقيق محمد محمد أمين ونبيل محمد . – القاهرة : دار الكتب ، ١٤٠٦ – ١٤١٠ / ١٩٨٦ – ١٩٩٠ . – ٧ج .

• النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . – تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرون . – القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٣٨٣ / ١٩٦٣ . – ١٠ج : ٧ – ١٦ .

١٧- ابن تيمية ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي (-٧٢٨ / ١٣٢٨) . – فقه الجهاد . – بيروت : دار الفكر العربي ، ١٤١٢ / ١٩٩٢ .

١٨- ابن الجيعان ، أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر بن عبد الغني (-٩٠٢ / ١٤٩٧) . – القول المستظرف في سفر مولانا الأشرف . – تحقيق عمر عبد السلام التدمري . – لبنان – طرابلس : جروس – برس ، ١٤٠٤ / ١٩٨٤.

١٩- ابن حبيب ، الحسن بن عمر بن الحسن الحلبي (-٧٧٩ / ١٣٧٧) .- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه . – تحقيق محمد محمد أمين . – القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٦ – ١٤٠٧ / ١٩٧٦ – ١٩٨٦ . – ٣ج .

٢٠- ابن حجر ، أحمد بن علي محمد العسقلاني (-٨٥٢ / ١٤٤٨) .-

• إنباء الغُمر بأنباء العُمر . – تحقيق حسن حبشي . – القاهرة : لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ١٣٨٩ / ١٩٦٩ . – ٣ج .

• الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . – تحقيق محمد سيد جاد الحق . – القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٥ / ١٩٦٦ . – ٤ج .

٢١- ابن حزم الأندلسي ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (-٤٥٦ / ١٠٦٤) .- جمهرة أنساب العرب . – بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

٢٢- ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي الموصلي (-٣٨٠ / ٩٩٠) .- كتاب صورة الأرض . – بيروت : دار مكتبة الحياة . – ١٣٩٩ / ١٩٧٩ .

٢٣- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (-٨٠٨ / ١٤٠٥) .-

• تاريخ ابن خلدون المعروف بـ (العبر ، وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) . – تحقيق خليل شحادة . – بيروت : دار الفكر ، ١٤٠١ / ١٩٨١ .

• التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً . – بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٣٩٩ / ١٩٧٩ .

٢٤- ابن خليل الظاهري ، زين الدين عبد الباسط الملطي (– ٩٢٠ / ١٥١٤) .- نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين . – تحقيق كمال الدين علي .- القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .

٢٥- ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد العلائي (-٨٠٩ / ١٤٠٦) . – الجوهر الثمين في سير الخلفاء والسلاطين . – تحقيق محمد كمال عز الدين . – بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٥ / ١٩٨٥ .

٢٦- ابن زنبل ، أحمد بن أبي الحسن علي الرمّال (-٩٦٠ / ١٥٥٣) .- آخرة المماليك ، واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني .- تحقيق عبد المنعم عامر . – القاهرة : ١٣٨٢ / ١٩٦٢ .

٢٧- ابن سباط ، حمزه بن أحمد بن عمر بن صالح الغربي (-٩٢٦ / ١٥٢٠) .- صدق الأخبار (تاريخ ابن سباط) . – تحقيق عمر عبد السلام التدمري .- لبنان – طرابلس : جروس – برس ، ١٤١٣ / ١٩٩٣ . – ٢ج .

٢٨- ابن شاهين الظاهري ، خليل (-٨٧٣ / ١٤٦٨) . – زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . – باريس : لا.ت . (نسخة مصورة) .

٢٩- ابن الشحنة (الصغير) ، أبو الفضل محمد (-٨٩٠ / ١٤٨٥) .-

• البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباي . – تحقيق عمر عبد السلام التدمري . – بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

• الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب . – تقديم عبد الله الدرويش . – دمشق : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

٣٠- ابن شداد ، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (-٦٨٤ / ١٢٨٥) .- تاريخ الملك الظاهر .- تحقيق أحمد حطيط . – فيسبادن (ألمانيا) : فرانزشتاير، ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

٣١- ابن صصرى ، محمد بن محمد (-٨٠٠ / ١٣٩٧) ٠ - الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ٠- تحقيق وليم بيرنر ٠ - بيركلي : مطبعة جامعة كاليفورنيا ، ١٣٨٣/١٩٦٣ ٠

٣٢- ابن الصيرفي ، علي بن داود بن إبراهيم الجوهري (-٩٠٠ / ١٤٩٤) ٠ - نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ٠ - تحقيق حسن حبشي ٠ - القاهرة : دار الكتب ، ١٣٨٩ / ١٩٧٠ ٠ - ٣ج ٠

٣٣- ابن طولون ، محمد بن علي الدمشقي الصالحي (-٩٥٣ / ١٥٤٦).-

- إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ٠ - تحقيق محمد أحمد دهمان ٠ - دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٤ / ١٩٨٤ ٠
- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ٠ - تحقيق محمد مصطفى زيادة ٠ - القاهرة: دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٨٢ / ١٩٦٢ ٠ - ٢ج ٠

٣٤- ابن عبد الظاهر ، محيي الدين (- ٦٩٢ / ١٢٩٢) ٠ -

- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ٠ - تحقيق مراد كامل ٠ - القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٣٨١ / ١٩٦١ ٠
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ٠ - تحقيق عبد العزيز الخويطر ٠ - الرياض : ١٣٩٦ / ١٩٧٦ ٠

٣٥- ابن العديم ، كمال الدين عمر (-٦٦٠ / ١٢٥٦) ٠ - زبدة الحلب من تاريخ حلب٠- تحقيق سامي الدهان ٠ - دمشق : منشورات المعهد الفرنسي ، ١٣٨٨ / ١٩٦٨ ٠ - ج٣ ٠

٣٦- ابن عربشاه ، أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي (-٨٤٥ / ١٤٥٠) ٠ - عجائب المقدور في نوائب تيمور ٠ - تحقيق علي محمد عمر ٠ - القاهرة : مكتبة الأنجلو - المصرية ، ١٣٩٩ / ١٩٧٩ ٠

٣٧- ابن العماد ، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (-١٠٨٩ / ١٦٧٨) ٠ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٠ - بيروت : دار المسيرة ، ١٣٩٩ / ١٩٧٩ ٠ - ٨ج ٠ (نسخة مصورة) ٠

٣٨- ابن الفرات ، محمد بن عبد الرحيم (-٨٠٧ / ١٤٠٤) . - **تاريخ ابن الفرات** . - تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين . - بيروت : منشورات الجامعة الأمريكية، ١٣٥٥ - ١٣٦١ / ١٣٦ - ١٩٤٢ . - ج : ٧ ، ٨ ، ٩ .

٣٩- ابن فضل الله العمري ، شهاب الدين أحمد بن يحيى (-٧٤٩ / ١٣٤٩) .-

- **التعريف بالمصطلح الشريف** . - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨ / ١٩٨٨.
- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** . - تحقيق دورو تيا كرافولسكي . - بيروت : المركز الإسلامي للبحوث ، ١٤٠٦ / ١٩٨٥ .

٤٠- ابن الفوطي ، كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق البغدادي (-٧٢٣ / ١٢٢٣) . - **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة** . - تحقيق مصطفى جواد . - بيروت : دار الفكر الحديث ، ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .

٤١- ابن قاضي شهبة ، تقي الدين أبي بكر بن أحمد الأسدي الدمشقي (-٨٥١/ ١٤٤٨).- **تاريخ ابن قاضي شهبة** . - تحقيق عدنان درويش . - دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، الجابي للطباعة والنشر (**قبرص**) ؛ ١٣٩٧ - ١٤١٨ / ١٩٧٧ - ١٩٩٧ . - ٤ج .

٤٢- ابن القلانسي ، أبو حمزة يعلي (-٥٥٠ / ١١٥٥) . - **ذيل تاريخ دمشق** . - تحقيق هـ.أمدروز . - بيروت : مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٣٢٦ / ١٩٠٨ .

٤٣- ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (-٧٧٤ / ١٣٧٢) . - **البداية والنهاية** . - بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٣ / ١٩٩٣ . - ج : ١٣ ، ١٤ .

٤٤- ابن منظور ، محمد بن مكرم الأنصاري (-٧١١ / ١٣١١) . - **لسان العرب المحيط** . - بيروت : دار لسان العرب ، لا.ت.

٤٥- ابن ناظر الجيش ، تقي الدين عبد الرحمن بن محب الدين محمد التميمي الحلبي (-٧٨٦ / ١٣٨٤) . - **كتاب تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف** . - تحقيق رودلف فسلي . - القاهرة : المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، ١٤٠٨/١٩٨٧ .

٤٦- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (-٦٩٧ / ١٢٩٨) .- **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب** . - تحقيق جمال الدين السيّال . - القاهرة : دار القلم ، ١٣٨٠/١٩٦٠ . - ٣ج .

٤٧- ابن الوردي ، زين الدين عمر (-٧٤٩ / ١٣٤٩) ٠ - تتمة المختصر في تـــاريخ البشر (تاريخ ابن الوردي) ٠ - تحقيق أحمد رفعت البدراوي ٠ - بـيروت : دار المعرفة ، ١٣٨٩ / ١٩٧٠ ٠

٤٨- أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن إسماعيل المقدســي (-٦٦٥ / ١٢٦٧) ٠ - تراجم رجال القرنين السادس والسابع (الذيل على الروضتين) ٠ - تحقيق محمد زاهد الكوثري ٠ - بيروت : دار الجليل ، ١٣٩٤ / ١٩٧٤ ٠

٤٩- أبو الفــداء ، عمــاد الديــن إسماعيــل بــن محمــد بــن عمـــر ، صاحـــب حماة (-٧٣٢/١٣٣١)٠-

- تقويــم البلـــدان ٠ - تحقيق رينود رينود وماك كوكيــن ٠ - بـــاريس : دار الطباعة السلطانيـــة ، ١٢٤٦ / ١٨٣٠ ٠ (نسخة مصورة عـــن دار صـــادر - بيروت) ٠

- المختصر فـــي تاريـــخ البشـــــر ٠ - القاهـــرة : مكتبـــة المتنبـــــي ، لا٠ت٠ (نسخة مصورة) ٠

٥٠- الإدريس ، أبو عبد الله محمــد بــن عبــد الله الحمــوي (-٥٦١ / ١١٦٦) ٠ - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٠ - القاهرة : مكتبة الثقافة الدينيـــة ، لا٠ت ٠ - ٤ج٠

٥١- الإشبيلي ، علي بن محمد اللخمي (؟) ٠ - الدر المصـــان فـــي سيـــــرة المظفر سليـــم خـــان ٠ - تحقيق هانس أرنست ٠ - القاهــــرة : دار إحيـــاء الكتـــب العربيـــة ، ١٣٨٢ / ١٩٦٢ ٠

٥٢- البرزالي ، القاسم بن محمد بن يوسف (-٧٣٩ / ١٣٣٨) ٠ - المقتفى لتـاريخ أبي شامة (تاريخ البرزالي) ٠ - تحقيق محمد مصباح مظلـــوم ٠ - دمشـــق : جامعـــة دمشق ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠ (رسالة ماجستير غير منشورة - نســـخة فـــي مكتبـــة الأسد).

٥٣- الجزيري ، عبد القادر بن محمد بــن عبــد القـــادر بــن إبراهيــم الأنصـــــاري الحلبي (-٩٧٧ / ١٥٧٠) ٠ - درر الفرائـــد المنظّمـــة فـــي أخبـــار الحــــاج

وطريــق مكــة المكرّمــة.- تحقيق محب الدين الخطيــب . - الريــاض : دار اليمامة، ١٤٠٣ / ١٩٨٣ . - ٢ج .

٥٤- الروذراوري ، أبو شجاع محمد بن الحسين (-٤٨٨ / ١٠٩٥) . - **ذيل تجــارب الأمــم**.- تحقيق هـ.أمدروز . - القــاهرة : مطبعــة شركــة التمــدن الصناعيــة ، ١٣٣٥ / ١٩١٦ . - ج٣ .

٥٥- السخــاوي ، شمــس الديــن محمــد بــن عبــد الرحمــن (-٩٠٢ / ١٤٩٧) .
-

- **التبر المسبوك في الذيل على السلوك** . - تحقيق أحمد زكــي . - القــاهرة : المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٤٠٦ / ١٩٨٦ .

- **الذيل التام على دول الإسلام للذهبي** . - تحقيق حسن إسماعيل مروة ومحمود الأرناؤوط . - كويت ، بيروت : مكتبة دار العروبــة ، دار ابــن العمــاد ، ١٤١٣ / ١٩٩٢ .

- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** . - بيروت : دار مكتبة الحيــاة .لا.ت . - ٦ج.

٥٦- السويدي ، أبو الفوز محمد أميــن البغــدادي (-١٢٤٦ / ١٨٣٠) . - **ســبائك الذهب في معرفة قبائل العرب** . - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٩ / ١٩٨٩.

٥٧- السيوطي ، أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبو بكر بن محمد (٩١١/١٥٠١).-

- **تاريخ الخلفاء** . - تحقيق عبد الله مسعود . - حلــب : دار القلــم ، ١٤١١ / ١٩٩١.

- **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة** . - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيــم .- القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ، ١٣٨٧ / ١٩٦٨ . - ٢ج .

٥٨- شيخ الربوة ، أبو عبد الله محمد بن أبــي طالــب المشــقي (-٧٢٧ / ١٣٢٧) . - **نخبة الدهــر فــي عجائــب البحــر** . - بيروت : دار إحياء الــتراث العربــي ، ١٤٠٨ / ١٩٨٨ .

٥٩- صالــح بــن يحيــى (-٨٤٠ / ١٤٣٩) . - **تاريخ بيروت وأخبــار الأمراء البحتريين من بني الغرب** . - تحقيق لويس شيخو . - بــيروت المطبعــة الكاثوليكية ، ١٣٤٦ / ١٩٢٧ .

٦٠- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك (-٧٦٤ / ١٣٦٣) . - الوافي بالوفيات .- تحقيق بيرند راتكه وآخرون . - بيروت : دار صادر ، ١٤١١ / ١٩٩١ . - ٢٢ج.

٦١- الصقاعي ، فضل الله بن أبي الفخر (-٧٢٦ / ١٣٢٦) . - تالي كتاب وفيات الأعيان . - تحقيق جاكلين سوبله . - دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .

٦٢- العليمي ، مجير الدين أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد الحنبلي (-٩٢٨ / ١٥٢٢).- الأنس الجليل بتاريخ أهل القدس والخليل . - النجف : المكتبة الحيدرية ، ١٣٨٦ / ١٩٦٦ .

٦٣- العيني ، بدر الدين محمود (-٨٥٥ / ١٤٥١) . -

- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي . - تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى زيادة . - القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٣٨٧ / ١٩٦٧ .
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان . - تحقيق محمد محمد أمين . - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٧ - ١٤١٢ / ١٩٧٧ - ١٩٩٢ . - ٤ج : ١-٤ .
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (حوادث وتراجم ٨٢٤ - ٨٥٠ هـ) .- تحقيق عبد الرازق القرموط .- القاهرة : الزهراء للإعلام العربي ، ١٤٠٩/١٩٨٠.

٦٤- الفاسي ، تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي (-٨٣٢ / ١٤٢٨) .- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين .- تحقيق محمد حامد الفقي .- بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦ / ١٩٨٦ .- ٨ج .

٦٥- الفيروز أبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (-٨١٧ / ١٤١٤) .- القاموس المحيط .- بيروت : دار الجيل ، لا.ت .- ٤ج . (نسخة مصورة) .

٦٦- القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (-٦٨٢ / ١٢٨٣) .- آثار البلاد وأخبار العباد .- بيروت : دار صادر ، لا.ت .

٦٧- القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (-٨٢١ / ١٤١٨).-

• **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** .- تحقيق محمد حسين شمس الدين .- بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .- ١٤ج .

• **قلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان** .- تحقيق إبراهيم الأبياري .- القاهرة: دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٣ / ١٩٦٣ .

• **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب** .- بيروت : دار الكتب العلمية ، لا.ت.

٦٨- الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (-٤٥٠ / ١٠٥٨).- **الأحكام السلطانية والولايات الدينية** .- بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥ / ١٩٨٥ .

٦٩- المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (-٣٤٦ / ٩٥٧) .- **مروج الذهب ومعادن الجوهر** .- بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .- ج١.

٧٠- مغلطاي ، إبراهيم (؟) .- **تأريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس وأمرائها** .- تحقيق زيترستين .- لندن ، ١٣٣٨ / ١٩١٩ .

٧١- المقدسي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري (-٣٨٠ / ٩٩٠) .- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** .- تحقيق محمد مخزوم .- بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٨ / ١٩٨٧ .

٧٢- المقريزي ، أحمد بن علي ، تقي الدين (-٨٤٥ / ١٤٤٢) .-

• **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء** .- تحقيق جمال الدين الشيال .- القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والنشر ، ١٣٦٧ / ١٩٤٨ .

• **إغاثة الأمة بكشف الغمّة** .- تحقيق محمد مصطفى زيادة ، وجمال الدين الشيّال .- القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والنشر ، ١٣٥٩ / ١٩٤٠ .

• **السلوك لمعرفة دول الملوك** .- تحقيق محمد مصطفى زيادة ، وسعيد عاشور .- القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والنشر ، ١٣٥٣ - ١٣٩٣ / ١٩٣٤ - ١٩٧٣ .- أربعة أجزاء : كل جزء ثلاثة أقسام .

• **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزيّة)** .- القاهرة مكتبة الثقافة الدينية ، لا.ت .- ٢ج . (نسخة مصورة) .

٧٣- المنصوري ، ركن الدين بيبرس بن عبد الله الدوادار (-١٣٢٥/٧٢٥)٠- التحفة الملوكية في الدولة التركية ٠- تحقيق ، عبد الحميد صالح حمدان ٠-القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٨٧/١٤٠٧.

٧٤- النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (-٧٣٣ / ١٣٣٣) ٠- نهاية الأرب في فنون الأدب ٠- تحقيق محمد شعيرة ، الباز العريني ٠- القاهرة : مركز تحقيق التراث ، ١٤١٠ - ١٤١٢ / ١٩٨٩ - ١٩٩٢ ٠- ج : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ٠

٧٥- الهمذاني ، رشيد الدين فضل الله (-٧١٨ / ١٣١٨) ٠- جامع التواريخ ٠- ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون ٠- القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٨٠ / ١٩٦٠ ٠- ٢ج ٠

٧٦- اليافعي ، أبو عبد الله بن اسعد (-٧٦٨ / ١٣٦٦) ٠- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ٠- الهند : حيدر أباد ، ١٣٣٨ / ١٩١٩ ٠- ٤ج ٠

٧٧- ياقوت الحموي ، شهاب الدين بن عبد الله الرومي البغدادي (-٦٢٦ / ١٢٢٨) ٠- معجم البلدان ٠- تحقيق فريد الجندي ٠- بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٠ / ١٩٩٠ ٠- ٥ج ٠

٧٨- اليوسفي ، موسى بن محمد بن يحيى (-٧٥٩ / ١٣٥٨) ٠- نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ٠- تحقيق أحمد حطيط ٠- بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٦ / ١٩٨٥ ٠

٧٩- اليونيني ، قطب الدين موسى بن محمد بن أحمد (-٧٢٦ / ١٣٢٦) ٠- ذيل مرآة الزمان ٠- الهند : حيدر أباد : مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٧٥ - ١٣٨٠ / ١٩٥٥ - ١٩٦٠ ٠- ٤ج ٠ (نسخة مصورة ، القاهرة : دار الكتاب الإسلامي ، ١٤١٣ / ١٩٩٢) ٠

٨٠- مجهول ٠- خزانة السلاح ومحتوياتها في عصر الأيوبيين والمماليك ٠- تحقيق ، نبيل محمد عبد العزيز ٠- القاهرة : مكتبة الأنجلو - المصرية ، ١٣٣٩ / ١٩٧٨.

ثانياً : المراجـــــع العربيـــــة

٨١- أبو حرب ، محمد خير ·- المعجـــم المدرســـي ·- دمشق : وزارة التربيـــة والتعليم ، ١٤٠٦ / ١٩٨٥ ·

٨٢- آشتور ·- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوســطى ·- ترجمة عبد الهادي عبلة ·- دمشق : دار قتيبة ، ١٤٠٦ / ١٩٨٥ ·

٨٣- الألوسي ، محمود شكري ·- بلــوغ الأرب فــي معرفــة أحــوال العـــرب ·- بيروت : دار الكتب العلمية ، لا·ت ·- ٣ج ·

٨٤- أمين ، أحمد ·- فجـــر الإســـــلام ·- بيـــــروت : دار الكتـــاب العربي، ١٣٨٩ / ١٩٦٩ ·

٨٥- إيفانوف ، نيقولاي ·- الفتـــح العثمانـــي للأقطـــــار العربيـــــة ·- ترجمة يوسف عطا الله ·- بيروت : دار الفارابي ، ١٤٠٩ / ١٩٨٨ ·

٨٦- البستاني ، بطرس ·- محيـــــط المحيـــــط ·- بيــروت ، مطتبــة لبنـــان ، ١٤٠٤ / ١٩٨٣ ·

٨٧- بكر ، سيد عبــد المجيــد ·- الملامــح الجغرافيــة لــدروب الحجيــــج ·- السعودية (جدة) : تهامة للطباعة ، ١٤٠١ / ١٩٨١ ·

٨٨- البيطار ، أمينة ·- موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أوائــل القرن الخامس الهجري ·- دمشق : دار دمشق ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠ ·

٨٩- تدمري ، عمر عبد السّلام ·- تاريــخ طرابلــس السياســي والحضاري عـــبر العصور (عصر دولة المماليك) ·- بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ·- ١٤٠٠ / ١٩٨٠ ·- ج٢ ·

٩٠- جبور ، جبرائيل ·- البـــــدو والباديــــة ·- بيروت : لا·ت ·

٩١- الجوهري ، يسري عبد الرزاق ·- جغرافيـــة العالـــم الإسلامـــــي ·- الإسكندرية : دار الجامعات المصرية ، ١٣٩٩ / ١٩٧٩ ·

٩٢- حتّي ، فيليب ٠- تاريـخ سوريـا ولبنـان وفلسطيـن ٠- ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق ٠- بيروت : دار الثقافة ، ١٤٠٤ / ١٩٨٣ ٠- ج١ .

• تاريـخ العـرب ٠- ط٨ ٠- بيروت : دار غندور للطباعـة والنشـر ، ١٤١١/١٩٩٠.

٩٣- الحياري ، مصطفى ٠- الإمـارة الطائيـة فـي بـلاد الشـام ٠- عمّـان : وزارة الثقافة والشباب ، ١٣٧٧ / ١٩٧٧ .

٩٤- خليل ، عماد الدين ٠- الإمـارات الأرتقيـة فـي الجزيـرة والشـام ٠- بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .

٩٥- الدباغ ، مصطفى مراد ٠-

• بلادنـا فلسطيـن ٠- بيروت : دار الطليعة ، ١٣٨٥ / ١٩٦٥ .

• القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطيـن ٠- بيـروت : المؤسسـة العربية ، ١٤٠٦ / ١٩٨٦ .

٩٦- دهمان ، محمد أحمد ٠-

• العراك بين المماليك والعثمانيين والأتـراك ٠- دمشـق : دار الفكـر ، ١٤٠٦/ ١٩٨٦.

• معجم الألفـاظ التاريخيـة فـي العصـر المملـوكي ٠- دمشـق : دار الفكـر، ١٤١٠ / ١٩٩٠ .

• ولاة دمشق في عهد المماليك ٠- ط٢ ٠- دمشق : دار الفكر ، ١٣٨٣/١٩٦٣ .

٩٧- الـراوي ، عبـد الجبـار ٠- الباديـة ٠- بـغداد : مطبعـة العـاني ، ١٣٦٨/١٩٤٩.

٩٨- رمزي ، محمد ٠- القامـوس الجغرافـي للبـلاد المصريـة ٠- القـاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٧٢ / ١٩٥٣ ٠- ٤ج .

٩٩- زامباور ، إدوارد فون ٠- معجم الأنساب والأسـرات الحاكمـة في التـاريخ الإسلامي ٠- ترجمة زكي محمد ٠- القاهرة : مطبعة فؤاد الأول ، ١٣٧٠/١٩٥١.

١٠٠-زكّار ، سهيل .- إمارة حلب .- دمشق : دار الكتاب العربي ، لا.ت.

١٠١-زكريا ، أحمد وصفي .- عشائر الشام .- دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .- ٢ج.

١٠٢-زيادة ، نقولا .- دمشق في عصر المماليك .- بيروت - نيويورك : مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، ١٣٨٦ / ١٩٦٦ .

١٠٣-زيدان ، جرجي .- العرب قبل الإسلام .- بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

١٠٤-سعداوي ، نظير حسان .- صور ومظالم من عصر المماليك .- القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٣٨٦ / ١٩٦٦ .

١٠٥-السعيد ، أحمد .- تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي عن الدخيل .- القاهرة : دار المعارف ، لا.ت .

١٠٦-سعيد ، فرحان أحمد .- آل ربيعة الطائيون .- بيروت : الدار العربية للموسوعات ، ١٤٠٤ / ١٩٨٣ .

١٠٧-السيد ، محمود .- تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي .- الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٣٩٨ / ١٩٧٧ .

١٠٨-سوفاجيه ، جان .- دمشق الشام .- ترجمة إفرام البستاني .- بيروت : المطبعة الكاثوليكية .- ١٣٥٥ / ١٩٣٦ .

١٠٩-شبولر ، برتولد .- العالم الإسلامي في العصر المملوكي .- ترجمة خالد أسعد عيسى .- دمشق : دار حسان للطباعة والنشر ، ١٤٠٢ / ١٩٨٢.

١١٠-الشدياق ، طنوس بن يوسف.- أخبار الأعيان في جبل لبنان .- تحقيق بطرس البستاني .- بيروت : ١٢٧٦/١٨٥٦.

١١١-الشناق ، محمد .- الظاهر برقوق مؤسس دولة المماليك الثانية .- بيروت : جامعة القديس يوسف ، ١٤١٣ / ١٩٩٣ . (رسالة ماجستير غير منشورة) .

١١٢-شهاب ، مظهر .- تيمور لنك .- بيروت : جامعة القديس يوسف ، ١٤٠١ / ١٩٨١ . (أطروحة دكتوراه غير منشورة) .

١١٣-الشهابي ، حيدر أحمد .- الغـرر الحسـان فـي تاريـخ أهـل الزمـان .- القاهرة : مطبعة السلام ، ١٣١٨ / ١٩٠٠ .- الجزء الأول .

١١٤-الصليبي ، كمال .- منطلـق تاريـخ لبنـان .- نيويـورك : منشورات كارافان ، ١٤١٣ / ١٩٩٢ .

١١٥- الصياد ، فؤاد عبد المعطي .- الشـرق الإسلامـي فـي عهـد الإيلخـانيين .- الدوحة : جامعة قطر ، ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .

١١٦- ضومط ، انطوان خليل .- الدولة المملوكية – التاريخ السياسي والاقتصـادي والعسكري .- بيروت : دار الحداثة ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠٠ .

١١٧- الطراونة ، طه ثلجي .- مملـكة صفـد فـي عهـد المماليـك .- بيروت: دار الأفاق الجديدة ، ١٤٠٩ / ١٩٨٨ .

١١٨- عبد السلام ، عادل .- الأقاليم الجغرافيـة السـورية .- دمشـق : دار حسـان للطباعة، لا.ت .

١١٩- عبود ، هنري .- معجم الحضارات السامية .- بيروت : دار الأفاق الوطنيـة ، لا.ت .

١٢٠- العريني ، السيد الباز .- المماليـك .- بيـروت : دار النهضـة العربيـة ، ١٣٨٦ / ١٩٦٧ .

١٢١- العزاوي ، عباس .- تاريـخ العـراق بيـن احتلاليـن .- بغداد : شـركة الطباعة والتجارة المحدودة ، ١٣٥٣ / ١٩٣٥ .- ٨ج .

١٢٢- عزت ، يوسف .- تاريـخ القوقـاز .- ترجمـة عبد الحميد غـالب .- القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٣٥٢ / ١٩٣٣ .

١٢٣- عطا الله ، محمود علي خليل .- نيابـة غـزة فـي عهـد المماليـك .- بيروت : دار الأفاق الجديدة ، ١٤٠٦ / ١٩٨٦ .

١٢٤- العلبي ، أكرم حسن علي .- دمشـق بيـن عصـر المماليـك والعثمـلنين .- بيروت : الشركة المتحدة للتوزيع ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

١٢٥- علي ، جواد ٠- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٠- بيروت: دار العلم للملايين ، ١٣٩٦ / ١٩٧٦ ٠- ج١ ٠

١٢٦- علي السيد ، علي ٠- القدس في العصر المملوكي ٠- القاهرة : دار الفكر للدراسات ، ١٤٠٧ / ١٩٨٦ ٠

١٢٧- علي ، محمد كرد ٠- خطط الشام ٠- بيروت : ١٣٨٩ ، ١٩٦٩ ٠- ج٢ ٠

١٢٨- غوانمه ، يوسف درويش ٠-

- التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي ٠- عمّان: دار الفكر ، ١٤٠٢ / ١٩٨٢ ٠
- تاريخ نيابة القدس في العصر المملوكي ٠- عمّان : دار الحياة ، ١٤٠٢ / ١٩٨٢.

١٢٩- غندور ، محمد يوسف ٠- جزيرة ابن عمر ٠- بيروت : دار الفكر اللبناني ، ١٤١١ / ١٩٩٠ ٠

١٣٠- فارتيما ، لودوفيكو ٠- رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري) ٠- ترجمة عبد الرحمن عبد الشيخ ٠- القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤١٥ / ١٩٩٤ ٠

١٣١- قاسم ، قاسم عبده ٠- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي في عصر سلاطين المماليك ٠- القاهرة : دار المعارف ، ١٣٩٩ / ١٩٧٩ ٠

١٣٢- القرموط ، عبد الرزاق الطنطاوي ٠- العلاقات المصرية العثمانية ٠- القاهرة : الزهراء للإعلام العربي ، ١٤١٤ / ١٩٩٥ ٠

١٣٣- كاهن ، كلود ٠- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ٠- ترجمة بدر الدين القاسم ٠- بيروت : دار الحقيقة ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣ ٠

١٣٤- لابيدوس ، إيرا مارفين ٠- مدن الشام في العصر المملوكي ٠- ترجمة سهيل زكار ٠- دمشق : دار حسان للطباعة والنشر ٠- ١٤٠٥ / ١٩٨٥.

١٣٥- لسترانج ، كي ٠-

• بلـــدان الخلافـــة شرقيـــة .- ترجمة بشير فرنسيس ، وكوكيس .- بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥ – ١٤٠٧م .

• فلسطيـــن فـــي العهـــد الإسلامـــي .- ترجمة محمود عمايرة .- عمّـــان : وزارة الثقافة والإعلام ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، ١٣٩٠ / ١٩٧٠ .

١٣٦- ماجد ، عبد المنعم .- نظـــم دولـــة سلاطيـــن المماليك .- القاهرة : مكتبـــة الإنجلو المصرية ، ١٣٨٤ / ١٩٦٤ .- (٢ج) .

١٣٧- ماير .ل.أ .- الملابـــس المملوكيـــة .- ترجمة صالح الشـــيّال .- القـــاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٧٢ / ١٩٥٢ .

١٣٨- متولي ، احمد فؤاد .- الفتـــح العثمانـــي للشـــام ومصـــــــر .- القـــاهرة : الزهراء للإعلام العربي ، ١٤١٤ / ١٩٩٥ .

١٣٩- مؤنس ، حسين .- أطلـــس تاريـــخ الإســـلام .- القاهرة : الزهراء للإعـــلام العربي ، ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .

ثالثاً : الدوريـــــــــــات

١٤٠- الأبياري ، إبراهيم .- " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهـــرة لابـــن تغري بردي " .- مجلة تراث الإنسانية .- القاهرة : مج٤ ، ج٩ ، الدار المصريـــــة للتأليف ، ١٣٨٦ / ١٩٦٦ ، ص : ٦٨١ – ٦٩١ .

١٤١- إسماعيل، فاروق .- " حول أصل الإسم سورية ". - مجلة دراسات تاريخيـــة .- جامعة دمشق : العددان ٤٩+٥٠ ، ١٤١٥ / ١٩٩٤ ، ص :١١٩-١٢٣ .

١٤٢- البخيت ، محمد عدنان .- " دور أسرة آل الحنش والمهام التي أوكلت إليها فـــي ريف الشام " .- مجلة دراسات تاريخية .-جامعة دمشق : العـــددان ١٣ + ١٤ ، ١٤٠٤ /١٩٨٣ ، ص : ٨٨ – ١٣٧ .

١٤٣- زايد ، محمود .- " رحلة برتراندون دي لابردكير إلى فلسطين ولبنان وســوريا " .- مجلة الأبحاث (الجامعـــة الأمريكيـــة – بيـــروت) .- السنـــــة ١٥ ، ج٣ ، ١٣٨٢/ ١٩٦٢ ، ص : ٢٩٩ – ٣٣٥ .

١٤٤- زيادة ، محمد مصطفى .- " السلوك للمقريزي " .- مجلة تراث الإنسانية .- القاهرة : الدار المصرية للتأليف والنشر ، مج٢ ، ج٩ ، ١٣٨٤ /١٩٦٤ ، ص : ٥٠٩ - ٥٢١ .

١٤٥- عبد الكريم ، أحمد عزت .- " التقسيم الإداري لسورية في عهد المماليك " .- مجلة كلية الآداب .- جامعة إبراهيم باشا (عين شمس) .- عدد مايو ١٩٥١ ، ص : ١٢٧ - ١٤١ .

رابعاً : المراجع الأجنبية

١٤٦- - Ayalon D

." Studies on the Structure of the Mamluk Army", B.S.O.A.S.,Vol.15.London , 1953.pp. 203 – 228.

." The System of payment in the Mamluk Military Society ", J.E.S.H.O , Vol.t.Leiden , 1958 , pp. 48 – 50.

١٤٧- - Bartlett (W.H) : Jerusalem Revisited , Thomas Nelson , London , 1854.

١٤٨- - Encyclopaedia of Islam , Edition ,1. A-M.London , 1930 – 1967 .

١٤٩- - Felix , Fabri . " The Book of the Wanderings of Brother " (1480-1483 A.D) 2 Vols , London.

١٥٠- - Lane Poole .

. History of Egypt in the Middle Ages , London , 1925.

١٥١- - Mui. W

. The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt , London , 1896.

١٥٢- - Polia. A.N

. Feudalism in Egypt , Syria , Palestine , and Lebanon , 1250-1900 , London , 1939.

١٥٣- -Popper , W

. Egypt and Syria under the Circassian Sultans , Berkley University of California , 1955-1957.

- Sauvaget , ١٥٤-

. La post aux chevaux dans l'empire des Mamelouks , Paris , 1941.

- Thomas W ١٥٥-

. Early Travels in Palestine , London , 1948.

- Tritton A.S ١٥٦-

. " The Tribes of Syria in the Fourteenth and Fifteenth Centurries " , B.S.O.A.S. Vol.10. 1948 , pp.567-569.

- Ziadeh N.A ١٥٧-

. Urban Life in Syria Under the Early Mamluks , Beirut , 1953.

الفهارس الفـــنية

أولاً : فهرس الأعلام :

(أ) الأشخاص ،

(ب) القبائل والجماعات ،

(ج) الأماكن ،

ثانياً : فهرس الآيات القرآنيـــة ،

ثالثاً : فهرس المفاهيم والمصطلحات ،

رابعاً : فهرس المحتويات ،

ملحوظة :

- لما كانت الأعلام الآتية ترد في غالبية صفحـــات الأطروحـــة ، فقـــد استثنياها من الفهرسة ، وهي :
  - أعراب الشام .
  - المماليك .
  - بلاد الشام .
  - بادية الشام .
  - مصر .
- يشير الرقم داخل القوسين (الرقم) في الفهرسة إلى الصفحة التـــي ترجم بها للشخص أو التعريف بالمكان أو المفهوم .

أولاً : فهـــــرس الأعـــــلام

(أ) الأشـــــخاص :

(أ)

- آدم : ٣٠.
- آراق التفاح (نائب صفد) : ١٦٥.
- آقسنقر : ٢٣١.
- آقوش الأفرم (نائب طرابلس) :
١٤٩-١٥٤-١٥٦-١٦١-١٦٢-١٦٣-
١٦٤-٢٣٥-٢٤٥-٢٤٦-٢٤٨-٢٥٠-
٢٥١-٢٥٢-٢٩٦-٣٠٠.
-آقوش ، بَرْلي : ١٤٥-٢٨٩.
- آقوش ، جمال الدين (نـــائب الكـــرك) :
١٦٣-٢٢٩-٢٣٠.
- آقوش المَحمّدي : ٢٣٠.
- أباقا ، أبغا (خان المغول) :
٢٣٠-٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٧.
- إبراهيم بن قارا (أمير العـــــرب): ١٧٤-
١٧٥-٣٠٩-٣١٦.
- إبراهيم بن ثابت بن مانع : ٢٨٩.
- ابن أبي الفضائل ، المفضل (المؤرخ) :
١٤١-١٤٣-١٤٥-٣٣٥.
- ابن أبي البقاء (القاضي) : ١٨٨.
- ابن أَرْتنا (ملك الروم) :
١٧٢-٢١١.
- ابن إياس ، محمـــد بـــن أحمـــد الحنفـــي (المؤرّخ):
و-ك-ك أ-ك ب-٨-٥٢-٥٣-٥٤-٥٥-
٦٤-٧٧-٧٨-٨٠-٩٧-١٠٩-١١٤-١١٥-
١١٦-١١٨-١١٩-١٢٠-١٣٤-١٣٦-
١٤٣-١٤٥-١٦٥-١٧١-١٧٢-١٧٧-
١٨٩-٢٠١-٢٠٣-٢٠٨-٢٣٢-٢٤٧-
٢٥٤-٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩-٢٦٣-٢٦٤-
٢٦٦-٢٦٧-٢٦٨-٢٦٩-٢٧٠-٢٧١-
٢٧٤-٣٣٣.
- ابن أَيْبَك الدواداري ، أبو بكر بن عبـد الله (المؤرّخ):
ي أ - ي ب -٢-٤٧-٤٨-٨٩-١٢٥-
١٤١-١٤٢-١٤٣-١٤٨-١٥٠-١٥٣-
١٥٥-١٥٧-١٥٨-١٥٩-١٦٠-١٦١-
١٦٢-١٦٣-٢٢٣-٢٢٥-٢٢٦-٢٢٧-
٢٢٩-٢٣٠-٢٣١-٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-
٢٣٦-٢٣٩-٢٤١-٢٤٣-٢٤٤-٢٤٧-
٢٤٨-٢٦١-٣٣٣.
-ابن إينال التركماني : ١٩٥-٢١٣.
-ابن بركة ، عز الدين : ١٤٥.
- ابن بزدغان التركماني : ١٩٥-٢١٣.
- ابن بطوطــــة ، محمــد بــن إبراهيــم (الرحّالة):
٣٣-٨٨-٩٩-١٠٠-١٠٥-١٠٩-١١١-
١٥٧-١٥٩-١٦٠-٢٥٠-٣٣٣.
- ابن البقري ، سعد الله : ٦.
- ابن تغري بردي ، أبو المحاسن يوسف :
و-ي ط-ك-ك أ- ك ب-٢-٩-١٣-٣٥-
٣٦-٣٧-٣٩-٤٥-٤٧-٥٠-٥١-٥٣-
٥٤-٥٧-٧٢-٧٦-٧٧-٩٢-٩٣-٩٥-
٩٦-١٠٨-١١٠-١١٤-١١٥-١٢٨-
١٢٩-١٣٢-١٤٢-١٤٤-١٤٥-١٤٦-

١٤٨-١٥٠-١٥١-١٥٥-١٥٦-١٥٨-
١٦٠-١٦٥-١٦٦-١٦٧-١٦٨-١٦٩-
١٧٠-١٧١-١٧٢-١٧٤-١٧٧-١٧٨-
١٧٩-١٨٠-١٨٤-١٨٦-١٨٨-١٨٩-
١٩٠-١٩٢-١٩٥-١٩٦-١٩٧-١٩٨-
١٩٩-٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٣٠٤-
٣٠٥-٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١٠-٢٢٦-
٢٢٨-٢٣٢-٢٣٤-٢٣٧-٢٤٢-٢٥٦-
٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩-٢٦٢-٢٦٤-٣٠٢-
٣١٧-٣٣٣-.

- ابن بيدمر ، محمد شاه: ١٨٩-١٩٠.

- ابن تيمية ، أحمد :
٩١-١٤٧-١٥٤-٢٤٤-٢٤٥-٢٤٧-
٢٤٨-٢٤٩-٢٧٩.

- ابن جانباي (أمير آل مرا) : ٢٦٩.

- ابن الجزري : ط - ي أ.

- ابن حبيب ، الحسن بن عمر الحلبي (صاحب ، تذكرة النبيه و درة الأسلاك):
٤٦-٤٧-٤٨-١٢٨-١٣٣-١٥٠-١٥٥-
١٧١-١٧٢-٢٥١-٣٣٢-٣٣٤.

- ابن حبيب ن الطاهر الحلبي (صاحب ، ذيل درة الأسلاك):
١٧٧-١٧٩-١٨٤-١٨٩-١٩٧-٣٣٢.

- ابن حجر ، أحمد بن علي العسقلاني (المؤرخ) :
و-ي ز-٤٧-٤٨-٤٩-٥٠-٥١-٥٢-
٥٣-٥٤-٧٤-٧٥-٧٦-٧٧-٧٨-٩٢-
٩٣-٩٤-١٠٩-١١٤-١٥٥-١٥٦-
١٥٧-١٦٦-١٦٧-١٦٨-١٦٩-١٧٠-
١٧١-١٧٢-١٧٥-١٧٧-١٧٨-١٨٠-
١٨١-١٨٤-١٨٦-١٨٧-١٨٩-١٩٧-
١٩٨-١٩٩-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٥-٢٠٦-
٢٠٧-٢٠٩-٢١١-٢١٢-٢١٣-٢١٤-
٢٤٣-٢٤٤-٢٥١-٢٥٣-٢٥٤-٢٥٦-
٢٥٨-٢٦٣-٣١٧-٣٢٠-٣٣٤.

- ابن حزم الأندلسي : ٣٣-٣٧-٣٣٤.

- ابن الحسباني ، أحمد (القاضي): ٢٠٥.

- ابن حنّا ، بهاء الدين (الوزير): ١٤٢.

ابن الحنش ، علاء الدين (نائب بعلبك) :
١٧٨ -١٨٦-١٨٧-١٨٩-٢٨٣.

- ابن الحنش ، شهاب الدين أحمد :١١٨ .

- ابن الحنش ، علاء الدين الثاني :
١٩٣-١٩٤.

- ابن الحنش ، ناصر الدين محمد :
ك أ-ك ب- ٥٥-٩٦-١١٨-١٣١-
١٣٦-٢٦٨-٢٦٩-٢٧٠-٢٧١-٢٧٤-
٢٨٤-٣١١.

- ابن حوقل ، محمد بن علي الموصلي (الرّحالة) :
١٩-٢٠-٢١-٢٢-٣٢-٣٤-٣٣-٢٠٢-
٣٣٤.

- ابن خطيب الناصرية ، علي بن محمد (المؤرّخ):
٤٦-٤٨-٤٩-٥٠-٥١-٥٢-٧٦-١٤٩-
١٥٠-١٥١-١٥٣-١٧٨-٣٣٢.

- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (المؤرّخ):
و-٤-٧-١١-١٢-٣٠-٣١-٣٢-٣٣-
٣٦-٣٨-٤٣-٤٤-٤٥-٥٦-٦٨-٨٩-
١٢٨-١٢٩-١٣٠-١٦٩-١٧١-١٧٢-

١٧٥-١٧٩-١٨٠-١٨١-١٨٢-
١٨٤-١٨٧-١٩١-١٩٢-١٩٥-١٩٦-
١٩٧-٢٢٦-٢٢٨-٢٥٤-٢٥٦-٢٥٩-
٢٦٣-٣٣٤.
- ابن خلّكان (القاضي) : ١٥٠ .
- ابن خليل الظاهري (القاضي عبد الباسط): ١٧٧-١٩٧-٣٣٤-٣٣٥.
- ابن دُقماق ، إبراهيم بن محمد العلائي (المؤرّخ) :
٣-٣٣٥.
- ابن زُنبل ، أحمد الرمّال (المؤرّخ) : ٢٦٨-٢٦٩-٢٧٠-٢٧١-٣٣٥.
- ابن ساعد ، محمد (شيخ عرب عجلون) : ٢٧١.
- ابن سباط ، حمزة بن أحمد (المؤرّخ) : ٤٦-٤٩-٢٤٨-٢٤٩.
- ابن سُكال ، برجس (أمير آل نمي) : ٥٨.
- ابن سلام ، بدر (أمير عرب خفاجة) : ١٧٨.
- ابن شاهين الظاهري ، خليل (المؤرّخ) : ه-٥-٦-٧-٨-٩-١٠-١١-١٩-٢٥-
٢٦-٢٧-٦٤-٦٦-٨٦-٨٨-٨٩-
١٣٤-١٨٥-٣٣٥.
- ابن الشحنة ، أبو الفضل محمد (المؤرّخ): ١٩-٢١١-٢١٤-٣٣٥.
- ابن شدّاد ، عز الدين محمد بن علي (المؤرّخ) : ه-ز-ح-ي أ-١٨-٢٣٢-
٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٦٢-٢٨٨-٢٨٩-
٢٩٠-٢٩٢-٣٣٥.
- ابن صاحب الباز ، كندر كردي (أمير تركمان العمق) : (٢٠٢) -٢٠٥.
- ابن صاحب الباز ، فارس : ٢٠٢-٢١٤.
- ابن صبح (شيخ عرب) : ٧٢.
- ابن صصرى ، محمد (المؤرّخ) : ٥٥-
١٧٨-١٧٩-١٨٠-١٨١-١٨٦-١٨٧-
١٨٩-١٩٠-١٩٢-١٩٤-١٩٥-١٩٧-
٢٥٥-٢٥٦-٢٥٧-٣٣٦.
- ابن الصيرفي ،علي بن داوود الجوهري (المؤرّخ) : ٥٣-٥٤-٧٧-١١٣-١٧٧-
١٨١-١٨٣-١٨٧-١٨٩-٢٠١-٢٠٢-
٢٠٣-٢٠٤-٢٠٧-٢٠٨-٢١٣-٢٥٤-
٢٥٦-٣٣٦.
- ابن طولون ،محمد بن علي الصالحي (المؤرّخ) : و-ك أ- ك ب-٢٨-٥٤-
٥٥-٥٦-٧٩-٩٢-٩٥-٩٦-٩٧-٩٩-
١٠١-١٠٢-١٠٦-١٠٧-١٠٩-١١٠-
١١٦-١١٧-١١٨-١١٩-١٢٠-١٢١-
١٢٧-١٣١-١٥١-١٨٣-٢٦٤-٢٦٦-
٢٦٧-٢٦٨-٢٦٩-٢٧١-٢٧٢-٢٧٣-
٢٧٤-٢٧٥-٢٧٦-٣٣٤-٣٣٦.
- ابن عبد الظاهر ، محي الدين (الؤرّخ) : ه-ط-ي أ-ي ط-٤-٣٨-٨٦-٨٨-٨٩-
٢١١-٢٢٧-٢٣٢-٢٣٨-٢٦١-٣٣٦.
- ابن العجيل (شيخ المعرة) : ٥٦.
- ابن العديم ، كمال الدين عمر (المؤرّخ): ٤٣-٣٣٦.

- ابن عربشاه ، أحمد بن محمد الدمشقي (المؤرّخ) : ٢٥٤-٢٥٦-٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩-٢٦٠-٣٣٦.
- ابن العماد الحنبلي (المؤرّخ) : ٤٥-٢٦٣-٢٦٦-٢٦٨-٣٣٦.
- ابن العلّاق ، علاء الدين المقدسي : ٢٦٩.
- ابن غنام ، محمود (نسّابة) : ي ب.
- ابن الفرات ، محمد بن عبد الرحيم (المؤرّخ) : ه-ي ج-ي د-ي ه-٥-١١-٤٣-٤٦-٥١-٥٢-٩٥-١١٢-١١٤-١٤٨-١٤٩-١٥٠-١٥٢-١٧٧-١٧٨-١٧٩-١٨٠-١٨١-١٨٣-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩٠-١٩١-١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥-١٩٦-١٩٧-٢١٣-٢٣٢-٢٣٥-٢٣٦-٢٣٧-٢٣٨-٢٣٩-٢٥٤-٢٥٥-٢٦٢-٢٨٨-٢٩٩-٣٠١-٣٣٧.
- ابن فضل الله العمري ، أحمد بن يحيى (المؤرّخ) : ه-ي ب-ي ج-ي ه-ي و-٥-٦-١٠-١٩-٢٤-٢٥-٢٦-٢٧-٢٨-٣٠-٣٤-٣٥-٣٦-٣٧-٣٨-٣٩-٤٠-٤١-٤٢-٤٣-٤٤-٤٥-٤٦-٤٧-٤٨-٥٧-٥٨-٥٩-٦٠-٦١-٦٢-٦٤-٦٨-٦٩-٧١-٧٢-٨٥-٨٧-٨٨-١٢٦-١٣٤-١٥٩-١٦٢-٢٢٧-٢٢٨-٢٨٨-٢٩٠-٢٩٤-٣٠٢-٣١٣-٣١٤-٣١٥-٣١٩-٣٣٤-٣٣٧.
- ابن الفوطي ، عبد الرزاق البغدادي(المؤرّخ) :١١٢-١٥٠-٢٣٧.
- ابن قاضي شهبة ، تقي الدين أبي بكر بن أحمد الدمشقي (المؤرّخ) : و-ي و-٤٧-٤٨-٤٩-٥٠-٥١-٧٤-٧٥-٩٥-١٢٩-١٣٣-١٧٤-١٧٥-١٧٩-١٨٠-١٨١-١٨٣-١٨٤-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩٠-١٩٢-١٩٤-١٩٦-١٩٧-١٩٩-٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢١١-٢١٤-٢٥٤-٢٥٥-٢٥٦-٢٥٧-٢٥٨-٣١٥-٣٣٧.
- ابن كثير ، أبو الفدا إسماعيل الدمشقي (المؤرّخ) : ط-ي و-ي ج-ي ط-ك أ-٤٥-٤٧-٤٨-٤٩-٧٠-٩٤-١٣٥-١٤٣-١٤٥-١٤٧-١٥٠-١٥٢-١٦٧-٢٢٤-٢٣٤-٢٤٤-٢٤٥-٢٤٧-٢٤٨-٢٤٩-٢٥٠-٣٣٧.
- ابن لؤلؤ ، علاء الدين (صاحب الموصل) :٢٢٦.
- ابن المِبْرَد ، يوسف بن حسن عبد الهادي : ١٠٢-١٠٤-٣٣٢.
- ابن متيريك ، حسن قاسم (شيخ عرب حارثة) : ٢٠٥ .
- ابن مفلح ، تقي الدين محمد (قاضي دمشق) : ٢٥٦.
- ابن منظور ، محمد بن مكرم الأنصاري: ٢-٤-٣٠-٣١-٣٢-٨٥-٩٥-١٠٢-٣٣٧.

- ابن ناظر الجيش ، تقي الدين محمد الحلبي : ي ج-٤١-٥٧-٥٨-٥٩-٦٤-٣٣٧.
- ابن واصل ، جمال الدين محمد (المؤرّخ) : ي أ-٣٣٧.
- ابن الوردي ،زين الدين عمر (المؤرخ): ي-ي أ-٤٧-٤٨-٤٩-٥٠-٧١-٩٣-٩٦-٢١٢-٢١٥-٣٣٨.
- ابن ينال التركماني : ١٩٥.
- أبو إسماعيل بن محمد بن قلاوون : ١٣٢-١٣٣.
- أبوبكر بن علي بن حديثة : ٤٤-٢٨٩-٢٩٣-٣٢٠.
- أبوبكر بن فضل (أمير آل فضل) :٥٥-٥٧-٨٠-٣١٨.
- أبوبكر بن محمد بن قلاوون (السلطان) : ٩٢.
- أبوبكر بن نعير بن حيار : ٥١-١٩٦-١٩٨-٢٩٨-٢٩٩-٣١٧.
- أبوبكر مشاق (شيخ عرب نابلس):٢٠٦.
- أبوشامة ، شهاب الدين عبد الرحمن إسماعيل المقدسي (المؤرّخ) :١٤٢-١٤٣-١٤٥-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٥-٢٢٦-٢٢٩-٢٦١-٣٣٨.
- أبو العباس ، أحمد بن علي (الحاكم بأمر الله) خليفة عباسي : ١٤١-١٤٥-١٤٦.
- أبو الفداء ،عماد الدين إسماعيل (صاحب حماة) (المؤرّخ) :ي-ي أ-١٩-٢٠-٢٢-٢٧-٣٥-٣٨-٤٦-٤٧-٤٨-٤٩-٦٠-٦٢-٦٤-٦٦-٧١-٩٢-١٤٣-١٤٤-١٤٦-١٥٠-١٥٥-١٥٧-١٥٨-١٦٥-١٦٧-١٦٨-٢٠٠-٢١١-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٦-٢٢٧-٢٣٠-٢٣٦-٢٥١-٢٦١-٢٦٣-٣٣٨.
- أبو القاسم، أحمد (خليفة عباسي) : ١٤٢.
- أحمد بن أويس : (٢٥٤)-٢٥٥.
- أحمد بن إينال العلائي (السلطان) : ٣١٠.
- أحمد بن بايزيد الثاني :٢٦٦.
- أحمد بن بشارة (شيخ آل بشارة) : ٢٠١.
- أحمد بن حجي (أمير آل مرا) : ي-ك-٣٦-٤٥-٤٦-٧٠-١٣٥-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٣-١٥٤-١٥٦-٢١٦-٢٣٥-٢٣٦-٢٣٧-٢٧٩-٢٨٩-٢٩٣-٢٩٤-٣٠٢-٣٠٥.
- أحمد بن رمضان التركماني :١٩٩-(٢١٣)-٢١٤.
- أحمد بن شيخ المحمودي (السلطان):٣١٠.
- أحمد بن طاهر بن غنام (أمير آل فضل) : ٤٤-٢٩٣.
- أحمد بن فضل شهاب الدين (القاضي) : ٢٩٣.
- أحمد بن محمد بن قلاوون (السلطان) : ٢٧-٢٨٠-٣٠٧.

- أحمد بن مهنّا (أمير العرب) : ٢٨-٤٨-(٤٩)-٦٩-٧٣-١١١-٢٨٠-٣٠٧-٣١٦.
- أحمد بن هَرَسَك :٢٦٤.
- أحمد بن يلبغا : (١٧٩).
- أحمد الساقي (نائب صفد): ١٧٠-١٧١-١٧٢.
- أحمد ، الشهاب البريدي : (١٨٤).
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد الحموي (الجغرافي) : ٢٠-٣٣٨.
- أرجواش المنصوري (نائب قلعة دمشق) : (٢٤٤).
- أرسلان (الدوادار): ٢٩٦.
- أرغون بن أباقا خان : ٢٣٧-٢٣٨-٢٣٩-٢٤١.
- أرغون شاه الكاملي ، الدوادار (نائب دمشق-حلب): ٧٢-٧٤-١٦٢-(١٦٧)-١٧١-١٧٢-٢١٢.
- أرغون العلائي : (١٦٦).
- أرقطاي ، القفجقي : (٩٣)-١٦٦.
- أركماس : ١١٦.
- أزبك : (١١٤)-٢٦٤-٢٦٥.
- أزدمر، المجيري :٢.
- أزدمر، الناصري (دوادار): (٩٧)-١١٨.
- إسحاق (الملك المجاهد-صاب جزيرة ابن عمر) : ١٤٤
- إسماعيل(الملك الصالح-صاحب الموصل): ١٤٤.
- إسماعيل بن إبراهيم :٣٠.
- إسماعيل بن جعفر الصادق :٢٥١.
- إسماعيل بن محمد بن قلاوون (السلطان): ٤٨-١٦٩-٢١٢-٣٠٧.
- أسماعيل السّلامي : (٢٥١)-٢٥٢.
- أسماعيل الصفوي : ٢٦٧-٢٦٨.
- إسماعيل ، فاروق : ١٨-٣٤٨.
- إسماعيل ، منير : كد .
- أسندمر كرجي (نائب طرابلس-حماة): ١٥٦ _١٦٥.
- أسندمر المحمّدي (نائب طرابلس): ١٧٧.
- آشتور : ٣٤٣.
- الإشبيلي ، علي بن محمد : ٢٦٧-٢٦٩-٢٧١-٣٣٨.
- أطلمش أطلندي : (٢٥٩).
- الأفضل (صاحب حماة) : ٤٧-٢٢٥.
- أقبغا (نائب حماة) : ٧٤.
- أقبغا الأطروشي: (١٩٩).
- إلياس الماجوري : ١٧٨.
- ألب أرسلان السلجوقي : ٢١١.
- الألوسي ، محمود شكري : ٢٩-٣١-٣٤٣.
- أوبنهايم (Oppenhiem) :٣٥.
- إياس الجركسي (نائب صفد) :١٩٣.
- أيالون (Ayalon) :٩-١٠-٣٤٩.
- أيبك الطويل :١١١.
- أيبك ، عز الدين : ٤٤-١٤٥-٢٧٨-٣٠٥-٣٢٠.
- أيتمش البجاسي : (١٧٩)-١٩١-٢٠٠.

- أيدكين ، علاء الدين البندقداري: (١٤٢).
- أيدمر الخطيري، عز الدين : ١٥٧.
- أيدمر الشيخي : (١٥٧).
- أيدمر الظاهري : (١٤٨)-١٤٩-١٥٦-١٥٩.
- إيغان (سم الموت) : ٢٢٩-٢٣٠.
- إيغانوف ، نيقولاي : ٣٤٣.
- إينال اليحياوي (الأشقر) : (١١٥).
- إينال اليوسفي (نائب البيرة) : (١٧٦)-١٧٧-١٩٠-١٩٤.

(ب)

- بارتليت (Bartlett):١٢٥-٣٤٩.
- بايزيد الأول (السلطان) : ٢٥٥-٢٦٣.
- بايزيد الثاني (السلطان) : ٢٦٣-٢٦٤-٢٦٥-٢٦٦.
- بتخاص (حاجب حجاب برقوق) : ٢٩٨-٢٩٩.
- بحر (أمير آل علي): ٧٨.
- البخيت ، محمد عدنان : ٤٢-٥٥-١٩٣-١٩٤-٣٤٨.
- بدر الدين الخازندار : ٢٣١.
- برّ بن محفوظ العنـــبي: ٤١.
- برتراندون (Brtrandon) (الرحّالة) : ١٠٧-١٢٢-١٢٣-١٢٤-١٢٥-١٢٦-١٢٨-٣٥١.
- البر زالي ، القاسم محمد بن يوسف (المؤرّخ) : ي و-٢٤٣-٢٤٤-٢٤٥-٢٤٦-٢٥٠-٣٣٨.
- برسباي ، الأشرف (السلطان) : ك-٥٣-٥٤-٧٧-١٠٩-٢٨١-٣١٠.
- برقوق ، الظاهر (السلطان) : أـي د-ي ز-ك-٣-٥-٢٨-٣٦-٣٧-٥١-٥٢-٥٦-٧٤-٧٥-٩٤-٩٥-٩٨-١٠٢-١٢٠-١٢٩-١٣٠-١٧٤-١٧٥-١٧٧-١٧٨-١٧٩-١٨٠-١٨١-١٨٢-١٨٣-١٨٤-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩٠-١٩١-١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥-١٩٦-١٩٧-١٩٨-١٩٩-٢٠٠-٢٠٢-٢١٢-٢١٣-٢١٧-٢١٨-٢٥٤-٢٥٥-٢٥٩-٢٦٠-٢٦٣-٢٨٠-٢٨٣-٢٨٨-٢٩٨-٣٠٩-٣١٩.
- بركة خان مغول القفجان : ٢٢٨-(٢٣٢)-٢٦٠.
- برغلي : (١٥٧)-١٦٤-٢٤٢-٢٥٩.
- برهان الدين (صاحب سيواس) : ١٧٦.
- بريد بن علي بن حذيفة :٢٨٩.
- بزلار العمري (نائب دمشق) : ١٦٩-١٧٠-١٧١-١٧٣-١٧٧-(١٨٤).
- البستاني ، بطرس :٣٩-١٣٣-١٣٥-١٣٧-٣٤٣.
- بُطا بن عبد الله الطولوتمري: (١٨٩).
- البعلبكي ، إفرام : ك د.
- بكتاش الفخري : ٢٤٠-٢٤٢-٢٤٨.
- بكتمر جلق (شلق): ٢٠١-٢٠٥.
- بكر ، سيد عبد المجيد : ١٠٤-١٠٥-٣٤٣.

- بكلمش (نائب طرابلس) : ١٧١-١٧٣-١٧٤.
- بلاط (نائب الكرك) : (١١٥) .
- بلبان جركس : ١٥٨-١٦٠.
- بلبان الطباخي : ٢٤٢.
- بلباي ، سيف الدين(السلطان):(١٨٨).
- البلقيني (شيخ الإسلام) : ١٨٨.
- بوزيه ، لويس : ك د.
- بو سعيد بن خدابندا : ١١٢-١٦٧-(٢٥١)-٢٥٢-٢٥٣.
- بولياك (Poliak) : ٦٣-٦٤-٦٥-٦٦-٦٧-٣٤٩.
- بو همند السابع (أمير طرابلس) : ٢٦٢.
- بيبرس الجاشنكير (السلطان) : (١٥٥)-١٥٦-١٥٩-١٦٣-٢٤٢-٢٤٨.
- بيبرس ، الظاهر (السلطان) : ط-ي-ي د-ي ح-٣٩-٤٠-٤١-٤٣-٤٤-٤٥-٤٦-٦٥-٦٦-٧٠-٨٥-٨٨-١٠٠-١١٠-١٤١-١٤٢-١٤٣-١٤٤-١٤٥-١٤٦-١٤٧-١٤٨-١٤٩-١٥٠-١٥٤-١٥٥-١٥٦-٢١٥-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٥-٢٢٦-٢٢٧-٢٢٨-٢٢٩-٢٣١-٢٣٢-٢٤٣-٢٦٠-٢٦١-٢٧٥-٢٧٨-٢٨٨-٢٨٩-٢٩٣-٣٠٥.
- بيبرس المنصوري ، بن عبد الله الدوادار (المؤرخ) : ح-ط-ي-ي ح-ي ط-٦٣-١٥١-١٥٦-١٥٨-١٦٣-٢٣١-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦-٢٤٠-٢٤٨-٢٥٠-٣٣٨.
- بيبغا أرس : ٤٩-٥٠-١٤٨-١٦٩-١٧٠-١٧١-١٧٣-٢١٦-٢١٨.
- بيتمش :٢٤٠.
- بيدرا (قائد مغولي) : ٢٢٩.
- بيدمر البدري (نائب طرابلس) : ١٦٥.
- البيسري ، بدر الدين : ٢٣١-٢٣٥.
- البيطار ، أمينة : ٣٣-٣٤٣.

(ت)

- تاج الدين بن بنت الأعز (القاضي) : ١٤٢-١٤٦.
- تغري بردي : ١٩٨-١٩٩-٢٠٥-٢٠٧-٢٠٨-٢١٢.
- تغري برمش : ١٧٤-(٢٠٩)-٢١٠-٢١٨.
- تكا عبد الله الأشرفي (نائب السلطنة) : (١٨٨).
- تلكتمر : ١٧٧.
- تمراز : (٢٦٤).
- تمر باي القجماس : ١١٧.
- تنبك ميق (نائب دمشق) : ١٣٣.
- تنكز (نائب دمشق) : (١٩٢)-١١١.
- تنم الجركسي (نائب دمشق) : ١٩٦-١٩٨.
- تنم الحسني : (١٩٨).
- تورانشاه : ٣.

- توكو دار خان، أحمد : (٢٣٧) - ٢٣٨.

- تيمور لنك : ي ز -ك-٢٨-٨٩-١٣٤-١٣٦-٢٠٠-٢١٣-٢٥٣-٢٥٤-٢٥٥-٢٥٦-٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩-٢٦٠-٢٦٣-٢٧٥-٢٧٦-٢٨٠.

(ث)

- ثابت بن ربيعة : ٣٤-٣١٣.
- ثابت بن مانع : ٢٨٩.

(ج)

- جانباي (أمير آل مرا) : ٥٥-٧٨-٧٩-١٣١.
- جانبرد الغزالي : ك ب-٢٦٨-٢٦٩-٢٧١-٢٧٤.
- جانبك الإينالي : ١١٤-(١١٥).
- جانبلاط الأشرف (السلطان) : ٣١١.
- جانبلاط (نائب الغيبة بدمشق) : ٩٦-(١١٧)-١١٨-١٢٠.
- جاني بك حبيب العلائي : (٢٦٤)-٢٦٥.
- جبور ، جبرائيل : ٢٣-٣٤٣.
- جراح بن مانع بن حذيفة : ٢٨٩.
- جركس الخليلي : (١٧٨)-١٧٩-١٨٨.
- الجزيري ، عبدالقادر بن محمد الحلبي (المؤرخ) : ١٠٠-١٠١-١٠٣-١٠٤-١٠٥-١٠٨-١٠٩-١١٠-٣٣٨.
- جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك : ٣٤-٢٩٣.
- جقمق ، الظاهر سيف الدين (السلطان): ك-٥٣-٧٧-١٣١-٢١٠-٢١٨-٢٨١-٣١٠.
- جكتمر (نائب الكرك) : ٧٢.
- جكم : ٥٢-١٧٤-(١٩٩)-٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢١٧.
- جلبان الجركسي (نائب حلب) : ١٩٥-١٩٦-١٩٧-٢٥٤.
- جلبان المؤيدي (نائب طرابلس) : ٢١٠.
- جلتار بهادر : ٢٣٤.
- جمّ (أمير عثماني) : ٢٦٣-٢٦٤.
- جنتمر : (١٨٥)-١٨٦-١٨٧-١٩٠.
- جندر (نائب الغيبة بدمشق) : ٧٩.
- جنكلي ، بدر الدين : ٢٤٠.
- جنكيز خان : ٢٢٨.
- جوبان : ٢٤٨-(٢٥١)-٢٥٢.
- الجوباني ، سيف الدين : ٩٩.
- الجوهري ، يسري : ٢٠-٢١-٣٤٣.

(ح)

- حاجي بن شعبان بن محمد بن قلاوون (الأول) -السلطان : ٤٨-١٣٢-١٣٣-١٦٦-١٦٧-١٦٨-١٦٩-١٧٠-٢٨٠-٣٠٧.

- حاجي بن شعبان بن محمد بن قلاوون (الثاني)- السلطان : ٧٣-١٧٨-١٨١-١٨٢-١٨٣-١٨٧-٣٠٨-٣٠٩.
- حارث بن عيسى : ٣٥-٣١٥.
- الحاكم بأمر الله العباسي : ١٤٧.
- الحاكم بأمر الله الفاطمي : ٤٢.
- حامد بن مخلول : ٢٨٩.
- حتي ، فيليب : ١٨-٢١-٣٠-٣٤٣.
- حديثة بن عذراء بن علي بن نعير : ٥٤-٣١٠-٣١٧.
- حديثة بن سيف (أمير آل فضل) : ٤٣-٥٢-٥٣-٧٥-٧٦-٣١٠-٣١٧.
- حديثة بن عيسى (أمير آل فضل) : ٣٤-٣٥-٣٦-٢٩٣-٣١٥.
- حديثة بن مهنا : ٣١٦.
- حذيفة بن عيسى بن مهنا : ٢٨٩.
- حذيفة بن هبة بن مانع : ٢٨٩.
- حسان بن مفرج (أمير آل الجراح) : ٤٢.
- حسن بن العزيز الأيوبي ، السعيد : ٢٢٦.
- حسن الكجكني (نائب الكرك) : ١٨٢.
- حسن بن محمد بن قلاوون (السلطان): ٥-٤٩-٨٩-٩٤-١٦٩-١٧٠-١٧٢-١٧٣-١٨٤-١٨٦-٢١٦-٢٨٠-٣٠٧.
- حسين بن باكيش (نائب غزة) : ١٨٦.
- حسين بن بشارة (شيخ عرب صفد) : ٧٥.
- حسين بن فلاح (أمير بني خفاجة) : ١٤١.
- حسين بن محمد بن قلاوون : ١٦٦-٢٨٠.
- حسين بن نُعير(أمير العرب) : ٥٢-٧٥-٢٠٩-٣٠٩-٣١٧.
- حطط الدقماقي (نائب قلعة حلب) : ٢١٠.
- حطيط ، أحمد : ك د.
- حمام بن مهنا : ٣١٦.
- الحمداني(النسابة) : ي ب-٤٠-٤١.
- حميد(أمير آل مِرا) : ٧٥.
- حميد بن ظاهر بن غنام بن عامر : ٢٨٩
- حيّار بن مهنّا بن عيسى(أمير العرب): ٣٣-٤٩-٩٤-١٠٩-١١١-١٧٠-١٧١-١٧٣-٢١٢-٢١٦-٢١٨-٣٠٧-٣١٦-٣١٧.
- الحياري ، مصطفى : ك ج-٢٣-٣٣-٣٤-٣٦-٤٤-٤٧-٥٦-٥٧-١٣١-٣٤٤.

(خ)

- خالد بن الوليد : ٤١-٢٥٧.
- خاير بك (نائب حلب) : ٢٦٨-٢٧٤.

- خَدا بَنْدا (خَرْ بنده) : (٢٥٠)-٢٥١-٢٩٦.
- خُشْقدم ، سيف الدين (السلطان) : ١١٤-١١٥-٣١٠.
- خليل بن قراجا التركماني : ٢١٢-٢١٣.
- خليل بن قلاوون ، الأشرف (السلطان) : ي أ-ي ج-٤٧-٩٣-١٤٨-١٥٥-١٦٤-١٦٨-٢١٦-٢٣٨-٢٣٩-٢٤٠-٢٤١-٢٤٤-٢٦١-٢٦٢-٢٦٣-٢٧٥-٢٧٩-٢٨٤-٢٩٤-٣٠٦.

(د)

- دارا بن بهمن : ٨٥.
- الدبّاغ ، مصطفى مراد : ٣٣-٣٤-٣٥-٣٨-٣٩-٤٠-٣٤٤.
- دراج ، حسام الدين بن ظاهر بن غنام (أمير آل عامر) : ١٥٠-٢٨٩.
- دغفل بن ربيعة : ٣٤-٣١٣.
- دقماق المحمّدي : (١٩٨)-٢٠١-٢١٤-٢٥٦.
- دلنجي ، سيف الدين (نائب غزة) : ٧٢.
- دمشق بن خجا الدوكاري (أمير جعبر): ٢١٤.
- دمرداش المحمّدي : ١٧٣-١٧٦-(١٩٨)-١٩٩-٢٠٠-٢٠٢-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١٠-٢١١-٢١٣-٢١٤-٢١٧-٢١٨-٢٥٦.
- دمرداش اليوسفي : ١٧٧.
- دهمان ، محمد أحمد : ك أ-٥-٨-٩-١٠-١٠٤-١٤١-١٤٢-١٤٨-١٤٩-١٥٠-١٥٢-١٥٤-١٥٥-١٦٢-١٧٩-١٨٦-١٨٩-٢٤٢-٢٤٦-٣٤٤.
- دوريتا كرافولسكي : ٣٤-٣٦.

(ر)

- راشد بن نحير : ٢٩٠.
- الراوي ، عبد الجبار : ٢٢-٢٤١-٣٤٤.
- ربيعة بن حازم ٠٠٠بن طيء : ٣١٣.
- ربيعة بن ظاهر بن غنام : ٢٨٩.
- رمزي ، محمد : ١٨١-١٨٣-٢٧٤-٢٧٥-٣٤٤.
- رمضان التركماني : ١٧٢.
- رَمْلة بن جمّاز (أمير آل علي) : ٤٩-٣٠٧-٣٢٠.
- الروذراوي ، محمد بن الحسين (المؤرّخ) : ٤٣-٣٣٩.
- رَيْدان الصقلي : ١٨٨.

(ز)

- زامل بن عبيد العنفشي : ٥٨.
- زامل بن علي بن حديثة(أمير العرب): ح-٤٤-٤٥-٤٦-٧٠-٧٢-٢٢٩-٢٧٨-٢٨٩-٣٠٥-٣٢٠.

- زامل بن محفوظ العنبسي : ٤١.
- زامل بن موسى بن مهنا بن عيسى (أمير العرب) : ٥٠-٥١-٥٧-٣٠٨-٣١٦.
- زايد ، محمود : ٣٤٨.
- الزردكاش ، أيدمر : ١٥٤-١٦١-١٦٣-١٦٤-١٦٥-١٩٨-٢٩٦.
- زكّار ، سهيل : ٣٣-٣٤٤.
- زكريا ، أحمد وصفي : ز-ك ج-٢٢-٢٣-٣٤-٣٧-٤٠-١٢٦-١٢٧-١٥٥-٣٤٤.
- زمّال بن جرّاح بن مانع بن حذيفة : ٢٨٩.
- زنكي (الأتابك) : ٢٩٣.
- زيادة ، محمد مصطفى : ي و-٣٤٣-٣٤٨.
- زيادة ، نقولا : ٦٣-٦٥-٣٤٥.
- زيد بن طاهر (أمير آل فرج) : ٣١٤.
- زيدان ، جرجي : ٣٠-٣٤٥.
- الزيني عبد الباسط : ١٣١.
- الزيني يحيى (الإستادار) : ١٣١.

(س)

- سالم بن طويب (شيخ آل أحمد) : ٧٦.
- سالم الدوكاري : ١٩٤.
- السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (المؤرّخ) : ه -٥٢-٥٣-٥٤-٥٥-٧٨-١١٥-١٢٤-١٣١-١٧٧-١٨٦-٢٠٠-٢٠٢-٢٠٨-٢١٠-٢١٣-٢١٤-٢٦٤-٣٢٠-٣٣٩.
- سعد الله (المترجم) : ١٢٣.
- سعد الله البقري : ٥.
- سعداوي ، نظير : ١٠٠-٣٤٥.
- سعد بن محمد (أمير آل منيخر) : ٥٨.
- السعيد بن بيبرس (السلطان) : ١٤٩-٣٠٥.
- سعيد بن حسن العنبسي : ٤١.
- سعيد بن ظاهر بن غنّام : ٢٨٩.
- سعيد بن نجدي : ٥٨.
- سعيد ، فرحان : ك ج-٣٧-٣٤٥.
- سُكل بن نجّاد (أمير بني عقبة): ٢٩٠.
- سلّار : (١٥٦)-١٦٤-٢٤٢-٢٤٨.
- سلامش بن بيبرس (السلطان) : ١٤٩-٢٤١-٣٠٥.
- سليم الأول (السلطان العثماني) : ك ب-(٢٦٦)٢٦٧-٢٦٨-٢٦٩-٢٧٠-٢٧١-٢٧٢-٢٧٣-٢٧٤-٢٧٥.
- سليمان بن أحمد بن حجي : ٢٨٩-٣٠٢-٣١٩.

- سليمان بن عُذراء بن علي بن نُعير:٥٣-٧٧.
- سليمان بن عنقاء بن مهنّا :٥١-٧٤.
- سليان بن مهنّا (أمير العرب) : ٤٠-٤٨-٤٩-٦٨-٧٠-٩٢-١١١-١٢٩-١٥٨-٢٥٠-٢٩٦-٣١٦.
- سليمان القانوني (السلطان العثماني): ١٥٢.
- سنان باشا : ٢٧٠-٢٧١.
- سَنجر بن علي (أمير بني ثعلبة) : ٧٢-٧٣.
- سنجر الحلبي (نائب دمشق) : (١٥١)-١٥٢-١٥٣-٢٢٦.
- سنجر الشجاعي (نائب دمشق) : ٢٢٩-(٢٣٩)-٢٤١.
- سنجر الغتمي (نائب الرحبة) : ٢٤٦.
- سنقر الأشقر : ط-ي-ي د-٤٤-١٤٨-١٤٩-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٣-١٥٤-١٦٨-٢١٥-٢١٦-٢٣٢-٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦-٢٣٨-٢٤٠-٢٧٩.
- سنقر الكمالي :١٦٣.
- سودون طاز :(٢٠٠).
- سودون الفخري الشيخوني (نائب السلطنة) : ١٨٩.
- سودون المظفري العثماني (نائب حماة -حلب-دمشق) : ١٧٥-١٧٧-٢٥٦.
- سوفاجييه (Sauvaget) : ٣٢٨-٣٢٩-٣٣٠-٣٤٥-٣٤٩.
- سولي بن دلغادر التركماني : (١٧٥)-١٧٧-١٧٨-١٧٩-١٨٠-١٨٣-١٨٥-٢١٣-٢١٨.
- السويدي ، أبو الفوز محمد أين البغدادي (النسّابة) : ٣٠-٣٧-٦٨-٧٠-٣٣٩.
- سيباي (نائب دمشق) : ك ب-(٩٧)-١٠٠-١١٠-١١٩-١٢٠-٢٦٨-٢٧٠-٢٧٢-٢٧٣.
- سيبويه (النحوي) : ٣١.
- السيد ، محمود : ز-ك د-٣٤٥.
- سيف بن ثابت بن مانع : ٢٨٩.
- سيف بن علي بن نعير : ٥٤-٣١١.
- سيف بن فضل بن عيسى بن مهنّا (أمير العرب) : ٤٧-(٤٨)-٤٩-٥٠-٥٧-٧١-٧٨-٩٤-١١٢-١٣٢-٢١٢-٣١٨.
- السيوطي ، أبو الفضل عبد الرحمن ابن محمد (المؤرخ) :٤-٥-٦-١٠٠-١٤١-١٤٢-١٤٣-١٤٤-١٤٦-١٧٨-١٨٠-٣٣٩.

(ش)

- شجر الدر (السلطان) : ٣-٣٠٥.
- الشدياق ، طنوس بن يوسف (المؤرّخ): ٢٣٥-٣٤٥.
- شطي بن عبية (أمير بني عقبة) : ٤٢-٦٦-٧٢-١١١.
- شطي بن عمرو بن توبة : ٥٨-٣١٩.
- شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون (السلطان) : ٣٠٧.
- شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون (السطان) : ٢٧-٢٨-٤٨-٥٠-١٦٥-١٦٦-١٦٨-١٦٩-٢٨٠-٣٠٧.
- الشناق ، محمد : ٢٤-٣٤٥.
- الشهابي ، حيدر : ٤٦-٧١-٣٤٥.
- شيخ الربوة ، أبو عبد الله محمد الدمشقي (المؤرخ) : ١٨-٢٠-٢٥-٣٣٩.
- شيخ المحمودي (السلطان) : ٤١-٥٢-٥٣-٧٥-٧٦-١٣٣-١٣٤-١٧٤-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١٧-٢٨٠-٣٠٩.

(ص)

- صافية بن حجير (أمير آل سميط) : ٣١٤.
- الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون (السلطان) : ٢١٨-٣٠٧.
- صالح بن يحيى (المؤرّخ) : ٣٨-٥٥-٦٥-٣٣٩.
- الصالح نجم الدين أيوب (السلطان) : ٣-٤٤-١٤٨.
- صرغمتش : ١٧١.
- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك (المؤرّخ) : هـ-ك-٣٥-٤٨-٤٩-٥٠-١٤٨-١٤٩-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٦-١٦٩-١٧٠-٢٨٨-٢٩٧-٣٣٤-٣٤٠.
- صفرة بن سليمان بن مهنا : ١٣٢.
- الصقاعي ، فضل الله بن الفخر (المؤرّخ) : ١٤٤-٣٤٠.
- صلاح الدين الأيوبي (السلطان) : ٣٨-٣٩-٤٣-١٥٢.
- الصليبي ، كمال : ١٠-٢١-٢٤-٣٨-٤٢-٥٥-٣٤٥.
- صولة بن حيار بن مهنا : ١٣٣.
- الصياد ، فؤاد : ٢٢٨-٣٤٦.

(ض)

- ضو بن نوفل (أمير عرب زبيد) : ٢٩٠.

(ط)

- طاز : ١٦٩-١٧٠-١٧١-١٨٥.
- طامي بن عباس (أمير آل مسلم) : ٣١٤.

- طاهر بن غنام : ٤٣
- طرنطائي ، حسام الدين (نائب دمشق-نائب السلطنة) : ١٧٩-٢٣٦-٢٣٨.
- طرنطاي البشمقدار (نائب حمص) : ١٦٥.
- طرنطاي المنصوري (نائب الغيبة بدمشق) :٧٠-٧١-٢٩٣-٢٩٤.
- طرطر ، سيف الدين (السلطان) : ٣١٠.
- طغتكين (صاحب دمشق) : ٣٣-٣٥-٢٩٣.
- طغتمر الأحمدي (نائب دمشق) : ١٦٧.
- طقطاي (الدوادار) : ١٦١.
- طلحة بن مهنا : ٣١٦.
- الطنبغا الأشرفي : ١٧٦.
- الطنبغا الجوباني (نائب دمشق) : ١٧٦-(١٨٣)-١٩٠-١٩١-١٩٢.
- الطنبغا العثماني (نائب صفد) : ٢٥٦.
- الطبنغا ، علاء الدين (نائب دمشق) : ٤٠.
- طوخ (نائب غزة-حلب) : ٥٢-٧٧-٢٠٩-٢١١.
- طوغان (نائب القدس) : ٧٧.
- طولوس علي شاه (نائب صفد) : ١٩٧-٢٠٣.
- طوماي باي الثاني (السلطان) : ك ب-٥٥-٢٧٠-٢٧١-٢٧٤-٢٨٣-٣١١.
- طيبرس ، علاء الدين الوزيري(نائب دمشق) : (١٤١)-٢٣١-٢٣٥.
- طيلان (الجاشنكير) : ١٧٠.

(ظ)

- ظاهر بنْ غنام بن محمد بن عامر بن فضل : ٢٨٩-٣٠٥.

(ع)

- عائشة بنت عسّاف (زوج مهنا) : ١٥٩-٢٩٦.
- العادل الأيوبي : ٣٤-٤٣-٢٩٣.
- عامر بن درّاج (أمير آل عامر) : ٣١٤.
- عامر بن صعصعة : ٣٩.
- عامر بن طاهر بن حيّار بن مهنا : ٥١-٧٥-١٩٦-١٩٨-٢٩٨-٢٩٩-٣١٧.
- عامر بن طاهر بن غنام بن محمد بن عامر :٢٨٩.
- عامر بن علي بن حذيفة : ٢٨٩.
- عامر بن مقلد (أمير آل مرا) : ٧٨-٢٦٦.
- العباسة بنت المهدي (أخت الرشيد) : ٣٤-٢٩٣.
- عبد الرحمن (حاجب نعير) : ٥٢-٩٨-١٩٢-٢٠٣-٢١٧-٢١٩.
- عبد السلام ، عادل : ٣٣-٣٤٦.

- عبد العزيز بن برقوق (السلطان) :
٢٠١-٣٠٩.
- عبد الملك بن مروان : ٨٥.
- عبّود ، هنري : ٣٢-٣٤٦.
- عبيّة (أمير بني عقبة) : ٢٦٢.
- عبيّة (أمير بني مهدي) : ٦٦-٨٨.
- عثمان بن جُقْمق (السلطان) : ٣١٠.
- عثمان بن عفّان (الخليفة) : ١٩.
- عثمان بن قارا (أمير العرب) : ٥١-
١٧٤-١٧٥-٣٠٩-٣١٦.
- عثمان بن مانع ، فخر الدين : ١٥٠-
٢٨٩.
- العِجل بن قرقماس بن نُعير : (٥٣).
- العِجل بن نُعير (أمير العرب) :
(٥٢)-٥٣-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٥-٢٠٦-
٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١٠-٢١١-٢١٧-
٣٠٩-٣١٧.
- عُذراء بن علي بن نُعير(أمير العرب):
٥٣-٥٤-٧٦-٧٨-٣١٠.
- عُذير بن نَمّي : ٢٩٠.
- عربيد بن معالي ، شجاع الدين :
٢٩٠.
- العريني ، الباز : ٩-١٣٠-٣٤٦.
- العزّاوي ، عبّاس : ٤٦-٤٧-٧١-
٧٥-٩٢-١١٠-٢١١-٢٥٠-٣٤٦.
- عزّت ، يوسف : ٣-٣٤٦.
- العزيز الأيوبي (صاحب حلب) :
٤٣-٢٢٣.
- العزيز بالله الفاطمي : ١٨٨.
- عسّاف بن مهنا (أمير آل فضل) :
٥٤-٥٥-٥٧-٥٨-٣١٠-٣١٦.
- عسّاف (شيخ بني عقبة) : ١١١.
- عسّاف بن أحمد بن حجي (أمير آل
مرا) : ١١٠-٢٨٩.
- عطا الله ، محمود علي خليل : ٢٥-
٣٧-٣٤٦.
- عُقبة بن عيسى : ٣١٥.
- عُقبة ، سابق الدين (أمير بني عقبة) :
٢٩٠.
- علّان (نائب حماة) : ٢٠٢-٢٠٣.
- العلبي ، أكرم : ٩٠-١٠١-١٠٦-
٣٤٦.
- علوان بن غراء (أمير آل بَقْرة) :
٥٨.
- علي بن أيبك : ٣٠٥.
- علي بن حديثة (أمير آل فضل) :
٤٣-٤٤-١٤٥-١٤٧-٢٨٩-٢٩٣-
٣٠٥-٣١٥-٣٢٠.
- علي بن الخليفة المستعصم : ١٤٦.
- علي بن خليل بن تُلغار التركماني :
٢٠٥.
- علي بن سليمان بن مُهنّا : ٥٧.
- علي بن شعبان بن حسين (السلطان) :
٥٠-٣٠٨.
- علي بن عامر بن طاهر بن حيّار
(أمير آل فضل) : ٥٤-٧٨-٣١١-
٣١٧.

- علي بن فضل بن حجي (مقدم آل جَرْم) : ٥٨.
- علي بن قراسنقر : ١٥٨.
- علي بن قلاوون ، الصالح : ١٥٦.
- علي بن مجلي (نائب حلب) : ٢٣٣.
- علي بن نُعير : ١٩٢-٣١٧.
- علي ، جواد : ٢٩-٣٠-٣١-٣٤٦.
- علي دولات ، علاء الدولة (أمير ذُلغادر) : ٢٦٤-٢٦٥-٢٦٧.
- علي محمد كرد : ١٩-٣٤٧.
- العليمي ، مجير الدين عبد الرحمن الحنبلي (المؤرّخ) : ٢٥-٢٨-٨٩-١١٦-١٢٤-٣٤٠.
- عماد الدين زنكي (صاحب الموصل): ٣٣-٣٤.
- عمر بن الخطّاب : ١٩.
- عمر بن شهري ، زين الدين : ٧٦.
- عمر بن علي بن حذيفة : ٢٨٩.
- عمر بن فضل (أمير آل جرم) : ٢٠١.
- عمر بن موسى بن مهنّا (أمير العرب): ٤٩-٣٠٧-٣١٦.
- عمر بن نُعير بن حيّار : ٥١-١٩٦-٢٥٤-٢٩٨-٢٩٩-٣١٧.
- عمر بن واصل (أمير آل شمّاء) : ٥٨.
- عمرو بن مخلول : ٢٨٩.
- عميرة بن جرّاح بن مانع بن حذيفة : ٢٨٩.
- عنقاء بن شطي (أمير آل مرا) : ٣٦-٥٨-١٨٠-١٩٠-١٩١-١٩٣-١٩٤-١٩٥-٣١٩.
- عنقاء بن مهنّا : ٥٧-٣١٦.
- عوْن بن رزان : ٢٩٠.
- عيسى بن فضل : ٤٨-١٨٥-٣٠٧.
- عيسى بن محمد آل ربيعة : ٤٤٣.
- عيسى بن مهنّا بن مانع بن حديثة (أمير العرب) : ح-ط-ي-ي ح-٤٤-٤٥-٤٦-٤٩-٦٥-٧٠-١١١-١١٣-١٢٣-١٣٦-١٤٠-١٤١-١٤٤-١٤٥-١٤٦-١٤٧-١٥٠-١٥١-١٥٤-١٥٥-٢١٥-٢١٦-٢٢٦-٢٢٧-٢٣٠-٢٣١-٢٣٢-٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦-٢٣٧-٢٦١-٢٦٢-٢٧٨-٢٧٩-٢٨٩-٢٩٣-٣٠٥-٣١٥-٣١٦-٣١٨.
- العيني ، بدر الدين محمود (المؤرّخ): و-ي ح-ي ط-ك-٤٥-٤٦-٤٧-٧٠-١١٢-١١٣-٢٠٥-٢٠٧-٢٠٨-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٦-٢٢٧-٢٣٤-٢٣٦-٢٣٩-٢٤٠-٢٤١-٢٤٢-٢٤٣-٢٤٤-٢٤٥-٢٤٦-٢٤٧-٢٤٨-٢٥٠-٢٥٢-٢٦١-٢٦٢-٢٦٣-٣٣٤-٣٤٠.

(غ)

- الغادر بن عَذراء بن نُعير : ٢١٢-٢١٨.

- الغادر بن نُعير بن حيّار (أمير العرب) :٥٣-٧٧-٢١٠-٣١٠-٣١٧.
- غازان (قازان) : ٢٤١-٢٤٢-٢٤٣-٢٤٦-٢٤٧-٢٤٩-٢٥٠.
- الغزّي ، كامل البابي الحلبي : ٢١٤.
- غنّام بن جوذر (أمير بني عقبة) : ٢٩٠.
- غنّام بن حبس بن نعير : (٥٤) .
- غنّام بن زامل (أمير آل موسى) : ٥٢-٧٢-٧٦-٣١٦.
- غنّام أبو طاهر بن غنّام : ٤٣.
- غنّام بن نُعير بن حيّار : ٥١-٢٩٨.
- غنّام بن وهيبة (أمير آل فرج) : ٣١٤.

(ف)

- فابري (Fabri) (الرحّالة) : ١٢٢-٣٤٩.
- فارتيما (الرحّالة) : ٤٢-١٠٢-١٠٥-١٠٨-١١٨-١١٩-١٢١-٣٤٧.
- فتح الله (كاتب السرّ) : ٢٠٥.
- فخر الدين بن لقمان (صاحب ديوان الإنشاء) : ١٤٤.
- فرج بن برقوق (السلطان) : ي ز-ك-٥١-٥٢-٧٥-٨٩-١١٤-١٣٤-١٩٧-١٩٨-١٩٩-٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١٠-٢١٣-٢١٧-٢٥٦-٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩-٢٦١-٢٧٥-٢٨٠-٢٨٦-٣٠٩.
- فضايل بن جرّاح بن مانع بن حذيفة: ٢٨٩.
- فضل بن حجي (أمير آل جَرْم) : ٥٨.
- فضل بن ربيعة : ٣٤-٣٧-٣١٣.
- فضل بن علي بن نُعير (أمير العرب): ٥٢-٣٠٩.
- فضل بن عمر بن توبة (أمير آل مِرا): ٥٨.
- فضل بن عيسى بن مهنّا (أمير العرب) : ي ج-٣٦-٤٦-٤٧-٩٥-١٥٩-١٦٣-٢٠٩-٢٤٢-٢٨٨-٢٨٩-٢٩٦-٣٠٠-٣٠١-٣٠٩-٣١٥-٣١٨-٣٢٠.
- فضل بن غنّام بن زامل آل مهنّا : ٢٠٦.
- فضل بن هبة بن مانع بن حذيفة : ٢٨٩.
- فواز (أمير عرب حارثة) : ٢٠٣.
- فيّاض بن مهنّا بن عيسى بن مانع بن حديثة (أمير العرب) : ٣٣-٤٧-٤٩-٥٠-٥٩-٧١-٩٢-٩٤-١٠٩-١١١-١٣٢-١٣٣-١٧٠-١٧٣-١٧٤-١٧٥-٢١٢-٢١٦-٣٠٧-٣١٦.
- الفيروز أبادي : ١٩-٣٢-٣٤٢.

(ق)

- قارا بن مهنّا (أمير العرب) : ٥٠-٣٠٧-٣١٦
- قاسم الحارثي : ١٨٥.
- قاسم ، عبده : ٩-١٢-٣٤٧.
- قانصوه الغوري (السلطان) : ك أ - ٥٥-٥٦-٧٩-١٠٩-١١٨-١٢٠-٢٦٦-٢٦٧-٢٦٨-٢٦٩-٢٧٠-٢٧٢-٢٧٣-٢٧٤-٢٨١-٢٨٦-٣١١.
- قانصوه المحمدي : (١٣١).
- قانصوه اليحياوي (نائب دمشق): ٢٦٦.
- قايتباي (السلطان): ك أ - ٥٤-٥٥-٧٨-٨٩-١١٥-١١٦-١٢٤-٢٦٣-٢٦٤-٢٦٥-٢٦٦-٢٧٢-٢٨١-٢٨٦-٣١١.
- قَبجق : (٢٤٣)-٢٤٨.
- قبلاي (الحاجب) : ٧٣.
- قحطان بن عابر :٣-٣١.
- قجماس (نائب دمشق) : ١٨٧-٢٦٤.
- قُدَيْم (أمير آل مِرا): ٧٥.
- قرابُغا (مقدّم المغول) : ١٤٥.
- قرابُغا ، فرج الله : ١٧٧.
- قراجا بن دُلغادر التركماني : ١٧١-١٧٢-٢١٢-٢١٣-٢١٨.
- قرا دمرداش (نائب طرابلس-حلب) : ١٩٠-(١٩٢)-١٩٤.
- قرا سنقر الجوكندار : ط-٤٧-١٤٨-١٥٤-١٥٥-١٥٧-١٥٨-١٥٩-١٦٠-١٦١-١٦٢-١٦٣-١٦٤-١٦٥-١٦٦-١٦٨-٢١٦-٢٣٩-٢٤٨-٢٥٠-٢٥٢-٢٧٩-٢٩٥-٢٩٦-٣٠٠.
- قرا محمد التركماني : ١٧٦.
- قرا يلك (صاحب آمد) : ٢٠٣.
- قرا يوسف التركماني : ٢٥٩.
- قرقماز (أمير الشهابيين) : ١٣٥-٢٣٥.
- قرقماس بن حسين بن نَعير : (٥٣)-٧٦-٧٧-٣١٧.
- قرطاي : ١٥٨-١٦٠.
- قريش (زعيم بدوي) : (١١٣).
- القزويني ، زكريا بن محمد (جغرافي): ٢٢-٣٤٢.
- قشتمر المنصوري (نائب حلب-دمشق) : ٥٠-٥١-(٩٤).
- قصروه (نائب حلب- دمشق) : ٧٦-(١١٧)-١١٨-١٢٠.
- قُطز (السلطان) : ي-ي أ -٦٥-١٤١-١٥٣-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٥-٢٢٦-٢٢٧-٢٢٧٨-٣٠٥.
- قطلو بُغا الفخري : ١٢٩-١٣٠.
- قطلو بك (الحاجب) : ٢٤٢.
- قطلو بك المنصوري (نائب دمشق) : ١٣٠.
- قطلو شاه (مقدّم المغول): ٢٤٤-٢٤٦-٢٤٧-٢٧٨-٢٧٩.

- قطليجا(نائب حماة) : (١٦٨).
- قلاوون ، المنصور (السلطان) : ح-ي-ي د-٣-٤٥-٤٦-٧٠-١٢٧-١٣٥-١٤٨-١٤٩-١٥٢-١٥٣-١٥٤-١٥٥-١٦٤-١٦٥-١٦٨-١٧٨-٢١٥-٢١٦-٢٣٢-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦-٢٣٧-٢٣٨-٢٣٩-٢٤٣-٢٤٤-٢٦١-٢٦٢-٢٧٩-٢٩٣-٣٠٥.
- قلج البغدادي ، سيف الدين : ١٤٢.
- القلقشندي ،أبو العباس أحمد بن علي (المؤرخ) : هـ-ي ج- ي د-ي هـ-ي و-٥-٦-٧-٩-١٠-١٩-٢٥-٢٦-٢٧-٢٨-٢٩-٣١-٣٣-٣٤-٣٥-٣٦-٣٧-٣٨-٣٩-٤٠-٤١-٤٢-٥٦-٥٧-٥٨-٥٩-٦٠-٦١-٦٢-٦٤-٦٦-٦٧-٦٨-٦٩-٨٥-٨٦-٨٧-١٠٠-١٣١-٢٢٨-٢٥١-٢٨٨-٣٠١-٣٠٣-٣١٥-٣١٦-٣١٩-٣٢٠-٣٤٠.
- قمبيز :٣٢.
- قمش (نائب طرابلس) : ٢٠٩.
- قناة بن نجّاد : ٥٨-٢٨٨-٣٠٢-٣١٩.
- قوبلاي (سلطان المغول) : ٢٢٣.

(ك)

- كاترينا (القديسة) : ١٢٢.
- الكامل الأيوبي : ٣٩-٤١-٤٣-٢٩٣-٣١٥.
- كامل ، مراد : ٤.
- كرافولسكي ، دوريتا : ٣٥-٣٦.
- كَتْبُغا ، زين الدين (السلطان) : ٤٦-٣٠٦.
- كتبغا نوين (قائد مغولي) : ٢٢٣-٢٢٥-٢٢٦.
- كجك بن الناصر محمد بن قلاوون (السلطان) : ٤٨-٣٠٧.
- كرتباي الأحمر (نائب دمشق) : ٧٩-(١٠٩)-١١٦-١١٧.
- كمشبُغا (شاد الشربخاناة) : ١٩٧.
- كمشبُغا الأشرفي : ١٧٧.
- كمشبُغا الحموي : ١٨٠-١٨٥-(١٨٦)-١٨٩-١٩٤.
- كيثا غيكوس (بطريرك) : ٢٣٩.
- كيختو (سلطان المغول) : ٢٤١.

(ل)

- لابيدوس ، إيرا مارفين : ١٢-١٤-٦٩-٩١-٩٥-٩٦-٣٤٧.
- لاجين (السلطان) : ١٣٢-١٤٩-١٥٠-١٥٣-١٥٧-١٥٩-٢٣٥-٢٤٢-٢٤٣-٢٤٨-٢٨٩.
- لاجين الجاشنكير : ١٥٧-١٦٣.
- لاجين المنصوري ، حسام الدين (السلطان) : ١٧٩.
- ليسترانج ، كي : ١٨-٢٤-١٧٢-٢٠٣-٢٠٥-٣٤٧.
- لين بول (Lane-pool) : ٢-٢٦٠-٣٤٩.

(م)

- مأمور القلطماي (نائب حماة) : ١٩٠.
- المأمون بن الرشيد : ٢-١٩-٣٦.
- ماجد، عبد المنعم : ٦-٨٥-٣٤٨.
- مانع بن حديثة بن فضل بن ربيعة الطائي : ٤٣-٢٩٣-٣١٥.
- مانع بن سنيد (أمير بني مهدي) : ٤١.
- مانع بن هبة بن مانع بن حديثة : ٢٨٩.
- مانفرد (Manfred) ملك صقلية و تسكانيا : ٢٦٠.
- الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد البغدادي : ٦-٧-٦٣-٦٥-١٠١-١٠٣-١٠٥-٣٤٣.
- ماير ٠ ل ٠ أ : ١٣٥-١٤١-١٤٥-٢٦٢-٣٤٨.
- ماير ، هانس : ٢٦٠.
- مبارك (شيخ بني عقبة) : ١١٤-١١٥.
- المتوكّل على الله ، أبو عبد الله محمد ابن المعتضّد (الخليفة العباسي) : (١٧٨)-١٨٠-١٨١.
- متولّي ، أحمد فؤاد : ٢٦٦-٢٦٨-٣٤٨.
- محمد إبراهيم الودياني : ٣٨ -١٦٦.
- محمد بن ططر (السلطان) : ٣١٠.
- محمد الأيوبي ، المنصور (صاحب حماة) : ٢٢٥-٢٢٦.
- محمد بن أبي بكر بن علي بن حديثة (أمير العرب) : ٤٦-١٥٠-٣٢٠.
- محمد بن بايزيد : ٥٥.
- محمد بن بيبرس (السلطان) : ٣٠٥.
- محمد بن توقان بن نعير (أمير آل فضل) : ٥٣-٥٤-٣١٠-٣١٧.
- محمد بن حاجي بن محمد بن قلاوون (السلطان) : ١٧٢-٣٠٧.
- محمد بن ساعد (شيخ عرب عجلون): ٥٥-٧٩.
- محمد بن شهري (حاجب حجاب حلب) : ٢١٤ .
- محمد بن عباس العنبسي :٤١.
- محمد بن عبدالقادر (شيخ عرب نابلس): ٧٥.
- محمد بن عجلان (صاحب مكة) : ٥٥.
- محمد بن عيسى - أخ مهنا (أمير العرب) : ٣٥-١١٣-١٣٢-٣١٥.
- محمد بن عيسى بن مهنا : ٦٦-٢٩٥-٢٩٦.
- محمد بن قارا (أمير العرب) : ٧٤-١٩٥-٢١٣-٣٠٩-٣١٦.
- محمد بن قايتباي (السلطان) : ٥٥-٣١١.
- محمد بن قرقماش (نائب بيروت وصيدا) : ٢٧٤.

- محمد بن قلاوون ، الناصر (السلطان): ط-ي أ-ي ج-ي ط-٥-٢٥-٢٦-٤٠-٤٢-٤٦-٤٧-٤٨-٦٦-٦٨-٧١-٧٢-٩٢-٩٣-٩٤-١٠٥-١١١-١١٢-١١٣-١٢٠-١٢١-١٢٥-١٢٧-١٢٨-١٢٩-١٣٠-١٣١-١٣٢-١٣٣-١٥٥-١٥٦-١٥٨-١٦٤-١٦٥-١٦٧-١٦٨-١٦٩-٢١٦-٢٣٩-٢٤١-٢٤٢-٢٤٣-٢٤٦-٢٤٧-٢٤٩-٢٥١-٢٥٢-٢٥٣-٢٧٥-٢٧٩-٢٨٣-٢٨٨-٢٩٦-٣٠٦.
- محمد بن مهنّا بن عيسى : ٦٥-١١١-٢٨٩.
- محمد بن نصّار (الحاجب) : ١٦٠.
- محمد بن هيازع (أمير بني مهدي): ٤١-٢٠٦.
- محمد بن يوسف (شيخ العرب) : ٥٥-٣١١.
- محمد بن يوسف ، العزيز : ٢٢٣.
- محمود بن غنّام (نسّابة) : ي ح.
- محمود أبو الثناء (نسّابة) : ٣٧-٢٩٣.
- محمود الحلبي ، شهاب الدين : ٣٠٠.
- مدلج بن علي بن نعير بن حيار (أمير العرب) : ٥٣-٥٤-٧٦-٧٧-٣١٠-٣١٧.
- مِرا بن ربيعة : ٣٤-٣٧-٣١٣.
- مِرا بن مهنا : ١٣٢.
- المستعصم بالله ، أبو أحمد (الخليفة العباسي): ١٤٠-١٤٢.
- المستعين بالله أبو فضل (الخليفة العباسي) : ٣٠٩.
- المستنصر بالله (الخليفة العباسي) : ١٤٢-١٤٥-١٤٦.
- مسعود الخرساني : ٢٥٥.
- المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين (الجغرافي) : ١٨-٣٤١.
- مسلّم (شيخ بني لام) : ١١٠.
- معاوية بن أبي سفيان : ٨٥.
- معيقل بن فضل بن عيسى : ٥٠-٥٧-٣٠٨-٣١٨.
- مغلباي الدوادار : ٢٦٨-٢٦٩.
- مغلطاي ، إبراهيم : ١٦٢-٢٤٩-٣٤١.
- مغلطاي المرتيني : ١٦٧.
- المقدسي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري (الجغرافي) : ١٨-٢٠-٢١-٣٣-٣٤١.
- المقريزي ، أحمد بن علي (المؤرّخ) : و-ي هـ-ي و-ك-٣-٤-٥-٦-٧-٨-٩-١٠-١٢-١٤-٢٨-٣٩-٤١-٤٢-٤٣-٤٤-٤٨-٤٩-٥١-٥٢-٥٣-٦٤-٦٦-٧١-٧٢-٧٣-٧٥-٧٦-٧٧-٨٥-٨٦-٨٧-٨٨-٨٩-٩٣-٩٤-٩٥-١٠٠-١١١-١١٢-١١٣-١٢٤-١٢٧-١٢٨-١٢٩-١٣٠-١٣٢-١٣٣-١٣٤-١٣٥-١٤٢-١٤٣-١٤٤-١٤٥-١٤٦-

١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٣-١٥٥-١٥٦-
١٥٧-١٥٨-١٦٠-١٦١-١٦٢-١٦٣-
١٦٥-١٦٦-١٦٧-١٦٨-١٦٩-١٧٠-
١٧١-١٧٢-١٧٤-١٧٥-١٧٧-١٧٩-
١٨٠-١٨١-١٨٣-١٨٤-١٨٧-١٨٨-
١٨٩-١٩٠-١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥-
١٩٨-١٩٩-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤-
٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١٠-
٢١٢-٢١٣-٢١٤-٢٢٣-٢٢٦-٢٢٧-
٢٢٩-٢٣٠-٢٣١-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦-
٢٣٨-٢٤٢-٢٤٣-٢٤٤-٢٤٦-٢٤٨-
٢٥٠-٢٥١-٢٥٢-٢٥٤-٢٥٥-٢٥٦-
٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩-٢٦٢-٣٤١.

- منجك بن عبد الله اليوسفي : (١٦٨)-
١٦٩.

- منطاش : ي د-ي ز-٥١-١٧٣-
(١٧٤)-١٧٥-١٧٦-١٧٧-١٧٩-
١٨٢-١٨٣-١٨٤-١٨٥-١٨٦-١٨٨-
١٨٩-١٩٠-١٩١-١٩٢-١٩٣-١٩٤-
١٩٥-١٩٦-١٩٧-١٩٨-١٩٩-٢١٣-
٢١٧-٢٨٠.

- منكو تمر : ٢٣٤-٢٣٦-٢٣٧.

- مهنّا بن عامر بن مقلّد (أمير آل مرا) :
٥٥-٧٩.

- مهنّا بن مانع بن حديثة : ٤٤-٣١٥.

- مهنّا بن عيسى بن مهنّا بن مانع بن
حديثة (أمير العرب) : ط-ي ج-ي ط-
٣٣-٣٥-٤٥-٤٦-٤٧-٥٠-٥٩-٧٠-
١١٠-١١١-١١٢-١٢١-١٢٩-١٣٢-
١٣٤-١٤٢-١٥٦-١٥٧-١٥٨-١٦٠-
١٦١-١٦٢-١٦٣-١٦٤-١٦٥-١٦٦-
١٧٠-٢١٦-٢٤١-٢٤٢-٢٤٤-٢٤٥-
٢٤٨-٢٥٢-٢٥٣-٢٦٢-٢٧٩-٢٨٠-
٢٨٤-٢٨٨-٢٩٣-٢٩٤-٢٩٥-٢٩٦-
٣٠٠-٣٠٥-٣٠٦-٣١٤-٣١٥-٣١٦.

- مهنّا الغزاوي (أمير عرب أغوار
الأردن) : ١٧٨-٢٠٦.

- موسى بن حديثة (أمير العرب) :
(٥٣)-٢١٨-٣١٠-٣١٧.

- موسى بن العادل الأيوبي : ٣٩.

- موسى بن عيسى بن مانع بن حديثة :
٤٧.

- موسى بن محمد بن حديثة : ٢١٠.

- موسى بن مهنّا بن عيسى (أمير
العرب) : ٥١-٦٦-٧٢-٩٢-٩٣-
١١٣-١٢٩-١٥٨-١٦٠-١٦١-١٦٢-
٢٩٥.

- موسى بن هارون : ٢٩٠.

- موير ، وليم (Muir) : ١٣٧-١٤٣-
١٤٧-٣٤٩.

- ميخائيل باليولوجس (Michael Palaco Logus)
: ٢٦٠.

- ميران بن تيمور لنك : ٢٥٧.

(ن)

- نجّاد بن أحمد بن حجي : ٥٨-٣٠٢-
٣١٩.

- نُعير بن حيّار بن مهنّا (أمير العرب): ي ز-٥٠-٥١-٥٢-٥٣-٥٧-٧٤-٧٦-٩٤-٩٥-٩٧-١٧٤-١٧٥-١٧٧-١٧٨-١٨٠-١٨٢-١٨٣-١٨٤-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٩٠-١٩١-١٩٣-١٩٤-١٩٥-١٩٦-١٩٧-١٩٨-١٩٩-٢٠٠-٢٠١-٢٠٤-٢١٣-٢١٤-٢١٧-٢١٨-٢٥٤-٢٥٥-٢٥٦-٢٥٩-٢٨٠-٢٨٨-٢٩٨-٣٠٨.

- نور الدين زنكي (صاحب الشام) : ٣٣-٣٤-٣٥-٢٩٣-٣١٦-٣١٧.

- نوروز الحافظي : ٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١٠-٢١١-٢١٧.

- نوفل الزبيدي : ٣٧-٢٩٠.

- النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (المؤرّخ) : ي و-ي ح-ي ط-٤٥-٤٦-١٣٥-١٤٦-٢٢٧-٢٢٩-٢٣١-٢٣٤-٢٣٦-٣٤٢.

(هـ)

- هارون بن ثابت بن سعيد : ٥٨-٢٩٠.

- هارون الرشيد : ٣٤-٢٩٥.

- هبة بن مانع بن حنيفة : ٢٨٩.

- هبة بن عيسى (أمير آل فضل) : ٣٦-٢٣٨-٢٨٩-٣١٥.

- هبة بن مهنّا : ٣١٦.

-الهمذاني ، رشيد الدين فضل الله (المؤرخ) : ٢٢٣-٢٢٤-٢٢٦-٢٣٣-٢٣٦-٢٣٧-٣٤٨.

- هولاكو : ١٤٠-٢٢٢-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٥-٢٢٧-٢٢٨-٢٢٩-٢٣٠-٢٤١-٢٥٤.

- هيثم بن خاطر (أمير بني عقبة) : ١٨٥.

(و)

- وهيبة بن نجاد : ٢٩٠.

(ي)

- ياقوت الحموي ، شهاب الدين بن عبد الله البغدادي (الجغرافي) : ٣-١٨-١٩-٣٥-٣٦-٣٧-٤٠-٤١-١٥٢-١٥٨-١٥٩-١٦٢-١٦٨-١٨٥-٢٠٠-٢٢٥-٢٢٩-٢٣٠-٢٣٢-٢٤٦-٢٥١-٢٥٣-٢٦١-٢٦٢-٢٦٣-٣٤٢.

- يحيى بن ثابت بن مانع : ٢٨٩.

- يشبك الشعباني ، الدوادار : ٧٨-٢٠٠-٢٠١-٢٠٤-.

- يعرُب بن قحطان : ٣٠.

- يلجك (نائب غزة) : ٧٢.

- يلبغا المنجكي : ١٧٦.

- يلبُغا الناصري : ي د-ي ز-٧٤-
١٧٣-(١٧٤)-١٧٥-١٧٦-١٧٧-
١٧٨-١٧٩-١٨٠-١٨١-١٨٢-١٨٣-
١٨٤-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٨٨-١٨٩-
١٩٠-١٩١-١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥-
١٩٦-٢١٣-٢١٧-٢١٨-٢٨٠.
- يلبغا اليحياوي : ١٤٨-١٦٥-١٦٦-
١٦٧-١٦٨-١٦٩-١٧٠-١٧٩-١٨٨-
٢١٦.
- يوسف بن برسباي (السلطان) : ٢١٠
- يوسف بن الجيوسي (أمير عرب نابلس) :
٥٥-٧٨٨.
- يوسف بن يعقوب بن مرين : ١٢٨.
- يوسف القشتمري (نائب الكرك) : ٩٤.
- يوسف الناصر الأيوبي (صاحب حلب و
دمشق) : ١٤١-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٧.
- اليوسفي ، موسى بن محمد بن يحيى :
هـ-ي ح-ي ط-ك-٦٦-٩٢-٩٥-٢٤٠-
٢٤٣-٢٥٣-٢٥٥-٢٤٢.
- يونس الدوادار : ١٨٠-٢١٣.
- اليونيني ، قطب الدين موسى بن محمد بن
أحمد (المؤرّخ) : ط -ي-٤٥-٨٥-٨٨-
١٣٦-١٤٢-١٤٣-١٤٤-١٤٥-١٤٦-
١٤٩-١٥٠-١٥٢-١٥٣-٢٢٣-٢٢٤-
٢٢٥-٢٢٩-٢٣٠-٢٣١-٢٣٢-٢٣٣-
٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦-٢٦١-٢٦٢-٣٤٢.

(ب) القبائل و الجماعات :

(أ)

- آري (سلالة) : ٣.
- الأحامدة (قبيلة) : ٣٨.
- أحمد بن حجي (آل) : ٣٦-٣٨-
٥٨-٣١٩.
- أديغة : ٣.
- أُرُس (قبيلة مغولية) : (١٦٩) .
- الأرمن : ٢٧-٢١٢-٢٣٩-٢٤١.
- الأشرويّة (قبيلة تركمانيّة) : ٢١١.
- الأكراد : ٢٢-١٣٤-١٨٠.
- الأمويون : ١٩-٨٥.
- أميم (عرب) : ٣٠.
- ايلخانان فارس : (٢٢٨)-٢٣٠.
- الإينالية (قبيلة تركمانية) : ٢١١.
- الأيوبيون : ك ج-١٢-٣٣-٣٤-
٤٣-٤٤-٦٣-٦٥-١٤٤-٢٢٦.

(ب)

- بدّال (آل) : ٣٧.
- البربر : ١٠٧.
- بره (آل) : ٣٧.
- بشّار (آل) : ٤٠-٦٨-٧٠-٢٢٤-
٢٨٠.
- بُقُرَة (آل) : ٣٦-٥٨-٣١٩.
- بيّاض (آل) ٧٩.
- البيّاضيّة (قبيلة تركمانية) : ٢١١.

(ت)

- الأتراك (الترك) : ٢-٣-١٠١-١٠٧-٢١١.
- التتار : ي أ-٢٣-٢٨-٣٦-٤٧-٤٩-٨٥-٨٦-٨٨-٩٤-١٠٥-١٠٧-١١٢-١١٣-١٢٣-٢١٦-٢١٩-٢٢١-٢٢٣-٢٢٩-٢٤٩-٢٨٩.
- التتار الوافدية : ١٠.
- التركمان : ١٠-٢٣-٣٦-١٤٢-١٤٥-١٥٦-١٧٣-١٧٤-١٧٥-١٧٧-١٧٩-١٨٢-١٩٢-١٩٥-١٩٨-١٩٩-٢٠٠-٢٠٣-٢٠٥-٢١٠-٢١١-٢١٢-٢١٤-٢١٩-٢٢٥-٢٣٦-٢٣٩-٢٤٠-٢٤١-٢٥٦-٢٨٠-٣٠٠.
- تركمان آمد : ٢١٧-٢١٨.
- تركمان أبلستين : ٢١٨.
- تركمان الشام : ٢٢٥.
- تركمان العمق : ١٧٩-٢٠٤-٢٠٥-٢١٠-٢١١-٢١٢-٢١٣-٢١٤-٢١٧-٢١٨.

(ث)

- ثعلبة (بنو) : ٣٤-٣٥-٣٧-٣٨-٣٩-٤٠-٦٩-٧٢-٧٣-٧٥-٨٨-٨٩-٩٠-٩٣-١٠٨-١١٠-١٣٦-٢٧٠-٣١٣.
- ثمود : ٣٠.

(ج)

- جُذام القحطانية (قبيلة) : ٤١- ٧-٧٩-٨٩-٩١.
- الجرّاح (آل) : ٣٣-٤٢-٤٣.
- الجراكسة (جركس) : (٣)-٤.
- جديس : ٣١ .
- جديم (بنو) : ٤١.
- جَرْم (آل) : ٣١-٣٤-٣٥-٣٧-٣٨-٣٩-٤٠-٥٥-٥٨-٦١-٦٤-٦٩-٧٢-٧٣-٧٥-٧٧-٨٨-٩٠-٩٣-١٠٨-١١٠-١٢٣-١٣٤-١٣٦-١٨٥-٢٠١-٢٢٤-٢٧٠-٢٨٠-٣١٣.
- جُشَم (بنو) : ٣٨.
- جميل (بنو) : ٣٨.
- جَوْشَن (بنو) : ٤١.

(ح)

- حارثة (بنو) : ٤١-٦٩-٧٢-٨٠-٢٥٩.
- حريث (قبيلة) : ٣٧-٦٨.
- الحنش (آل) : ٤٢-٥٥-٢٨٠.
- حيّار (آل) : ٣١٧.

(خ)

- خالد (بنو) : ٤١-٦٠-٦٨-٧٠-٩٦-١٣٤.
- خفاجة (عرب) : ١٤٢-٢٢٧-٢٣٥.

(د)

- الدّعيجيون : ٤١-٦٨.
- الدّوس (آل) : ٣٧.

(ر)

- ربيعة (آل) : ك ج- ٣٤-٣٥-٣٦-٣٩-٤٠-٤١-٨٠-٢٨٨-٣١٣.
- الروم : ٣٩-٨٨.

(ز)

- زبيد (آل) : ٣٤-٣٥-٣٣٧-٣٨-٥٨-٦٠-٧٥-٩٧-١٠٠-٢٢٤-٢٩٠-٣١٣.
- الزُّعْبي (آل) : ٤٢-١١٨-١١٩.
- زَعْب (قبيلة) : ٦٨.
- الزّهور (بنو زهير) : ٤٢.
- زيد (بنو) : ٦٩.

(س)

- سالم (بنو) : ١١٤.
- السلاجقة : ١٢.
- سليمان بن أحمد (بنو-بيت) ١٢٥.
- السماعنة : ٤١.
- سميط (آل) : ٣٦-٣١٤.
- سُنْبس (بنو) : ٣٤-٣٥-٣٨-٣١٣.
- سُهيل (بنو) : ٣٨.

(ش)

- شَمّاء (آل) : ٣٦-٥٨-٣١٩.
- شَمّر (آل) : ٣٣.

(ص)

- صخر (بنو) : ٤١-٦٨-٩٠-١٠٨-١٠٩-١١-١١٦-١١٧-١٣١.
- الصليبيون (الإفرنج-الفرنجة) : ز-ي د-٣-٣٩-٨٥-١٥٢-٢٢٢-٢٣٠-٢٣٧-٢٣٨-٢٦٠-٢٦١-٢٦٢-٢٧٥-٢٧٩-٢٨٧.
- الصويتيون (عرب) : ٤١-٦٨.
- صيفي (آل) : ٣٧.

(ط)

- الطائيون (بنو طيء) : ٣٣-٣٤-٣٧-٣٩-٤٢-٦١-٢١٢-٢١٣-٢٢١.
- طَرّيف (آل) : ٤١-٥٧.

(ظ)

- ظفير (آل) : ٦٩.

(ع)

- عاد (قبيلة) : ٣١.

- عامر (آل) : ٣٥-٤٠-٧٦-١٥٠-٣١٤.
- العايد ، العائد (قبيلة) : ٧٥-٧٧-٨٨-٨٩-١١٠-١٢٥-١٣٤.
- العبادلة (قبيلة) : ٣٨.
- العباسيون :٢-١٩-٨٥-١٠٥.
- عبد الواد (بنو) : ١٣٠.
- عبيل (عرب) : ٣١.
- العثمانيون : ك ب-٢٣-٥٥-١٣٦-١٣٨-١٥٤-٢١٢-٢١٤-٢١٥-٢٢٢-٢٦٣-٢٦٤-٢٦٥-٢٦٦-٢٦٧-٢٦٩-٢٧٠-٢٧١-٢٧٣-٢٧٤-٢٧٥-٢٧٦-٢٨١-٢٨٢.
- العجارمة (قبيلة) : ٤١-٥٧.
- عُربان الأغوار : ٢٠٣-٢٧٠.
- عُربان الشوبك : ١٨٥.
- عُربان غزة : ٢٤٧.
- عُربان فلسطين : ٢٠٣-٢٥٧.
- عُربان نابلس (عشير) : ٢٠٦-٢٤٧-٢٦٩.
- العرب البائدة : ٣٠-٣١.
- عرب البحرين : ١١٣.
- عرب بعلبك : ١٨٧-٢٤٥.
- عرب البلقاء : ٩٤-١١٣-١٣٢-١٨٧-٢٩٠.
- عرب حارثة : ١٩١-٢٠٥-٢٥٧.
- عرب حوران : ١١١-١١٣-١٣٠-٢٠٣-٢٦٦.
- عرب صَرْخد : ٢٠٣.
- العرب العاربة : ٣٠-٣١.
- العرب العدنانية : ٣٠.
- عرب فيد : ١٠٩.
- العرب القحطانية : ٣٠.
- عرب الكرك : ٩٤-١١٣-١١٤-١٣٢-١٨٧.
- عرب لبنان : ٢٥٧.
- العرب المستعربة : ٣٠-٣١.
- العطويون : ٤١-٦٨.
- عقبة (بنو) : ٤١-٥٨-٦٠-٦٢-٦٤-٦٨-٧٢-٧٤-٨٩-٩٠-١٠٨-١١٣-١١٤-١١٥-١٣٤-١٧٠-١٧٣-١٧٨-٢١٦-٢٢٤-٢٦٢.
- علي (آل) : ٣٥-٣٦-٣٧-٤٥-٤٩-٥٢-٥٣-٥٨-٦٠-٦٢-٦٤-٧٣-٧٨-٧٩-٨٠-١٣٤-١٨٥-١٩٠-١٩١-١٩٢-٢٠٩-٢٢٤-٢٤٢-٢٥٧-٢٧٠-٣٢٠.
- عمرو (بنو) : ٧١.
- عمليق (عرب) : ٣١.
- العناترة : ٤١.
- عوسجة (آل) : ٣٨.
- عوف (بنو) : ٣٨.
- عيسى (آل) : ٣٥-٨٠-٢٥٢-٢٨٨-٢٩١-٣١٦.

(غ)

- الغزاويون : ٢٥٧.
- الغز (قبيلة تركية) : ٢١١.

(ف)

- الفاطميون : ك ج-٣٣-٤٢-٨٥-
١٤١-١٥٤.
- فرج (آل) : ٣٥-٣١٤.
- الفرس : ٨٥-٨٨-١٠١-١٠٧.
- فضل (آل) : ط-ي أ-ي ج-ي د-ي
ز-٣٤-٣٥-٣٦-٣٧-٣٨-٣٩-٤٠-
٤٢-٤٣-٤٤-٤٥-٤٦-٤٧-٥٣-٥٤-
٥٧-٥٩-٦٠-٦١-٦٢-٦٤-٦٦-٦٨-
٧٠-٧٢-٧٣-٧٥-٧٨-٧٩-٨٠-٨٨-
٩٣-٩٧-١٠٨-١١-١٢٧-١٣٢-١٣٣-
١٣٤-١٤٥-١٥٦-١٥٨-١٥٩-١٦٨-
١٧٢-١٧٦-١٨٠-١٨٢-١٨٧-١٩٢-
١٩٥-١٩٦-١٩٨-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٥-
٢١٠-٢١٦-٢١٨-٢٢٤-٢٢٩-٢٣١-
٢٣٧-٢٤٢-٢٤٦-٢٤٨-٢٥٠-٢٥٢-
٢٥٧-٢٦٢-٢٦٦-٢٧٣-٢٨٠-٢٨٣-
٢٨٨-٢٨٩-٢٩٣-٣٠٠-٣١٤-٣١٨.
- فهد (بنو) : ٣٩.
- فيد (عرب) : ١٠٩.

(ق)

- الأقباط : ٦.
- قُدامة (بنو) : ٣٨.
- القرامطة : ١٠٥.
- قُريش : ٤١.
- قضاعة : ٣٨.

(ك)

- كِلاب (بنو) : ٢٣-٣٩-٤٠-٤١-
٦٨-٧٠-٩٤-٩٧-٢٠٥-٢١٢-٢٤٠-
٢٤٢-٢٧٩.
- كَلْب (بنو) : ٣٣-٦٨.
- كنانة (بنو) : ٧٢.
- الكنعانيون : ١٨.

(ل)

- لام (بنو) : ٦٩-٩٠-٩٦-٩٩-
١٠٨-١١١-١١٣-١١٤-١١٥-١١٦-
١١٨-١١٩-١٢٠-١٢١.

(م)

- ماضي (آل) : ٣٨.
- محمود (آل) : ٣٨ .
- المحارقة (قبيلة) :٤١.
- مخزوم (بنو) : ٤١.
- مدلج (بنو) : ٦٩.
- مِرا (آل) : ي-ي أ-ي د-٣٥-٣٦-
٣٧-٤٢-٤٥-٤٦-٥٥-٥٨-٦٠-٦١-
٦٢-٦٤-٦٦-٦٨-٦٩-٧٠-٧٣-٧٤-
٧٨-٧٩-٨٠-٩٠-١٠٨-١١٨-١٢١-
١٣٤-١٣٥-١٥٣-١٨٠-١٩٠-١٩١-
١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥-٢٢٤-٢٣٧-

٢٣٩-٢٤٢-٢٥٧-٢٦٦-٢٧٠-
٢٨٨-٢٨٩-٢٩٠-٢٩٣-٣٠٢-
٣٠٥-٣١٩.
- مرين (بنو) : ١٣٠.
- المساعيد (قبيلة) : ١٠٨.
- مسلّم (آل) : ٣٥-٣١٤.
- المشارقة (قبيلة) : ٥٨.
- المشاطبة (قبيلة) : ٤١.
- المطارنة (قبيلة) : ٤١.
- المغول : ط-ي ي أ- ي د-ي و-ي
ح-٢٢-٧٧-١٣٦-١٣٨-١٤٠-١٤١-
١٤٤-١٤٥-١٤٦-١٤٧-١٤٨-١٥٢-
١٦٢-١٦٨-١٧٠-٢١٢-٢١٤-٢١٥-
٢٢٢-٢٢٤-٢٢٥-٢٢٦-٢٢٧-٢٢٨-
٢٢٩-٢٣٠-٢٣١-٢٣٢-٢٣٣-٢٣٤-
٢٣٥-٢٣٦-٢٣٧-٢٣٨-٢٣٩-٢٤٠-
٢٤١-٢٤٢-٢٤٣-٢٤٤-٢٤٥-٢٤٦-
٢٤٨-٢٤٩-٢٥٠-٢٥١-٢٥٢-٢٥٣-
٢٥٩-٢٦٠-٢٧٥-٢٧٨-٢٧٩-٢٨٥.
- مغول فارس : ٢٢٨-٢٣٧-٢٥١-
٢٥٣.
- مغول القفجاق (القبيلة الذهبية) :
٢٢٨-٢٦٠
- المفارجة (قبيلة) : ٦٩-٩٦.
- المماليك : (٢).
- المماليك الأتراك (الترك) : ط-ي أ-
ي ب-١٦٣-١٧٤-١٧٧-١٨٢-١٨٩-
١٩٢.
- المماليك الأشرفية : ١٧٧-١٨٢-
١٩٠-١٩١.
- المماليك الأمراء : ٩-١٠.
- المماليك البحرية : ٣.
- المماليك البرجية : ٣.
- المماليك الجراكسة : أ-٣-١٧٣-
١٧٧-١٨١-١٨٢-١٨٣-١٨٩-١٩٠-
١٩١-٢٥٥.
- المماليك الجلبان : ٢-١٠-١١٥-
٢٧٣-٢٧٤.
- المماليك السلطانية : ٩-١٠-١١٥-
١١٦-١٨٢-٢٤٢-٢٤٩-٢٦٨.
- المماليك اليلبغاوية : ١٧٧-١٨٢-
١٨٣-١٩٠-
- منيخر (آل) : ٣٦-٥٨-٣١٩.
- مهارش (بنو) : ١٤٢.
- مهدي (بنو) : ٤١-٥٨-٦٠-٦٢-
٦٤-٩٠-١٠٨-١١١-١٣٤-١٥٨-
١٧٠-١٧٣-١٨٥-٢٠٨-٢١٦-٢٢٤-
٢٥٧-٢٩٤.
- مهنّا (آل) : ٤٥-٤٧-٤٩-٥٢-٦٦-
٦٨-٧٠-٧٢-٧٣-٧٥-٨٠-٩٢-٩٣-
٩٤-٩٥-٩٦-١٠٨-١١٠-١١٢-
١٢٧-١٣٢-١٣٤-١٤٤-١٥٦-١٦٠-
١٦٢-١٦٧-١٦٨-١٧٠-١٩٦-٢٠٤-
٢٠٥-٢٠٦-٢١٠-٢١٣-٢١٧-٢١٨-
٢٢٤-٢٢٧-٢٣٩-٢٤٠-٢٤٢-٢٤٨-
٢٥٢-٢٥٧-٣١٦.
- موسى (آل) : ٧٦-١١٧-١٣١.
- ميّاس (آل) : ٣٧.

(ن)

- النعيميون (بنو نعيم) : ٦٩.
- نُمير (قبيلة) : ٧٢.
- نمي (آل) : ٣٦-٣١٩.

(هـ)

- هِبَة بن عيسى (آل) : ٣٥.
- هِرْماس (بنو) : ٣٨.
- هُذيم (بنو) : ١١٦.

....

(ج) الأماكــــن :

(أ)

- آسيا الصغرى : ج-١١-١٠٧-١٢٢-٢١١-٢١٧.
- آمد : ٣-(٢٠٣)-٢١١-٢١٥-٢٢٧-٢٣٨.
- أَبْلُستين : ح-٢٧-(١٧٤)-٢٠٧-٢١٢-٢١٣-٢١٨-٢٣١-٢٤٣.
- أبوظبي : ك د.
- إجزم : ٣٨.
- الأَحَصّ : (٤٠) .
- أَذرعات (درعا) : ٢٤-٢٥-٤٣-١٠٦-١١٨-١٧١-١٨٥.
- أَذنة (أضنة) : ١٩-٢٦-٢١٢-٢١٣-٢٦٤-٢٦٥.
- إربد : ٨٧-١١٧.
- أربيل : ٢١١.
- الأردن : ي ر-٢٠-٢٤-٤١-١٨٥.
- الأردن (غور-أغوار) : ي ز-٢١-٢٧-٧٥-١٣٨-٢٢٥-٢٢٨-٢٤٤-٢٥٧-٢٧١.
- الأردن (الشريعة-نهر-وادي) : ٢١-١٢٢-٢٠٦.
- أَرْسوف : ٢٤٥-(٢٦١).
- أرمينيا : ١٢٢.
- أَزْرع : ٢٦-٦٥-١٠٥.
- الأزرق (وادي) : ٢٣-٤١.

- استانبول : ٢٦٧.
- الإسكندرية (مدينة) : ك و-١١-٨٧-١٨١-١٨٦.
- الإسكندرية (سجن) : ٤٨-١٧٥-١٨٣-١٩٠-٢٠٠.
- أسوان : ٨٧.
- إعزاز : ٢٧-٢٠٨.
- الأعوج (نهر) : (١٤٨).
- إمارة آق قوينلو (الشاه البيضاء) : ٢١١-٢١٢.
- إمارة دلغادر : (٢١١) -٢١٢-٢١٣-٢٦٣-٢٦٦-٢٦٧.
- إمارة قراقوينلو (الشاه السوداء) : ٢١١-٢١٢.
- إمارة قرامان : ٢١٣-٢١٦-٢٦٣-٢٦٤.
- الأناضول : ٢١٤-٢٦٥.
- الأنبار : ١٤١-١٤٥-٢٣٢.
- أَنزار :٢٥٣.
- إنطاكية : ٢٦-٢٧-٢٠٠-٢٠٢-٢٠٧-٢٦٣.
- أوروبا (قارة) :١٢٢-١٢٣-٢٦٣-٢٦٧.
- أياس (بلدة) : ٢٧.
- إيران :٢٢٣-٢٥١.

(ب)

- بارين :٢٧.
- بالس : (٢٠)-٢٢-٢١٤.
- بانقوسا :٢٩.
- بانياس :٢٦١.
- بئر البيضاء (مركز بريد) : ٨٧.
- بئر السبع :٣٨.
- بئر غربي (مركز بريد) : ٨٧.
- بئر القاضي (مركز بريد) : ٨٧.
- البتراء : ١٠٥-١١٩.
- بحر آرال : ٢١١.
- البحر الأحمر (القلزم) : ١١-١٩-٢٢-٢٣.
- بحر الخزر : ٢٧.
- بحر (الروم ، الشام- المتوسط) : ١١-١٨-١٩-٢٠-٢٤-٢٦-٢٧-٢٨-٢٢٩.
- البحر الميت : ٢١-٢٨.
- البحرين : ١٢٨.
- البرذاع ٣٧.
- بَرْزة : ١٧٩-٢٢٤.
- برزية (حصن) : ١٥٢.
- برقة : ١٢٧-.
- بشرى : ٢٧.
- البصرة : ٢٣-٣٥-٣٦-١١٣-٢٩٦.
- بُصرى الشام : ٢٥-٣٦-٤٥-٤٦-١٠٥-١٠٦.
- بعلبك : ٢٤-٢٥-٢٦-٤٢-٥٥-٨٠-٨٨-٩٣-٩٦-١١٦-١٥١-١٧٧-١٧٨-١٨٧-١٨٩-١٩٣-٢٠٠-٢٠٤-٢٢٥-٢٤٣-٢٥٧-٢٦٩.

- بغداد : ٣٦-٤٠-٩٠-٩١-٩٣-٩٤-
٩٥-٩٦-١٢٠-١٢٥-١٤٠-١٤١-
١٤٤-١٤٥-١٤٦-١٤٧-١٧٩-٢٢٧-
٢٣٢-٢٣٧-٢٣٨-٢٤١-٢٤٦-٢٥١-
٢٥٤-٢٥٥-٢٥٦.
- بغراس : ٢٣٤.
- البقاع (سهل) : ٢١-٢٦-٣٩-٤٢-
٥٥-٨٠-٩٦-١١٨-١٣٢-١٨٠-
٢١٠-٢٢٨-٢٥٧-٢٦٨-٢٧٤.
- بَكَاس : ٢٦.
- بلبيس :٨٧.
- البلقاء : ١٩-٢٥-٢٨-٤١-٨٠-
٨٨-٨٩-٩٦-١٥٨-١٧٠-١٧٢-
١٧٤-١٧٨-٢٠٨-٢٢٤-٢٨٣-٢٩٢.
- بهنا (قلعة) : ٢٦-(١٦٢)-٢٠٩-
٢٩٦.
- بولاق : ١١.
- بيت درّاس (مركز بريد) : ٦٠.
- بيت لحم : ١٢١-١٢٣-١٢٥.
- البيرة : ٢٧-١٦٢-(١٧٦)-(٢٣٠)-
٢٣٠-٢٣٢-٢٩٦.
- البيرة (قلعة) : ٢٦-١٦٢-١٧١-
(١٧٨)-٢٢٩-٢٣٠-٢٣٢.
- بيروت : ٢٥-٢٦-٨٨-٢٧٦.
- بيسان : ي ز-٢٥-٨٧-٢٠٦-٢٢٥-
٢٧١.

(ت)

- تَبْريز : ٢٥٤-٢٥٩.
- تبنين : (٢٦١) .
- تبوك : ٤١-١٠٦.
- تَدْمر : ٢٢-٢٣-٢٦-٢٧-٤٥-٤٧-
٦٥-٧٦-٨٠-٨٧-٩٧-١٠٠-٢٤٦-
٢٥٩.
- تُرْكستان : ٢-٢١١.
- تركيا : ٢٠.
- تَكْريت : ٢٥٠.
- تلّ باشر : ٢٧-٢٠٩.
- تلّ الفار : ٢٦٩.
- تنوخ : ٢١.
- تونس :١٣٠.
- تَيْماء : ٢٢-٣٧-٣٨-٤١-٤٨.
- التّيْم (وادي) : (٣٩)-١٣٥-٢٣٥.
- تيه بني إسرائيل : ١٨-١٩-٢٥.

(ث)

- الثغور (العواصم) : (١٩)-٢٦-٢٧-
٤٧-٦٨-٩٢-٢٥٥.
- ثَنيّة العقاب: ١٧٩-٢٩٤.

(ج)

- جاكسارتس (نهر) : ٢٥٤.
-جالديران (معركة) : ٢٦٧.
- جبا (مركز بريد) : ٨٧.
- جبال لبنان : ٢١.
- جبال مؤاب :٢١.
- جبال نابلس : ٢١-٣٨.
- جبلة : ١٥٢.

- الجبل الأقرع : ٢١٠.
- جبل بهراء : ٢١.
- جبل الشيخ : ٢٠٠-٢٤٨.
- جبل العرب (الدروز) : ٢١.
- جبل قاسيون : ٢٤٤.
- جبيل : ٢٧.
- جزيرة ابن عمر : ٣.
- جزيرة العرب (شبه جزيرة) : ٢١-٢٩-٣٠-١١٣-١٢٨.
- الجزيرة الفراتية : (٢٢)-٢٧-٣٦-٣٨-٣٩-٤٠-٤١-٦٨-٧٥-٨٠-٢٢٣-٢٣٢-٢٣٨.
- جَعْبَر (قلعة) : ي ج-٢٧-(٣٥)-٣٦-٤٠-٧٦-٧٧-٨٨-٢١٦-٢١٧.
- الجليل (هضبة) : ٢١.
- جنين : ٢٨-٨٧.
- الجوف : ٣٧.
- الجولان : ٣٠-٣٥-٣٦-٣٧-٧٠-٧٤-٨٠-٢٦٨-٢٧٤.
- جيحان (نهر) : ٢٧.
- الجيتين (مركز بريد) : ٨٧.
- الجيدور : ٣٩.

(ح)

- حارم :٢٦-٢١٤-٢٣١-٢٦٢.
- حالات عمار : ١٠٦.
- الحبابنة : ٣٧.
- حَبْوة (مركز بريد) : ٨٧.
- الحجاز : ٧-٣٠-٣١-٣٣-٣٦-٤٥-٤٦-٧٢-٧٣-٩٠-٩١-٩٤-٩٦-١٠٠-١٠٧-١٠٨-١١١-١٥٨-١٦٥-١٨٦-٢٢٤-٢٥٢-٢٦٧.
- الحديثة :١٤١-١٤٥-٢٣٨.
- حَرّان : (٢٣٠)-٢٣١-٢٣٨.
- حَرَسْتا : ٢٢٣-٢٤٦.
- الحَسا (وادي) : ١١٦-١١٩.
- حُسْبان : ٢٥-(١٨٥)-٢٢٤.
- حَسْمي : (٤١) .
- حُفرة الإنهدام :٢١.
- حلب (مدينة-نيابة) : ي ب-ي ز-٢٠-٢٣-٢٤-٢٦-٢٧-٣٣-٣٩-٤٠-٥٣-٥٤-٦٨-٧٥-٧٦-٧٧-٧٨-٧٩-٨٠-٨٨-٩٠-٩٢-٩٣-٩٤-٩٥-٩٦-٩٧-٩٨-٩٩-١٠٤-١١٧-١١٨-١٢٢-١٥١-١٥٥-١٥٦-١٥٧-١٥٨-١٥٩-١٦٠-١٦١-١٦٢-١٦٣-١٦٧-١٧١-١٧٣-١٧٤-١٧٥-١٧٨-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩٠-١٩٢-١٩٤-١٩٥-١٩٦-١٩٧-١٩٨-١٩٩-٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢١٠-٢١١-٢١٢-٢١٣-٢١٤-٢١٥-٢١٦-٢١٧-٢١٨-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٦-٢٢٧-٢٣١-٢٣٢-٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٤١-٢٤٢-٢٤٣-٢٥٦-٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩-٢٦٠-٢٦١-٢٦٦-٢٦٧-٢٦٨-٢٦٩-٢٨٩-٢٩٥-٢٩٦.

- حلب (قلعة) : ٥٢-٥٧-١٧٣-١٧٤-
١٧٩-١٩٢-٢١٢-٢٥٨.
- حلبا : ٢٦١.
- الحلّة : ٢١١-٢٥٢-٢٩٦.
- حَماة (مدينة-مملكة) : ٣٢-٢٤-٢٦-
٢٧-٦٦-٧٦-٧٨-٧٩-٨٠-٨٨-٩٠-
٩٢-٩٣-٩٤-٩٥-٩٦-٩٧-٩٨-٩٩-
١٠٤-١١٧-١٤٧-١٥١-١٥٥-١٥٧-
١٥٨-١٦٢-١٧٠-١٧١-١٧٣-١٧٥-
١٧٧-١٧٨-١٨٥-١٨٦-١٩٣-١٩٥-
١٩٧-١٩٩-٢٠٠-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤-
٢٠٥-٢٠٦-٢١٠-٢٢٣-٢٢٦-٢٢٩-
٢٣٥-٢٤٢-٢٤٣-٢٤٩-٢٥١-٢٥٧-
٢٥٩-٢٦٦-٢٦٨-٢٦٩-٢٩٤.
- حِمْص (مدينة-نيابة) : ي ج-٢٠-
٢١-٢٢-٢٤-٢٥-٢٦-٢٩-٣٥-٣٦-
٤١-٥٥-٦٠-٧٠-٧٤-٧٦-٧٨-٨٠-
٨٨-٩٠-٩٢-١٣٣-١٥٠-١٥٢-
١٥٣-١٧٩-١٩٧-٢٠٠-٢٠٢-٢٠٤-
٢٠٦-٢٠٨-٢١٠-٢٢٨-٢٢٩-٢٣١-
٢٣٢-٢٣٥-٢٤٢-٢٤٣-٢٤٤-٢٤٧-
٢٥١-٢٥٧-٢٦٩-٢٧٠-٢٧٥-٢٨٩.
- حِمْص (معركة) : ط-ي-ي أ-ي ط-
٢٠-(١٩١)-٢٣٤-٢٣٧.
- حَوران : ي ب-ك ب-ك ج-٢١-
٢٢-٢٣-٢٥-٣٦-٣٧-٣٨-٤٥-٤٦-
٥٥-٦٥-٧٠-٧٢-٧٤-٧٨-٧٩-٨٠-
٨٢-٩٥-٩٦-٩٧-١٠٠-١٠٥-١١٧-
١١٩-١٢٠-١٣١-١٨٠-١٩٦-٢٢٤-
٢٢٨-٢٥٥-٢٨١.
- الحولة (بحيرة) : ٢٨-٢٠٦.
- حيفا : ٣٥-٣٨-٢٦١-٢٦٢-٢٦٩.
- حَيْلان : ٢٥٦.

(خ)

- الخابور (نهر) : ٣٢-١٣٦-٢٣٣.
- خان الخليلي : ٢٧٤.
- خان ذو النون : ١٠٦.
- خان لاجين (عياش) : (١٧٩)-١٨٠-
٢١٨.
- خان يونس : ٣٨.
- خربة اللصوص : ١٨٠-٢٩٥.
- الخروبة (مركز البريد) : (٣٨)-٨٧.
- الخزندار (وادي-معركة) : (٢٠٦)-
٢٤٢-٢٤٣-٢٤٧-٢٤٩-٢٧٥.
- الخفارة (مركز البريد) : ٨٧.
- خلاط : ٢٢٧.
- الخليج العربي : ٢٢-٢٣-٩١.
- الخليل: ي ز-٢٥-٣٧-٣٨-٦٥-
٦٩-٧٢-٨٠-٩٢-٩٦-١١٦-١٢٣-
٢٢٤-٢٧١.
- الخوابي (قلعة) : ٢٥١.
- خواجا أليغار(المدينة الخضراء) :
٢٥٣.

(د)

- الداروم (دير البلح) : ٢٥-(٣٧)-٣٨-٦٩-٨٠.
- داريا : ٤٧.
- دار السعادة بدمشق : ١٠١-١١٠-(١٤٩)-١٦٣.
- دبي : ك د.
- دجلة (نهر) : ٣-٢٢.
- الدّربساك (قلعة) : ٢٦.
- الدّرّبند : (١٩٢) .
- دركوش : ٢٧.
- دَرَنْدَة (قلعة) : ٢٧-٢١٢.
- دمشق : ي ب-ي ز-ك د-٧-٢٢-٢٥-٢٦-٢٨-٢٩-٣٣-٣٧-٤٥-٤٦-٤٧-٤٨-٥٧-٧٢-٧٤-٨١-٨٧-٨٨-٨٩-٩٠-٩١-٩٢٩٣-٩٤-٩٥-٩٦-٩٧-٩٨-٩٩-١٠٠-١٠١-١٠٢-١٠٣-١٠٥-١٠٦-١٠٧-١٠٩-١١٠-١١١-١١٣-١١٦-١١٧-١١٩-١٢٠-١٢٣-١٢٥-١٣١-١٣٣-١٣٥-١٣٦-١٤٣-١٤٤-١٤٧-١٤٨-١٤٩-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٣-١٥٦-١٥٨-١٥٩-١٦٣-١٦٤-١٦٦-١٦٧-١٦٨-١٧١-١٧٢-١٧٣-١٧٩-١٨٠-١٨٢-١٨٣-١٨٤-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٨٨-١٨٩-١٩١-١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥-١٩٧-١٩٨-١٩٩-٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٠٩-٢١٠-٢١٧-٢١٨-٢٢٣-٢٢٦-٢٢٨-٢٢٩-٢٣١-٢٣٢-٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٧-٢٣٩-٢٤٠-٢٤١-٢٤٢-٢٤٣-٢٤٤-٢٤٥-٢٤٦-٢٤٧-٢٤٩-٢٥٥-٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩-٢٦١-٢٦٦-٢٦٨-٢٦٩-٢٧٠-٢٧٦-٢٧٨-٢٨٣-٢٩٤-٣٠٠.
- دمشق (نيابة) : ٢٤-٢٨-٢٩-٤١-٩٧-١٦٥-١٦٧-١٧٢-١٨٤-١٨٦-٢٠٦.
- دمشق (قلعة) : ١١٧-١١٨-١٢٧-١٤٤-١٥٠-١٦٤-١٧٨-١٨٤-١٨٧-١٨٩-١٩١-٢٠٤-٢٠٩-٢٤٤-٢٦٩.
- دمشق (مرج) : ٢٤-٣٧-٣٨-٤٣-٥٠-٧٨-٧٩-٨٠-١٥٣-١٨٧-٢٠٩-٢٦٩.
- دمشق (غوطة) : ك ب-١٩-٢٠-٢١-٢٤-٣٧-٣٨-٧٨-٧٩-٨٠-٩٦-٩٨-١٤٢-١٥١-١٨١-١٩١-١٩٢-٢٢٣.
- دمياط : ٨٧.
- ديار بكر : ٢٧.
- دير القديسة كاترينا : ١٢٢-١٢٣-١٢٤.

(ر)

- الرّواندار (قلعة) : ٢٦.
- الرحبة : ي ج-٢٤-٢٦-٢٨-(٣٥)-٣٦-٣٧-٤٨-٥١-٧٤-٧٥-٧٦

-٨٧-٩٠-٩٢-٩٣-١٤٥-١٤٨-١٥١-
١٥٢-١٦٢-٢٠٩-٢٣٢-٢٣٨-٢٤٠-
٢٤٦-٢٥٠-٢٥٤-٢٥٥-٢٩٦.
- الرستن : ٢٧-١٥٠-٢٠٢-٢٢٩.
- الرصافة : ٢٤٦-٢٥١.
- رفح : ١٩-٢٠-٨٧.
- الرقة : ٣٦-٢٣٠-(٢٣٨).
- الرملة : ي ز-٢٥-٤٣-٧٢-٧٣-٧٥-
٧٨-٧٩-٨٠-٩٥-٩٨-١٣٢-١٥١-
١٧١-٢٤٥.
- الرّوحاء : ١٥٣-٢٣٤.
- الروضة (جزيرة) : (٣).
- الرّها : ٢٧-٧٨-٢٣٠-٢٣١.
- الرّيدانية (معركة) : ك ب -(١٨٨) -
٢٢٥-٢٥٤-٢٧٤.

(ز)

- الزبداني : ٢٤.
- زبيدة (طريق الحج العراقي) : ١٠٥-
١١٣.
- زَحر (مركز بريد) : ٨٧.
- زَحلة : ١١٦.
- زرعين (مركز بريد) : ٨٧.
- الزرقاء (مدينة) : ٣٦-٣٧-١٠٦-١١٧-
(١٨٥).
- الزرقاء (وادي) : ي ب-١٨٥.
- زيزا ء (زيزياء) : ١٠٥-(١٥٨)-١٥٩-
١٨٧-٢٢٤.

(س)

- السرحان (وادي) : ٢٣.
- السامرة (هضبة) : ٢١.
- سَرْمين (إدلب) : ٢٧-٤٧-٤٨-٥٠-
٥٦-٨٠-١٩٨-٢١٠-٢١٧-٢٨٩-
٢٩٤.
- سرياقوس : ٨٧-(١٨٣).
- سَعْسَع : (٢٠٤) .
- السعيدية (مركز بريد) : ٨٧.
- السّلط (الصلت) : ١٦٢-٢٢٤-
٢٩٦.
- سلميّة : ي أ-٢٤-٢٦-٤٥-٤٧-
٤٨-٥٠-٥١-٥٢-٦٥-٧٤-٩٧-١٩١-
١٩٥-١٩٦-١٩٨-١٩٩-٢١٣-٢٢٦-
٢٣٦-٢٤٢-٢٥٢-٢٥٥-٢٥٧-٢٧٨-
٢٨٩-٢٩٧.
- سمرقند : ٢٥٩.
- سميساط : ٢٠-١٦١-١٦٤-١٧٦.
- سنجّار : ٣٨-(٤٠)-١٩٤-٢١١.
- السوّادة (مركز بريد) : ٨٧.
- سوريا : ١٨-٢٠-٢١-٢٢-٢٤.
- سيس : ٢٠-١٩٩-٢١٢-٢١٣-
٢٣٢-٢٤٠-٢٦٥.
- سيولس : (١٧٦)-١٨٣-٢٤١-
٢٥٦.

(ش)

- الشراة (جبال) : ٢٢.

- الشعراء : ٢٥.
- الشّغر : ٢٦-١٥٢-٢١٤.
- شَقْحب (مرج الصفر) : طـي بـي ط-١٨٦-١٨٩-٢٤٣-(٢٤٦)-٢٤٧-٢٤٩-٢٧٥.
- الشقيف :٢٥-٢٨.
- الشّوبك : ١٩-٢٨-٤١-٦٨-٨٠-١١٥-١١٦-١٦٤-١٨٥-٢٩٠.
- الشيخ مسكين : ١٠٦-١٨٥.
- شيراز : (١١٣)-٢٥١.
- شيْزَر (قلعة) : ٢٦-١٩٤-٢٠٤.

(ص)

- الصّافيّة (مركز بريد) : ٨٧.
- الصّالحيّة (دمشق) : (٢٤٤).
- الصالحيّة (مركز بريد في مصر) : ٨٧.
- صبيحة (مركز بريد) : ٨٧.
- الصبيبة (قلعة بانياس) : (١٦٢)-٢٠٠-٢٠١-٢٢٤-٢٩٦.
- صَخْرة (قرية في عجلون) : ٧٩.
- صَرْخد : ١٩-٢٠-٢٥-٣٧-١٦٢-١٦٥-١٩٤-٢٠٥-٢٢٤-٢٦٦.
- صَفَد (مدينة-نيابة) : ي ح-٢٣-٢٤-٢٧-٢٨-٧٦-٨٧-٩٣-٩٦-٩٧-٩٩-١٦٧-١٨٦-١٨٧-١٨٩-١٩٢-١٩٨-٢٠٣-٢٠٤-٢٠٥-٢٠٦-٢٦١-٢٦٨.
- صفد (قلعة) : ٢٦٢.
- صفين :٣٦.
- الصّنمين : ٨٧-٩٦-١٠٥.
- صِهْيَوْن (حصن) :(١٥٢)-١٥٣-٢٣٤-٢٣٥.
- صُور :١٨-٢٥-٢٦-٢٨-٢٦٢-.
- صيداء :٢٦-٨٧-٢٦٢.
- الصّين : ١٦٧.

(ض)

-الضّمير :٩٦-١٦٨-١٩٤-٢٤٥-٢٥٧.

(ط)

- طَبَريّا (بحيرة) : ١٢٢-٢٣١.
- طرابلس (مدينة-نيابة) : ٢٣-٢٤-٢٧-٨٧-٩٣-٩٥-٩٦-٩٧-٩٨-١٠٤-١١٧-١٦٤-١٧١-١٧٥-١٧٧-١٧٨-١٨٤-١٨٥-١٨٦-٢٠٠-٢٠٤-٢٠٥-٢٠٧-٢٠٩-٢١٠-٢٥١-٢٦٢-٢٦٤-٢٧٠.
- طَرَسوس : ١٩-٢٠-٢٧-٢١٢-٢٦١-٢٦٢-٢٦٨.
- طَرْطُوس : ٢٠٠.
- طَفَس : ١٠٦.
- طُوروس (جبال) : ١٨-٢٠-٢٢-١٩٣.

- طيء (جبل شمر) : ٢٢.
- الطيبة (مركز بريد) : ٨٧.
- الطيرة (مركز بريد) : ٨٧.

(ظ)

- الظليل (وادي) : ٣٦-(٤١).

(ع)

- العاصي (نهر) : ٢٠-٢١-٢٥-٢٦-٢٧-٢٠٢-٢٢٨.
- عانا : ١٤١-١٤٤-١٤٥-(٢٣٨) .
- العالوقة (مركز بريد) : ٨٧.
- عبادان : ٢٢.
- عتليت : ٢٦٢.
- عَجْرود : (٢٧٤)-٢٧٥.
- عجلون (مدينة) : ك ب-٢٢-٢٤-٥٥-٧٩-١٦٢-٢٢٤-٢٧١-٢٩٦.
- عجلون (قلعة) : ٢٢٤-٢٧٨-٢٨٩.
- عُذراء : ١٩٤-٢٠٢-٢٥٧.
- العراق : ج-ك ج-٢٠-٢١-٢٣-٣٢-٣٥-٣٦-٤٧-٤٨-٥٠-٥٥-٧٠-٧٥-٧٧-٧٨-٧٩-٨٨-٩٤-١٠٧-١٢٨-١٤٥-١٤٦-١٧٠-٢١١-٢٢٧-٢٣٠-٢٣٨-٢٣٩-٢٤٩-٢٥٠-٢٥٢-٢٧٥-٢٨٣.
- العراق (بَرِّيَة) : ي أ-٤٥-١٥١-١٥٢-١٦٣-٢٠٧-٢١٦-٢٢٧-٢٣٤-٢٣٨-٢٥٢-٢٧٥.
- عُربان : ٣٢.
- عربايا : ٣٢.
- عربة (وادي) : ٢١-٣٨.
- عربيل :٢٤٦.
- عُرْض : (٢٤٦) .
- عِزْقا : (٢٦١).
- العروب :٣٨.
- العريش : ٢٠-٢٤-٢٥-٥٥-٩٠.
- العقبة (أَيْلة) : ٨٠-٨٩-١٠٥-١٠٦-١١٤-١١٥-١١٦-١١٨-١١٩-١٢٠-١٢٦-١٦٩-١٧٠-١٧٢.
- عقبة شحورا : ١٨٦.
- عسقلان : ٢٠-٢٥.
- عَكا : ٢٨-١٥٣-٢٢٥-٢٣٤-٢٣٨-٢٣٩-٢٦١-٢٦٢.
- عَكّار : ١٥٢.
- عمّان : ١٠٥-١٠٦.
- العمق (سهل) : ٢١-٢٠٥-٢١٠-٢١١-٢٣١.
- العلوين (جبال) : ٢٣٨.
- العوجا (مركز بريد) : ٨٧.
- العوجا (نهر) : (٢٤٥).
- العليقة (قلعة) : ٢٥١.
- عينتاب : ٢٦-١٩٣-٢٠٥-٢٠٩-٢٣١-٢٣٤-٢٣٥-٢٥٦-٢٦٨-٢٧٢.
- عين جالوت (معركة) : ي-ي ح-٦٧-٩٠-١٤١-٢٢٤-(٢٢٥)-٢٢٦-٢٢٧-٢٢٩-٢٧٥-٢٧٨-٢٨٧.

(غ)

– الغاب (سهل) : ٢١.
– غَباغِب : ٨٧–١٨٩–٢٤٨.
– الغرابي (مركز بريد) : ٨٧.
– غَزّة (مدينة–نيابة) : ي ز–٢٠–٢٢–٢٤–٢٥–٣٢–٣٧–٣٨–٣٩–٥٥–٦٠–٦٧–٦٩–٧٢–٧٣–٧٤–٧٥–٧٧–٧٨–٧٩–٨٠–٨٧–٨٩–٩٥–١٠٦–١٠٨–١٠٩–١٢٣–١٢٤–١٢٥–١٢٦–١٣٨–١٥٠–١٥١–١٥٦–١٥٨–١٦٤–١٨٥–٢٠١–٢٠٧–٢٠٨–٢١٠–٢٢٤–٢٢٥–٢٢٦–٢٢٧–٢٢٩–٢٣٤–٢٤٤–٢٤٧–٢٦٨–٢٧١–٢٧٣–٢٧٦.

(ف)

– فارس (بلاد) : ٢.
– فَحْمَة (مركز بريد) : ٨٧.
الفرات (نهر) : ح–٢٠–٢٢–٢٣–٢٦–٢٧–٣٢–٣٦–٤٠–٤١–٧٧–١٣٦–١٦٢–٢٢٦–٢٣١–٢٣٢–٢٣٦–٢٣٨–٢٤٠–٢٤١–٢٤٥–٢٤٧–٢٤٨–٢٥٠–٢٧٥.
– الفُسْطاط : ١١.
– فِلسطين : ي ز–٢٠–٢١–٢٤–٣٣–٣٥–٣٨–٣٩–٥٥–٦٥–٩٥–١٢١–٢٤٥–٢٦١.
– الفُولجا (نهر) : ٢٣٠.

(ق)

– القابون : ٢٦٨–٢٧٠.
– قاسيون (جبل) : ١٤٤.
– قاقون : ٢٥–٨٧–١٦٨.
– القاهرة (مدينة) : ب–د–ح–ط–ي–ي أ–ي ب–ي هـ–ي ر–ي ح–ي ط–ك–ك ب–ك ج–ك د–٧–١٧–٢٨–٢٩–٥٠–٥٢–٥٤–٥٧–٦٥–٧١–٧٢–٧٣–٧٤–٧٥–٧٧–٧٨–٧٩–٨٠–٨٧–٨٨–٩٠–٩١–٩٢–٩٣–٩٤–٩٥–٩٧–١٠٠–١٠١–١٠٢–١٠٣–١٠٦–١٠٨–١١١–١١٥–١١٨–١٢٠–١٢٣–١٢٥–١٢٦–١٣٠–١٤٠–١٤١–١٤٣–١٤٤–١٤٥–١٤٦–١٤٧–١٤٨–١٤٩–١٥٤–١٥٥–١٥٦–١٥٨–١٦٠–١٦١–١٦٢–١٦٣–١٦٤–١٦٥–١٦٦–١٦٧–١٦٨–١٦٩–١٧١–١٧٢–١٧٣–١٧٤–١٧٧–١٨٠–١٨١–١٨٢–١٨٣–١٨٤–١٨٥–١٨٧–١٨٩–١٩٠–١٩٢–١٩٤–١٩٧–٢٠٠–٢٠١–٢٠٢–٢٠٣–٢٠٤–٢٠٥–٢٠٦–٢٠٧–٢٠٨–٢٠٩–٢١٠–٢١٢–٢١٦–٢١٧–٢١٨–٢٢٣–٢٢٥–٢٣١–٢٣٥–٢٣٧–٢٤١–٢٤٢–٢٤٣–٢٤٥–٢٤٦–٢٤٩–٢٥٠–٢٥٤–٢٥٧–٢٥٨–٢٦٧–٢٧٠–٢٧٣–٢٧٦–٢٨٣–٢٨٦.
– القاهرة (سجن القلعة) : ١١٤–١٧٠–١٧٣–١٨٩–٢١٦–٢٨٤–٢٩٤.
– القاهرة (قلعة الجبل) : (٣)–٦–٨٦–٨٧–١٤٢–١٨٠–١٨٢–١٨٥–١٨٩–٢٠٧.
- القاهرة (قبة النصر) : ١٨١.

- قبّة يلبغا بدمشق : ١٠٦-(١٨٦)-١٨٧-١٩٠-٢٥٧.
- القبيبات (حي بدمشق) : ١٨٦.
- قَدَس (بحيرة) : ٢٣٢.
- القُدس (مدينة-ولاية-نيابة) : ي ز-٢٤-٢٥-٢٨-٧١-٧٢-٧٥-٨٠-٩٣-٩٦-١٠٣-١٠٧-١٢١-١٢٣-١٢٤-١٢٥-١٢٦-٢٧١.
- القَدْموس (قلعة) : ٢٥١.
- القِرم (شبه جزيرة) : ٢.
- قَرَه قُورم: ٢٢٣.
- قَزْوين (بحر) : ٢٣٠.
- القصر الأبلق بدمشق : (١٥٢)-١٦٣-١٩٣.
- قصر شبيب بالزرقاء : ١١٦.
- قصر النمرود : ١٦٢.
- القُصيْر (حصن) : ح-٢٦-(٢٦٢).
- القُصيْر (مركز بريد) : ٨٧-(٢٢٧).
- القُطرانة : ١٨٥.
- قَطَنا : ٢٥٧.
- قَطْيا : ٨٧-٩٠-٩٣-(١٨١)-٢٢٣.
- القطيف : ١٢٨.
- القَفْجاق (بلاد) : ٢.
- قلعة الأكراد : (٢٠٠) .
- قلعة الروم : ٢٦-١٥٩-١٦٠-١٦٢-٢٠٥-٢٣١-٢٣٩-٢٤٠-٢٤١-٢٩٤.
- قلعة المرقب : (٢٠٠).
- قِنّسرين : ١٩-(٢٠٢).
- القنيطرة : ٢٥-١٦٢.
- قيسارية : ٢٥-(٢٢٩)-٢٦١.
- قَيْصرية : ١٧٤-٢٦٤-٢٦٥.

(ك)

- كُتَيْبَة : ١٨٥.
- الكرك (نيابة-مدينة) : ي ز-٢٤-٢٨-٤١-٦٥-٦٨-٧١-٧٢-٧٤-٧٩-٨٠-٨٧-٨٨-٨٩-٩٧-٩٨-٩٩-١٠٥-١٠٨-١١٥-١١٦-١١٨-١٢٠-١٤٨-١٤٩-١٥٦-١٥٨-١٦٤-١٧٠-١٧٤-١٨٣-١٨٤-١٨٥-٢٠٧-٢١٧-٢٢٣-٢٦٨-٢٨٣-٢٩٤-٢٩٥.
- الكرك (سجن) :١٧٠-١٨٤.
- الكرك (قلعة) : ١٥٥-١٧٨-١٨٦-١٨٧.
- كرك نوح (لبنان) : (١١٦) .
- كَرْكر (قلعة) : ٢٦.
- الكسوة : ٨٧-٩٤-١٠٥-١٦٧-١٨٥-٢٤٧-٢٥٧.
- كَشَب (حرّة) : ٣٦.
- كُفر سوسة : ١٨٦.
- الكهف (قلعة) : ٢٥١.
- كُوَّارة (قلعة) : ٢٦٥.
- كُولك (قلعة) : ٢٦٥.
- الكوفة : ٢٩٦.
- كيش : ٢٥٣.
- كيفا (حصن) : ٣.

(ل)

- لبنان : ٢٠-٢٧-٣٨.
- اللاذقية : ٢٠-٢٧-١٥٢-٢٠٤.
- اللّجون : ١٠٥-١٠٦-(١٨٥)-٢١٠.
- اللّد : ٢٥-١٧٢-٧٣-٧٨-٨٢-٩٠.
- اللّكام (الأمانوس) - جبال : (٢٠)-٢٤.
- الليطاني (نهر) : ٢١-٢٧.

(م)

- ماردين : ٧١-٢١٢-٢٥٤.
- مُؤاب (جبال) : ٢١.
- المحيط الهندي : ١١.
- المجامع (مركز بريد) : ٨٧.
- مدائن صالح : ١٠٦.
- المدينة المنورة : ك ج-١٠٥-١٠٦-٢٥١.
- مراغة : ١٦٠-٢٥١.
- مرج دابق (معركة) : ك ب-٢٦٧-٢٦٨-٢٦٩-٢٧١-٢٧٢-٢٧٦.
- مرج راهط : ٢٢٤-٢٤٦-٢٤٧.
- مَرْعش : ١٩-٢٠-١٩٣-٢٠٧-٢١٢-٢٣١-٢٣٥-٢٥٦.
- المزة : ٢٦٩.
- المزيريب : (٤٢)-١٠٥-١٠٦-١١٨-١١٩.
- مَشْغرا : ٣٨-٨٠-١٣١.
- مشْهد خالد بن الوليد : ٢٣٥.
- مصياف (قلعة) : ٢٦-٢٧-(٢٥١).
- المصيصة : ٢٧.
- معان :٢٢-٢٨-١٠٥-١٠٦-١٠٧-١٠٨-١١٠-١١٦-١٢٠.
- مَعرّة النعمان (المعرة) : (٢٧)-٥٨-٦٥-٦٦-٨٠.
- المُعلا: ١٠٦.
- المغرب العربي : ١١٤-١٢٧-١٢٨-٢٨٣.
- المفرق (مدينة) : ٤٢.
- المُقطم (جبل) : ٣.
- مكة : ك ج-٣٦-١٠٠-١٠٥-١٠٧-١٢٥-١٦٠.
- مَلْطيّة : ١٩-٢٠-(٢٤)-٢٧-١٧٤-١٧٥-٢٠٥-٢٠٧-٢٥٦.
- منبج : ٢٣٢.
- منغوليا : ٢٢٦.
- الموجب (وادي) : ٤١.
- الموصل : ٣٤-١٤٦-٢١١.
- المُويلْحة : (١٧٠) .
- مَيدان القَبق (القاهرة) : (١٢٨) .
- الميدان الكبير (ساحة المرجة-دمشق): ١٨٦.
- ميدان المهاري : ١٢٨.
- ميدان الناصري : ١٢٨.

(ن)

- نابلس : ي ز-٢١-٢٥-٢٧-٣٩-٦٥-٧٢-٧٥-٧٨-٨٠-٩٢-٩٥-٩٧-١١٦-٢٢٤-٢٥٥-٢٤٧-٢٧١.

- الناصرة : ٢٨-١٢١-١٢٢-١٢٣-١٢٤.
- النّبك : ٢٤-٢٦-٢٤٤.
- نجد (هضبة) : ٢٣-٣٣-٣٦-٣٩-٤٥-١٠٩.
- نصيبين : ٢٣٨.
- النفوذ (صحراء) : ٣٢.
- نَوى : ٢٥-٢٧١-٢٧٤.
- النيل : ٣.

(هـ)

- هضبة الجليل : ٢١.
- هضبة السّامرة : ٢١.
- همذان : ١٥٦-٢٣٧.
- الهند : ٩١-٩٣.
- هيت : ١٤١-١٤٥-٢٣٨-٢٥٠.

(و)

- الورّادة (مركز بريد) : ٨٧.

(ي)

- يافا : ١٢٢-١٢٣-١٢٤-١٢٥-١٦١.
- اليمن : ٣٠-٣٣.

ثانياً : فهـــرس الآيـــات القرآنيـــة

الصفحة	نص الآية	رقم الآية	السورة	م
٣٠٠	"... وَحَسُنَ أُولَئِك رَفِيقاً "	٦٩	النساء (٤)	١-
٣١	" وَمِنَ الأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِــنُ بِاللّـهِ والْيَـوْمِ الآخِرِ..."	٩٩	التوبة (٩)	٢-
٣٠	" ولَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يقولون إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الذي يُلْحِدون إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لسانٌ عَرَبيٌّ مُبين "	١٠٣	النحل (١٦)	٣-
٢٩٩	" ... فَلا تَقُل لَهُما أُفٍّ ولا تَنْهَرهُما "	٢٣	الإسراء(١٧)	٤-
٣٠	"...لولا فُصِّلَتْ آيتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُــلْ هُوَ للذينَ آمَنوا....."	٤٤	فصلت (٤١)	٥-
٣٠٠	"... وكانوا أَحَقَّ بِها وأَهْلَها..."	٢٦	الفتح (٤٨)	٦-
٣١	" قالَتْ الأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمنــوا ولكــنْ قُولوا أَسْلَمْنا ولَمّــا يَدْخُــلِ الإيمــانُ فــي قُلوبِكُمْ....."	١٤	الحجرات (٤٩)	٧-

ثالثـــاً: فهـــرس المفاهيـــم و المصطلحـات

(أ)

- أتابك - أتابكية: (٩)-٥٠-٥١-١١٨-١٤٩-١٦٨-١٧٥-١٧٨-١٨٠-١٨٣-١٨٦-١٩٤-٢٠٢-٢٠٥-٢٦٤-٢٠٧-٢٠٩-٢٦٦-٢٦٧.
- الأحلاف القبلية : و-١٧.
- أرباب السيوف : ٤-٥-٧-١٢-٢٩-٥٧-١٥٤.
- أرباب القلم : ٤-٥-٦-١٣-١٥٤.
- أرستقراطية عسكرية : ب- ك-٢٩-٢٨٦.
- الأزوار : (٢٣٦) .
- الأستادار (لاستادارية) : ٥-(٦)-١٠٤-١٤٤-٢٤٢.
- الأستاذ : (٩) .
- الاستجارة : ي ح-(١٥٩)-١٦٠-١٦٢-١٦٤-١٨٦-١٩١-١٩٥-٢١٦.
- الأقتاب : (١٣٣).
- الإقطاع (الإقطاعية) : ٩-١٢-٤٢-٤٣-٤٧-٦٣-(٦٥)-٦٦-٦٧-٦٨-٨٢-٨٦-٩٠-١٥٥-١٥٦-١٦٦-١٦٩-١٨٤-١٨٥-١٩٤-١٩٩-٢٠٠-٢١٠-٢١٥-٢١٦-٢١٨-٢١٩-٢٢٠-٢٢١-٢٢٨-٢٧٣-٢٨٥-٢٨٦-٢٩١-٢٩٦.
- الإقطاع العسكري : (٢) .
- أقنان(قن) : ١٤.
- أمراء الطلبخاناة : ١٠-٧٥.
- أمراء العشرة : ١١٦.
- أمراء المئة (أمير مئة مقدم ألف) : ١٠-١١-١٦٧-١٨٠-١٩٩.
- إمرة بوق وعلم : (٤٤)-٢٩٣.
- إمرة الحج : (١٠١) .
- أمرة العرب : ب-ي د-ي هـ- ي ح-١٧-٣٧-٤٢-٤٣-٤٤-٤٥-٤٧-٤٨-٥٠-٥١-٥٢-٥٣-٥٤-٥٥-٥٧-٦١-٦٩-٧٠-٧١-٧٢-٧٣-٧٥-٧٨-٧٩-٨٠-٩٢-١٢١-١٣١-١٣٢-١٤٧-١٥٠-١٥٣-١٥٤-١٥٦-١٦٥-١٦٨-١٧٠-١٧٢-١٧٣-١٧٤-١٧٥-١٧٧-١٨٩-١٩٨-٢١٥-٢١٦-٢١٧-٢٥٥-٢٧٨-٢٨٢-٢٨٤-٢٨٩-٢٩٠.
- أمير آخور (إمرة آخورية) : (٨٥)-١٠٤-٢٠٠-٢٦٤.
- أمير الأمراء : ٩.
- أمير جاندار : ٨٩-(١٥٥).
- أمير سلاح : ٩٩-١٩٢-٢٤٢-٢٤٤-٢٦٦.
- أمير مجلس : ١٨١-١٨٤.
- أهل الأمصار : ٣٠.
- أهل الفلح : ١٢-١٣.
- أهل الوبر : (٣٠).
- أهل اليسار : ١٣.

- ايلخانات (ايلخان) : (٢٣٠)-٢٣٢-٢٣٥-٢٣٩-٢٤٣-٢٦٢.

(ب)

- البرّاج : ٨٧.
- البريد : ٧-٣٩-٨١-٨٤-٨٥-٨٦-٨٧-٨٨-٨٩-٩٠-٩٨-١٣٧-٢٨٣.
- البَيْض : (١٣٥) .

(ت)

- التجريدة (التجاريد العسكرية) : ٩٨-١٢٠-١٢١-١٣٥-١٣٦-١٦٢-١٦٥-١٨٩-١٩٠.
- التشريف : ١٠١-١٥٨.
- التّقادُم : ١٣١.
- التقليد : ٤-٥٤-٥٦-٥٧-(٦٤)-١٦١-٣٠٠.
- التكية : ١٥٢.
- التوقيع : ٤.
- تُومان : ٢٤٢.

(ث)

- الثّغور : (١٩)-٩٠.

(ج)

- الجاشنكير : (١٥٥) .
- الجاليش السلطاني : ٢٣٧.
- جامكيّة : ٥٠-٦٥.
- أجناد (جند) الحلقة : (١٠)-١١.
- الجشّار : (٢٢٤) .
- الجُمداريّة : ١٦٧.
- الجوكندار : (١٥٤) .

(ح)

- الحاجب : ١٤٤.
- الحسبة : ٦.
- الأحلاف القبلية : و-٦٧.

(خ)

- الخازندار : ١٤٦-٢٦٨.
- الخاصكية (مماليك) : ٩.
- الخبز - الأخباز : ٥٧-(٦٣)-٦٦-٢٨٦.
- خَفَر البلاد : ٩٠.
- الخلافة : ٨٥-١٤٣-١٤٦-١٤٧-٢١٥-٢٦٧.
- الخلافة العباسية : ي-١٤٠-١٤١-١٤٧-٢١٥-٢٧٨-٢٨١.
- الخلعة : ١٦١-٢٥٧-٢٧٣.

(د)

- دَرْك البلاد : ي ب-٦٦-٧٣-٨٨-٢٢٧.
- الدوادار (الدوادارية) : ٨٩-٩٩-١٠٣-١٠٥-١٤٤-٢٠٠.
- الديوان : ي ب-١٥٥.
- ديوان الإنشاء المملوكي : ح-ي أ-ي ب-ي هـ-٦-٥٧-٨٠-١٣٥.
- ديوان الجيش : ٧.

- المحفّة : ١٠٤.
- المِحْمَل : (٩٩) .
- المَحْمِل : (٩٩)-١٠٠-١٠٦-١٠٧-١١٦.
- المرسوم : ي هـ-٥٥-(٦٤)-١٠١-١٣١-١٦١.
- المستوفي (مستوفي الجيش) : ٨-٦٢.
- مشَيْخة العرب : ك ج- ٣٧-٥٦-٥٨-١٢١-٢٨٢-٢٨٤.
- المصادرات : ٦٨.
- مُطلق شريف : ٦٠.
- المعلّم : (٩) -٢٠٠.
- المَناخ : ٨٩.
- المنشور : ٥٤-(٦٤)-١١٣.
- المهمنداريّة : ي ب-٤٠-(٥٦).
- الموالاة : ٦٧.

(ن)

- نائب القيبة : ٥.
- ناظر الجيش : ٧-١١٣.
- ناظر الخاص : ٥-٦.
- ناظر الغيبة : ٥.
- ناظر المال : ٥.
- نظر المظالم : ٧.
- نيابة و نائب السلطنة : ٤-٥-١٦٨-١٦٩-٢٥١.

(هـ)

- هجّان : ٨٦.

(و)

- الوِزارة : ٤-٥-٢٣٩.
- الوزير : ٦-١٤٤.

. . . .

رابعاً : فهـــرس المحتويـــات

• المقدمة.. أ - ك د

• تقويم المصادر والمراجع.................................
أولاً – المصادر العربية .... ز
ثانياً – المراجع العربية .... ك ج

المدخـــــل ١٤ - ٢

أولاً : نشأة المماليك ونظمهم ٢
ثانياً : فئات المجتمع المملوكي ١١

الفصـــــل الأول ١٥-٨٣

مجتمـــع أعـــراب بـــلاد الشـــام

• تمهيد ١٧

أولاً : جغرافية بلاد الشام ١٨
- تسمية بلاد الشام ١٨
- حدود بلاد الشام ١٩
- مظاهر السطح (التضاريس) ٢٠

ثانياً : التقسيم الإداري لبلاد الشام في عهد المماليك.............. ٢٣
- أولاً – نيابة دمشق ٢٤
- ثانياً – نيابة حلب ٢٦
- ثالثاً – نيابة حماة ٢٧
- رابعاً – نيابة طرابلس ٢٧
- خامساً – نيابة صفد ٢٧
- سادساً – نيابة الكرك ٢٨

ثالثاً : مدلول لفظة " عرب" ٢٩

رابعاً : القبائل العربية في بلاد الشام ٣٢

خامسًا : إمرة العرب ٤٢
- تاريخ إمرة العرب ٤٢
- مفهوم إمرة العرب ٥٥

سادسًا : المكاتبات السلطانية لأمراء العرب............... ٥٧
سابعاً : ألقاب أمراء العرب ٦١

ثامناً : الإقطاع المملوكي وأعراب الشام............... ٦٣

تاسعاً : العلاقات بين أعراب الشام وموقف السلطة المملوكية منها...... ٦٧
أ- الأحلاف القبلية ٦٧
ب- النزاع بين القبائل العربية وموقف السلطة المملوكية منه . ٦٩

• الخلاصة ٨٠

الفصـــل الثانـــي ٨٢ ـ ١٣٧

المهام التي أوكلها المماليك

لأعراب بلاد الشام

• تمهيد ٨٤

• أولاً : المحافظة على طرق المواصلات البرية :
(أ) طرق البريد ٨٤
(ب) طرق التجارة ٩٠
(جـ) طرق الحج :- ٩٨
أولاً - طرق الحجاج المسلمين إلى مكة والمدينة : ٩٨
– إعداد قافلة الحاج الشامي ٩٨
– طرق الحاج الشامي ١٠٥
– عودة قافلة الحاج الشامي ١٠٦
– الإجراءات المملوكية لحفظ طرق الحج ١٠٨
– محافظة أعراب الشام على طرق الحاج الشامي ١٠٩
– اعتراض أعراب الشام طرق الحج ١١٢
ثانياً - طرق الحجاج المسيحيين إلى فلسطين : ١٢١

- دور السلطة المملوكية في رعاية الحجاج المسيحيين ١٢٢
- موقف أعراب الشام من الحجاج المسيحيين ١٢٣

• مشاكل طرق الحجاج ١٢٥

• ثانياً - تأمين حاجة المماليك من الخيل والإبل والأغنام ١٢٦

• ثالثاً - المشاركة في الجيش المملوكي ١٣٤

• الخلاصة ١٣٧

الفصـــــل الثالـــــث ١٣٨ - ٢١٩

مشاركة أعراب الشام

فـــــي

سياسة المماليك الداخلية

• تمهيد.

• أولاً : دور أعراب الشام في إحياء الخلافة العباسية ١٤٠

• ثانياً : موقف أعراب الشام من حركات التمرد والعصيان المملوكية : ١٤٨

(أ) حركات التمرد والعصيان في عهد الدولة المملوكية الأولى (التركية) :

- موقف أعراب الشام من حركة سنقر الأشقر ١٤٨
- موقف أعراب الشام من حركة قراسنقر الجوكندار الجركسي المنصوري ١٥٤
- موقف أعراب الشام من عصيان يلبغا اليحياوي ١٦٥
- موقف أعراب الشام من عصيان بيبغا أُرُس ١٦٩

(ب) حركات التمرد والعصيان في عهد الدولة المملوكية الثانية (الجركسية) : ١٧٣

- حركة يلبغا الناصري ومنطاش ١٧٤
- دور أعراب الشام وتركمانها في ثورة يلبغا الناصري ١٧٧
- الصراع بين منطاش والناصري ١٨٢

- مكيدة منطاش لقتل برقوق في الكرك ١٨٤
- مشاركة أعراب الشام في عودة برقوق إلى الحكم ١٨٥
- استمرار الصراع بين برقوق ومنطاش ١٨٩
- موقف أعراب الشام من معركة حمص ١٩١
- خروج برقوق إلى بلاد الشام ١٩٤
- دور نعير بن حيّار في إنهاء ثورة منطاش ١٩٥

• موقف أعراب الشام من حركات التمرد والعصيان في عهد فرج بن برقوق : ١٩٧
١-موقف نعير بن حيّار من عصيان دمرداش المحمدي ١٩٨
٢-موقف أعراب الشام من حركة جكم ١٩٩
٣-موقف أعراب الشام من حركة شيخ المحمودي ونوروز الحافظي .. ٢٠٤
٤-موقف أعراب الشام من تمرد تغري برمش ٢٠٩

• ثالثاً : العلاقة بين أعراب الشام والتركمان ٢١١

• الخلاصة ٢١٥

الفصـــل الرابـــع ٢٢٠ - ٢٧٦

موقف أعراب الشام من الصراع

بيـــن

المماليك والقوى الخارجية

• تمهيد .

• أولاً : موقف أعراب الشام من الصراع بين المماليك والمغول : ٢٢٢
- بداية الاحتكاك بين المغول والمماليك ٢٢٢
- أعراب الشام في معركة عين جالوت ٢٢٥
- سياسة الظاهر بيبرس إزاء المغول ٢٢٧
- استعانة بيبرس بأعراب الشام ضد المغول ٢٢٩
- أسرة قلاوون وأعراب الشام في مواجهة المغول ٢٣٣
- مشاركة أعراب الشام في معركة حمص ٢٣٤
- المماليك وأعراب الشام في معركة وادي الخزندار ٢٤٢

- دور أعراب الشام في معركة شقحب (مرج الصفر) ٢٤٦
- موقف أعراب الشام من العلاقات المغولية - المملوكية بعد مـــوت غازان ٢٥٠
- موقف أعراب الشام من العلاقات المغولية - المملوكية في عـــهد دولة المماليك الجراكسة ٢٥٣

• ثانياً : موقف أعراب الشام من الصراع بين المماليك والصليبيين ٢٦٠

• ثالثاً : موقف أعراب الشام من العلاقات المملوكية - العثمانية ٢٦٣
- العلاقة بين قانصوه الغوري وسليم الأول ٢٦٦
- المواجهة في مرج دابق ٢٦٧

• الخلاصة ٢٧٥

الخاتمـــــة ٢٧٨ - ٢٨٦

• أثر العلاقات بوجهيها الإيجابي و السلبي بين أعراب الشام و المماليك..
• على الصعيد الداخلي ٢٨٢
(أ) أثر العلاقات الإيجابية ٢٨٢
(ب) أثر العلاقات السلبية ٢٨٤
• على الصعيد الخارجي ٢٨٥
(أ) في ظلّ العلاقات الإيجابية ٢٨٥
(ب) في ظلّ العلاقات السلبية ٢٨٥

• الملاحـــق ٢٨٨

• الجـــداول ٣٠٥

• شـــجر النســب ٣١٣

• الخرائـــط ٣٢٣

• المصـــادر والمراجـــع ٣٣١

الفهـــارس الفنيـــة ٣٥١-٤٠٦

أولاً : فهرس الأعلام : ٣٥٣

(أ) الأشـــخاص.................... ٣٥٣

(ب) القبائل والجماعات.................. ٣٧٧

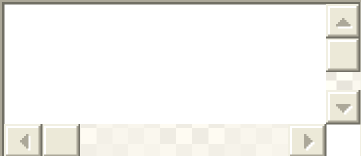
(جـ) الأماكـــن.................... ٣٨٣

ثانياً : فهرس الآيات القرآنية ٣٩٦

ثالثاً : فهرس المفاهيم والمصطلحات ٣٩٧

رابعاً : فهرس المحتويات...................... ٤٠٤-٤٠٦

****



AddDelete